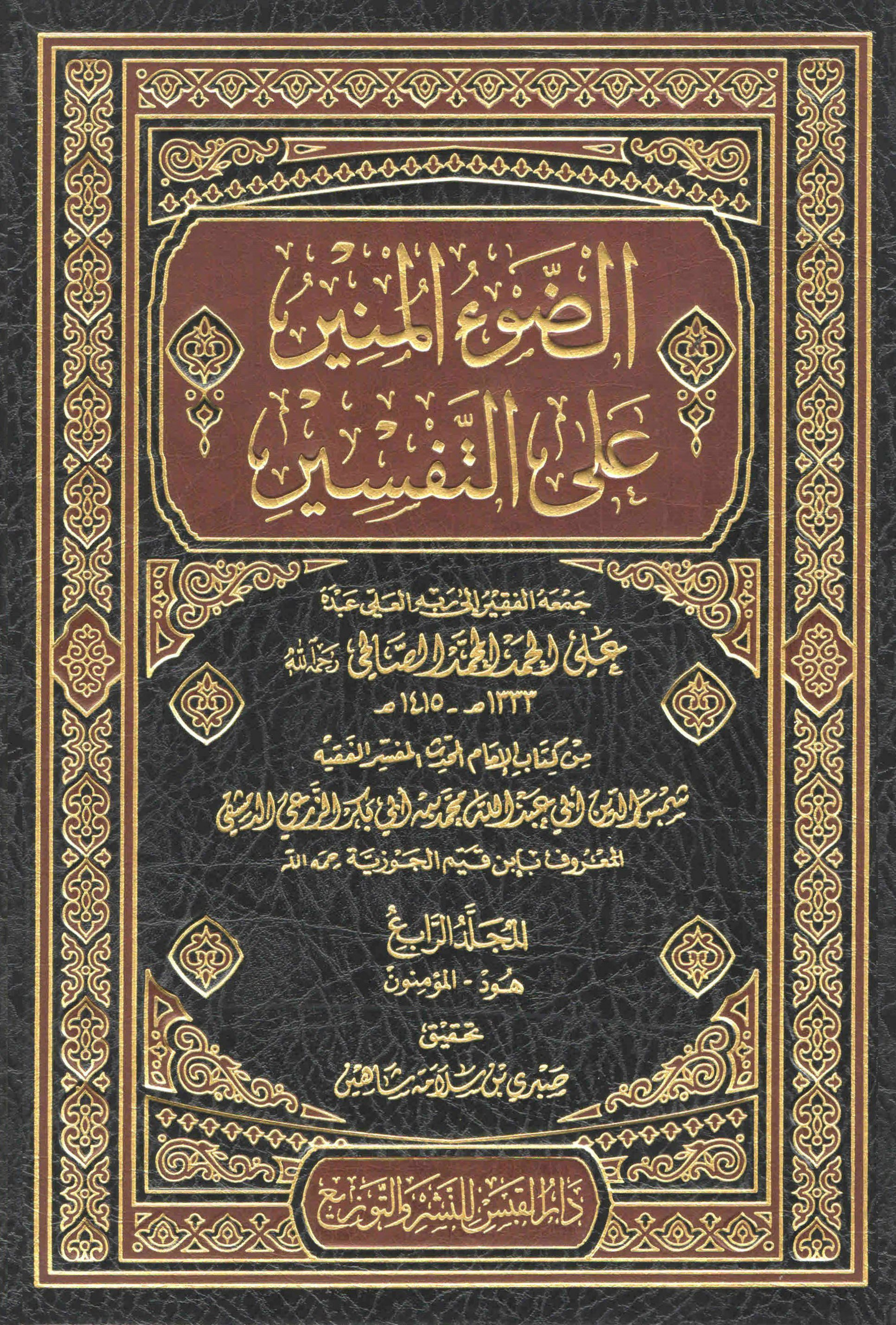
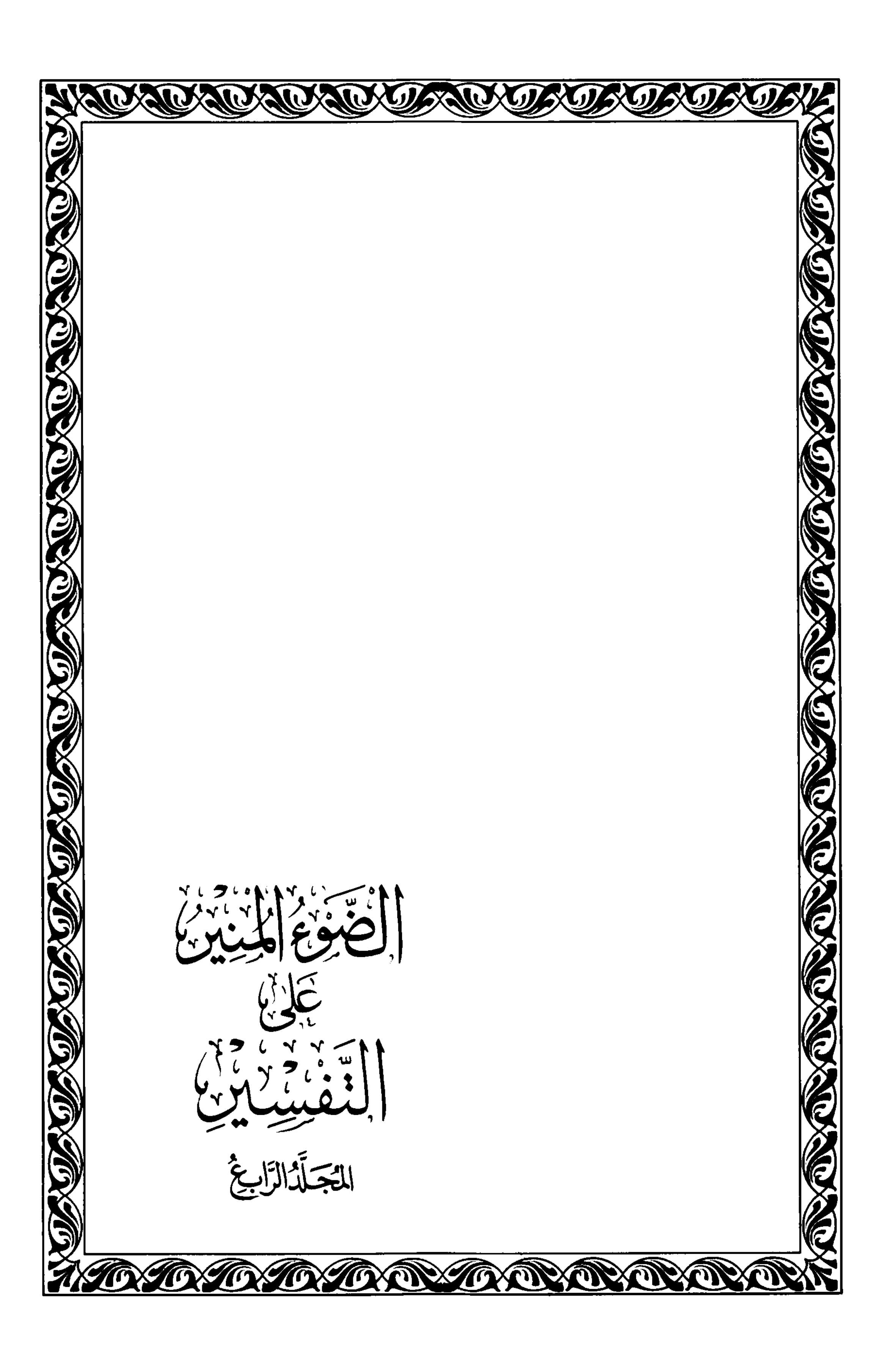
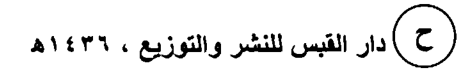

الضوء المنير على التفسير
جمعه الفقير إلى ربه العلي عبده
علي الحمد المحمد الصالحي رحمه الله
١٣٣٣هـ - ١٤١٥هـ
من كتاب الإمام المحدث المفسر الفقيه
شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي
المعروف بابن قيم الجوزية رحمه الله
المجلد الرابع
هود - المؤمنون
تحقيق
صبري بن سلامة شاهين
دار القبس للنشر والتوزيع



الضوء المنير على التفسير

المجلد الرابع


ح دار القبس للنشر والتوزيع ، ١٤٣٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصالحي، علي الحمد

الضوء المنير على التفسير./علي الحمد الصالحي- ط٢- الرياض، ١٤٣٦هـ

ردمك ٣-٠-٩٠٦١٤-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

١-٤-٩٠٦١٤-٦٠٣-٩٧٨ (ج٤)

١-القرآن - تفسير أ- شاهين، صبري سلامة (محقق) ب- العنوان

ديوي ٢٢٧،٣ رقم الإيداع ١٤٣٦/١٥

طبعة جديدة مصححة ومحققة

الطبعة الثانية

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

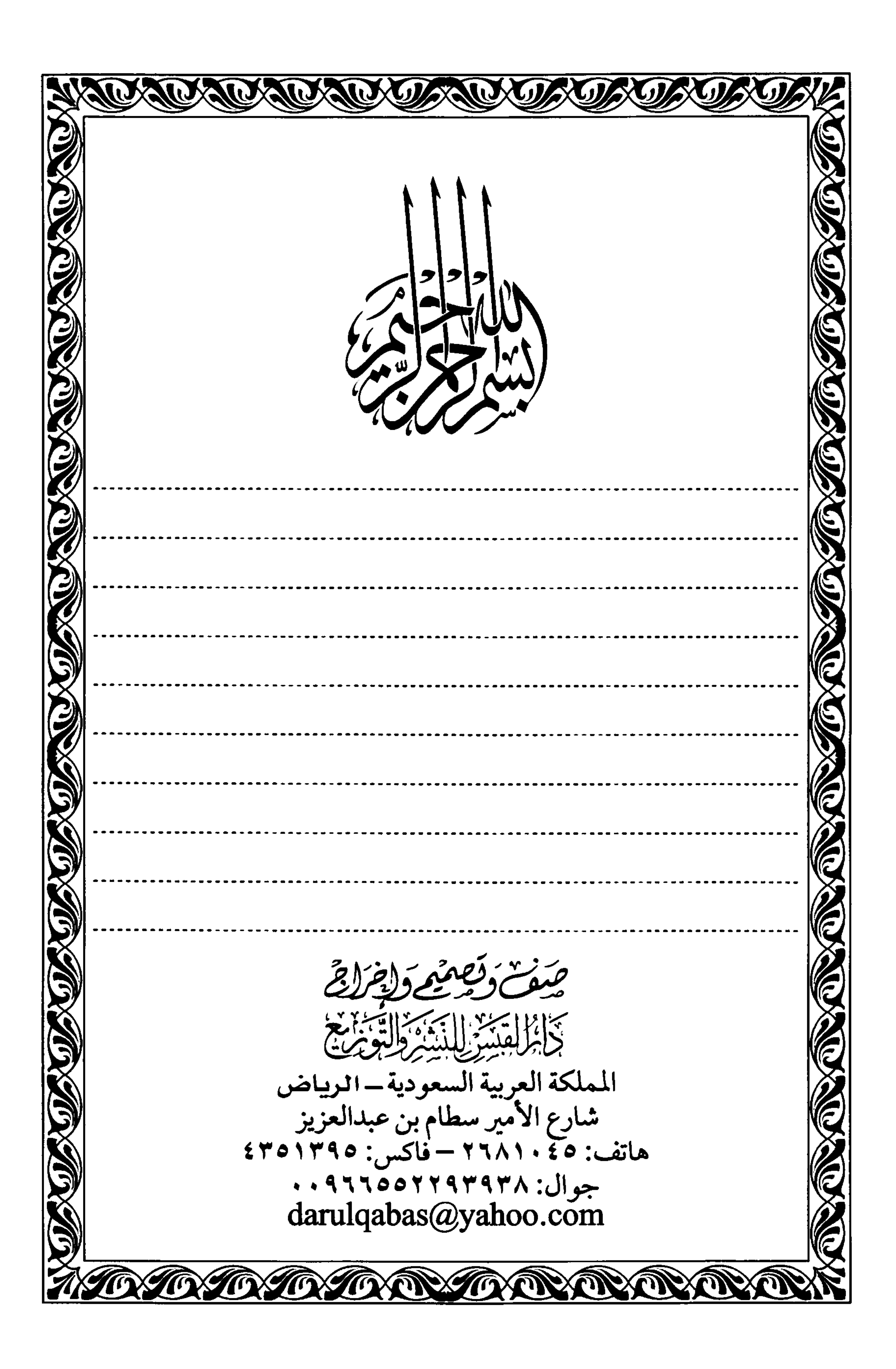
الموقع الرسمي للمؤلف: www.assalehi.com - البريد الإلكتروني: assalehi@hotmail.com

هاتف: ٩٦٦١١٤١١٨٨٩٨+ ، ٩٦٦١١٤١١٨٨٧٤+ ؛ فاكس: ٩٦٦١١٤١٣١٤٧٤+

جوال: ٩٦٦٥٠٥٤٦٥١٩٣+

العنوان البريدي: المملكة العربية السعودية ص.ب: ٢١١٧٠ الرياض:١١٤٧٥

إنَّ الوَفاء وبذل المعروف من العمل الصَّالح، وإنَّ الله لا يُضيع أجر من أحسن عملاً. أخي الحبيب، وإن كان لديك معلومات أو وثائق عن والدنا: الشيخ علي الحمد المحمَّد الصَّالحي رحمه الله، نرجو التكرم والتفضّل بالاتصال علينا على العنوان أعلاه. نسأل الله للجميع التَّوفيق والسَّداد؛ لما يحبُّه ويرضاه من الأقوال والأعمال، وأن يجعلَ لنا ولكم لسانَ صدق في الآخرين، والحمد لله ربِّ العالمين.



صف وتصميم وإخراج
دار القبس للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية – الرياض
شارع الأمير سطام بن عبدالعزيز
هاتف: ٢٦٨١٠٤٥ – فاكس: ٤٣٥١٣٩٥
جوال: ٠٠٩٦٦٥٥٢٢٩٣٩٣٨
darulqabas@yahoo.com



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[(١)] قوله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ [هود: ٣] ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة، وحصلوا على الحياة الطيبة في الدارين، فإن طيب النفس وسرور القلب وفرحه، ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه، ونوره وسعته وعافيته، من ترك الشهوات المحرمة والشبهات الباطلة، هو النعيم على الحقيقة، ولا نسبة لنعيم البدن إليه.

فقد قال بعض من ذاق هذه اللذة: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف[(٢)]. وقال آخر: إنه يمر بالقلب أوقات أقول فيها إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب[(٣)]. وقال الآخر: إن في الدنيا جنة هي في الدنيا كالجنة في الآخرة، من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة[(٤)].

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذه الجنة بقوله: «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا**» قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «**حلق الذكر**»[(٥)].

---

(١) ١٦٣ الجواب الكافي.

(٢) الأثر أخرجه البيهقي من قول إبراهيم بن آدم في الزهد الكبير (رقم ٨٠) وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٣٧٠-٣٧١) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٦/ ٣٠٣، ٣٦٦) وانظر: الوابل الصيب (ص ٧٠) وشرح حديث لبيك (ص ٦١) وصفة الصفوة (٤/ ١٥٤) وفيض القدير (١/ ٤٤٣).

(٣) انظر: فيض القدير (١/ ٤٤٣).

(٤) نسب المصنف رحمه الله هذا الكلام إلى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بقوله: وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: وذكره. انظر: الوابل الصيب (ص٦٩) بينما ذكره المناوي في فيض القدير (١/ ٤٤٣) ونسبه إلى بعض العارفين.

(٥) أخرجه الترمذي (رقم ٣٥١٠) وأبو يعلى (٦/ ١٥٥ رقم ٣٤٣٢) وأحمد (٣/ ١٥٠) والبيهقي في الشعب (١/ ٣٩٨ رقم ٥٢٩) والطبراني في الدعاء (رقم ١٨٩٠) وقال الترمذي: هذا حديث حسن =

وقال: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»[(١)].

ولا تظن أن قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤] يختص بيوم المعاد فقط؛ بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة، وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة، وأي لذة ونعيم في الدنيا أطيب من بر القلب وسلامة الصدر، ومعرفة الرب تعالى ومحبته والعمل على موافقته؟ وهل عيش في الحقيقة إلا عيش القلب السليم؟ وقد أثنى الله تعالى على خليله ﷺ بسلامة القلب فقال: ﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات: ٨٣-٨٤] وقال حاكيًا عنه أنه قال: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

***

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾.

...[(٢)]قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢] وقال: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧] وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود: ٧].

فأخبر سبحانه عن خلق العالم والموت والحياة وتزيين الأرض بما عليها؛ أنه

=

غريب. وانظر: فتح الباري (١١/ ٢١٠).

(١) أخرجه البخاري (رقم ١١٩٥، ١١٩٦) ومسلم (رقم ١٣٩٠، ١٣٩١) وانظر: فتح الباري (٤/ ١٠٠) وشرح النووي (٩/ ١٦١).

(٢) ٧٠ روضة المحبين.

للابتلاء والامتحان ليختبر خلقه أيهم أحسن عملًا، فيكون عمله موافقًا لمحابِّ الرب تعالىٰ، فيوافق الغاية التي خُلِق هو لها وخُلِق لأجلها العالم، وهي عبوديته المتضمنة لمحبته وطاعته، وهي العمل الأحسنُ وهو مواقع محبته ورضاه، وقدَّر سبحانه مقادير تخالفها بحكمته في تقديرها، وامتحن خلقه بين أمره وقدره، ليبلوهم أيهم أحسن عملًا.

[1]قال: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧] وقال: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢]. وقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود: ٧].

فأخبر سبحانه أنه خلق العالم العلوي والسفلي، وقدَّر أجل الخلق، وخلق ما علىٰ الأرض للابتلاء والاختبار، وهذا الابتلاء إنما هو ابتلاء صبر العباد وشكرهم في الخير والشر والسراء والضراء، فالابتلاء من النعم من الغنىٰ والعافية والجاه والقدرة وتأتي الأسباب، أعظم الابتلائين والصبر علىٰ طاعة الله أشق الصبرين، كما قال الصحابة ﷺ: ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر[2]. والنعمة بالفقر والمرض وقبض الدنيا وأسبابها وأذىٰ الخلق قد يكون أعظم النعمتين. وفرض الشكر عليها أوجب من الشكر علىٰ أضدادها، فالرب تعالىٰ يبتلي بنعمه، وينعم بابتلائه، غير أن الصبر والشكر حالتان لازمتان للعبد في أمر الرب ونهيه وقضائه وقدره، لا يستغنىٰ عنهما طرفة عين، والسؤال عن أيهما أفضل كالسؤال عن الحس والحركة أيهما أفضل، وعن الطعام والشراب أيهما أفضل، وعن خوف العبد ورجائه أيهما أفضل،

---

(١) ١٦٠ عدة الصابرين.

(٢) أخرجه عبد الرزاق (١١/ ٤٥٧ رقم ٢٠٩٩٧) ونسبه إلىٰ عبد الرحمن بن عوف ﷺ. وهناد في الزهد (٢/ ٣٩٧-٣٩٨ رقم ٧٧٣) وانظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٨٢) ولسان العرب (٤/ ٤٨٣).

فالمأمور لا يؤدى إلا بصبر وشكر، والمحظور لا يترك إلا بصبر وشكر، وأما المقدور الذي يقدر على العبد من المصائب فمتى صبر عليه اندرج شكره في صبره، كما يندرج صبر الشاكر في شكره.

ومما يوضح هذا أن الله سبحانه امتحن العبد بنفسه وهواه، وأوجب عليه جهادهما في الله، فهو في كل وقت في مجاهدة نفسه حتى تأتي بالشكر المأمور به، ويصبر عن الهوى المنهي عن طاعته فلا ينفك العبد عنهما: غنيا كان أو فقيرا، معافى أو مبتلى، وهذه هي مسألة الغني الشاكر والفقير الصابر، أيهما أفضل؟ وللناس فيها ثلاثة أقوال، وهي التي حكاها أبو الفرج ابن الجوزي وغيره في عموم الصبر والشكر، أيهما أفضل؟ وقد احتجت كل فرقة بحجج وأدلة على قولها، والتحقيق أن يقال: أفضلهما أتقاهما لله تعالى، فإن فُرِضَ استواؤهما في التقوى استويا في الفضل، فإن الله سبحانه لم يفضل بالفقر والغنى، كما لم يفضل بالعافية والبلاء، وإنما فضل بالتقوى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقد قال ﷺ: «**لا فضل لعربي على عجمي، ولا فضل لعجمي على عربي، إلا بالتقوى، الناس من آدم، وآدم من تراب**»[١] والتقوى مبنية على أصلين: الصبر والشكر، وكل من الغني والفقير لابد له منهما، فمن كان صبره وشكره أتم كان أفضل.

[٢]وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧] وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧]. فأخبر في هذه الآية أنه خلق السموات والأرض، ليبتلي عباده بأمره

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤١١) وابن المبارك (رقم ٢٣٩) والبيهقي في الشعب (٤/ ٢٨٩ رقم ٥١٣٧) وأبو الشيخ في التوبيخ والتنبيه (رقم ٢٥٠) وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ٢٦٦): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. وانظر: فتح الباري (٦/ ٥٢٧) ونيل الأوطار (٥/ ١٦٤). وصححه الألباني في صحيح الترغيب (رقم ٢٩٦٣).

(٢) ٣٥ شفاء العليل.

ونهيه، وهذا من الحق الذي خلق به خلقه، وأخبر في الآية التي قبلها: أنه خلق الموت والحياة، ليبتليهم أيضًا، فأحياهم ليبتليهم بأمره ونهيه، وقدر عليهم الموت الذي ينالوا به عاقبة ذلك الابتلاء من الثواب والعقاب، وأخبر في الآية الأولى أنه زين لهم ما على الأرض ليبتليهم به أيهم يؤثر ما عنده، وابتلى بعضهم ببعض، وابتلاهم بالنعم والمصائب، فأظهر هذا الابتلاء علمه السابق فيهم، موجودًا عيانًا بعد أن كان غيبا في علمه، فابتلى أبوي الإنس والجن كل منهما بالآخر، فأظهر ابتلاء آدم ما علمه منه، وأظهر ابتلاء إبليس ما علمه منه، فلهذا قال للملائكة: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، واستمر هذا الابتلاء في الذرية إلى يوم القيامة، فابتلى الأنبياء بأممهم، وابتلى أممهم بهم، وقال لعبده ورسوله وخليله: إني مبتليك ومبتل بك[١].

وقال: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] وقال: ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً﴾ [الفرقان: ٢٠].

وفي الحديث الصحيح: أن ثلاثة أراد الله أن يبتليهم: أبرص وأقرع وأعمى[٢]. فأظهر الابتلاء حقائقهم التي كانت في علمه قبل أن يخلقهم، فأما الأعمى فاعترف بإنعام الله عليه، وأنه كان أعمى فقيرًا، فأعطاه الله البصر والغنى، وبذل للسائل ما طلبه: شكرًا لله. وأما الأقرع والأبرص فكلاهما جحدا ما كان عليه قبل ذلك من سوء الحال والفقر، وقال الغنى: إنما أوتيته كابرًا عن كابر.

وهذا حال أكثر الناس لا يعترف بما كان عليه أولا من نقص أو جهل وفقر وذنوب، وأن الله سبحانه نقله من ذلك إلى ضد ما كان عليه، وأنعم بذلك عليه، ولهذا

---

(١) أخرج مسلم من حديث عياض بن حمار المجاشعي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم...» وفيه: «وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب. وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك...» أخرجه مسلم (رقم ٢٨٦٥) وانظر: شرح النووي (١٧/ ١٩٨).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٦٤) ومسلم (رقم ٢٩٦٤) وانظر: فتح الباري (٦/ ٥٠٢) وشرح النووي (١٨/ ٩٩).

ينبه سبحانه الإنسان على مبدأ خلقه الضعيف من الماء المهين، ثم نقله في أطباق خلقه وأطواره من حال إلى حال، حتى جعله بشرا سويا، يسمع ويبصر، ويقول وينطق، ويبطش ويعلم، فنسي مبدأه وأوله، وكيف كان، ولم يعترف بنعم ربه عليه، كما قال تعالى: ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾[المعارج: ٣٨-٣٩].

وأنت إذا تأملت ارتباط إحدى الجملتين بالأخرى وجدت تحتها كنزا عظيما من كنوز المعرفة والعلم، فأشار سبحانه بمبدأ خلقه مما يعلمون من النطفة وما بعدها إلى موضع الحجة والآية الدالة على وجوده ووحدانيته وكماله وتفرده بالربوبية والإلهية، وأنه لا يحسن به مع ذلك أن يتركهم سدًى، لا يرسل إليهم رسولا، ولا ينزل عليهم كتابا، وأنه لا يعجز مع ذلك أن يخلقهم بعد ما أماتهم خلقا جديدًا، ويبعثهم إلى دار يوفيهم فيها أعمالهم من الخير والشر، فكيف يطمعون في دخول الجنة وهم يَكْذِبون ويُكَذِّبون رسلي، ويعدلون بي خلقي، وهم يعلمون من أي شيء خلقتهم.

ويشبه هذا قوله: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ [الواقعة: ٥٧]، وهم كانوا مصدقين بأنه خالقهم، ولكن احتج عليهم بخلقه لهم على توحيده ومعرفته وصدق رسله، فدعاهم منهم ومن خلقه إلى الإقرار بأسمائه وصفاته وتوحيده وصدق رسله والإيمان بالمعاد.

***

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

[1]سبب الخذلان عدم صلاحية المحل وأهليته وقبوله للنعمة، بحيث لو وافته النعم لقال: هذا لي، وإنما أوتيته لأني أهله ومستحقه. كما قال تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ

(١) ٢٠٥ الفوائد.

أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ ﴾ [القصص: ٧٨]. أي على علم علمه الله عندي، أستحق به ذلك، وأستوجبه، وأستأهله: قال الفراء أي على فضل عندي، إني كنت أهله ومستحقًا له إذ أعطيته. وقال مقاتل: يقول: على خير علمه الله عندي. وذكر عبد الله بن الحارث بن نوفل سليمان بن داود، فيما أوتي من الملك، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ ﴾ [النمل: ٤٠]، ولم يقل: هذا من كرامتي، ثم ذكر قارون وقوله: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ ﴾ [القصص: ٧٨]، يعني أن سليمان رأى ما أوتيته من فضل الله عليه ومنته، وأنه ابتلى به شكره. وقارون رأى ذلك من نفسه واستحقاقه.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي ﴾ [فصلت: ٥٠]، أي: أنا أهله وحقيق به، فاختصاصي به كاختصاص المالك بملكه، والمؤمن يرى ذلك ملكًا لربه وفضلًا منه، منّ به على عبده من غير استحقاق منه، بل صدقة تصدق بها على عبده، وله أن لا يتصدق بها، فلو منعه إياها لم يكن قد منعه شيئا هو له يستحقه عليه، فإذا لم يشهد ذلك رأى فيه أهلًا ومستحقًا، فأعجبته نفسه وطغت بالنعمة وعلت بها واستطالت على غيرها، فكان حظها منها الفرح والفخر، كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ۝٩ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ﴾ [هود: ٩-١٠].

فذمه باليأس والكفر عند الامتحان بالبلاء وبالفرح والفخر عند الابتلاء بالنعماء، واستبدل بحمد الله وشكره والثناء عليه، إذ كشف عنه البلاء ـ قوله: ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ـ ولو أنه قال: أذهب الله السيئات عني برحمته ومنِّه، لما ذم على ذلك، بل كان محمودًا عليه، ولكنه غفل عن المنعم بكشفها، ونسب الذهاب إليها وفرح وافتخر. فإذا علم الله سبحانه هذا من قلب عبد، فذلك من أعظم أسباب خذلانه وتخليه عنه، فإن محله لا تناسبه النعمة المطلقة التامة، كما قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ۝٢٢ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢-٢٣]، فأخبر سبحانه أن محلهم غير

قابل لنعمته، ومع عدم القبول ففيهم مانع آخر، يمنع وصولها إليهم، وهو توليهم وإعراضهم إذا عرفوها وتحققوها.

ومما ينبغي أن يعلم أن أسباب الخذلان من بقاء النفس على ما خلقت عليه في الأصل وإهمالها وتخليتها، فأسباب الخذلان منها وفيها، وأسباب التوفيق من جعل الله سبحانه لها قابلة للنعمة، فأسباب التوفيق منه ومن فضله، وهو الخالق لهذه وهذه، كما خلق أجزاء الأرض، هذه قابلة للنبات، وهذه غير قابلة له، وخلق الشجر هذه تقبل الثمرة، وهذه لا تقبلها، وخلق النحلة قابلة لأن يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه، والزنبور غير قابل لذلك، وخلق الأرواح الطيبة قابلة لذكره وشكره وحجته وإجلاله وتعظيمه وتوحيده ونصيحة عباده، وخلق الأرواح الخبيثة غير قابلة لذلك، بل لضده، وهو الحكيم العليم.

***

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾.

[(١)]الصبر نوعان: نوع على المقدور، كالمصائب، ونوع على المشروع، وهذا النوع أيضًا نوعان: صبر على الأوامر، وصبر عن النواهي، فذاك صبر على الإرادة والفعل وهذا صبر عن الإرادة والفعل، فأما النوع الأول من الصبر فمشترك بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، لا يثاب عليه لمجرده إن لم يقترن به إيمان واختيار، قال النبي ﷺ في حق ابنته «مرها فلتصبر ولتحتسب»[(٢)] وقال تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١١] وقال تعالى: ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ ﴾ [آل عمران: ١٢٥] وقال: ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ ﴾ [آل عمران: ١٢٠] فالصبر بدون الإيمان والتقوى بمنزلة قوة البدن الخالي عن الإيمان والتقوى وعلى حسب

(١) ٥٥ التبيان.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٢٨٤) ومسلم (رقم ٩٢٣) وانظر: فتح الباري (٣/ ١٥٧).

اليقين بالمشروع يكون الصبر على المقدور.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

[1]ليس المراد مجرد الإخبار بأنه أنزله ـ وهو معلوم له، كما يعلم سائر الأشياء، فإن كل شيء معلوم له من حق وباطل ـ وإنما المعنى: أنزله مشتملًا على علمه، فنزوله مشتملًا على علمه: هو آية كونه من عنده، وأنه حق وصدق، ونظير هذا قوله: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الفرقان: ٦]. ذكر ذلك سبحانه تكذيبًا وردًّا على من قال: ﴿ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ [الفرقان: ٤].

***

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

[2]قد أشكل فهم هذه الآية على كثير من الناس، حيث فهموا منها أن من كان له إرادة في الدنيا وزينتها فله هذا الوعيد. ثم اختلفوا في معناها فقالت طائفة منهم ابن عباس: من كان يريد تعجيل الدنيا فلا يؤمن بالبعث ولا بالثواب ولا بالعقاب.

قالوا: والآية في الكفار خاصة على قول ابن عباس.

وقال قتادة: من كانت الدنيا همه وسدمه ونيته وطلبه جازاه الله في الدنيا بحسناته، ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يجازى بها، وأما المؤمن فيجزى في الدنيا

---

(١) ٤٧١ مدارج جـ٣.

(٢) ١٧٣ عدة الصابرين.

بحسناته ويثاب عليها في الآخرة[١].

قال هؤلاء: فالآية في الكفار بدليل قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ قالوا: والمؤمن يريد الدنيا والآخرة. فأما من كانت إرادته مقصورة على الدنيا فليس بمؤمن. وقال ابن عباس رضي الله عنهما، في رواية أبي صالح عنه: نزلت في أهل القبلة.

قال مجاهد: هم أهل الرياء وقال الضحاك: من عمل صالحا من أهل الإيمان من غير تقوى عجّل له ثواب عمله في الدنيا. واختار الفراء هذا القول، وقال: من أراد بعمله من أهل القبلة ثواب الدنيا عجّل له ثوابه ولم يبخس. وهذا القول أرجح، ومعنى الآية على هذا: من كان يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها، وهذا لا يكون مؤمنًا البتة، فإن العاصي والفاسق ولو بالغا في المعصية والفسق فإيمانهما يحملهما على أن يعملا أعمال البر لله، فيريدان بأعمال البر وجه الله، وإن عملا بمعصيته. فأما من لم يرد بعمله وجه الله، وإنما أراد به الدنيا وزينتها، فهذا لا يدخل في دائرة أهل الإيمان.

وهذا هو الذي فهمه معاوية من الآية، واستشهد بها على حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم في صحيحه في الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة: القارئ الذي قرأ القرآن، ليقال: فلان قارئ. والمتصدق الذي أنفق أمواله، ليقال: فلان جواد. والغازي الذي قتل في الجهاد، ليقال: هو جريء[٢]. وكما أن خيار خلق الله هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون، فشرار الخلق من تشبه بهم وليس منهم، فمن تشبه بأهل الصدق والإخلاص وهو مراء: كمن تشبه بالأنبياء وهو كاذب.

وقال ابن أبي الدنيا حدثني محمد بن إدريس قال أخبرني عبد الحميد بن صالح حدثنا قطن بن الحباب عن عبد الوارث عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ١٢) (١٥/ ٥٩).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٩٠٥).

ﷺ: «إذا كان يوم القيامة صارت أمتي ثلاث فرق: فرقة يعبدون الله ﷻ للدنيا، وفرقة يعبدون رياء وسمعة، وفرقة يعبدونه لوجهه ولداره، فيقول للذين كانوا يعبدونه للدنيا: بعزتي وجلالي ومكاني ما أردتم بعبادتي؟ فيقولون بعزتك وجلالك ومكانك الدنيا. فيقول: إني لم أقبل من ذلك شيئًا اذهبوا بهم إلى النار. ويقول للذين كانوا يعبدون رياء وسمعة: بعزتي وجلالي ومكاني ما أردتم بعبادتي؟ فيقولون: بعزتك وجلالك ومكانك رياء وسمعة. فيقول: إني لم أقبل من ذلك شيئًا، اذهبوا بهم إلى النار، ويقول للذين كانوا يعبدونه لوجهه وداره: بعزتي وجلالي ومكاني ما أردتم بعبادتي؟ فيقولون: بعزتك وجلالك وجهك ودارك. فيقول: صدقتم، اذهبوا بهم إلى الجنة»[(١)]
هذا حديث غني عن الإسناد، والقرآن والسنة شاهدان بصدقه.

ويدل على صحة هذا القول في الآية قوله تعالى: ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [هود: ١٥] وذلك على أنها في قوم لهم أعمال لم يريدوا بها وجه الله، وإنما أرادوا بها الدنيا، ولها عملوا، فوفاهم الله ثواب أعمالهم فيها من غير بخس، وأفضوا إلى الآخرة بغير عمل يستحقون عليه الثواب، وهذا لا يقع ممن يؤمن بالآخرة، إلا كما يقع منه كبائر الأعمال وقوعًا عارضًا، يتوب منه ويراجع التوحيد.

وقال ابن الأنباري: فعلى هذا القول المعنى في قوم من أهل الإسلام، يعملون العمل الحسن، لتستقيم به دنياهم غير متفكرين في الآخرة، وما ينقلبون إليه، فهؤلاء يجعل لهم جزاء حسناتهم في الدنيا، فإذا جاءت الآخرة كان جزاؤهم عليها النار إذا لم يريدوا بها وجه الله، ولم يقصدوا التماس ثوابه وأجره.

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٥/ ٣٢٦ - ٣٢٧رقم ٦٨٠٨) والطبراني في الأوسط (٥/ ٢٠٩ رقم ٥١٠٥) وقال المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٣٧ رقم ٥٧): رواه الطبراني في الأوسط من رواية عبيد بن إسحاق العطار وبقية رواته ثقات. وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٥٠): رواه الطبراني في الأوسط وفيه عبيد بن إسحاق العطار، وقد ضعفه الجمهور، ورضيه أبو حاتم الرازي، ووثقه ابن حبان، وبقية رجاله ثقات. وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (رقم ٥١٥٦) وضعيف الترغيب (رقم ٢٥).

ثم أورد صاحب هذا القول على أنفسهم سؤالًا، قالوا: فإن قيل: الآية الثانية على هذا القول توجب تخليد المؤمن المريد بعمله الدنيا في النار. وأجابوا عنه بأن ظاهر الآية يدل على أن من راءى بعمله ولم يلتمس به ثواب الآخرة بل كانت نيته الدنيا، فان الله يبطل إيمانه عند الموافاة، فلا يوافي ربه بالإيمان.

قالوا: ويدل عليه قوله: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦] وهذا يتناول أصل الإيمان وفروعه، وأجابت فرقة أخرى بأن الآية لا تقتضي الخلود الأبدي في النار، وإنما تقتضي أن الذي يستحقونه في الآخرة النار وأنهم ليس لهم عمل صالح يرجون به النجاة، فإذا كان مع أحدهم عمود التوحيد، فإنه يخرج به من النار مع من يخرج من أصحاب الكبائر الموحدين، وهذا هو جواب ابن الأنباري وغيره، والآية بحمد الله لا إشكال فيها، والله سبحانه ذكر جزاء من يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها، وهو النار، وأخبر بحبوط عمله وبطلانه، فإذا أحبط ما ينجو به وبطل لم يبق معه ما ينجيه، فإن كان معه إيمان لم يرد به الدنيا وزينتها، بل أراد الله به والدار الآخرة لم يدخل هذا الإيمان في العمل الذي حبط وبطل، وأنجاه إيمانه من الخلود في النار، وإن دخلها بحبوط عمله الذي به النجاة المطلقة. والإيمان إيمانان: إيمان يمنع من دخول النار، وهو الإيمان الباعث على أن تكون الأعمال لله، يبتغي بها وجهه وثوابه، وإيمان يمنع الخلود في النار، وإن كان مع المرائي شيء منه، وإلا كان من أهل الخلود، فالآية لها حكم نظائرها من آيات الوعيد، والله الموفق.

وذلك قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠] ومنه قوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨-١٩].

فهذه ثلاثة مواضع من القرآن، يشبه بعضها بعضًا، ويصدق بعضها بعضًا، وتجتمع

على معنى واحد: وهو أن من كانت الدنيا مراده ولها يعمل في غاية سعيه، لم يكن له في الآخرة نصيب. ومن كانت الآخرة مراده ولها عمل وهي غاية سعيه؛ فهي له. بقي أن يقال: فما حكم من يريد الدنيا والآخرة؟ فإنه داخل تحت حكم الإرادتين، فبأيهما يلحق.

قيل: من ها هنا نشأ الإشكال، وظن من ظن من المفسرين: أن الآية في حق الكافر، فإنه هو الذي يريد الدنيا دون الآخرة، وهذا غير لازم طردا ولا عكسا، فإن بعض الكفار قد يريد الآخرة، وبعض المسلمين قد لا يكون مراده إلا الدنيا، والله تعالى قد علق السعادة بإرادة الآخرة، والشقاوة بإرادة الدنيا، فإذا تجردت الإرادتان تجرد موجبهما ومقتضاهما، وإن اجتمعتا فحكم اجتماعهما حكم اجتماع البر والفجور والطاعة والمعصية والإيمان والشرك في العبد وقد قال تعالى لخير الخلق بعد الرسل: ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢] وهذا خطاب للذين شهدوا معه الوقعة ولم يكن فيهم منافق، ولهذا قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «ما شعرت أن أحدًا من أصحاب رسول الله يريد الدنيا، حتى كان يوم أحد ونزلت هذه الآية»[1]. والذين أريدوا في هذه الآية هم الذين أخلوا مركزهم الذي أمرهم رسول الله ﷺ بحفظه، وهم من خيار المسلمين، ولكن هذه إرادة عارضة حملتهم على ترك المركز والإقبال على كسب الغنائم، بخلاف من كان مراده بعمله الدنيا وعاجلها، فهذه الإرادة لون، وإرادة هؤلاء لون.

وهاهنا أمر يجب التنبيه له، وهو أنه لا يمكن إرادة الدنيا وعاجلها بأعمال البر دون الآخرة مع الإيمان بالله ورسوله ولقائه أبدًا، فإن الإيمان بالله والدار الآخرة يستلزم إرادة العبد لرحمة الله والدار الآخرة بأعماله، فحيث كان مراده بها الدنيا فهذا لا يجامع الإيمان أبدًا، وإن جامع الإقرار والعلم فالإيمان وراء ذلك، والإقرار والمعرفة حاصلان لمن شهد الله سبحانه له بالكفر مع هذه المعرفة: كفرعون وثمود، واليهود

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٤/ ١٣٠) وانظر: الدر المنثور (٢/ ٣٤٨).

الذين شاهدوا رسول الله ﷺ وعرفوه كما عرفوا أبناءهم، وهم من أكفر الخلق بإرادة الدنيا وعاجلها بالأعمال، قد تجامع هذه المعرفة والعلم، ولكن الإيمان الذي هو وراء ذلك، لابد أن يريد صاحبه بأعماله الله والدار الآخرة، والله المستعان.

...[1]قالوا: وإنما كان حب الدنيا رأس الخطايا ومفسدًا للدين من وجوه:

أحدها: أن حبها يقتضي تعظيمها وهي حقيرة عند الله، ومن أكبر الذنوب تعظيم ما حقر الله.

وثانيها: أن الله لعنها ومقتها وأبغضها إلا ما كان له فيها، ومن أحب ما لعنه الله ومقته وأبغضه، فقد تعرض للفتنة ومقته وغضبه.

وثالثها: أنه إذا أحبها صيرها غايته وتوسل إليها بالأعمال التي جعلها الله وسائل إليه وإلى الدار الآخرة، فعكس الأمر وقلب الحكمة، فانتكس قلبه، وانعكس سيره إلى وراء.

فهاهنا أمران: أحدهما: جعل الوسيلة غاية، والثاني: التوسل بأعمال الآخرة إلى الدنيا، وهذا شر معكوس من كل وجه، وقلب منكوس غاية الانتكاس، وهذا هو الذي انطبق عليه حذو القُذة بالقذة قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[هود: ١٥، ١٦]. وقوله تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾[الإسراء: ١٨]. وقوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾[الشورى: ٢٠].

فهذه ثلاث آيات يشبه بعضها بعضًا، وتدل على معنى واحد، وهو أن من أراد بعمله الدنيا وزينتها دون الله والدار الآخرة فحظه ما أراد، وهو نصيبه ليس له نصيب

---

(١) ٢٤٠ عدة الصابرين.

غيره، والأحاديث عن رسول الله ﷺ مطابقة لذلك مفسرة له، كحديث أبي هريرة ﷺ في الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار: الغازي، والمتصدق، والقارئ، الذين أرادوا بذلك الدنيا والنصيب، وهو في صحيح مسلم[١].

وفي سنن النسائي: عن أبي أمامة ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، رجل غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا شيء له» فأعادها ثلاث مرات يقول له رسول الله ﷺ: «لا شيء له»، ثم قال: «إن الله تعالى لا يقبل إلا ما كان خالصًا، وابتغي به وجهه»[٢]، فهذا قد بطل أجره وحبط عمله مع أنه قصد حصول الأجر، لما ضم إليه قصد الذكر بين الناس، فلم يخلص عمله لله فبطل كله.

***

﴿ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

[٣]إنه سبحانه ذكر الكفار، ووصفهم بأنهم ما كانوا يستطيعون السمع، وما كانوا يبصرون. ثم ذكر المؤمنين، ووصفهم بالإيمان والعمل الصالح والإخبات إلى ربهم، فوصفهم بعبودية الظاهر والباطن، وجعل أحد الفريقين كالأعمى والأصم، من حيث كان قلبه أعمى عن رؤية الحق أصمَّ عن سماعه؛ فشبه بمن بصره أعمى عن رؤية الأشياء وسمعه أصمُّ عن سماع الأصوات، والفريق الآخر بصير القلب سميعه، كبصير العين وسميع الأذن؛ فتضمنت الآية قياسين وتمثيلين للفريقين، ثم نفى

---

(١) تقدم تخريجه قريبًا.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٣/ ١٨ رقم ٤٣٤٨) وفي الصغرى (رقم ٣١٤٠) وأبو داود (رقم ٢٥٣٥) وجوّد إسناده كل من الحافظ ابن حجر في الفتح (٦/ ٢٨) والمنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٢٤) والسيوطي في الدر المنثور (٥/ ٤٧٢) وابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم (١/ ١٦) والمباركفوري في تحفة الأحوذي (٥/ ٢٣١).

(٣) ١٥٤ الأعلام جـ١.

التسوية عن الفريقين بقوله: ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾.

***

﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

[1]قال الزجاج: المعنى إن كنتم تزعمون أنهم إنما اتبعوني في بادي الرأي وظاهره، فليس عليَّ أن أطلع على ما في أنفسهم، فإذا رأيت من يوحد الله عملت على ظاهره، ورددت علم ما في نفوسهم إلى الله... وهذا معنى حسن.

والذي يظهر من الآية: أن الله يعلم ما في أنفسهم، إذ أهَّلهم لقبول دينه وتوحيده، وتصديق رسله، والله ﷻ عليم حكيم، يضع العطاء في مواضعه، وتكون هذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٣] فإنهم أنكروا أن يكون الله سبحانه أهَّلهم للهدى والحق، وحرمه رؤساء الكفار، وأهل العزة والثروة منهم، كأنهم استدلوا بعطاء الدنيا على عطاء الآخرة، فأخبر الله سبحانه: أنه أعلم بمن يؤهله لذلك لسر عنده: من معرفة قدر النعمة، ورؤيتها من مجرد فضل المنعم ومحبته وشكره عليها، وليس كل أحد عنده هذا السر، فلا يؤهل كل أحد لهذا العطاء.

***

﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ﴾.

---

(١) ١٧٠ المدارج جـ٣.

...[١]قال نبي الله هود صلى الله على نبينا وعليه وسلم، وقد خوفه قومه بآلهتهم وأوليائهم: ﴿ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٤-٥٦].

أي مع كونه سبحانه آخذًا بنواصي خلقه، يُصرفهم كما يشاء، فهو على صراط مستقيم، لا يتصرف فيهم إلا بالعدل والحكمة، والإحسان والرحمة، فقوله: «ماضٍ فيَّ حكمك» مطابق لقول هود: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ وقوله: ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ثم توسل إلى ربه بأسمائه التي سمَّى بها نفسه: ما علم العباد منها وما لم يعلموا، ومنها ما استأثر به في علم الغيب عنده، فلا يطلع عليه ملكًا مقربًا، ولا نبيًّا مرسلًا، وهذه الوسيلة أعظم الوسائل وأحبها إلى الله، وأقربها تحصيلًا للمطلوب، ثم سأله أن يجعل القرآن لقلبه كالربيع الذي يرتع فيه الحيوان. وكذلك القرآن ربيع القلوب، وأن يجعله شفاء همه وغمه، فيكون له بمنزلة الدواء الذي يستأصل الداء، ويعيد البدن إلى صحته واعتداله، وأن يجعله لحزنه كالجلاء الذي يجلو الطبع والأصدئة، وغيرها، فأحْر بهذا العلاج ـ إذا صدق العليل في استعماله ـ أن يزيل عنه داءه، ويعقبه شفاء تامًّا، وصحة وعافية، والله الموفق.

[٢]قال هود لقومه: ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وقوله: «ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك»[٣].

---

(١) ٢٧٧ زاد المعاد جـ٣.

(٢) ٢٣ الفوائد.

(٣) أخرجه ابن حبان (٣/ ٢٥٣ رقم ٩٧٢) وفي الموارد (رقم ٢٣٧٢) وأحمد (١/ ٣٩١، ٤٥٢) وأبو يعلى (٩/ ١٩٨-١٩٩ رقم ٥٢٩٧) والبزار (٥/ ٣٦٣ رقم ١٩٩٤) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٣٣٩) والحاكم (١/ ٦٩٠ رقم ١٨٧٧) والطبراني في الكبير (١٠/ ١٦٩ رقم ١٠٣٥٢) وفي الدعاء (رقم ١٠٣٥) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٣٦): رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني وقد وثقه ابن حبان، وصححه الألباني في =

تضمن هذا الكلام أمرين: أحدهما: مضاء حكمه في عبده، والثاني يتضمن حمده وعدله، وهو سبحانه له الملك وله الحمد، وهذا معنى قول نبيه هود: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾، ثم قال: ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي: مع كونه مالكًا قاهرًا متصرفًا في عباده نواصيهم بيده، فهو على صراط مستقيم،وهو العدل الذي يتصرف به فيهم، فهو على صراط مستقيم، في قوله وفعله، وقضائه وقدره، وأمره ونهيه، وثوابه وعقابه، فخبره كله صدق، وقضاؤه كله عدل، وأمره كله مصلحة، والذي نهى عنه كله مفسدة، وثوابه لمن يستحق الثواب بفضله ورحمته، وجعل المضاء للحكم، والعدل للقضاء، فإن حكمه ـ سبحانه ـ يتناول حكمه الديني الشرعي، وحكمه الكوني والقدري، والنوعان نافذان في العبد ماضيان فيه، وهو مقهور تحت الحكمين، قد مضيا فيه ونفذا فيه شاء أم أبى، لكن الحكم الكوني لا يمكنه مخالفته، وأما الديني الشرعي فقد يخالفه...

...[1]من أخفى آيات الرسل آيات هود عليه السلام حتى قال له قومه: ﴿ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ [هود: ٥٣] ومع هذا فبينته من أظهر البينات، وقد أشار إليها بقوله: ﴿ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٤-٥٦].

فهذا من أعظم الآيات: أن رجلًا واحدًا يخاطب أمة عظيمة بهذا الخطاب، غير جزع ولا فزع ولا خوار، بل واثق مما قاله، جازم به، قد أشهد الله أولا على براءته من دينهم ومما هم عليه، إشهاد واثق به، معتمد عليه، معلم لقومه أنه وليه وناصره، وأنه غير مسلطهم عليه.

السلسلة الصحيحة (رقم ١٩٩).

(١) ٤٦٤ مدارج جـ٣.

ثم أشهدهم ـ إشهاد مجاهر لهم بالمخالفة ـ: أنه بريء من دينهم وآلهتهم التي يوالون عليها ويعادون، ويبذلون دماءهم وأموالهم في نصرتها.

ثم أكد عليهم ذلك بالاستهانة بهم واحتقارهم وازدرائهم، وأنهم لو يجتمعون كلهم على كيده وشفاء غيظهم منه، ثم يعاجلونه ولا يمهلونه، وفي ضمن ذلك أنهم أضعف وأعجز وأقل من ذلك، وأنكم لو رمتموه لانقلبتم بغيظكم مكبوتين مخذولين.

ثم قرر دعوته أحسن تقرير، وبين أن ربه تعالى وربهم الذي نواصيهم بيده هو وليه ووكيله القائم بنصره وتأييده، وأنه على صراط مستقيم، فلا يخذل من توكل عليه وآمن به، ولا يشمت به أعداءه، ولا يكون معهم، عليه فإن صراطه المستقيم الذي هو عليه في قوله وفعله يمنع ذلك ويأباه.

وتحت هذا الخطاب: أن من صراطه المستقيم: أن ينتقم ممن خرج عنه وعمل بخلافه، وينزل به بأسه، فإن الصراط المستقيم: هو العدل الذي عليه الرب تعالى، ومنه انتقامه من أهل الشرك والإجرام، ونصره أولياءه ورسله على أعدائهم، وأنه يذهب بهم ويستخلف قوما غيرهم، ولا يضره ذلك شيئًا، وأنه القائم سبحانه على كل شيء: حفظًا ورعاية وتدبيرًا وإحصاءً.

فأي آية وبرهان ودليل أحسن من آيات الأنبياء وبراهينهم وأدلتهم، وهي شهادة من الله سبحانه لهم، بيَّنها لعباده غاية البيان، وأظهرها لهم غاية الإظهار بقوله وفعله، وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: **«ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»**(١) (٢).

---

(١) هذا البحث من تفسير الشيخ لقول الله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [آل عمران: ١٨] وقد تقدم هناك بكامله (ج).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٩٨١) ومسلم (رقم ١٥٢) وانظر: فتح الباري (٩/٦) وشرح النووي =

[(١)] إخباره سبحانه أنه على صراط مستقيم في موضعين من كتابه:

أحدهما: قوله حاكيًا عن نبيه هود: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٦].

والثاني: قوله: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: ٧٦] قال أبو إسحاق: أخبر أنه وإن كانت قدرته تنالهم بما شاء فهو لا يشاء إلا العدل.

قال ابن الأنباري: لما قال: ﴿ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ كان في معنى: لا تخرج عن قبضته، قاهر بعظيم سلطانه كل دابة، فأتبع ذلك قوله: ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي أنه على الحق، قال: وهذا نحو كلام العرب إذا وصفوا رجلًا حسن السيرة والعدل والإنصاف، قالوا: فلان طريقه حسنة، وليس ثم طريق.

وذكر في معنى الآية أقوال أخر هي من لوازم هذا المعنى وآثاره، كقول بعضهم: إن ربي يدل على صراط مستقيم، فدلالته على الصراط من موجبات كونه في نفسه على صراط مستقيم، فإن تلك الدلالة والتعريف من تمام رحمته وإحسانه وعدله وحكمته.

وقال بعضهم: معناه لا يخفى عليه شيء، ولا يعدل عنه هارب.

وقال بعضهم: المعنى لا مسلك لأحد ولا طريق له إلا عليه، كقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ١٤] وهذا المعنى حق، ولكن كونه هو المراد بالآية ليس بالبين، فإن الناس كلهم لا يسلكون الصراط المستقيم، حتى يقال: إنهم يصلون سلوكه إليه، ولما أراد سبحانه هذا المعنى قال: ﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ [لقمان: ٢٣]، ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ [الغاشية: ٢٥]، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ١٤]، ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى ﴾ [النجم: ٤٢]

=
(٢/١٨٦).

(١) ٢٠٢ شفاء العليل.

وأما وصفه سبحانه بأنه على صراط مستقيم، فهو كونه يقول الحق: ويفعل الصواب، فكلماته صدق وعدل، كله صواب وخير، والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل، فلا يقول إلا ما يحمد عليه، لكونه حقًّا وعدلًا وصدقًا وحكمة في نفسه، وهذا معروف في كلام العرب قال جرير يمدح عمر بن عبد العزيز:

أميـــر المــؤمنين علـــى صـــراط ... إذا اعـــوج المـــوارد مـــستقيم[1]

وإذا عرف هذا فمن ضرورة كونه على صراط مستقيم أنه لا يفعل شيئًا إلا بحكمة يحمد عليها، وغاية هي أولى بالإرادة من غيرها، فلا تخرج أفعاله عن الحكمة و المصلحة والإحسان والرحمة و العدل والصواب، كما لا تخرج أقواله عن العدل والصدق.

[2]قال هود عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٦] فأخبر عن عموم قدرته ونفوذ مشيئته وتصرفه في خلقه كيف شاء.

ثم أخبر أنه في هذا التصرف والحكم على صراط مستقيم وقال أبو إسحاق: أي هو سبحانه وإن كانت قدرته تنالهم بما شاء، فإنه لا يشاء إلا العدل.

وقال ابن الأنباري: لما قال: ﴿ هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ كان في معنى لا يخرج من قبضته، وأنه قاهر بعظيم سلطانه لكل دابة، فأتبع قوله: ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ قال: وهذا نحو كلام العرب إذا وصفوا بحسن السيرة والعدل والإنصاف، قالوا: فلان على طريقة حسنة، وليس ثم طريق.

---

(١) هذا البيت من بحر الوافر، وينسب إلى جرير أشعر أهل عصره، عاش عمره يناضل شعراء زمنه ويساجلهم، فلم يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل، وكان عفيفًا ومن أغزل الناس شعرًا، مات سنة ١١٠هـ. وذكر البيت كل من ابن جرير الطبري في تفسيره (١/ ٧٣) وابن كثير في تفسيره (١/ ٢٨) والخطابي في غريب الحديث (١/ ١٠٨) وابن منظور في اللسان (٣/ ٤٥٩) (٧/ ٣١٣).

(٢) ٨٧ شفاء العليل.

ثم ذكر وجها آخر فقال: لما ذكر أن سلطانه قد قهر كل دابة أتبع هذا قوله: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي لا تخفى عليه مشيئته، ولا يعدل عنه هارب، فذكر الصراط المستقيم، وهو يعني به الطريق الذي لا يكون لأحد مسلك إلا عليه، كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

قلت: فعلى هذا القول الأول يكون المراد أنه في تصرفه في ملكه يتصرف بالعدل ومجازات المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، ولا يظلم مثقال ذرة، ولا يعاقب أحدًا بما لم يجنه، ولا يهضمه ثواب ما عمله، ولا يحمل عليه ذنب غيره، ولا يأخذ أحدًا بجريرة أحد، ولا يكلف نفسًا ما لا تطيقه، فيكون من باب: (له الملك وله الحمد) ومن باب: (ماض فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك) ومن باب: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: كما أنه رب العالمين المتصرف فيهم بقدرته ومشيئته، فهو المحمود على هذا التصرف، وله الحمد على جميعه.

وعلى القول الثاني المراد به التهديد والوعيد، وأن مصير العباد إليه وطريقهم عليه لا يفوته منهم أحد، كما قال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١] قال الفراء: يقول: مرجعهم إليّ فأجازيهم كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] قال: وهذا كما تقول في الكلام طريقك عليَّ، وأنا على طريقك، لمن أوعدته، وكذلك قال الكلبي والكسائي، ومثل قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩] على إحد القولين في الآية.

وقال مجاهد: الحق يرجع إلى الله وعليه طريقه[1]. ﴿وَمِنْهَا﴾ أي: ومن السبيل ما هو ﴿جَآئِرٌ﴾ عن الحق ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فأخبر عن عموم مشيئته، وأن طريق الحق عليه موصلة إليه، فمن سلكها فإليه يصل، ومن عدل عنها فإنه يضل عنه.

والمقصود أن هذه الآيات تتضمن عدل الرب تعالى وتوحيده، والله يتصرف في

(١) ذكره البخاري في تفسير سورة الحجر (ص ٩٠٢) قبل حديث (رقم ٤٧٠١) معلقًا، بينما وصله الطبري في تفسيره (١٤/ ٣٣)، وانظر: الدر المنثور (٥/ ٧٩) وفتح الباري (٨/ ٣٧٩) وعمدة القاري (١٩/ ٦).

خلقه بمكله وحمده وعدله وإحسانه، فهو على صراط مستقيم في قوله وفعله وشرعه وقدره وثوابه وعقابه، يقول الحق ويفعل العدل: ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب: ٤].

[(١)] ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾ فأخبر عن عموم قدرته تعالى، وأن الخلق كلهم تحت تسخيره وقدرته، وأنه آخذ بنواصيهم، فلا محيص لهم عن نفوذ مشيئته وقدرته فيهم، ثم عقب ذلك بالأخبار عن تصرفه فيهم، وأنه بالعدل لا بالظلم، وبالإحسان لا بالإساءة، وبالصلاح لا بالفساد، فهو يأمرهم وينهاهم إحسانًا إليهم وحماية وصيانة لهم، ولا حاجة إليهم، ولا بخلا عليهم، بل جودًا وكرمًا ولطفًا وبرًّا، ويثيبهم إحسانًا وتفضلا ورحمة، لا لمعاوضة واستحقاق منهم، ودين واجب لهم، يستحقونه عليه، ويعاقبهم عدلًا وحكمة، لا تشفيًا ولا مخافة ولا ظلمًا، كما يعاقب الملوك وغيرهم، بل هو على الصراط المستقيم، وهو صراط العدل والإحسان في أمره ونهيه وثوابه وعقابه.

فتأمل ألفاظ هذه الآية وما جمعته من عموم القدرة وكمال الملك، ومن تمام الحكمة والعدل والإحسان، وما تضمنته من الرد على الطائفتين، فإنها من كنوز القرآن، ولقد كفت وشفت لمن فتح عليه بفهمها، فكونه تعالى على صراط مستقيم ينفي ظلمه للعباد، وتكليفه إياهم ما لا يطيقون، وينفي العيب من أفعاله وشرعه، ويثبت لها غاية الحكمة والسداد، ردا على منكري ذلك.

وكون كل دابة تحت قبضته وقدرته وهو آخذ بناصيتها، ينبغي أن لا يقع في ملكه من أحد المخلوقات شيء بغير مشيئته وقدرته، وأن من ناصيته بيد الله وفي قبضته، لا يمكنه أن يتحرك إلا بتحريكه، ولا يفعل إلا بأقداره، ولا يشاء إلا بمشيئته تعالى، ردًّا على منكري ذلك من القدرية. فالطائفتان ما وفوا الآية معناها، ولا قدروها حق

---

(١) ٧٩ المفتاح جـ٢.

قدرها، فهو سبحانه على صراط مستقيم في عطائه ومنعه وهدايته وإضلاله، وفي نفعه وضره، وعافيته وبلائه وإغنائه وإفقاره، وإعزازه وإذلاله، وإنعامه وانتقامه، وثوابه وعقابه، وإحيائه وإماتته، وأمره ونهيه، وتحليله وتحريمه، وفي كل ما يخلق، وكل ما يأمر به، وهذه المعرفة بالله لا تكون إلا للأنبياء ولورثتهم؟

...[١] والدين دينان: دين شرعي أمري، ودين حسابي جزائي. وكلاهما لله وحده، فالدين كله أمرًا أو جزاءً لله، والمحبة أصل كل واحد من الدينين، فإن ما شرعه وأمر به فإنه يحبه ويرضاه وما نهى عنه فإنه يكرهه ويبغضه، لمنافاته لما يحبه ويرضاه، فهو يحب ضده، فعاد دينه الأمري كله إلى محبته ورضاه، ودين العبد لله به إنما يقبل إذا كان عن محبة ورضي، كما قال النبي ﷺ: **«ذاق طعم الإيمان، من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا»**[٢]. وهذا الدين قائم بالمحبة، وبسببها شرع، ولأجلها شرع، وعليها أسس، وكذلك دينه الجزائي، فإنه يتضمن مجازات المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وكل من الأمرين محبوب للرب، فإنهما عدله وفضله، وكلاهما من صفات كماله، وهو سبحانه يحب صفاته وأسمائه، ويحب من يحبها، وكل واحد من الدينين فهو صراطه المستقيم، الذي هو عليه، فهو سبحانه على صراط مستقيم في أمره ونهيه وثوابه وعقابه، كما قال تعالى: إخبارًا عن نبيه هود عليه السلام إذ قال لقومه: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤-٥٦]. ولما علم نبي الله أن ربه على صراط مستقيم في خلقه وأمره، وثوابه وعقابه، وقضائه وقدره، ومنعه وعطائه، وعافيته وبلائه، وتوفيقه وخذلانه، لا يخرج في ذلك عن موجب كماله المقدس، الذي تقتضيه أسماؤه وصفاته من العدل والحكمة والرحمة والإحسان والفضل، ووضع الثواب في مواضعه، والعقوبة في موضعها اللائق

---

(١) ٢٨٠ الجواب الكافي.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٣٤) وانظر: عمدة القاري (١/ ١٠٩) والديباج على مسلم (١/ ٥١، ٥٩).

بها، ووضع التوفيق والخذلان، والعطاء والمنع، والهداية والإضلال، كل ذلك في أماكنه ومحاله اللائقة به، بحيث يستحق على ذلك كمال الحمد والثناء، أوجب له ذلك العلم والعرفان، إذ نادىٰ علىٰ رؤوس الملإ من قومه بجنان ثابت، وقلب غير خائف، بل متجرد لله: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ الآية.

ثم أخبر عن عموم قدرته وقهره بكل ما سواه وذل كل شيء لعظمته، فقال: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، فكيف أخاف من ناصيته بيد غيره، وهو في قبضته وتحت قهره وسلطانه دونه، وهل هذا الأمر إلاّ من أجهل الجهل وأقبح الظلم؟ ثم أخبر أنه سبحانه على صراط مستقيم، فكل ما يقضيه ويقدره فلا يخاف العبد جوره ولا ظلمه، فلا أخاف ما دونه، فإن ناصيته بيده، ولا أخاف جوره وظلمه، فإنه علي صراط مستقيم، وهو سبحانه ماض في عبده حكمه، عدل فيه قضاؤه، له الملك وله الحمد، لا يخرج في تصرفه في عباده عن العدل والفضل، إن أعطي وأكرم وهدىي ووفق فبفضله ورحمته، وإن منع وأهان وأضل وخذل وأشقىٰ فبعدله وحكمته، وهو علىٰ صراط مستقيم في هذا وهذا.

وفي الحديث الصحيح: «**ما أصاب عبدًا قط هم ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك اللهم بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء همي وحزني، وذهاب همي وغمي، إلاّ أذهب الله همه وغمه، وأبدله فرحًا مكانه**»[1] وهذا يتناول حكم الرب الكوني، والأمر والقضاء الذي يكون باختيار العبد وبغير اختياره، وكلا الحكمين ماضٍ في عبده، وكلا القضائين عدل فيه. فهذا الحديث مشتق من هذه الآية، بينهما أقرب نسب. وبالله التوفيق.

---

(١) سبق تخريجه قريبًا.

***

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

[1](فإن قلت): فإذا استوى ذكر التاء وتركها في الفعل المتقدم ـ وفاعله مؤنث غير حقيقي ـ فما الحكمة في اختصاصها في قصة شعيب بالفعل، وحذفها في قصة صالح ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ [هود: ٦٧] قلت: الصيحة في قصة صالح في معنى العذاب والخزي، إذ كانت منتظمة بقوله سبحانه: ﴿ وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ [هود: ٦٦] فصارت الصيحة عبارة عن ذلك الخزي وعن العذاب المذكور في الآية، فقوى التذكير.

بخلاف قصة شعيب، فإنه لم يذكر فيها ذلك. هذا جواب السهيلي. وعندي فيه جواب أحسن من هذا إن شاء الله، وهو أن الصيحة يراد بها المصدر بمعنى الصياح، فيحسن فيها التذكير، ويراد بها الواحدة من المصدر، فيكون التأنيث أحسن، وقد أخبر تعالى عن العذاب الذي أصاب به قوم شعيب بثلاثة أمور كلها مؤنثة اللفظ.

أحدها: الرجفة في قوله في الأعراف: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٩١].

الثاني: الظلة بقوله: ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

الثالث: الصحية: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ [هود: ٩٤]. وجمع لهم بين الثلاثة؛ فإن الرجفة بدأت بهم، فأصحروا إلى الفضاء خوفًا من سقوط الأبنية عليهم، فصهرتهم الشمس بحرها، ورفعت لهم الظلة فأهرعوا إليها، يستظلون بها من الشمس، فنزل عليهم منها العذاب، وفيه الصيحة، فكان ذكر الصيحة مع الرجفة

(١) ١٢٦ بدائع جـ١.

والظلة أحسن من ذكر الصياح، وكان ذكر التاء، والله أعلم.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ ﴾.

[1] وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات: ١٠١]، وقال في الذاريات: ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ [الذاريات: ٢٨].

وقال في سورة الحجر: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر: ٥١-٥٦] وقال تعالى: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٧]. قال: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ ﴾ [آل عمران: ٣٩]، ولما كانت البشارة تسر العبد وتفرحه، استحب للمسلم أن يبادر إلى مسرة أخيه وإعلامه بما يفرحه.

ولما ولد النبي ﷺ بشرت به ثويبة أبا لهب وكان مولاها، وقالت: قد ولد الليلة لعبد الله ابن، فأعتقها أبو لهب سرورًا به، فلم يضيع الله ذلك له، وسقاه بعد موته في

---

(١) ١٤ تحفة المودود.

النقرة، التي في أصل إبهامه[١]، فإن فاتته البشارة استحب له تهنئته، و الفرق بينهما أن البشارة إعلام له بما يسره، والتهنئة دعاء له بالخير فيه بعد أن علم به.

ولهذا لما أنزل الله توبة كعب بن مالك وصاحبيه[٢] ذهب إليه البشير، فبشره، فلما دخل المسجد جاء الناس فهنئوه، وكانت الجاهلية يقولون في تهنئتهم بالنكاح: بالرفاء والبنين[٣]، والرفاء الالتحام والاتفاق، أي تزوجت زواجًا يحصل به الاتفاق والالتحام بينكما والبنون، فيهنئون سلفًا وتعجيلًا، ولا ينبغي للرجل أن يهنئ بالابن ولا يهنئ بالبنت، بل يهنئ بهما أو يترك التهنئة بهما ليتخلص من سيئة الجاهلية؛ فإن كثيرًا منهم كانوا يهنئون بالابن وبوفاة البنت دون ولادتها، وقال أبو بكر بن المنذر في الأوسط: روينا عن الحسن البصري: أن رجلًا جاء إليه، وعنده رجل قد ولد له غلام، فقال له: يهنئك الفارس، فقال له الحسن: ما يدريك فارس هو أم حمار، قال: فكيف نقول؟ قال: قل بورك في الموهوب، وشكرت الواهب، وبلغ أشده ورزقت بره[٤]، والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥١٠١) وفيه: قال عروة: وثويبة مولاة لأبي لهب؛ كان أبو لهب أعقتها، فأرضعت النبي ﷺ، فلما مات أبو لهب أُريه بعض أهله بشرحيبة، قال له: ماذا لقيت؟ قال أبو لهب: لم ألق بعدكم غير أني سقيت في هذه بعتاقتي ثويبة، وعند البيهقي في الكبرىٰ (٧/ ١٦٢ رقم ١٣٧٠١): «لم ألق بعدكم رخاء غير أني سقيت في هذه مني بعتاقتي ثويبة، وأشار إلى النقيرة التي بين الإبهام والتي تليها من الأصابع، وانظر: فتح الباري (٩/ ١٤٥-١٤٦) وعمدة القاري (٢٠/ ٩٣-٩٤).

(٢) حديث توبة كعب وصاحبيه تقدم تخريجه.

(٣) فعن الحسن أن عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه تزوج امرأة من بني جشم، فدخل عليه القوم، فقالوا: بالرفاء والبنين، فقال: لا تفعلوا ذلك. قالوا: فما نقول يا أبا يزيد؟ قال: قولوا: بارك الله لكم وبارك عليكم. إنا كذلك كنا نؤمر. أخرجه أحمد (١/ ٢٠١) (٣/ ٤٥١) والبزار (٦/ ١١٩ رقم ٢١٧٢) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٦٠٢، ٦٦٢) والنسائي في الكبرىٰ (٣/ ٣٣١ رقم ٥٥٦١) وفي الصغرىٰ (رقم ٣٣٧١) والدارمي (رقم ٢١٧٣) والبيهقي في الكبرىٰ (٧/ ١٤٨ رقم ١٣٦٢٠) وابن ماجه (رقم ١٩٠٦) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١/ ٢٧٩ رقم ٣٦٧) وانظر: فتح الباري (٩/ ٢٢١-٢٢٢) وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه وفي صحيح سنن النسائي (رقم ٣٣٧١) وانظر: أيضًا آداب الزفاف للألباني (ص ١٠٣).

(٤) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٥٩/ ٢٧٥-٢٧٦) وابن الجعد في مسنده (رقم ٣٣٩٨) =

[1]﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ و«الحنيذ» المشوي على الرضف، وهي الحجارة المحماة، وفي الترمذي عن أم سلمة «أنها قربت إلى رسول الله ﷺ جنبًا مشويًا، فأكل منه، ثم قام إلى الصلاة ولم يتوضأ»[2] قال الترمذي: حديث صحيح، وفيه أيضًا عن عبد الله بن الحارث قال: «أكلنا مع رسول الله ﷺ شواء في المسجد»[3].

وفيه أيضًا: عن المغيرة بن شعبة قال: «ضِفْتُ مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، فأمر بجنب فشُوِي، ثم أخذ الشَّفرة فجعل يجزُّ لي بها منه، قال: فجاء بلال يؤذن للصلاة، فألقى الشَّفرة، فقال: «ما له؟ تَرِبت يداه»[4].

أنفع الشواء: شواء الضآن الحَوْلي، ثم العجل اللطيف السمين، وهو حار رطب إلى اليبوسة، كثير التوليد للسوداء، وهو من أغذية الأقوياء والأصحاء، والمرناضين، والمطبوخ أنفع، وأخف على المعدة، وأرطب منه، ومن المطَجَّن، وأردؤه: المشوي في الشمس، والمشوي على الجمر: خير من المشوي باللهب، وهو الحنيذ.

[5]وإسماعيل: هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم. وأمّا القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهاً.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدّس الله روحه يقول: هذا القول إنما هو متلقى

وانظر: المغني (٩/ ٣٦٦) وميزان الاعتدال في نقد الرجال (٧/ ١٠٥).

(١) ٣٦١ زاد المعاد جـ٣.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ١٨٢٩) والنسائي في الكبرى (١/ ١٠٦ رقم ١٨٩) وفي الصغرى (رقم ١٨٣) والبيهقي في الكبرى (١/ ١٥٤ رقم ٦٩٥) والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٦٥) وعبد الرزاق (١/ ١٦٤ رقم ٦٣٨) وأحمد (٦/ ٣٠٧) وأبو يعلى (١٢/ ٤١٨ رقم ٦٩٨٥) والطبراني في الكبير (٢٣/ ٣٨٦ رقم ٩٢٢) وصححه الترمذي وانظر: فتح الباري (٩/ ٥٥٢).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٩٠، ١٩١) والترمذي في الشمائل المحمدية (رقم ١٦٦) وابن ماجه (رقم ٣٣١١) والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٦٦) وأبو يعلى (٣/ ١١٠ رقم ١٥٤١) وفي المفاريد (رقم ٥٣) وضعفه في مصباح الزجاجة (٤/ ١٩) وصححه الألباني في مختصر الشمائل (رقم ١٣٩).

(٤) أخرجه الترمذي في الشمائل (رقم ١٦٧) وصححه الألباني في مختصر الشمائل (رقم ١٤٠).

(٥) ٢٨ زاد المعاد جـ١.

عن أهل الكِتاب، مع أنه باطل بنص كتابهم، فإن فيه: «إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنَه بكره» وفي لفظ: «وحيده»، ولا يشكُّ أهلُ الكِتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده[١].

والذي غرَّ أصحاب هذا القول أن في التوراة التي بأيديهم: اذبح ابنك إسحاق، قال: وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم، لأنها تناقض قوله: اذبح بكرك ووحيدك، ولكن اليهود حسدت بني إسماعيل على هذا الشرف، وأحبوا أن يكون لهم، وأن يسوقوه إليهم، ويختاروه لأنفسهم دون العرب، ويأبى اللهُ إلا أن يجعل فضله لأهله[٢].

وكيف يسوغ أن يُقال: إن الذبيح إسحاق، والله تعالى قد بشر أم إسحاق به وبابنه يعقوب، فقال تعالى عن الملائكة: إنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧٠-٧١] فمحال أن يبشرها بأنه يكون لها ولد، ثم يأمر بذبحه.

ولا ريبَ أن يعقوب عليه السلام داخل في البشارة، فتَنَاوُل البشارة لإسحاق ويعقوب في اللفظ واحد، وهذا ظاهِر الكلام وسياقُه.

فإن قيل: لو كان الأمر كما ذكرتموه لكان يعقوب مجروراً عطفاً على إسحاق، بل كانت القراءة ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ﴾ أي: ويعقوب من وراء إسحاق.

قيل: لا يمنع الرفعُ أن يكون يعقوبُ مبشراً به، لأن البشارةَ قول مخصوص، وهي أولُ خبر سارٍّ صادق. وقوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ﴾ جملة متضمنة لهذه القيود، فتكون بشارة، بل حقيقة البشارة هي الجملة الخبرية.

ولما كانت البشارة قولاً، كان موضع هذه الجملة نصباً على الحكاية بالقول، كأن المعنى: وقلنا لها: من وراء إسحاق يعقوب، والقائل إذا قال: بشرتُ فلاناً بِقُدوم أخيه

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١/ ١٥٩).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٢/ ١٤٩).

وَثَقَلِهِ في أثره، لم يعقل منه إلا بشارته بالأمرين جميعاً. هذا ممّا لا يستريبُ ذو فهم فيه البتة.

ثم يُضعف الجرَّ أمر آخر، وهو ضعف قولك: مررت بزيد وَمِنْ بعده عمرو، ولأن العاطف يقوم مقام حرف الجرِّ، فلا يفصل بينه وبين المجرور، كما لا يفصل بين حرف الجار والمجرور.

ويدل عليه أيضاً أن الله سبحانه لما ذكر قصة إبراهيم وابنه الذبيح في سورة (الصافات) قال: ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۝١٠٣ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ۝١٠٦ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۝١٠٧ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٠٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١١٠ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٣-١١١].

ثم قال تعالى: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١١٢ ﴾ [الصافات: ١١٢]. فهذه بشارة من اللّه تعالى له شكراً على صبره على ما أُمِرَ به، وهذا ظاهر جداً في أن المبشَّر به غيرُ الأول، بل هو كالنص فيه.

فإن قيل: فالبشارة الثانية وقعت على نبوته، أي: لما صبر الأب على ما أُمر به، وأَسلم الولد لأمر اللّه، جازاه الله على ذلك بأن أعطاه النُّبوة.

قيل: البشارة وقعت على المجموع: على ذاته ووجوده، وأن يكون نبياً، ولهذا نصب «نبياً» على الحال المقدَّر، أي: مقدراً نبوته، فلا يمكن إخراجُ البِشارة أن تقع على الأصل، ثم تخص بالحال التابعة الجارية مجرى الفَضْلَةِ، هذا مُحال من الكلام، بل إذا وقعت البِشارةُ على نبوته، فوقوعها على وجوده أولى وأحرى.

وأيضاً فلا ريب أن الذبيح كان بمكّة، ولذلك جُعلت القرابينُ يومَ النَّحر بها، كما جُعِل السعيُ بين الصفا والمروة ورمي الجمار تذكيراً لشأن إسماعيل وأمِّه، وإقامةً لذكر اللّه، ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللَّذان كانا بمكّة دون إسحاق وأمه، ولهذا

اتصل مكانُ الذبح وزمانُه بالبيت الحرام الذي اشترك في بنائه إبراهيم وإسماعيل، وكان النَّحرُ بمكّة مِن تمام حج البيت الذي كان علىٰ يد إبراهيم وابنه إسماعيل زماناً ومكاناً، ولو كان الذبح بالشام كما يزعم أهل الكِتاب ومن تلقىٰ عنهم، لكانت القرابين والنَّحر بالشام، لا بمكّة.

وأيضاً فإن الله سبحانه سمىٰ الذبيح حليماً. لأنه لا أحلم ممن أسلم نفسه للذبح طاعة لربه.

ولما ذكر إسحاق سماه عليماً، فقال تعالىٰ: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ إلىٰ أن قال: ﴿ قَالُواْ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ [الذاريات: ٢٤-٢٩] وهذا إسحاق بلا ريب، لأنه من امرأته، وهي المبشَّرة به، وأمّا إسماعيل، فمن السُّرِّيَّةِ. وأيضاً فإنهما بُشِّرا به علىٰ الكِبرَ واليَأْسِ من الولد، وهذا بخلاف إسماعيل، فإنه ولد قبلَ ذلك.

وأيضاً فإن الله سبحانه أجرىٰ العادة البشرية أنَّ بكر الأولاد أحبُّ إلىٰ الوالدين ممن بعده، وإبراهيم ﷺ لما سأل ربه الولد، ووهبه له، تعلقت شُعْبَةٌ من قلبه بمحبته، والله تعالىٰ قد اتخذه خليلاً، والخُلة مَنْصِبٌ يقتضي توحيدَ المحبوب بالمحبة، وأن لا يُشارك بينه وبين غيره فيها، فلما أخذ الولدُ شعبةً من قلب الوالد، جاءت غَيْرةُ الخُلة تنتزعها من قلب الخليل، فأمره بذبح المحبوب، فلما أقدم علىٰ ذبحه، وكانت محبةُ الله أعظمَ عنده من محبة الولد، خَلَصَتِ الخلة حينئذٍ من شوائب المشاركة، فلم يبق في الذبح مصلحة، إذ كانت المصلحةُ إنما هي في العزم وتوطين النفس عليه، فقد حَصَل المقصودُ، فَنُسِخَ الأمر، وَفُدي الذبيح، وَصدَّق الخليلُ الرؤيا، وحصل مراد الرب.

ومعلوم أن هذا الامتحان والاختبار إنما يكون قد حصل عند أول مولود، ولم يكن ليحصل في المولود الآخر دون الأول، بل لم يحصل عند المولود الآخر من مزاحمة الخلة ما يقتضي الأمر بذبحه، وهذا في غاية الظهور.

وأيضاً فإن سارة امرأة الخليل ﷺ غارت من هاجر وابنها أشد الغيرة، فإنها كانت

جارية، فلما ولدت إسماعيل وأَحبَّه أبوه، اشتدت غيرة سارة، فأمر اللّه سبحانه أن يُبعد عنها هاجر وابنها، ويسكنها في أرض مكّة لتبرد عن سارة حرارةُ الغيرة، وهذا من رحمته تعالىٰ ورأفته، فكيف يأمره سبحانه بعد هذا أن يذبح ابنها، ويدع ابن الجارية بحاله، هذا مع رحمة الله لها وإبعاد الضرر عنها وجبره لها، فكيف يأمر بعد هذا بذبح ابنها دون ابن الجارية، بل حكمتُه البالغة اقتضت أن يأمر بذبح ولد السُّرِّيَّةِ، فحينئذٍ يرق قلبُ السيدة عليها وعلىٰ ولدها، وتتبدل قسوةُ الغيرة رحمة، ويظهر لها بركة هذه الجارية وولدها، وأن الله لا يضيع بيتاً هذه وابنها منهم، وليُريَ عباده جبره بعد الكسر، ولطفه بعد الشدة، وأن عاقبة صبر هاجر وابنها ـ علىٰ البُعد والوحدة والغربة والتسليم إلىٰ ذبح الولد ـ آلت إلىٰ ما آلت إليه، من جَعل آثارهما ومواطىء أقدامهما مناسكَ لعباده المؤمنين، ومتعبداتٍ لهم إلىٰ يوم القيامة، وهذه سنته تعالىٰ فِيمَن يُريد رفعه مِن خلقه أن يمنَّ عليه بعد استضعافه وذله وانكساره. قال تعالىٰ: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [القصص: ٥] وذلك فضل اللّه يُؤْتيه من يشاء، واللّه ذو الفضل العظيم.

(١) وهو ما الحكمة في إفراد السلام والرحمة وجمع البركة.

فجوابه: أن السلام إما مصدر محض، فهو شيء واحد فلا معنىٰ لجمعه، وإما اسم من أسماء الله، فيستحيل أيضًا جمعه، فعلىٰ التقديرين لا سبيل إلىٰ جمعه.

وأما الرحمة فمصدر أيضًا بمعنىٰ العطف والحنان، فلا تجمع أيضًا، والتاء فيها بمنزلتها في الخلة والمحبة والرقة ليست للتحديد بمنزلتها في ضربة وتمرة، فكما لا يقال رقات ولا خلات ولا رأفات، لا يقال رحمات، وهنا دخول الجمع يشعر بالتحديد والتقييد بعدد، وإفراده يشعر بالمسمىٰ مطلقًا من غير تحديد، فالإفراد هنا أكمل وأكثر معنىٰ من الجمع، وهذا بديع جدًّا أن يكون مدلول المفرد أكثر من مدلول

(١) ١٨٢ البدائع جـ٢.

الجمع، ولهذا كان قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ﴾ [الأنعام: ١٤٩] أعم وأتم معنىٰ من أن يقال: فلله الحجج البوالغ، وكان قوله: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم: ٣٤] أتم معنىٰ من أن يقال: وإن تعدوا نعم الله لا تحصوها، وقوله: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ [البقرة: ٢٠١] أتم معنىٰ من أن يقال حسنات، وكذا قوله: ﴿ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ ﴾ [آل عمران: ١٧١] ونظائره كثيرة جدًّا، وسنذكر سر هذا فيما بعد إن شاء الله تعالىٰ.

وأما البركة فإنها لما كان مسماها كثرة الخير واستمراره شيئًا بعد شيء، كلما انقضىٰ منه فرد خلفه فرد آخر، فهو خير مستمر يتعاقب الأفراد علىٰ الدوام شيئًا بعد شيء، كان لفظ الجمع أولىٰ بها، لدلالته علىٰ المعنىٰ المقصود بها، ولهذا جاءت في القرآن كذلك في قوله تعالىٰ: ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾ [هود: ٧٣] فأفرد الرحمة وجمع البركة، وكذلك في السلام في التشهد: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.

(١)واعلم أن الرحمة والبركة المضافتين إلىٰ الله تعالىٰ نوعان:

أحدهما: مضاف إليه إضافة مفعول إلىٰ فاعله.

والثاني: مضاف إليه إضافة صفة إلىٰ الموصوف بها.

فمن الأول قوله في الحديث الصحيح: «**احتجت الجنة والنار**»، فذكر الحديث، وفيه: «**فقال للجنة: إنما أنت رحمتي، أرحم بك من أشاء**»(٢). فهذه رحمة مخلوقة مضافة إليه إضافة المخلوق بالرحمة إلىٰ الخالق تعالىٰ، وسماها رحمة، لأنها خلقت بالرحمة وللرحمة، وخص بها أهل الرحمة، وإنما يدخلها الرحماء. ومنه قوله ﷺ: «**خلق**

(١) ١٨٣ البدائع جـ٢.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٨٥٠) ومسلم (رقم ٢٨٤٦) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٤٣٦-٤٣٧).

الله الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، كل رحمة منها طباق ما بين السماء والأرض»[١]. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ [هود: ٩].

وعلىٰ هذا فلا يمتنع الدعاء المشهور بين الناس قديمًا وحديثًا، وهو قول الداعي: «اللهم اجمعنا في مستقر رحمتك».

وذكره البخاري في كتاب الأدب المفرد له عن بعض السلف[٢]، وحكىٰ فيه الكراهة، قال: إن مستقر رحمته ذاته، وهذا بناء علىٰ أن الرحمة صفة، وليس مراد الداعي ذلك، بل مراده الرحمة المخلوقة التي هي الجنة.

ولكن الذين كرهوا ذلك لهم نظر دقيق جدًّا، وهو أنه إذا كان المراد بالرحمة الجنة نفسها لم يحسن إضافة المستقر إليها، ولهذا لا يحسن أن يقال اجمعنا في مستقر جنتك، فإن الجنة نفسها هي دار القرار، وهي المستقر نفسه، كما قال: ﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٦] فكيف يضاف المستقر إليها، والمستقر هو المكان الذي يستقر فيه الشيء، ولا يصح أن يطلب الداعي الجمع في المكان الذي تستقر فيه الجنة، فتأمله، ولهذا قال: مستقر رحمته ذاته.

والصواب: أن هذا لا يمتنع، حتىٰ ولو قال صريحًا: اجمعنا في مستقر جنتك لم يمتنع، وذلك أن المستقر أعم من أن يكون رحمة أو عذابا فإذا أضيف إلىٰ أحد أنواعه أضيف إلىٰ ما يبينه ويميزه من غيره، كأنه قيل: في المستقر الذي هو رحمتك، لا في المستقر الآخر.

ونظير هذا أن يقول: اجلس في مستقر المسجد أي: المستقر الذي هو المسجد، والإضافة في مثل ذلك غير ممتنعة ولا مستكرهة.

وأيضًا فإن الجنة وإن سميت رحمة، لم يمتنع أن يسمىٰ ما فيها من أنواع النعيم رحمة.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٥٧٢) وعزاه إلىٰ ابن أبي شيبة عن سلمان موقوفًا، وإلىٰ ابن مردويه عن سلمان مرفوعًا.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (رقم ٧٦٨) وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد.

ولا ريب أن مستقر ذلك النعيم هو الجنة، فالداعي يطلب أن يجمعه الله ومن يحب في المكان الذي تستقر فيه تلك الرحمة المخلوقة في الجنة، وهذا ظاهر جدًّا، فلا يمتنع الدعاء بوجه، والله أعلم.

وهذا بخلاف قول الداعي: (يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث)[(١)]؛ فإن الرحمة هنا صفته تبارك وتعالى، وهي متعلق الاستغاثة، فإنه لا يستغاث بمخلوق، ولهذا كان هذا الدعاء من أدعية الكرب، لما تضمنه من التوحيد والاستغاثة برحمة أرحم الراحمين، متوسلا إليه باسمين عليهما مدار الأسماء الحسنى كلها، وإليهما مرجع معانيها جميعها، وهو اسم (الحي القيوم)، فإن الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال، ولا يتخلف عنها صفة منها إلا لضعف الحياة، فإذا كانت حياته تعالى أكمل حياة وأتمها استلزم إثباتها إثبات كل كمال يضاد نفي كمال الحياة، وبهذا الطريق العقلي أثبت متكلمو أهل الإثبات له تعالى صفة السمع والبصر والعلم والإرادة والقدرة والكلام وسائر صفات الكمال.

وأما القيوم فهو متضمن كمال غناه وكمال قدرته، فإنه القائم بنفسه لا يحتاج إلى من يقيمه بوجه من الوجوه، وهذا من كمال غناه بنفسه عما سواه، وهو المقيم لغيره، فلا قيام لغيره إلا بإقامته، وهذا من كمال قدرته وعزته، فانتظم هذان الاسمان صفات الكمال والغنى التام والقدرة التامة، فكأن المستغيث بهما مستغيث بكل اسم من أسماء الرب تعالى وبكل صفة من صفاته فما أولى الاستغاثة بهذين الاسمين أن يكونا في مظنة تفريج الكربات وإغاثة اللهفات وإنالة الطلبات.

---

(١) أخرجه الضياء في المختارة (٦/ ٣٠٠ رقم ٢٣١٩) والنسائي في الكبرى (٦/ ١٤٧ رقم ١٠٤٠٥) والترمذي (رقم ٣٥٢٤) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٥/ ٣٤٩ رقم ٢٩٢٥) والبيهقي في الشعب (١/ ٤٧٦ رقم ٧٦٠) والطبراني في الصغير (رقم ٤٤٤) وفي الدعاء (رقم ٨٨٠) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٤٨، ٣٣٧، ٥٧٠) والحاكم (١/ ٦٨٩ رقم ١٨٧٥) وصححه. وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٤٧٧٧) وصححه في السلسلة الصحيحة (رقم ٢٢٧).

والمقصود أن الرحمة المستغاث بها هي صفة الرب تعالىٰ لا شيء من مخلوقاته.

كما أن المستعيذ بعزته في قوله (أعوذ بعزتك) مستعيذ بعزته التي هي صفته، لا بعزته التي خلقها يعز بها عباده المؤمنين. وهذا كله يقرر قول أهل السنة إن قول النبي ﷺ: «أعوذ بكلمات الله التامات»[(١)] يدل علىٰ أن كلماته تبارك وتعالىٰ غير مخلوقة، فإنه لا يستعاذ بمخلوق.

وأما قوله تعالىٰ حكاية عن ملائكته: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر: ٧] فهذه رحمة الصفة التي وسعت كل شيء، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وسعتها عموم تعلقها بكل شيء، كما أن سعة علمه تعالىٰ عموم تعلقه بكل معلوم.

(وأما البركة): فكذلك نوعان أيضًا:

أحدهما: بركة هي فعله تبارك وتعالىٰ، والفعل منها بارك، ويتعدىٰ بنفسه تارة وبأداة علىٰ تارة، وبأداة في تارة والمفعول منها: مبارك، وهو ما جعل كذلك، فكان مباركا بجعله تعالىٰ.

والنوع الثاني: بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة، والفعل منها تبارك، ولهذا لا يقال لغيره ذلك، ولا يصلح إلا له ﷻ، فهو سبحانه المبارك، وعبده ورسوله المبارك، كما قال المسيح: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ [مريم: ٣١]، فمن بارك الله فيه وعليه فهو المبارك.

وأما صفته تبارك فمختصة به تعالىٰ، كما أطلقها علىٰ نفسه بقوله: ﴿ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ [الملك: ١]، ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤]. ﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٧٠٨، ٢٧٠٩) وانظر: فتح الباري (١٠/ ١٩٦) (١٢/ ٣٧١) وشرح النووي (١٧/ ٣١).

وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف: ٨٥]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ [الفرقان: ١٠]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦٠] أفلا تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه مختصة به، لا تطلق على غيره، وجاءت على بناء السعة والمبالغة: كتعالى وتعاظم ونحوهما، فجاء بناء تبارك على بناء تعالى، الذي هو دال على كمال العلو ونهايته، فكذلك تبارك دال على كمال بركته وعظمها وسعتها.

وهذا معنى قول من قال من السلف: تبارك تعاظم[(١)].

وقال آخر: معناه أن تجيء البركات من قبله، فالبركة كلها منه.

وقال غيره: كثر خيره وإحسانه إلى خلقه.

وقيل: اتسعت رأفته ورحمته بهم.

وقيل: تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله. ومن هنا قيل: معناه تعالى وتعاظم.

وقيل: تبارك تقدس، والقدس الطهارة.

وقيل: تبارك أي باسمه يبارك في كل شيء.

وقيل: تبارك ارتفع، والمبارك المرتفع، ذكره البغوي.

وقيل: تبارك أي البركة، تكتسب وتنال بذكره.

وقال ابن عباس: جاء بكل بركة.

وقيل: معناه ثبت ودام بما لم يزل ولا يزال، ذكره البغوي أيضاً.

وحقيقة اللفظة: أن البركة كثرة الخير ودوامه، ولا أحد أحق بذلك وصفًا وفعلًا منه تبارك وتعالى.

وتفسير السلف يدور على هذين المعنيين، وهما متلازمان، لكن الأليق باللفظة

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٩/ ١).

معنى الوصف لا الفعل، فإنه فعل لازم مثل تعالى وتقدس وتعاظم، ومثل هذه الألفاظ ليس معناها أنه جعل غيره عاليا ولا قدوسا ولا عظيمًا، هذا مما لا يحتمله اللفظ بوجه، وإنما معناها في نفس من نسبت إليه، فهو المتعالي المتقدس، فكذلك تبارك لا يصح أن يكون معناها بارك في غيره، وأين أحدهما من الآخر لفظًا ومعنى، هذا لازم وهذا متعد، فعلمت أن من فسر تبارك بمعنى: ألقى البركة، وبارك في غيره، لم يصب معناها، وإن كان هذا من لوازم كونه متباركًا، فتبارك من باب مجد، والمجد كثرة صفات الجلال والسعة والفضل، وبارك من باب أعطى وأنعم.

ولما كان المتعدي في ذلك يستلزم اللازم من غير عكس، فسر من فسر من السلف اللفظة بالمتعدي، لينتظم المعنيين، فقال: مجيء البركة كلها من عنده أو البركة كلها من قبله، وهذا فرع على تبارك في نفسه، وقد أشبعنا القول في هذا في كتاب (الفتح المكي)، وبينا هناك أن البركة كلها له تعالى ومنه، فهو المبارك، ومن ألقى عليه بركته فهو المبارك، ولهذا كان كتابه مباركا، وبيته مباركًا، والأزمنة والأمكنة التي شرفها واختصها عن غيرها مباركة، فليلة القدر مباركة، وما حول المسجد الأقصى مبارك، وأرض الشام وصفها بالبركة في أربعة مواضع من كتابه أو خمسة، وتدبر قول النبي ﷺ في حديث ثوبان الذي رواه مسلم في صحيحه عند انصرافه من الصلاة: «**اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام**»[1]. فتأمل هذه الألفاظ الكريمة كيف جمعت نوعي الثناء أعني ثناء التنزيه والتسبيح، وثناء الحمد والتمجيد بأبلغ لفظ وأوجزه وأتمه معنى، فأخبر أنه السلام ومنه السلام، فالسلام له وصفًا وملكًا وقد تقدم بيان هذا في وصفه تعالى بالسلام، وأن صفات كماله ونعوت جلاله وأفعاله وأسمائه كلها سلام، وكذا الحمد كله له وصفًا وملكًا، فهو المحمود في ذاته، وهو الذي يجعل من يشاء من عباده محمودًا، فيهبه حمدًا من عنده، وكذلك العزة كلها له وصفًا وملكًا، وهو العزيز الذي لا شيء أعز منه، ومن عز من عباده فبإعزازه له،

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٥٩١، ٥٩٢) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٣٦) (١١/ ١٣٣).

وكذلك الرحمة كلها له وصفًا وملكًا، وكذلك البركة، فهو المتبارك في ذاته الذي يبارك فيمن شاء من خلقه وعليه، فيصير بذلك مباركًا: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر: ٦٤] ﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٥] وهذا بساط وإنما غاية معارف العلماء الدنو من أول حواشيه وأطرافه وأما ما وراء ذلك فكما قال أعلم الخلق بالله، وأقربهم إلى الله، وأعظمهم عنده جاهًا: «لا أحصي ثناء عليك: أنت كما أثنيت على نفسك»[١]. وقال في حديث الشفاعة الطويل: «فأخر ساجدًا لربي، فيفتح عليَّ من محامده بها لا أحسنه الآن»[٢] وفي دعاء الهم والغم: «أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك»[٣]. فدل على أن لله ﷻ أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده دون خلقه، لا يعلمها ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وحسبنا الإقرار بالعجز والوقوف عند ما أذن لنا فيه من ذلك، فلا نغلو فيه، ولا نجفو عنه، وبالله التوفيق.

***

﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٤٨٦) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٨٤) وشرح النووي (٤/ ٢٠٤).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٧١٢) ومسلم (رقم ١٩٤) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٣٦).
(٣) أخرجه ابن حبان (٣/ ٢٥٣ رقم ٩٧٢) وفي الموارد (رقم ٢٣٧٢) وأحمد (١/ ٣٩١، ٤٥٢) وأبو يعلى (٩/ ١٩٨-١٩٩ رقم ٥٢٩٧) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (رقم ١٩٩).

يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ * وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾.

(1) ذكر ابن أبي الدنيا بإسناد عن كعب قال: كان إبراهيم يشرف على سدوم فيقول: ويل لك سدوم يوما مالك فجاءت إبراهيم الرسل وكلمهم إبراهيم في أمر قوم لوط، قالوا: ﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ﴾ [هود: ٧٦] قال: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ [هود: ٧٧] فذهب بهم إلى منزله، فذهبت امرأته، فجاءه قومه يهرعون إليه، فقال: ﴿ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ [هود: ٧٨] أزوجكم بهن ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ [هود: ٧٨] وجعل لوط الأضياف في بيته، وقعد على باب البيت، وقال: ﴿ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود: ٨٠] قال: أي: عشيرة تمنعني. قال: ولم يبعث نبي بعد لوط إلا في عز من قومه، فلما رأت الرسل ما قد لقي لوط في سببهم: ﴿ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا

(١) ٣٩٢ روضة المحبين.

يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود: ٨١] فخرج [عليهم] جبريل عليه السلام فضرب وجوههم بجناحه ضربة، طمست أعينهم، قال: والطمس أن تذهب حتى تستوي، واحتمل مدائنهم حتى سمع أهل سماء الدنيا نبيح كلابهم وأصوات ديوكهم، ثم قلبها، وأمطر الله عليهم حجارة من سجيل، قال على أهل بواديهم وعلى رعاتهم وعلى مسافريهم، فلم ينفلت منهم إنسان(١).

وقال مجاهد: نزل جبرل عليه السلام فأدخل جناحه تحت مدائن قوم لوط فرفعها، حتى سمع أهل السماء نبيح الكلاب وأصوت الدجاج والديكة، ثم قلبها، فجعل أعلاها أسفلها، ثم أتبعوا بالحجارة(٢).

وفي تفسير أبي صالح: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أغلق لوط على ضيفه الباب، فخلعوا الباب ودخلوا، فطمس جبريل أعينهم فذهبت أبصارهم، فقالوا: يا لوط جئتنا بالسحرة؟ وتوعدوه، فأوجس في نفسه خيفة، قال: يذهب هؤلاء ونؤذى. فقالوا: لا تخف إنا رسل ربك، إن موعدهم الصبح، قال لوط: الساعة، قال جبريل: أليس الصبح بقريب؟ قال: فرفعت المدينة حتى سمع أهل السماء نبيح الكلاب، ثم أُقْلِبَتْ ورموا بالحجارة(٣).

وقال حذيفة بن اليمان: لما أرسلت الرسل إلى قوم لوط لتهلكهم، قيل لهم: لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط ثلاث مرات وطريقهم على إبراهيم، قال فأتوا إبراهيم فبشروه بما بشروه ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود: ٧٤] قال: كان مجادلته إياهم أن قال لهم: إن كان فيهم خمسون

(١) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٩٧) وتفسير السيوطي (٤/ ٤٤٧) وتفسير ابن كثير (٢/ ٤٥٥-٤٥٦).
(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٥٠/ ٣٢٥).
(٣) عزاه السيوطي إلى ابن أبي الدنيا في العقوبات. انظر: الدر المنثور (٤/ ٤٦١).

أتهلكونهم؟ قالوا: لا، قال: أفرأيتم إن كان فيهم أربعون؟ قالوا: لا، قال: فثلاثون؟ قالوا: لا، حتىٰ انتهىٰ إلىٰ عشرة أو خمسة، فأتوا لوطًا وهو في أرض يعمل فيها، فحسبهم ضيفًا، فأقبل بهم حين أمسىٰ إلىٰ أهله، فأتوا معه فالتفت إليهم، فقال: أما ترون ما يصنع هؤلاء؟ قالوا: وما يصنعون؟ قال: ما من الناس أحد شر منهم قال: فانتهىٰ بهم إلىٰ أهله، فانطلقت العجوز السوء امرأته فأتت قومه، فقالت: لقد تضيف لوطًا الليلة قومٌ ما رأيت قط أحسن وجوهًا، ولا أطيب ريحًا منهم، فأقبلوا يهرعون إليه حتىٰ دفعوا الباب، ثم كادوا أن يقلبوه عليهم، فقام ملك بجناحه فصفقه دونهم، ثم أغلق الباب، ثم علوا الأجاجير، فجعل يخاطبهم، فقال: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾، حتىٰ بلغ ﴿ أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ ﴾ [هود: ٧٨-٨١] فطمس جبريل أعينهم، فما بقي أحد منهم تلك الليلة حتىٰ عمي، قال: فباتوا بشر ليلة عميا، ينتظرون العذاب، قال وسار بأهله، واستأذن جبريل عليه السلام في هلاكهم، فأذن له فارتفع بالأرض التي كانوا عليها، فألوىٰ بها حتىٰ سمع أهل السماء الدنيا ضغاء كلابهم، وأوقد تحتها نارًا، ثم قلبها بهم، قال: فسمعت امرأته الوجبة وهي معه فالتفتت، فأصابها العذاب[(١)].

[(٢)]قول لوط لقومه: ﴿ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ [هود: ٧٨] يجمع أنواعًا من الاستعطاف:

أحدها: خطابهم بخطاب الناصح المشفق بقوله: ﴿ يَٰقَوْمِ ﴾، ولم يقل: يا هؤلاء.

الثاني: عرضه بناته عليهم بقوله: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى ﴾.

الثالث: تنجيز ذلك بالإشارة بلفظ الحضور.

الرابع: ترغيبه فيهن لطهارتهن وطيبهن.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٣٣١-٣٣٢ رقم ٣١٨٣٥) والطبري في تفسيره (١٢/ ٨١).

(٢) ٢٢٢ البدائع جـ٣.

الخامس: تذكيرهم بالله بقوله: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾.

السادس: المطالبة بحفظ الذمام وترك الأذىٰ بقوله: ﴿ وَلَا تُخْزُونِ ﴾.

السابع: التوبيخ الشديد بقوله: ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾.

(١)وأما الود فهو خالص الحب وألطفه وأرقه، وهو من الحب بمنزلة الرأفة من الرحمة، قال الجوهري: وَدِدت الرجل أوده وُدًّا: إذا أحببته، والوِدُّ والوُدُّ والوَدُّ: المودة، تقول: بودي أن يكون كذا(٢)، وأما قول الشاعر:

أيها العائد المسائل عنا ... وبوديك أن ترىٰ أكفاني(٣)

فإنما أشبع كسرة الدال ليستقيم له البيت فصارت ياء، والودُّ الوديد بمعنىٰ المودود، والجمع أودٌّ مثل قدحٍ وأقدح، وذئبٍ وأذؤب، وهما يتوادَّان وهم أوداء، والودود المحب، ورجالٌ ودداء، يستوي فيه المذكر والمؤنث، لكونه وصفًا داخلًا علىٰ وصف للمبالغة.

قلت: الودود من صفات الله ﷻ أصله من المودة.

واختلف فيه علىٰ قولين: فقيل: هو ودودٌ بمعنىٰ وادٌّ: كضروبٍ بمعنىٰ ضارب، وقتول بمعنىٰ قاتلٍ، ونؤومٍ بمعنىٰ نائم، ويشهد لهذا القول أن فعولًا في صفات الله ﷻ فاعل: كغفورٍ بمعنىٰ غافر، وشكورٍ بمعنىٰ شاكر، وصبورٍ بمعنىٰ صابر، وقيل: بل هو بمعنىٰ مودود وهو الحبيب، وبذلك فسره البخاري في صحيحه، فقال: الودود الحبيب(٤)، والأول أظهر لاقترانه بالغفور في قوله: ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾ [البروج: ١٤] وبالرحيم في قوله: ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود: ٩٠]، وفيه سرٌّ لطيف، وهو أنه [يحب التوابين، وأنه] يحب عبده بعد المغفرة، فيغفر له ويحبه، كما قال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ

---

(١) ٥٢ روضة المحبين.

(٢) انظر: لسان العرب (٣/ ٤٥٤) والنهاية في غريب الحديث (٥/ ١٦٤) ومشارق الأنوار (٢/ ٢٨٢).

(٣) ذكره ابن منظور في لسان العرب (٣/ ٤٥٤).

(٤) ذكره البخاري في كتاب التفسير، باب سورة البروج (ص ٩٧٨) بعد حديث (رقم ٤٩٤٠) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٩٩) (١٣/ ٤٠٨) وعمدة القاري (١٩/ ٢٨٦-٢٨٧).

ﭐلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴾[البقرة: ٢٢٢] فالتائب حبيب الله، فالود أصفى الحب وألطفُه.

...[١]قال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُ ﴾ [هود: ٨٨] وقال بعض السلف: إذا أردت أن يُقبل منك الأمر والنهي: فإذا أمرت بشيء فكن أول الفاعلين له، المؤتمرين به، وإذا نهيت عن شيء، فكن أول المنتهين عنه، وقد قيل:

يا أيُّها الرجلُ المعلمُ غيرَه ... هَلَّا لنفسِكَ كان ذا التعليمُ؟
تصفُ الدواءَ لذي السِّقام من الضنىٰ ... ومن الضنىٰ تُمسِي وأَنت سقيمُ
لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وتَأتي مثلَه ... عارٌ عليك إذا فعلتَ ذميمُ[٢]
ابدأْ بنفسك فانْهَهَا عن غَيِّهَا ... فإذا انتهتْ عنه فأنت حكيمُ
فهناك يُقبلُ ما تقولُ ويُقْتَدَىٰ ... بالقول منك وينفعُ التعليمُ[٣]

فالعمىٰ عن عيب الواعظ: من شروط تمام الانتفاع بموعظته.

وأما تذكر الوعد والوعيد: فإن ذلك يوجب خشيته والحذر منه. ولا تنفع الموعظة إلا لمن آمن به، وخافه ورجاه، قال الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ [هود: ١٠٣]، وقال: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ﴾ [الأعلىٰ: ١٠]، وقال: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٤٥]، وأصرح من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق: ٤٥] فالإيمان بالوعد والوعيد وذكره: شرط في الانتفاع بالعظات والآيات والعبر. يستحيل حصوله بدونه.

---

(١) ٤٤٧ مدارج جـ١.

(٢) هذه الأبيات من بحر الكامل، وقد ذكر الأبيات الثلاثة الأولىٰ ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٣٤/ ١٥٩) بينما ذكر البيتين الأوليين البيهقي في الشعب (٢/ ٣١٦ رقم ١٩٢٧).

(٣) الأبيات الثلاثة الأخيرة ذكرها القرطبي في تفسيره (١/ ٣٦٧)، ونسبها إلىٰ أبي الأسود الدؤلي رحمه الله، وفيه: «عار عليك إذا فعلت عظيم» و«فهناك يقبل إن وعظت ويقتدىٰ» وتنسب هذه الأبيات إلىٰ المتوكل الليثي المتوفىٰ سنة ٨٥هـ وهو من شعراء الحماسة، وله مساجلات مع الأخطل، شهد معاوية وابنه يزيد ومدحه.

***

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

[(١)] من كملت عظمة الحق تعالىٰ في قلبه عظمت عنده مخالفته؛ لأن مخالفة العظيم ليست كمخالفة من دونه، ومن عرف قدر نفسه وحقيقتها وفقرها الذاتي إلىٰ مولاها الحق في كل لحظة وَنَفس، وشدة حاجتها إليه، عظمت عنده جناية المخالفة لمن هو شديد الضرورة إليه في كل لحظة ونفس.

وأيضًا فإذا عرف حقارتها ـ مع عظم قدر من خالفه ـ عظمت الجناية عنده، فشمر في التخلص منها، وبحسب تصديقه بالوعيد ويقينه به، يكون تشميره في التخلص من الجناية، التي تلحق به.

ومدار السعادة وقطب رحاها: علىٰ التصديق بالوعيد. فإذا تعطل من قلبه التصديق بالوعيد خرب خرابًا لا يرجىٰ معه فلاح البتة. والله تعالىٰ أخبر أنه إنما تنفع الآيات والنذر لمن صدق بالوعيد، وخاف عذاب الآخرة، فهؤلاء هم المقصودون بالإنذار، والمنتفعون بالآيات، دون من عداهم، قال الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾ [هود: ١٠٣]، وقال: ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴾ [النازعات: ٤٥]، ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق: ٤٥]، وأخبر تعالىٰ أن أهل النجاة في الدنيا والآخرة هم المصدقون بالوعيد، الخائفون منه، فقال تعالىٰ: ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١٤].

[(٢)] لما ذكر سبحانه في سورة هود عقوبات الأمم المكذبين للرسل، وما حل بهم في الدنيا من الخزي، قال بعد ذلك: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾ [هود:

---

(١) ١٤٥ مدارج جـ١.
(٢) ١٣٠ فوائد.

١٠٣]، فأخبر أن في عقوباته للمكذبين عبرة لمن خاف الآخرة، وأما من لا يؤمن بها ولا يخاف عذابها، فلا يكون ذلك عبرة وآية في حقه، وإذا سمع ذلك قال: لم يزل في الدهر الخير والشر، والنعيم والبؤس، والسعادة والشقاوة، وربما أحال ذلك على أسباب فلكية وقوى نفسانية، وإنما كان الصبر والشكر سببًا لانتفاع صاحبهما بالآيات[١]. ينبني على الصبر والشكر؛ فنصفه صبر ونصفه شكر. فعلى حسب صبر العبد وشكره تكون قوة إيمانه، وآيات الله إنما ينتفع بها من آمن بالله وآياته، ولا يتم له الإيمان إلا بالصبر والشكر، فإن رأس الشكر التوحيد، ورأس الصبر ترك إجابة داعي الهوى؛ فإذا كان مشركًا متبعًا هواه لم يكن صابرًا ولا شكورًا، فلا تكون الآيات نافعة له، ولا مؤثرة فيه إيمانًا.

[٢]وأما أبدية النار ودوامها فقال فيها شيخ الإسلام: فيها قولان معروفان عن السلف والخلف، والنزاع في ذلك معروف عن التابعين.

«قلت»: ههنا أقوال سبعة:

أحدها: أن من دخلها لا يخرج منها أبدًا؛ بل كل من دخلها مخلد فيها أبد الآباد بإذن الله، وهذا قول الخوارج والمعتزلة.

والثاني: أن أهلها يعذبون فيها مدة، ثم تنقلب عليهم، وتبقى طبيعة نارية لهم، يتلذذون بها لموافقتها لطبيعتهم، وهذا قول إمام الاتحادية ابن عربي الطائي. قال في فصوصه: الثناء بصدق الوعد لا بصدق الوعيد والحضرة الإلهية تطلب الثناء المحمود بالذات، فيثنى عليها بصدق الوعد لا بصدق الوعيد، بل بالتجاوز ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾ [إبراهيم: ٤٧] لم يقل: وعيده؛ بل قال: ﴿ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ [الأحقاف: ١٦] مع أنه توعد على ذلك، وأثنى على إسماعيل بأنه كان صادق

(١) هكذا الأصل ولعل في الكلام سقطًا تقديره «لأن الإيمان» إلخ وبه ينتظم الكلام.
(٢) ٢٥٤ حادي الأرواح.

الوعد، وقد زال الإمكان في حق الحق، لما فيه من طلب المرجح[١]:

فلم يبق إلا صادق الوعد وحده ... وما لوعيد الحق عين تعاين

وأن دخلوا دار الشقاء فإنهم ... على لذة فيها نعيم مباين

نعيم جنان الخلد والأمر واحد ... وبينهما عند التجلي تباين

يسمى عذاباً من عذوبة طعمه ... وذاك له كالقشر والقشر صاين[٢]

وهذا في طرف، والمعتزلة الذين يقولون: لا يجوز على الله أن يخلف وعيده، بل يجب عليه تعذيب من توعده بالعذاب في طرف. فأولئك عندهم لا ينجو من النار من دخلها أصلًا، وهذا عنده لا يعذب بها أحد أصلًا، والفريقان مخالفان لما علم بالاضطرار أن الرسول جاء به، وأخبر به عن الله ﷻ.

الثالث: قول من يقول: إن أهلها يعذبون فيها إلى وقت محدود، ثم يخرجون منها، ويخلفهم فيها قوم آخرون، وهذا القول حكاه اليهود للنبي، فأكذبهم فيه، وقد أكذبهم الله تعالى في القرآن فيه، فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٠-٨١].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣، ٢٤].

فهذا القول إنما هو قول أعداء الله اليهود، فهم شيوخ أربابه والقائلين به، وقد دل القران والسنة وإجماع الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام على فساده.

قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، وقال: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا

---

(١) ذكر المناوي في فيض القدير (١/ ٣٩) كلام ابن عربي.

(٢) ذكر الأبيات الأربعة المناوي في فيض القدير (١/ ٣٩).

بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر: ٤٨]، وقال: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ [الحج: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ [السجدة: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف: ٤٠].

وهذا أبلغ ما يكون في الإخبار عن استحالة دخولهم الجنة.

الرابع: قول من يقول يخرجون منها وتبقى نارًا على حالها، ليس فيها أحد يعذب، حكاه شيخ الإسلام والقرآن والسنة أيضًا يردان على هذا القول كما تقدم.

الخامس: قول من يقول: بل تفنى بنفسها؛ لأنها حادثة بعد أن لم تكن، وما ثبت حدوثه استحال بقاؤه وأبديته، وهذا قول جهم بن صفوان وشيعته، ولا فرق عنده في ذلك بين الجنة والنار.

السادس: قول من يقول: تفنى حياتهم وحركاتهم، ويصيرون جمادًا لا يتحركون ولا يحسون بألم، وهذا قول أبي الهذيل العلاف إمام المعتزلة، طردًا لامتناع حوادث لا نهاية لها، والجنة والنار عنده سواء في هذا الحكم.

السابع: قول من يقول: بل يفنيها ربها وخالقها تبارك وتعالى، فإنه جعل لها أمدًا تنتهي إليه، ثم تفنى ويزول عذابها.

قال شيخ الإسلام: وقد نقل هذا القول عن عمر وابن مسعود وأبي هريرة وأبي سعيد وغيرهم.

وقد روى عبد بن حميد وهو من أجل أئمة الحديث في تفسيره المشهور: حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن الحسن قال: قال عمر: **«لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه»**.

وقال: حدثنا حجاج بن منهال، عن حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن: أن عمر ابن الخطاب قال: «لو لبث أهل النار في النار عدد رمل عالج لكان لهم يوم يخرجون

فيه»[١]. ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابًا ﴾ [النبأ: ٢٣]، فقد رواه عبد وهو من الأئمة الحفاظ وعلماء السنة عن هذين الجليلين سليمان بن حرب وحجاج بن منهال، وكلاهما عن حماد بن سلمة وحسبك به وحماد يرويه عن ثابت وحميد، وكلاهما يرويه عن الحسن، وحسبك بهذا الإسناد جلالة، والحسن وإن لم يسمع من عمر، فإنما رواه عن بعض التابعين، ولو لم يصح عنده ذلك عن عمر لما جزم به، وقال عمر بن الخطاب: ولو قدر أنه لم يحفظ عن عمر فتداول هؤلاء الأئمة له غير مقابلين له بالإنكار، والرد مع أنهم ينكرون على من خالف السنة بدون هذا، فلو كان هذا القول عند هؤلاء الأئمة من البدع المخالفة لكتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأئمة لكانوا أول منكر له.

قال: ولا ريب أن من قال هذا القول عن عمر ونقله عنه، إنما أراد بذلك جنس أهل النار، الذين هم أهلها، فأما قوم أصيبوا بذنوبهم فقد علم هؤلاء وغيرهم: أنهم يخرجون منها، وأنهم لا يلبثون قدر رمل عالج ولا قريبًا منه، ولفظ أهل النار لا يختص بالموحدين، بل يختص بمن عداهم، كما قال النبي ﷺ: **«أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون»**[٢].

ولا يناقض هذا قوله تعالى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ [هود: ١٠٧] وقوله: ﴿ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ﴾ [الحجر: ٤٨] بل ما أخبر الله به هو الحق والصدق، الذي لا يقع خلافه، لكن إذا انقضى أجلها وفنيت تفنى الدنيا لم تبق نارًا، ولم يبق فيها عذاب.

قال أرباب هذا القول: وفي تفسير علي بن أبي طلحة الوالبي: عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام:

---

(١) ذكره السيوطي في الدر (٤/ ٤٧٨) وعزاه إلى ابن المنذر. وقال ابن حجر في الفتح (١١/ ٤٢٢): وهو منقطع، بينما قال المناوي في فيض القدير (١/ ٤٠): رجاله ثقات.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٨٥) وانظر: شرح النووي (٣/ ٣٧).

١٦٨] قال: لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه، ولا ينزلهم جنة ولا نارًا[1].

قالوا: وهذا الوعيد في هذه الآية ليس مختصا بأهل القبلة، فإنه سبحانه قال: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٨، ١٢٩] وأولياء الجن من الإنس يدخل فيه الكفار قطعا فإنهم أحق بموالاتهم من عصاة المسلمين، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٧] وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١، ٢٠٢]، وقال تعالى: ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ﴾ [الكهف: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ [النساء: ٧٦] وقال تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [المجادلة: ١٩].

***

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

[2]الطبقة التاسعة: طبقة أهل النجاة، وهي طبقة من يؤدي فرائض الله، ويترك محارم الله، مقتصراً على ذلك، لا يزيد عليه ولا ينقص منه. فلا يتعدى إلى ما حرم الله عليه، ولا

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٨/ ٣٤) وانظر: الدر المنثور (٣/ ٣٥٧) وتفسير ابن كثير (٢/ ١٧٧).
(٢) ٣٨٠ طريق الهجرتين.

يزيد على ما فرض عليه. هذا من المفلحين بضمان رسول الله ﷺ لمن أخبره بشرائع الإسلام، فقال: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه ؛ فقال ﷺ: «أفلح إن صدق»(١)، وأصحاب هذه الطبقة مضمون لهم على الله تكفير سيئاتهم، إذا أدوا فرائضه واجتنبوا كبائر ما نهاهم عنه. قال تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء: ٣١].

وصح عنه ﷺ أنه قال: «الصلوات الخمس، ورمضان إلى رمضان، والجمعة إلى الجمعة، مكفرات لما بينهن ما لم تغش كبيرة»(٢)، فإن غشي أهل هذه الطبقة كبيرة وتابوا منها توبة نصوحاً لم يخرجوا من طبقتهم، وكانوا بمنزلة من لا ذنب له. فتكفير الصغائر يقع بشيئين: أحدهما: الحسنات الماحية. والثاني: اجتناب الكبائر. وقد نص عليها ﷻ في كتابه، فقال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ [النساء:٣١].

(الطبقة العاشرة): طبقة قوم أسرفوا على أنفسهم، وغشوا كبائر ما نهى الله عنه، ولكن رزقهم الله التوبة النصوح قبل الموت، فماتوا على توبة صحيحة. فهؤلاءِ ناجون من عذاب الله: إما قطعًا عند قوم، وإما ظنًّا ورجاء عند آخرين، وهم موكولون إلى المشيئة، ولكن نصوص القرآن والسنة تدل على نجاتهم وقبول توبتهم، وهو وعد وعدهم الله إياه، والله لا يخلف الميعاد.

فإن قيل: فما الفرق بين أهل هذه الطبقة والتي قبلها؟ فإن الله إذا كفر عنهم سيئاتهم، وأثبت لهم بكل سيئة حسنة كانوا كمن قبلهم أو أرجح؟

قيل: قد تقدم الكلام على هذه المسألة بما فيه كفاية، فعليك بمعاودته هناك.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٦) ومسلم (رقم ١١) وانظر: الفتح (١/ ١٠٧-١٠٨).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٣٣) وانظر: الفتح (٤/ ١١١) وشرح النووي (٣/ ١١٣، ١١٨).

وكيف يستوي عند الله من أنفق عمره في طاعته ولم يغش كبيرة، ومن لم يدع كبيرة إلا ارتكبها، وفرط في أوامره، ثم تاب؟ فهذا غايته أن تمحى سيئاته ويكون لا له ولا عليه. وأما أن يكون هو ومن قبله سواءً أو أرجح منه فكلا.

...[1]وجاءته ﷺ الغامدية، فقالت: إني قد زنيت فطَهِّرني، وإنه ردها، فقالت: تردني كما ردَدت ماعزًا، فوالله إني لحبلى، فقال: «اذهبي حتى تلدي»، فلما ولدت أتته بالصبي في خرقة، فقالت: هذا قد ولدته، فقال: «اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه»، فلما فطمته أتته به، وفي يده كسرة من خبز؛ فقالت: هذا قد فطمته وأكل الطعام، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها، وأمر الناس فرجموها، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها، فنضح الدم على وجهه، فسبها، فسمع نبي الله ﷺ سبه إياها، فقال: «**مهلًا يا خالد، فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابَهَا صاحب مكس لغفر له**» ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت[2]، ذكره مسلم.

وجاءه ﷺ رجل، فقال: يا رسول الله إني أصبت حدًّا فأقمه عليّ، ولم يسأله عنه، وحضرت الصلاة، فصلى مع النبي ﷺ، فقام إليه الرجل فقال: يا رسول الله إني أصبت حدًّا فأقم فيَّ كتاب الله، قال: «**أليس قد صليت معنا**»؟ قال: نعم، قال: «**فإن الله قد غفر لك ذنبك ـ أو قال حَدَّك ـ**»[3] متفق عليه.

وقد اختلف في وجه هذا الحديث؛ فقال طائفة: أقر بحد لم يسمه فلم يجب على الإمام استفساره، ولو سماه لحده كما حد ماعزًا، وقالت طائفة: بل غفر الله له بتوبته، «**والتائب من الذنب كمن لا ذنب له**»[4]، وعلى هذا فمن تاب من الذنب قبل القدرة

---

(١) ٣٧٠ الأعلام جـ٤.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٦٩٥) وانظر: شرح النووي (١١/ ٢٠٣).

(٣) أخرجه البخاري (٦٨٢٣) ومسلم (رقم ٢٧٦٤) وانظر: الفتح (١٢/ ١٣٤).

(٤) أخرجه ابن ماجه (رقم ٤٢٥٠) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٥٤ رقم ٢٠٣٤٨) وفي الشعب (٥/ ٤٣٦ رقم ٧١٧٨) والطبراني في الكبير (١٠/ ١٥٠ رقم ١٠٢٨١) وفي الدعاء (رقم ١٨٠٧) والقضاعي في =

عليه سقطت عنه حقوق الله تعالى، كما تسقط عن المحارب، وهذا هو الصواب.

وسأله ﷺ رجل فقال: أصبت من امرأته قبلة، فنزلت ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود: ١١٤] فقال الرجل: ألي هذه؟ فقال: «بل لمن عمل بها من أمتي»[١] متفق عليه.

وقد استدل به من يرى أن التعزير ليس بواجب، وأن للإمام إسقاطه، ولا دليل فيه، فتأمله.

[٢]وسأله ﷺ رجل فقال: يا رسول الله، ما تقول في رجل لقي امرأة لا يعرفها، فليس يأتي الرجل من امرأته شيء إلا قد أتاه منها، غير أنه لم يجامعها؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود: ١١٤] فقال له النبي ﷺ: «توضأ ثم صلِّ» فقال معاذ: فقلت يا رسول الله أله خاصة أم للمؤمنين عامة؟ قال: «بل للمؤمنين عامة»[٣].

***

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾.

= مسند الشهاب (١/ ٩٧ رقم ١٠٨) وقال المنذري في الترغيب (٤/ ٤٨ رقم ٤٧٥٨): ورواه الطبراني رواة الصحيح. وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٠٠): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه، وحسنه الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/ ٤٧١).

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٦٨٧) ومسلم (رقم ٢٧٦٨) وانظر: الفتح (٨/ ٣٥٧).

(٢) ٢٧٨ الأعلام جـ٤.

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٣١١٣) والحاكم (١/ ٢٢٩ رقم ٤٧١) والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٣٦ رقم ٢٧٧) وأحمد (٥/ ٢٤٤) وعبد بن حميد (رقم ١١٠) وانظر: عمدة القاري (٥/ ١١).

[١]استشهاده بهذه الآية في هذا الباب: يدل على رسوخه في العلم والمعرفة، وفهم القرآن؛ فإن الغرباء في العالم: هم أهل هذه الصفة المذكورة في الآية، وهم الذين أشار إليهم النبي ﷺ في قوله: **«بدأ الإسلام غريبًا. وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء»** قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: **«الذين يصلحون إذا فسد الناس»**[٢].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن زهير، عن عمرو بن أبي عمرو ـ مولى المطلب بن حَنْطَب ـ عن المطلب بن حنطب، عن النبي ﷺ: **«طوبى للغرباء»**، قالوا: يا رسول الله، ومن الغرباء؟: قال: **«الذين يزيدون إذا نقص الناس»**[٣].

فإن كان هذا الحديث بهذا اللفظ محفوظًا ـ لم ينقلب على الراوي لفظه، وهو: **«الذين ينقصون إذا زاد الناس»**[٤] ـ فمعناه: الذين يزيدون خيرًا وإيمانًا وتُقىً إذا نقص الناس من ذلك، والله أعلم.

وفي حديث الأعمش عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء»** قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: **«النزاع من القبائل»**[٥] وفي حديث عبدالله بن

---

(١) ١٩٤ مدارج جـ٣.

(٢) أخرجه مسلم مختصرًا على شطره الأول (رقم ١٤٥). وأخرجه أحمد بلفظ المصنف (٤/ ٧٣) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٣٩ رقم ١٠٥٥) والديلمي في الفردوس (٢/ ٢٩-٣٠ رقم ٢١٨٥) وتمام في فوائده (٢/ ١٤-١٥ رقم ١٠٠٠) والطبراني في الأوسط (٣/ ٢٥٠ رقم ٣٠٥٦) وفي الصغير (رقم ٢٩٠) وفي الكبير (٨/ ١٥٢ رقم ٧٦٥٩) وهناد في الزهد (٢/ ٥٨٦-٥٨٧ رقم ١٢٤٥) والبيهقي في الزهد الكبير (٢/ ١١٤ رقم ١٩٩) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٧٨): رواه الطبراني في الثلاثة ورجاله رجال الصحيح غير بكر بن سليم وهو ثقة وانظر: فتح الباري (٧/ ٧).

(٣) لم أجد هذا اللفظ.

(٤) لم أجد هذا اللفظ.

(٥) أخرجه ابن ماجه (رقم ٣٩٨٨) وأحمد (١/ ٣٩٨) والبزار (٥/ ٤٣٣ رقم ٢٠٦٩) وأبو يعلى (٨/ ٣٨٨ رقم ٤٩٧٥) والدارمي (رقم ٢٧٥٥) وابن أبي شيبة (٧/ ٨٣ رقم ٣٤٣٦٦) والبيهقي في الزهد الكبير (٢/ ١١٧ رقم ٢٠٦) والخطيب في شرف أصحاب الحديث (ص ٢٣) وانظر: شرح النووي =

عمرو قال: قال النبي ﷺ ذات يوم ونحن عنده: «**طوبى للغرباء**» قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: «**ناس صالحون قليل في ناس كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم**»[(١)].

وقال أحمد: حدثنا الهيثم بن جميل، حدثنا محمد بن مسلم، حدثنا عثمان بن عبد الله عن سليمان بن هرمز، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «**إن أحب شيء إلى الله الغرباء**» قيل: ومن الغرباء؟ قال: «**الفرارون بدينهم، يجتمعون إلى عيسى ابن مريم عليه السلام يوم القيامة**»[(٢)].

وفي حديث آخر: «**بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء**» قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: «**الذي يحيون سنتي، ويعلمونها الناس**»[(٣)].

وقال نافع عن مالك: «دخل عمر بن الخطاب المسجد، فوجد معاذ بن جبل جالسًا إلى بيت النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو يبكي، فقال له عمر: ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن؟ هلك أخوك؟ قال: لا، ولكن حديثًا حدثنيه حبيبي ﷺ وأنا في هذا المسجد. فقال: ما هو؟ قال: «**إن الله يحب الأخفياء الأتقياء الأبرياء، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذا حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل**

(٢/ ١٧٧) وشرح سنن ابن ماجه (١/ ٢٨٧) وفيض القدير (٢/ ٣٢٢).

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٧، ٢٢٢) وابن المبارك في مسنده (رقم ٢٣) وفي الزهد (رقم ٧٧٥) والبيهقي في الزهد الكبير (٢/ ١١٦ رقم ٢٠٣) والفسوي في المعرفة والتاريخ (٢/ ٣٠٠) والطبراني في الأوسط (٩/ ١٤ رقم ٨٩٨٦) وقال المنذري في الترغيب (٤/ ٦٤ رقم ٤٨١٨): وأحد إسنادي الطبراني رواته رواة الصحيح. وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٥٩): وله في الكبير أسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح.

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (ص ١٤٩) والآجري في الغرباء (رقم ٣٧) والبيهقي في الزهد الكبير (٢/ ١١٦ رقم ٢٠٤) وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (رقم ١٦) وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٢٥) وأبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن (٢/ ٤٣٠ رقم ١٦٠)، وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٤٩).

(٣) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٣٨ رقم ١٠٥٢) والبيهقي في الزهد الكبير (٢/ ١١٧ رقم ٢٠٥) والخطيب في شرف أصحاب الحديث (ص ٢٣) وانظر: مفتاح الجنة للسيوطي (ص ٦٧).

فتنة عمياء مظلمة»(١).

فهؤلاء هم الغرباء الممدوحون المغبوطون ولقلتهم في الناس جدًّا سموا «غرباء»، فإن أكثر الناس على غير هذه الصفات، فأهل الإسلام في الناس غرباء، والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء. وأهل العلم في المؤمنين غرباء، وأهل السنة ـ الذين يميزونها من الأهواء والبدع ـ فهم غرباء، والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين هم أشد هؤلاء غربة، ولكن هؤلاء هم أهل الله حقًّا، فلا غربة عليهم، وإنما غربتهم بين الأكثرين الذين قال الله ﷻ فيهم: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] فأولئك هم الغرباء من الله ورسوله ودينه، وغربتهم هي الغربة الموحشة، وإن كانوا هم المعروفين المشار إليهم، كما قيل:

فليس غريبًا من تناءت دياره ... ولكن من تنأين عنه غريب(٢)

ولما خرج موسى عليه السلام هاربًا من قوم فرعون انتهى إلى مدين، على الحال التي ذكر الله، وهو وحيد غريب خائف جائع، فقال: «يا رب وحيد مريض غريب، فقيل له: يا موسى، الوحيد من ليس له مثلي أنيس، والمريض من ليس له مثلي طبيب، والغريب من ليس بيني وبينه معاملة».

فالغربة ثلاثة أنواع: غربة أهل الله وأهل سنة رسوله بين هذا الخلق، وهي الغربة التي مدح رسول الله ﷺ أهلها، وأخبر عن الدين الذي جاء به أنه بدأ غريبًا، وأنه

---

(١) أخرجه الآجري في الغرباء (رقم ٣٨) والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٥٣ رقم ٣٢١) وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٣١) وتأويل مختلف الحديث (ص ٢٩٨) وحلية الأولياء (٣/ ٢٤٨) وتاريخ مدينة دمشق (٢٢/ ٤٤).

(٢) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى مجنون ليلى المتوفى ٦٨هـ وإلى الأحوص الأنصاري: عبد الله ابن محمد بن عبد الله، الشاعر الإسلامي الأموي من طبقة جميل عبد الله بن عبيد الله بن أحمد من أرق الناس شعرًا مات سنة ١٣٠هـ. وذكر البيت ابن الجوزي في المنتظم (٦/ ١٢٩) ونسبه إلى (مجنون ليلى) قيس بن الملوح، وفيه صدر البيت: فلا تحسبي أن الغريب الذي نأى.

سيعود غريبًا كما بدأ، وأن أهله يصيرون غرباء.

وهذه الغربة قد تكون في مكان دون مكان، ووقت دون وقت، وبين قوم دون قوم، ولكن أهل هذه «الغربة» هم أهل الله حقًّا، فإنهم لم يأووا إلى غير الله، ولم ينتسبوا إلى غير رسوله ﷺ، ولم يدعوا إلى غير ما جاء به، وهم الذين فارقوا الناس أحوج ما كانوا إليهم، فإذا انطلق الناس يوم القيامة مع آلهتهم بقوا في مكانهم، فيقال لهم: **«ألا تنطلقون حيث انطلق الناس؟ فيقولون: فارقنا الناس ونحن أحوج إليهم منا اليوم، وإنا ننتظر ربنا الذي كنا نعبده»**[(١)].

فهذه «الغربة» لا وحشة على صاحبها، بل هو آنس ما يكون إذا استوحش الناس، وأشد ما تكون وحشته إذا استأنسوا، فوليه الله ورسوله والذين آمنوا، وإن عاداه أكثر الناس وجفوه.

وفي حديث القاسم عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال عن الله تعالى: «**إن أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذ، ذو حظ من صلاته، أحسن عبادة ربه، وكان رزقه كفافًا، وكان مع ذلك غامضًا في الناس، لا يشار إليه بالأصابع، وصبر على ذلك حتى لقي الله، ثم حلت منيته، وقل تراثه، وقلت بواكيه**»[(٢)] ومن هؤلاء الغرباء: من ذكرهم أنس في حديثه عن النبي ﷺ: «**رب أشعث أغبر ذي طمرين، لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره**»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٥٨١) ومسلم (رقم ١٨٣) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٥٠) وشرح النووي (٣/ ٢٧).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٣٤٧) والحميدي في مسنده (٢/ ٤٠٤ رقم ٩٠٩) وأحمد (٥/ ٢٥٢) والبيهقي في الشعب (٧/ ٢٩٣ رقم ١٠٣٥٧) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٢/ ٩٤) والطبراني في الكبير (٨/ ٢١٣ رقم ٧٨٦٠) والديلمي في الفردوس (٣/ ١٧٠ رقم ٤٤٥٣) وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (رقم ١٣) وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٢٥).

(٣) أخرجه مسلم بلفظ قريب (رقم ٢٦٢٢) والضياء في المختارة (٥/ ٢٥٤ رقم ١٨٨٢) والحاكم =

وفي حديث أبي إدريس الخولاني عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال: «**ألا أخبركم عن ملوك أهل الجنة**» قالوا: بلىٰ يا رسول الله، قال: «**كل ضعيف أغبر ذي طمرين، لا يؤبه له، لو أقسم علىٰ الله لأبره**»[(١)] وقال الحسن: المؤمن في الدنيا كالغريب، لا يجزع من ذلها، ولا ينافس في عزها، للناس حال، وله حال، الناس منه في راحة، وهو من نفسه في تعب[(٢)].

ومن صفات هؤلاء الغرباء الذين غبطهم النبي ﷺ: التمسك بالسنة إذا رغب عنها الناس، وترك ما أحدثوه، وإن كان هو المعروف عندهم، وتجريد التوحيد وإن أنكر ذلك أكثر الناس، وترك الانتساب إلىٰ أحد غير الله ورسوله، لا شيخ ولا طريقة ولا مذهب ولا طائفة، بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلىٰ الله بالعبودية له وحده، وإلىٰ رسوله بالاتباع لما جاء به وحده، وهؤلاء هم القابضون علىٰ الجمر حقًّا، وأكثر الناس ـ بل كلهم ـ لائم لهم. فلغربتهم بين هذا الخلق يعدونهم أهل شذوذ وبدعة، ومفارقة للسواد الأعظم.

ومعنىٰ قول النبي ﷺ: «**هم النزاع من القبائل**»[(٣)] أن الله سبحانه بعث رسوله وأهل

(٤/ ٣٦٤ رقم ٧٩٣٢) والبيهقي في الشعب (٧/ ٣٣١ رقم ١٠٤٨٢) والطبراني في الأوسط (١/ ٢٦٤ رقم ٨٦١) وقال المنذري في الترغيب (٤/ ٧٣ رقم ٤٨٥٠): رواه الطبراني في الأوسط ورواته رواة الصحيح، وانظر: شرح النووي (١٦/ ١٧٤).

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٧/ ٣٣٣ رقم ١٠٤٨٨) والآجري في الغرباء (رقم ٢٩) والطبراني في الكبير (٢٠/ ٨٤ رقم ١٥٩) وفي مسند الشاميين (٢/ ٢٠٥ رقم ١١٩٢) وانظر: فيض القدير (٣/ ١٠٠).

(٢) أخرجه أحمد مختصرًا في الزهد (ص ٢٦٢) والآجري في الغرباء (رقم ٧) وأبو نعيم في تاريخ أصبهان (١/ ١٧٧).

(٣) أخرجه ابن ماجه (رقم ٣٩٨٨) والدارمي (رقم ٢٧٥٥) وابن أبي شيبة (٧/ ٨٣ رقم ٣٤٣٦٦) وأحمد (١/ ٣٩٨) وأبو يعلىٰ (٨/ ٣٨٨ رقم ٤٩٧٥) والبزار (٥/ ٤٣٣ رقم ٢٠٦٩) والآجري في الغرباء (رقم ٢) والبيهقي في الزهد الكبير (٢/ ١١٧ رقم ٢٠٦) والخطيب في شرف أصحاب الحديث (ص ٢٣) وانظر: شرح النووي (٢/ ١٧٧).

الأرض علىٰ أديان مختلفة، فهم بين عباد أوثان ونيران، وعباد صور وصلبان، ويهود وصابئة وفلاسفة، وكان الإسلام في أول ظهوره غريبًا، وكان من أسلم منهم واستجاب لله ولرسوله غريبا في حيه وقبيلته وأهله وعشيرته.

فكان المستجيبون لدعوة الإسلام نزاعًا من القبائل، بل آحادًا منهم، تغربوا عن قبائلهم وعشائرهم ودخلوا في الإسلام فكانوا هم الغرباء حقا، حتىٰ ظهر الإسلام، وانتشرت دعوته، ودخل الناس فيه أفواجا، فزالت تلك الغربة عنهم، ثم أخذ في الاغتراب والترحل، حتىٰ عاد غريبا كما بدأ، بل الإسلام الحق ـ الذي كان عليه رسول الله ﷺ، وأصحابه ـ هو اليوم أشد غربة منه في أول ظهوره، وإن كانت أعلامه ورسومه الظاهرة مشهورة معروفة، فالإسلام الحقيقي غريب جدًّا، وأهله غرباء أشد الغربة بين الناس.

وكيف لا تكون فرقة واحدة قليلة جدًّا غريبة بين اثنتين وسبعين فرقة، ذات أتباع ورئاسات ومناصب وولايات، ولا يقوم لها سوق إلا بمخالفة ما جاء به الرسول، فإن نفس ما جاء به: يضاد أهواءهم ولذاتهم، وما هم عليه من الشبهات والبدع، التي هي منتهىٰ فضيلتهم وعملهم، والشهوات التي هي غايات مقاصدهم وإراداتهم؟

فكيف لا يكون المؤمن السائر إلىٰ الله علىٰ طريق المتابعة غريبا بين هؤلاء، الذين قد اتبعوا أهواءهم، وأطاعوا شحهم، وأعجب كل منهم برأيه؟ كما قال النبي ﷺ: **«مروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، حتىٰ إذا رأيتم: شحًّا مطاعًا، وهوىً متبعًا ودنيًا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، ورأيت أمرًا لا يَدَ لك به، فعليك بخاصة نفسك، وإياك وعوامهم، فإن وراءكم أياما صبر الصابر فيهن كالقابض علىٰ الجمر»**[(١)].

ولهذا جعل للمسلم الصادق في هذا الوقت إذا تمسك بدينه أجر خمسين من الصحابة.

---

(١) أخرجه ابن حبان (٢/ ١٠٨-١٠٩ رقم ٣٨٥) وفي الموارد (رقم ١٨٥٠) وأبو داود (رقم ٤٣٤١) وابن ماجه (رقم ٤٠١٤) والترمذي (رقم ٣٠٥٨) وحسنه.

ففي سنن أبي داود والترمذي ـ من حديث أبي ثعلبة الخشني ـ قال: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة:ك ١٠٥] فقال: «**بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت: شحًّا مطاعًا، وهوى متبعًا، ودنيًا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع عنك العوام، فإن من وراءكم أيام الصبر فيهن مثل قبضٍ على الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين رجلًا، يعملون مثل عمله**» قلت: يا رسول الله ﷺ أجر خمسين منهم؟ قال: «**أجر خمسين منكم**»[1]. وهذا الأجر العظيم إنما هو لغربته بين الناس والتمسك بالسنة بين ظلمات أهوائهم وآرائهم، فإذا أراد المؤمن الذي قد رزقه الله بصيرة في دينه، وفقها في سنة رسوله، وفهما في كتابه، وأراه ما الناس فيه من الأهواء والبدع والضلالات، وتنكبهم عن الصراط المستقيم، الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه.

فإذا أراد أن يسلك هذا الصراط فليوطن نفسه على قدح الجهال وأهل البدع فيه، وطعنهم عليه وإزرائهم به، وتنفير الناس عنه، وتحذيرهم منه، كما كان سلفهم من الكفار يفعلون مع متبوعه وإمامه ﷺ.

فأما إن دعاهم إلى ذلك وقدح فيما هم عليه، فهنالك تقوم قيامتهم، ويبغون له الغوائل، وينصبون له الحبائل، ويجلبون عليه بخيل كبيرهم ورجله.

فهو غريب في دينه لفساد أديانهم، غريب في تمسكه بالسنة لتمسكهم بالبدع، غريب في اعتقاده لفساد عقائدهم، غريب في صلاته لسوء صلاتهم، غريب في طريقه لضلال وفساد طرقهم، غريب في نسبته لمخالفة نسبهم، غريب في معاشرته لهم، لأنه يعاشرهم على ما لا تهوى أنفسهم.

وبالجملة: فهو غريب في أمور دنياه وآخرته، لا يجد من العامة مساعدا ولا معينا، فهو عالم بين جهال، صاحب سنة بين أهل بدع، داع إلى الله ورسوله بين دعاة إلى الأهواء

---

(١) انظر ما قبله.

والبدع، آمر بالمعروف ناه عن المنكر بين قوم المعروف لديهم منكر والمنكر معروف.

النوع الثاني من الغربة: غربة مذمومة: وهي غربة أهل الباطل، وأهل الفجور بين أهل الحق. فهي غربة بين حزب الله المفلحين، وإن كثر أهلها، فهم غرباء على كثرة أصحابهم وأشياعهم، أهل وحشة على كثرة مؤنسهم، يُعرفون في أهل الأرض، ويخفون على أهل السماء.

النوع الثالث: غربة مشتركة لا تحمد ولا تذم، وهي الغربة عن الوطن، فإن الناس كلهم في هذه الدار غرباء، فإنها ليست لهم بدار مقام، ولا هي الدار التي خلقوا لها: وقد قال النبي ﷺ لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**»[1]. وهكذا هو نفس الأمر؛ لأنه أمر أن يطالع ذلك بقلبه، ويعرفه حق المعرفة. ولي من أبيات في هذا المعنى:

وحي على جنات عدن فإنها ... منازلك الأولى وفيها المخيم
ولكننا سبي العدو فهل ترى ... نعود إلى أوطاننا ونسلم
وأي اغتراب فوق غربتنا التي ... لها أضحت الأعداء فينا تحكم
وقد زعموا أن الغريب إذا نأى ... وشطت به أوطانه ليس ينعم
فمن أجل ذا لا ينعم العبد ساعة ... من العمر إلا بعد ما يتألم[2]

وكيف لا يكون العبد في هذه الدار غريبا وهو على جناح سفر، لا يحل عن راحلته إلا بين أهل القبور، فهو مسافر في صورة قاعد، وقد قيل:

وما هذه الأيام إلا مراحل ... يحث بها داع إلى الموت قاصد

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٤١٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٣٣- ٢٣٤).

(٢) ذكر الأبيات الأربعة الأولى ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم (١/ ٣٨٩-٣٨١) مع اختلاف يسير ـ ونسبها لبعض شيوخه ـ وهذه الأبيات للمصنف ابن قيم الجوزية رحمه الله كما نص عليها هنا، وانظر: القصيدة كلها في كتاب حادي الأرواح (ص ٣٢) وذكر البيتين الأولين في إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (ص ٩٢).

وأعجـــب شـــيء لـــو تأملـــت أنهـــا منـــازل تطـــوىٰ والمـــسافر قاعـــد[١]

[٢]وقال: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧] وفي الآية قولان: أحدهما: ما كان ليهلكها بظلم منهم. الثاني: ما كان ليهلكها بظلم منه.

والمعنىٰ علىٰ القول الأول: ما كان ليهلكها بظلمهم المتقدم، وهم مصلحون الآن، أي إنهم بعد أن أصلحوا، وتابوا لم يكن ليهلكهم بما سلف منهم من الظلم.

وعلىٰ القول الثاني: إنه لم يكن ظالمًا لهم في إهلاكهم، فإنه لم يهلكهم وهم مصلحون! وإنما أهلكهم وهم ظالمون، فهم الظالمون لمخالفتهم، وهو العادل في إهلاكهم، والقولان في آية الأنعام أيضًا ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣١].

قيل: لم يكن مهلكهم بظلمهم وشركهم وهم غافلون، لم ينذروا ولم يأتهم رسول.

وقيل: لم يهلكهم قبل التذكير بإرسال الرسول، فيكون قد ظلمهم؛ فإنه سبحانه لا يأخذ أحدًا ولا يعاقبه إلا بذنبه، وإنما يكون مذنبًا إذا خالف أمره ونهيه. وذلك إنما يعلم بالرسل.

فإذا شاهد العبد القدر السابق بالذنب، علم أن الله سبحانه قدره سببًا مقتضيًا لأثره من العقوبة، كما قدر الطاعة سببًا مقتضيًا للثواب. وكذلك تقدير سائر أسباب الخير والشر، كجعل السم سببًا للموت، والنار سببًا للإحراق، والماء سببًا للإغراق.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة هود

والحمد لله رب العالمين



(١) ذكر البيتين ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٣٨٣).

(٢) ٢١٧ مدارج جـ١.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

(١)أصل التدلية في اللغة الإرسال والتعليق، ويقال: دلَّى الشيء في مهواة؛ إذا أرسله بتعليق، وتدلىٰ الشيء بنفسه، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ﴾ [يوسف: ١٩] قال عامة أهل اللغة: يقال: أدلىٰ دلوه إذا أرسلها في البئر، ودلاها بالتخفيف، إذ نزعها من البئر، فأدلىٰ دلوه يدليه إدلاء إذا أرسلها، ودلاها يدلوها دلوًا، إذا نزعها وأخرجها، ومنه الإدلاء، وهو التوصل إلىٰ الرجل برحم منه، ويشاركه في الاشتقاق الأكبر الدلالة، وهي التوصل إلىٰ الشيء، بإبانته وكشفه، ومنه الدل، وهو ما يدل علىٰ العبد من أفعاله، وكان عبدالله بن مسعود يُشَبَّه برسول الله ﷺ في هديه ودله وسمته(٢)، فالهدي الطريقة التي عليها العبد، من أخلاقه وأقواله وأعماله، والدل ما يدل من ظاهره علىٰ باطنه، والسمت هيأته ووقاره ورزانته.

***

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

(٣)عشق الصور إنما تبتلىٰ به القلوب الفارغة من محبة الله تعالىٰ، المعرضة عنه،

---

(١) ١١٥ إغاثة جـ١.

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٦١ رقم ٥٣٩٦) وابن أبي شيبة (٦/ ٣٨٥ رقم ٣٢٢٤٠) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١/ ١٨٨ رقم ٢٤١) وانظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٤٨٥) (١٣/ ٢١٦) وتذكرة الحفاظ (٢/ ٥٩٢) وتاريخ بغداد (٩/ ٥٨) وتاريخ مدينة دمشق (٢٢/ ١٩٨-١٩٩) والطبقات الكبرىٰ (٣/ ١٥٤) (٦/ ٨٦) وصفة الصفوة (١/ ٣٩٥) (٣/ ٢٧).

(٣) ٣١٩ زاد المعاد جـ٣.

المتعوضة بغيره عنه، فإذا امتلأ القلب من محبة الله، والشوق إلى لقائه،: دفع ذلك عنه مرض عشق الصور، ولهذا قال تعالى في حق يوسف: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤] فدل على أن الإخلاص سبب لدفع العشق، وما يترتب عليه من السوء والفحشاء، التي هي ثمرته ونتيجته فصرف المسبب صرف لسببه، ولهذا قال بعض السلف: العشق حركة قلب فارغ، يعني فارغًا مما سوى معشوقه، قال تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ ﴾ [القصص: ١٠] أي فارغًا من كل شيء، إلا من موسى لفرط محبتها له، وتعلق قلبها به.

والعشق مركب من أمرين: استحسان المعشوق، والطمع في الوصول إليه، فمتى انتفى أحدهما انتفى العشق، وقد أعيت علة العشق على كثير من العقلاء.

وتكلم فيها بعضهم بكلام يرغب عن ذكره إلى الصواب.

فنقول: قد استقرت حكمة الله ﷻ في خلقه وأمره على وقوع التناسب، والتآلف بين الأشباه، وانجذاب الشيء إلى موافقه ومجانسه بالطبع، وهروبه من مخالفه، ونفرته عنه بالطبع، فسر التمازج والاتصال في العالم العلوي والسفلي: إنما هو التناسب والتشاكل والتوافق، وسر التباين والانفصال إنما هو لعدم التشاكل والتناسب، وعلى ذلك قام الخلق والأمر، فالمثل إلى مثله مائل وإليه صائر، والضد عن ضده هارب وعنه نافر[(١)].

[(٢)]قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤] فلما أخلص لربه صرف عنه دواعي السوء والفحشاء، فانصرف عنه السوء والفحشاء.

وهذا لما علم إبليس أنه لا سبيل له على أهل الإخلاص؛ استثناهم من شرطته التي

---

(١) تقدم في آخر الأعراف بقية لهذا البحث (ج).

(٢) ٧٢ مفتاح جـ١.

اشترطها للغواية والإهلاك، فقال: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣] قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٤٢] فالإخلاص هو سبيل الخلاص، والإسلام هو مركب السلامة والإيمان خاتم الأمان.

[١]ودواء هذا الداء القتَّال؛ أن يعرف: أن ما ابتلي به من الداء المضاد للتوحيد أولًا. ثم يأتي من العبادات الظاهرة والباطنة بما يشغل قلبه عن دوام الفكر فيه، ويكثر اللجأ والتضرع إلى الله سبحانه في صرف ذلك عنه، وأن يرجع بقلبه إليه، وليس له دواء أنفع من الإخلاص لله، وهو الدواء الذي ذكره الله في كتابه حيث قال: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤] فأخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء من العشق والفحشاء من الفعل بإخلاصه، فإن القلب إذا خلص وأخلص عمله لله لم يتمكن منه عشق الصور، فإنه إنما تمكن من قلب فارغ، كما قال:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى ... فصادف قلبًا خاليًا فتمكنا[٢]

وليعلم العاقل أن العقل والشرع؛ قد يوجبان: تحصيل المصالح وتكميلها، وإعدام المفاسد وتقليلها، فإذا عرض للعاقل أمر يرى فيه المصلحة والمفسدة وجب عليه أمران: أمر علمي، وأمر عملي، فالعلمي طلب معرفة الراجح من طرفي المصلحة والمفسدة، فإذا تبين له الرجحان وجب عليه إتيان الأصلح له.

ومن المعلوم أنه ليس في عشق الصور مصلحة دينية ولا دنيوية، بل مفسدته الدينية

---

(١) ٢٨٧ الجواب الكافي.

(٢) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى مجنون ليلى: قيس بن الملوح العامري لقب بالمجنون لهيامه في حب ليلى بنت سعد توفي سنة ٦٨هـ وينسب أيضًا إلى يزيد بن الطثرية شاعر أموي كان له شرف وقدر وكان له شعر حسن، مات سنة ١٢٦هـ. وينسب أيضًا إلى ديك الجن الحمصي من شعراء العصر العباسي، كان فيه مجون توفي سنة ٢٣٥هـ. وينسب أيضًا إلى داود بن عيسى الأيوبي المتوفى سنة ٦٥٦هـ.وقد ذكره المناوي في فيض القدير (٥/ ٥٠٩).

والدنيوية أضعاف أضعاف ما يقدر فيه من المصلحة، وذلك من وجوه: أحدها: الاشتغال بذكر المخلوق وحبه عن حب الرب تعالى وذكره، فلا يجتمع في القلب هذا وهذا؛ إلا ويقهر أحدهما صاحبه، ويكون السلطان والغلبة له.

الثاني: عذاب قلبه بمعشوقه، فإن من أحب شيئًا غير الله عذب به ولابد، كما قيل:

فما في الأرض أشقى من محب ... وإن وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكيًا في كل حين ... مخافة فرقة أو لاشتياق
فيبكي إن نأوا شوقًا إليهم ... ويبكي إن دنوا خوف الفراق
فتسخن عينه عند الفراق ... وتسخن عينه عند التلاق(١)

والعشق وإن استلذ به صاحبه، فهو من أعظم عذاب القلب.

والثالث: أن العاشق قلبه أسير في قبضة معشوقه يسومه الهوان، ولكن لسكرة العشق لا يشعر بمصابه...

***

﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (٢٥) قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ (٢٨)﴾.

---

(١) هذه الأبيات من بحر الوافر، وتنسب إلى نصيب بن رباح شاعر فحل، مقدم في النسب والمدائح، تنسك في أواخر عمره، مات ١٠٨هـ. وتنسب أيضًا إلى ابن دريد الأزدي محمد بن الحسن بن دريد من أئمة اللغة والأدب، كان يقال عنه: أشعر العلماء وأعلم الشعراء. من تصانيفه: الاشتقاق والمقصور والممدود والجمهرة وأدب الكاتب توفي سنة ٣٢١هـ. وذكر البيتين الأخيرين ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٦٦/ ٦٩) ونسبهما إلى الشبلي. وذكر الأبيات الأربعة الزجاجي في الأمالي (ص ٥١).

[١]سئل أبو الوفاء بن عقيل عن هذه المسألة[٢]؟ فقال: ليس ذلك حكمًا بالفراسة، بل هو حكم بالأمارات، وإذا تأملتم الشرع وجدتموه يجوِّز التعويل على ذلك. ومال أصحاب مالك رحمه الله إلى التوصل بالإقرار بما يراه الحاكم؛ وذلك مستند إلى قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [يوسف: ٢٦]، ولذا حكمنا بعقد الأزج، وكثرة الخشب في الحائط، ومعاقد القمط الخص، وما يخص المرأة والرجل في الدعاوى، وفي مسألة العطار والدباغ إذا اختصما في الجلد، والنجار والخياط إذا تنازعا في المنشار والقدوم، والطباخ والخباز إذا تنازعا في القدر، ونحو ذلك، فهل ذلك إلا اعتماد على الأمارات؟

وكذلك الحكم في التأمل والنظر في أمر الخنثى، والأمارات على أحد حاليه، والنظر في أمارات جهة القبلة، واللوث في القسامة. انتهى.

والحاكم إذا لم يكن فقيه النفس في الأمارات ودلائل الحال، ومعرفة شواهده، وفي القرائن الحالية والمقالية، كفقهه في جزئيات وكليات الأحكام: أضاع حقوقًا كثيرة على أصحابها، وحكم بما يعلم الناس بطلانه، ولا يشكون فيه، اعتمادًا منه على نوع ظاهر، لم يلتفت إلى باطنه وقرائن أحواله.

فههنا نوعان من الفقه، لابد للحاكم منهما: فقه في أحكام الحوادث الكلية، وفقه في نفس الواقع وأحوال الناس، يميز به بين الصادق والكاذب، والمحق والمبطل، ثم يطابق بين هذا وهذا، فيعطي الواقع حكمه من الواجب، ولا يجعل الواجب مخالفًا للواقع.

ومن له ذوق في الشريعة، واطلاع على كمالاتها وتضمنها لغاية مصالح العباد في المعاش والمعاد، ومجيئها بغاية العدل، الذي يفصل بين الخلائق، وأنه لا عدل فوق عدلها، ولا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح: تبين له أن السياسة العادلة جزء من

---

(١) ٤ الطرق الحكمية.

(٢) أي الحكم بالفراسة والقرائن التي يظهر فيها الحق (ج).

أجزائها، وفرع من فروعها، وأن من له معرفة بمقاصدها ووضعها وحسن فهمه فيها: لم يحتج معها إلى سياسة غيرها البتة.

فإن السياسة نوعان: سياسة ظالمة فالشريعة تحرمها، وسياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر، فهي من الشريعة، علمها من علمها وجهلها من جهلها.

ولا تنس في هذا الموضوع قول نبي الله سليمان ﷺ للمرأتين اللتين ادعتا الولد،ن فحكم به داود ﷺ للكبرىٰ، فقال سليمان: «ائتوني بالسكين أشقه بينكما» فسمحت الكبرىٰ بذلك، وقالت الصغرىٰ: «لا تفعل يرحمك الله، هو ابنها» فقضى به للصغرىٰ[1]، فأي شيء أحسن من اعتبار هذه القرينة الظاهرة؟

فاستدل برضا الكبرىٰ بذلك، وأنها قصدت الاسترواح إلىٰ التأسي بمساواة الصغرىٰ في فقد ولدها وشفقة الصغرىٰ عليه، وامتناعها من الرضا بذلك: دل علىٰ أنها أمه، وأن الحامل لها علىٰ الامتناع من الدعوىٰ: ما قام بقلبها من الرحمة والشفقة التي وضعها الله في قلب الأم، فاتضحت وقويت هذه القرينة عنده، حتىٰ قدمها علىٰ إقرارها، فإنه حكم به لها مع قولها: «هو ابنها» وهذا هو الحق.

فإن الإقرار إذا كان لعلة اطلع عليها الحاكم لم يلتفت إليه أبدًا، ولذلك ألغينا إقرار المريض مرض الموت بمال لوارثه، لانعقاد سبب التهمة، واعتمادًا علىٰ قرينة الحال في قصده تخصيصه.

ومن تراجم قضاة السنة والحديث علىٰ هذا الحديث: ترجمة أبي عبد الرحمن النسائي في سننه قال: «التوسعة للحاكم في أن يقول للشيء الذي لا يفعله أفعل كذا ليستبين به الحق»[2].

ثم ترجم عليه ترجمة أخرىٰ أحسن من هذه فقال: «الحكم بخلاف ما يعترف به

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٢٧) ومسلم (رقم ١٧٢٠) وانظر: شرح النووي (١٢/ ١٨-١٩).

(٢) السنن الكبرىٰ للنسائي (٣/ ٤٧٢) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٥٦).

المحكوم عليه إذا تبين للحاكم أن الحق غير ما اعترف به»[(١)]. فهكذا يكون الفهم عن الله ورسوله.

ثم ترجم عليه ترجمة أخرى، فقال: «نقض الحاكم ما حكم به غيره، ممن هو مثله، أو أجل منه»[(٢)] فهذه ثلاث قواعد.

ورابعة: وهي ما نحن فيه، وهي الحكم بالقرائن وشواهد الحال.

وخامسة: وهي أنه لم يجعل الولد لهما، كما يقوله أبو حنيفة.

فهذه خمس سنن في هذا الحديث.

ومن ذلك: قول الشاهد الذي ذكر الله شهادته ولم ينكر عليه ولم يعبه، بل حكاها مقررًا لها، فقال تعالىٰ: ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف: ٢٥، ٢٨] فتوصل بقدِّ القميص إلىٰ معرفة الصادق منهما من الكاذب، وهذا لوث في أحد المتنازعين، يبين به أولاهما بالحق.

وقد ذكر الله سبحانه اللوث في دعوىٰ المال في قصة شهادة أهل الذمة علىٰ المسلمين في الوصية في السفر، وأمر بالحكم بموجبه، وحكم النبي ﷺ بموجب اللوث في القسامة، وجوَّز للمدعين أن يحلفوا خمسين يمينا ويستحقون دم القتيل، فهذا لوث في الدماء، والذي في سورة المائدة لوث في الأموال، والذي في سورة يوسف لوث في الدعوىٰ في العرض، ونحوه.

(١) السنن الكبرىٰ للنسائي (٣/ ٤٧٣).

(٢) السنن الكبرىٰ (٣/ ٤٧٣) وفي السنن الصغرىٰ (المجتبىٰ) (٨/ ٢٣٦) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٥٦).

وقد حكم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب والصحابة معه ﷺ برجم المرأة التي ظهر بها الحبل ولا زوج لها ولا سيد، وذهب إليه مالك وأحمد ـ في أصح روايتيه ـ اعتمادًا على القرينة الظاهرة[١].

وحكم عمر وابن مسعود رضي الله عنهما ـ ولا يعرف لهما مخالف من الصحابة ـ بوجوب الحد برائحة الخمر من فيِّ الرجل أو قيئه خمرًا، اعتمادًا على القرينة الظاهرة.

ولم تزل الأئمة والخلفاء يحكمون بالقطع إذا وجد المال المسروق مع المتهم وهذه القرينة أقوى من البينة والإقرار، فإنهما خبران يتطرق إليهما الصدق والكذب ووجود المال معه نص صريح لا يتطرق إليه شبهة، وهل يشك أحد رأى قتيلا يتشحط في دمه، وآخر قائم على رأسه بالسكين أنه قتله، ولاسيما إذا عرف بعداوته، ولهذا جوز جمهور العلماء لولي القتيل أن يحلف خمسين يمينًا: أن ذلك الرجل قتله. ثم قال مالك وأحمد: يقتل به، وقال الشافعي: يقضى عليه بديته[٢].

وكذلك إذا رأينا رجلًا مكشوف الرأس ـ وليس ذلك عادته ـ وآخر هاربًا قدامه بيده عمامة وعلى رأسه عمامة، حكمنا له بالعمامة التي بيد الهارب قطعًا.

ولا نحكم بها لصاحب اليد التي قد قطعنا وجزمنا بأنها يد ظالمة غاصبة بالقرينة الظاهرة، التي هي أقوى بكثير من البينة والاعتراف.

وهل القضاء بالنكول إلا رجوع إلى مجرد القرينة الظاهرة التي علمنا بها ظاهرًا قرينة ظاهرة، دالة على صدق المدعي، فقدمت على أصل براءة الذمة.

وكثير من القرائن والأمارات أقوى من النكول، والحس شاهد بذلك، فكيف يسوغ تعطيل شهادتها؟

ومن ذلك أن النبي ﷺ أمر الزبير أن يقرر عم حيي بن أخطب بالعذاب على إخراج

---

(١) انظر: فتح الباري (١٢/ ١٥٤).

(٢) انظر: المغني (٨/ ٣٧٨-٣٨٨) وشرح الزرقاني (٤/ ٢٦٧) والمدونة الكبرى (١٦/ ٤١٦).

المال الذي غيبه وادعى نفاده، فقال له: «**العهد قريب والمال أكثر من ذلك**»[١]. فهاتان قرينتان في غاية القوة: كثرة المال، وقصر المدة التي ينفق كله فيها.

وشرح ذلك أنه ﷺ لما أجلى يهود بني النضير من المدينة، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم غير الحلقة والسلاح. وكان لابن أبي الحقيق مال عظيم يبلغ مسك ثور من ذهب وحلي، فلما فتح رسول الله ﷺ خيبر ـ وكان بعضها عنوة وبعضها صلحًا ـ ففتح أحد جانبيها صلحًا، وتحصن أهل الجانب الآخر[٢]...

***

﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾.

[٣]«الشغف» يقال: شغف بكذا، فهو مشغوف به، وقد شغفه المحبوب.. أي وصل حبه إلى شغاف قلبه، كما قال النسوة عن امرأة العزيز ﴿ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ [يوسف: ٣٠]، وفيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه الحب المستولي على القلب، بحيث يحجبه عن غيره.

قال الكلبي: حجبَ حُبُّه قلبها حتى لا تعقل سواه.

الثاني: الحب الواصل إلى داخل القلب، قال صاحب هذا القول: المعنى أحبته حتى دخل حبه شغاف قلبها، أي داخله.

الثالث: أنه الحب الواصل إلى غشاء القلب، و«الشغاف» غشاء القلب إذا وصل الحب إليه باشر القلب، قال السدي: الشغاف جلدة رقيقة على القلب، يقول: دخله

---

(١) أخرجه ابن حبان (١١/ ٦٠٧-٦٠٨ رقم ٥١٩٩) وفي الموارد (رقم ١٦٩٧) والبيهقي في الكبرى (٩/ ١٣٧ رقم ١٨١٦٨) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٧/ ٤٧٩): إسناد رجاله ثقات. وانظر: نيل الأوطار (٨/ ٢٠٧).

(٢) ذكر المؤلف في بدائع الفوائد بحثًا حول ما تقدم هنا جـ٣ ص ١١٨ يحسن الرجوع إليه (ج).

(٣) ٢٨ مدارج جـ٣.

الحب حتى أصاب القلب[١].

وقرأ بعض السلف «شَعَفَهَا» بالعين المهملة، ومعناه: ذهب الحب بها كل مذهب، وبلغ بها أعلى مراتبه، ومنه: شعف الجبال، لرءوسها.

[٢]وأما الشغف فمن أسمائها أيضًا: قال الله تعالى: ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ قال الجوهري وغيره: والشغاف غلاف القلب، وهو جلدة دونه كالحجاب، يقال: شغفه الحب أي بلغ شغافه، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ ثم قال: دخل حبه تحت الشغاف[٣].

وأما الشعف بالعين المهملة ففي الصحاح: شَعَفه الحب أي: أحرق قلبه، وقال أبو زيدٍ: أمرضه، وقد شُعِف بكذا فهو مشعوفٌ، وقرأ الحسن: «قَدْ شَعَفَهَا حُبًّا» قال: بطنها [حُبًّا][٤].

[٥]قالت امرأة العزيز للنسوة لما أرتهنَّ إياه ليعذرنها في محبته: ﴿ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ [يوسف: ٣٢]. أي: هذا هو الذي فتنت به وشغفت بحبه، فمن يلومني على محبته وهذا حسن منظره؟ ثم قالت: ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ [يوسف: ٣٢]. أي: فمع هذا الجمال، فباطنه أحسنُ من ظاهره، فإنه في غاية العفة والنزاهة والبعد عن الخنا، والمحب وإن عيب محبوبه فلا يجري على لسانه إلا محاسنه ومدحه.

ويتعلق بهذا قوله تعالى في صفة أهل الجنة: ﴿ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ [الإنسان: ١١]، فجمل ظواهرهم بالنضرة وبواطنهم بالسرور، ومثله قوله: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٧/ ٢١٣١ رقم ١١٥٢٦) والحربي في غريب الحديث (٢/ ٦٤٨) وانظر: لسان العرب (٩/ ١٧٨-١٧٩).

(٢) ٢٨ روضة المحبين.

(٣) لسان العرب (٩/ ١٧٩) ومختار الصحاح (ص ١٤٣) وانظر: الدر المنثور (٤/ ٥٢٩).

(٤) انظر: عمدة القاري (١٨/ ٣٠١-٣٠٣) ولسان العرب (٩/ ١٧٨) ومختار الصحاح (ص ١٤٣).

(٥) ٢٤٩ روضة.

إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] فإنه لا شيء أشهى إليهم وأقر لعيونهم، وأنعم لبواطنهم من النظر إليه، فنضر وجوههم بالحسن، ونعم قلوبهم بالنظر إليه، وقريب منه قوله تعالى: ﴿ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ [الإنسان: ٢١] فهذا زينة الظاهر ثم قال: ﴿ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ [الإنسان ٢١] أي مطهرًا لبواطنهم من كل أذىً، فهذا زينة الباطن، ويشبهه قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ﴾، فهذا زينة الظاهر، ثم قال: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف: ٢٦] فهذا زينة الباطن، وينظر إليه من طرف خفي، قوله تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝ وَحِفْظًا ﴾ [الصافات: ٦، ٧] فزين ظاهرها بالمصابيح، وباطنها بحفظها من الشياطين.

[(١)] من آثر عاجل العقوبة والآلام على لذة الوصال الحرام: هذا بابٌ إنما يدخل منه رجلان:

أحدهما: من تمكن من قلبه الإيمان بالآخرة، وما أعد الله فيها من الثواب لمن أطاعه، والعقاب لمن عصاه، فآثر أدنى الفوتين، واختار أسهل العقوبتين.

والثاني: رجلٌ غلب عقله على هواه، فعلم ما في الفاحشة من المفاسد، وما في العدول عنها من المصالح، فآثر الأعلى على الأدنى.

وقد جمع الله ﷻ ليوسف الصديق، صلوات الله وسلامه عليه، بين الأمرين، فاختار عقوبة الدنيا بالسجن على ارتكاب الحرام، فقالت المرأة: ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣٢، ٣٣] فاختار السجن على الفاحشة، ثم تبرأ إلى الله من حوله وقوته، وأخبر أن ذلك ليس إلا بمعونة الله له وتوفيقه وتأييده لا من نفسه، فقال: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾، فلا يركن العبد إلى نفسه وصبره وحاله وعفته، ومتى ركن إلى ذلك تخلَّت

---

(١) ٤٩٠ روضة.

عنه عصمةُ الله، وأحاط به الخذلان.

وقد قال الله تعالىٰ لأكرم الخلق عليه وأحبهم إليه: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٧٤]، ولهذا كان من دعائه: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك»[١]. وكانت أكثر يمينه: «لا ومقلب القلوب»[٢] كيف وهو الذي أنزل عليه: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقد جرت سنة الله تعالىٰ في خلقه؛ أن من آثر الألم العاجلَ علىٰ الوصال الحرام أعقبه ذلك في الدنيا المسرة التامة، وإن هلك فالفوز العظيم، والله تعالىٰ لا يضيع ما تحمل عبده لأجله.

وفي بعض الآثار الإلهية يقول الله ﷻ: «بعيني ما يتحمل المتحملون من أجلي»[٣]. وكل من خرج عن شيء عنه حفظه الله عليه أو أعاضه الله ما هو أجل منه.

ولهذا لما خرج الشهداء عن نفوسهم لله جعلهم الله أحياء عنده يرزقون، وعوَّضهم عن أبدانهم التي بذلوها له؛ أبدان طير خضرٍ جعل أرواحهم فيها تسرح في الجنة حيث شاءت، وتأوي إلىٰ قناديل معلقةٍ بالعرش، ولما تركوا مساكنهم له عوَّضهم مساكن طيبةً في جنات عدن، ذلك الفوز العظيم.

***

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن

---

(١) أخرجه ابن حبان (٣/ ٢٢٢-٢٢٣ رقم ٩٤٣) وفي الموارد ٠رقم ٢٤١٩) والضياء في المختارة (٦/ ٢١١ رقم ٢٢٢٢) والحاكم (١/ ٧٠٦ رقم ١٩٢٦) والنسائي في الكبرىٰ (٤/ ٤١٤ رقم ٧٧٣٧) والترمذي (رقم ٢١٤٠) و(رقم ٣٥٢٢) وحسنه في الموضعين وصححه الحاكم، وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٧٧).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٦١٧) وانظر: فتح الباري (١١/ ٥١٦، ٥٢٦-٥٢٧).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا (رقم ٩٠) وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٦٠) (٩/ ٢٥٥) (١٠/ ٨٠، ٩٢) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (١٥/ ١٧٤) وانظر: صفة الصفوة (٤/ ٣٦٦).

نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾.

[1]ذكر الله ﷻ عن يوسف الصديق ﷺ من العفاف أعظم ما يكون، فإن الداعي الذي اجتمع في حقه لم يجتمع في حق غيره، فإنه ﷺ كان شابًّا والشباب مركب الشهوة، وكان عزبًا ليس عنده ما يعوضه، وكان غريبًا عن أهله ووطنه، والمقيمُ بين أهله وأصحابه يستحيي منهم أن يعلموا به، فيسقط من عيونهم، فإذا تغرَّب زال هذا المانع، وكان في صورة المملوك والعبد لا يأنف مما يأنف منه الحر، وكانت المرأة ذات منصب وجمالٍ، والداعي مع ذلك أقوىٰ من داعي من ليس كذلك، وكانت هي المطالبة فيزول بذلك كلفة تعرض الرجل وطلبه وخوفه من عدم الإجابة، وزادت مع الطلب الرغبة التامة والمراودة التي يزول معها ظن الامتحان والاختبار لتعلمَ عفافه من فجوره، وكانت في محل سلطانها وبيتها بحيث تعرف وقت الإمكان ومكانه الذي لا تناله العيون، وزادت مع ذلك تغليق الأبواب، لتأمن هجوم الداخل علىٰ بغتة، وأتته بالرغبة والرهبة، ومع هذا كله فعف لله ولم يطعها، وقدَّم حق الله وحق سيدها علىٰ ذلك كله، وهذا أمر لو ابتلي به سواه لم يعلم كيف كانت تكون حاله، فإن قيل: فقد همَّ بها قيل: عنه جوابان:

أحدهما: أنه لم يهم بها، بل لولا أن رأىٰ برهان ربه لهمَّ، هذا قول بعضهم في تقدير الآية.

والثاني: وهو الصواب: أن همه كان همَّ خطرات، فتركه لله فأثابه الله عليه، وهمها كان هم إصرار، بذلت معه جهدها، فلم تصل إليه، فلم يستو الهمان.

---

(١) ٣٤١ روضة.

قال الإمام أحمد بن حنبل ﷺ: الهم همان: هم خطرات، وهم إصرار، فهم الخطرات لا يؤاخذ به.

فإن قيل: فكيف قال وقت ظهور براءته: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾[يوسف: ٥٣]. قيل: هذا قد قاله جماعة من المفسرين، وخالفهم في ذلك آخرون أجلُّ منهم. وقالوا: إن هذا من قول امرأة العزيز، لا من قول يوسف ﷺ. الصواب معهم لوجوه:

أحدها: أنه متصل بكلام المرأة، وهو قولها: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ۝ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾ [يوسف: ٥١-٥٣] ومن جعله من قوله فإنه يحتاج إلى إضمار قولٍ لا دليل عليه في اللفظ بوجه، والقولُ في مثل هذا لا يحذف لئلا يوقع في اللبس، فإن غايته أن يحتمل الأمرين، فالكلام الأول أولى به قطعًا.

الثاني: أن يوسف ﷺ لم يكن حاضرًا وقت مقالتها هذه، بل كان في السجن لما تكلمت بقولها: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾، والسياق صريحٌ في ذلك، فإنه لما أرسل الملك إليه يدعوه قال للرسول: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠] فأرسل إليهن الملك وأحضرهن وسألهن وفيهن امرأته، فشهدن ببراءته ونزاهته في غيبته، ولم يمكنهن إلا قول الحق، فقال النسوة: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٍ﴾ وقالت امرأة العزيز: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

فإن قيل: لكن قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ۝﴾ الأحسن أن يكون من كلام يوسف ﷺ، أي: إنما كان تأخيري عن الحضور مع رسوله ليعلم الملك أني لم أخنه في امرأته في حال غيبته، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين، ثم إنه ﷺ قال: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝﴾ وهذا من تمام معرفته ﷺ بربه ونفسه، فإنه لما أظهر

براءته ونزاهته مما قُذف به، أخبر عن حال نفسه وأنه لا يزكيها ولا يبرئها، فإنها أمَّارة بالسوء، لكن رحمة ربه وفضله هو الذي عصمه، فرد الأمر إلى الله بعد أن أظهر براءته.

قيل: هذا وإن كان قد قاله طائفةٌ، فالصواب أنه من تمام كلامها، فإن الضمائر كلها في نسقٍ واحدٍ يدل عليه وهو قول النسوة: ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ وقول امرأة العزيز: ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ فهذه خمسة ضمائر بين بارزٍ ومستتر، ثم اتصل بها قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ فهذا هو المذكور أولًا بعينه فلا شيء يفصل الكلام عن نظمه، ويضمر فيه قولٌ لا دليل عليه.

فإن قيل: فما معنى قولها: ﴿ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ ﴾ قيل: هذا من تمام الاعتذار، قرنت الاعتذار بالاعتراف، فقالت: ذلك أي قولي هذا وإقراري ببراءته، ليعلم أني لم أخنه بالكذب عليه في غيبته، وإن خنته في وجهه في أول الأمر، فالآن يعلم أني لم أخنه في غيبته، ثم اعتذرت عن نفسها بقولها: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ﴾ ثم ذكرت السبب الذي لأجله لم تبرئ نفسها، وهي أن النفس أمارة بالسوء فتأمل ما أعجب أمر هذه المرأة، أقرت بالحق واعتذرت عن محبوبها ثم اعتذرت عن نفسها، ثم ذكرت السبب الحامل لها على ما فعلت، ثم ختمت ذلك بالطمع في مغفرة الله ورحمته، وأنه إن لم يرحم عبده وإلا فهو عرضة للشر.

فوازنْ بين هذا وبين تقدير كون هذا الكلام كلام يوسف عليه السلام لفظًا ومعنى، وتأمل ما بين التقديرين من التفاوت، ولا يستبعد أن تقول المرأة هذا وهي على دين الشرك، فإن القوم كانوا يقرون بالرب تبارك وتعالى وبحقه وإن أشركوا معه غيره، ولا تنسَ قول سيدها لها في أول الحال: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٢٩].

[(١)] وأما النفس الأمارة فهي المذمومة، فإنها التي تأمر بكل سوء، وهذا من طبيعتها إلا ما وفقها الله وثبتها وأعانها، فما تخلص أحد من شر نفسه إلا بتوفيق الله

(١) ٢٧٥ الروح.

له، كما قال تعالى حاكيا عن امرأة العزيز.

﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٣] وقال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ [النور: ٢١].

وقال تعالى لأكرم خلقه عليه وأحبهم إليه: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٤].

وكان النبي ﷺ يعلمهم خطبة الحاجة: «**الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له**»[(١)]. فالشر كامن في النفس وهو يوجب سيئات الأعمال، فإن خلى الله بين العبد وبين نفسه هلك بين شرها وما تقتضيه من سيئات الأعمال، وإن وفقه وأعانه نجاه من ذلك كله، فنسأل الله العظيم أن يعيذنا من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا.

وقد امتحن الله سبحانه الإنسان بهاتين النفسين: الأمارة واللوامة، كما أكرمه بالمطمئنة، فهي نفس واحدة تكون أمارة ثم لوامة مطمئنة، وهي غاية كمالها وصلاحها. وأيد المطمئنة بجنود عديدة، فجعل الملك قرينها وصاحبها الذي يليها ويسددها، ويقذف فيها الحق ويرغبها فيه، ويريها حسن صورته، ويزجرها عن الباطل ويزهدها فيه ويريها قبح صورته. وأمدها بما علمها من القرآن والأذكار وأعمال البر، وجعل وفود الخيرات ومداد التوفيق تنتابها وتصل إليها من كل ناحية، وكلما تلقتها بالقبول والشكر والحمد لله ورؤية أوليته في ذلك كله ازداد مددها فتقوى على محاربة الإمارة[(٢)]...

***

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ١٩٩ رقم ٢٧٤٤) والنسائي في الكبرى (١/ ٥٢٩ رقم ١٧٠٩) وأبو داود (رقم ٢١١٨) والبيهقي في الكبرى (٣/ ٢١٤ رقم ٥٥٩٣) والدارمي (رقم ٢٢٠٢) وأبو يعلى (٩/ ١٦٨ رقم ٥٢٥٧) وأحمد (١/ ٣٩٢، ٣٩٣) وانظر: شرح النووي (٦/ ١٦٠).

(٢) سيأتي بحث الأنفس قريبًا في سورة الرعد إن شاء الله تعالى (ج).

﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾.

[١]من ترك محبوبه حرامًا فبذل له حلالاً أو أعاضه الله خيرًا منه: عنوان هذا الباب وقاعدته: أن من ترك لله شيئًا عوَّضه الله خيرًا منه[٢]، كما ترك يوسف الصديق عليه السلام امرأة العزيز لله، واختار السجن على الفاحشة؛ فعوضه الله أن مكنه في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، وأتته المرأة صاغرةً سائلةً راغبةً في الوصل الحلال فتزوجها، فلما دخل بها قال: هذا خيرٌ مما كنت تريدين[٣].

فتأمل كيف جزاه الله تعالى على ضيق السجن أن مكنه في الأرض ينزل منها حيث يشاء، وأذل له العزيز وامرأته، وأقرَّت المرأة والنسوة ببراءته، وهذه سنته تعالى في عباده قديمًا وحديثًا إلى يوم القيامة.

ولما عقر سليمان بن داود عليهما السلام الخيل التي شغلته عن صلاة العصر حتى غابت الشمس؛ سخر الله له الريح يسير على متنها حيث أراد[٤].

ولما ترك المهاجرون ديارهم لله وأوطانهم التي هي أحب شيء إليهم؛ أعاضهم الله أن فتح عليهم الدنيا وملكهم شرق الأرض وغربها، ولو اتقى الله السارق وترك سرقة المال المعصوم لأتاه الله مثله حلالًا، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

[٥]﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨] فالافتخار على

---

(١) ٤٧٥ روضة.

(٢) أخرجه الديلمي عن ابن عمر: «ما ترك عبد شيئًا لله، لا يتركه إلا له، عوّضه الله منه ما هو خير له في دينه ودنياه» الفردوس بمأثور الخطاب (٤/ ٦٦ رقم ٦٢٠٦) وأخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ١٩٦) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (١٠/ ٣٧٤)، وذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٢٣٩ رقم ٢١٩٩) وذكر له شواهد، ثم قال: ورجاله رجال الصحيح. وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٥٧١) (٤/ ٣٥) وفتح الباري (٣/ ١٧١) (٩/ ٢٣٥) وفيض القدير (١/ ٥٣٠) (٥/ ٤٣٥).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٣/ ٦).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٥، ٣٩).

(٥) ٨٦ مدارج جـ٣.

ظاهره، والافتقار والانكسار في باطنه، ولا ينافي أحدهما الآخر...

وتأمل قول النبي ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[١] فكيف أخبر بفضل الله ومنته عليه، وأخبر أن ذلك لم يصدر منه افتخارًا به على من دونه، ولكن إظهارًا لنعمة الله عليه، وإعلامًا للأمة بقدر إمامهم ومتبوعهم عند الله، وعلو منزلته لديه، لتعرف الأمة نعمة الله عليه وعليهم.

ويشبه هذا قول يوسف الصديق للعزيز: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]، فإخباره عن نفسه بذلك، لما كان متضمنًا لمصلحة تعود على العزيز وعلى الأمة، وعلى نفسه: كان حسنًا، إذ لم يقصد به الفخر عليهم، فمصدر الكلمة والحامل عليها يحسِّنها ويهجِّنها، وصورته واحدة.

[٢]ومنه قول يوسف الصديق ؑ: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ فمن أخبر عن نفسه بمثل ذلك ليكثر به ما يحبه الله ورسوله من الخير فهو محمود، وهذا غير من أخبر بذلك ليتكثر به عند الناس ويتعظم، وهذا يجازيه الله بمقت الناس له وصغره في عيونهم، والأول يكبره في قلوبهم وعيونهم، وإنما الأعمال بالنيات.

وكذلك إذا أثنى الرجل على نفسه ليخلص بذلك من مظلمة وشر أو ليستوفي بذلك حقًّا له يحتاج فيه إلى التعريف لحاله، أو ليقطع عنه أطماع السفلة فيه، أو عند خطبته إلى من لا يعرف حاله.

والأحسن في هذا أن يوكل من يعرف به وبحاله؛ فإن لسان ثناء المرء على نفسه قصير، وهو في الغالب مذموم لما يقترن به من الفخر والتعاظم.

***

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٢٧٨) وأخرجه البخاري (رقم ٤٧١٢) بلفظ: «أنا سيد الناس يوم القيامة» وفي لفظ آخر (رقم ٣٣٤٠): «أنا سيد القوم يوم القيامة» وانظر: شرح النووي (١٥/ ٣٧).

(٢) ١٣٩ مفتاح جـ١.

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾

(١)قال شيخنا ﷺ: ومما قد يظن أنه من جنس الحيل التي بينا تحريمها، وليس من

---

(١) ٢٢٤ أعلام جـ٣.

جنسها قِصَّة يوسف حين كاد الله له في أخذ أخيه كما قَصَّ ذلك تعالىٰ في كتابه، فإن فيه ضروبًا من الحيل الحسنة:

أحدها: قوله لفتيانه: ﴿ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [يوسف: ٦٢] فإنه تسبب بذلك إلىٰ رجوعهم وقد ذكروا في ذلك معاني: منها: أنه تخوف أن لا يكون عندهم ورق يرجعون بها. ومنها: أنه خشي أن يضر أخذ الثمن بهم، ومنها أنه رأىٰ لوما أخذ الثمن منهم. ومنها: أنه أراهم كرمه في رد البضاعة ليكون أدعىٰ لهم إلىٰ العود. ومنها: أنه علم أن أمانتهم تحوجهم إلىٰ العود ليردوها إليه، فهذا المحتال به عمل صالح.

والمقصود رجوعهم ومجيء أخيه، وذلك أمر فيه منفعة لهم ولأبيهم وله، وهو مقصود صالح، وإنما لم يعرفهم نفسه لأسباب أخر فيها أيضًا منفعة لهم وله ولأبيهم وتمام لما أراده الله بهم من الخير في البلاء.

الضرب الثاني: إنه في المرة الثانية لما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه، وهذا القدر تضمن إيهام أن أخاه سارق، وقد ذكروا إن هذا كان بمواطأة من أخيه ورضا منه بذلك، والحق له في ذلك، وقد دل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [يوسف: ٦٩] وفيه قولان.

أحدهما: أنه عرفه أنه يوسف ووطنه علىٰ عدم الابتئاس بالحيلة التي فعلها في أخذه منهم.

والثاني: أنه لم يصرح له بأنه يوسف، وإنما أراد إني مكان أخيك المفقود، فلا تبتئس بما يعاملك به إخوتك من الجفاء.

ومن قال هذا، قال: إنه وضع السقاية في رحل أخيه والأخ لا يشعر، ولكن هذا خلاف المفهوم من القرآن، وخلاف ما عليه الأكثرون، وفيه ترويع لمن لم يستوجب الترويع.

وأما على القول الأول فقد قال كعب وغيره: لما قال له: إني أنا أخوك، قال: فأنا لا أفارقك، قال يوسف: فقد علمت اغتمام والدي بي، فإذا حبستك ازداد غمه، ولا يمكنني هذا إلا بعد أن أشهرك بأمر فظيع، وأنسبك إلى ما لا يحتمل، قال: لا أبالي فافعل ما بدا لك فإني لا أفارقك، قال: فإني أدس صواعي هذا في رحلك، ثم أنادي عليك بالسرقة ليتهيأ لي ردك، قال: فافعل، وعلى هذا فهذا التصرف إنما كان بإذن الأخ ورضاه.

ومثل هذا النوع ما ذكر أهل السير عن عدي بن حاتم: أنه لما هم قومه بالردة بعد رسول الله ﷺ كفَّهم عن ذلك، وأمرهم بالتربص، وكان يأمر ابنه إذا رعى إبل الصدقة أن يبعد، فإذا جاء خاصمه بين يدي قومه وهم بضربه، فيقومون فيشفعون إليه فيه، ويأمره كل ليلة أن يزداد بعدًا، فلما كان ذات ليلة أمره أن يبعد بها جدًّا، وجعل ينتظره بعد ما دخل الليل وهو يلوم قومه على شفاعتهم ومنعهم إياه من ضربه، وهم يعتذرون عن ابنه، ولا ينكرون إبطاءه، حتى إذا انهار الليل ركب في طلبه فلحقه، واستاق الإبل حتى قدم بها على أبي بكر رضي الله عنهما، فكانت صدقات طيء مما استعان بها أبو بكر في قتال أهل الردة.

وكذلك في الحديث الصحيح أن عديًّا قال: لعمر ﷺ أما تعرفني يا أمير المؤمنين؟ قال: بلى أعرفك، أسلمت إذ كفروا، ووفيت إذ غدروا، وأقبلت إذ أدبروا، وعرفت إذ أنكروا[١].

ومثل هذا ما أذن فيه النبي ﷺ للوفد الذين أرادوا قتل كعب بن الأشرف أن يقولوا[٢]. وأذن للحجاج بن علاط عام خيبر أن يقول.

وهذا كله من الاحتيال المباح لكون صاحب الحق قد أذن فيه ورضي به، والأمر

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٣٩٤).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٠٣٧) ومسلم (رقم ١٨٠١) وانظر: فتح الباري (٧/ ٣٣٢-٣٣٧) وشرح النووي (١٢/ ١٦٠).

المحتال عليه طاعة لله وأمر مباح.

الضرب الثالث: أنه أذَّن مؤذن: ﴿ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ۝ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ۝ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ۝ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [يوسف: ٧٠-٧٦] وقد ذكروا في تسميتهم سارقين وجهين:

أحدهما: أنه من باب المعاريض، وأن يوسف نوى بذلك أنهم سرقوه من أبيه، حيث غيبوه عنه بالحيلة التي احتالوا عليه، وخانوه فيه، والخائن يسمى سارقًا، وهو من الكلام المرموز، ولهذا يسمى خونة الدواوين لصوصًا.

والثاني: أن المنادى هو الذي قال ذلك من غير أمر يوسف، قال القاضي أبو يعلى وغيره: أمر يوسف بعض أصحابه أن يجعل الصواع في رحل أخيه، ثم قال: بعض الموكلين، وقد فقدوه ولم يدر من أخذه: ﴿ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴾ على ظن منهم أنهم كذلك من غير أمر يوسف لهم بذلك، أو لعل يوسف قد قال للمنادي: هؤلاء سرقوا. وعنى أنهم سرقوه من أبيه، والمنادى فهم سرقة الصواع، فصدق يوسف في قوله، وصدق المنادي، وتأمل حذف المفعول في قوله: ﴿ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴾ ليصح أن يضمن سرقتهم ليوسف فيتم التعريض، ويكون الكلام صدقًا، وذكر المفعول في قوله: ﴿ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ ﴾ وهو صادق في ذلك فصدق في الجملتين معا تعريضًا وتصريحًا.

وتأمل قول يوسف: ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ﴾ [يوسف: ٧٩] ولم يقل: إلا من سرق، وهو أخصر لفظًا تحريًا للصدق؛ فإن الأخ لم يكن سارقًا بوجه، وكان المتاع عنده حقًا؛ فالكلام من أحسن المعاريض وأصدقها.

ومثل هذا قول الملكين لداود ﷺ: ﴿ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٢، ٢٣] أي غلبني في الخطاب، ولكن تخريج هذا الكلام علىٰ المعاريض لا يكاد يتأتىٰ، وإنما وجهه أنه كلام خرج علىٰ ضرب المثال، أي إذا كان كذلك فكيف الحكم بيننا.

ونظير هذا قول الملك للثلاثة الذين أراد الله أن يبتليهم: «**مسكين وغريب وعابر سبيل، وقد تقطعت بي الحبال، ولا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، فأسألك بالذي أعطاك هذا المال بعيرًا أتبلغ به في سفري هذا**»[1]. وهذا ليس بتعريض، وإنما هو تصريح علىٰ وجه ضرب المثال وإيهام أني أنا صاحب هذه القضية، كما أوهم الملكان داود أنهما صاحبا القصة، ليتم الامتحان.

ولهذا قال نصر بن حاجب: سئل ابن عيينة عن الرجل يعتذر إلىٰ أخيه من الشيء الذي قد فعله، ويحرف القول فيه ليرضيه لم يأثم في ذلك؟ فقال: ألم تسمع قوله: «**ليس بكاذب من أصلح بين الناس، يكذب فيه**»[2] فإذا أصلح بينه وبين أخيه المسلم خير من أن يصلح بين الناس بعضهم من بعض، وذلك إذا أراد به مرضاة الله، وكره أذىٰ المؤمن، ويندم علىٰ ما كان منه، ويدفع شره عن نفسه، ولا يريد بالكذب اتخاذ المنزلة عندهم، ولا طمعًا في شيء يصيب منهم، فإنه لم يرخص في ذلك، ورخص له إذا كره موجدتهم وخاف عدواتهم.

قال حذيفة: إني أشتري ديني بعضه ببعض، مخافة أن أقدم علىٰ ما هو أعظم منه. قال سفيان: وقال الملكان: ﴿ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [ص: ٢٢] أرادا معنىٰ شيء، ولم يكونا خصمين، فلم يصيرا بذلك كاذبين.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٦٤) ومسلم (رقم ٢٩٦٤) وانظر: فتح الباري (٦/ ٥٠١-٥٠٢) وعمدة القاري (١٦/ ٧٤).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٦٩٢) ومسلم (رقم ٢٦٠٥) بلفظ: «**ليس الكذَّاب الذي يصلح بين الناس، فينمي خيرًا أو يقول خيرًا**». وانظر: شرح النووي (١٦/ ١٥٧) أما لفظ المصنف لم أقف عليه.

وقال إبراهيم: ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ [الصافات: ٨٩] وقال: ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ [الأنبياء: ٦٣] وقال يوسف: ﴿ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴾ [يوسف: ٧٠] فبين سفيان أن هذا من المعاريض المباحة.

وقد احتج بعض الفقهاء بقصة يوسف على أنه جائز للإنسان التوصل إلى أخذ حقه من الغير بما يمكنه الوصول إليه بغير رضا من عليه الحق.

قال شيخنا ﷺ: وهذه الحجة ضعيفة؛ فإن يوسف لم يكن يملك حبس أخيه عنده بغير رضاه، ولم يكن هذا الأخ ممن ظلم يوسف حتى يقال: إنه قد اقتص منه، وإنما سائر الإخوة هم الذين كانوا قد فعلوا ذلك، نعم تخلفه عنده كان يؤذيهم من أجل تأذي أبيهم، والميثاق الذي أخذه عليهم، وقد استثنى في الميثاق بقوله: ﴿ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ [يوسف: ٦٦] وقد أحيط بهم، ولم يكن قصد يوسف باحتباس أخيه الانتقام من إخوته، فإنه كان أكرم من هذا وكان في ذلك من الإيذاء لأبيه أعظم مما فيه من إيذاء إخوته وإنما هو أمر أمره الله به ليبلغ الكتاب أجله، ويتم البلاء الذي استحق به يعقوب ويوسف كمال الجزاء، وتبلغ حكمة الله التي قضاها لهم نهايتها.

ولو كان يوسف قصد القصاص منهم بذلك، فليس هذا موضع الخلاف بين العلماء فإن الرجل له أن يعاقب بمثل ما عوقب به وإنما موضع الخلاف: هل يجوز له أن يسرق أو يخون من سرقه أو خانه، مثل ما سرق منه أو خانه إياه؟ وقصة يوسف لم تكن من هذا الضرب.

نعم لو كان يوسف أخذ أخاه بغير أمره لكان لهذا المحتج شبهة مع أنه لا دلالة في ذلك على هذا التقدير أيضًا، فإن مثل هذا لا يجوز في شرعنا بالاتفاق، وهو أن يحبس رجل برئ ويعتقل للانتقام من غيره من غير أن يكون له جرم.

ولو قدر أن ذلك وقع من يوسف فلابد أن يكون بوحي من الله ابتلاء منه لذلك المعتقل، كما ابتلى إبراهيم بذبح ابنه، فيكون المبيح له على هذا التقدير وحيًا خاصًا كالوحي الذي جاء إبراهيم بذبح ابنه، وتكون حكمته في حق المبتلى امتحانه وابتلاؤه،

لينال درجة الصبر على حكم الله والرضا بقضائه، وتكون حاله في هذا كحال أبيه يعقوب في احتباس يوسف عنه، وهذا معلوم من فقه القصة وسياقها ومن حال يوسف، ولهذا قال: تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] فنسب الله تعالى هذا الكيد إلى نفسه، كما نسبه إلى نفسه في قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦] وفي قوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ [النمل: ٥٠] وفي قوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقد قيل: إن تسمية ذلك مكرًا وكيدًا واستهزاء وخداعا من باب الاستعارة ومجاز المقابلة نحو: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] ونحو قوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وقيل: وهو أصوب: بل تسميته ذلك حقيقة على بابه.

فإن المكر إيصال الشيء إلى الغير بطريق خفي، وكذلك الكيد والمخادعة.

ولكنه نوعان: قبيح، وهو إيصال ذلك لمن لا يستحقه، وحسن وهو إيصاله إلى مستحقه عقوبة له، فالأول مذموم، والثاني ممدوح، والرب تعالى إنما يفعل من ذلك ما يحمد عليه عدلا منه وحكمة، وهو تعالى يأخذ الظالم والفاجر من حيث لا يحتسب، لا كما يفعل الظلمة بعباده، وأما السيئة فهي فيعلة مما يسوء، ولا ريب أن العقوبة تسوء صاحبها، فهي سيئة له حسنة من الحكم العدل.

وإذا عرفت ذلك فيوسف الصديق كان قد كيد غير مرة.

أولها أن إخوته كادوا به كيدًا، حيث احتالوا به في التفريق بينه وبين أبيه.

ثم إن امرأة العزيز كادته بما أظهرت أنه راودها عن نفسها، ثم أودع السجن.

ثم إن النسوة كادوه حتى استعاذ بالله من كيدهن فصرفه عنه.

وقال له يعقوب: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥]

وقال الشاهد لامرأة العزيز: ﴿ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف: ٢٨] وقال تعالىٰ في حق النسوة: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ﴾ [يوسف: ٣٤] وقال للرسول: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٠] فكاد الله له أحسن كيد وألطفه وأعدله، بأن جمع بينه وبين أخيه، وأخرجه من أيدي إخوته بغير اختيارهم، كما أخرجوا يوسف من يد أبيه بغير اختياره، وكاد له عوض كيد المرأة، بأن أخرجه من ضيق السجن إلىٰ فضاء الملك، ومكنه في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء.

وكاد له في تصديق النسوة اللاتي كذبنه وراودنه، حتىٰ شهدن ببراءته وعفته.

وكاد له في تكذيب امرأة العزيز لنفسها واعترافها بأنها هي التي راودته، وأنه من الصادقين، فهذه عاقبة من صبر علىٰ كيد الكائد له بغيا وعدوانًا.

وكيد الله تعالىٰ لا يخرج عن نوعين:

أحدهما: وهو الأغلب: أن يفعل تعالىٰ فعلًا خارجًا عن قدرة العبد الذي كاد له، فيكون الكيد قدرًا زائدًا محضًا، ليس هو من باب لا يسوغ، كما كاد أعداء الرسل بانتقامه منهم بأنواع العقوبات.

وكذلك كانت قصة يوسف فإن أكثر ما أمكنه أن يفعل أن ألقىٰ الصواع في رحل أخيه، وأن أذَّن مؤذن بسرقتهم، فلما أنكروا قال: ﴿ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴾ [يوسف: ٧٤] أي جزاء السارق أو جزاء السرق ﴿ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ﴾ [يوسف: ٧٥] أي جزاؤه نفس السارق يستعبده المسروق منه إما مطلقًا وإما إلىٰ مدة، وهذه كانت شريعة آل يعقوب.

ثم في إعراب هذا الكلام وجهان؛ أحدهما: أن قوله: ﴿ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ ﴾ جملة مستقلة قائمة من مبتدأ وخبر، وقوله: ﴿ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ﴾ جملة ثانية كذلك مؤكدة للأولىٰ مقررة لها، والفرق بين الجملتين: أن الأولىٰ إخبار عن استحقاق المسروق

لرقبة السارق، والثانية إخبار أن هذا جزاؤه في شرعنا وحكمنا فالأولىٰ إخبار عن المحكوم عليه، والثانية إخبار عن الحكم، وإن كانا متلازمين، وإن أفادت الثانية معنىٰ الحصر فإنه لا جزاء له غيره.

والقول الثاني: إن ﴿ جَزَٰٓؤُهُۥ ﴾ الأول مبتدأ وخبره الجملة الشرطية والمعنىٰ جزاء السارق أن من وجد المسروق في رحله كان هو الجزاء، كما تقول: جزاء السرقة من سرق قطعت يده، وجزاء الأعمال من عمل حسنة فبعشر أو سيئة فبواحدة، ونظائره.

قال شيخنا ﷺ: وإنما احتمل الوجهين، لأن الجزاء قد يراد به نفس الحكم باستحقاق العقوبة، وقد يراد به نفس فعل العقوبة، وقد يراد به نفس الألم الواصل إلىٰ المعاقب، والمقصود: أن إلهام الله لهم هذا الكلام كيد كاده ليوسف خارج عن قدرته، إذ قد كان يمكنهم أن يقولوا: لا جزاء عليه، حتىٰ يثبت أنه هو الذي سرق، فإن مجرد وجوده في رحله لا يوجب ثبوت السرقة، وقد كان يوسف عادلًا لا يأخذهم بغير حجة.

وقد كان يمكنهم أن يقولوا: يفعل به ما يفعل بالسراق في دينكم، وقد كان في دين ملك مصر ـ كما قاله أهل التفسير ـ: أن يضرب السارق، ويغرم قيمة المسروق مرتين، ولو قالوا ذلك لم يمكنه أن يلزمهم بما لا يلزم به غيرهم.

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [يوسف: ٧٦] أي ما كان يمكنه أخذه في دين ملك مصر، إذ لم يكن في دينه طريق له إلىٰ أخذه.

وعلىٰ هذا فقوله: ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ استثناء منقطع، أي لكن إن شاء الله أخذه بطريق آخر، أو يكون متصلا علىٰ بابه، أي إلا أن يشاء الله ذلك، فيهيء له سببًا يؤخذ به في دين الملك من الأسباب، التي كان الرجل يعتقل بها ما يؤخذ من قصة يوسف، فإذا كان المراد من الكيد فعلا من الله ـ بأن ييسر لعبده المؤمن المظلوم المتوكل عليه أمورًا يحصل بها مقصوده من الانتقام من الظالم ـ كان هذا خارجًا عن الحيل الفقهية؛

فإن كلامنا في الحيل التي يفعلها العبد، لا فيما يفعله الله تعالىٰ.

بل في قصة يوسف تنبيه علىٰ بطلان الحيل وأن من كاد كيدًا محرمًا، فإن الله يكيده ويعامله بنقيض قصده وبمثل عمله، وهذه سنة الله في أرباب الحيل المحرمة: أنه لا يبارك لهم فيما نالوه بهذه الحيل، ويهيء لهم كيدًا علىٰ يد من يشاء من خلقه، يجزون به من جنس كيدهم وحيلهم.

وفيها تنبيه علىٰ أن المؤمن المتوكل علىٰ الله إذا كاده الخلق، فإن الله يكيد له وينتصر له بغير حول منه ولا قوة.

وفيها دليل علىٰ أن وجود المسروق بيد السارق كاف في إقامة الحد عليه، بل هو بمنزلة إقراره، وهو أقوىٰ من البينة، وغاية البينة أن يستفاد منها ظن، وأما وجود المسروق بيد السارق، فيستفاد منه اليقين، وبهذا جاءت السنة في وجوب الحد بالحبل، والرائحة في الخمر، كما اتفق عليه الصحابة.

والاحتجاج بقصة يوسف علىٰ هذا أحسن وأوضح من الاحتجاج بها علىٰ الحيل.
وفيها تنبيه علىٰ أن العلم الخفي الذي يتوصل به إلىٰ المقاصد الحسنة مما يرفع الله به درجات العبد، لقوله بعد ذلك: ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾.

قال: زيد بن أسلم وغيره: بالعلم.

وقد أخبر تعالىٰ عن رفعه درجات أهل العلم في ثلاثة مواضع من كتابه:

أحدها: قوله: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ [الأنعام: ٨٣]، فأخبر أنه يرفع درجات من يشاء بعلم الحجة.

وقال في قصة يوسف: ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ [يوسف: ٧٦] فأخبر أنه يرفع درجات من يشاء بالعلم الخفي، الذي يتوصل به صاحبه إلىٰ المقاصد المحمودة.

وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ

لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١] فأخبر أنه يرفع درجات أهل العلم والإيمان.

النوع الثاني من كيده لعبده المؤمن: هو أن يلهمه تعالىٰ أمرًا مباحًا أو مستحبًا أو واجبًا، يوصله به إلىٰ المقصود الحسن، فيكون علىٰ هذا إلهامه ليوسف أن يفعل ما فعل هو من كيده تعالىٰ أيضًا، وقد دل علىٰ ذلك قوله: نرفع درجات من نشاء، فإن فيها تنبيها علىٰ أن العلم الدقيق الموصل إلىٰ المقصود الشرعي صفة مدح، كما أن العلم الذي يخصم به المبطل صفة مدح وعلىٰ هذا فيكون من الكيد ما هو مشروع، لكن لا يجوز أن يراد به الكيد الذي تستحل به المحرمات أو تسقط به الواجبات، فإن هذا كيد الله، والله هو الذي يكيد الكائد، ومحال أن يشرع الله تعالىٰ أن يكاد دينه.

وأيضًا فإن هذا الكيد لا يتم إلا بفعل يقصد به غير مقصوده الشرعي، ومحال أن يشرع الله لعبده أن يقصد بفعله ما لم يشرع الله ذلك الفعل له.

فهذا هو الجواب عن احتجاج المتحيلين بقصة يوسف عليه الصلاة والسلام، وقد تبين أنها من أعظم الحجج عليهم، وبالله التوفيق.

***

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

[(١)]وأما قياس الشبه[(٢)] فلم يحكه الله سبحانه إلا عن المبطلين؛ فمنه قوله تعالىٰ إخبارًا عن إخوة يوسف أنهم قالوا لما وجدوا الصواع في رحل أخيهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧] فلم يجمعوا بين الأصل والفرع بعلة ولا دليلها، وإنما ألحقوا أحدهما بالآخر من غير دليل جامع سوىٰ مجرد الشبه الجامع بينه وبين

(١) ١٤٨ أعلام جـ١.

(٢) انظر: أضواء البيان (٤/ ١٧٩، ١٨٩) وفتح الباري (٩/ ٤٤٤) وروضة الطالبين (١١/ ١٤٩).

يوسف، فقالوا: هذا مقيس على أخيه، بينهما شبه من وجوه عديدة، وذاك قد سرق فكذلك هذا، وهذا هو الجمع بالشبه الفارغ، والقياس بالصورة المجردة عن العلة المقتضية للتساوي، وهو قياس فاسد، والتساوي في قرابة الأخوة ليس بعلة للتساوي في السرقة لو كانت حقًّا، ولا دليل على التساوي فيها؛ فيكون الجمع لنوع شبه خال عن العلة ودليلها.

(١)الصبر كما تقدم نوعان: اختياري، واضطراري.

والاختياري أكمل من الاضطراري؛ فإن الاضطراري يشترك فيه الناس، ويتأتى ممن لا يتأتى منه الصبر الاختياري، ولذلك كان صبر يوسف الصديق ﷺ عن مطاوعة امرأة العزيز وصبره على ما ناله في ذلك من الحبس والمكروه أعظم من صبره على ما ناله من إخوته، لما ألقوه في الجب، وفرقوا بينه وبين أبيه، وباعوه بيع العبد.

ومن الصبر الثاني: إنشاء الله سبحانه له ما أنشأه من العز والرفعة والملك والتمكين في الأرض، وكذلك صبر الخليل ﷺ والكليم وصبر نوح وصبر المسيح وصبر خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم عليهم الصلاة والسلام كان صبرًا على الدعوة إلى الله ومجاهدة أعداء الله، ولهذا سماهم الله أولي العزم، وأمر رسوله أن يصبر صبرهم، فقال: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

***

﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨٣ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ۝٨٤ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ۝٨٥ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٨٦﴾.

---

(١) ٣١ عدة الصابرين.

[1]في كتاب الأدب للبخاري: سئل رسول الله ﷺ عن الإيمان؟ فقال: «**الصبر والسماحة**»[2]. ذكره عن موسى بن إسماعيل، قال: حدثنا سويد قال: حدثنا عبد الله بن عبيد بن عمير، عن أبيه، عن جده ـ فذكره، وهذا من أجمع الكلام. وأعظمه برهانًا، وأوعبه لمقامات الإيمان من أولها إلىٰ آخرها. فإن النفس يراد منها شيئان: بذل ما أمرت به، وإعطاؤه، فالحامل عليه: السماحة. وترك ما نهيت عنه، والبعد منه، فالحامل عليه: الصبر.

وقد أمر الله ﷻ في كتابه بالصبر الجميل، والصفح الجميل، والهجر الجميل، فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: «**الصبر الجميل**» هو الذي لا شكوىٰ فيه ولا معه[3]. و«**الصفح الجميل**» هو الذي لا عتاب معه، و«**الهجر الجميل**» هو الذي لا أذىٰ معه[4].

وفي أثر إسرائيلي: «أوحىٰ الله إلىٰ نبي من أنبيائه: أنزلت بعبدي بلائي، فدعاني، فماطلته بالإجابة، فشكاني، فقلت: عبدي، كيف أرحمك من شيء به أرحمك؟» وقال ابن عيينة في قوله تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ﴾ [السجدة: ٢٤] قال: أخذوا برأس الأمر فجعلهم رؤساء[5].

والشكوىٰ إلىٰ الله ﷻ لا تنافي الصبر، فإن يعقوب ﷺ وعد بالصبر الجميل، والنبي إذا وعد لا يخلف، ثم قال: ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [يوسف: ٨٦] وكذلك أيوب أخبر الله عنه: أنه وجده صابرًا مع قوله: ﴿ مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

---

(١) ١٦٠ مدارج جـ٢.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣٨٥) وأبو يعلىٰ (٣/ ٣٨٠ رقم ١٨٥٤) وعبد بن حميد (رقم ٣٠٠) والبيهقي في الشعب (٦/ ٢٤٢ رقم ٨٠١٤) وفي الزهد الكبير (٢/ ٢٧٤ رقم ٧٠٦) وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (رقم ٥٩، ٦٠).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ١٦٥) وتفسير القرطبي (٩/ ١٥٢).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢٩/ ١٣٣).

(٥) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٦٤).

وإنما ينافي الصبر شكوى الله، لا الشكوى إلى الله، كما رأى بعضهم رجلًا يشكو إلى آخر فاقة وضرورة، فقال: يا هذا، تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك[١]؟ ثم أنشد.

وإذا عَرَتْـــك بليـــة فاصـــبر لهـــا صـــبر الكـــريم فإنـــه بـــك أعلـــم

وإذا شـــكوت إلـــى ابـــن آدم إنـــما تشكو الـرحيم إلـى الـذي لا يـرحم[٢]

وقال حبان بن أبي جبلة: من بث فلم يصبر[٣]، ورواه ابن أبي الدنيا مرفوعًا إلى النبي ﷺ وإن صح فمعناه إلى المخلوق لا من بث إلى الله.

[٤]وقال حبان بن أبي جبلة أيضًا في قوله تعالى: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [يوسف: ٨٣]. قال: لا شكوى فيه ورفعه[٥] ابن أبي الدنيا أيضًا، وقال مجاهد: فصبر جميل في غير جزع[٦]، وقال عمرو بن قيس: فصبر جميل قال: الرضا بالمصيبة والتسليم.

وقال بعض السلف: فصبر جميل لا شكوى فيه.

وقال همام عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف: ٨٤]، قال كظم على حزن، فلم يقل إلا خيرًا[٧].

وقال يحيى بن المختار عن الحسن: الكظيم الصبور، وقال همام عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي: كميد أي كمد الحزن.

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٧/ ٢١٩ رقم ١٠٠٧٥) عن الفضيل بن عياض رحمه الله، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٤٨/ ٤٠١) وانظر: سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٣٩) وفيض القدير (٤/ ٤٩٤).

(٢) ذكر البيتين بهاء الدين العاملي في الكشكول (١/ ١٥٤-١٥٥) ونسبهما إلى زين العابدين بن الحسين رضي الله عنهما وفيهما اختلاف.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ١٦٦) (١٣/ ٤٨) والبيهقي في الشعب (٧/ ٢١٤ رقم ١٠٠٤٧).

(٤) ١٠١ عدة الصابرين.

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ١٦٦) وابن أبي حاتم في تفسيره (٧/ ٢١١٢ رقم ١١٣٩٧).

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ١٦٦) وعبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٣١٨).

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في الهم والحزن (رقم ٨٩) والطبري في تفسيره (١٣/ ٤٠).

وقال الحسن: ما جرعتين أحب إلى الله، من جرعة مصيبة موجعة محزنة ردها صاحبها بحسن عزاء وصبر، وجرعة غيظ ردها بحلم[(١)].

***

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾.

[(٢)]أخبر أنه يلطف لما يريده فيأتي به بطرق خفية لا يعلمها الناس، واسمه اللطيف يتضمن: علمه بالأشياء الدقيقة، وإيصاله الرحمة بالطرق الخفية، ومنه التلطف كما قال أهل الكهف: ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١٩]. فكان ظاهر ما امتحن به يوسف من مفارقة أبيه وإلقائه في السجن وبيعه رقيقًا ثم مراودة التي هو في بيتها عن نفسه وكذبها عليه وسجنه محنًا ومصائب وباطنها نعمًا وفتحًا جعلها الله سببًا لسعادته في الدنيا والآخرة.

ومن هذا الباب ما يبتلي به عباده من المصائب، ويأمرهم به من المكاره، وينهاهم عنه من الشهوات، هي طرق يوصلهم بها إلى سعادتهم في العاجل والآجل، وقد حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات.

وقد قال ﷺ: «لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك إلا

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٨٨ رقم ٣٤٤٠٩) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٢٥٦ رقم ١٣٠٨) والديلمي في الفردوس عن علي (٤/ ٩١ رقم ٦٢٨٣) والبيهقي في الشعب (٦/ ٣١٤ رقم ٨٣٠٨) وابن المبارك في الزهد (رقم ٦٧٢).

(٢) ٣٤ شفاء.

للمـؤمن»[١] فالقضاء كله خير لمن أعطي الشكر والصبر جالبًا ما جلب.

[٢]وقول يوسف لأبيه وإخوته: ﴿ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ ﴾ [يوسف: ١٠٠] ولم يقل: «أخرجني من الجب» حفظًا للأدب مع إخوته، وتفتيا عليه: أن لا يخجلهم بما جرىٰ في الجب، وقال: ﴿ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ ﴾ ولم يقل: «رفع عنكم جهد الجوع والحاجة» أدبًا معهم، وأضاف ما جرىٰ إلىٰ السبب، ولم يضفه إلىٰ المباشر الذي هو أقرب إليه منه، فقــال: ﴿ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ﴾ فأعطىٰ الفتوة والكرم والأدب حقه، ولهذا لم يكن كمال هذا الخلق إلا للرسل والأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم.

[٣]قوله تعالىٰ: عن يوسف نبيه، أنه قال: ﴿ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١] جمعت هذه الدعوة الإقرار بالتوحيد والاستسلام للرب، وإظهار الافتقار إليه والبراءة من موالاة غيره ـ سبحانه ـ وكون الوفاة علىٰ الإسلام أجل غايات العبد، وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد، والاعتراف بالمعاد وطلب مرافقة السعداء.

***

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

...[٤]قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦]

---

(١) أخرجه مسلم بلفظ قريب (رقم ٢٩٩٩) وانظر: فتح الباري (١٠/ ١٠٩).
(٢) ٣٨٠ مدارج جـ٢.
(٣) ٢٠١ فوائد.
(٤) ٣٦٦ مختصر الصواعق جـ١.

فأثبت لهم إيمانًا مع الشرك، وهذا الإيمان وإن لم يؤثر في إخراجهم من النار كما أثر إيمان أهل التوحيد، بل كانوا معه خالدين فيه بشركهم وكفرهم، فإن النار إنما سعرها عليهم الشرك والظلم، فلا يمتنع في الرحمة والحكمة والعدل أن يطفئها ويذهبها بعد أخذ الحق منهم، فيجتمع ضعف أسباب تسعيرها وقوة أسباب زوالها، فهذا غير ممتنع في الحكمة الإلهية، ولم يخبر به الرسول بامتناعه وأنه لا يكون في موضع واحد، ولا دل على ذلك نقل ولا عقل، بل الذي دل عليه النقل والإجماع أنهم خالدون فيها أبدًا، وأنهم ليسوا بخارجين منها، ولا يموتون فيها؛ ولا يحيون، وهذا متفق عليه بين المسلمين، وإنما الشأن في أمر آخر...

[(١)] وقال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ أثبت لهم الإيمان به، مع مقارنة الشرك، فإن كان مع هذا الشرك تكذيب لرسله لم ينفعهم ما معهم من الإيمان بالله، وإن كان معه تصديق لرسله، وهم مرتكبون لأنواع من الشرك لا تخرجهم عن الإيمان بالرسل وباليوم الآخر. فهؤلاء مستحقون للوعيد أعظم من استحقاق أرباب الكبائر.

وشركهم قسمان: شرك خفي، وشرك جلي، فالخفي قد يغفر، وأما الجلي فلا يغفره الله إلا بالتوبة منه، فإن الله لا يغفر أن يشرك به.

وبهذا الأصل أثبت أهل السنة دخول أهل الكبائر النار، ثم خروجهم منها ودخولهم الجنة، لما قام بهم من السببين.

فإذا ثبت هذا، فمعاود الذنب: مبغوض لله من جهة معاودة الذنب، محبوب له من جهة توبته وحسناته السابقة، فيرتب الله سبحانه على كل سبب أثره ومسببه بالعدل والحكمة، ولا يظلم مثقال ذرة ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦][(٢)].

---

(١) ٢٨٢ مدارج جـ١.

(٢) تقدم في سورة المائدة بحث حول هذه الآية (ص ٨٩) في قوله: «فصل: هاهنا أصل آخر...» (ج).

[(١)]ولما كانت الدعوة إلى الله والتبليغ عن رسوله شعار حزبه المفلحين، وأتباعه من العالمين، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨] وكان التبليغ عنه من عين تبليغ ألفاظه وما جاء به،وتبليغ معانيه كان العلماء من أمته منحصرين في قسمين: أحدهما: حفاظ الحديث، وجهابذته، والقادة الذين هم أئمة الأنام وزوامل الإسلام، الذي حفظوا على الأئمة معاقد الدين ومعاقله، وحموا من التغيير والتكدير موارده ومناهله، حتى ورد من سبقت له من الله الحسنى تلك المناهل صافية من الأدناس لم تشبها الآراء تغييرًا، ووردوا فيها عينًا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرًا.

[(٢)]ولما كان التبليغ عن الله سبحانه يعتمد العلم بما يبلغ، والصدق فيه، لم تصلح مرتبة التبليغ بالرواية والفتيا إلا لمن اتصف بالعلم والصدق؛ فيكون عالمًا بما يبلغ، صادقًا فيه، ويكون مع ذلك حسن الطريقة، مرضيَّ السيرة، عدلًا في أقواله وأفعاله، متشابه السر والعلانية في مدخله ومخرجه وأحواله. وإذا كانت منصب التوقيع عن الملوك بالمحل الذي لا ينكر فضله، ولا يجهل قدره، وهو من أعلى المراتب السنيات، فكيف بمنصب التوقيع عن رب الأرض والسماوات؟...

[(٣)]فحقيق بمن أقيم في هذا المنصب أن يعد له عدته، وأن يتأهب له أهبته، وأن يعلم قدر المقام الذي أقيم فيه، ولا يكون في صدره حرج من قول الحق والصدع به؛ فإن الله ناصره وهاديه، وكيف وهو المنصب الذي تولاه بنفسه رب الأرباب، فقال تعالى: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النساء: ١٢٧] وكفى بما تولاه الله تعالى بنفسه شرفًا وجلالة؛ إذ يقول في كتابه: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ

(١) ٨ أعلام جـ١.
(٢) ١٠ أعلام جـ١.
(٣) ١١ أعلام جـ١.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ [النساء: ١٧٦] وليعلم المفتي عمن ينوب في فتواه، وليوقن أنه مسؤول غدًا وموقوف بين يدي الله.

وأول من قام بهذا المنصب الشريف سيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين، عبد الله ورسوله، وأمينه على وحيه، وسفيره بينه وبين عباده؛ فكان يفتي عن الله بوحيه المبين، وكان كما قال له أحكم الحاكمين: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦] فكانت فتاويه ﷺ جوامع الأحكام، ومشتملة على فصل الخطاب، وهي في وجوب اتباعها وتحكيمها والتحاكم إليها ثانية الكتاب، وليس لأحدٍ من المسلمين العدول عنها ما وجد إليها سبيلًا، وقد أمر الله عباده بالرد إليها حيث يقول: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

[(١)]قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾.

قال الفراء وجماعة: ومن اتبعني معطوف على الضمير في أدعو يعني: ومن اتبعني يدعو إلى أمته كما أدعو، وهذا قول الكلبي قال: حق على كل من اتبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه، ويذكر بالقرآن والموعظة، ويقوى هذا القول من وجوه كثيرة[(٢)].

قال ابن الأنباري: ويجوز أن يتم الكلام عند قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ ثم يبتدئ بقوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ فيكون الكلام على قوله جملتين، أخبر في أولاهما أنه يدعو إلى الله، وفي الثانية بأنه وأتباعه على بصيرة، والقولان متلازمان فلا يكون الرجل من أتباعه حقًّا حتى يدعو إلى ما دعا إليه، وقول الفراء أحسن وأقرب إلى الفصاحة والبلاغة.

وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلها وأفضلها؛ فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه، بل لابد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد

---

(١) ١٥٤ مفتاح جـ١.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٣/ ٨٠).

يصل إليه السعي، ويكفي هذا في شرف العلم أن صاحبه يحوز به هذا المقام، والله يؤتي فضله من يشاء.

(١)فهؤلاء خلفاء الرسل حقًّا وورثتهم دون الناس، وهم أولو العلم الذين قاموا بما جاء به علمًا وعملًا وهداية وإرشادًا وصبرًا وجهادًا، وهؤلاء هم الصديقون وهم أفضل أتباع الأنبياء، ورأسهم وإمامهم الصديق الأكبر أبو بكر ﷺ.

قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٩] فذكر مراتب السعداء وهي أربعة، وبدأ بأعلاهم مرتبة، ثم الذين يلونهم إلىٰ آخر المراتب، وهؤلاء الأربعة هم أهل الجنة الذين هم أهلها، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

(٢)وقد أخبر الله تعالىٰ عن رسوله ﷺ أنه قال: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ وأخبر تعالىٰ عنه أنه سراج منير، وأنه هادٍ إلىٰ صراط مستقيم، وبأن من اتبع النور الذي أنزل معه هو المفلح لا غيره، وأن من لم يحكمه في كل ما تنازع فيه المتنازعون وينقاد لحكمه، ولا يكون عنده حرج منه فليس بمؤمن، فكيف يجوز علىٰ من أخبر الله تعالىٰ عنه بما ذكر أن يكون قد أخبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله بما الهدىٰ في خلاف ظاهره، والحق في إخراجه عن حقائقه، وحمله علىٰ وحشي اللغات ومستكرهات التأويلات...

***

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾.

---

(١) ٧٨ مفتاح جـ١.

(٢) ٦ مختصر الصواعق جـ١.

[(١)] الدعاء إلىٰ أحكام الله دعاء إلىٰ الله؛ لأنه دعاء إلىٰ طاعته فيما أمر ونهى، وإذًا فالصحابة رضوان الله عليهم قد اتبعوا الرسول ﷺ فيجب اتباعهم إذا دعوا إلىٰ الله.

[(٢)] قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠] فلما ذكر أن الرسل هم الذين استيأسوا كان فيه دليل علىٰ أنهم قد دخل قلوبهم يأس من غير يقين استيقنوه، لأن اليقين في ذلك، إنما يأتيهم من عند الله كما قال في قصة نوح: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦] وقال الله تعالىٰ في قصة إخوة يوسف: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠] فدل الظاهر علىٰ أن يأسهم ليس بيقين.

وقد حدثنا ابن أبي أويس: حدثنا مالك، عن هشام بن عروة عن أبيه، أن عمر بن الخطاب كان يقول في خطبته يعلمهم: «أيها الناس، إن الطمع فقر، وإن اليأس غنى، وإن المرء إذا يئس من شيء استغنىٰ عنه»[(٣)] فجعل عمر اليأس بإزاء الطمع، وسمعت أحمد بن المعدل ينشد شعرًا لرجل من القدماء ويصف ناقة:

صفراء من تِلْدِ بني العباس ... ضُرتها كالظبي في ا لنكاس
تَدرُّ أم تسمع باليأس ... فالنفس بين طمع وياس[(٤)]

فجعل الطمع بإزاء اليأس.

حدثنا سليمان بن حرب: حدثنا جرير بن حازم عن الأعمش، عن سلام، عن شرحبيل، قال: سمع حبة بن خالد وسواء بن خالد: أنهما أتيا النبي ﷺ فقالا: علمنا

---

(١) ١٣١ أعلام جـ٤.

(٢) ٤٠٢ زاد المعاد جـ٤.

(٣) أخرجه أحمد في الزهد (ص ١١٧) وابن المبارك في الزهد (رقم ٦٣١، ٩٩٨) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٥٠) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٤٤/ ٣٥٧) وابن شبة في أخبار المدينة (١/ ٤٠٧ رقم ١٣٠٣).

(٤) لم أعثر عليهما.

شيئًا، ثم قال: «لا تيأسا من الخير ما تهزهزت رءوسكما، فإن كان عبد يولد أحمر ليس عليه قشرة، ثم يرزقه الله ويعطيه»(١).

وحدثنا علي بن عبد الله: حدثنا ابن عيينة قال: قال هشام بن عبد الملك لأبي حازم: «يا أبا حازم، ما مالك؟ قال: خير مالي ثقتي بالله، ويأسي مما في أيدي الناس»(٢) قال: وهكذا أكثر من أن يحصى، انتهى.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة يوسف

والحمد لله رب العالمين



---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٦/ ٣٣) وابن حبان كما في الموارد (رقم ١٠٨٨) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣/ ١٣٨ رقم ١٤٦٦) والطبراني في الكبير (٤/ ٧ رقم ٣٤٧٩، ٣٤٨٠) (٧/ ١٣٧ رقم ٦٦١٠) والبيهقي في الشعب (٢/ ١١٩ رقم ١٣٤٩) وصححه الحافظ ابن حجر في الأمالي المطلقة (ص ٢٦).

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٢/ ١٠٦ر قم ١٣٠٠) والفسوي في المعرفة والتاريخ (١/ ٣٨١).

سُورَةُ الرَّعْدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

[(١)]تأمل هذا الفلك الدوار بشمسه ونجومه وبروجه، وكيف يدور على هذا العالم هذا الدوران الدائم إلى آخر الأجل على هذا الترتيب والنظام، وما في طي ذلك من اختلاف الليل والنهار والفصول والحر والبرد، وما في ضمن ذلك من مصالح ما على الأرض من أصناف الحيوان والنبات؟ وهل يخفى على ذي بصيرة أن هذا إبداع المبدع الحكيم وتقدير العزيز العليم؟ ولهذا خاطب الرسل أمتهم مخاطبة من لا شك عنده في الله، وإنما دعوهم إلى عبادته وحده لا إلى الإقرار به فقالت لهم: ﴿ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: ١٠] فوجوده سبحانه وربوبيته وقدرته أظهر من كل شيء على الإطلاق، فهو أظهر للبصائر من الشمس للأبصار، وأبين للعقول من كل ما تعقله وتقر بوجوده، فما ينكره إلا مكابر بلسانه، وقلبه وعقله وفطرته، وكلها تكذبه، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ

---

(١) ٢١٢ مفتاح جـ١.

ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ ﴾ [الرعد: ٢-٤] وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٣-٦]. وقال تعالىٰ: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان: ١٠-١١].

(١) قال تعالىٰ: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤] ثم إنه سبحانه يصرف ما أخرجه من هذا الماء، ويقلبه ويحيل بعضه إلىٰ بعض، وينقل بعضه بالمخالطة والمجاورة عن طبيعته إلىٰ طبيعة أخرىٰ، وهذا كما خلق كل دآبة من ماء ثم خالف بين صورها وقواها ومنافعها وأوصافها وما يصلح لها، وأمشىٰ بعضًا عن بطنه، وبعضًا علىٰ رجلين، وبعضًا علىٰ أربع، حكمة بالغة وقدرة باهرة، وكذلك سبحانه يقلب الليل والنهار، ويقلب ما يوجد فيهما، ويقلب أحوال العالم كما يشاء، ويسلك بذلك مسلك الحكمة البالغة التي بها يتم مراده ويظهر ملكه: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

(٢) إن هذه الجمادات والحيوانات المختلفة الأشكال والمقادير والصفات والمنافع والقوىٰ والأغذية والنباتات التي هي كذلك، فيها من الحكم والمنافع ما قد أكثرت الأمم في وصفه وتجربته علىٰ مر الدهور، ومع ذلك فلم يصلوا منه إلا إلىٰ أيسر شيء وأقله، بل لو اتفق جميع الأمم لم يحيطوا علمًا بجميع ما أودع واحدًا من ذلك النوع من الحكم والمصالح، هذا إلىٰ ما في ضمن ذلك من الاعتبار والدلالة الظاهرة علىٰ وجود الخالق ومشيئته واختياره وعلمه وقدرته وحكمته، فإن المادة الواحدة لا

---

(١) ١٤٤ طريق الهجرتين.

(٢) ٢٣١ شفاء.

تحتمل بنفسها هذه الصورة الغريبة والأشكال المتنوعة والمنافع والصفات، ولو تركبت مع غيرها فليس حدوث هذه الأنواع والصور بنفس التركيب أيضًا، ولا هو مقتض له، فحصول هذا التنوع والتفاوت والاختلاف في الحيوان والنبات من أعظم آيات الرب تعالى ودلائل ربوبيته وقدرته وحكمته وعلمه، وأنه فعال لما يريد اختيارًا ومشيئة، فتنويع مخلوقاته وحدوثها شيئًا بعد شيء من أظهر الدلالات، وتأمل كيف أرشد القرآن إلى ذلك في غير موضع كقوله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢]، وقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٠، ١١].

(١) ومن آياتها أن جعلها مختلفة الأجناس، والصفات، والمنافع مع أنها قطع متجاورات، متلاصقة، فهذه سهلة، وهذه حزنة، تجاورها وتلاصقها، وهذه طيبة تنبت، وتلاصقها أرض لا تنبت، وهذه تربة تلاصقها رمال، وهذه صلبة ويلاصقها ويليها رخوة، وهذه سوداء ويليها أرض بيضاء، وهذه حصى كلها ويجاورها أرض لا يوجد

---

(١) ١٨٦ التبيان.

فيها حجر، وهذه تصلح لنبات كذا وكذا، وهذه لا تصلح له بل تصلح لغيره، وهذه سبخة مالحة، وهذه بضدها، وهذه ليس فيها جبل ولا معلم، وهذه مسجرة بالجبال، وهذه لا تصلح إلا على المطر، وهذه لا ينفعها المطر بل لا تصلح إلا على سقي الأنهار، فيمطر الله سبحانه الماء على الأرض البعيدة ويسوق الماء إليها على وجه الأرض.

فلو سألتها من نوعها هذه التنوع؟ ومن فرق أجزاءها هذا التفريق؟ ومن خصص كل قطعة منها بما خصها به؟ ومن ألقى عليها رواسيها وفتح فيها السبل وأخرج منها الماء والمرعى؟ ومن أمسكها عن الزوال؟ ومن بارك فيها وقدر فيها أقواتها، وأنشأ منها حيوانها ونباتها؟ ومن وضع فيها معادنها وجواهرها ومنافعها؟ ومن هيأها مسكنًا ومستقرًا للأنام؟ ومن يبدأ الخلق منها ثم يعيده إليها ثم يخرجه منها؟ ومن جعلها ذلولًا غير مستصعبة ولا ممتنعة؟ ومن وطأ مناكبها، وذلل مسالكها، ووسع مخارجها، وشق أنهارها، وأنبت أشجارها، وأخرج ثمارها؟ ومن صدعها عن النبات، وأودع فيها جميع الأقوات؟ ومن بسطها وفرشها ومهدها وذللها وطحاها ودحاها، وجعل ما عليها زينة لها؟ ومن الذي يمسكها أن تتحرك فتتزلزل، فيسقط ما عليها من بناء ومعلم، أو يخسفها بمن عليها فإذا هي تمور؟ ومن الذي أنشأ منها النوع الإنساني الذي هو أبدع المخلوقات وأحسن المصنوعات، بل أنشأ منها آدم ونوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدًا ﷺ وعليهم أجمعين، وأنشأ منها أولياءه وأحباءه وعباده الصالحين؟ ومن جعلها حافظة لما استودع فيها من المياه والأرزاق والمعادن والحيوان؟ ومن جعل بينها وبين الشمس والقمر هذا القدر من المسافة فلو زادت على ذلك لضعف تأثرها بحرارة الشمس ونور القمر فتعطلت المنفعة الواصلة إلى الحيوان والنبات بسبب ذلك، ولو زادت في القرب لاشتدت الحرارة والسخونة ـ كما نشاهده في الصيف ـ فاحترقت أبدان الحيوان والنبات، وبالجملة فكانت تفوت هذه الحكمة التي بها انتظام العالم؟ ومن الذي جعل فيها الجنات والحدائق والعيون؟ ومن الذي جعل باطنها بيوتًا للأموات وظاهرها بيوتا للأحياء؟ ومن الذي يحييها بعد

موتها، فينزل عليها الماء من السماء، ثم يرسل عليها الريح، ويطلع عليها الشمس، فتأخذ في الحبل، فإذا كان وقت الولادة مخضت للوضع واهتزت وأنبتت من كل زوج بهيج.

فسبحان من جعل السماء كالأب والأرض كالأم والقطر كالماء الذي ينعقد منه الولد، فإذا حصل الحب في الأرض، ووقع عليه الماء، أثرت نداوة الطين فيه، وأعانتها السخونة المختفية في باطن الأرض، فوصلت النداوة والحرارة إلى باطن الحبة، فاتسعت الحبة وربت، وانتفخت وانفلقت عن ساقين: ساق من فوقها وهو الشجرة، وساق من تحتها وهو العرق، ثم عظم ذلك الولد حتى لم يبق لأبيه نسبة إليه، ثم وضع من الأولاد بعد أبيه آلافا مؤلفة، كل ذلك صنع الرب الحكيم في حبة واحدة، لعلها تبلغ في الصغر إلى الغاية، وذلك من البركة التي وضعها الله سبحانه في هذه الأم.

فيا لها من آية تكفي وحدها في الدلالة على وجود الخالق وصفات كماله وأفعاله، وعلى صدق رسله فيما أخبروا به عنه بإخراج من في القبور ليوم البعث والنشور، فتأمل اجتماع هذه العناصر الأربعة، وتجاورها وامتزاجها وحاجة بعضها إلى بعض، وانفصال بعضها عن بعض، وتأثيره فيه، وتأثره به، بحيث لا يمكنه إلا الاتباع من التأثر والانفعال، ولا يستقل الآخر بالتأثير، ولا يستغني عن صاحبه، وفي ذلك أظهر دلالة على أنها مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة حادثة بعد عدمها فقيرة إلى موجد غني عنها مؤثر غير متأثر قديم غير حادث تنقاد المخلوقات كلها لقدرته، وتجيب داعي مشيئته، وتلبي داعي وحدانيته وربوبيته، وتشهد بعلمه وحكمته، وتدعو عباده إلى ذكره وشكره وطاعته وعبوديته ومحبته، وتحذرهم من بأسه ونقمته، وتحثهم على المبادرة إلى رضوانه وجنته.

فانظر إلى الماء والأرض كيف لما أراد الرب تعالى امتزاجهما وازدواجهما أنشأ الرياح، فحركت الماء وساقته إلى أن قذفته في عمق الأرض، ثم أنشأ لها حرارة لطيفة سماوية، وحصل بها الإنبات، ثم أنشأ لها حرارة أخرى أقوى منها، حصل بها

الانفتاح، وكانت حالته الأولى تضعف عن الحرارة الثانية، فادخرت إلى وقت قوته وصلابته، فحرارة الربيع للإخراج، وحرارة الصيف للإنضاج، هذا وإن الأم واحدة والأب واحد واللقاح واحد، والأولاد في غاية التباين والتنوع، كما قال تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤].

قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الرعد: ٥] وفي الآية قولان:

أحدهما: إن تعجب من قولهم: ﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ فعجب قولهم: كيف ينكرون هذا؟ وقد خُلقوا من تراب، ولم يكونوا شيئًا.

والثاني: إن تعجب من شركهم مع الله غيره، وعدم انقيادهم لتوحيده وعبادته وحده لا شريك لـه، فإنكارهم للبعث، وقولهم: ﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أعجب.

وعلى التقديرين: فإنكار المعاد عجب من الإنسان، وهو محض إنكار الرب والكفر به، والجحد لإلهيته وقدرته، وحكمته وعدله وسلطانه.

***

﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

(1) التعجب كما يدل على محبة الله للفعل نحو: «عجب ربك من شاب ليست له

---

(١) ٨ بدائع جـ٤.

صبوة»[1] و«يعجب ربك من رجل ثار من فراشه ووطائه إلى الصلاة»[2] ونحو ذلك، فقد يدل على بعض الفعل نحو قوله: ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ [الرعد: ٥]، ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ [الصافات: ١٢] ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٨]، وقوله: ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٠١] وقد يدل على امتناع الحكم وعدم حسنه نحو: ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ ﴾ [التوبة: ٧] وقد يدل على حسن المنع منه، وأنه لا يليق به فعله نحو: ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ﴾ [آل عمران: ٨٦].

***

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) ﴾

[3]قال الله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف: ١٥] فأخبر تعالى أن مدة الحمل والفطام ثلاثون شهرًا، وأخبر في آية البقرة أن مدة تمام الرضاع ﴿ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾، فعلم أن الباقي يصلح مدة للحمل وهو ستة أشهر، فاتفق الفقهاء كلهم على أن المرأة لا تلد لدون ستة أشهر إلا أن يكون سقطًا، وهذا أمر تلقاه الفقهاء عن الصحابة ﷺ.

فذكر البيهقي وغيره عن أبي حرب بن أبي الأسود الديلي: أن عمر أتي بامرأة قد

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٥١) وأبو يعلى (٣/ ٢٨٨ رقم ١٧٤٩) والطبراني في الكبير (١٧/ ٣٠٩ رقم ٨٥٣) والقضاعي في الشهاب (١/ ٣٣٦ رقم ٥٧٦) والديلمي في الفردوس (٣/ ٣٧ رقم ٤٠٨٥) وابن المبارك في الزهد (رقم ٣٤٩) وتمام في فوائده (٢/ ١١٦ رقم ١٣٠٠) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٧٠): رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني وإسناده حسن. وحسنه العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٢٨٦) وانظر: فيض القدير (٢/ ٢٦٣).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤١٦) وابن حبان (٦/ ٢٩٧ رقم ٢٥٥٧) وابن أبي عاصم في الجهاد (رقم ١٢٥) وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ٢٥٥): رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني في الكبير وإسناده حسن.

(٣) ١٥٨ تحفة المودود.

ولدت لستة أشهر، فهم عمر برجمها، فبلغ ذلك عليًّا ﷺ فقال: ليس عليها رجم فبلغ ذلك عمر فأرسل إليه فسأله، فقال: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ [البقرة: ٢٣٣] وقال: ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ فستة أشهر حمله وحولان تمام الرضاعة، لا حد عليهما. فخلى عنها[١].

وفي موطأ مالك أنه بلغه أن عثمان بن عفان ﷺ أتي بامرأة قد ولدت في ستة أشهر فأمر بها أن ترجم، فقال عليٌّ: ليس ذلك عليها، قال الله تعالى: ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ وقال: ﴿ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ ﴾ [لقمان: ١٤] فأمر بها عثمان أن ترد فوجدت قد رجمت[٢].

وذكر داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس أنه كان يقول: إذا ولدت المرأة لتسعة أشهر كفاها من الرضاع أحد وعشرون شهرًا، وإذا وضعت لسبعة أشهر كفاها من الرضاع ثلاثة وعشرون شهرًا، وإذا وضعت لستة أشهر كفاها من الرضاع أربعة وعشرون شهرًا، كما قال تعالى: ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾[٣] انتهى كلامه.

وقال الله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ [الرعد: ٨] قال ابن عباس: ﴿ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ ﴾ ما تنقص عن التسعة أشهر وما تزيد عليها[٤]. ووافقه على هذا أصحابه كمجاهد وسعيد بن جبير، وقال مجاهد أيضًا: إذا حاضت المرأة على ولدها كان ذلك نقصانًا من الولد ﴿ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ قال: إذا زادت على تسعة

---

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (٧/ ٤٤٢ رقم ١٥٣٢٦) وسعيد بن منصور (رقم ٢٠٧٤) وعبد الرزاق (٧/ ٣٤٩ رقم ١٣٤٤٣) وانظر: شرح الزرقاني على موطأ مالك (٤/ ١٧٩).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٨٢٥ رقم ١٥٠٧) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٤٤٢ رقم ١٥٣٢٨) وانظر: الاستذكار (٧/ ٤٩١) وشرح الزرقاني (٤/ ١٧٩).

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى (٧/ ٤٤٢ رقم ١٥٣٢٥) (٧/ ٤٦٢ رقم ١٥٤٤٨) وانظر: الدر المنثور (٧/ ٤٤٢).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٧/ ٢٢٢٦ رقم ١٢١٦٢).

أشهر كان ذلك تمامًا لما نقص من ولدها[١]. وقال أيضًا: الغيض ما رأت الحامل من الدم في حملها، وهو نقصان من الولد، والزيادة ما زاد على التسعة أشهر، وهو تمام النقصان[٢].

وقال الحسن: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ ما كان من سقط وما تزداد المرأة تلد لعشرة أشهر وقال عكرمة تغيض الأرحام الحيض بعد الحمل فكل يوم رأت فيه الدم حاملا ازداد به في الأيام طاهرًا. فما حاضت يوما إلا ازدادت في الحمل يومًا[٣].

وقال قتادة: الغيض السقط، وما تزداد فوق التسعة أشهر، وقال سعيد بن جبير: إذا رأت المرأة الدم على الحمل فهو الغيض للولد، فهو نقصان في غذاء الولد، وزيادة في الحمل[٤]. تغيض وتزداد فعلان متعديان، مفعولهما محذوف، وهو العائد على ما الموصولة، والغيض النقصان، ومنه: وَغِيضَ الْمَاءُ، وضده: الزيادة.

والتحقيق في معنى الآية أنه يعلم مدة الحمل، وما يعرض فيها من الزيادة والنقصان، فهو العالم بذلك دونكم، كما هو العالم بما تحمل كل أنثى: هل هو ذكر أو أنثى؟ وهذا أحد أنواع الغيب التي لا يعلمها إلا الله، كما في الصحيح عنه ﷺ: **«مفاتيح الغيب خمس، لا يعلمهن إلا الله: لا يعلم متى تجيء الساعة إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يجيء الغيث إلا الله، ولا يعلم ما في الأرحام إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله»**[٥].

فهو سبحانه المنفرد بعلم ما في الرحم، وعلم وقت إقامته فيه وما يزيد من بدنه وما ينقص، وما عدا هذا القول فهو من توابعه ولوازمه كالسقط والتام ورؤية الدم

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ١١٠) والدارمي (رقم ٩٢٦) وانظر: فتح الباري (٨/ ٣٧٥).
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ١٠٩-١١٠).
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ١١١).
(٤) أخرجه عبد الرزاق الصنعاني في تفسيره (٢/ ٣٣٢) والطبري في تفسيره (١٣/ ١١٢).
(٥) أخرجه البخاري (رقم ١٠٣٩) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٦٥).

وانقطاعه، والمقصود ذكر مدة إقامة الحمل في البطن، وما يتصل بها من زيادة ونقصان[١]. ا. هـ.

***

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ (١١) ﴾.

[٢](قاعدة): الصبر عن المعصية ينشأ من أسباب عديدة.

أحدها: علم العبد بقبحها ورذالتها ودناءتها، وأن الله إنما حرَّمها ونهى عنها صيانة وحماية عن الدنايا والرذائل، كما يحمي الوالد الشفيق ولده عما يضره. وهذا السبب يحمل العاقل على تركها ولو لم يعلق عليها وعيد بالعذاب.

السبب الثاني: الحياءُ من الله سبحانه، فإن العبد متى علم بنظره إليه ومقامه عليه وأنه بمرأى منه ومسمع ـ وكان حيياً ـ استحى من ربه أن يتعرض لمساخطه.

السبب الثالث: مراعاة نعمه عليك وإحسانه إليك، فإن الذنوب تزيل النعم ولابد، فما أذنب عبد ذنباً إلا زالت عنه نعمة من الله، بحسب ذلك الذنب، فإن تاب وراجع رجعت إليه أو مثلها، وإن أصر لم ترجع إليه، ولا تزال الذنوب تزيل عنه نعمة حتى تسلب النعم كلها، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾ [الرعد: ١١]، وأعظم النعم الإيمان، وذنب الزنا والسرقة وشرب الخمر وانتهاب النهبة يزيلها ويسلبها.

وقال بعض السلف: أذنبت ذنباً فحرمت قيام الليل سنة[٣]. وقال آخر: أذنبت ذنباً

---

(١) سيأتي في سورة الأحقاف زيادة بحث حول هذا إن شاء الله (ج).

(٢) ٢٧٠ طريق الهجرتين.

(٣) أخرج أبو نعيم في حلية الأولياء (٧/ ١٧) عن سفيان الثوري أنه قال: حرمت قيام الليل بذنب أحدثته خمسة أشهر.

فحرمت فهم القرآن. وفي مثل هذا قيل:

إذا كنت في نعمة فارعها   فإن المعاصي تزيل النعم[1]

بالجملة فإن المعاصي نار النعم تأكلها، كما تأكل النار الحطب، عياذاً بالله من زوال نعمته وتحويل عافيته.

[2]﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

يعقب بعضهم بعضًا، كلما جاء جند وذهب جاء بدله آخر، يثبتونه ويأمرونه بالخير، ويحضونه عليه، ويعدونه بكرامة الله، ويصبرونه ويقولون: إنما هو صبر ساعة وقد استرحت راحة الأبد، ثم أيده سبحانه بجند آخر من وحيه وكلامه.

[3]ومن عقوبات الذنوب أنها تزيل النعم وتحل النقم، فما زالت عن العبد نعمة إلا بسبب ذنب، ولا حلت به نقمة إلا بذنب، كما قال علي بن أبي طالب ﷺ: ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع بلاء إلا بتوبة[4]، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠] وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال: ٥٣]، فأخبر الله تعالى أنه لا يغير نعمته التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذي يغير ما بنفسه، فيغير طاعة الله بمعصيته، وشكره بكفره، وأسباب رضاه بأسباب سخطه، فإذا غير غير عليه، جزاءً وفاقًا، وما ربك بظلام للعبيد. فإن غير المعصية بالطاعة، غير الله عليه العقوبة بالعافية

---

(١) هذا البيت من بحر المتقارب، وينسب إلى علي بن أبي طالب ﷺ وذكره البيهقي في الشعب (٤/ ١٣٢ رقم ٤٥٥٩) ونسبه إلى أبي الحسن الكندي القاضي، وكذا المناوي في فيض القدير (٢/ ١١٠) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٥١/ ١٠٣) (٥٤/ ٧٠) والعجلوني في كشف الخفاء (١/ ٢٨٠) (٢/ ٢٧٩، ٣٩١).

(٢) ١٢٩ الجواب الكافي.

(٣) ٩٧ الجواب الكافي.

(٤) ذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٢/ ٤٩٧) من قول العباس عم النبي ﷺ وانظر: عمدة القاري (٧/ ٣٢) وتاريخ مدينة دمشق (٢٦/ ٣٥٨) والاستيعاب (٢/ ٨١٤).

والذل بالعز، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

(١) ومن عقوباتها أنها تزيل النعم الحاضرة، وتقطع النعم الواصلة؛ فتزيل الحاصل وتمنع الواصل، فإن نعم الله ما حفظ موجودها بمثل طاعته، ولا استجلب مفقودها بمثل طاعته، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته، وقد جعل الله سبحانه لكل شيء سببًا وآفة، سببًا يجلبه وآفة تبطله، فجعل أسباب نعمه الجالبة لها طاعته، وآفاتها المانعة منها معصيته، فإذا أراد حفظ نعمته علىٰ عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها، وإذا أراد زوالها عنه خذله حتىٰ عصاه بها، ومن العجب علم العبد بذلك مشاهدة في نفسه وغيره وسماعًا لما غاب عنه من أخبار من أزيلت نعم الله عنهم بمعاصيه، وهو مقيم علىٰ معصية الله، كأنه مستثنىٰ من هذه الجملة، أو مخصوص من هذا العموم، وكأن هذا أمر جارٍ علىٰ الناس لا عليه، وواصل إلىٰ الخلق لا إليه، فأي جهل أبلغ من هذا؟ وأي ظلم للنفس فوق هذا؟ فالحكم لله العلي الكبير.

(٢) والمقصود أن هذه الأسباب التي فيها لذة ما، هي شر وإن نالت بها النفس مسرة عاجلة، وهي بمنزلة طعام لذيذ شهي، لكنه مسموم إذا تناوله الآكل لذ لأكله وطاب له مساغه، وبعد قليل يفعل به ما يفعل، فهكذا المعاصي والذنوب ولا بد حتىٰ لو لم يخبر الشارع بذلك، لكان الواقع والتجربة الخاصة والعامة من أكبر شهوده، وهل زالت عن أحد قط نعمة إلا بشؤم معصيته؟ فإن الله إذا أنعم علىٰ عبد بنعمة حفظها عليه ولا يغيرها عنه، حتىٰ يكون هو الساعي في تغييرها عن نفسه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

ومن تأمل ما قص الله تعالىٰ في كتابه من أحوال الأمم الذين أزال نعمه عنهم وجد

---

(١) ١٤٣ الجواب الكافي.

(٢) ٢٠٥ بدائع جـ٢.

سبب ذلك جميعه إنما هو مخالفة أمره وعصيان رسله، وكذلك من نظر في أحوال أهل عصره، وما أزال الله عنهم من نعمه، وجد ذلك كله من سوء عواقب الذنوب، كما قيل:

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن المعاصي تزيل النعم

فما حفظت نعمة الله بشيء قط مثل طاعته، ولا حصلت فيها الزيادة بمثل شكره، ولا زالت عن العبد بمثل معصيته لربه فإنها نار النعم التي تعمل فيها كما تعمل النار في الحطب اليابس، ومن سافر بفكره في أحوال العالم استغنى عن تعريف غيره له، والمقصود أن هذه الأسباب شرور ولابد، وأما كون مسبباتها شرورا فلأنها آلام نفسية وبدنية، فيجتمع على صاحبها مع شدة الألم الحسي ألم الروح بالهموم والغموم والأحزان والحسرات، ولو تفطن العاقل اللبيب لهذا حق التفطن لأعطاه حقه من الحذر والجد في الهرب، ولكن قد ضرب على قلبه حجاب الغفلة، ليقضي الله أمرا كان مفعولًا فلو تيقظ حق التيقظ لتقطعت نفسه في الدنيا حسرات على ما فاته من حظه العاجل والآجل من الله، وإنما يظهر له هذا حقيقة الظهور عند مفارقة هذا العالم والإشراف والاطلاع على عالم البقاء، فحينئذ يقول: ﴿ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴾ [الفجر: ٢٤] و﴿ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٥٦].

وقد فسَّر السلف «دعوة الحق» بالتوحيد والإخلاص فيه والصدق. ومرادهم: هذا المعنى. فقال علي ﷺ: دعوة الحق: التوحيد، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: شهادة أن لا إله إلا الله، وقيل: الدعاء بالإخلاص، والدعاء الخالص لا يكون إلا لله، ودعوة الحق دعوة الإلهية وحقوقها وتجريدها وإخلاصها.

***

﴿ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ

ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾.

(١)احتج على تفرده بالإلهية بتفرده بالخلق، وعلى بطلان إلهية ما سواه بعجزهم عن الخلق، وعلى أنه واحد بأنه قهار، والقهر التام يستلزم الوحدة، فإن الشركة تنافي تمام القهر.

(٢)وقد ذكر الله المثلين المائي والناري في سورة الرعد، ولكن في حق المؤمنين؛ فقال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد: ١٧] شبه الوحي الذي أنزله لحياة القلوب والأسماع والأبصار بالماء الذي أنزله لحياة الأرض بالنبات، وشبه القلوب بالأودية. فقلب كبير يسع علمًا عظيمًا كواد كبير يسع ماء كثيرًا، وقلب صغير إنما يسع بحسبه كالوادي الصغير، فسالت أودية بقدرها، واحتملت قلوب من الهدى والعلم بقدرها، وكما أن السيل إذا خالط الأرض ومر عليها احتمل غثاء وزبدا، فكذلك الهدى والعلم إذا خالط القلوب أثار ما فيها من الشهوات والشبهات ليقلعها ويذهبها، كما يثير الدواء وقت شربه من البدن أخلاطه، فيتكدر بها شاربه، وهي من تمام نفع الدواء، فإنه أثارها ليذهب بها، فإنه لا يجامعها ولا يشاركها، وهكذا يضرب الله الحق والباطل، ثم ذكر المثل الناري، فقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾،

(١) ٩٦ مختصر الصواعق جـ١.
(٢) ١٥٢ أعلام جـ١.

وهو الخبث الذي يخرج عند سبك الذهب والفضة والنحاس والحديد، فتخرجه النار وتميزه وتفصله عن الجوهر الذي ينتفع به، فيرمى ويطرح ويذهب جفاء، فكذلك الشهوات والشبهات يرميها قلب المؤمن ويطرحها ويجفوها، كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد والغثاء والخبث، ويستقر في قرار الوادي الماء الصافي الذي يستقي منه الناس، ويزرعون ويسقون أنعامهم، كذلك يستقر في قرار القبل وجذره الإيمان الخالص الصافي الذي ينفع صاحبه، وينتفع به غيره، ومن لم يفقه هذين المثلين ولم يتدبرهما و يعرف ما يراد منهما فليس من أهلهما، والله الموفق.

[(١)]شبه سبحانه العلم الذي أنزله على رسوله بالماء الذي أنزله من السماء لما يحصل لكل واحد منهما من الحياة ومصالح العباد في معاشهم ومعادهم، ثم شبه القلوب بالأودية، فقلب كبير يسع علمًا كثيرًا كواد عظيم يسع ماء كثيرًا، وقلب صغيرًا إنما يسع علمًا قليلًا كواد صغير إنما يسع ماء قليلًا فقال: ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾ هذا مثل ضربة الله تعالى للعلم حين تخالط القلوب بشاشته فإنه يستخرج منها زبد الشبهات الباطلة، فيطفو على وجه القلب، كما يستخرج السيل من الوادي زبدًا يعلو فوق الماء.

وأخبر سبحانه أنه راب يطفو ويعلو على الماء لا يستقر في أرض الوادي، كذلك الشبهات الباطلة إذا أخرجها العلم ربت فوق القلوب وطفت، فلا تستقر فيه، بل تجفى وترمى، فيستقر في القلب ما ينفع صاحبه والناس من الهدى ودين الحق، كما يستقر في الوادي الماء الصافي، ويذهب الزبد جفاء، وما يعقل عن الله أمثاله إلا العالمون، ثم ضرب سبحانه لذلك مثلًا آخر، فقال: ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ﴾ يعني: أن مما يوقد عليه بنو آدم من الذهب والفضة والنحاس والحديد يخرج منه خبثه، وهو الزبد الذي تلقيه النار، وتخرجه من ذلك

(١) ٦١ مفتاح جـ١.

الجوهر بسبب مخالطتها، فإنه يقذف ويلقى به، ويستقر الجوهر الخالص وحده.

وضرب سبحانه مثلًا بالماء لما فيه من الحياة والتبريد والمنفعة، ومثلًا بالنار لما فيها من الإضاءة والإشراق والإحراق، فآيات القرآن تحيي القلوب كما تحيا الأرض بالماء، وتحرق خبثها وشبهاتها وشهواتها وسخائمها كما تحرق النار ما يلقى فيها، وتميز جيدها من زبدها، كما تميز النار الخبث من الذهب والفضة والنحاس ونحوه منه، فهذا بعض ما في هذا المثل العظيم من العبر والعلم، قال الله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

(1) فضرب لوحيه المثل بالماء لما يحصل به من الحياة، وبالنار لما يجعل بها من الإضاءة والإشراق، وأخبر سبحانه أن الأودية تسيل بقدرها، فوادٍ كبير يسع ماءً كثيرًا، ووادٍ صغير يسع ماء قليلًا، كذلك القلوب مشبهة بالأودية، فقلب كبير يسع علمًا كثيرًا، وقلب صغير إنما يسع بقدره، وشبه ما تحمله القلوب من الشبهات والشهوات، بسبب مخالطة الوحي لها، وإمازته لما فيها من ذلك، بما يحتمله السيل من الزبد. وشبه بطلان تلك الشبهات باستقرار العلم النافع فيها، بذهاب ذلك الزبد، وإلقاء الوادي له، وإنما يستقر فيه الماء الذي به النفع، وكذلك في المثل الذي بعده، يذهب الخبث الذي في ذلك الجوهر، ويستقر صفوه.

وأما ضرب هذين المثلين للعباد، فكما قال في سورة البقرة: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ فهذا المثل الناري، ثم قال: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ [البقرة: ١٧ - ١٩] فهذا المثل المائي. وقد ذكرنا الكلام على أسرار هذين المثلين وبعض ما تضمناه من الحكم في كتاب المعالم وغيره.

---

(١) ٢٢ إغاثة جـ١.

والمقصود: أن صلاح القلب وسعادته وفلاحه موقوف على هذين الأصلين. قال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ [يس: ٦٩، ٧٠]، فأخبر أن الانتفاع بالقرآن والإنذار إنما يحصل لمن هو حي القلب، كما قال في موضع آخر: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ [ق: ٣٧].

***

﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝ ﴾.

[١]إنه سبحانه جعل أهل الجهل بمنزلة العميان الذين لا يبصرون، فقال: ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ﴾ [الرعد: ١٩] فما ثم إلا عالم أو أعمى، وقد وصف أهل الجهل بأنهم صم بكم عمي في غير موضع من كتابه.

[٢]قسم الناس قسمين: أحدهما: العلماء بأن ما أنزل إليه من ربه هو الحق. والثاني: العمي، فدل على أنه لا واسطة بينهما.

[٣]الصبر باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام: صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها. وصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها. وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها.

وهذه الأنواع الثلاثة هي التي قال فيها الشيخ عبد القادر في (فتوح الغيب): «لابد

---

(١) ٤٩ مفتاح جـ١.
(٢) ٨٨ مفتاح جـ١.
(٣) ٢٥ عدة الصابرين.

للعبد من أمر يفعله، ونهي يجتنبه، وقدر يصبر عليه»[(١)].

وهذا الكلام يتعلق بطرفين: طرف من جهة الرب تعالىٰ، وطرف من جهة العبد.

فأما الذي من جهة الرب فهو أن الله تعالىٰ له علىٰ عبده حكمان: حكم شرعي ديني، وحكم كوني قدري، فالشرعي متعلق بأمره، والكوني متعلق بخلقه، وهو سبحانه له الخلق والأمر.

وحكمه الديني الطلبي نوعان: بحسب المطلوب، فإن المطلوب إن كان محبوبا له فالمطلوب فعله: إما واجبا وإما مستحبا، ولا يتم ذلك إلا بالصبر، وإن كان مبغوضًا له فالمطلوب تركه: إما تحريما وإما كراهة، وذلك أيضًا موقوف علىٰ الصبر، فهذا حكمه الديني الشرعي. وأما حكمه الكوني فهو ما يقضيه ويقدره علىٰ العبد من المصائب، التي لا صنع له فيها، ففرضه الصبر عليها، وفي وجوب الرضا بها قولان للعلماء، وهما وجهان في مذهب أحمد، أصحهما أنه مستحب، فمرجع الدين كله إلىٰ هذه القواعد الثلاث وفعل المأمور، وترك المحظور، والصبر علىٰ المقدور.

وأما الذي من جهة العبد فإنه لا ينفك عن هذه الثلاث ما دام مكلفًا، ولا تسقط عنه هذه الثلاث، حتىٰ يسقط عنه التكليف، فقيام عبودية الأمر والنهي والقدر علىٰ ساق الصبر لا تستوي إلا عليه، كما لا تستوي السنبلة إلا علىٰ ساقها.

فالصبر متعلق بالمأمور والمحظور والمقدور بالخلق والأمر، والشيخ دائمًا يحوم حول هذه الأصول الثلاثة، كقوله: يا بني افعل المأمور، واجتنب المحظور، واصبر علىٰ المقدور. وهذه الثلاثة هي التي أوصىٰ بها لقمان لابنه في قوله: ﴿ يَـٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾ [لقمان: ١٧] فأمره بالمعروف يتناول فعله بنفسه وأمر غيره به، وكذلك نهيه عن المنكر، أما من حيث إطلاق اللفظ فتدخل نفسه فيه وغيره، وأما من حيث اللزوم الشرعي فإن الآمر الناهي لا يستقيم له أمره ونهيه حتىٰ يكون أول مأمور ومنهي، وذكر سبحانه هذه الأصول

---

(١) ذكر هذا القول المناوي في فيض القدير (٤/ ٢٣٤).

الثلاثة في قوله: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [١٩-٢٢].

فجمع لهم مقامات الإسلام والإيمان في هذه الأوصاف، فوصفهم بالوفاء بعهده الذي عاهدهم عليه، وذلك يعم أمره ونهيه، الذي عهده إليهم بينهم وبينه وبينهم وبين خلقه، ثم أخبر عن استمرارهم بالوفاء به بأنهم لا يقع منهم نقضه، ثم وصفهم بأنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل، ويدخل في هذا ظاهر الدين وباطنه، وحق الله وحق خلقه، فيصلون ما بينهم وبين ربهم بعبوديته وحده لا شريك له والقيام بطاعته والإنابة إليه والتوكل عليه وحبه وخوفه ورجائه والتوبة إليه والاستكانة له والخضوع والذلة له والاعتراف له بنعمته وشكره عليها والإقرار بالخطيئة والاستغفار منها، فهذه هي الوصلة بين الرب والعبد، وقد أمر الله بهذه الأسباب التي بينه وبين عبده أن توصل.

وأمر أن نوصل ما بيننا وبين رسوله بالإيمان به وتصديقه وتحكيمه في كل شيء، والرضا لحكمه، والتسليم له، وتقديم محبته على محبة النفس والولد والوالد والناس أجمعين صلوات الله وسلامه عليه فدخل في ذلك القيام بحقه وحق رسوله، وأمر أن نصل ما بيننا وبين الوالدين والأقربين بالبر والصلة، فإنه أمر ببر الوالدين وصلة الأرحام، وذلك مما أمر به أن يوصل، وأمر أن نصل ما بيننا وبين الزوجات بالقيام بحقوقهن ومعاشرتهن بالمعروف.

وأمر أن نصل ما بيننا وبين الأرقاء بأن نطعمهم مما نأكل، ونكسوهم مما نكتسي، ولا نكلفهم فوق طاقتهم. وأن نصل ما بيننا وبين الجار القريب والبعيد بمراعاة حقه وحفظه في نفسه وماله وأهله بما نحفظ به نفوسنا وأهلينا وأموالنا. وأن نصل ما بيننا وبين الرفيق في السفر والحضر.

وأن نصل ما بيننا وبين عموم الناس بأن نأتي إليهم ما نحب أن يأتوه إلينا.

وأن نصل ما بيننا وبين الحفظة الكرام الكاتبين بأن نكرمهم ونستحي منهم، كما يستحي الرجل من جليسه، ومن هو معه ممن يجله ويكرمه. فهذا كله مما أمر الله به أن يوصل ثم وصفهم بالحامل لهم على هذه الصلة وهو خشيته وخوف سوء الحساب يوم المآب، ولا يمكن لأحد قط أن يصل ما أمر الله بوصله إلا بخشيته ومتى ترحلت الخشية، من القلب انقطعت هذه الوصل.

ثم جمع لهم سبحانه ذلك كله في أصل واحد هو أخية ذلك وقاعدته ومداره الذي يدور عليه، وهو الصبر، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد: ٢٢]، فلم يكتف منهم بمجرد الصبر حتى يكون خالصا لوجهه.

ثم ذكر لهم ما يعينهم على الصبر، وهي الصلاة، فقال: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهذان هما العونان على مصالح الدنيا والآخرة، وهما الصبر والصلاة، فقال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

ثم ذكر سبحانه إحسانهم إلى غيرهم بالإنفاق عليهم سرا وعلانية، فأحسنوا إلى أنفسهم بالصبر والصلاة وإلى غيرهم بالإنفاق عليهم، ثم ذكر حالهم إذا جهل عليهم وأوذوا أنهم لا يقابلون ذلك بمثله، بل يدرأون بالحسنة السيئة، فيحسنون إلى من يسيء إليهم، فقال: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾، وقد فسر هذا الدرء بأنهم يدفعون بالذنب الحسنة بعده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤] وقال النبي ﷺ: «**أتبع السيئة الحسنة تمحها**»[1]. والتحقيق أن الآية تعم النوعين. والمقصود أن هذه الآيات تناولت مقامات الإسلام والإيمان كلها، اشتملت على فعل المأمور وترك

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٣، ١٥٨، ٢٣٦) والبزار (٩/ ٤١٦ رقم ٤٠٢٢) والترمذي (رقم ١٩٨٧) والحاكم (١/ ١٢١ رقم ١٧٨) والدارمي (رقم ٢٧٩١) والطبراني في الصغير (رقم ٥٣٠) وفي الكبير (٢٠/ ١٤٤ رقم ٢٩٦) والبيهقي في الشعب (٦/ ٢٤٤ رقم ٨٠٢٣) وفي الزهد الكبير (٢/ ٣٢٦ رقم ٨٧٤) والحديث صححه الحاكم، وقال الترمذي: حسن صحيح، وحسنه الحافظ ابن حجر في الأمالي المطلقة (ص ١٣١).

المحظور والصبر على المقدور، وقد ذكر تعالى هذه الأصول الثلاثة في قوله: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٢٥] وقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾ [يوسف: ٩٠] وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] فكل موضع قرن فيه التقوى بالصبر اشتمل على الأمور الثلاثة: فإن حقيقة التقوى فعل المأمور وترك المحظور.

[(١)]ويذكر عن علي ﷺ أنه قال: «الصبر ثلاثة: فصبر على المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها، كتب الله له ثلاثمائة درجة، ومن صبر على الطاعة حتى يؤديها كما أمر الله؛ كتب الله له ستمائة درجة، ومن صبر عن المعصية خوفًا من الله ورجاء ما عنده؛ كتب الله له تسعمائة درجة»[(٢)] وقال ميمون بن مهران: «الصبر صبران: فالصبر على المصيبة حسن، وأفضل منه الصبر عن المعصية»[(٣)].

وقال الفضيل في قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾ [الرعد: ١٣] ثم قال: «صبروا على ما أمروا به، وصبروا عما نهو عنه»، وكأنه جعل الصبر على المصيبة داخلًا في قسم المأمور به، والله أعلم.

[(٤)]وروى شعبة بن قيس عن حبيب عن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: **«أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الحامدون الذين يحمدون الله في السراء والضراء»**[(٥)] وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل عن إبراهيم

---

(١) ٧٤ عدة الصابرين.

(٢) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس (٢/ ٤١٦ رقم ٣٨٤٦).

(٣) ذكره عن ميمون ابن الجوزي في صفة الصفوة (٤/ ١٩٤) بينما أخرجه عن عمر بن الخطاب ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ١٠٢ رقم ٤٨٤)، وذكره عن عمر أيضًا ابن كثير في تفسيره (١/ ٨٨).

(٤) ٨٤ حادي الأرواح.

(٥) أخرجه الحاكم (١/ ٦٨١ رقم ١٨٥١) وابن المبارك في الزهد (رقم ٢٠٦) والطبراني في الصغير (رقم ٢٨٨) وفي الأوسط (٣/ ٢٤٠ رقم ٣٠٣٣) وفي الكبير (١٢/ ١٩ رقم ١٢٣٤٥) وفي الدعاء (رقم =

حدثنا هشام الدستوائي عن يحيىٰ بن أبي كثير عن عامر العقيلي عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «عرض عليَّ أول ثلاثة من أمتي يدخلون الجنة، وأول ثلاثة يدخلون النار، فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة: فالشهيد، وعبد مملوك لم يشغله رق الدنيا عن طاعة ربه، وفقير متعفف ذو عيال، وأول ثلاثة يدخلون النار: فأمير مسلط، وذو ثروة من مال لا يؤدي حق الله من ماله، وفقير فخور»(١).

وروىٰ الإمام أحمد في مسنده والطبراني في معجمه، واللفظ له من حديث أبي عشانة المعافري أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون أول من يدخل الجنة»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فقراء المهاجرين الذين تتقىٰ بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره، لا يستطيع لها قضاء، تقول الملائكة: ربنا نحن ملائكتك وخزنتك وسكان سمواتك لا تدخلهم الجنة قبلنا، فيقول: عبادي لا يشركون بي شيئًا، تتقىٰ بهم المكاره، يموت أحدهم وحاجته في صدره لم يستطع لها قضاء، فعند ذلك تدخل عليهم الملائكة من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبىٰ الدار»(٢).

***

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ

= ١٧٦٨) وقال المنذري في الترغيب (٢/ ٢٨٤ رقم ٢٤١٨): رواه ابن أبي الدنيا والبزار والطبراني في الثلاثة بأسانيد أحدها حسن. والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم. وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٩٥): ورواه البزار بنحوه وإسناده حسن.

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٢٥) والطيالسي (رقم ٢٥٦٧) وابن أبي شيبة (٧/ ٢٦٨ رقم ٣٥٩٦٩) والترمذي (رقم ١٦٤٢) والبيهقي في الكبرىٰ (٤/ ٨٢ رقم ٧٠١٩) وابن حبان (١٠/ ١٥١ رقم ٤٣١٢) (١٦/ ٢٣٣ رقم ٧٢٤٨) والحاكم (١/ ٥٤٤ رقم ١٤٢٩) وحسنه الترمذي.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٨) والبزار (٦/ ٤٢٦-٤٢٧ رقم ٢٤٥٧) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣٤٧) وقال المنذري في الترغيب (٤/ ٦٢): رواه أحمد والبزار ورواتهما ثقات. وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٥٩): رواه أحمد والبزار والطبراني ورجالهم ثقات.

ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ﴾.

[(١)] من شهادته أيضًا: ما أودعه في قلوب عباده: من التصديق الجازم، واليقين الثابت والطمأنينة بكلامه ووحيه، فإن العادة تحيل حصول ذلك بما هو من أعظم الكذب والافتراء على رب العالمين، والإخبار عنه بخلاف ما هو عليه من أسمائه وصفاته، بل ذلك يوقع أعظم الريب والشك، وتدفعه الفطر والعقول السليمة، كما تدفع الفطر التي فطر عليها الحيوان الأغذية الخبيثة الضارة، التي لا تغذي كالأبوال والأنتان، فإن الله سبحانه فطر القلوب على قبول الحق والانقياد له والطمأنينة به والسكون إليه ومحبته، وفطرها على بغض الكذب والباطل والنفور عنه والريبة به وعدم السكون إليه، ولو بقيت الفطر على حالها لما آثرت على الحق سواه، ولما سكنت إلا إليه ولا اطمأنت إلا به ولا أحبت غيره، ولهذا ندب الله ﷻ عباده إلى تدبر القرآن فإن كل من تدبره أوجب له تدبره علما ضروريا ويقينا جازما أنه حق وصدق، بل أحق كل حق، وأصدق كل صدق، وأن الذي جاء به أصدق خلق الله وأبرهم

(١) ٤٧١ مدارج جـ٣.

وأكملهم علما وعملا ومعرفة، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤] فلو رفعت الأقفال عن القلوب لباشرتها حقائق القرآن، واستنارت فيها مصابيح الإيمان، وعلمت علمًا ضروريا يكون عندها كسائر الأمور الوجدانية من الفرح والألم والحب والخوف أنه من عند الله تكلم به حقًا وبلغه رسوله جبريل عنه إلى رسوله محمد، فهذا الشاهد في القلب من أعظم الشواهد، وبه احتج هرقل على أبي سفيان، حيث قال له: «فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فقال: لا، فقال له وكذلك الإيمان إذا خالطت حلاوته بشاشة القلوب لا يسخطه أحد»[1].

وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى في قوله: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾ [الحج: ٥٤]، وقوله: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦]، وقوله: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٩]، وقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧] يعني: أن الآية التي يقترحونها لا توجب هداية، بل الله هو الذي يهدي ويضل، ثم نبههم على أعظم آية وأجلها وهي طمأنينة قلوب المؤمنين بذكره الذي أنزله، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] فطمأنينة القلوب الصحيحة والفطر السليمة به وسكونها إليه من أعظم الآيات، إذ يستحيل في العادة، أن تطمئن القلوب وتسكن إلى الكذب والافتراء والباطل.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧، ٥١) ومسلم (رقم ١٧٧٣) وانظر: فتح الباري (١/ ٣٦-٣٧) وشرح النووي (١٠٦/١٢).

[(١)] ومتى انفتح هذا الباب للعبد؛ انتفع بمطالعة تاريخ العالم، وأحوال الأمم ومجريات الخلق، بل انتفع بمجريات أهل زمانه وما يشاهده من أحوال الناس، وفهم حينئذ معنى قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآيِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] وقوله: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨]، فكل ما تراه في الوجود ـ من شر وألم وعقوبة وجدب، ونقص في نفسك وفي غيرك ـ فهو من قيام الرب تعالى بالقسط. وهو عدل الله وقسطه، وإن أجراه على يد ظالم، فالمسلط له أعدل العادلين، كما قال تعالى لمن أفسد في الأرض: ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ [الإسراء: ٥].

[(٢)] هل النفس واحدة أم ثلاث: فقد وقع في كلام كثير من الناس: أن لابن آدم ثلاث أنفس: نفس مطمئنة، ونفس لوامة، ونفس أمارة، وأن منهم من تغلب عليه هذه، ومنهم من تغلب عليه الأخرى، ويحتجون على ذلك بقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ [الفجر: ٢٧]، وبقوله تعالى: ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة: ١، ٢]، وبقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف: ٥٣]، والتحقيق أنها نفس واحدة، ولكن لها صفات، فتسمى باعتبار كل صفة باسم.

فتسمى مطمئنة باعتبار طمأنينتها إلى ربها: بعبوديته ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليه والرضا به والسكون إليه، فإن سمة محبته وخوفه ورجائه منها قطع النظر عن محبة غيره وخوفه ورجائه، فيستغني بمحبته عن حب ما سواه وبذكره عن ذكر ما سواه وبالشوق إليه وإلى لقائه عن الشوق إلى ما سواه.

فالطمأنينة إلى الله سبحانه حقيقة ترد منه سبحانه على قلب عبده تجمعه عليه، وترد قلبه الشارد إليه، حتى كأنه جالس بين يديه، يسمع به، ويبصر به، ويتحرك به، ويبطش

---

(١) ٤٢٥ مدارج جـ١.

(٢) ٢٦٧ الروح.

به، فتسرى تلك الطمأنينة في نفسه وقلبه ومفاصله وقواه الظاهرة والباطنة، تجذب روحه إلى الله، ويلين جلده وقلبه ومفاصله إلى خدمته والتقرب إليه، ولا يمكن حصول الطمأنينة الحقيقية إلا بالله وبذكره، وهو كلامه الذي أنزله على رسوله، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]، فإن طمأنينة القلب سكونه واستقراره بزوال القلق والانزعاج والاضطراب عنه، وهذا لا يتأتى بشيء سوى الله تعالى وذكره البتة وأما ما عداه فالطمأنينة إليه غرور والثقة به عجز.

قضى الله ﷻ قضاء لا مرد له: أن من اطمأن إلى شيء سواه أتاه القلق والانزعاج والاضطراب من جهته كائنًا من كان، بل لو اطمأن العبد إلى علمه وحاله وعمله سبله وزاله. وقد جعل سبحانه نفوس المطمئنين إلى سواه أغراضًا لسهام البلاء، ليعلم عباده وأولياؤه أن المتعلق بغيره مقطوع، والمطمئن إلى سواه عن مصالحه ومقاصده مصدود وممنوع، وحقيقة الطمأنينة التي تصير بها النفس مطمئنة أن تطمئن في باب معرفة أسمائه وصفاته ونعوت كماله إلى خبره الذي أخبر به عن نفسه، وأخبرت به عنه رسله، فتتلقاه بالقبول والتسليم والإذعان وانشراح الصدر له وفرح القلب به، فإنه معرف من معرفات الرب سبحانه إلى عبده على لسان رسوله، فلا يزل القلب في أعظم القلق والاضطراب في هذا الباب حتى يخالط الإيمان بأسماء الرب تعالى وصفاته وتوحيده وعلوه على عرشه وتكلمه بالوحي بشاشة قلبه، فينزل ذلك عليه نزول الماء الزلال على القلب الملتهب بالعطش، فيطمئن إليه ويسكن إليه ويفرح به، ويلين له قلبه ومفاصله، حتى كأنه شاهد الأمر، كما أخبرت به الرسل، بل يصير ذلك لقلبه بمنزلة رؤية الشمس في الظهيرة لعينه، فلو خالفه في ذلك من بين شرق الأرض وغربها لم يلتفت إلى خلافهم. وقال إذا استوحش من الغربة قد كان الصديق الأكبر مطمئنا بالإيمان وحده، وجميع أهل الأرض يخالفه، وما نقص ذلك من طمأنينة شيئًا، فهذا أول درجات الطمأنينة، ثم لا يزال يقوى كلما سمع بآية متضمنة لصفة من صفات

ربه، وهذا أمر لا نهاية له، فهذه الطمأنينة أصل أصول الإيمان التي قام عليها بناؤه، ثم يطمئن إلىٰ خبره عما بعد الموت من أمور البرزخ وما بعدها من أحوال القيامة، حتىٰ كأنه يشاهد ذلك كله عيانًا، وهذا حقيقة اليقين الذي وصف به ﷻ أهل الإيمان، حيث قال: ﴿ وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة: ٤].

فلا يحصل الإيمان بالآخرة حتىٰ يطمئن القلب إلىٰ ما أخبر الله سبحانه به عنها طمأنينته إلىٰ الأمور التي لا يشك فيها ولا يرتاب، فهذا هو المؤمن حقًّا باليوم الآخر، كما في حديث حارثة: أصبحت مؤمنًا حقًّا. فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «**إن لكل حق حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟**» قال: عزفت نفسي عن الدنيا وأهلها، وكأني أنظر إلىٰ عرش ربي بارزًا، وإلىٰ أهل الجنة يتزاورون فيها، وأهل النار يعذبون فيها، فقال: «**عبد نوَّر الله قلبه**»[(١)].

والطمأنينة إلىٰ أسماء الرب تعالىٰ وصفاته نوعان: طمأنينة إلىٰ الإيمان بها وإثباتها واعتقادها، وطمأنينة إلىٰ ما تقتضيه وتوجبه من آثار العبودية. مثاله الطمأنينة إلىٰ القدر وإثباته، والإيمان به يقتضي الطمأنينة إلىٰ مواضع الأقدار، التي لم يؤمر العبد بدفعها ولا قدرة له علىٰ دفعها، فيسلم لها ويرضىٰ بها، ولا يسخط ولا يشكو، ولا يضطرب إيمانه، فلا يأسىٰ علىٰ ما فاته، ولا يفرح بما أتاه، لأن المصيبة فيه مقدرة قبل أن تصل إليه وقبل أن يخلق، كما قال تعالىٰ: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن: ١١] قال غير واحد من السلف: هو العبد تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله فيرضىٰ ويسلم، فهذه

(١) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (رقم ٩٧٣) والطبراني في الكبير (٣/ ٢٦٦ رقم ٣٣٦٧) وعبد بن حميد (رقم ٤٤٥) وابن أبي شيبة (٦/ ١٧٠ رقم ٣٠٤٢٥) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٨٧) وجاء اسم الصحابي في هذه المصادر: حارث بن مالك الأنصاري.

طمأنينة إلى أحكام الصفات وموجباتها وآثارها في العالم، وهي قدر زائد على الطمأنينة بمجرد العلم بها واعتقادها، وكذلك سائر الصفات وآثارها ومتعلقاتها كالسمع والبصر والرضا والغضب والمحبة، فهذه طمأنينة الإيمان.

وأما طمأنينة الإحسان فهي الطمأنينة إلى أمره امتثالًا وإخلاصًا ونصحًا، فلا يقدم على أمره إرادة ولا هوى ولا تقليدًا، فلا يساكن شبهة تعارض خبره ولا شهوة تعارض أمره بل إذا مرت به أنزلها منزلة الوساوس، التي لأن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يجدها، فهذا كما قال النبي ﷺ «**صريح الإيمان**»[1]. وعلامة هذه الطمأنينة أن يطمئن من قلق المعصية وانزعاجها إلى سكون التوبة وحلاوتها وفرحتها، ويسهل عليه ذلك بأن يعلم أن اللذة والحلاوة والفرحة في الظفر بالتوبة، وهذا أمر لا يعرفه إلا من ذاق الأمرين، وباشر قلبه آثارهما، فللتوبة طمأنينة تقابل ما في المعصية من الانزعاج والقلق ولو فتش العاصي عن قلبه لوجد حشوه المخاوف والانزعاج والقلق والاضطراب، وإنما يواري عنه شهود ذلك سكر الغفلة والشهوة، فإن لكل شهوة سكرًا يزيد على سكر الخمر، وكذلك الغضب له سكر أعظم من سكر الشراب، ولهذا ترى العاشق والغضبان يفعل ما لا يفعله شارب الخمر، وكذلك يطمئن من قلق الغفلة والإعراض إلى سكون الإقبال على الله وحلاوة ذكره وتعلق الروح بحبه ومعرفته، فلا طمأنينة للروح بدون هذا أبدًا، ولو أنصفت نفسها لرأتها إذا فقدت ذلك في غاية الانزعاج والقلق والاضطراب، ولكن يواريها السكر، فإذا كشف الغطاء تبين له حقيقة ما كان فيه.

وهاهنا سر لطيف يجب التنبيه عليه والتنبه له، والتوفيق له بيد من أزمة التوفيق بيده، وهو أن الله سبحانه جعل لكل عضو من أعضاء الإنسان كمالًا إن لم يحصل له فهو في قلق واضطراب وانزعاج بسبب فقد كماله الذي جعل له مثالا كمال العين بالأبصار، وكمال الأذن بالسمع، وكمال اللسان بالنطق، فإذا عدمت هذه الأعضاء

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٣٢) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٢٧٣-٢٧٤).

القوىٰ التي بها كمالها حصل الألم والنقص بحسب فوات ذلك، وجعل كمال القلب ونعيمه وسروره ولذته وابتهاجه في معرفته سبحانه وإرادته ومحبته والإنابة إليه والإقبال عليه والشوق إليه والأنس به، فإذا عدم القلب ذلك كان أشد عذابًا واضطرابًا من العين التي فقدت النور والباصر ومن اللسان الذي فقد قوة الكلام والذوق، ولا سبيل له إلىٰ الطمأنينة بوجه من الوجوه، ولو نال من الدنيا وأسبابها ومن العلوم ما نال، إلا بأن يكون الله وحده هو محبوبه وإلهه ومعبوده وغاية مطلوبه، وأن يكون هو وحده مستعانه علىٰ تحصيل ذلك، فحقيقة الأمر أنه لا طمأنينه له بدون التحقق بـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، وأقوال المفسرين في الطمأنينة ترجع إلىٰ ذلك.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: المطمئنة: المصدقة. وقال قتادة: هو المؤمن اطمأنت نفسه إلىٰ ما وعد الله. وقال الحسن: المصدقة بما قال الله تعالىٰ. وقال مجاهد: هي النفس التي أيقنت بأن الله ربها، المسلمة لأمر فيما هو فاعل بها. وروىٰ منصور عنه قال: النفس التي أيقنت أن الله ربها، وضربت جاشًا لأمره وطاعته، وقال ابن أبي نجيح عنه: النفس المطمئنة المخبتة إلىٰ الله. وقال أيضًا: هي التي أيقنت بلقاء الله، فكلام السلف في المطمئنة يدور علىٰ هذين الأصلين: طمأنينة العلم والإيمان، وطمأنينة الإرادة والعمل.

فإذا اطمأنت من الشك إلىٰ اليقين ومن الجهل إلىٰ العلم، ومن الغفلة إلىٰ الذكر، ومن الخيانة إلىٰ التوبة، ومن الرئاء إلىٰ الإخلاص، ومن الكذب إلىٰ الصدق، ومن العجز إلىٰ الكيس، ومن صولة العجب إلىٰ ذلة الإخبات، ومن التيه إلىٰ التواضع، ومن الفتور إلىٰ العمل، فقد باشرت روح الطمأنينة، وأصل ذلك كله ومنشؤه من اليقظة، فهي أول مفاتيح الخير، فإن الغافل عن الاستعداد للقاء ربه والتزود لمعاده بمنزلة النائم، بل أسوأ حالًا منه.

***

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ ﴾.

[(١)] الفرح بالعلم والإيمان والسنة؛ دليل على تعظيمه عند صاحبه، ومحبته له، وإيثاره له على غيره، فإن فرح العبد بالشيء عند حصوله له؛ على قدر محبته له، ورغبته فيه، فمن ليس له رغبة في الشيء لا يفرحه حصوله له، ولا يحزنه فواته، فالفرح تابع للمحبة والرغبة.

والفرق بينه وبين الاستبشار: أن الفرح بالمحبوب بعد حصوله والاستبشار يكون به قبل حصوله، إذا كان على ثقة من حصوله، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

والفرح صفة كمال، ولهذا يوصف الرب تعالى بأعلى أنواعه وأكملها، كفرحه بتوبة التائب أعظم من فرحة الواجد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة بعد فقده لها، واليأس من حصولها.

والمقصود أن «الفرح» أعلى أنواع نعيم القلب، ولذته وبهجته. والفرح والسرور نعيمه، والهم والحزن عذابه، والفرح بالشيء فوق الرضا به، فإن الرضا طمأنينة وسكون وانشراح، والفرح لذة وبهجة وسرور، فكل فرح راضٍ، وليس كل راضٍ فرحًا، ولهذا كان الفرح ضد الحزن، والرضا ضد السخط، والحزن يؤلم صاحبه، والسخط لا يؤلمه، إلا إن كان مع العجز عن الانتقام. والله أعلم.

[(٢)] والفرق بين فرح القلب وفرح النفس ظاهر، فإن الفرح بالله ومعرفته ومحبته وكلامه من القلب، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ [الرعد: ٣٦] فإذا كان أهل الكتاب يفرحون بالوحي فأولياء الله وأتباع رسوله أحق بالفرح به، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤].

---

(١) ١٥٨ بدائع جـ٣.

(٢) ٣٠٢ الروح.

وقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨] قال أبو سعيد الخدري: فضل الله القرآن، ورحمته: أن جعلكم من أهله.

وقال هلال بن يساف: فضل الله ورحمته: الإسلام الذي هداكم إليه: والقرآن الذي علمكم هو خير من الذهب والفضة الذي تجمعون.

وقال ابن عباس والحسن وقتادة وجمهور المفسرين: فضل الله: الإسلام ورحمته: القرآن، فهذا فرح القلب، وهو من الإيمان، ويثاب عليه العبد، فإن فرحه به يدل علىٰ رضاه به، بل هو فوق الرضا، فالفرح بذلك علىٰ قدر محبته، فإن الفرح إنما يكون بالظفر بالمحبوب، وعلىٰ قدر محبته يفرح بحصوله له، فالفرح بالله وأسمائه وصفاته ورسوله وسنته وكلامه محض الإيمان وصفوته ولبه، وله عبودية عجيبة وأثر القلب لا يعبر عنه، فابتهاج القلب وسروره وفرحه بالله وأسمائه وصفاته وكلامه ورسوله ولقائه أفضل ما يعطاه، بل هو جل عطاياه، والفرح في الآخرة بالله ولقائه بحسب الفرح به ومحبته في الدنيا، فالفرح بالوصول إلىٰ المحبوب يكون علىٰ حسب قوة المحبة وضعفها، فهذا شأن فرح القلب.

وله فرح آخر، وهو فرحه بما منَّ الله به عليه علمه من معاملته والإخلاص له والتوكل عليه والثقة به وخوفه ورجائه به، وكلما تمكن في ذلك قوي فرحه وابتهاجه.

وله فرحة أخرىٰ عظيمة الوقع عجيبة الشأن، وهي الفرحة التي تحصل له بالتوبة، فإن لها فرحة عجيبة لا نسبة لفرحة المعصية إليها البتة، فلو علم العاصي أن لذة التوبة وفرحتها تزيد علىٰ لذة المعصية وفرحتها أضعافًا مضاعفة، لبادر إليها أعظم من مبادرته إلىٰ لذة المعصية.

وسر هذا الفرح إنما يعلمه من علم سر فرح الرب تعالىٰ بتوبة عبده أشد فرح يقدر، ولقد ضرب له رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم مثلًا ليس في أنواع الفرح في الدنيا أعظم منه، وهو فرح رجل قد خرج براحته التي عليها طعامه وشرابه في سفر، ففقدها في أرض دوية مهلكة، فاجتهد في طلبها فلم يجدها، فيئس منها فجلس ينتظر الموت،

حتى إذا طلع البدر، رأى في ضوئه راحلته، وقد تعلق زمامها بشجرة، فقال من شدة فرحه: اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح. فالله أفرح بتوبة عبده من هذا براحلته[(١)].

فلا ينكر أن يحصل للتائب نصيب وافر من الفرح بالتوبة، ولكن هاهنا أمر يجب التنبيه عليه، وهو أن لا يصل إلى ذلك إلا بعد ترحات ومضض ومحن، لا تثبت لها الجبال، فإن صبر لها ظفر بلذة الفرح، وإن ضعف عن حملها ولم يصبر لها لم يظفر بشيء، وآخر أمره فوات ما آثره من فرحة المعصية ولذتها، فيفوته الأمران ويحصل على ضد اللذة من الألم المركب من وجود المؤذي وفوت المحبوب، فالحكم لله العلي الكبير.

وهاهنا فرحة أعظم من هذا كله، وهي فرحته عند مفارقته الدنيا إلى الله إذا أرسل إليه الملائكة فبشروه بلقائه، وقال له ملك الموت: اخرجي أيتها الروح الطيبة، كانت في الجسد الطيب، ابشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، اخرجي راضية مرضيًّا عنك: ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

فلو لم يكن بين يدي التائب إلا هذه الفرحة وحدها لكان العقل يأمر بآيثارها، فكيف ومن بعدها أنواع من الفرح! منها صلاة الملائكة الذين بين السماء والأرض على روحه، ومنها فتح أبوب السماء لها وصلاة ملائكة السماء عليها، وتشييع مقربيها لها إلى السماء الثانية، فتفتح ويصلي عليها أهلها ويشيعها مقربوها، هكذا إلى السماء السابعة، فكيف يقدر فرحها وقد استؤذن لها على ربها ووليها وحبيبها، فوقفت بين يديه وأذن لها بالسجود، فسجدت، ثم سمعته سبحانه يقول: اكتبوا كتابه في عليين، ثم يذهب به فيرى الجنة ومقعده فيها، وما أعد الله له، ويلقى أصحابه وأهله فيستبشرون به ويفرحون به، ويفرح بهم فرح الغائب يقدم على أهله، فيجدهم على أحسن حال،

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٧٤٧) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣١٤) وشرح النووي (٣/ ٤٠) (١٧/ ٧١).

ويقدم عليهم بخير ما قدم به مسافر، هذا كله قبل الفرح الأكبر يوم حشر الأجساد بجلوسه في ظل العرش، وشربه من الحوض، وأخذه كتابه بيمينه، وثقل ميزانه، وبياض وجهه، وإعطائه النور التام والناس في الظلمة، وقطعه جسر جهنم بلا تعويق، وانتهائه إلى باب الجنة وقد أزلفت له في الموقف، وتلقي خزنتها له بالترحيب والسلام والبشارة، وقدومه على منازله وقصوره وأزواجه وسراريه.

وبعد ذلك فرح آخر لا يقدر قدره ولا يعبر عنه، تتلاشى هذه الأفراح كلها عنده، وإنما يكون هذا لأهل السنة المصدقين برؤية وجه ربهم تبارك وتعالى من فوقهم، وسلامه عليهم وتكليمه إياهم ومحاضرته لهم.

***

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) ﴾.

[(١)] استدل على تفضيل النكاح على التخلي لنوافل العبادة بأن الله تعالى ﷻ اختار النكاح لأنبيائه ورسله، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرعد: ٣٨]. وقال في حق آدم: ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩] واقتطع من زمن كليمه عشر سنين في رعاية الغنم مهر الزوجة، ومعلوم مقدار هذه السنين العشر في نوافل العبادات، واختار لنبيه محمد ﷺ أفضل الأشياء، فلم يحب له ترك النكاح، بل زوجه بتسع فما فوقهن، ولا هدي فوق هديه.

ولو لم يكن فيه إلا سرور النبي ﷺ يوم المباهاة بأمته.

ولو لم يكن فيه إلا أنه بصدد أنه لا ينقطع عمله بموته.

ولو لم يكن فيه إلا أنه يخرج من صلبه من يشهد لله بالوحدانية ولرسوله بالرسالة.

ولو لم يكن فيه إلا غض بصره وإحصان فرجه عن التفاته إلى ما حرم الله تعالى.

---

(١) ١٥٨ بدائع جـ٣.

ولو لم يكن فيه إلا تحصين امرأة يعفها الله به، ويثيبه على قضاء وطره ووطرها، فهو في لذاته وصحائف حسناته تتزايد.

ولو لم يكن فيه إلا ما يثاب عليه من نفقته على امرأته وكسوتها ومسكنها ورفع اللقمة إلى فيها.

ولو لم يكن فيه إلا تكثير الإسلام وأهله وغيظ أعداء الإسلام.

ولو لم يكن فيه إلا ما يترتب عليه من العبادات، التي لا تحصل للمتخلي للنوافل.

ولو لم يكن فيه إلا تعديل قوته الشهوانية الصارفة له عن تعلق قلبه بما هو أنفع له في دينه ودنياه، فإن تعلق القلب بالشهوة أو مجاهدته عليها تصده عن تعلقه بما هو أنفع له، فإن الهمة متى انصرفت إلى شيء انصرفت عن غيره.

ولو لم يكن فيه إلا تعرضه لبنات إذا صبر عليهن وأحسن إليهن كن له سترًا من النار.

ولو لم يكن فيه إلا أنه إذا قدم له فرطين لم يبلغا الحنث أدخله الله بهما الجنة.

ولو لم يكن فيه إلا استجلابه عون الله له، فإن في الحديث المرفوع: «ثلاثة حق على الله عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، والمجاهد»[1].

***

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾.

[2]استشهد على رسالته بشهادة الله له، ولابد أن تعلم هذه الشهادة. وتقوم بها الحجة على المكذبين له، وكذلك قوله: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ

(١) أخرجه ابن حبان في الصحيح (٩/ ٣٣٩ رقم ٤٠٣٠) وفي الموارد (رقم ١٦٥٣) والنسائي في الكبرى (٣/ ١٩٤ رقم ٥٠١٤) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٧٨ رقم ١٣٢٣٤) وابن أبي عاصم في الجهاد (رقم ٨٣) والترمذي (رقم ١٦٥٥) وحسنه. والحاكم (٢/ ١٧٤ رقم ٢٦٧٨) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٢) ٤٦٩ مدارج جـ٣.

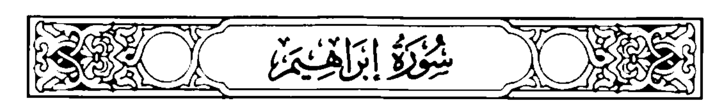
بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٩]، وكذلك قوله: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٦٦]، وكذلك قوله: ﴿ يسٓ ۝ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [يس: ١-٣] وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ﴾ [المنافقون: ١] وقوله: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ [الفتح: ٢٩] فهذا كله شهادة منه لرسوله، قد أظهرها وبينها وبين صحتها غاية البيان بحيث قطع العذر بينه وبين عباده، وأقام الحجة عليهم، فكونه سبحانه شاهدًا لرسوله معلوم بسائر أنواع الأدلة عقليها ونقليها وفطريها وضروريها ونظريها.

ومن نظر في ذلك وتأمله علم أن الله سبحانه شهد لرسوله أصدق الشهادة وأعدلها وأظهرها، وصدقه بسائر أنواع التصديق، بقوله الذي أقام البراهين على صدقه فيه، وبفعله وإقراره، وبما فطر عليه عباده من الإقرار بكماله وتنزيهه عن القبائح وعما لا يليق به، وفي كل وقت يحدث من الآيات الدالة على صدق رسوله ما يقيم به الحجة، ويزيل به العذر، ويحكم له ولأتباعه بما وعدهم به من العز والنجاة والظفر والتأييد، ويحكم على أعدائه ومكذبيه بما توعدهم به من الخزي والنكال والعقوبات المعجلة الدالة على تحقيق العقوبات المؤجلة ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [الفتح: ٢٨] فيظهره ظهورين ظهورًا بالحجة والبيان والدلالة وظهورًا بالنصر والظفر والغلبة والتأييد حتى يظهره على مخالفيه ويكون منصورًا.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الرعد

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾.

[1]وقال: ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤] فكل ما بينه رسول الله ﷺ فعن ربه سبحانه، بينه بأمره وإذنه، وقد علمنا يقينًا وقوع كل اسم في اللغة على مسماه فيها، وأن اسم البر لا يتناول الخردل، واسم التمر لا يتناول البلوط، واسم الذهب والفضة لا يتناول القزدير، وأن تقدير نصاب السرقة لا يدخل فيه تقدير المهر، وأن تحريم أكل الميتة لا يدل على أن المؤمن الطيب عند الله حيًّا وميتًا إذا مات صار نجسًا خبيثًا، وأن هذا من البيان الذي ولَّاه الله رسوله وبعثه به أبعد شيء وأشده منافاة له، فليس هو مما بعث به الرسول قطعًا، فليس إذًا من الدين.

وقد قال النبي ﷺ: «**ما بعث الله من نبي إلا كان حقًّا عليه أن يَدُل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم**»[2]. ولو كان الرأي والقياس خيرًا لهم لدلهم عليه، وأرشدهم إليه، ولقال لهم: إذا أوجَبت عليكم شيئًا أو حرمته فقيسوا عليه ما كان بينه وبينه وصفٌ جامع أو ما أشبهه، أو قال ما يدل على ذلك أو يستلزمه، ولما حذرهم من ذلك أشد الحذر، كما ستقف عليه إن شاء الله. وقد أحكم اللسانُ كل اسم على مسماه لا على غيره.

وإنما بعث الله سبحانه محمدًا ﷺ، بالعربية التي يفهمها العربُ من لسانها، فإذا نص سبحانه في كتابه أو نص رسوله على اسم من الأسماء، وعلق عليه حكمًا من

---

(١) ٢٤٥ أعلام جـ١.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٨٤٤) وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥١٨) والمحلى (٤/ ١٩٩) والتمهيد (٢٣/ ٢٨٠).

الأحكام، وجب ألا يوقع ذلك الحكم إلا على ما اقتضاه ذلك الاسم، ولا يتعدى به الوضع الذي وضعه الله ورسوله فيه، ولا يخرج عن ذلك الحكم شيء مما يقتضيه الاسم؛ فالزيادة على ذلك زيادة في الدين، والنقص منه نقص في الدين؛ فالأول القياس، والثاني: التخصيص الباطل، وكلاهما ليس من الدين، ومن لم يقفْ مع النصوص فإنه تارة يزيد في النص ما ليس منه، ويقول: هذا قياس، ومرة ينقص منه بعض ما يقتضيه ويخرجه عن حكمه، ويقول: هذا تخصيص، ومرة يترك النص جملة، ويقول: ليس العمل عليه، أو يقول: هذا خلاف القياس أو خلاف الأصول.

[١] وأما معرفة الأيام: فيحتمل أن يريد به أيامه، التي تخصه وما يلحقه فيها من الزيادة والنقصان، ويعلم قصرها، وأنها أنفاس معدودة منصرمة، كل نفس منها يقابله آلاف آلاف من السنين في دار البقاء. فليس لهذه الأيام الخالية قط نسبة إلى أيام البقاء والعبد منساق زمنه. وفي مدة العمر إلى النعيم أو إلى الجحيم. وهي كمدة المنام لمن له عقل حي وقلب واع، فما أولاه أن لا يصرف منها نفسا إلا في أحب الأمور إلى الله، فلو صرفه فيما يحبه وترك الأحب لكان مفرطًا، فكيف إذا صرفه فيما لا ينفعه، فكيف إذا صرفه فيما يمقته عليه ربه، فالله المستعان ولا قوة إلا به. ويحتمل أن يريد بالأيام: أيام الله التي أمر رسله بتذكير أممهم بها، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥]، وقد فسرت أيام الله بنعمه، وفسرت بنقمه من أهل الكفر والمعاصي.

فالأول تفسير ابن عباس وأبي بن كعب ومجاهد، والثاني: تفسير مقاتل.

والصواب: أن أيامه تعم النوعين، وهي وقائعه التي أوقعها بأعدائه، ونعمه التي ساقها إلى أوليائه، وسميت هذه النعم والنقم الكبار المتحدث بها «أيامًا»، لأنها ظرف لها. تقول العرب: فلان عالم بأيام العرب وأيام الناس أي بالوقائع التي كانت في تلك

---

(١) ٤٤٨ مدارج جـ١.

الأيام، فمعرفة هذه الأيام توجب للعبد استبصار العبر وبحسب معرفته بها تكون عبرته وعظته، قال الله تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف: ١١١].

ولا يتم ذلك إلا بالسلامة من الأغراض، وهي متابعة الهوىٰ والانقياد لداعي النفس الأمارة بالسوء، فإن اتباع الهوىٰ يطمس نور العقل، ويعمي بصيرة القلب، ويصد عن اتباع الحق، ويضل عن الطريق المستقيم، فلا تحصل بصيرة العبرة معه البتة، والعبد إذا اتبع هواه فسد رأيه ونظره، فأرته نفسه الحسن في صورة القبيح والقبيح في صورة الحسن، فالتبس عليه الحق بالباطل، فأنىٰ له الانتفاع بالتذكر والتفكر أو بالعظة؟.

(١) ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة «الشكر».

وهي من أعلىٰ المنازل، وهي فوق منزلة الرضا وزيادة، فالرضا مندرج في الشكر، إذ يستحيل وجود الشكر بدونه، وهو نصف الإيمان كما تقدم، والإيمان نصفان: نصف شكر ونصف صبر، وقد أمر الله به ونهىٰ عن ضده، وأثنىٰ علىٰ أهله ووصف به خواص خلقه، وجعله غاية خلقه وأمره، ووعد أهله بأحسن جزائه، وجعله سببا للمزيد من فضله، وحارسا وحافظا لنعمته، وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته، واشتق لهم اسما من أسمائه، فإنه سبحانه هو الشكور، وهو يوصل الشاكر إلىٰ مشكوره بل يعيد الشاكر مشكورًا، وهو غاية الرب من عبده، وأهله هم القليل من عباده، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [النحل: ١١٤] وقال: ﴿ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥٢] وقال عن خليله إبراهيم ﷺ: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢١] وقال عن نوح ﷺ: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء: ٣] وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ

(١) ٢٤٢ مدارج جـ٢.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨] وقال تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧] وقال تعالىٰ: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورىٰ: ٣٣].

وسمىٰ نفسه شاكرًا وشكورًا، وسمىٰ الشاكرين بهذين الاسمين فأعطاهم من وصفه، وسماهم باسمه، وحسبك بهذا محبة للشاكرين وفضلًا.

وإعادته للشاكر مشكورًا كقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢] ورضا الرب عن عبده به كقوله: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] وقلة أهله في العالمين تدل علىٰ أنهم هم خواصه كقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ: أنه قام حتىٰ تورمت قدماه، فقيل له: تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»[(١)].

وقال لمعاذ: «**والله يا معاذ إني لأحبك، فلا تنس أن تقول في دبر كل صلاة: اللهم أعني علىٰ ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[(٢)].

وفي المسند والترمذي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يدعو بهؤلاء الكلمات: «**اللهم أعنِّي ولا تعن عليَّ، وانصرني ولا تنصر عليَّ، وامكر لي ولا تمكر بي، واهدني ويسر الهدىٰ لي، وانصرني علىٰ من بغىٰ عليَّ، ربِّ اجعلني لك شكَّارًا لك، ذكَّارًا لك، رهَّابًا لك، مطاوعًا لك، مخبتًا إليك، أوَّاهًا منيبًا، رب تقبل**

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٨٣٦، ٤٨٣٧) ومسلم (رقم ٢٨١٩) وانظر: فتح الباري (٣/ ١٥) وشرح ا لنووي (١٧/ ١٦٢).

(٢) أخرجه ابن حبان (٥/ ٣٦٤ رقم ٢٠٢٠) وابن خزيمة (١/ ٣٦٩ رقم ٧٥١) والنسائي في الكبرىٰ (٦/ ٣٢ رقم ٩٩٣٧) وأبو داود (رقم ١٥٢٢) والحاكم (١/ ٤٠٧ رقم ١٠١٠) وصححه. وكذا صححه النووي في رياض الصالحين (ص ٣٢٠).

توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، واهد قلبي، وسدد لساني، واسلل سخيمة صدري»[١].

***

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝ ﴾.

...[٢]إنه قد يترتب على خلق من يكفر به ويشرك به ويعاديه من الحكم الباهرة والآيات الظاهرة ما لم يكن يحصل بدون ذلك.

فلولا كفر قوم نوح لما ظهرت آية الطوفان، وبقيت يتحدث بها الناس على ممر الزمان.

ولولا كفر عاد لما ظهرت آية الريح العقيم، التي دمرت ما مرت عليه.

ولولا كفر قوم صالح لما ظهرت آية إهلاكهم بالصيحة.

ولولا كفر فرعون لما ظهرت تلك الآيات والعجائب، يتحدث بها الأمم أمة بعد أمة، واهتدى من شاء الله، فهلك بها من هلك عن بينة، وحي بها من حي عن بينة، وظهر بها فضل الله وعدله وحكمته وآيات رسله وصدقهم، فمعارضة الرسل وكسر حججهم ودحضها والجواب عنها وإهلاك الله لهم من أعظم أدلة صدقهم وبراهينه، ولولا مجيء المشركين بالحد والحديد والعدد والشوكة يوم بدر لما حصلت تلك

---

(١) أخرجه ابن حبان (٣/ ٢٢٧ رقم ٩٤٧) وفي الموارد (رقم ٢٤١٤) والنسائي في الكبرى (٦/ ١٥٥ رقم ١٠٤٤٣) وأبو داود (رقم ١٥١٠) والترمذي (رقم ٣٥٥١) وقال: هذا حديث حسن صحيح. والحاكم (١/ ٧٠١ رقم ١٩١٠) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وحسنه الحافظ ابن حجر في الأمالي المطلقة (ص ٢٠٦).

(٢) ٢٢٣ شفاء.

الآية العظيمة، التي يترتب عليها من الإيمان والهدىٰ والخير ما لم يكن حاصلا مع عدمها، وقد بينا أن الموقوف علىٰ الشيء لا يوجد بدونه، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع، فلله كم عمرت قصة بدر من ربع أصبح آهلا بالإيمان، وقد فتحت لأولي النهىٰ من باب وصلوا منه إلىٰ الهدىٰ والإيقان!!

وكم حصل بها من محبوب للرحمن وغيظ للشيطان، وتلك المفسدة التي حصلت في ضمنها للكفار مغمورة جدًّا بالنسبة إلىٰ مصالحها وحكمها، وهي كمفسدة المطر إذا قطع المسافر وبل الثياب وخرب بعض البيوت بالنسبة إلىٰ مصلحة العامة، وتأمل ما حصل بالطوفان وغرق آل فرعون للأمم من الهدىٰ والإيمان، الذي غمر مفسدة من هلك به حتىٰ تلاشت في جنب مصلحته وحكمته.

فكم لله من حكمة في آياته التي ابتلىٰ بها أعداءه، وأكرم فيها أولياءه، وكم له فيها من آية وحجة وتبصرة وتذكرة.

ولهذا أمر سبحانه رسوله أن يذكر بها أمته، فقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝ ﴾ [إبراهيم: ٥، ٦] فذكرهم بأيامه وإنعامه ونجاتهم من عدوهم وإهلاكهم وهم ينظرون، فحصل بذلك من ذكره وشكره ومحبته وتعظيمه وإجلاله ما تلاشت فيه مفسدة إهلاك الأبناء وذبحهم واضمحلت، فإنهم صاروا إلىٰ النعيم، وخلصوا من مفسدة العبودية لفرعون إذا كبروا وسومه لهم سوء العذاب، وكان الألم الذي ذاقه الأبوان عند الذبح أيسر من الآلام التي كانوا تجرعوها باستعباد فرعون وقومه لهم بكثير، فحظي بذلك الآباء والأبناء.

وأراد سبحانه أن يُري عباده ما هو من أعظم آياته، وهو أن يربي هذا المولود الذي

ذبح فرعون ما شاء الله من الأولاد في طلبه في حجر فرعون وفي بيته وعلى فراشه.

فكم في ضمن هذه الآية من حكمة ومصلحة ورحمة وهداية وتبصرة، وهي موقوفة على لوازمها وأسبابها، ولم تكن لتوجد بدونها، فإنه ممتنع، فمصلحة تلك الآية وحكمتها غمرت مفسدة ذبح الأبناء وجعلتها كأن لم تكن.

وكذلك الآيات التي أظهرها سبحانه على يد الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم والعجائب والحكم والمصالح والفوائد التي في تلك القصة التي تزيد على الألف، لم تكن لتحصل بدون ذلك السبب، الذي كان فيه مفسدة حزونة يعقوب ويوسف، ثم انقلبت تلك المفسدة مصالح، اضمحلت في جنبها تلك المفسدة بالكلية، وصارت سببًا لأعظم المصالح في حقه، وحق يوسف، وحق الإخوة، وحق امرأة العزيز، وحق أهل مصر، وحق المؤمنين إلى يوم القيامة، فكم جنى أهل المعرفة بالله وأسمائه وصفاته ورسله من هذه القصة من ثمرة، وكم استفادوا بها من علم وحكمة وتبصرة.

وكذلك المفسدة التي حصلت لأيوب من مس الشيطان له بنصب وعذاب اضمحلت وتلاشت في جنب المصلحة والمنفعة التي حصلت له ولغيره، عند مفارقة البلاء وتبدله بالنعماء، بل كان ذلك السبب المكروه هو الطريق الموصل إليها، والشجرة التي جنيت ثمار تلك النعم منها.

وكذلك الأسباب التي أوصلت خليل الرحمن إلى أن صارت النار عليه بردًا وسلامًا: من كفر قومه وشركهم وتكسيره أصنامهم وغضبهم لها، وإيقاد النيران العظيمة له، وإلقائه فيها بالمنجنيق، حتى وقع في روضة خضراء في وسط النار، وصارت آية وحجة وعبرة ودلالة للأمم قرنا بعد قرن، فكم لله سبحانه في ضمن هذه الآية من حكمة بالغة، ونعمة سابغة، ورحمة وحجة وبينة، لو تعطلت تلك الأسباب لتعطلت هذه الحكم والمصالح والآيات، وحكمته وكماله المقدس يأبى ذلك، وحصول الشيء بدون لازمه ممتنع، وكم بين ما وقع من المفاسد الجزئية في هذه القصة وبين جعل صاحبها إماما للحنفاء إلى يوم القيامة!!

وهل تلك المفاسد الجزئية إلا دون مفسدة الحر والبرد والمطر والثلج بالنسبة إلى مصالحها بكثير، ولكن الإنسان كما قال الله تعالى: ﴿ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ [الأحزاب: ٧٢] ظلوم لنفسه، جهول بربه وعظمته وجلاله وحكمته وإتقان صنعه.

وكم بين إخراج رسول الله ﷺ من مكة على تلك الحال ودخوله إليها ذلك الدخول الذي لم يفرح به بشر حبورًا لله، وقد اكتنفه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، والمهاجرون والأنصار قد أحدقوا به والملائكة من فوقهم والوحي من الله ينزل عليه، وقد أدخله حرمه ذلك الدخول، فأين مفسدة ذلك الإخراج الذي كان كأن لم يكن؟!

ولولا معارضة السحرة لموسى بإلقاء العصي والحبال حتى أخذوا أعين الناس واسترهبوهم، لما ظهرت آية عصا موسى، حتى ابتلعت عصيهم وحبالهم، ولهذا أمرهم موسى أن يلقوا أولًا ثم يلقي هو بعدهم.

ومن تمام ظهور آيات الرب تعالى وكمال اقتداره وحكمته: أن يخلق مثل جبريل صلوات الله وسلامه عليه الذي هو أطيب الأرواح العلوية وأزكاها وأطهرها وأشرفها، وهو السفير في كل خير وهدى وإيمان وصلاح.

ويخلق مقابله مثل روح اللعين إبليس، الذي هو أخبث الأرواح وأنجسها وشرها، وهو الداعي إلى كل شر وأصله ومادته، وكذلك من تمام قدرته وحكمته أن خلق الضياء والظلام والأرض والسماء والجنة والنار[1].

***

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾.

[2]الشكر معه المزيد أبدًا، لقوله تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧] فمتى لم تر حالك في مزيد فاستقبل الشكر.

---

(١) بقية البحث نقل منه قسم تقدم في سورة المائدة جـ٢ ص ٣٤٨ (ج).

(٢) ٢٤٦ مدارج جـ٢.

وفي أثر إلهي: يقول الله ﷻ: «أهل ذكري أهل مجالستي، وأهل شكري أهل زيادتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب»[(١)].

وقيل: من كتم النعمة فقد كفرها، ومن أظهرها ونشرها فقد شكرها.

وهذا مأخوذ من قوله ﷺ: «إن الله إذا أنعم على عبد بنعمة أحب أن يرى أثر نعمته على عبده»[(٢)]. وفي هذا قيل:

ومن الرزية أن شكري صامت عما فعلت وأن برك ناطق
أأرى الصنيعة منك ثم أُسِرُّها إني إذًا ليد الكريم لسارق[(٣)]

وتكلم الناس في الفرق بين «الحمد» و«الشكر» أيهما أعلى وأفضل؟ وفي الحديث: «الحمد رأس الشكر، فمن لم يحمد الله لم يشكره»[(٤)].

والفرق بينهما: أن «الشكر» أعم من جهة أنواعه وأسبابه، وأخص من جهة متعلقاته، و«الحمد» أعم من جهة المتعلقات، وأخص من جهة الأسباب.

ومعنى هذا: أن الشكر يكون: بالقلب خضوعًا واستكانة، وباللسان ثناء واعترافًا، وبالجوارح طاعة وانقيادًا. ومتعلقه: النعم دون الأوصاف الذاتية، فلا يقال: شكرنا الله على حياته وسمعه وبصره وعلمه، وهو المحمود عليها كما هو محمود على إحسانه وعدله، والشكر يكون على الإحسان والنعم.

---

(١) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالة في تحقيق الشكر (ص ١١٦) ضمن مجموعة ابن تيمية في التزكية والسلوك.

(٢) تقدم تخريجه في أول هذا الجزء.

(٣) هذان البيتان من بحر الكامل، وينسبان إلى أبي تمام الطائي حبيب بن أوس أحد أمراء البيان، في شعره قوة وجزالة، مات سنة ٢٣١هـ. وذكر البيتين أبو منصور الثعالبي في المنتحل (ص ١٦٠).

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٩٦- ٩٧ رقم ٤٣٩٥) وعبد الرزاق في مصنفه (١٠/ ٤٢٤ رقم ١٩٥٧٤) والديلمي في الفردوس (٢/ ١٥٥ رقم ٢٧٨٤) وقال المناوي في الفتح السماوي (١/ ٩٩- ١٠٠): رجاله ثقات، لكنه منقطع بين قتادة وابن عمرو. وكذا قال السيوطي في تدريب الراوي (١/ ٥٧).

فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس، وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس، فإن الشكر يقع بالجوارح، والحمد يقع بالقلب واللسان.

(١) النعم ثلاثة: نعمة حاصلة يعلم بها العبد، ونعمة منتظرة يرجوها، ونعمة هو فيها لا يشعر بها، فإذا أراد الله إتمام نعمته على عبده عرفه نعمته الحاضرة، وأعطاه من شكره قيدًا يقيدها به، حتى لا تشرد؛ فإنها تشرد بالمعصية وتقيد بالشكر، ووفقه لعمل يستجلب به النعمة المنتظرة، وبصره بالطرق التي تسدها وتقطع طريقها، ووفقه لاجتنابها، وإذا بها قد وافت إليه على أتم الوجوه، وعرّفه النعم التي هو فيها ولا يشعر بها.

ويحكى أن أعرابيًا دخل على الرشيد، فقال: «أمير المؤمنين، ثبت الله عليك النعم التي أنت فيه بإدامة شكرها، وحقق لك النعم التي ترجوها بحسن الظن به ودوام طاعته، وعرفك النعم التي أنت فيها ولا تعرفها، لتشكرها» فأعجبه ذلك منه، وقال: «ما أحسن تقسيمه».

(٢) قوله تعالى إخبارًا عن الكفار أنهم قا لوا: ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ [هود: ٢٧]، فاعتبروا صورة مجرد الآدمية وشبه المجانسة فيها، واستدلوا بذلك على أن حكم أحد الشبهين حكم الآخر، فكما لا نكون نحن رُسُلًا فكذلك أنتم، فإذا تساوينا في هذا الشبه فأنتم مثلنا لا مزية لكم علينا، وهذا من أبطل القياس، فإن الواقع من التخصيص والتفضيل وجعل بعضٍ هذا النوع شريفًا وبعضه دنيًّا، وبعضه مرءوسًا وبعضه رئيسًا، وبعضه مِلكًا وبعضه سُوقة، يبطل هذا القياس، كما أشار سبحانه إلى ذلك في قوله: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف: ٣٢].

---

(١) ١٧١ فوائد.
(٢) ١٤٩ أعلام جـ١.

وأجابت الرسل عن هذا السؤال بقولهم: ﴿ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [إبراهيم: ١١] وأجاب الله سبحانه عنه بقوله: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وكذلك قوله سبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٣٣، ٣٤] فاعتبروا المساواة في البشرية وما هو من خصائصها من الأكل والشرب، وهذا مجرد قياس شبه وجمع صوري، ونظير هذا قوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ [التغابن: ٦].

ومن هذا قياسُ المشركين الربا على البيع بمجرد الشبه الصوري، ومنه قياسهم الميتة على الذكيِّ في إباحة الأكل بمجرد ا لشبه...

***

﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

[1]قالت الرسل لقومهم: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾ [إبراهيم: ١٢] فعجبوا من تركهم التوكل على الله وقد هداهم، وأخبروا أن ذلك لا يكون أبداً. وهذا دليل على أن الهداية والتوكل متلازمان: فصادف الحق - لعلمه بالحق ولثقته بأن الله ولي الحق وناصره - مضطر إلى توكله على الله، لا يجد بدًّا من توكله. فإن التوكل يجمع أصلين: علم القلب وعمله. أما علمه: فيقينه بكفاية وكيله، وكمال قيامه بما وكله إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك. وأما عمله: فسكونه إلى وكيله، وطمأنينته إليه، وتفويضه وتسليمه أمره إليه، ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه.

فبهذين الأصلين يتحقق التوكل، وهما جُماعه، وإن كان التوكل دخل في عمل

---

(١) ٢٥٧ طريق الهجرتين.

القلب من علمه، كما قال الإمام أحمد: التوكل عمل القلب[1]، ولكن لا بد فيه من العلم، وهو إما شرط فيه، وإما جزءٌ من ماهيته.

والمقصود: أن القلب متى كان على الحق كان أعظم لطمأنينته ووثوقه بأن الله وليه وناصره وسكونه إليه، فما له أن لا يتوكل على ربه؟ وإذا كان على الباطل علماً وعملاً أو أحدهما لم يكن مطمئناً واثقاً بربه، فإنه لا ضمان له عليه، ولا عهد له عنده، فإن الله لا يتولى الباطل ولا ينصره، ولا ينسب إليه بوجه، فهو منقطع النسب إليه بالكلية، فإنه سبحانه هو الموفق، وقوله الحق، ودينه الحق ووعده حق، ولقاؤه حق، وفعله كله حق. ليس في أفعاله شيء باطل، بل أفعاله سبحانه بريئة من الباطل، كما أقواله كذلك، فلما كان الباطل لا يتعلق به، بل هو مقطوع البتة كان صاحبه كذلك. ومن لم يكن له تعلق بالله العظيم، وكان منقطعاً عن ربه لم يكن الله وليه ولا ناصره ولا وكيله. فتدبر هذا السر العظيم في اقتران التوكل والكفاية بالحق والهدى وارتباط أحدهما بالآخر، لو لم يكن في هذه الرسالة إلا هذه الفائدة السرية لكانت حقيقة أن تودع في خزانة القلب، لشدة الحاجة إليها. والله المستعان وعليه التكلان. فظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال الإسلام، وأن منزلته منها منزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل. والله أعلم.

***

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾[إبراهيم: ١٨].

[2]شبه تعالى أعمال الكفار في بطلانها وعدم الانتفاع بها برماد مرت عليه ريح شديدة في يوم عاصف، فشبه سبحانه أعمالهم في حبوطها وذهابها باطلا كالهباء

---

(١) انظر: فتح الباري (٦/ ٨٢) وتحفة الأحوذي (١٠/ ١٧٦).

(٢) ١٧٠ أعلام جـ١.

المنثور لكونها على غير أساس من الإيمان والإحسان وكونها لغير الله ﷻ وعلى غير أمره برماد طيرته الريح العاصف، فلا يقدر صاحبه على شيء منه وقت شدة حاجته إليه، فلذلك قال: ﴿ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾، لا يقدرون يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم على شيء، فلا يرون له أثرًا من ثواب ولا فائدة نافعة، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه موافقًا لشرعه.

والأعمال أربعة: فواحد مقبول، وثلاثة مردودة، فالمقبول: الخالص الصواب. فالخالص أن يكون لله لا لغيره، والصواب أن يكون مما شرعه الله على لسان رسوله، والثلاثة مردودة ما خالف ذلك.

وفي تشبيهها بالرماد سر بديع، وذلك للتشابه الذي بين أعمالهم وبين الرماد في إحراق النار وإذهابها لأصل هذا وهذا، فكانت الأعمال التي لغير الله وعلى غير مراده طعمة للنار، وبها تسعر النار على أصحابها، وينشئ الله سبحانه لهم من أعمالهم الباطلة نارًا وعذابا، كما ينشئ لأهل الأعمال الموافقة لأمره ونهيه التي هي خالصة لوجهه من أعمالهم نعيما وروحا، فأثرت النار في أعمال أولئك حتى جعلتها رمادا، فهم وأعمالهم وما يعبدون من دون الله وقود النار.

[(١)] وباعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاث أحوال:

أحدها: أن يكون القهر والغلبة لداعي الدين؛ فيرد جيش الهوى مغلوبًا. وهذا إنما يصل إليه بدوام الصبر، والواصلون إلى هذه الرتبة هم المنصورون في الدنيا والآخرة، وهم الذين قالوا: ﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾، وهم الذين تقول لهم الملائكة عند الموت ﴿ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ ﴾ [فصلت: ٣٠، ٣١]، وهم الذين نالوا معية الله مع الصابرين، وهم الذين جاهدوا في الله حق جهاده، وخصهم بهدايته دون من عداهم.

---

(١) ٢٠ عدة الصابرين.

الحالة الثانية: أن تكون القوة والغلبة لداعي الهوىٰ، فيسقط منازعه باعث الدين بالكلية، فيستسلم البائس للشيطان وجنده، فيقودونه حيث شاءوا، وله معهم حالتان: إحداهما: أن يكون من جندهم وأتباعهم، وهذه حال العاجز الضعيف. الثانية: أن يصير الشيطان من جنده، وهذه حال الفاجر القوي المتسلط والمبتدع الداعية المتبوع، كما قال القائل:

وكنت امرءًا من جند إبليس فارتقىٰ بي الحال حتىٰ صار إبليس من جندي[(١)]

فيصير إبليس وجنده من أعوانه وأتباعه، وهؤلاء هم الذين غلبت عليهم شقوتهم، واشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، وإنما صاروا إلىٰ هذه الحال لما أفلسوا من الصبر. وهذه الحالة هي حالة جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء[(٢)]. وجند أصحابها المكر والخداع والأماني الباطلة والغرور والتسويف بالعمل وطول الأمل وإيثار العاجل علىٰ الآجل وهي التي قال في صاحبها النبي ﷺ: «**العاجز من أتبع نفسه هواها وتمنىٰ علىٰ الله الأماني**»[(٣)]. وأصحاب هذه الحال أنواع شتىٰ: فمنهم المحارب لله ورسوله، الساعي في إبطال ما جاء به الرسول يصد عن سبيل الله،

---

(١) هذا البيت من بحر الكامل، وينسب إلىٰ الخبز أرزي، وهو نصر بن أحمد بن نصر بن مأمون البصري أبو القاسم، شاعر غزلي كان أميًّا ويخبز خبز الأرز بمربد البصرة في دكان وينشد أشعاره في الغزل والناس يزدحمون عليه ويتعجبون منه، مات سنة ٣١٧ هـ. ذكر البيت الزمخشري في ربيع الأبرار ونصوص الأخبار (١/ ٣٦٦) وذكره أيضًا ابن كثير في البداية والنهاية (١١/ ٦٣) والمناوي في فيض القدير (٥/ ٣٠٢) والشنقيطي في أضواء البيان (٢/ ٢٠٧) ونسبه إلىٰ الخوارزمي. ولعله تصحيف، وأضاف إليه بيتًا أخر فقال:

فلو مات قبلي كنت أحسن بعده طرائق فسق ليس يحسنها بعدي

(٢) فعن أبي هريرة ﷺ كان رسول الله ﷺ يتعوذ من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء، وشماتة الأعداء. أخرجه البخاري (رقم ٦٣٤٧) ومسلم (رقم ٢٧٠٧) وانظر: فتح الباري (١١/ ١٤٨).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٤) والبزار (٨/ ٤١٧ رقم ٣٤٨٩) والبيهقي في الشعب (٧/ ٣٥٠ رقم ١٠٥٤٦) وابن المبارك في الزهد (رقم ١٧١) والحاكم (١/ ١٢٥ رقم ١٩١) والطبراني في الكبير (٧/ ٢٨١ رقم ٧١٤١) والطيالسي (رقم ١١٢٢).

ويبغيها جهده عوجًا وتحريفًا، ليصد الناس عنها، ومنهم المعرض عما جاء به الرسول المقبل على دنياه وشهواتها فقط.

ومنهم: المنافق ذو الوجهين، الذي يأكل بالكفر والإسلام.

ومنهم: الماجن المتلاعب الذي قطع أنفاسه بالمجون واللهو واللعب، ومنهم من إذا وعظ قال: واشوقاه إلى التوبة، ولكنها قد تعذرت عليَّ، فلا مطمع لي فيها.

ومنهم: من يقول ليس الله محتاجا إلى صلاتي وصيامي، وأنا لا أنجو بعملي، والله غفور رحيم.

ومنهم: من يقول ترك المعاصي استهانة بعفو الله ومغفرته.

فكثــر مــا اســتطعت مــن الخطايــا إذا كــان القــدوم علــى كــريم[1]

ومنهم من يقول: ماذا تقع طاعتي في جنب ما عملت، وما قد ينفع الغريق خلاص أصبعه وباقي بدنه غريق، ومنهم من يقول: سوف أتوب، وإذا جاء الموت ونزل بساحتي تبت، وقبلت توبتي. إلى غير ذلك من أصناف المغترين، الذين صارت عقولهم في أيدي شهواتهم، فلا يستعمل أحدهم عقله إلا في دقائق الحيل، التي بها يتوصل إلى قضاء شهوته، فعقله مع الشيطان كالأسير في يد الكافر، يستعمله في رعاية الخنازير وعصر الخمر وحمل الصليب، وهو بقهره عقله وتسليمه إلى أعدائه عند الله بمنزلة رجل قهر مسلما وباعه للكفار وسلمه إليهم، وجعله أسيرا عندهم.

وهاهنا نكتة بديعة يجب التفطن لها، وينبغي إخلاء القلب لتأملها، وهو أن هذا المغرور لما أذل سلطان الله الذي أعزه به وشرفه ورفع به قدره، وسلمه في يد أبغض أعدائه إليه، وجعله أسيرا له تحت قهره وتصرفه وسلطانه، سلط الله عليه من كان حقه هو أن يتسلط عليه فجعله تحت قهره وتصرفه وسلطانه يسخره حيث شاء، ويسخر منه ويسخر منه جنده وحزبه، فكما أذل سلطان الله وسلمه إلى عدوه أذله الله وسلط

---

(١) ذكر هذا البيت ابن خلكان في وفيات الأعيان في ترجمة أبي نواس، حيث قال فيه: وما أحسنه، ظنه بربه عز وجل، حيث يقول: وذكر البيت. بينما ذكر عجز البيت ابن كثير في البداية والنهاية (١٣/ ٤٦).

عليه عدوه، الذي أمره أن يتسلط هو عليه ويذله ويقهره، فصار بمنزلة من سلم نفسه إلى أعدى عدو له يسومه سوء العذاب، وقد كان بصدد أن يستأسره ويقهره ويشفي غيظه منه، فلما ترك مقاومته ومحاربته واستسلم له، سلط عليه عقوبة له.

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٨-١٠٠].

فإن قيل: فقد أثبت له على أوليائه هاهنا سلطانًا، فكيف نفاه بقوله تعالى حاكيًا عنه مقررًا له: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: ٢٢] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ [سبأ: ٢٠، ٢١].

قيل: السلطان الذي أثبته له عليهم غير الذي نفاه من وجهين:

أحدهما: أن السلطان الثابت هو سلطان التمكن منهم وتلاعبه بهم وسوقه إياهم، كيف أراد بتمكينهم إياه من ذلك بطاعته وموالاته، والسلطان الذي نفاه سلطان الحجة فلم يكن لإبليس عليهم من حجة يتسلط بها غير أنه دعاهم فأجابوه بلا حجة ولا برهان.

الثاني: أن الله لم يجعل له عليهم سلطانًا ابتداء البتة، ولكن هم سلطوه على أنفسهم بطاعته، ودخولهم في جملة جنده، وحزبه فلم يتسلطن عليهم بقوته، فإن كيده ضعيف، وإنما تسلطن عليهم بإرادتهم واختيارهم.

والمقصود أن من قصد أعظم أوليائه وأحبابه ونصحائه، فأخذه وأخذ أولاده وحاشيته وسلمهم إلى عدوه كان من عقوبته أن يسلط عليه ذلك العدو نفسه.

***

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) ﴾.

[(١)] قال أحمد بن مروان المالكي في كتاب المجالسة: سمعت ابن أبي الدنيا يقول: أن لله سبحانه من العلوم ما لا يحصى، يعطي كل واحد من ذلك ما لا يعطي غيره، لقد حدثنا أبو عبد الله أحمد بن محمد بن سعيد الطائي: ثنا عبدالله بن بكر السهمي عن أبيه: أن قوما كانوا في سفر فكان فيهم رجل يمر بالطائر، فيقول: أتدرون ما يقول هذا؟ فيقولون: لا. فيقول: يقول كذا وكذا. فيحيلنا على شيء لا ندري أصادق فيه هو أم كاذب، إلى أن مروا على غنم وفيها شاة قد تخلفت على سخلة لها، فجعلت تحنو عنقها إليها وتثغو، فقال: أتدرون ما تقول هذه الشاة؟ قلنا: لا، قال: تقول للسخلة: الحقيني لا يأكلك الذئب، كما أكل أخاك عام أول في هذا المكان. قال: فانتهينا إلى الراعي، فقلنا له: ولدت هذه الشاة قبل عامك هذا؟ قال: نعم، ولدت سخلة عام أول، فأكلها الذئب بهذا المكان.

ثم أتينا على قوم فيهم ظعينة على جمل لها، وهو يرغو ويحنو عنقه إليها، فقال: أتدرون ما يقول هذا البعير؟ قلنا: لا قال فإنه يلعن راكبته، ويزعم أنها رحلته على مخيط وهو في سنامه، قال: فانتهينا إليهم فقلنا: يا هؤلاء إن صاحبنا هذا يزعم أن هذا البعير يلعن راكبته، ويزعم أنها رحلته على مخيط، وأنه في سنامه، قال: فأناخوا البعير وحطوا عنه، فإذا هو كما قال[(٢)].

فهذه شاة قد حذرت سخلتها من الذئب مرة فحذرت، وقد حذر الله سبحانه ابن آدم من ذئبه مرة بعد مرة، وهو يأبى إلا أن يستجيب له إذا دعاه ويبيت معه ويصبح:

---

(١) ١٠١ شفاء.

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٩/ ٢٧٢-٢٧٣) وابن أبي الدنيا في الإشراف في منازل الأشراف (رقم ٣٩٧).

﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: ٢٢].

[١]ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور: التذكير والوعظ، والحث والزجر، والاعتبار والتقرير، وتقريب المراد للعقل وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس. وقد تأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر على المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر، والله أعلم.

***

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾.

[٢]شبه ﷻ الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة، لأن الكلمة الطيبة تثمر العمل الصالح، والشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع، وهذا ظاهر على قول جمهور المفسرين، الذين يقولون: «الكلمة الطيبة هي شهادة، أن لا إله إلا الله»، فإنها تثمر جميع الأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة، فكل عمل صالح مرضي لله ثمرة هذه الكلمة.

وفي تفسير علي بن أبي طلحة: عن ابن عباس قال: «كلمة طيبة شهادة أن لا إله إلا

---

(١) ٩ بدائع جـ٤.

(٢) ١٧١ أعلام جـ١.

الله كشجرة طيبة، وهو المؤمن، أصلها ثابت قول لا إله إلا الله في قلب المؤمن، وفرعها في السماء يقول يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء»[١].

وقال الربيع بن أنس: «كلمة طيبة هذا مثل الإيمان؛ فالإيمان الشجرة الطيبة، وأصلها الثابت الذي لا يزول الإخلاص فيه، وفرعه في السماء خشية الله»[٢] والتشبيه على هذا القول أصح وأظهر وأحسن؛ فإنه سبحانه شبه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل الباسقة الفرع في السماء علوًّا، التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين، وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقا لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب، التي فروعها من الأعمال الصالحة الصاعدة إلى السماء.

ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت بحسب ثباتها في القلب ومحبة القلب لها وإخلاصه فيها ومعرفته بحقيقتها وقيامه بحقوقها ومراعاتها حق رعايتها.

فمن رسخت هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها التي هي حقيقتها، واتصف قلبه بها، وانصبغ بها بصبغة الله، التي لا أحسن صبغة منها، فعرف حقيقة الإلهية التي يثبتها قلبه لله، ويشهد بها لسانه وتصدقها جوارحه، ونفى تلك الحقيقة ولوازمها عن كل ما سوى الله، وواطأ قلبه لسانه في هذا النفي والإثبات، وانقادت جوارحه لمن شهد له بالوحدانية طائعة سالكةً سبل ربها ذللًا، غير ناكبة عنها ولا باغية سواها بدلًا، كما لا يبتغي القلب سوى معبوده الحق بدلا، فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان، لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى الله كل وقت، فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الرب تعالى، وهذه الكلمة الطيبة تثمر كلِمًا كَثيرًا طيبًا، يقارنه عمل صالح، فيرفع العمل الصالح إلى الكلم الطيب، كما قال تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر: ١٠]، فأخبر

---

(١) أخرج الطبري في تفسيره (١٣/ ٢٠٣) وانظر: تفسير السيوطي (٥/ ٢٠) وتفسير ابن كثير (٢/ ٥٣١).
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ٢٠٤).

سبحانه أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، وأخبر أن الكلمة الطيبة تثمر لقائلها عملًا صالحًا كل وقت.

والمقصود أن كلمة التوحيد إذا شهد بها المؤمن عارفا بمعناها وحقيقتها نفيًا وإثباتًا، متصفًا بموجبها قائما قلبه ولسانه وجوارحه بشهادته، فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل من هذا الشاهد، أصلها ثابت راسخ في قلبه، وفروعها متصلة بالسماء، وهي مخرجة لثمرتها كل وقت. ومن السلف من قال: إن الشجرة الطيبة هي النخلة، ويدل عليه حديث ابن عمر الصحيح.

ومنهم من قال: هي المؤمن نفسه، كما قال محمد بن سعيد حدثني أبي حدثني عمي حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾، يعني بالشجرة الطيبة المؤمن، ويعني بالأصل الثابت في الأرض، والفرع في السماء يكون المؤمن يعمل في الأرض، ويتكلم فيبلغ عمله وقوله السماء وهو في الأرض[(١)].

وقال عطية العوفي في قوله: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ قال: ذلك مثل المؤمن، لا يزال يخرج منه كلامٌ طيب وعمل صالح يصعد إلى الله[(٢)].

وقال الربيع بن أنس: ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ قال: ذلك المؤمن ضرب مثله في الإخلاص لله وحده وعبادته وحده لا شريك له أصلها ثابت، قال: أصل عمله ثابت في الأرض وفرعها في السماء. قال: ذكره في السماء[(٣)]. ولا اختلاف بين القولين.

والمقصود بالمثل المؤمن والنخلة مشبهة به وهو مشبه بها، وإذا كانت النخلة شجرة طيبة فالمؤمن المشبه بها أولى أن يكون كذلك، ومن قال من السلف: إنها شجرة في الجنة، فالنخلة من أشرف أشجار الجنة. وفي هذا المثل من الأسرار والعلوم

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ٢٠٤) وانظر: تفسير السيوطي (٥/ ٢٠).
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ٢٠٤) وانظر: تفسير السيوطي (٥/ ٢١).
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ٢٠٤) وانظر: تفسير السيوطي (٥/ ٢١).

والمعارف ما يليق به، ويقتضيه علم الذي تكلم به وحكمته.

فمن ذلك أن الشجرة لابد لها من عروق وساق وفروع وورق وثمر، فكذلك شجرة الإيمان والإسلام، ليطابق المشبه المشبه به، فعروقها العلم والمعرفة واليقين وساقها الإخلاص، وفروعها الأعمال، وثمرتها ما توجبه الأعمال الصالحة من الآثار الحميدة والصفات الممدوحة والأخلاق الزكية والسمت الصالح والهدى والدل المرضي، فيستدل على غرس هذه الشجرة في القلب وثبوتها فيه بهذه الأمور، فإذا كان العلم صحيحا مطابقا لمعلومه الذي أنزل الله كتابه به والاعتقاد مطابقا لما أخبر به عن نفسه وأخبرت به عنه رسله والإخلاص قائم في القلب والأعمال موافقة للأمر والهدي والدل والسمت مشابه لهذه الأصول مناسب لها علم أن شجرة الإيمان في القلب أصلها ثابت وفرعها في السماء، وإذا كان الأمر بالعكس علم أن القائم بالقلب إنما هو الشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار. ومنها: أن الشجرة لا تبقى حية إلا بمادة تسقيها وتنميها، فإذا قطع عنها السقي أوشك أن تيبس فهكذا شجرة الإسلام في القلب إن لم يتعاهدها صاحبها بسقيها كل وقت بالعلم النافع والعمل الصالح والعود بالتذكر على التفكر والتفكر على التذكر، وإلا أوشك أن تيبس.

وفي مسند الإمام أحمد: من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الإيمان يخلق في القلب، كما يخلق الثوب، فجددوا إيمانكم»**(١).

وبالجملة فالغرس إن لم يتعاهده صاحبه أوشك أن يهلك ومن هنا تعلم شدة حاجة العباد إلى ما أمر الله به من العبادات على تعاقب الأوقات وعظيم رحمته وتمام نعمته وإحسانه إلى عباده بأن وظفها عليها وجعلها مادة لسقي غراس التوحيد الذي غرسه في قلوبهم.

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٤٥ رقم ٥) والديلمي في الفردوس (١/ ١١٤ رقم ٣٨٧) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٥٢): رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن، وقال الحاكم: هذا حديث لم يخرج في الصحيحين ورواته مصريون ثقات.

ومنها: أن الغرس والزرع النافع قد أجرى الله سبحانه العادة أنه لابد أن يخالطه دغل ونبت غريب ليس من جنسه، فإن تعاهده ربه ونقاه وقلعه كمل الغرس والزرع، واستوى وتم نباته، وكان أوفر لثمرته وأطيب وأزكى، وإن تركه أوشك أن يغلب على الغرس والزرع، ويكون الحكم له أو يضعف الأصل، ويجعل الثمرة ذميمة ناقصة بحسب كثرته وقلته.

ومن لم يكن له فقه نفس في هذا ومعرفة به، فإنه يفوته ربح كثير وهو لا يشعر فالمؤمن دائما سعيه في شيئين سقي هذه الشجرة وتنقية ما حولها فبسقيها تبقى وتدوم، وبتنقية ما حولها تكمل وتتم، والله المستعان وعليه التكلان.

فهذا بعض ما تضمنه هذا المثل العظيم الجليل من الأسرار والحكم، ولعلها قطرة من بحر بحسب أذهاننا الواقفة وقلوبنا المخطئة وعلومنا القاصرة، وأعمالنا التي توجب التوبة والاستغفار، وإلا فلو طهرت منا القلوب، وصفت الأذهان، وزكت النفوس، وخلصت الأعمال، وتجردت الهمم للتلقي عن الله ورسوله، لشاهدنا من معاني كلام الله وأسراره وحكمه ما تضمحل عنده العلوم، وتتلاشى عنده معارف الخلق، وبهذا تعرف قدر علوم الصحابة ومعارفهم وأن التفاوت الذي بين علومهم وعلوم من بعدهم كالتفاوت الذي بينهم في الفضل، والله أعلم حيث يجعل مواقع فضله ومن يختص برحمته.

ثم ذكر سبحانه مثل الكلمة الخبيثة فشبهها بالشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، فلا عرق ثابت، ولا فرع عال، ولا ثمرة زاكية، فلا ظل، ولا جني، ولا ساق قائم، ولا عرق في الأرض ثابت، فلا أسفلها مغدق، ولا أعلاها مونق، ولا جني لها، ولا تعلو بل تعلى.

وإذا تأمل اللبيب أكثر كلام هذا الخلق في خطابهم وكسبهم وجده كذلك، فالخسران كل الخسران الوقوف معه والاشتغال به عن أفضل الكلام وأنفعه.

قال الضحاك: ضرب الله مثلا للكافر بشجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من

قرار. يقول: ليس لها أصل ولا فرع، وليس لها ثمرة، ولا فيها منفعة، كذلك الكافر لا يعمل خيراً ولا يقوله، ولا يجعل الله فيه بركة ولا منفعة.

وقال ابن عباس: ومثل كلمة خبيثة ـ وهي الشرك ـ كشجرة خبيثة يعني الكافر، اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، يقول الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر ولا برهان، ولا يقبل الله مع الشرك عملًا[1]. فلا يقبل عمل المشرك ولا يصعد إلى الله، فليس له أصل ثابت في الأرض. ولا فرع في السماء؛ يقول: ليس له عمل صالح في السماء ولا في الأرض.

وقال الربيع بن أنس: مثل الشجرة الخبيثة مثل الكافر، ليس لقوله ولا لعمله أصل ولا فرع، ولا يستقر قوله ولا عمله على الأرض، ولا يصعد إلى السماء[2].

وقال سعيد عن قتادة في هذه الآية: إن رجلًا لقي رجلًا من أهل العلم فقال له: ما تقول في الكلمة الخبيثة؟ قال: ما أعلم لها في الأرض مستقرًّا ولا في السماء مصعدًا إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافي بها يوم القيامة[3].

وقوله: ﴿ ٱجْتُثَّتْ ﴾ أي استؤصلت من فوق الأرض، ثم أخبر سبحانه عن فضله وعدله في الفريقين: أصحاب الكلم الطيب والكلم الخبيث، فأخبر أنه يثبت الذين آمنوا بإيمانهم بالقول الثابت أحوج ما يكونون إليه في الدنيا والآخرة، وأنه يضل الظالمين وهم المشركون عن القول الثابت، فأضل هؤلاء بعدله لظلمهم، وثبت المؤمنين بفضله لإيمانهم.

وتحت قوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧] كنز عظيم من وفق لمظنته وأحسن استخراجه واقتناءه، وأنفق منه فقد غنم، ومن حرمه فقد حرم، وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت الله له طرفة عين، فإن

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ٢١٣) وانظر: الدر المنثور (٥/ ٢٠).
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ٢١٣).
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ٢١٢) وانظر: الدر المنثور (٥/ ٢٦).

لم يثبته وإلا زالت سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما، وقد قال تعالى لأكرم خلقه عليه عبده ورسوله: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٤].

وقال تعالى لأكرم خلقه: ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [الأنفال: ١٢] وفي الصحيحين من حديث البجلي قال: «وهو يسألهم ويثبتهم»[(١)].

وقال تعالى لرسوله: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود: ١٢٠] فالخلق كلهم قسمان: موفق بالتثبيت، ومخذول بترك التثبيت. ومادة التثبيت أصله ومنشأه من القول الثابت وفعل ما أمر به العبد، فبهما يثبت الله عبده، فكل من كان أثبت قولًا وأحسن فعلًا كان أعظم تثبيتًا.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ [النساء: ٦٦] فأثبت الناس قلبًا أثبتهم قولًا.

والقول الثابت هو القول الحق والصدق، وهو ضد القول الباطل الكذب.

فالقول نوعان: ثابت له حقيقة، وباطل لا حقيقة له، وأثبت القول كلمة التوحيد ولوازمها، فهي أعظم ما يثبت الله بها عبده في الدنيا والآخرة ولهذا ترى الصادق من أثبت الناس وأشجعهم قلبًا، والكاذب من أمهن الناس وأخبثهم وأكثرهم تلونًا وأقلهم ثباتًا، وأهل الفراسة يعرفون صدق الصادق من ثبات قلبه وقت الإخبار وشجاعته ومهابته، ويعرفون كذب الكاذب بضد ذلك، ولا يخفى ذلك إلا على ضعيف البصيرة.

وسئل بعضهم عن كلام سمعه من متكلم به، فقال: والله ما فهمت منه شيئا إلا أني رأيت لكلامه صولة، ليست بصولة مبطل، فما منح العبد أفضل من منحة القول الثابت، ويجد أهل القول الثابت ثمرته أحوج ما يكونون إليه في قبورهم ويوم معادهم، كما في صحيح مسلم من حديث البراء بن عازب عن النبي ﷺ أن هذه الآية

---

(١) لم أجده بهذه اللفظ في الصحيحين كما أشار المصنف رحمه الله، ولكن وجدته عند الترمذي (رقم ٢٥٥٧) بلفظ: «حتى نرى ربنا وهو يأمرهم ويثبتهم».

نزلت في عذاب القبر[1].

وقد جاء هذا مبينًا في أحاديث صحاح؛ فمنها ما في المسند من حديث داود ابن أبي هند عن أبي نضرة عن أبي سعيد، قال: كنا مع النبي ﷺ في جنازة، فقال: **«يا أيها الناس، إن هذه الأمة تبتلىٰ في قبورها، فإذا الإنسان دفن وتفرق عنه أصحابه جاءه ملك بيده مطراق فأقعده، فقال: ما تقول في هذا الرجل؟ فإن كان مؤمنًا قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فيقول له: صدقت فيفتح له باب إلىٰ النار، فيقال له: هذا منزلك لو كفرت بربك، فأما إذ آمنت فإن الله أبدلك به هذا. ثم يفتح له باب إلىٰ الجنة، فيريد أن ينهض له، فيقال له: اسكن. ثم يفسح له في قبره، وأما الكافر والمنافق فيقال له: ما تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري فيقال له: لا دريت ولا اهتديت، ثم يفتح له باب إلىٰ الجنة، فيقال له: هذا منزلك لو آمنت بربك، فأما إذ كفرت فإن الله أبدلك به هذا ثم يفتح له باب إلىٰ النار، ثم يقمعه الملك بالمطراق قمعة يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين»** قال بعض أصحابه: يا رسول الله ما منا من أحد يقوم علىٰ رأسه ملك بيده مطراق إلا هيل عند ذلك، فقال رسول الله ﷺ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾[2]. وفي المسند نحوه من حديث البراء بن عازب.

وروىٰ المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ وذكر قبض روح المؤمن، فقال: **«يأتيه آتٍ، يعني في قبره فيقول: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد ﷺ، قال: فينتهره فيقول: ما ربك؟ وما دينك؟ وهي آخر فتنة تعرض علىٰ المؤمن، فذلك حيث يقول الله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ**

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٨٧١) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٣٤-٢٣٩) وشرح النووي (١٧/ ٢٠٣).

(٢) أخرجه البيهقي في إثبات عذاب القبر (رقم ٣٢) وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٤١٧ رقم ٨٦٥) والطبري في تفسيره (١٣م٢١٤) والطبراني في الأوسط (٩/ ٣٨ رقم ٩٠٧٦) وصححه السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٣٠) وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ٤٧-٤٨): رواة أحمد والبزار.... ورجاله رجال الصحيح.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد، فيقال له: صدقت»[(١)] وهذا حديث صحيح.

وقال حماد بن سلمة عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ قال: «إذا قيل له في القبر: من ربك؟ وما دينك؟ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد، جاءنا بالبينات من عند الله، فآمنت به وصدقت، فيقال له: صدقت، على هذا عشت، وعليه مت، وعليه تبعث»[(٢)] وقال الأعمش عن المنهال بن عمرو وعن زاذان عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ وذكر قبض روح المؤمن قال: «فترجع روحه في جسده، ويبعث إليه ملكان شديدا الانتهار، فيجلسانه وينتهرانه، ويقولان: من ربك؟ فيقول الله وما دينك؟ فيقول: الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل أو النبي الذي بعث فيكم؟ فيقول محمد رسول الله، فيقولان له: وما يدريك؟ قال: فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت، فذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾»[(٣)] رواه ابن حبان في صحيحه والإمام أحمد.

وفي صحيحه أيضًا: من حديث أبي هريرة يرفعه قال: «إن الميت ليسمع خفق نعالهم حين يولون عنه مدبرين، فإذا كان مؤمنًا كانت الصلاة عند رأسه، والزكاة عن يمينه، وكان الصيام عن يساره، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه، فيؤتى من عند رأسه فتقول الصلاة: ما قبلي مدخل، فيؤتى عن

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ٢١٥) وأبو داود (رقم ٤٧٥٣) والطيالسي (رقم ٧٥٣) قال المنذري في الترغيب (٤/ ١٩٦): رواه أبو داود ورواه أحمد بإسناد رواته محتج بهم في الصحيح أطول من هذا.

(٢) أخرجه الطبري في تهذيب الآثار (٢/ ٥٠٤-٥٠٥ رقم ٧٢٦) وعبد الرزاق (٣/ ٥٨٠-٥٨١ رقم ٦٧٣٧) وانظر: عمدة القاري (٨/ ٢٠٠).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ٢١٧) وفي تهذيب الآثار (٢/ ٤٩٤ رقم ٤٩٥-٧٢٠) والروياني في مسنده (رقم ٣٩٢) والحاكم (١/ ٩٣-٩٤ رقم ١٠٧).

يمينه فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل، فيؤتى عن يساره فيقول الصيام: ما قبلي مدخل، فيؤتى من عند رجليه فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس: ما قبلي مدخل، فيقال له: اجلس، فيجلس قد مثلت له الشمس قد دنت للغروب فيقال له أخبرنا عما نسألك عنه فيقول: دعوني حتى أصلي، فيقال إنك ستفعل، فأخبرنا عما نسألك، فيقول: وعم تسألوني؟ فيقال له: أرأيت هذا الرجل الذي كان فيكم ماذا تقول فيه؟ وماذا تشهد به عليه؟ فيقول: أمحمد ﷺ؟ فيقال: نعم، فيقول: أشهد أنه رسول الله، وأنه جاء بالبينات من عند الله فصدقناه، فيقال له على ذلك حييت، وعلى ذلك مت، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعًا، وينور له فيه، ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى ما أعد الله لك فيها فيزداد غبطة وسرورًا، ثم تجعل نسمته في النسم الطيب، وهي طير خضر تعلق بشجر الجنة، ويعاد الجسد إلى ما بدأ منه من التراب، وذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾»[1].

[2]هي أن السؤال في القبر هل هو عام في حق المسلمين والمنافقين والكفار، أو يختص بالمسلم والمنافق؟ فقال أبو عمر بن عبد البر في (كتاب التمهيد): والآثار الدالة تدل على أن الفتنة في القبر لا تكون إلا لمؤمن أو منافق [ممن] كان منسوبًا إلى أهل القبلة ودين الإسلام [ممن حقن دمه] بظاهر الشهادة، وأما الكافر الجاحد المبطل فليس ممن يسأل عن ربه ودينه ونبيه، وإنما يسأل عن هذا أهل الإسلام[3] فيثبت الله الذين آمنوا ويرتاب المبطلون.

والقرآن والسنة تدل على خلاف هذا القول، وأن السؤال للكافر والمسلم، قال الله

(١) أخرجه الطبري في تهذيب الآثار (٢/ ٥٠٦ رقم ٧٢٨) وابن أبي شيبة (٣/ ٥٦ رقم ١٢٠٦٢) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٠٦).
(٢) ١٠٣ الروح.
(٣) التمهيد (٢٢/ ٢٥٢) وانظر: فيض القدير (٣/ ٢٧٠) وما بين المعكوفين من التمهيد.

تعالىٰ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ وقد ثبت في الصحيح؛ أنها نزلت في عذاب القبر حين يسأل: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ وفي الصحيحين: عن أنس بن مالك، عن النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم، أنه قال: «**إن العبد إذا وضع في قبره وتولىٰ عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم**»(١) وذكر الحديث.

(٢)قال هناد بن السري في كتاب الزهد: حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن شقيق [عن مسروق] عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت عليّ يهودية فذكرت عذاب القبر فكذبتها، فدخل النبي ﷺ عليّ فذكرت ذلك له، فقال: «**والذي نفسي بيده إنهم ليعذبون في قبورهم، حتىٰ تسمع البهائم أصواتهم**»(٣).

قلت: وأحاديث المسألة في القبر كثيرة، كما في الصحيحين، والسنن: عن البراء بن عازب، أن رسول الله ﷺ قال: «**المسلم إذا سئل في قبره فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فذلك قول الله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾**»، وفي لفظ: «**نزلت في عذاب القبر، يقال له: من ربك؟ فيقول: الله ربي، ومحمد نبي، فذلك قول الله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾**»(٤).

وهذا الحديث قد رواه أهل السنن والمسانيد مطولًا كما تقدم.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٣٣٨) ومسلم (رقم ٢٨٧٠) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٣٧).

(٢) ٦٦ الروح.

(٣) أخرجه هناد بن السري في الزهد (١/ ٢١٢ رقم ٣٤٧) ومن طريقه أخرجه النسائي في الكبرىٰ (١/ ٦٦٢ رقم ٢١٩٣) وفي الصغرىٰ (المجتبىٰ) (رقم ٢٠٦٦) وابن أبي شيبة (٣/ ٢٠٥ رقم ١٢٠٢٥) وإسحاق بن راهويه في مسنده (٣/ ٧٨٦ رقم ١٤١٥) وأحمد (٦/ ٢٠٥) والبيهقي في إثبات عذاب القبر (رقم ٩٥). وما بين المعكوفين استدركته من الزهد لهناد، وقد أشار محققه الدكتور عبد الرحمن الفريوائي حفظه الله في تحقيقه للزهد بأن قوله: [عن مسروق] سقط من تذكرة القرطبي رحمه الله.

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٤٦٩٩) ومسلم (رقم ٢٨٧١) وانظر: عمدة القاري (١٩/ ٦).

وقد صرح في هذا الحديث بإعادة الروح إلى البدن وباختلاف أضلاعه، وهذا بين في أن العذاب على الروح والبدن مجتمعين.

وقد روى مثل حديث البراء قبض الروح والمسألة والنعيم والعذاب أبو هريرة، وحديثه في المسند وصحيح أبي حاتم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**إن الميت إذا وضع في قبره أنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه، فإن كان مؤمنًا، كانت الصلاة عند رأسه والصيام عن يمينه والزكاة عن شماله، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان عند رجليه، فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى من يمينه فيقول الصيام: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى من يساره، فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى من قبل رجليه، فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان: ما قبلي مدخل فيقال له: اجلس فيجلس، قد مثلت له الشمس، وقد أخذت الغروب، فيقال له: هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه؟ وماذا تشهد به عليه؟ فيقول: دعوني حتى أصلي. فيقولون: إنك ستصلي أخبرنا عما نسألك عنه أرأيت هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه: وما تشهد عليه؟ فيقول: محمد أشهد أنه رسول الله جاء بالحق من عند الله. فيقال له: على ذلك حييت، وعلى ذلك مت، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله، ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: هذا مقعدك وما أعد الله لك فيها، فيزداد غبطة وسرورا، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعًا، وينور له فيه، ويعاد الجسد لما بدئ منه، وتجعل نسمته في النسم الطيب، وهي طير معلق في شجر الجنة، قال فذلك قول الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾. وذكر في الكافر ضد ذلك، إلى أن قال: ثم يضيق عليه في قبره إلى أن تختلف فيه أضلاعه، فتلك المعيشة الضنك التي قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾**»[1] [طه: ١٢٤].

---

(١) أخرجه ابن حبان (٧/ ٣٨٠-٣٨٢ رقم ٣١١٣) وفي موارد الظمآن (رقم ٧٨٠) وأحمد (٣/ ١٢٦) والترمذي (رقم ١٠٧١) وحسنه.

وفي الصحيحين من حديث قتادة عن أنس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الميت إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه، إنه ليسمع خفق نعالهم أتاه ملكان، فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله قال: فيقول: انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعدًا من الجنة» قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «فيراهما جميعًا» قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعًا يملأ عليه خضرًا إلى يوم يبعثون، ثم رجع إلى حديث أنس قال: «فأما الكافر والمنافق فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس، فيقولان: لا دريت ولا تليت، ثم يضرب بمطراق من حديد بين أذنيه، فيصيح صيحة فيسمعها من عليها غير الثقلين»[1]...

[2]ومن ذلك قوله تعالى عن خليله إبراهيم أنه قال: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم: ٣٥] فهاهنا أمران: تجنيب عبادتها واجتنابها، فسأل الخليل ربه أن يجنبه وبنيه عبادتها، ليحصل منهم اجتنابها، فالاجتناب فعلهم، والتجنيب فعله، ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله.

ونظير ذلك قول يوسف الصديق: ﴿ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ۝ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يوسف: ٣٣، ٣٤] وصرف كيدهن هو صرف دواعي قلوبهن ومكرهن بألسنتهن وأعمالهن، وتلك أفعال اختيارية، وهو سبحانه الصارف لها، فالصرف فعله والانصراف أثر فعله، وهو فعل النسوة.

***

(١) تقدم تخريجه.
(٢) ٥٩ شفاء.

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۝﴾.

[1]من ذلك قوله تعالى حكاية عن خليله إبراهيم إنه قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ [إبراهيم: ٤٠]، وقوله: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً﴾ [الحديد: ٢٧] وقوله حكاية عن زكريا أنه قال عن ولده: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٦]، وقال في الطرف الآخر: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣] وقال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥] وهذه الأكنة والوقر هي شدة البغض والنفرة والإعراض، التي لا يستطيعون معها سمعًا ولا عقلًا.

والتحقيق أن هذا ناشئ عن الأكنة والوقر، فهو موجب ذلك ومقتضاه.

فمن فسر الأكنة والوقر به فقد فسرهما بموجبهما ومقتضاهما وبكل حال، فتلك النفرة والإعراض والبغض من أفعالهم، وهي مجعولة لله سبحانه، كما أن الرأفة والرحمة وميل الأفئدة إلى بيته هو من أفعالهم، والله جاعله فهو الجاعل للذوات وصفاتها وأفعالها وإراداتها واعتقاداتها، فذلك كله مجعول مخلوق له، وإن كان العبد فاعلًا له باختياره وإرادته.

فإن قيل: هذا كله معارض بقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: ١٠٣] والبحيرة والسائبة إنما صارت كذلك بجعل العباد لها، فأخبر سبحانه أن ذلك لم يكن بجعله.

قيل: لا تعارض بحمد الله بين نصوص الكتاب بوجه ما، والجعل ههنا جعل شرعي أمري، لا كوني قدري، فإن الجعل في كتاب الله ينقسم إلى هذه النوعين كما ينقسم إليهما الأمر والإذن والقضاء والكتابة والتحريم، كما سيأتي بيانه إن شاء الله،

(١) ٥٦ شفاء.

فنفى سبحانه عن البحيرة والسائبة جعله الديني الشرعي، أي لم يشرع ذلك ولا أمر به، ولكن الذين كفروا افتروا عليه الكذب، وجعلوا ذلك دينا له بلا علم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج: ٥٣] فأخبر سبحانه أن هذه الفتنة الحاصلة بما ألقى الشيطان هي بجعله سبحانه، وهذا جعل كوني قدري.

ومن هذا قوله صلى الله تعالى عليه وسلم في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه: «**اللهم اجعلني لك شكّارًا لك، ذكّارًا لك، رهّابًا لك، مطواعًا لك، مخبتًا لك، أوّاهًا منيبًا**»[1] فسأل ربه أن يجعله كذلك وهذه كلها أفعال اختيارية واقعة بإرادة العبد واختياره. وفي هذا الحديث: «**وسدد لساني**» وتسديد اللسان جعله ناطقًا بالسداد من القول ومثله قوله في الحديث الآخر: «**اللهم اجعلني لك مخلصًا**»[2] ومثله قوله: «**اللهم اجعلني أعظم شكرك، وأكثر ذكرك، وأتبع نصيحتك، وأحفظ وصيتك**»[3].

ومثله قول المؤمنين: ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ [البقرة: ٢٥٠]، فالصبر وثبات الأقدام فعلان اختياريان، ولكن التصبير والتثبيت فعل الرب تعالى، وهو المسؤول، والصبر والثبات فعلهم القائم بهم حقيقة.

ومثله قوله: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ

---

(١) أخرجه ابن حبان (٣/ ٢٢٩ رقم ٩٤٨) وفي الموارد (رقم ٢٤١٤) وأحمد (١/ ٢٢٧) والنسائي في الكبرى (٦/ ١٥٥ رقم ١٠٤٤٣) والترمذي (رقم ٣٥٥١) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وحسنه الحافظ ابن حجر في الأمالي المطلقة (ص ٢٠٦).

(٢) لم أجد هذه اللفظة.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣١١، ٤٧٧) والطبراني في الدعاء (رقم ١٤٠٢) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٦٦/ ٢٦٦) وانظر: فيض القدير (٢/ ١٣٤) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٧٢): رواه أحمد من طريق أبي يزيد المدني وفي رواية عن أبي سعيد الحمصي ولم أعرفها وبقية رجالهما ثقات.

صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾ [النمل: ١٩] وقال ابن عباس والمفسرون بعده: ألهمني. قال أبو إسحاق: وتأويله في اللغة: كفني عن الأشياء إلا نفس شكر نعمتك، ولهذا يقال في تفسير الموزع: المولع، ومنه الحديث: كان رسول الله ﷺ موزعًا بالسواك أي مولعًا به، كأنه كف ومنع إلا منه(١).

وقال في الصحاح: وزعته أزعه وزعًا: كففته فاتزع عنه، أي كف، وأوزعته بالشيء: أغريته به فأوزع به، فهو موزع به، واستوزعت الله شكره فأوزعني، أي: استلهمته فألهمني، فقد دار معنى اللفظة على معنى ألهمني ذلك، واجعلني مغرًى به واكفني عما سواه(٢).

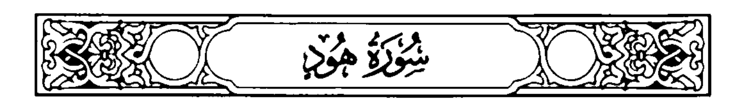
هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة إبراهيم

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ١٨٠) وغريب الحديث لابن الجوزي (٢/ ٤٦٦) ولسان العرب (٨/ ٣٩١).

(٢) انظر: تهذيب الأسماء واللغات (٣/ ٣٦٤) والقاموس المحيط (ص ٩٩٥) والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٥/ ١٧٩ -١٨٠) وغريب الحديث للخطابي (١/ ٨٩) وغريب الحديث لابن قتيبة (١/ ٥٦١).



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ ﴾.

...[1]قوله في سورة الحجر: ﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [الحجر: ٦، ٧] قال الله ﷻ: ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ [الحجر: ٨]، و«الحق» ههنا العذاب.

[2]قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ [الحجر: ١١-١٣] وقد وقع هذا المعنى في القرآن في موضعين هذا أحدهما، والثاني في سورة الشعراء في قوله: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ۝ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ۝ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَـٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [الشعراء: ١٩٨-٢٠١].

قال ابن عباس: سلك الشرك في قلوب المكذبين، كما سلك الخرزة في الخيط، وقال أبو إسحاق: أي كما فعل بالمجرمين الذين استهزءوا بمن تقدم من الرسل، كذلك سلك الضلال في قلوب المجرمين.

واختلفوا في مفسر الضمير في قوله: ﴿ نَسْلُكُهُۥ ﴾ فقال ابن عباس: سلكنا الشرك

---

(١) ٢٤٥ مدارج جـ١.

(٢) ٦١ شفاء.

وهو قول الحسن.

وقال الزجاج وغيره: هو الضلال، وقال الربيع: يعني الاستهزاء، وقال الفراء: التكذيب، وهذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد، والتكذيب والاستهزاء والشرك كل ذلك فعلهم حقيقة، وقد أخبر أنه سبحانه هو الذي سلكه في قلوبهم.

وعندي في هذه الأقوال شيء، فإن الظاهر أن الضمير في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ هو الضمير في قوله: ﴿سَلَكْنَه﴾، فلا يصح أن يكون المعنى: لا يؤمنون بالشرك والتكذيب والاستهزاء، فلا تصح تلك الأقوال إلا باختلاف مفسر الضميرين والظاهر اتحاده، فالذين لا يؤمنون به هو الذي سلكه في قلوبهم وهو القرآن.

فإن قيل: فما معنى سلكه في قلوبهم وهم ينكرونه؟

قيل: سلكه في قلوبهم بهذه الحال، أي سلكناه غير مؤمنين به، فدخل في قلوبهم مكذبًا به، كما دخل في قلوب المؤمنين مصدقًا به، وهذا مراد من قال: إن الذي سلكه في قلوبهم هو التكذيب والضلال، ولكن فسر الآية بالمعنى فإنه إذا دخل في قلوبهم مكذبين به فقد دخل التكذيب والضلال في قلوبهم.

فإن قيل: فما معنى إدخاله في قلوبهم وهم لا يؤمنون به.

قيل: لتقوم عليهم بذلك حجة الله، فدخل في قلوبهم، وعلموا أنه حق وكذبوا به؛ فلم يدخل في قلوبهم دخول مصدق به مؤمن به مرضي به، وتكذيبهم به بعد دخوله في قلوبهم أعظم كفرًا من تكذيبهم به قبل أن يدخل في قلوبهم، فإن المكذب بالحق بعد معرفته له شر من المكذب به ولم يعرفه، فتأمله فإنه من فقه التفسير، والله الموفق للصواب.

***

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾.

[1] قول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١]؛ متضمن لكنز

---

(١) ٢٠١ فوائد.

من الكنوز، وهو أن كل شيء لا يطلب إلا ممن عنده، خزائنه ومفاتيح تلك الخزائن بيديه، وأن طلبه من غيره طلب ممن ليس عنده ولا يقدر عليه.

وقوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] متضمن لكنز عظيم، وهو أن كل مراد إن لم يرد لأجله ويتصل به وإلا فهو مضمحل منقطع، فإنه ليس إليه المنتهىٰ، وليس المنتهىٰ إلا إلىٰ الذي انتهت إليه الأمور كلها، فانتهت إلىٰ خلقه ومشيئته وحكمته وعلمه، فهو غاية كل مطلوب، وكل محبوب لا يحب لأجله فمحبته عناء وعذاب، وكل عمل لا يراد لأجله فهو ضائع وباطل.

وكل قلب لا يصل إليه فهو شقي محجوب عن سعادته وفلاحه.

فاجتمع ما يراد منه كله في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١] واجتمع ما يراد له كله في قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾، فليس وراءه سبحانه غاية تطلب، وليس دونه غاية إليها المنتهىٰ.

وتحت هذا سر عظيم من أسرار التوحيد، وهو أن القلب لا يستقر ولا يطمئن ويسكن إلا بالوصول إليه، وكل ما سواه مما يحب ويراد فمراد لغيره، وليس المراد المحبوب لذاته إلا واحد، إليه المنتهىٰ، ويستحيل أن يكون المنتهىٰ إلىٰ اثنين، كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين، فمن كان انتهاء محبته ورغبته وإرادته وطاعته إلىٰ غيره بطل عليه ذلك وزال عنه، وفارقه أحوج ما كان إليه، ومن كان انتهاء محبته ورغبته ورهبته وطلبه هو سبحانه ظفر بنعمه ولذته وبهجته وسعادته أبد الآباد.

العبد دائمًا متقلب بين أحكام الأوامر وأحكام النوازل، فهو محتاج بل مضطر إلىٰ العون عند الأوامر وإلىٰ اللطف عند النوازل، وعلىٰ قدر قيامه بالأوامر يحصل له من اللطف عند النوازل، فإن كمل القيام بالأوامر ظاهرًا وباطنًا ناله اللطف ظاهرًا وباطنًا، وإن قام بصورها دون حقائقها وبواطنها ناله اللطف في الظاهر، وقل نصيبه من اللطف في الباطن.

فإن قلت: وما اللطف الباطن؟ فهو[1] ما يحصل للقلب عند النوازل من السكينة والطمأنينة وزوال القلق والاضطراب والجزع، فيستخذى بين يدي سيّده ذليلا له مستكينا، ناظرا إليه بقلبه، ساكنًا إليه بروحه وسره، قد شغله مشاهدة لطفه به عن شدة ما هو فيه من الألم، وقد غيّبه عن شهود ذلك معرفته بحسن اختياره له، وأنه عبد محض يجري عليه سيّده أحكامه: رضي أو سخط، فإن رضي نال الرضوان، وإن سخط فحظه السخط، فهذا اللطف الباطن ثمرة تلك المعاملة الباطنة، يزيد بزيادتها وينقص بنقصانها.

[2]ثم تأمل هذا الهواء وما فيه من المصالح فإنه حياة هذه الأبدان والممسك لها من داخل بما تستنشق منه، ومن خارج بما تباشر به من روحه، فتتغذى به ظاهرًا وباطنًا، وفيه تطرد هذه الأصوات فتحملها وتؤديها للقريب والبعيد: كالبريد والرسول، الذي شأنه حمل الأخبار والرسائل، وهو الحامل لهذه الروائح على اختلافها، ينقلها من موضع إلى موضع، فتأتي العبد الرائحة من حيث تهب الريح، وكذلك تأتيه الأصوات.

وهو أيضًا الحامل للحر والبرد، اللذين بهما صلاح الحيوان والنبات.

وتأمل منفعة الريح، وما يجري له في البر والبحر، وما هيئت له من الرحمة والعذاب. وتأمل كم سخر للسحاب من ريح حتى أمطر، فسخرت له المثيرة أولًا فتثيره بين السماء والأرض، ثم سخرت له الحاملة التي تحمله على متنها كالجمل الذي يحمل الراوية، ثم سخرت له المؤلفة فتؤلف بين كسفه وقطعه، ثم يجتمع بعضها إلى بعض، فيصير طبقًا واحدًا، ثم سخرت له اللاقحة بمنزلة الذكر الذي يلقح الأنثى، فتلقحه بالماء، ولولاها لكان جهامًا لا ماء فيه، ثم سخرت له المزجية التي تزجيه وتسوقه إلى حيث أمر، فيفرغ ماءه هنالك. ثم سخرت له بعد أعصاره المفرقة، التي تبثه وتفرقه في الجو، فلا ينزل مجتمعًا؛ ولو نزل جملة لأهلك المساكن والحيوان والنبات، بل تفرقه فتجعله قطرًا.

---

(١) كذا بالأصل: ولعل الصواب: قيل فهو.... (ج).

(٢) ٢١٦ مفتاح جـ١.

وكذلك الرياح التي تلقح الشجر والنبات، ولولاها لكانت عقيماً.

وكذلك الرياح التي تسير السفن، ولولاها لوقفت علىٰ ظهر البحر.

ومن منافعها أنها تبرد الماء وتضرم النار التي يراد إضرامها، وتجفف الأشياء التي يحتاج إلىٰ جفافها.

وبالجملة فحياة ما علىٰ الأرض من نبات وحيوان بالرياح، فإنه لولا تسخير الله لها لعباده لذوي النبات ومات الحيوان، وفسدت المطاعم، وأنتن العالم وفسد ألا ترىٰ إذا ركدت الرياح كيف يحدث الكرب والغم، الذي لو دام لأتلف النفوس، وأسقم الحيوان، وأمرض الأصحاء، وأنهك المرضىٰ، وأفسد الثمار وعفن الزرع وأحدث الوباء في الجو. فسبحان من جعل هبوب الرياح تأتي بروحه ورحمته ولطفه ونعمته، كما قال النبي ﷺ في الرياح: إنها من روح الله تأتي بالرحمة[(١)].

وتنبه للطيفة في هذا الهواء، وهي أن الصوت أثر يحدث عند اصطكاك الأجرام، وليس نفس الاصطكاك، كما قال ذلك من قاله، ولكنه موجب الاصطكاك وقرع الجسم للجسم أو قلعة عنه، فسببه قرع أو قلع، فيحدث الصوت، فيحمله الهواء ويؤديه إلىٰ ما مع الناس، فينتفعون به في حوائجهم ومعاملاتهم بالليل والنهار، وتحدث الأصوات العظيمة من حركاتهم، فلو كان أثر هذه الحركات والأصوات يبقىٰ في الهواء كما يبقىٰ الكتاب في القرطاس، لامتلأ العالم منه، ولعظم الضرر به، واشتدت مؤنته، واحتاج الناس إلىٰ محوه من الهواء والاستبدال به أعظم من حاجتهم إلىٰ استبدال الكتاب المملوء كتابة، فإن ما يلقىٰ من الكلام في الهواء أضعاف ما يوضع في القرطاس، فاقتضت حكمة العزيز الحكيم أن جعل هذا الهواء قرطاسا خفيا،

---

(١) فعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الريح من روح الله، تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب، فلا تسبوها، وسلوا الله خيرها، واستعيذوا من شرها» أخرجه ابن حبان (٣/ ٢٨٧ رقم ١٠٠٧) وأبو داود (رقم ٥٠٩٧) والنسائي في الكبرىٰ (٦/ ٢٣١ رقم ١٠٧٦٧) وابن ماجه (رقم ٣٧٢٧) والبيهقي في الكبرىٰ (٣/ ٣٦١ رقم ٦٢٥٦) وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (رقم ٧٢٠) وفي صحيح الجامع (رقم ٣٥٦٤).

يحمل الكلام بقدر ما يبلغ الحاجة، ثم يمحى بإذن ربه، فيعود جديدًا نقيًا لا شيء فيه، فيحمل ما حمل كل وقت. اهـ.

[(١)] ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١١]. فإن نفي كونه من الساجدين أخص من نفي السجود عنه لأن نفي الكون يقتضي نفي الأهلية والاستعداد، فهو أبلغ في الذم من أن يقال لم يسجد.

***

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

[(٢)] قال عن عدوه إبليس: إنه قال: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٤٢].

والغاوي ضدُّ الراشد، والعشق المحرم من أعظم الغيِّ.

لهذا كان أتباع الشعراء وأهل السماع الشعري غاوين. كما سماهم الله تعالى بذلك في قوله: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٤]. فالغاوون يتبعون الشعراء، وأصحاب السماع الشعري الشيطاني، وهؤلاء لا ينفكون عن طلب وصال، أو سؤال نوال. كما قال أبو تمام لرجل: أما تعرفني؟ فقال: ومن أعرف بك مني؟

أنْتَ بَيْنَ اثْنَتَيْنِ تَبْرُزُ لِلنَّا ... سِ وَكِلْتَاهُمَا بِوَجْهٍ مُذَالِ
لَسْتَ تَنْفَكُّ طَالِباً لوصال ... مِنْ حَبِيبٍ أَوْ رَاجِياً لِنَوَالِ
أي مَاءٍ يَبْقَى لِوَجْهِكَ هذَا ... بَيْنَ ذُلِّ الْهَوَى، وَذُلِّ السُّؤَالِ؟[(٣)]

---

(١) ٥٧ بدائع جـ٣.

(٢) ١٥٠ إغاثة جـ٢.

(٣) هذه الأبيات الثلاثة من بحر الخفيف، وقد ذكرها الصولي في أخبار أبي تمام (ص ١٨٢) ونسبهم إلى عبدالصمد بن المعذل، وذكرها أيضًا أبو منصور الثعالبي في نثر النظم وحل العقد (ص ٤) وابن رشيق القيرواني في العمدة في محاسن الشعر وآدابه (ص ٢٠٨). وذكر البيتين الأول والثالث ابن =

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

[(١)]أخبر عن تلاقي قلوبهم وتلاقي وجوههم، وفي الصحيحين: «**أخلاقهم على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ﷺ ستون ذراعًا في السماء**»[(٢)] والرواية «على خَلْق» بفتح الخاء وسكون اللام، والأخلاق كما تكون جمعًا للخلق بالضم، فهي جمع للخلق بالفتح، والمراد تساويهم في الطول والعرض والسن، وإن تفاوتوا في الحسن والجمال، ولهذا فسره بقوله على صورة أبيهم آدم ﷺ ستون ذراعا في السماء.

وأما أخلاقهم وقلوبهم؛ ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة: «**أول زمرة تلج الجنة**» الحديث. وقد تقدم، وفيه: «**لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب رجل واحد، يسبحون الله بكرة وعشية**»[(٣)].

وكذلك وصف الله ﷻ نساءهم بأنهن أتراب، أي في سن واحد، ليس فيهن العجائز والشواب. وفي هذا الطول والعرض والسن من الحكمة ما لا يخفى، فإنه أبلغ وأكمل في استيفاء اللذات، لأنه أكمل سن القوة عظم آلات اللذة، وباجتماع الأمرين يكون كمال اللذة وقوتها، بحيث يصل في اليوم الواحد إلى مئة عذراء، كما سيأتي أن شاء الله تعالى.

ولا يخفى التناسب الذي بين هذا الطول والعرض، فإنه لو زاد أحدهما على الآخر فات الاعتدال، وتناسب الخلقة يصير طولا مع دقة أو غلظا مع قصر، وكلاهما غير مناسب، والله أعلم.

***

العماد الحنبلي في شذرات الذهب (٢/ ٧٣) وقائل هذا الشعر هو عبدالصمد بن المعذل العبدي القيسي من شعراء الدولة العباسية، وكان هجَّاء شديد العارضة. مات سنة ٢٤٠هـ.

(١) ١١٠ حادي الأرواح.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٢٧)، ومسلم (رقم ٢٨٣٤)، وانظر: شرح النووي (١٧/ ١٧٢).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٤٥)، ومسلم (رقم ٢٨٣٤) وانظر: عمدة القاري (١٥/ ١٥٤).

﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

[1]هذا مرض من أمراض القلب مخالف لسائر الأمراض في ذاته وأسبابه وعلاجه، وإذا تمكن واستحكم عز على الأطباء دواؤه، وأعيا العليل داؤه، وإنما حكاه الله سبحانه في كتابه عن طائفتين من الناس من النساء، وعشاق الصبيان المردان، فحكاه عن امرأة العزيز في شأن يوسف، وحكاه عن قوم لوط، فقال تعالى إخبارًا عنهم لما جاءت الملائكة لوطًا: ﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر: ٦٧-٧٢].

[2]والله سبحانه إنما حكى عشق الصور في القرآن عن المشركين، فحكاه عن امرأة العزيز، وكانت مشركة على دين زوجها، وكانوا مشركين، وحكاه عن اللوطية، وكانوا مشركين، فقال تعالى في قصتهم: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر: ٧٢] وأخبر سبحانه أنه يصرفه عن أهل الإخلاص، فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤].

***

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾.

[3]من الآيات: التي فيها وقائعه سبحانه التي أوقعها بالأمم المكذبين لرسلهم،

---

(١) ٣١٧ زاد المعاد جـ٣.

(٢) ١٥٠ إغاثة جـ٢.

(٣) ١٨٨ التبيان.

المخالفين لأمره، وأبقى آثارهم دالة عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣٨]، وقال في قوم لوط: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨]، وقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٣-٧٦]، أي بطريق ثابت لا يزول عن حاله، وقال: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٨-٧٩] أي ديار هاتين الأمتين لبطريق واضح يمر به السالكون، وقال تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٤٥]، وقال عن قوم عاد: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ [السجدة: ٢٦].

فأي دلالة أعظم من رجل يخرج وحده لا عدة له ولا عدد ولا مال، فيدعو الأمة العظيمة إلى توحيد الله والإيمان به وطاعته، ويحذرهم من بأسه ونقمته، فتتفق كلمتهم أو أكثرهم على تكذيبه ومعاداته، فيذكرهم أنواع العقوبات الخارجة عن قدرة البشر، فيغرق المكذبين كلهم تارة، ويخسف بغيرهم الأرض تارة، ويهلك آخرين بالريح، وآخرين بالصيحة، وآخرين بالمسخ، وآخرين بالصواعق، وآخرين بأنواع العقوبات، وينجو داعيهم ومن معه، والهالكون أضعاف أضعاف أضعافهم عددا وقوة ومنعة وأموالًا:

فيالك من آيات حق لو اهتدى ... بهن مريد الحق كن هواديا

ولكن على تلك القلوب أكنة ... فليست وإن أصغت تجيب المناديا[1]

فهلا امتنعوا إن كانوا على الحق، وهم أكثرهم عددا، وأقوى شوكة بقوتهم وعددهم من بأسه وسلطانه، وهلا اعتصموا من عقوبته، كما اعتصم من هو أضعف منهم من أتباع الرسل؟.

(١) لم أجد البيتين فيما لدي من مصادر.

(١) ومن منازل: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة «الفراسة».

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر: ٧٥].

قال مجاهد رحمه الله: المتفرسين. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: للناظرين وقال قتادة: للمعتبرين[٢]. وقال مقاتل: للمتفكرين.

ولا تنافي بين هذه الأقوال، فإن الناظر متى نظر في آثار ديار المكذبين ومنازلهم وما آل إليه أمرهم: أورثه فراسة وعبرة وفكرة.

وقال تعالى في حق المنافقين: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ [محمد: ٣٠]. فالأول: فراسة النظر والعين. والثاني: فراسة الأذن والسمع.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول: علق معرفته إياهم بالنظر على المشيئة ولم يعلق تعريفهم بلحن خطابهم على شرط بل أخبر به خبرا مؤكدا بالقسم فقال: ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ وهو تعريض الخطاب، وفحوى الكلام ومغزاه. و«اللحن» ضربان: صواب وخطأ، فلحن الصواب نوعان:

أحدهما: الفطنة، ومنه الحديث: «ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض»[٣].

والثاني: التعريض والإشارة، وهو قريب من الكناية. ومنه قول الشاعر:

وحـــديث ألـــذه وهـــو ممـــا ... يـــشتهي الـــسامعون يـــوزن وزنـــا

منطـــق صـــائب وتلحـــن أحيـــا نـــا ... وخيـــر الحـــديث مـــا كـــان لحنـــا[٤]

---

(١) ٤٨٢ مدارج جـ٢.

(٢) أقوال مجاهد وابن عباس وقتادة أخرجها الطبري في تفسيره (١٤/ ٤٦) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٥٥٦).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٦٩٦٧)، ومسلم (رقم ١٧١٣) وانظر: شرح النووي (١٢/ ٤).

(٤) هذان البيتان من بحر الخفيف، وهما من قول مالك بن أسماء الفزاري أبي الحسن، شاعر غزل ظريف من الولاة، تقلد خوارزم وأصبهان للحجاج، مات سنة ١٠٠هـ وذكر البيتين أبو علي القالي في الأمالي =

والثالث: فساد المنطق في الإعراب. وحقيقته: تغيير الكلام عن وجهه: إما إلىٰ خطأ، وإما إلىٰ معنىً خفي لم يوضع له اللفظ.

والمقصود: أنه سبحانه أقسم علىٰ معرفتهم من لحن خطابهم، فإن معرفة المتكلم وما في ضميره من كلامه: أقرب من معرفته بسيماه وما في وجهه، فإن دلالة الكلام علىٰ قصد قائله وضميره أظهر من السيماء المرئية، والفراسة تتعلق بالنوعين: بالنظر والسماع. وفي الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله**»، ثم تلا قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[1] [الحجر: ٧٥].

[2]البصيرة تنبت في أرض القلب الفراسة الصادقة، وهي نور يقذفه الله في القلب، يفرق به بين الحق والباطل والصادق والكاذب، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ قال مجاهد: للمتفرسين[3].

الأمالي (١/ ١١-١٢) والجاحظ في البيان والتبيين (١/ ٢٠٨) ونشوان الحميري في الحور العين (ص ٢١٩) وياقوت الحموي في معجم الأدباء (١/ ١٩) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٤٥/ ٤٣٩) وابن منظور في لسان العرب (١٣/ ٣٨٠) والقرطبي في تفسيره (١٦/ ٢٥٣) وشيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع فتاويه (٢٧/ ٢٠٣).

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣١٢٧) والبيهقي في الزهد الكبير (٢/ ١٥٩-١٦٠ رقم ٣٥٨) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٣/ ٨٦) (٤/ ٣٥) والطبراني في الأوسط (٨/ ٢٣ رقم ٧٨٤٣) وفي الكبير (٨/ ١٠٢ رقم ٧٤٩٧) وفي مسند الشاميين (٣/ ١٨٣-١٨٤ رقم ٢٠٤٢) والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٣٨٧ رقم ٦٦٣) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٦٨): رواه الطبراني وإسناده حسن. وانظر: فتح الباري (١٢/ ٣٨٨) وتحفة الأحوذي (٨/ ٤٤١).

(٢) ١٢٩ مدارج جـ١.

(٣) أخرجه الثوري في تفسيره (ص١٦٠-١٦١) وذكره بدر الدين العيني في عمدة القاري (١٥/ ٢٧١) والمباركفوري في تحفة الأحوذي (٨/ ٤٤١).

و«التوسُّم» تفعل من السيما، وهي العلامة، فسُمِّي المتفرس متوسما لأنه يستدل بما يشهد على ما غاب، فيستدل بالعيان على الإيمان، ولهذا خص الله تعالى بالآيات والانتفاع بها هؤلاء، لأنهم يستدلون بما يشاهدون منها على حقيقة ما أخبرت به الرسل من الأمر والنهي والثواب والعقاب، وقد ألهم الله ذلك لآدم وعلمه إياه حين علمه أسماء كل شيء وبنوه هم نسخته وخلفاؤه، فكل قلب فهو قابل لذلك وهو فيه بالقوة وبه تقوم الحجة، وتحصل العبرة، وتصح الدلالة.

وبعث الله رسله مذكرين ومنبهين ومكملين لهذا الاستعداد بنور الوحي والإيمان فينضاف ذلك إلى نور الفراسة والاستعداد، فيصير نورا على نور، فتقوى البصيرة، ويعظم النور ويدوم بزيادة مادته ودوامها، ولا يزال في تزايد حتى يُرَى على الوجه والجوارح والكلام والأعمال، ومن لم يقبل هدى الله ولم يرفع به رأسا دخل قلبه في الغلاف والأكنة، فأظلم وعمي عن البصيرة، فحجبت عنه حقائق الإيمان، فيرى الحق باطلا والباطل حقا، والرشد غيا والغي رشدًا، قال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] و«الرين» و«الران» هو الحجاب الكثيف المانع للقلب من رؤية الحق والانقياد له.

وعلى حسب قوة البصيرة وضعفها تكون الفراسة، وهي نوعان: فراسة علوية شريفة مختصة بأهل الإيمان وفراسة سفلية دنيئة مشتركة بين المؤمن والكافر، وهي فراسة أهل الرياضة والجوع والسهر والخلوة، وتجريد البواطن من أنواع الشواغل، فهؤلاء لهم فراسة كشف الصور والإخبار ببعض المغيبات السفلية، التي لا يتضمن كشفها والإخبار بها كمالا للنفس ولا زكاة ولا إيمانًا ولا معرفة، وهؤلاء لا تتعدى فراستهم هذه السفليات، لأنهم محجوبون عن الحق تعالى، فلا تصعد فراستهم إلى التمييز بين أوليائه وأعدائه، وطريق هؤلاء وهؤلاء.

وأما فراسة الصادقين العارفين بالله وأمره، فإن همتهم لما تعلقت بمحبة الله ومعرفته وعبوديته ودعوة الخلق إليه على بصيرة كانت فراستهم متصلة بالله متعلقة بنور الوحي مع نور الإيمان، فميزت بين ما يحبه الله وما يبغضه من الأعيان والأقوال والأعمال، وميزت بين الخبيث والطيب، والمحق والمبطل، والصادق والكاذب، وعرفت مقادير استعداد السالكين إلى الله، فحملت كل إنسان على قدر استعداده: علمًا وإرادة وعملًا.

ففراسة هؤلاء دائما حائمة حول كشف طرق الرسول وتعرفها، وتخليصها من بين سائر الطرق، وبين كشف عيوب النفس، وآفات الأعمال العائقة عن سلوك طريق المرسلين، فهذا أشرف أنواع البصيرة والفراسة، وأنفعها للعبد في معاشه ومعاده.

[1]الفرق بين الفراسة والظن: أن الظن يخطئ ويصيب، وهو يكون مع ظلمة القلب ونوره وطهارته ونجاسته، ولهذا أمر تعالى باجتناب كثير منه، وأخبر أن بعضه إثم. وأما الفراسة فأثنى على أهلها ومدحهم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر: ٧٥] قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: أي للمتفرسين.

وقال تعالى: ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ [محمد: ٣٠]. فالفراسة الصادقة لقلب قد تطهر وتصفى وتنزه من الأدناس وقرب من الله، فهو ينظر بنور الله الذي جعله في قلبه.

وفي الترمذي وغيره من حديث أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله».

وهذه الفراسة نشأت له من قربه من الله؛ فإن القلب إذا قرب من الله انقطعت عنه معارضات السوء المانعة من معرفة الحق وإدراكه، وكان تلقيه من مشكاة قريبة من

---

(١) ٢٩٠ الروح.

الله بحسب قربه منه، وأضاء له النور بقدر قربه، فرأىٰ في ذلك النور ما لم يره البعيد والمحجوب، كما ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما يروي عن ربه ﷻ أنه قال: «**ما تقرب إليَّ عبدي بمثل ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتىٰ أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي**»[(١)].

فأخبر سبحانه أن تقرب عبده منه يفيده محبته له، فإذا أحبه قرب من سمعه وبصره ويده ورجله، فسمع به، وأبصر به، وبطش به، ومشىٰ به، فصار قلبه كالمرآة الصافية، تبدو فيها صور الحقائق علىٰ ما هي عليه، فلا تكاد تخطىء له فراسة، فإن العبد إذا أبصر بالله أبصر الأمر علىٰ ما هو عليه، فإذا سمع بالله سمعه علىٰ ما هو عليه[(٢)].

***

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

[(٣)]قال غير واحد من السلف: هو عن قول: «لا إله إلا الله»، وهذا حق، فإن السؤال كله عنها وعن أحكامها وحقوقها وواجباتها ولوازمها، فلا يسأل أحد قط إلا عنها وعن واجباتها ولوازمها وحقوقها.

قال أبو العالية: كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟ فالسؤال عمّاذا كانوا يعبدون، هو السؤال عنها نفسها، والسؤال عمَّاذا أجابوا المرسلين: سؤال عن الوسيلة، والطريق المؤدية إليها: هل سلكوها؟ وأجابوا الرسل لما دعوهم إليها، فعاد الأمر كله إليها. وأمر هذا شأنه حقيق بأن

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٠٢) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٤٣-٣٤٤) وشرح النووي (١٥/ ١٥١).
(٢) استمر المؤلف في البحث واستشهد علىٰ ما ذكره بآثار وحكايات يرجع إليها لمن أراد (ج)
(٣) ٢٩٧ طريق الهجرتين.

تنعقد[1] عليه الخناصر، ويعض عليه بالنواجذ، ويقبض فيه على الجمر ولا يؤخذ بأطراف الأنامل، ولا يطلب على فضله، بل يجعل هو المطلب الأعظم وما سواه إنما يطلب على الفضلة. والله الموفق لا إله غيره ولا رب سواه.

***

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾.

[2]لما نزل عليه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤]، فصدع بأمر الله، لا تأخذه فيه لومة لائم، فدعا إلى الله الصغيرَ والكبيرَ، والحرَّ والعبدَ، والذكَر والأُنثى، والأحمَرَ والأسودَ، والجِنَّ والإنسَ.

ولما صَدَعَ بأمرِ الله، وصرَّحَ لقومه بالدَّعوة، وناداهم بسبِّ آلهتهم، وعَيبِ دينهم، اشتد أذاهم له، ولمن استجاب له مِن أصحابه، ونالوه ونالوهم بأنواع الأذى، وهذهِ سُنَّة الله ﷻ في خلقه، كما قال تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣]. وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]. وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان: ٣١]. ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣]. فَعزَّى سبحانه نبيّه بذلك، وأن له أُسوةً بمن تقدَّمه من المرسلين، وعزَّى أتباعه بقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]. وقوله: ﴿الم ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ

(١) كذا بالأصل ولعلها تعقد (ج).
(٢) ١٠٨ زاد المعاد جـ٢.

مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١-١٠].

***

﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾.

[(١)] في لزوم ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ بكل عبد إلى الموت قال الله تعالى لرسوله: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩]. وقال أهل النار: ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴾ [المدثر: ٤٦-٤٧]. واليقين هنا: هو الموت بإجماع أهل التفسير، وفي الصحيح ـ في قصة موت عثمان بن مظعون ﷺ ـ أن النبي ﷺ قال: «**أما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه**»[(٢)]، أي الموت وما فيه، فلا ينفك العبد من العبودية ما دام في دار التكليف.

بل عليه في البرزخ عبودية أخرى لما يسأله الملكان: من كان يعبد؟ وما يقول في رسول الله ﷺ؟ ويلتمسان منه الجواب.

---

(١) ١٠٣ مدارج جـ١.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٦٨٧) وانظر: عمدة القاري (١٣/ ٢٦٤).

وعليه عبودية أخرىٰ يوم القيامة يوم يدعو الله الخلق كلهم إلىٰ السجود، فيسجد المؤمنون ويبقىٰ الكفار والمنافقون لا يستطيعون السجود، فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليف هناك، وصارت عبودية أهل الثواب تسبيحًا مقرونًا بأنفاسهم، لا يجدون له تعبًا ولا نصبًا.

ومن زعم أنه يصل إلىٰ مقام يسقط عنه فيه التعبد فهو زنديق كافر بالله وبرسوله. وإنما وصل إلىٰ مقام الكفر بالله، والانسلاخ من دينه، بل كلما تمكن العبد في منازل العبودية كانت عبوديته أعظم، والواجب عليه منها أكبر وأكثر من الواجب علىٰ من دونه.

ولهذا كان الواجب علىٰ رسول الله ﷺ بل علىٰ جميع الرسل أعظم من الواجب علىٰ أممهم، والواجب علىٰ أولي العزم أعظم من الواجب علىٰ من دونهم، والواجب علىٰ أولي العلم أعظم من الواجب علىٰ من دونهم، وكل أحد بحسب مرتبته.

(1)﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩] واليقين هنا الموت باتفاق أهل الإسلام، فجاءه ﷺ إذ جاءه وإرادته وقصده ونيته في الذروة العليا ونهاية كمالها وتمامها.

(2)فإن الله ﷻ أمره وأمر سائر رسله بعبادته إلىٰ حين انقضاء آجالهم. فقال: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩٩]، وهو الموت بالإجماع، كما قال في الآية الآخرىٰ عن الكفار: ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴾ [المدثر: ٤٦-٤٧] وقال ﷺ: «أما عثمان بن مظعون فقد جاءه اليقين من ربه» قاله لما مات عثمان، وقال المسيح: ﴿ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٣٠-٣١] فهذه وصية الله

(١) ٢٢٤ طريق الهجرتين.

(٢) ١٦٦ مدارج السالكين جـ١.

للمسيح، وكذلك لجميع أنبيائه ورسله وأتباعهم، قال الحسن: لم يجعل الله لعبده المؤمن أجلًا دون الموت[١].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الحجر

والحمد لله رب العالمين



(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (رقم ١٨) وأحمد بن حنبل في الزهد (ص ٢٧٢).

سُورَةُ النَّحْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾.

[1]تأمل العبرة في السمك وكيفية خلقته، وأنه خلق غير ذي قوائم؛ لأنه لا يحتاج إلى المشي إذ كان مسكنه الماء، ولم يخلق له رئة؛ لأن منفعة الرئة التنفس، والسمك لم يحتج إليه، لأنه ينغمس في الماء، وخلقت له عوض القوائم أجنحة شداد، يقذف بها من جانبيه، كما يقذف صاحب المركب بالمقاذيف من جانبي السفينة، وكسى جلده قشورًا متداخلة كتداخل الجوشن؛ ليقيه من الآفات، وأعين بقوة الشم، لأن بصره ضعيف والماء يحجبه، فصار يشم الطعام من بعد فيقصده.

وقد ذكر في بعض كتب الحيوان: أن من فيه إلى صماخه منافذ، فهو يصب الماء فيها بفيه، ويرسله من صماخيه، فيتروح بذلك، كما يأخذ الحيوان النسيم البارد بأنفه، ثم يرسله ليتروح به، فإن الماء للحيوان البحري كالهواء للحيوان البري، فهما بحران أحدهما ألطف من الآخر: بحر هواء يسبح فيه حيوان البر، وبحر ماء يسبح فيه حيوان البحر، فلو فارق كل من الصنفين بحره إلى البحر الآخر مات، فكما يختنق الحيوان البري في الماء، يختنق الحيوان البحري في الهواء.

فسبحان من لا يحصي العادون آياته، ولا يحيطون بتفصيل آية منها على الانفراد، بل إن علموا فيها وجهًا جهلوا منها أوجهًا.

فتأمل الحكمة البالغة في كون السمك أكثر الحيوان نسلًا، ولهذا ترى في جوف السمكة الواحدة من البيض ما لا يحصى كثرة.

---

(١) ٢٥١ مفتاح جـ١.

وحكمة ذلك أن يتسع لما يتغذىٰ به من أصناف الحيوان، فإن أكثرها يأكل السمك حتىٰ السباع، لأنها في حافات مطموسة جاثمة، تعكف علىٰ الماء الصافي؛ فإذا تعذر عليها صيد البر رصدت السمك فاختطفته، فلما كانت السباع تأكل السمك، والطير تأكله، والناس تأكله، والسمك الكبار تأكله، ودواب البر تأكله، وقد جعله الله سبحانه غذاء لهذه الأصناف؛ اقتضت حكمته أن يكون بهذه الكثرة، ولو رأىٰ العبد ما في البحر من ضروب الحيوانات والجواهر والأصناف، التي لا يحصيها إلا الله ولا يعرف الناس منها إلا الشيء القليل، الذي لا نسبة له أصلًا إلىٰ ما غاب عنهم؛ لرأىٰ العجب، ولعلم سعة ملك الله وكثرة جنوده، التي لا يعلمها إلا هو.

[١]وتطلق الروح علىٰ القرآن الذي أوحاه الله تعالىٰ إلىٰ رسوله، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورىٰ: ٥٢]. وعلىٰ الوحي الذي يوحيه إلىٰ أنبيائه ورسله، قال تعالىٰ: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل: ٢].

وسمىٰ ذلك روحًا لما يحصل به من الحياة النافعة، فإن الحياة بدونه لا تنفع صاحبها البتة؛ بل حياة الحيوان البهيم خير منها وأسلم عاقبة.

وسميت الروح روحًا لأن بها حياة البدن، وكذلك سميت الريح لما يحصل بها من الحياة، وهي من ذوات الواو، ولهذا تجمع علىٰ أرواح قال الشاعر:

إذا هبت الأرواح من نحو أرضكم ... وجدت لمسرها علىٰ كبدي بردا[٢]

---

(١) ٢٦٤ الروح.

(٢) هذا البيت من بحر الطويل وعجز البيت ذكره عامر بن الحارث النميري المتوفي سنة ٦٨هـ والمشهور بـجران العود. وصدر بيته: **إذا الريح من أرض الحجاز تنسَّمت**

وعجز البيت ذكره أيضًا بديع الزمان الهمذاني: أحمد بن الحسين بن يحيىٰ أبو الفضل المتوفى سنة ٥٩٨هـ وصدر بيته: طربت وهاجتني شمالٌ بَليلةٌ

=

ومنها الروح والريحان والاستراحة، فسميت النفس روحًا لحصول الحياة بها، وسميت نفسًا إما من الشيء النفيس لنفاستها وشرفها، وإما من تنفس الشيء إذا خرج، فلكثرة خروجها ودخولها في البدن سميت نفسا، ومنه النفس بالتحريك، فإن العبد كلما نام خرجت منه، فإذا استيقظ رجعت إليه، فإذا مات خرجت خروجًا كليًّا، فإذا دفن عادت إليه، فإذا سئل خرجت، فإذا بعث رجعت إليه.

فالفرق بين النفس والروح فرق بالصفات لا فرق بالذات، وإنما سمي الدم نفسا لأن خروجه الذي يكون معه الموت يلازم خروج النفس، وإن الحياة لا تتم إلا به، كما لا تتم إلا بالنفس، فلهذا قال:

تسيل على حد الظبات نفوسنا وليست على غير الظبات تسيل[1]

ويقال: فاضت نفسه، وخرجت نفسه، وفارقت نفسه، كما يقال: خرجت روحه وفارقت، ولكن الفيض: الاندفاع وهلة واحدة، ومنه الإفاضة، وهي الاندفاع بكثرة وسرعة، لكن أفاض إذا دفع باختياره وإرادته وفاض إذا اندفع قسرا وقهرا، فالله سبحانه هو الذي يفيضها عند الموت فتفيض هي.

***

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝

= وعجز البيت ذكره أيضًا القاضي الفاضل: عبدالرحيم بن علي بن محمد بن الحسن اللخمي المتوفى ٥٩٦هـ وصدر بيته: **ولا ناسمتني من نواحيه نفحة**

وانظر: التدوين في أخبار قزوين (٣/ ٢٠١) والزهرة لأبي بكر الأصبهاني (١/ ٣٠٥).

(١) هذا البيت من بحر الطويل وذكره ابن منظور في اللسان ونسبه إلى السموأل (٦/ ٢٣٤) بينما ذكره النووي في تهذيب الأسماء (٣/ ٣٤٥) وفيه: «السيوف» بدل «الظبات» والسموأل هو ابن غريض بن عادياء الأزدي شاعر جاهلي حكيم توفي سنة ٦٤ قبل الهجرة ومن أشهر شعره لاميته، وهي من أجود الشعر.
وينسب البيت أيضًا إلى عبد الملك بن عبدالرحيم الحارثي المتوفى سنة ١٩٠هـ وهو شاعر مجود.
ومن العلماء من ينسب لامية السموأل إليه.

وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

[(1)] تأمل كيف وحد سبحانه الآية من قوله: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ ﴾ إلى آخرها [النحل: ١٠] وختمها بأصحاب الفكرة، فأما توحيد الآية فلأن موضع الدلالة واحد، وهو الماء الذي أنزله من السماء، فأخرج به كل ما ذكره من الأرض، وهو على اختلاف أنواعه: لقاحه واحد، وأمه واحدة، فهذا نوع واحد من آياته. وأما تخصيصه ذلك بأهل الفكر، فلأن هذه المخلوقات التي ذكرها من الماء موضع فكر، وهو نظر القلب وتأمله، لا موضع نظر مجرد بالعين، فلا ينتفع الناظر بمجرد رؤية العين، حتى ينتقل منه إلى نظر القلب في حكمة ذلك وبديع صنعه، والاستدلال به على خالقه وبارئه، وذلك هو الفكر بعينه.

وأما قوله تعالى في الآية التي بعدها: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل: ١٢] فجمع الآيات لأنها تضمنت الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم، وهي

(١) ٢١٢ مفتاح جـ١.

آيات متعددة مختلفة في أنفسها وخلقها وكيفياتها، فإن إظلام الجو لغروب الشمس، ومجيء الليل الذي يلبس العالم كالثوب، ويسكنون تحته آية باهرة، ثم ورد جيش الضياء يقدمه بشير الصباح، فينهزم عسكر الظلام، وينتشر الحيوان، وينكشط ذلك اللباس بجملته آية أخرىٰ، ثم في الشمس التي هي آية النهار آية أخرىٰ، وفي القمر الذي هو آية الليل آية أخرىٰ، وفي النجوم آيات أُخر، كما قدمناه. هذا مع ما يتبعها من الآيات المقارنة لها من الرياح واختلافها وسائر ما يحدثه الله بسببها آيات أُخر فالموضع موضع جمع وخص هذه الآيات بأهل العقل؛ لأنها أعظم مما قبلها وأدل وأكبر، والأولىٰ كالباب لهذه، فمن استدل بهذه الآيات وأعطاها حقها من الدلالة، استحق من الوصف ما يستحقه صاحب الفكر وهو العقل، ولأن منزلة العقل بعد منزلة الفكر، فلما دلهم بالآية الأولىٰ علىٰ الفكر نقلهم بالآية الثانية التي هي أعظم منها إلىٰ العقل الذي هو فوق الفكر فتأمله، فأما قوله في الآية الثالثة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٣] فوحد الآية وخصها بأهل التذكر. فأما توحيدها فكتوحيد الأولىٰ سواء، فإن ما ذرأ في الأرض علىٰ اختلافه من الجواهر والنبات والمعادن والحيوان، كله في محل واحد، فهو نوع من أنواع آياته، وإن تعددت أصنافه وأنواعه.

وأما تخصيصه إياها بأهل التذكر، فطريقة القرآن في ذلك أن يجعل آياته للتبصر والتذكر، كما قال تعالىٰ في سورة ق: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝﴾ [ق: ٧، ٨]، فالتبصرة: التعقل، والتذكرة: التذكر، والفكر: باب ذلك ومدخله، فإذا فكر تبصر، وإذا تبصر تذكر، فجاء التذكير في الآية لترتيبه علىٰ العقل المرتب علىٰ الفكر، فقدم الفكر إذ هو الباب والمدخل، ووسط العقل إذ هو ثمرة الفكر ونتيجته، وأخر التذكر إذ هو المطلوب من الفكر والعقل، فتأمل ذلك حق التأمل. فإن قلت: فما الفرق بين التذكر والتفكر؟ فإذا تبين الفرق ظهرت الفائدة. قلت: التفكر والتذكر أصل الهدىٰ والفلاح، وهما قطبا السعادة، ولهذا وسعنا الكلام في التفكر في هذا الوجه، لعظم المنفعة وشدة الحاجة إليه.

قال الحسن: ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر، وبالتفكر على التذكر. ويناطقون القلوب حتى نطقت، فإذا لها أسماع وأبصار. فاعلم أن التفكر طلب القلب ما ليس بحاصلٍ من العلوم من أمر هو حاصل منها هذا حقيقته، فإنه لو لم يكن ثم مراد يكون موردًا للفكر استحال الفكر لأن الفكر، بغير متعلق متفكر فيه محال، وتلك المواد هي الأمور الحاصلة ولو كان المطلوب بها حاصلًا عنده لم يتفكر فيها.

فإذا ظفر به وتحصل له تذكر به وأبصر مواقع الفعل والترك، وما ينبغي إيثاره وما ينبغي اجتنابه، فالتذكر هو مقصود التفكر وثمرته، فإذا تذكر عاد بتذكره على تفكره، فاستخرج منه ما لم يكن حاصلًا عنده، فهو لا يزال يكرر بتفكره على تذكره، وبتذكره على تفكره ما دام عاقلًا، لأن العلم والإرادة لا يقفان على حد؛ بل هو دائمًا سائر بين العلم والإرادة.

وإذا عرفت معنى كون آيات الرب تبارك وتعالى تبصرة وذكرى، يتبصر بها من عمى القلب، ويتذكر بها من غفلته، فإن المضاد للعلم إما عمى القلب وزواله بالتبصر، وإما غفلته وزواله بالتذكر.

والمقصود تنبيه القلب من رقدته بالإشارة إلى شيء من بعض آيات الله.

ولو ذهبنا نتتبع ذلك لنفد الزمان ولم نحط بتفصيل واحدة من آياته على التمام، ولكن ما لا يدرك جملة لا يترك جملة، وأحسن ما أنفقت فيه الأنفاس: التفكر في آيات الله وعجائب صنعه، والانتقال منها إلى تعلق القلب والهمة به دون شيء من مخلوقاته؛ فلذلك عقدنا هذه الكتاب على هذين الأصلين، إذ هما أفضل ما يكتسبه العبد في هذه الدار.

***

﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

[(١)] هذا يدل على أن من دعا الأمة إلى غير سنة رسول الله ﷺ فهو عدوه، حقًا لأنه قطع وصول أجر من اهتدى بسنته إليه، وهذا من أعظم معاداته، نعوذ بالله من الخذلان.

[(٢)] فإن الله سبحانه يعاقب على الأسباب المحرمة وعلى ما تولد منها، كما يثيب على الأسباب المأمور بها وعلى ما تولد منها.

ولذا كان من دعا إلى بدعة وضلالة؛ فعليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه؛ لأن اتباعهم له تولد من فعله[(٣)]؛ ولذلك كان على ابن آدم القاتل لأخيه كفل من ذنب كل قاتل إلى يوم القيامة[(٤)].

وقد قال تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل: ٢٥] وقال تعالى: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ١٣]. فإن قيل: فكيف التوبة من هذا المتولد وليس من فعله، والإنسان إنما يتوب عما يتعلق باختياره؟

قيل: التوبة منه بالندم عليه وعدم إجابة دواعيه وموجباته وحبس النفس عن ذلك، فإن كان المتولد متعلقًا بالغير، فتوبته مع ذلك برفعه عن الغير بحسب الإمكان، ولهذا كان من توبة الداعي إلى البدعة: أن يبين أن ما كان يدعو إليه بدعة وضلالة، وأن الهدى في ضده، كما شرط تعالى في توبة أهل الكتاب الذين كان ذنبهم كتمان ما أنزل

---

(١) ٦٢ مفتاح جـ١.

(٢) ٧١ عدة الصابرين.

(٣) عن جرير بن عبدالله ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «...ومن سن في الإسلام سنةً سيئة فعُمِلَ بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء» أخرجه مسلم (رقم ١٠١٧) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٣١) (١٣/ ٣٠٢) وشرح النووي (١٦/ ٢٢٦).

(٤) عن عبدالله بن مسعود ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه أول من سن القتل» أخرجه البخاري (رقم ٣٣٣٥) ومسلم (رقم ١٦٧٧) وانظر: فتح الباري (١٢/ ١٩٢-١٩٣) وشرح النووي (١١/ ١٦٦).

الله من البينات والهدى، ليضلوا الناس بذلك؛ أن يصلحوا العمل في نفوسهم ويبينوا للناس ما كانوا يكتمونهم إياه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٠].

وهذا كما شرط في توبة المنافقين الذين كان ذنبهم: إفساد قلوب ضعفاء المؤمنين، وتحيزهم، واعتصامهم باليهود والمشركين أعداء الرسول، وإظهارهم الإسلام رياء وسمعة؛ أن يصلحوا بدل إفسادهم، وأن يعتصموا بالله بدل اعتصامهم بالكفار من أهل الكفر والمشركين، وأن يخلصوا دينهم لله بدل إظهارهم له رياء وسمعة فهكذا تفهم شرائط التوبة وحقيقتها والله المستعان.

***

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

[1]ههنا أمر يجب التنبيه عليه، وهو أن الجنة إنما تدخل برحمة الله تعالى، وليس عمل العبد مستقلًّا بدخولها وإن كان سببًا؛ ولهذا أثبت الله تعالى دخولها بالأعمال في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]. ونفى رسول الله ﷺ دخولها بالأعمال بقوله: «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله»[2] ولا تنافي بين الأمرين لوجهين:

أحدهما: ما ذكره سفيان وغيره قال: كانوا يقولون: النجاة من النار بعفو الله، ودخول الجنة برحمته، و اقتسام المنازل والدرجات بالأعمال.

والثاني: إن الباء التي نفت الدخول هي باء المعاوضة، التي يكون فيها أحد

---

(١) ٦٧ حادي الأرواح.

(٢) أخرجه بنحوه مسلم (رقم ٢٨١٦) وأحمد (٢/ ٢٥٦) وانظر: فتح الباري (١/ ٧٨) (١١/ ٢٩٦) وشرح النووي (١٧/ ١٥٩).

العوضين مقابلًا للآخرة، والباء التي أثبتت الدخول هي باء السببية، التي تقتضي سببية ما دخلت عليه لغيره، وإن لم يكن مستقلًّا بحصوله.

وقد جمع النبي ﷺ بين الأمرين بقوله: «**سدِّدوا وقاربوا وأبشروا، واعلموا أن أحدًا منكم لن ينجو بعمله**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته**»[(١)]. ومن عرف الله تعالىٰ وشهد مشهد حقه عليه، ومشهد تقصيره وذنوبه، وأبصر هذين المشهدين بقلبه؛ عرف ذلك وجزم به، والله ﷻ المستعان.

[(٢)]حرم الله سبحانه الجنة علىٰ من في قلبه نجاسة وخبث، ولا يدخلها إلا بعد طيبه وطهره، فإنها دار الطيبين، ولهذا يقال لهم: ﴿ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣] أي: ادخلوها بسبب طيبكم، والبشارة عند الموت لهؤلاء دون غيرهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢] فالجنة لا يدخلها خبيث، ولا من فيه شيء من الخبث، فمن تطهر في الدنيا ولقي الله طاهرًا من نجاساته دخلها بغير معوق، ومن لم يتطهر في الدنيا فإن كانت نجاسته عينية، كالكافر، لم يدخلها بحال. وإن كانت نجاسته كسبية عارضة، دخلها بعد ما يتطهر في النار من تلك النجاسة، ثم يخرج منها، حتىٰ إن أهل الإيمان إذا جازوا الصراط حبسوا علىٰ قنطرة بين الجنة والنار، فيهَذَّبون وينقَّون من بقايا بقيت عليهم، قصرت بهم عن الجنة، ولم توجب لهم دخول النار، حتىٰ إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٦٧٣) ومسلم (رقم ٢٨١٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٩٧) وعمدة القاري (١/ ٢٣٧) (٢١/ ٢٢٦-٢٢٧).

(٢) ٥٦ إغاثة جـ١.

(٣) أخرجه الصنعاني في تفسيره (٣/ ٢٢١-٢٢٢) والطبراني في تفسيره (٢٦/ ٤٤) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢١٦).

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين
=

والله سبحانه بحكمته جعل الدخول عليه موقوفا على الطهارة، فلا يدخل المصلي عليه حتى يتطهر. وكذلك جعل الدخول إلى جنته موقوفا على الطيب والطهارة، فلا يدخلها إلا طيب طاهر. فهما طهارتان: طهارة البدن، وطهارة القلب. ولهذا شرع للمتوضئ أن يقول عقيب وضوئه: «أَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلا الله، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحمدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ»[1]. فطهارة القلب بالتوبة، وطهارة البدن بالماء. فلما اجتمع له الطهران صلح للدخول على الله تعالى، والوقوف بين يديه ومناجاته.

وسألت شيخ الإسلام عن معنى دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ طَهِّرْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالماءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ»[2]. كيف يطهر الخطايا بذلك؟ وما فائدة التخصيص بذلك؟ وقوله في لفظ آخر «والماء البارد»[3] والحار أبلغ في الإنقاء؟.

فقال: الخطايا توجب للقلب حرارة ونجاسة وضعفا، فيرتخي القلب وتضطرم فيه نار الشهوة وتنجسه، فإن الخطايا والذنوب له بمنزلة الحطب الذي يمد النار ويوقدها، ولهذا كلما كثرت الخطايا اشتدت نار القلب وضعفه، والماء يغسل الخبث ويطفئ النار، فإن كان باردا أورث الجسم صلابة وقوة، فإن كان معه ثلج وبرد كان أقوى في التبريد وصلابة الجسم وشدته، فكان أذهب لأثر الخطايا. هذا معنى كلامه، وهو محتاج إلى مزيد بيان وشرح.

= الجنة والنار، فيتقاصُون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا نُقُّوا وهُذِّبوا، أذن لهم بدخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم بمسكنه في الجنة أدل بمنزله كان في الدنيا» أخرجه البخاري (رقم ٢٤٤٠) وانظر: عمدة القاري (١٢/ ٢٨٥).

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٥٥) وابن أبي شيبة (١/ ١٣ رقم ٢٠) وعبدالرزاق (١/ ١٨٦ رقم ٧٣١) والطبراني في الأوسط (٥/ ١٤٠ رقم ٤٨٩٥) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٣٢) وانظر: شرح النووي (٣/ ١٢١).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٤) ومسلم (رقم ٥٩٨) وانظر: فتح الباري (٢/ ٢٣٠).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٤٧٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ١٣٢) وتحفة الأحوذي (٢/ ٢٨٧).

فاعلم أن هاهنا أربعة أمور: أمران حسيان، وأمران معنويان. فالنجاسة التي تزول بالماء هي ومزيلها حسيان، وأثر الخطايا التي تزول بالتوبة والاستغفار هي ومزيلها معنويان، وصلاح القلب وحياته ونعيمه لا يتم إلا بهذا وهذا. فذكر النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم من كل شطر قسمًا، نبَّه به على القسم الآخر. فتضمن كلامه الأقسام الأربعة في غاية الاختصار، وحسن البيان. كما في حديث الدعاء بعد الوضوء: «اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ». فإنه يتضمن ذكر الأقسام الأربعة. ومن كمال بيانه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وتحقيقه لما يخبر به ويأمر به تمثيله الأمر المطلوب المعنوي بالأمر المحسوس. وهذا كثير في كلامه، كقوله في حديث علي بن أبي طالب: «سَلِ اللهَ الْهُدَى وَالسَّدَادَ، وَاذْكُرْ[1] بِالْهُدَى هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ، وَبِالسَّدَادِ سَدَادَ السَّهْمِ»[2]. إذ هذا من أبلغ التعليم والنصح، حيث أمره أن يذكر إذا سأل الله الهدى إلى طريق رضاه وجنته: كونه مسافرًا، وقد ضل عن الطريق، ولا يدرى أين يتوجه، فطلع له رجل خبير بالطريق عالم بها، فسأله أن يدله على الطريق، فهكذا شأن طريق الآخرة تمثيلا لها بالطريق المحسوس للمسافر. وحاجة المسافر إلى الله سبحانه: إلى أن يهديه تلك الطريق، أعظم من حاجة المسافر إلى بلد إلى من يدله على الطريق الموصل إليها. وكذلك السداد، وهو إصابة القصد قولا وعملا، فمثله مثل رامي السهم، إذا وقع سهمه في نفس الشيء الذي رماه، فقد سدد سهمه وأصاب ولم يقع باطلا، فهكذا المصيب للحق في قوله وعمله بمنزلة المصيب في رميه. وكثيرا ما يقرن في القرآن هذا وهذا. فمنه قوله تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة: ١٩٧]. أمر الحاج بأن يتزودوا لسفرهم، ولا يسافروا بغير زاد، ثم نبههم على زاد سفر الآخرة، وهو التقوى. فكما أنه لا يصل المسافر إلى مقصده إلا بزاد يبلغه إياه، فكذلك المسافر إلى الله تعالى والدار الآخرة، لا يصل إلا بزاد من

(١) في المطبوعة «وافكر»، والصواب ما ذكرناه، كما هو في صحيح مسلم رقم (٢٧٢٥).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٧٢٥) وانظر: شرح النووي (١٧/ ٤٣).

التقوى، فجمع بين الزادين، ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ [الأعراف: ٢٦]. فجمع بين الزينتين: زينة البدن باللباس، وزينة القلب بالتقوى، زينة الظاهر والباطن، وكمال الظاهر والباطن، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]. فنفى عنه الضلال، الذي هو عذاب القلب والروح، والشقاء الذي هو عذاب البدن والروح أيضًا، فهو منَّعم القلب والبدن بالهدى والفلاح، ومنه قول امرأة العزيز عن يوسف عليه السلام لما أرته النسوة اللائمات لها في حبه: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ﴾ [يوسف: ٣٢] فأرتهن جماله الظاهر. ثم قالت: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ﴾ [يوسف: ٣٢]. فأخبرت عن جماله الباطن بعفته، فأخبرتهن بجمال باطنه، وأرتهن جمال ظاهره.

فنبه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بقوله: «**اللهُمَّ طَهِّرْنِي مِنْ خطَايَايَ بِالمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالبَرَدِ**». على شدة حاجة البدن والقلب إلى ما يطهرهما ويبردهما ويقويهما، وتضمن دعاؤه سؤال هذا وهذا، والله تعالى أعلم.

وقريب من هذا: أنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: كان إِذَا خَرَجَ مِنَ الخلاءِ قَالَ: «غُفْرَانَكَ»[1]. وفي هذا من السر والله أعلم، أن النجو يثقل البدن ويؤذيه باحتباسه، والذنوب تثقل القلب وتؤذيه باحتباسها فيه، فهما مؤذيان مضران بالبدن والقلب، فحمد الله عند خروجه على خلاصه من هذا المؤذي لبدنه، وخفة البدن وراحته، وسأل أن يخلصه من المؤذي الآخر ويريح قلبه منه ويخففه. وأسرار كلماته وأدعيته صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فوق ما يخطر بالبال. اهـ.

***

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٢٦١ رقم ٥٦٣) وابن الجارود في المنتقى (رقم ٤٢) وابن حبان (٤/ ٢٩١ رقم ١٤٤٤) وابن خزيمة (١/ ٤٨ رقم ٩٠) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٤ رقم ٩٩٠٧) وأبو داود (رقم ٣٠) وابن ماجه (رقم ٣٠٠) والبيهقي في الكبرى (١/ ٩٧ رقم ٤٦٦) وفي الصغرى (رقم ٧٤) والترمذي (رقم ٧) وحسنه وصححه الحاكم وانظر: فتح الباري (٨/ ٧٣٤).

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

(١)فذكر حكمتين بالغتين في بعثه الأموات بعد ما أماتهم:

إحداهما: أن يبين للناس الذي اختلفوا فيه، وهذا بيان عياني تشترك فيه الخلائق كلهم، والذي حصل في الدنيا بيان إيماني اختص به بعضهم.

الحكمة الثانية: علم المبطل بأنه كان كاذبًا، وأنه كان على باطل، وأن نسبة أهل الحق إلى الباطل من افترائه وكذبه وبهتانه، فيخزيه ذلك أعظم خزي(٢).

***

﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

(٣)قال أبو محمد بن حزم: ومما يبين أن أخبار رسول الله ﷺ تفيد العلم أن الله تعالى قال: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤] فصح أنه ﷺ مأمور ببيان القرآن للناس، وفي القرآن مجمل كثير: كالصلاة والزكاة والحج وغير ذلك مما لا يعلم ما ألزمنا الله تعالى فيه بلفظه، لكن بتبيان رسول الله ﷺ فإذا كان بيانه لذلك المجمل غير محفوظ ولا مضمون سلامته مما ليس منه؛ فقد بطل الانتفاع بنص القرآن، وبطلت أكثر الشرائع المفترضة علينا فيه، فإن لم ندر صحيح مراد الله تعالى منها مما أخطأ فيه المخطئ أو تعمد فيه الكذب الكاذب ـ ومعاذ الله من هذا ـ قال: وأيضًا فنقول لمن قال: إن خبر الواحد العدل عن مثله مبلغًا إلى النبي ﷺ لا

(١) ١٦١ بدائع جـ٤.

(٢) أصل البحث موصول في سورة البقرة رقم الآية: ٤٠، وكذلك في المائدة على قول الله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨].

(٣) ٣٨٠ مختصر الصواعق جـ٢.

يوجب العلم، وأنه يجوز فيه تعمد الكذب والوهم، وأنه غير مضمون الحفظ: أخبرونا هل يمكن أن يكون عندكم شريعة فرض أو تحريم أتى بها رسول الله ﷺ ومات وهي باقية لازمة للمسلمين غير منسوخة فجهلت؛ حتى لا يعلمها على اليقين أحد من أهل الإسلام في العالم أبدًا.

وهل يمكن عندكم أن يكون حكم موضوع بالكذب أو بخطأ بالوهم؛ قد جاز ومضى واختلط بأحكام الشريعة اختلاطًا لا يجوز أن يميزه أحد من أهل الإسلام في العالم أبدًا أم لا يمكن عندكم شيء من هذين الوجهين؟ فإن قالوا: لا يمكنان أبدًا بل قد أمنا ذلك؛ صاروا إلى قولنا وقطعوا أن كل خبر رواه الثقة عن الثقة مسندًا إلى رسول الله ﷺ في الديانة فإنه حق قد قاله رسول الله ﷺ كما هو وأنه يوجب العلم ويقطع بصحته.

ولا يجوز أن يختلط به خبر موضوع أو موهوم فيه لم يقله قط رسول الله ﷺ اختلاطًا، لا يتميز بالباطل فيه من الحق أبدًا.

وإن قالوا: بل كل ذلك ممكن كانوا قد حكموا بأن دين الإسلام قد فسد وبطل أكثره، واختلط ما أمر الله تعالى به مع ما لم يأمر به اختلاطًا لا يميزه أحد أبدًا، وأنهم لا يدرون أبدًا ما أمرهم الله به مما لم يأمرهم به، ولا ما وضع الكاذبون والمستخفون بما جاء به رسول الله ﷺ إلا بالظن الذي هو أكذب الحديث، والذي لا يغني من الحق شيئًا، وهذا انسلاخ من الإسلام وهدم للدين وتشكيك في الشرائع[(١)].

...[(٢)]فإن قيل: فما وجه خوف الملائكة وهم معصومون من الذنوب التي هي أسباب المخافة، وشدة خوف النبي ﷺ مع علمه بأن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأنه أقرب الخلق إلى الله؛ قيل: عن هذا أربعة أجوبة:

الجواب الأول: إن هذا الخوف على حسب القرب من الله والمنزلة عنده. وكلما كان العبد أقرب إلى الله كان خوفه منه أشد، لأنه يطالب بما لا يطالب به غيره، ويجب

(١) انظر: الإحكام لابن حزم الظاهري رحمه الله (١/ ١١٥-١١٦).

(٢) ٢٨٥ طريق الهجرتين.

عليه من رعاية تلك المنزلة وحقوقها ما لا يجب على غيره.

ونظير هذا في المشاهد أن الماثل بين يدي أحد الملوك المشاهد له أشد خوفًا منه من البعيد عنه، بحسب قربه منه ومنزلته عنده ومعرفته به وبحقوقه، وأنه يطالب من حقوق الخدمة وأدائها بما لا يطالب به غيره فهو أحق بالخوف من البعيد. ومن تصور هذا حق تصوره فهم قوله ﷺ: «إني أعلمكم بالله، وأشدكم له خشية»[(١)]...

***

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾.

...[(٢)]أما قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] هو حجة عليه كما تقدم ولا يصح تفسير الخوف هنا بالهيبة، لوجهين: أحدهما: أنه خروج عن حقيقة اللفظ ووضعه الأصلي بلا موجب، الثاني: أن هذا وصف للملائكة، وقد وصفهم سبحانه بخوفه وخشيته، فالخوف في هذه الآية والخشية في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨] فوصفهم بالخشية والإشفاق، ووصفهم بخوف العذاب في قوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وهم خواص خلقه، فإياك ورعونات النفس وحماقاتها وجهالاتها، ولا تكن ممن لا يقدر الله حق قدره، وقد قال النبي ﷺ: «إن الله لو عذب أهل سماواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم»[(٣)] فإذا علم المقرب العارف أن الله لو عذبه لم يظلمه، فمن أحق بالخوف منه؟ قوله: وقال في حق العوام: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧] هذا من

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (رقم ٢٠) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣١٣).

(٢) ٣٤٤ طريق الهجرتين.

(٣) أخرجه ابن حبان (٢/ ٥٠٥-٥٠٦ رقم ٧٢٧) وفي الموارد (رقم ١٨١٧) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٠٤ رقم ٢٠٦٦٣) وعبد بن حميد (رقم ٢٤٧) وأبو داود (رقم ٤٦٩٩) وابن ماجه (رقم ٧٧) الطبراني في مسند الشاميين (٣/ ١٤٤ رقم ١٩٦٢) وانظر: فيض القدير (٥/ ٣١٨).

الشطحات القبيحة الباطلة، فإن هذا صفة خواص عباده وعارفيهم، وهم الذين قال فيهم: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ [النور: ٣٧-٣٨] فهؤلاء خواص الخلق، وهم أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان، أفلا يستحي من جعل هذا الوصف للعوام؟ ولا ريب أن هذا مصدره: إما جهل مفرط، وإما تقليد لقائل لا يدري لازم قوله، هذا إن أحسن الظن بقائله، وإن كان مصدره غير ذلك فأدهى وأمر، ولولا أن هذه الكلمات ونحوها مهاو ومعاطب في الطريق لكان الإعراض عنها إلى ما هو أهم منها أولى. والله المستعان.

[(١)]وقد تقدم ذكره مجملًا فنذكره ههنا مفصلًا: رد الجهمية النصوص المتنوعة المحكمة على علو الله على خلقه، وكونه فوق عباده، من ثمانية عشر نوعًا:

أحدها: التصريح بالفوقية مقرونة بأداة (مِنْ) المعينة لفوقية الذات نحو: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل: ٥٠].

الثاني: ذكرها مجردة عن الأداة كقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٨].

الثالث: التصريح بالعروج إليه نحو: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج: ٤]. وقول النبي ﷺ: «فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم»[(٢)].

الرابع: التصريح بالصعود إليه كقوله: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ [فاطر: ١٠].

الخامس: التصريح برفعه بعض المخلوقات إليه كقوله: ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء: ١٥٨]، وقوله: ﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ [آل عمران: ٥٥].

السادس: التصريح بالعلو المطلق الدال على جميع مراتب العلو: ذاتا وقدرا وشرفا

---

(١) ٢٨١ أعلام جـ٢.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٥٥، ٣٢٢٣) ومسلم (رقم ٦٣٢) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٤) وشرح النووي (٢/٨) (٥/ ١٢، ١٣٣) (٦/ ١٧٤).

كقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وهو ﴿ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [سبأ: ٢٣] ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى: ٥١].

السابع: التصريح بتنزيل الكتاب منه، كقوله: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [الزمر: ١] ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢] ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ ﴾ [النحل: ١٠٢].

وهذا يدل على شيئين: على أن القرآن ظهر منه لا من غيره، وأنه الذي تكلم به لا غيره. الثاني: على علوه على خلقه، وأن كلامه نزل به الروح الأمين من عنده من أعلى مكان إلى رسوله.

الثامن: التصريح باختصاص بعض المخلوقات بأنها عنده وأن بعضها أقرب إليه من بعض كقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] وقوله: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٩] ففرق بين من له عموما ومن عنده من مماليكه وعبيده خصوصًا، وقول النبي ﷺ في الكتاب الذي كتبه الرب تعالى على نفسه: «**إنه عنده على العرش**»[(١)].

التاسع: التصريح بأنه سبحانه في السماء، وهذا عند أهل السنة على أحد وجهين: إما أن تكون في بمعنى على، وإما أن يراد بالسماء العلو، لا يختلفون في ذلك، ولا يجوز حمل النص على غيره.

العاشر: التصريح بالاستواء مقروناً بأداة على مختصًّا بالعرش، الذي هو أعلى المخلوقات مصاحباً في الأكثر لأداة «ثم» الدالة على الترتيب والمهلة، وهو بهذا السياق صريح في معناه، الذي لا يفهم المخاطبون غيره من العلو والارتفاع، ولا يحتمل غيره البتة.

---

(١) فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لما خلق الله الخلق كتب في كتابه، وهو يكتب على نفسه، وهو وَضْعٌ عنده على العرش: إن رحمتي تغلب غضبي» أخرجه البخاري (رقم ٧٤٠٤) ومسلم (رقم ٢٧٥١) وانظر: عمدة القاري (٢٥/ ١٠٠).

الحادي عشر: التصريح برفع الأيدي إلىٰ الله سبحانه، كقوله ﷺ: «**إن الله يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً**»(١).

الثاني عشر: التصريح بنزوله كل ليلة إلىٰ السماء الدنيا، والنزول المعقول عند جميع الأمم إنما يكون من علو إلىٰ أسفل.

الثالث عشر: الإشارة إليه حسًّا إلىٰ العلو، كما أشار إليه مَنْ هو أعلم به، وما يجب له، ويمتنع عليه من أفراخ الجهمية والمعتزلة والفلاسفة في أعظم مجمع علىٰ وجه الأرض، يرفع أصبعه إلىٰ السماء، ويقول: اللهم اشهد. ليشهد الجميع أن الرب الذي أرسله ودعا إليه واستشهده هو الذي فوق سماواته علىٰ عرشه.

الرابع عشر: التصريح بلفظ الأين الذي هو عند الجهمية بمنزلة متىٰ في الاستحالة، ولا فرق بين اللفظين عندهم البتة، فالقائل: «أين الله» و«متىٰ كان الله» عندهم سواء كقول أعلم الخلق به، وأنصحهم لأمته، وأعظمهم بيانا عن المعنىٰ الصحيح بلفظ لا يوهم باطلا بوجه «أين الله» في غير موضع.

الخامس عشر: شهادته التي هي أصدق شهادة عند الله وملائكته وجميع المؤمنين، لمن قال: «إن ربه في السماء» بالإيمان، وشهد عليه أفراخ جهم بالكفر.

وصرَّح الشافعي بأن هذا الذي وصفته من أن ربها في السماء إيمان. فقال في كتابه في باب عتق الرقبة المؤمنة، وذكر حديث الأمة السوداء التي سودت وجوه الجهمية وبيضت وجوه المحمدية، فلما وصفت الإيمان قال: «**أعتقها فإنها مؤمنة**»(٢). وهي إنما وصفت كون ربها في السماء، وأن محمدًا عبده ورسوله، فقرنت بينهما في الذكر،

---

(١) أخرجه ابن حبان (٣/ ١٦٠ رقم ٨٧٦) وأبو داود (رقم ١٤٨٨) والترمذي (رقم ٣٥٥٦) والبيهقي في الكبرىٰ (٢/ ٢١١ رقم ٢٩٦٥) والطبراني في الكبير (٦/ ٢٥٦ رقم ٦١٤٨) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٦٥ رقم ١١١١) وحسنه الترمذي، وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١١/ ١٤٣): وسنده جيدٌ.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٥٣٧) وانظر: عمدة القاري (٢٠/ ٢٨٤).

فجعل الصادق المصدوق مجموعهما هو الإيمان.

السادس عشر: إخباره سبحانه عن فرعون أنه رام الصعود إلى السماء، ليطلع إلى إله موسى فيكذبه فيما أخبر به من أنه سبحانه فوق السموات، فقال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ۝ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧] فكذب فرعون موسى في إخباره إياه بأن ربه فوق السماء، وعند الجهمية لا فرق بين الإخبار بذلك وبين الإخبار بأنه يأكل ويشرب، وعلى زعمهم يكون فرعون قد نزه الرب عما لا يليق به، وكذب موسى في إخباره بذلك، إذ من قال عندهم: إن ربه فوق السموات. فهو كاذب، فهم في هذا التكذيب موافقون لفرعون، مخالفون لموسى ولجميع الأنبياء، ولذلك سماهم أئمة السنة «فرعونية».

قالوا: وهم شر من الجهمية، فإن الجهمية يقولون: إن الله في كل مكان بذاته، وهؤلاء عطلوه بالكلية وأوقعوا عليه الوصف المطابق للعدم المحض، فأي طائفة من طوائف بني آدم أثبتت الصانع على أي وجه كان قولهم خيرًا من قولهم.

السابع عشر: إخباره ﷺ أنه تردد بين موسى وبين الله، ويقول له موسى: «ارجع إلى ربك فسله التخفيف»[1]. فيرجع إليه ثم ينزل إلى موسى فيأمره بالرجوع إليه سبحانه، فيصعد إليه سبحانه ثم ينزل من عنده إلى موسى عدة مرات.

الثامن عشر: إخباره تعالى عن نفسه وإخبار رسوله عنه أن المؤمنين يرونه عيانا جهرة كرؤية الشمس في الظهيرة والقمر ليلة البدر.

والذي تفهمه الأمم على اختلاف لغاتها وأوهامها من هذه الرؤية رؤية المقابلة والمواجهة، التي تكون بين الرائي والمرئي، فيها مسافة محدودة غير مفرطة في البعد، فتمتنع الرؤية، ولا في القرب فلا تمكن الرؤية، لا تعقل الأمم غير هذا، فإما أن يروه سبحانه من تحتهم تعالى الله، أو من خلفهم، أو من أمامهم، أو عن أيمانهم، أو عن

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٩) ومسلم (رقم ١٦٣) وانظر: فتح الباري (١/ ٤٦٢) وشرح النووي (٢/ ٢٢٢).

شمائلهم، أو من فوقهم، ولابد من قسم من هذه الأقسام: إن كانت الرؤية حقًّا. وكلها باطل سوىٰ رؤيتهم له من فوقهم، كما في حديث جابر الذي في المسند وغيره: «بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور، فرفعوا رءوسهم، فإذا الجبار قد أشرف عليهم من فوقهم وقال: يا أهل الجنة سلام عليكم» ثم قرأ قوله: ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾[1] [يس: ٥٨] ثم يتوارىٰ عنهم، وتبقىٰ رحمته وبركته عليهم في ديارهم، ولا يتم إنكار الفوقية إلا بإنكار الرؤية، ولهذا طرد الجهمية أصلهم، وصرحوا بذلك، وركبوا النفيين معًا، وصدَّق أهل السنة بالأمرين معًا، وأقروا بهما، وصار من أثبت الرؤية ونفىٰ علو الرب علىٰ خلقه واستواءه علىٰ عرشه: مذبذبًا بين ذلك، لا إلىٰ هؤلاء ولا إلىٰ هؤلاء.

فهذه أنواع من الأدلة السمعية المحكمة إذا بسطت أفرادها كانت ألف دليل علىٰ علو الرب علىٰ خلقه، واستوائه علىٰ عرشه. فترك الجهمية ذلك كله، وردوه بالمتشابه من قوله: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد: ٤].

ورده زعيمهم المتأخر بقوله: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١] وبقوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورىٰ: ١١].

ثم ردوا تلك الأنواع كلها متشابهة، فسلطوا المتشابه علىٰ المحكم وردوه به، ثم ردوا المحكم متشابها، فتارة يحتجون به علىٰ الباطل، وتارة يدفعون به الحق.

ومن له أدنىٰ بصيرة يعلم أنه لا شيء في النصوص أظهر ولا أبين دلالة من مضمون هذه النصوص، فإذا كانت متشابهة فالشريعة كلها متشابهة، وليس فيها شيء محكم البتة، ولازم هذا القول لزومًا لا محيد عنه: أن ترك الناس بدونها خير لهم من إنزالها إليهم، فإنها أوهمتهم وأفهمتهم غير المراد، وأوقعتهم في اعتقاد الباطل، ولم يتبين لهم ما هو الحق في نفسه، بل أحيلوا فيه علىٰ ما يستخرجونه بعقولهم وأفكارهم ومقاييسهم.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (رقم ١٨٤) والدارقطني في رؤية الله (ص ٧٢) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٠٨) وقال في مصباح الزجاجة (١/ ٢٦)ك هذا إسنادٌ ضعيفٌ لضعف الفضل بن عيسىٰ بن إبان الرقاشي، وانظر: عمدة القاري (٥/ ٤٣).

فنسأل الله مثبت القلوب تبارك وتعالى أن يثبت قلوبنا على دينه، وما بعث به رسوله من الهدى ودين الحق، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، إنه قريب مجيب.

***

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾.

(١) الإيمان والطاعة من أجل النعم، بل هما أجل النعم على الإطلاق، فهما منه سبحانه تعليمًا وإرشادًا وإلهامًا وتوفيقًا ومشيئة وخلقًا.

ولا يصح أن يقال: إنها أمرًا وبيانًا فقط، فإن ذلك حاصل بالنسبة إلى الكفار والعصاة، فتكون نعمته على أكفر الخلق كنعمته على أهل الإيمان والطاعة والبر منهم، إذ نعمة البيان والإرشاد مشتركة وهذا قول القدرية، وقد صرح به كثير منهم ولم يجعلوا لله على العبد نعمة في مشيئته وخلقه فعله وتوفيقه إياه حين فعله، وهذا من قولهم الذي باينوا به جميع الرسل والكتب، وطردوا ذلك حين لم يجعلوا لله على العبد منة في إعطائه الجزاء، بل قالوا: ذلك محض حقه الذي لا منة لله عليه فيه.

واحتجوا بقوله: ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [فصلت: ٨] قالوا: أي غير ممنون به عليهم، إذ هو جزاء أعمالهم وأجورها. قالوا: والمنة تكدر النعمة والعطية، ولم يدع هؤلاء للجهل بالله موضعًا، وقاسوا منته على منة المخلوق، فإنهم مشبهة في الأفعال معطلة في الصفات. وليست المنة في الحقيقة إلا لله، فهو المان بفضله، وأهل سمواته وأهل أرضه في محض منته عليهم، قال تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧] وقال تعالى لكليمه موسى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴾ [طه: ٣٧] وقال: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴾ [الصافات: ١١٤] وقال: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص: ٥]، ولما قال النبي ﷺ للأنصار:

---

(١) ٥٧ شفاء العليل.

«ألم أجدكم ضلالًا فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي»[(١)] قالوا: الله ورسوله أمن.

وقال الرسل لقومهم: ﴿ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [إبراهيم: ١١]، فمنه ﷺ محض إحسانه وفضله ورحمته، وما طاب عيش أهل الجنة فيها إلا بمنته عليهم، ولهذا قال أهلها ـ وقد أقبل بعضهم على بعض يتساءلون ـ: ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الطور: ٢٦، ٢٧] فأجزوا لمعرفتهم بربهم وحقه عليهم: أن نجاهم من عذاب السموم بمحض منته عليهم.

وقد قال أعلم الخلق بالله وأحبهم إليه وأقربهم منه وأطوعهم له: «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[(٢)]. وقال: «إن الله لو عذب أهل سمواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم، لهم ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيرًا من أعمالهم»[(٣)].

والأول في الصحيح والثاني في المسند والسنن وصححه الحاكم وغيره، فأخبر سيد العالمين والعاملين أنه لا يدخل الجنة بعمله.

وقالت القدرية: إنهم يدخلونها بأعمالهم، لئلا يتكدر نعيمهم عليهم بمشيئة الله بل يكون ذلك النعيم عوضًا.

وما رمى السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم القدرية عن قوس واحدة إلا لعظم بدعهم ومنافاتها، لما بعث الله به أنبياءه ورسله، فلو أتى العباد بكل طاعة، وكانت أنفاسهم كلها طاعات لله لكانوا في محض منته وفضله، وكانت له المنة عليهم، وكلما عظمت طاعة العبد كانت منة الله عليه أعظم، فهو المان بفضله، فمن أنكر منته فقد أنكر إحسانه. وأما قوله تعالى: ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [فصلت: ٨] فلم

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٣٣٠) ومسلم (رقم ١٠٦١) وانظر: عمدة القاري (١٧/ ٣٠٧).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

يختلف أهل العلم بالله ورسوله وكتابه أن معناه: غير مقطوع، ومنه (ريب المنون) وهو الموت، لأنه يقطع العمر.

[(١)]قاعدة جليلة: قد فكرت في هذا الأمر، فإذا أصله أن تعلم أن النعم كلها من الله وحده، نعم الطاعات ونعم اللذات، فترغب إليه أن يلهمك ذكرها، ويوزعك شكرها. قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل: ٥٣]. وقال: ﴿ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٩]. وقال: ﴿ وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [النحل: ١١٤].

وكما أن تلك النعم منه ومن مجرد فضله، فذكرها وشكرها لا ينال إلا بتوفيقه. والذنوب من خذلانه وتخليه عن عبده، وتخليته بينه وبين نفسه، وإن لم يكشف ذلك عن عبده فلا سبيل له إلى كشفه عن نفسه، فإذا هو مضطر إلى التضرع والابتهال إليه أن يدفع عنه أسبابها حتى لا تصدر منه.

وإذا وقعت بحكم المقادير ومقتضى البشرية فهو مضطر إلى التضرع والدعاء أن يدفع عنه موجباتها وعقوباتها، فلا ينفك العبد عن ضرورته إلى هذه الأصول الثلاثة، ولا فلاح له إلا بها: الشكر، وطلب العافية، والتوبة النصوح.

ثم فكرت فإذا مدار ذلك على الرغبة والرهبة، وليسا بيد العبد، بل بيد مقلب القلوب ومصرفها كيف يشاء، فإن وفق عبده أقبل بقلبه إليه، وملأه رغبة ورهبة، وإن خذله تركه ونفسه، ولم يأخذ بقلبه إليه ولم يسأله ذلك، وما شاء الله كان وما لم يشاء لم يكن.

ثم فكرت، هل للتوفيق والخذلان سبب أم هما بمجرد المشيئة لا سبب لهما؟ فإذا سببهما أهلية المحل وعدمها، فهو سبحانه خالق المحال متفاوتة في الاستعداد والقبول أعظم تفاوت، فالجمادات لا تقبل ما يقبله الحيوان، وكذلك النوعان: كل منهما متفاوت في القبول، فالحيوان الناطق يقبل ما لا يقبله البهيم، وهو متفاوت في

---

(١) ٢٠٣ فوائد.

القبول أعظم تفاوت. وكذلك الحيوان البهيم متفاوت في القبول لكن ليس بين النوع الواحد من التفاوت كما بين النوع الإنساني.

فإذا كان المحل(١) قابلًا للنعمة بحيث يعرفها ويعرف قدرها وخطرها، ويشكر المنعم بها، ويثني عليه بها، ويعظمه عليها، ويعلم أنها من محض الجود وعين المنة، من غير أن يكون هو مستحقا لها، ولا هي له ولا به، وإنما هي لله وحده وبه وحده، فوحده بنعمته إخلاصا، وصرفها في محبته شكرا، وشهدها من محض جوده منة، وعرف قصوره وتقصيره في شكرها عجزًا وضعفًا وتفريطًا، وعلم أنه إن أدامها عليه فذلك محض صدقته وفضله وإحسانه، وإن سلبه إياها فهو أهل لذلك مستحق له.وكلما زاده من نعمه ازداد ذلًّا له وانكسارا وخضوعا بين يديه وقياما بشكره وخشيته له سبحانه أن يسلبه إياها لعدم توفيته شكرها، كما سلب نعمته عمن لم يعرفها، ولم يرعها حق رعايتها، فإن لم يشكر نعمته وقابلها بضد ما يليق أن يقابل به سلبه إياها ولابد، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٣]، وهم الذين عرفوا قدر النعمة وقبلوها وأحبوها، وأثنوا على المنعم بها، وأحبوه وقاموا بشكره، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام ١٢٤].

وسبب الخذلان عدم صلاحية المحل وأهليته وقبوله للنعمة، بحيث لو وافته النعم لقال: هذا لي، وإنما أوتيته لأني أهله ومستحقه، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص: ٧٨]. أي على علم علمه الله عندي، أستحق به ذلك وأستوجبه وأستأهله.

قال الفراء: أي: على فضل عندي: إني كنت أهله ومستحقًّا له إذ أعطيته.

---

(١) المحل القابل للنعمة هو الموفق (ح).

وقال مقاتل: يقول على خير علمه الله عندي.

وذكر عبد الله بن الحارث بن نوفل: سليمان بن داود فيما أوتي من الملك، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ [النمل: ٤٠]، ولم يقل هذا من كرامتي[1].

ثم ذكر قارون وقوله: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص: ٧٨]، يعني أن سليمان رأى ما أوتيه من فضل الله عليه ومنته، وأنه ابتلى به شكره. وقارون رأى ذلك من نفسه واستحقاقه.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى ﴾ [فصلت: ٥٠]، أي أنا أهله وحقيق به، فاختصاصي به كاختصاص المالك بملكه، والمؤمن يرى ذلك ملكا لربه، وفضلا منه منّ به على عبده من غير استحقاق منه، بل صدقة تصدق بها على عبده، وله أن لا يتصدق بها، فلو منعه إياها لم يكن قد منعه شيئًا هو له يستحقه عليه، فإذا لم يشهد ذلك رأي فيه أهلا ومستحقًا، فأعجبته نفسه، وطغت بالنعمة، وعلت بها، واستطالت على غيرها، فكان حظها منها الفرح والفخر، كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [هود: ٩-١٠].

فذمه باليأس والكفر عند الامتحان بالبلاء، وبالفرح والفخر عند الابتلاء بالنعماء، واستبدل بحمد الله وشكره والثناء عليه إذ كشف عنه البلاء ـ قوله: ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ـ ولو أنه قال: أذهب الله السيئات عني برحمته ومنه. لما ذُمّ على ذلك، بل كان محمودا عليه، ولكنه غفل عن المنعم بكشفها، ونسب الذهاب إليها، وفرح وافتخر.فإذا علم الله سبحانه هذا من قلب عبد فذلك من أعظم أسباب خذلانه

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٦١/ ٩٦) وانظر: تخريج الأحاديث والآثار للزيلعي (٣/ ٣٤-٣٥).

وتخليه عنه، فإن محله لا تناسبه النعمة المطلقة التامة، كما قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٢-٢٣]، فأخبر سبحانه أن محلهم غير قابل لنعمته ومع عدم القبول، ففيهم مانع آخر يمنع وصولها إليهم، وهو توليهم وإعراضهم إذا عرفوها وتحققوها.

ومما ينبغي أن يعلم أن أسباب الخذلان من بقاء النفس على ما خلقت عليه في الأصل وإهمالها وتخليتها، فأسباب الخذلان منها وفيها، وأسباب التوفيق من جعل الله سبحانه لها قابلة للنعمة، فأسباب التوفيق منه ومن فضله، وهو الخالق لهذه وهذه، كما خلق أجزاء الأرض هذه قابلة للنبات، وهذه غير قابلة له، وخلق الشجر هذه تقبل الثمرة، وهذه لا تقبلها، وخلق النحلة قابلة لأن يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه، والزنبور غير قابل لذلك، وخلق الأرواح الطيبة قابلة لذكره وشكره وحجته[1] وإجلاله وتعظيمه وتوحيده ونصيحة عباده، وخلق الأرواح الخبيثة غير قابلة لذلك، بل لضده وهو الحكيم العليم.

***

﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

[2]إنه سبحانه وصف نفسه بأن له المثل الأعلى، فقال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [النحل: ٦٠] وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الروم: ٢٧]، فجعل مثل السوء المتضمن للعيوب والنقائص وسلب الكمال للمشركين، وأخبر أن المثل الأعلى المتضمن

(١) كذا بالأصل، ولعلها: محبته (ج).

(٢) ٢١٣ مختصر الصواعق جـ١.

لإثبات الكمالات كلها له وحده، وبهذا كان المثل الأعلى، وهو أفعل تفضيل، أي أعلى من غيره، فكيف يكون أعلى وهو عدم محض ونفي صرف، وأي مثل أدنى من هذا؟ تعالى الله عن قول المعطلين علوًّا كبيرًا.

فمثل السوء العادم صفات الكمال، ولهذا جعله مثل الجاحدين لتوحيده وكلامه وحكمته، لأنهم فقدوا الصفات التي من اتصف بها كان كاملًا، وهي: الإيمان والعلم والمعرفة، واليقين والإخلاص والعبادة لله، والتوكل عليه والإنابة إليه، والزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، والصبر والرضا والشكر، وغير ذلك من الصفات التي من اتصف بها كان ممن آمن بالآخرة، فلما سلبت تلك الصفات عنهم، وهي صفات كمال صار لهم مثل السوء.

فمن سلب صفات الكمال عن الله تعالى وعلوه على خلقه وكلامه وعلمه وقدرته وسائر ما وصف به نفسه؛ فقد جعل لله تعالى مثل السوء، ونزهه عن المثل الأعلى، وأن مثل السوء هو العدم وما يستلزمه، وضده المثل الأعلى وهو الكمال المطلق، المتضمن للأمور الوجودية، والمعاني الثبوتية التي كلما كانت أكثر في الموصوف وأكمل؛ كان أعلى من غيره.

ولما كان الرب سبحانه هو الأعلى، ووجهه الأعلى، وكلامه الأعلى، وسمعه الأعلى، وسائر صفاته عليا، كان له المثل الأعلى، وهو أحق به من كل ما سواه.

بل يستحيل أن يشترك في المثل الأعلى اثنان، لأنهما إن تكافآ لم يكن أحدهما أعلا من الآخر، وإن لم يتكافآ فالموصوف بالمثل الأعلى أحدهما وحده؛ فيستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى مثل أو نظير، وهذا برهان قاطع من إثبات صفات الكمال على استحالة التمثيل والتشبيه، فتأمله فإنه في غاية الظهور والقوة.

ونظير هذا القهر المطلق مع الوحدة فإنهما متلازمان، فلا يكون القهار إلا واحدًا، إذ لو كان معه كفؤ له، فإن لم يقهره لم يكن قهارًا على الإطلاق، وإن قهره لم يكن له كفؤًا وكان القهار واحدًا، فتأمل كيف كان قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وقوله:

﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [الروم: ٢٧] من أعظم الأدلة على ثبوت صفات كماله ﷻ.

فإن قلت: فما حقيقة المثل الأعلى؟ قلت: قد أشكل هذا على جماعة من المفسرين، واستشكلوا أقوال السلف فيه، فإن ابن عباس وغيره قالوا: مثل السوء العذاب والنار، ولله المثل الأعلى: شهادة (أن لا إله إلا الله) قال قتادة: هو الإخلاص والتوحيد.

وقال الواحدي: هذا قول المفسرين في هذه الآية، ولا أدري لِمَ قيل: العذاب مثل السوء. والإخلاص المثل الأعلى؟

قال: وقال قوم: المثل السوء الصفة السوء من احتياجهم للولد وكراهتهم للإناث خوف العيلة والعار، ولله المثل الأعلى الصفة العليا وتنزهه وبراءته من الولد.

قال: وهذا قول صحيح، والمثل كثيرًا يرد بمعنى الصفة، وقاله جماعة من المتقدمين، وقال ابن كيسان: مثل السوء ما ضرب الله للأصنام وعبدتها من الأمثال، والمثل الأعلى نحو قوله: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور: ٣٥].

وقال ابن جرير: وله المثل الأعلى، هو الأطيب والأفضل والأحسن والأجمل، وذلك التوحيد والإذعان له بأنه لا إله إلا هو.

قلت: المثل الأعلى يتضمن الصفة العليا، وعلم العالمين بها، ووجودها العلمي، والخبر عنها، وذكرها، وعبادة الرب سبحانه بواسطة العلم والمعرفة القائمة بقلوب عابديه وذاكريه، فهاهنا أربعة أمور:

ثبوت الصفات العليا لله سبحانه في نفس الأمر، علمها العباد أو جهلوها، وهذا قول من فسره بالصفة.

الثاني: وجودها في العلم والتصور، وهذا معنى قول من قال من السلف والخلف: إنه ما في قلوب عابديه وذاكريه من معرفته وذكره ومحبته وإجلاله وتعظيمه، وهذا الذي في قلوبهم من المثل الأعلى لا يشترك فيه غيره معه، بل يختص به في قلوبهم، كما اختص به في ذاته، وهذا معنى قول من قال من المفسرين: أهل السماء يحبونه ويعظمونه، وأهل الأرض يجلونه ويعظمونه، وإن أشرك به من أشرك، وعصاه من

عصاه، وجحد صفاته من جحدها، فكل أهل الأرض معظمون له مجلون له خاضعون لعظمته.

قال تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الروم: ٢٦] فلست تجد أحدًا من أوليائه وأعدائه إلا والله أكبر في صدره وأعظم من كل ما سواه.

الثالث: ذكر صفاته والخبر عنها وتنزيهها عن النقائص والعيوب والمثيل.

الرابع: محبة الموصوف بها وتوحيده والإخلاص له والتوكل عليه.

وكلما كان الإيمان بالصفات أكمل؛ كان هذا الحب والإخلاص أقوى.

فعبارة السلف تدور حول هذه المعاني الأربعة لا تتجاوزها، وقد ضرب الله مثل السوء للأصنام بأنها لا تخلق شيئًا وهي مخلوقة، ولا تملك لنفسها ولا لعابديها ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

وقال الله تعالى: ﴿ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [النحل: ٧٥، ٧٦].

فهذان مثلان ضربهما الله لنفسه وللأصنام، للأصنام مثل السوء، وله المثل الأعلى وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤].

فهذا المثل الأعلى الذي له سبحانه، والأول مثل السوء للصنم وعابديه.

وقد ضرب الله سبحانه للمعارضين بين الوحي وعقولهم مثل السوء؛ بالكلب تارة، وبالحمر تارة، وبالأنعام تارة، وبأهل القبور تارة، وبالعمى الصم، وغير ذلك من

أمثال السوء، التي ضربها لهم ولأوثانهم. وأخبر عن مثله الأعلى بما ذكره من أسمائه وصفاته وأفعاله، وضرب لأوليائه وعابديه أحسن الأمثال، ومن تدبر القرآن فهم المراد بالمثل الأعلى ومثل السوء. اهـ.

(١)وقد أخبرنا سبحانه عن تفاصيل يوم القيامة وما في الجنة والنار، فقامت حقائق ذلك في قلوب أهل الإيمان وشاهدته عقولهم ولم يعرفوا كنهه، فلا يشك المسلمون أن في الجنة أنهارًا من خمر وأنهارًا من عسل وأنهارًا من لبن، ولكن لا يعرفون كنه ذلك ومادته وكيفيته، إذ كانوا لا يعرفون في الدنيا الخمر إلا ما اعتصر من الأعناب، والعسل إلا ما قذفت به النحل في بيوتها، واللبن إلا ما خرج من الضروع، والحرير إلا ما خرج من دود القز، وقد فهموا معاني ذلك في الجنة من غير أن يكون مماثلًا لما في الدنيا.

كما قال ابن عباس: «ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء والصفات»(٢). ولم يمنعهم عدم النظير في الدنيا من فهم ما أخبروا به من ذلك.

فهكذا الأسماء والصفات لم يمنعهم انتفاء نظيرها ومثالها من فهم حقائقها ومعانيها، بل قام بقلوبهم معرفة حقائقها وانتفاء التمثيل والتشبيه عنها، وهذا هو المثل الأعلى الذي أثبته الله تعالى لنفسه في ثلاثة مواضع من القرآن:

أحدها: قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ(٣) وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠].

الثاني: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

الثالث: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. فنفى

---

(١) ٨٤ مختصر الصواعق جـ١.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ١٧٢، ١٧٤) وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٦٤) (٤/ ٢٧٨).

(٣) في المطبوعة: زيادة «في السماوات والأرض» وهي زيادة غير موجودة في آية النحل، ولعله حدث خلط بالآية (٢٧) من سورة الروم.

ﷻ المثل عن هذا المثل الأعلىٰ، وهو ما في قلوب أهل سماواته وأرضه من معرفته والإقرار بربوبيته وأسمائه وصفاته وذاته، فهذا المثل الأعلىٰ هو الذي آمن به المؤمنون، وأنس به العارفون وقامت شواهده في قلوبهم بالتعريفات الفطرية المملكة بالكتب الإلهية المضبوطة بالبراهين العقلية، فاتفق علىٰ الشهادة بثبوته العقل والسمع والفطرة، فإذا قال المثبت: يا الله، قام بقلبه رب قيوم قائم بنفسه، مستو علىٰ عرشه، مكلم، متكلم، سامع، قدير، مريد، فعال لما يريد، يسمع دعاء الداعين، ويقضي حاجات السائلين، ويفرج عن المكروبين، ترضيه الطاعات، وتغضبه المعاصي، تعرج الملائكة بالأمر إليه، وتنزل بالأمر من عنده.

وإذا شئت زيادة تعريف بهذا المثل الأعلىٰ فعد؛ قوىٰ جميع المخلوقات اجتمعت لواحد منهم، ثم كان جميعهم علىٰ قوة ذلك الواحد، فإذا نسبت قوتهم إلىٰ قوة الرب تعالىٰ لم تجد نسبة إليها البتة، كما لا تجد نسبة بين قوة البعوضة وقوة الأسد، وإذا قدرت علوم الخلائق اجتمعت لواحد، ثم قدرت جميعهم بهذه المثابة كانت علومهم بالنسبة إلىٰ علمه تعالىٰ كنقرة عصفور في بحر، وكذا في حكمته وكماله.

وقد نبهنا ﷻ علىٰ هذا المعنىٰ بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: ٢٧]. فقدر البحر المحيط بالعالم مدادًا ووراءه سبعة أبحر تحيط به، كلها مدادًا يكتب به كلمات الله، نفدت البحار ونفدت الأقلام التي لو قدرت جميع أشجار الأرض من حين خلقت إلىٰ آخر الدنيا، ولم تنفد كلمات الله.

وقد أخبر النبي ﷺ: «أن السماوات السبع في الكرسي كحلقة ملقاة بأرض فلاة، والكرسي في العرش كحلقة ملقاة في أرض فلاة، والعرش لا يقدر قدره إلا الله»[(١)]

---

(١) أخرجه ابن حبان (٢/ ٧٦-٧٧ رقم ٣٦١) وفي موارد الظمآن (رقم ٩٤) وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٦٩-٥٧٠ رقم ١٧) وابن أبي شيبة في العرش (رقم ٥٨، ٥٩) وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٦٦-١٦٧) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٢٣/ ٢٧٤) ونقل الحافظ ابن حجر تصحيح ابن حبان =

وهو سبحانه فوق عرشه يعلم ويرى ما عباده عليه، فهذا هو الذي قام بقلوب المؤمنين المصدقين العارفين به سبحانه المثل الأعلى، فعرفوه به وعبدوه به وسألوه به، فأحبوه وخافوه ورجوه، وتوكلوا عليه وأنابوا إليه، واطمأنوا بذكره وأنسوا بحبه بواسطة هذا التعريف، فلم يصعب عليهم بعد ذلك معنى استوائه على عرشه وسائر ما وصف به نفسه من صفات كماله، إذ قد أحاط علمهم بأنه لا نظير لذلك ولا مثل له، ولم يخطر بقلوبهم مماثلة شيء من المخلوقين، وقد أعلمهم الله سبحانه على لسان رسوله: **«أنه يقبض سماواته بيده والأرض باليد الأخرى، ثم يهزهن»** **«وأن أن السماوات السبع والأرضين السبع في كفه: كخردلة في كف أحدكم»** **«وأنه يضع السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال على إصبع، والشجر على إصبع، وسائر المخلوقات على إصبع»**[1] فأي يد للخلق وأي أصبع تشبه هذه اليد وهذه الإصبع، حتى يكون إثباتها تشبيهًا وتمثيلًا؟

فقاتل الله أصحاب التحريف والتبديل، ماذا حرموه من الحقائق الإيمانية والمعارف الإلهية، وماذا تعوضوا به من زبالة الأذهان، ونخالة الأفكار؟

وما أشبههم بمن كان غذاؤهم المن والسلوى بلا تعب فآثروا عليه الفوم والعدس والبصل، وقد جرت عادة الله سبحانه أن يذل من آثر الأدنى على الأعلى، ويجعله عبرةً للعقلاء.

فأول هذا الصنف إبليس لعنه الله، ترك السجود لآدم كبرًا، فابتلاه الله تعالى بالقيادة لفساق ذريته،ن وعباد الأصنام لم يقروا بنبي من البشر ورضوا بآلهة من الحجر، والجهمية نزهوا الله عن عرشه لئلا يحويه مكان، ثم قالوا: هو في الآبار والأنجاس

=

للحديث في فتح الباري (١٣/ ٤١١) ثم قال: وله شاهد عن مجاهد أخرجه سعيد بن منصور في التفسير بسند صحيح.

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٤١٤) ومسلم (رقم ٢٧٨٦) وانظر: فتح الباري (٨/ ٥٥١) وشرح النووي (١٧/ ١٣٣).

وفي كل مكان، وهكذا طوائف الباطل لم يرضوا بنصوص الوحي، فابتلوا بزبالة أذهان المتحيرين، وورثة الصابئين وأفراخ الفلاسفة الملحدين.

***

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

[(١)]قال في الجنـة: ﴿ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ ﴾ [محمد: ١٥]. وفي السنن مرفوعًا: «**من أطعمه الله طعامًا فليقل: اللهم بارك لنا فيه، وارزقنا خيرًا منه. وَمَن سقاه اللهُ لبناً، فَلْيَقُلْ: اللّهُمَّ بَارِكْ لنا فيه، وزِدْنا منه، فإني لا أعلم ما يُجْزِئ من الطعام والشرابِ إلا اللَّبَن**»[(٢)].

اللَّبن ـ وإن كان بسيطاً في الحس ـ إلا أنه مُركَّب في أصل الخِلقة تركيباً طبيعياً من جواهرَ ثلاثةٍ: الجُبْنِيةِ والسَّمنيةِ والمائيَّةِ. فالجُبْنِيةُ: باردة رطبة، مُغذِّية للبدن. والسَّمنيةُ: معتدلة الحرارة والرطوبة، ملائمة للبدن الإنساني الصحيح، كثيرةُ المنافع. والمائيةُ: حارة رطبة، مُطْلِقة للطبيعة، مُرطِّبة للبدن. واللَّبنُ على الإطلاق أبردُ وأرطبُ مِنَ المعتدل، وقيل: قوَّته عند حلبه الحرارةُ والرطوبةُ، وقيل: معتدل في الحرارة والبرودة. وأجودُ ما يكون اللَّبن حين يُحلب، ثم لا يزال تنقصُ جُودتُه على ممر الساعات، فيكونُ حين يُحلب أقلَّ برودةً، وأكثرَ رطوبةً، والحامِض بالعكس، ويُختار اللَّبن بعد الولادة بأربعين يوماً، وأجودُه ما اشتد بياضُه، وطاب ريحُه، ولذَّ طعمُه، وكان فيه حلاوةٌ يسيرة، ودُسومةٌ معتدِلة، واعتدل قِوَامه في الرِّقة والغِلَظِ، وحُلِبَ من حيوان فتيٍ صحيح، معتدِلِ اللَّحم، محمودِ المرعَى والمَشربَ. وهو محمودٌ يُوَلِّد

---

(١) ٤٠٠ زاد المعاد جـ٣.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٧٩ رقم ١٠١١٨) وأبو داود (رقم ٣٧٣٠) والترمذي (رقم ٣٤٥٥) وأحمد (١/ ٢٢٥) والبيهقي في الكبرى (٥/ ١٠٤ رقم ٥٩٥٧) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٤٧٤) وحسنه الترمذي.

دماً جيداً، ويُرَطِّب البدنَ اليابس، ويغذو غِذَاءً حسناً، وينفع مِن الوَسواس والغم والأمراض السوداويَّة.

[١]ثم تأمل العبرة التي ذكرها الله ﷻ في الأنعام وما سقانا من بطونها من اللبن الخالص السائغ الهنيء المريء الخارج من بين الفرث والدم.

فتأمل كيف ينزل الغذاء من أفواهها إلى المعدة، فينقلب بعضه دما بإذن الله، وما يسرى في عروقها، وأعضائها وشحومها ولحومها، فإذا أرسلته العروق في مجاريها إلى جملة الأجزاء قلبه كل عضو أو عصب وغضروف وشعر وظفر وحافر إلى طبيعته، ثم يبقى الدم في تلك الخزائن التي له، إذ به قوام الحيوان، ثم ينصب ثفله إلى الكرش، فيصير زبلًا، ثم ينقلب باقيه لبنًا صافياً أبيض سائغا للشاربين، فيخرج من بين الفرث والدم، حتى إذا أنهكت الشاة أو غيرها حلبا خرج اللبن مشوبا بحمرة فصفى الله سبحانه الألطف من الثفل بالطبخ الأول، فانفصل إلى الكبد وصار دما، وكان مخلوطا بالأخلاط الأربعة، فأذهب الله عز و جل كل خلط منها إلى مقره وخزانته المهيأة له: من المرارة والطحال والكلية وباقي الدم الخالص يدخل في أوردة الكبد، فينصب من تلك العروق إلى الضرع، فيقلبه الله تبارك وتعالى من صورة الدم وطبعه وطعمه إلى صورة اللبن وطبعه وطعمه فاستخرج من الفرث والدم، فسل المعطل الجاحد: من الذي دبَّر هذا التدبير، وقدَّر هذا التقدير، وأتقن هذا الصنع، ولطف هذا اللطف سوى اللطيف الخبير؟!

***

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

---

(١) ٢٥١ مفتاح جـ١.

[1]تأمل أحوال النحل وما فيها من العبر والآيات، فانظر إليها والى اجتهادها في صنعة العسل وبنائها البيوت المسدسة، التي هي من أتم الأشكال وأحسنها استدارة وأحكمها صنعا، فإذا انضم بعضها إلى بعض لم يكن بينها فرجة ولا خلل، كل هذا بغير مقياس ولا آله ولا بيكار، وتلك من أثر صنع الله وإلهامه إياها وإيحائه إليها، كما قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ﴾ إلى قوله: ﴿ لَأَيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩].

فتأمل كمال طاعتها وحسن ائتمارها لأمر ربها.

اتخذت بيوتها في هذه الأمكنة الثلاثة في الجبال والشقفان وفي الشجر وفي بيوت الناس، حيث يعرشون، أي يبنون العروش، وهي البيوت، فلا يرى للنحل بيت غير هذه الثلاثة البتة.

وتأمل كيف أكثر بيوتها في الجبال والشقفان، وهو البيت المقدم في الآية، ثم في الأشجار وهي من أكثر بيوتها، ومما يعرش الناس، وأقل بيوتها بينهم حيث يعرشون. وأما في الجبال والشجر فبيوت عظيمة يؤخذ منها من العسل الكثير جدا وتأمل كيف أداها حسن الامتثال إلى أن اتخذت البيوت أولًا، فإذا استقر لها بيت خرجت منه فرعت وأكلت من الثمار، ثم آوت إلى بيوتها، لأن ربها سبحانه أمرها باتخاذ البيوت أولا، ثم بالأكل بعد ذلك، ثم إذا أكلت سلكت سبل ربها مذللة، لا يستوعر عليها شيء ترعى ثم تعود.

ومن عجيب شأنها أن لها أميرا يسمى اليعسوب، لا يتم لها رواح ولا إياب ولا عمل ولا مرعى إلا به، فهي مؤتمره لأمره، سامعة له مطيعه، وله عليها تكليف وأمر ونهى، وهي رعية له منقادة لأمره متبعة لرأيه، يدبرها كما يدبر الملك أمر رعيته، حتى إنها إذا آوت إلى بيوتها وقف على باب البيت، فلا يدع واحدة تزاحم الأخرى ولا تتقدم

(١) ٢٤٨ مفتاح جـ١.

عليها في العبور، بل تعبر بيوتها واحدة بعد واحدة بغير تزاحم ولا تصادم ولا تراكم، كما يفعل الأمير إذا انتهى بعسكره إلى معبر ضيق لا يجوزه إلا واحد واحد.

ومن تدبر أحوالها وسياساتها وهدايتها واجتماع شملها وانتظام أمرها وتدبير ملكها وتفويض كل عمل إلى واحد منها - يتعجب منها كل العجب، ويعلم أن هذا ليس في مقدورها ولا هو من ذاتها، فإن هذه أعمال محكمة متقنة في غاية الإحكام والإتقان، فإذا نظرت إلى العامل رأيته من أضعف خلق الله وأجهله بنفسه وبحاله، وأعجزه عن القيام بمصلحته، فضلا عما يصدر عنه من الأمور العجيبة.

ومن عجيب أمرها أن فيها أميرين لا يجتمعان في بيت واحد، ولا يتأمران على جمع واحد، بل إذا اجتمع منها جندان وأميران قتلوا أحد الأميرين وقطعوه، واتفقوا على الأمير الواحد من غير معاداة بينهم، ولا أذى من بعضهم لبعض، بل يصيرون يدًا واحدة وجندًا واحدًا.

ومن أعجب ما لا يهتدي له أكثر الناس ولا يعرفونه، وهو النتاج الذي يكون لها. هل هو على وجه الولادة والتوالد أو الاستحالة، فقل من يعرف ذلك أو يفطن له، وليس نتاجها على واحد من هذين الوجهين.

وإنما نتاجها بأمر من أعجب العجب، فإنها إذا ذهبت إلى المرعى أخذت تلك الأجزاء الصافية التي على الورق من الورد والزهر والحشيش وغيره، وهي الطل فتمصها، وذلك مادة العسل، ثم أنها تكبس الأجزاء المنعقدة على وجه الورقة وتعقدها على رجلها كالعدسة فتملأ بها المسدسات الفارغة من العسل، ثم يقوم يعسوبها على بيته مبتدئا منه، فينفخ فيه، ثم يطوف على تلك البيوت بيتا بيتا، وينفخ فيها كلها، فتدب فيها الحياة بإذن الله ﷻ، فتتحرك وتخرج طيورا بإذن الله، وتلك إحدى الآيات والعجائب التي قل من يتفطن لها، وهذا كله من ثمرة ذلك الوحي الإلهي. أفادها وأكسبها هذا التدبير والسفر والمعاش و البناء والنتاج.

فسل المعطل الضال: من الذي أوحى إليها أمرها، وجعل ما جعل في طباعها؟

ومن الذي سهل لها سبله ذللا منقادة، لا تستعصي عليها ولا تستوعرها، ولا تضل عنها على بعدها؟ ومن الذي هداها لشأنها؟ ومن الذي أنزل لها من الطل ما إذا جنته ردته عسلا صافيا مختلفا ألوانه في غاية الحلاوة واللذاذة والمنفعة من بين أبيض يرى فيه الوجه أعظم من رؤيته في المرآة، وسمه لي من جاء به، وقال هذا أفخر ما يعرف الناس من العسل وأصفاه وأطيبه، فإذا طعمه ألذ شيء يكون من الحلوى، ومن بين أحمر وأخضر ومورد وأسود وأشقر وغير ذلك من الألوان والطعوم المختلفة فيه بحسب مراعيه ومادتها؟!

وإذا تأملت ما فيه من المنافع والشفاء ودخوله في غالب الأدوية، حتى كان المتقدمون لا يعرفون السكر، ولا هو مذكور في كتبهم أصلا، وإنما كان الذي يستعملونه في الأدوية هو العسل، وهو المذكور في كتب القوم، ولعمر الله إنه لأنفع من السكر وأجدى وأجلى للأخلاط، وأقمع لها، وأذهب لضررها، وأقوى للمعدة، وأشد تفريحا للنفس وتقوية للأرواح وتنفيذا للدواء، وإعانة له على استخراج الداء من أعماق البدن، ولهذا لم يجئ في شيء من الحديث قط ذكر السكر ولا كانوا يعرفونه أصلا، ولو عدم من العالم لما احتاج إليه. ولو عدم العسل لاشتدت الحاجة إليه، وإنما غلب على بعض المدن استعمال السكر حتى هجروا العسل، واستطابوه عليه، ورأوه أقل حدة وحرارة منه، ولم يعلموا أن من منافع العسل ما فيه من الحدة والحرارة، فإذا لم يوافق من يستعمله كسرها بمقابلها، فيصير أنفع له من السكر. وسنفرد إن شاء الله مقالة نبين فيها فضل العسل على السكر من طرق عديدة لا تمنع، وبراهين كثيرة لا تدفع، ومتى رأيت السكر يجلو بلغما ويذيب خلطا أو يشفي من داء، وإنما غايته بعض التنفيذ للدواء إلى العروق للطافته وحلاوته، وأما الشفاء الحاصل من العسل، فقد حرمه الله كثيرا من الناس، حتى صاروا يذمونه ويخشون غائلته من حرارته وحدته.

ولا ريب أن كونه شفاء، وكون القرآن شفاء، والصلاة شفاء، وذكر الله والإقبال

عليه شفاء، أمر لا يعم الطبائع والأنفس، فهذا كتاب الله هو الشفاء النافع، وهو أعظم الشفاء وما أقل المستشفين به، بل لا يزيد الطبائع الرديئة رداءة، ولا يزيد الظالمين إلا خسارا، وكذلك ذكر الله والإقبال عليه والإنابة إليه والفزع إلى الصلاة: كم قد شفي به من عليل، وكم قد عوفي به من مريض، وكم قام مقام كثير من الأدوية التي لا تبلغ قريبا من مبلغه في الشفاء!

وأنت ترى كثيرا من الناس بل أكثرهم لا نصيب لهم من الشفاء بذلك أصلًا.

ولقد رأيت في بعض كتب الأطباء المسلمين في ذكر الأدوية المفردة ذكر الصلاة، ذكرها في باب الصاد، وذكر من منافعها في البدن التي توجب الشفاء وجوها عديدة، ومن منافعها في الروح والقلب.

وسمعت شيخنا أبا العباس ابن تيمية رحمه الله يقول، وقد عرض له بعض الألم، فقال له الطبيب: أضر ما عليك الكلام في العلم والفكر فيه والتوجه والذكر. فقال: ألستم تزعمون أن النفس إذا قويت وفرحت أوجب فرحها لها قوة تعين بها الطبيعة على دفع العارض، فإنه عدوها. فإذا قويت عليه قهرته. فقال له الطبيب: بلى. فقال: إذا اشتغلت نفسي بالتوجه والذكر والكلام في العلم، وظفرت بما يشكل عليها منه فرحت به وقويت، فأوجب ذلك دفع العارض هذا. أو نحوه من الكلام.

والمقصود: أن ترك كثير من الناس الاستشفاء بالعسل لا يخرجه عن كونه شفاء، كما أن ترك أكثرهم الاستشفاء بالقرآن من أمراض القلوب لا يخرجه عن كونه شفاء لها، وهو شفاء لما في الصدور، وإن لم يستشف به أكثر المرضى، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يونس: ٥٧].

فعم بالموعظة والشفاء، وخص بالهدى والمعرفة، فهو نفسه شفاء استشفِيَ به أو لم يستشف به.

ولم يصف الله في كتابه بالشفاء إلا القرآن والعسل، فهما الشفاءان هذا شفاء

القلوب من أمراض غيها وضلالها وأدواء شبهاتها وشهواتها، وهذا شفاء للأبدان من كثير من أسقامها وأخلاطها وآفاتها.

ولقد أصابني أيام مقامي بمكة إسقام مختلفة، ولا طبيب هناك ولا أدوية، كما في غيرها من المدن، فكنت أستشفي بالعسل وماء زمزم، ورأيت فيهما من الشفاء أمرًا عجيبًا.

وتأمل إخباره ﷻ عن القرآن بأنه نفسه شفاء، وقال عن العسل: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩]، وما كان نفسه شفاء، ابلغ مما جعل فيه شفاء وليس هذا موضع استقصاء فوائد العسل ومنافعه.

(١)قد اختلف الناس في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩] هل الضمير في ﴿فِيهِ﴾ راجع إلى الشراب أو راجع إلى القرآن؛ على قولين، والصحيح: رجوعه إلى الشراب، وهو قول ابن مسعود وابن عباس والحسن وقتادة والأكثرين، فإنه هو المذكور، والكلام سيق لأجله، ولا ذكر للقرآن في الآية، وهذا الحديث الصحيح، وهو قوله: «صدق الله» كالصريح فيه، والله تعالى أعلم.

(٢)وقوله تعالى: ﴿كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [النحل: ٦٩] ولم يقل: من الثمرات، وفيها الحكمة في الآية قبلها ومزيد فائدة، وهو أنه تقدمها في النظم قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ﴾ [النحل: ٦٧] فلو قال بعدها: كلي من الثمرات كلها لذهب الوهم إلى أنه يريد الثمرات المذكورة قبل هذا، أعني ثمرات النخيل والأعناب، لأن اللام إنما تنصرف إلى المعهود، فكان الابتداء بكل أحصى للمعنى، وأجمع للجنس، وأرفع للبس، وأبدع في النظم، فتأمله.

***

(١) ١٥٨ زاد المعاد جـ٣.

(٢) ٢١٣ بدائع جـ١.

﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٧٣ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧٤ ﴾.

(١) نهاهم أن يضربوا له مثلًا من خلقه، ولم ينههم أن يضربوه هو مثلًا لخلقه، فإن هذا لم يقله أحدٌ، ولم يكونوا يفعلونه، فإن الله سبحانه أجل وأعظم وأكبر من كل شيء في فطر الناس كلهم، ولكن المشبهون المشركون يغلون فيمن يعظمونه، فيشبهونهم بالخالق، والله تعالىٰ أجلُّ في صدور جميع الخلق من أن يجعلوا غيره أصلًا، ثم يشبهونه سبحانه بغيره.

فالذي يشبهه بغيره، إن قصد تعظيمه، لم يكن في هذا تعيظم، لأنه مثَّل أعظم العظماء بما هو دونه، بل بما ليس بينه وبينه نسبة وشبه في العظمة والجلالة، وعاقل لا يفعل هذا.

وإن قصد التنقيص شبهه بالناقصين المذمومين، لا بالكاملين الممدوحين.

ومن هنا يُعلَمُ أن إثبات صفاتِ الكمال له لا يتضمن التشبيه والتمثيل، لا بالكاملين ولا بالناقصين، وأنَّ نفي تلك الصفات يستلزم تشبيهه بأنقص الناقصين.
فانظر إلىٰ الجهمية وأتباعهم، جاءوا إلىٰ التشبيه المذموم فأعرضوا عنه صفحًا، وجاءوا إلىٰ الكمال والمدح فجعلوه تشبيهًا وتمثيلًا، عكس ما يثبته القرآن، وجاء به من كل وجه.

***

﴿ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٧٥ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٧٦ ﴾.

(١) ٢٣٠ إغاثة جـ٢.

[١]هذان مثلان متضمنان قياسين من قياس العكس، وهو نفي الحكم لنفي علته وموجبه، فإن القياس نوعان:

قياس طرد يقتضي إثبات الحكم في الفرع، لثبوت علة الأصل فيه.

وقياس عكس يقتضي نفي الحكم عن الفرع، لنفي علة الحكم فيه، فالمثل الأول ما ضربه الله سبحانه لنفسه وللأوثان، فالله سبحانه هو المالك لكل شيء، ينفق كيف يشاء على عبيده: سرًّا وجهرًا، ليلًا ونهارًا، يمينه ملأى، لا تغضيها نفقة، سحَّاء الليل والنهار[٢]. والأوثان مملوكة عاجزة لا تقدر على شيء، فكيف تجعلونها شركاء لي، وتعبدونها من دوني مع هذا التفاوت العظيم والفرق المبين؟ هذا قول مجاهد وغيره.

وقال ابن عباس: وهو مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر، ومثل المؤمن في الخير الذي عنده ثم رزقه منه رزقاً حسنًا فهو ينفق منه على نفسه وعلى غيره سرًّا وجهرًا. والكفار بمنزلة عبد مملوك عاجز لا يقدر على شيء، لأنه لا خير عنده، فهل يستوي الرجلان عند أحد من العقلاء» والقول الأول أشبه بالمراد، فإنه أظهر في بطلان الشرك، وأوضح عند المخاطب، وأعظم في إقامة الحجة، وأقرب نسبًا بقوله: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٧٣، ٧٤]، ثم قال: ﴿ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ [النحل: ٧٥]، ومن لوازم هذا المثل وأحكامه أن يكون المؤمن الموحد كمن رزقه منه رزقا حسنا، والكافر المشرك كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، فهذا مما نبه عليه المثل وأرشد إليه، فذكره ابن عباس منبها على إرادته، لأن الآية اختصت به فتأمله فإنك تجده كثيرا في كلام ابن عباس وغيره من السلف في فهم القرآن، فيظن الظان أن ذلك معنى الآية التي لا معنى

(١) ١٦٠ أعلام جـ١.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٧٤١١) ومسلم (رقم٩٩٣) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٩٦) وشرح النووي (٧/ ٨٠).

لها غيره فيحكيه قوله.

وأما المثل الثاني فهو مثل ضربه الله سبحانه لنفسه ولما يعبد من دونه أيضًا، فالصنم الذي يعبد من دونه بمنزلة رجل أبكم لا يعقل ولا ينطق، بل هو أبكم القلب واللسان، قد عدم النطق القلبي واللساني، ومع هذا فهو عاجز لا يقدر على شيء البتة، ومع هذا فأينما أرسلته لا يأتيك بخير، ولا يقضي لك حاجة، والله سبحانه حي قادر متكلم يأمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم، وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد، فإن أمره بالعدل وهو الحق يتضمن أنه سبحانه عالم به معلم له، راض به، آمر لعباده به، محب لأهله، لا يأمر بسواه، بل تنزه عن ضده، الذي هو الجور والظلم والسفه والباطل، بل أمره وشرعه عدل كله، وأهل العدل هم أولياؤه وهم المجاورون عن يمينه على منابر من نور.

وأمره بالعدل يتناول الأمر الشرعي الديني والأمر القدري الكوني، وكلاهما عدل لا جور فيه بوجه ما، كما في الحديث الصحيح: «**اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك**»[(١)] فقضاؤه هو أمره الكوني، فإنما أمره إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون، فلا يأمر إلا بحق وعدل، وقضاؤه القائم به حق وعدل، وإن كان في المقضي المقدر ما هو جور وظلم، فالقضاء غير المقضي والقدر غير المقدر.

ثم أخبر سبحانه أنه على صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وهذا نظير قول رسوله شعيب: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

---

(١) أخرجه ابن حبان (٣/ ٢٥٣ رقم ٩٧٢) وفي موارد الظمآن (رقم ٢٣٧٢) وابن أبي شيبة (٦/ ٤٠ رقم ٢٩٣١٨) والطبراني في الكبير (١٠/ ١٦٩/ ١٠٣٥٢) وأبو يعلى (٩/ ١٩٩ رقم ٥٢٩٧) وأحمد (١/ ٣٩١) والبزار (٥/ ٣٦٣ رقم ١٩٩٤) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٣٦): رواه أحمد وأبو يعلى والبزار... والطبراني ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني وقد وثقه ابن حبان.

فقوله: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ [هود: ٥٦] نظير قوله: «ناصيتي بيدك»، وقوله: ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ نظير قوله «عدل فيَّ قضاؤك»، فالأول ملكه، والثاني حمده، وهو سبحانه له الملك وله الحمد، وكونه سبحانه على صراط مستقيم يقتضي أنه لا يقول إلا الحق، ولا يأمر إلا بالعدل، ولا يفعل إلا ما هو مصلحة ورحمة وحكمة وعدل، فهو على حق في أقواله وأفعاله، فلا يقضي على العبد ما يكون ظالما له به، ولا يأخذه بغير ذنبه، ولا ينقصه من حسناته شيئا، ولا يحمل عليه من سيئات غير، التي لم يعملها، ولم يتسبب إليها شيئا، ولا يؤاخذ أحدا بذنب غيره، ولا يفعل قط ما لا يحمد عليه ويثنى به عليه، ويكون له فيه العواقب الحميدة والغايات المطلوبة، فإن كونه على صراط مستقيم يأبى ذلك كله.

قال محمد بن جرير الطبري وقوله: ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ يقول: إن ربي على طريق الحق يجازي المحسن من خلقه بإحسانه، و المسيء بإساءته، لا يظلم أحدا منهم شيئًا، ولا يقبل منهم إلا الإسلام له والإيمان به، ثم حكى عن مجاهد من طريق شبل عن ابن أبي نجيح عنه ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ قال: الحق، وكذلك رواه ابن جريج عنه.

وقالت فرقة: هي مثل قوله ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ١٤] وهذا اختلاف عبارة فإن كونه بالمرصاد هو مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

وقالت فرقة: في الكلام حذف، تقديره: إن ربي يحثكم على صراط مستقيم، ويحضكم عليه، وهؤلاء إن أرادوا أن هذا معنى الآية التي أريد بها، فليس كما زعموا ولا دليل على هذا المقدر، وقد فرق سبحانه بين كونه آمرا بالعدل، وبين كونه على صراط مستقيم، وإن أرادوا أن حثه على الصراط المستقيم من جملة كونه على صراط مستقيم فقد أصابوا.

وقالت فرقة أخرى: معنى كونه على صراط مستقيم: أن مردَّ العباد والأمور كلها إلى الله، لا يفوته شيء منها، وهؤلاء إن أرادوا أن هذا معنى الآية فليس كذلك، وإن

أرادوا أن هذا من لوازم كونه على صراط مستقيم ومن مقتضاه و موجبه فهو حق.

وقالت فرقة أخرى: معناه كل شيء تحت قدرته وقهره، وفي ملكه وقبضته، وهذا وإن كان حقًّا فليس هو معنى الآية، وقد فرق بين قوله: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ وبين قوله: ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾، فهما معنيان مستقلان.

فالقول قول مجاهد، وهو قول أئمة التفسير، ولا تحتمل العربية غيره إلا على استكراه، قال جرير يمدح عمر بن عبد العزيز:

أمير المؤمنين على صراط ... إذا اعوج الموارد مستقيم[(١)]

وقد قال تعالى: ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ٣٩] وإذا كان الله تعالى هو الذي جعل رسله عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم على الصراط المستقيم في أقوالهم وأفعالهم فهو سبحانه أحق أن يكون على صراط مستقيم في قوله وفعله وإن كان صراط الرسل وأتباعهم هو موافقة أمره، فصراطه الذي هو سبحانه عليه هو ما يقتضيه حمده وكماله ومجده من قول الحق وفعله، وبالله التوفيق.

وفي الآية قول ثان مثل الآية الأولى سواء، أنه مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، وقد تقدم ما في معنى هذا القول[(٢)]، والله الموفق.

***

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

---

(١) البيت من بحر الوافر، وقائله جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي الكلبي أشعر أهل عصره، وكان عفيفًا، وهو من أغزل الناس شعرًا، توفي سنة ١١٠هـ. ذكر البيت الطبري في تفسيره (١/ ٧٣) وابن كثير في تفسيره (١/ ٢٨) والخطابي في غريب الحديث (١/ ١٠٨) وابن منظور في لسان العرب (٣/ ٤٥٩) (٧/ ٣١٣)

(٢) طرق المؤلف هذا البحث على هذه الآية وعلى آية هود ووسع الكلام في ذلك في تفسير سورة الفاتحة وسورة هود (ج).

[(١)]إن الله سبحانه في القرآن يعدد على عباده من نعمه عليهم: أن أعطاهم آلات العلم، فيذكر الفؤاد والسمع والأبصار، ومرة يذكر اللسان الذي يترجم به عن القلب، فقال تعالى في سورة النعم، وهي سورة النحل التي ذكر فيها أصول النعم وفروعها ومتمماتها ومكملاتها، فعدد نعمه فيها على عباده، وتعرف بها إليهم، واقتضاهم شكرها، وأخبر أنه يتمها عليهم ليعرفوها ويذكروها ويشكروها، فأولها في أصول النعم وآخرها في مكملاتها، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨]، فذكر سبحانه نعمته عليهم بأن أخرجهم لا علم لهم، ثم أعطاهم الأسماع والأبصار والأفئدة، التي نالوا بها من العلم ما نالوه، وإنه فعل بهم ذلك ليشكروه.

[(٢)]ثم تأمل حال من عدم البصر وما يناله من الخلل في أموره، فإنه لا يعرف موضع قدمه، ولا يبصر ما بين يديه، ولا يفرق بين الألوان والمناظر الحسنة من القبيحة، ولا يتمكن من استفادة علم من كتاب يقرأه، ولا يتهيأ له الاعتبار والنظر في عجائب ملك الله.

هذا مع أنه لا يشعر بكثير من مصالحه ومضاره، فلا يشعر بحفرة يهوى فيها، ولا بحيوان يقصده كالسبع فيتحرز له، ولا بعدو يهوى نحوه ليقتله، ولا يتمكن من هرب إن طلب، بل هو ملق السلم لمن رامه بأذى، ولولا حفظ خاص من الله له قريب من حفظ الوليد وكلاءته لكان عطبه أقرب من سلامته، فإنه بمنزلة لحم على وضم، ولذلك جعل الله ثوابه إذا صبر واحتسب الجنة.

ومن كمال لطفه أن عكس نور بصره إلى بصيرته، فهو أقوى الناس بصيرة وحدسا، وجمع عليه همه، فقلبه مجموع عليه غير مشتت، ليهنأ له العيش، وتتم مصلحته، ولا يظن أنه مغموم حزين متأسف، هذا حكم من ولد أعمى.

---

(١) ١٠٦ مفتاح جـ١.

(٢) ٢٦٥ مفتاح جـ١.

فأما من أصيب بعينيه بعد البصر، فهو بمنزلة سائر أهل البلاء المنتقلين من العافية إلى البلية، فالمحنة عليه شديدة، لأنه قد حيل بينه وبين ما ألفه من المرائي والصور ووجوه الانتفاع ببصره، فهذا له حكم آخر.

وكذلك من عدم السمع، فإنه يفقد روح المخاطبة والمحاورة ويعدم لذة المذاكرة ونغمة الأصوات الشجية وتعظم المؤنة على الناس في خطابه، ويتبرمون به، ولا يسمع شيئًا من أخبار الناس وأحاديثهم، فهو بينهم شاهد كغائب، وحي كميت، وقريب كبعيد، وقد اختلف النظار في أيهما أقرب إلى الكمال وأقل اختلالًا لأموره الضرير أم الأطرش؟

وذكروا في ذلك وجوها، وهذا مبني على أصل آخر، وهو أي الصفتين أكمل: صفة السمع أو صفة البصر؟ وقد ذكرنا الخلاف فيهما فيما تقدم من هذا الكتاب، وذكرنا أقوال الناس وأدلتهم، والتحقيق في ذلك، فأي الصفتين كانت أكمل، فالضرر بعدمها أقوى.

والذي يليق بهذا الموضع أن يقال عادم البصر أشدهما ضررًا وأسلمهما دينا وأحمدهما عاقبة، وعادم السمع أقلهما ضررًا في دنياه وأجهلهما بدينه وأسوأ عاقبة، فإنه إذا عدم السمع عدم المواعظ والنصائح، وانسدت عليه أبواب العلوم النافعة، وانفتحت له طرق الشهوات التي يدركها البصر، ولا يناله من العلم ما يكفه عنها، فضرره في دينه أكثر، وضرر الأعمى في دنياه أكثر، ولهذا لم يكن في الصحابة أطرش، وكان فيهم جماعة أضراء، وقل أن يبتلي الله أولياءه بالطرش، ويبتلي كثيرًا منهم بالعمى، فهذا فصل الخطاب في هذه المسألة، فمضرة الطرش في الدين، ومضرة العمى في الدنيا والمعافى من عافاه الله منهما، ومتعه بسمعه وبصره، وجعلهما الوارثين منه.

[1]اعلم أن الله ﷻ جعل للقلوب نوعين من الغذاء: نوعًا من الطعام والشراب

(١) ٤٠٨ مدارج جـ٢.

الحسي، وللقلب منه خلاصته وصفوه، ولكل عضو منه بحسب استعداده وقبوله.

والثاني: غذاء روحاني معنوي، خارج عن الطعام والشراب: من السرور والفرح، والابتهاج واللذة، والعلوم والمعارف، وبهذا الغذاء كان سماويًّا علويًّا، وبالغذاء المشترك كان أرضيًّا سفليًّا، وقوامه بهذين الغذاءين، وله ارتباط بكل واحدة من الحواس الخمس، وغذاء يصل إليه منها.

فله ارتباط بحاسة اللمس، ويصل إليه منها غذاء، وكذلك حاسة الشم، وكذلك حاسة الذوق، وكذلك ارتباطه بحاستي السمع والبصر: أشد من ارتباطه بغيرهما ووصول الغذاء منهما إليه أكمل وأقوى من سائر الحواس، وانفعاله عنهما أشد من انفعاله عن غيرهما، ولهذا تجد في القرآن اقترانه بهما أكثر من اقترانه بغيرهما، بل لا يكاد يقرن إلا بهما أو بأحدهما.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨] وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٦] وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال تعالى في صفة الكفار: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١] وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦] وهذا كثير جدًّا في القرآن.

لأن تأثره بما يراه ويسمعه: أعظم من تأثره بما يلمسه ويذوقه ويشمه، ولأن هذه

الثلاثة: هي طرق العلم، وهي: السمع والبصر والعقل.

وتعلق القلب بالسمع وارتباطه به: أشد من تعلقه بالبصر وارتباطه به، ولهذا يتأثر بما يسمعه من الملذوذات أعظم مما يتأثر بما يراه من المستحسنات، وكذلك في المكروهات سماعا ورؤية، ولهذا كان الصحيح من القولين: أن حاسة السمع أفضل من حاسة البصر، لشدة تعلقها بالقلب وعظم حاجته إليها، وتوقف كماله عليها، ووصول العلوم إليه بها، وتوقف الهدىٰ علىٰ سلامتها.

ورجحت طائفة حاسة البصر لكمال مدركها وامتناع الكذب فيه. وزوال الريب والشك به ولأنه عين اليقين، وغاية مدرك حاسة «السمع» علم اليقين، وعين اليقين أفضل وأكمل من علم اليقين ولأن متعلقها رؤية وجه الرب ﷻ في دار النعيم، ولا شيء أعلىٰ وأجل من هذا التعلق.

وحكم شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بين الطائفتين حكمًا حسنًا، فقال: المدرك بحاسة السمع أعم وأشمل، والمدرك بحاسة البصر أتم وأكمل، فللسمع العموم والشمول والإحاطة بالموجود والمعدوم والحاضر والغائب والحسي والمعنوي، وللبصر: التمام والكمال...

***

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ ﴾.

(1)تستفاد الإباحة من لفظ الإحلال ورفع الجناح والإذن والعفو، وإن شئت فافعل، وإن شئت فلا تفعل.

ومن الامتنان بما في الأعيان من المنافع وما يتعلق بها من الأفعال نحو: ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا ﴾ [النحل: ٨٠] ونحو: ﴿ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل: ١٦]

---

(١) ٦ بدائع جـ٤.

ومن السكوت عن التحريم، ومن الإقرار على الفعل في زمن الوحي، وهو نوعان: إقرار الرب تبارك وتعالى وإقرار رسوله إذا علم الفعل.

فمن إقرار الرب تعالى قول جابر: «كنا نعزل والقرآن ينزل»[١].

ومن إقرار رسوله قول حسان لعمر: كنت أنشد، وفيه من هو خير منك[٢].

[٣]إخباره عن الحكم والغايات التي جعلها في خلقه وأمره، كقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]. وقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ [النبأ: ٦-١٦]. وقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٧]. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨٠، ٨١]. وقوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ إلى قوله: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤-٣٢]. وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١]. وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ

(١) أخرجه الباري (رقم ٥٢٠٧-٥٢٠٩) ومسلم (رقم ١٤٤٠) وانظر: فتح الباري (٩/ ٣٠٥-٣٠٦).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٢١٢) ومسلم (رقم ٢٤٨٥) وانظر: فتح الباري (١/ ٥٤٨).
(٣) ١٩٧ شفاء العليل.

وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ [إبراهيم: ٣٢، ٣٣]. وقوله: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الجاثية: ١٢] إلى أضعاف أضعاف ذلك في القرآن، مما يفيد من له أدنى تأمل القطع بأنه سبحانه فعل ذلك للحكم والمصالح التي ذكرها وغيرها مما لم يذكره. وقوله: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩] وقوله: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٥-٦] فهل يستقيم ذلك ويصح فيمن لا يفعل لحكمة ولا لمصلحة ولا لغاية هي مقصودة بالفعل، ومعلوم بالضرورة أن هذا الإثبات وهذا النفي متقابلان أعظم التقابل.

***

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

[1] إخباره بإنعامه على خلقه وإحسانه إليهم، وأنه خلق لهم ما في السماوات وما في الأرض، وأعطاهم الأسماع والأبصار والأفئدة، ليتم نعمته عليهم، ومعلوم أن المنعم المحسن لا يكون كذلك، ولا يستحق هذا الاسم حتى يقصد الإنعام على غيره والإحسان إليه، فلو لم يفعل سبحانه لغرض الإنعام والإحسان لم يكن منعما في

---

(١) ٢٠٢ شفاء العليل.

الحقيقة ولا محسنا، إذ يستحيل أن يكون كذلك من لم يقصد الإنعام والإحسان، وهذا غني عن التقرير.

يوضحه أنه سبحانه حيث ذكر إنعامه وإحسانه فإنما يذكره مقرونا بالحكم والمصالح والمنافع، التي خلق الخلق وشرع الشرائع لأجلها، كقوله في آخر سورة النحل: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ [النحل: ٨١] فهذا في الخلق.

وقال في الشرع في أمره باستقبال الكعبة: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٠].

وقال في أمره بالوضوء والتيمم: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة: ٦]، فجعل تمام نعمته في أن خلق ما خلق للإحسان وأمر بما أمر لذلك.

[(١)]وهو سبحانه يذكر عباده بنعمه عليهم، ويدعوهم بها إلى معرفته ومحبته وتصديق رسله والإيمان بلقائه، كما تضمنته سورة النعم، وهي سورة النحل، من قوله: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ [النحل: ٤-٨١].

فذكرهم بأصول النعم وفروعها، وعددها عليهم نعمة نعمة، وأخبر أنه أنعم بذلك

---

(١) ٣٦ شفاء العليل.

عليهم، ليسلموا له، فتكمل نعمه عليهم بالإسلام الذي هو رأس النعم، ثم أخبر عمن كفره ولم يشكر نعمه بقوله: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ [النحل: ٨٣].

قال مجاهد: «المساكن والأنعام وسرابيل الثياب والحديد يعرفه كفار قريش، ثم ينكرونه بأن يقولوا هذا كان لآبائنا ورثناه عنهم»(١).

وقال عون بن عبد الله: «يقولون لولا فلان لكان كذا وكذا».

وقال الفراء وابن قتيبة: «يعرفون أن النعم من الله، ولكن يقولون هذه بشفاعة آلهتنا».

وقالت طائفة: «النعمة ههنا محمد ﷺ، وإنكارها جحدهم نبوته»، وهذا يروىٰ عن مجاهد والسدّي، وهذا أقرب إلىٰ حقيقة الإنكار، فإنه إنكار لما هو أجل النعم أن تكون نعمة. وأما علىٰ القول الأول والثاني والثالث فإنهم لما أضافوا النعمة إلىٰ غير الله فقد أنكروا نعمة الله بنسبتها إلىٰ غيره...

(٢)رؤساء الكفر وأئمته ودعاته الذين كفروا وصدوا عباد الله عن الإيمان وعن الدخول في دينه رغبة ورهبة، فهؤلاء عذابهم مضاعف، ولهم عذابان: عذاب بالكفر، وعذاب بصد الناس عن الدخول في الإيمان. قال الله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [النحل: ٨٨]، فأحد العذابين بكفرهم، والعذاب الآخر بصدهم عن سبيل الله.

وقد استقرت حكمة الله وعدله أن يجعل علىٰ الداعي إلىٰ الضلال مثل آثام من اتبعه واستجاب له.

ولا ريب أن عذاب هذا يتضاعف ويتزايد بحسب من اتبعه وضل به. وهذا النوع في الأشقياء مقابل دعاة الهدىٰ في السعداءِ، فأُولئك يتضاعف ثوابهم، وتعلو درجاتهم

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٤/ ١٥٨) وانظر: الدر المنثور (٥/ ١٥٥).

(٢) ٤٠٩ طريق الهجرتين.

بحسب من اتبعهم واهتدى بهم، وهؤلاء عكسهم، ولهذا كان فرعون وقومه في أشد العذاب، قال تعالى في حقهم: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

وهذا تنبيه على أن فرعون نفسه في الأشد من ذلك، لأنهم إنما دخلوا أشد العذاب تبعاً له، فإنه هو الذي استخفهم فأطاعوه، وغرهم فاتبعوه. ولهذا يكون يوم القيامة إمامهم وفرطهم في هذا الورد، قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود: ٩٨].

والمقصود: أنهم استحقوا أشد العذاب لغلظ كفرهم، وصدهم عن سبيل الله وعقوبتهم من آمن بالله. فليس عذاب الرؤساء في النار كعذاب أتباعهم.

ولهذا كان في كتاب النبي ﷺ لهرقل: «**فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين**»[1].

والصحيح في اللفظ: أنهم الأتباع، ولهذا كان عدو الله إبليس أشد أهل النار عذاباً، وهو أول من يكسى حلة من النار، لأنه إمام كل كفر وشرك وشر. فما عصى الله إلا على يديه وبسببه، ثم الأمثل فالأمثل من نوابه في الأرض ودعاته.

ولا ريب أن الكفر يتفاوت، فكفر أغلظ من كفر، كما أن الإيمان يتفاوت، فإيمان أفضل من إيمان. فكما أن المؤمنين ليسوا في درجة واحدة، بل هم درجات عند الله، فكذلك الكفار ليسوا في طبقة واحدة ودرك واحد، بل النار دركات، كما أن الجنة درجات. ولا يظلم الله من خلقه أحداً. وهو الغني الحميد.

وغلظ الكفر الموجب لغلظ العذاب يكون من ثلاثة أوجه:

أحدها: من حيث العقيدة الكافرة في نفسها، كمن جحد رب العالمين بالكلية، وعطل العالم عن الرب الخالق المدبر له، فلم يؤمن بالله وملائكته ولا كتبه ولا رسله

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧) ومسلم (رقم ١٧٧٣) وانظر: فتح الباري (١/ ٣٩) وشرح النووي (١٢/ ١٠٧-١٠٩).

ولا اليوم الآخر. ولهذا لا يقر أرباب هذا الكفر بالجزية عند كثير من العلماءِ، ولا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم اتفاقاً لتغلظ كفرهم.

وهؤلاءِ هم المعطلة والدهرية وكثير من الفلاسفة وأهل الوحدة القائلين بأنه لا وجود للرب ﷻ غير وجود هذا العالم.

الجهة الثانية: تغلظه بالعناد والضلال عمداً على بصيرة، ككفر من شهد قلبه أن الرسول حق لما رآه من آيات صدقه، وكفر عناداً وبغياً، كقوم ثمود، وقوم فرعون واليهود الذين عرفوا الرسول كما عرفوا أبناءَهم، وكفر أبي جهل وأُمية بن أبي الصلت وأمثال هؤلاء.

الجهة الثالثة: السعي في إطفاءِ نور الله وصد عباده عن دينه بما تصل إليه قدرتهم، فهؤلاءِ أشد الكفار عذاباً بحسب تغلظ كفرهم.

ومنهم من يجتمع في حقه الجهات الثلاث.

ومنهم من يكون فيه جهتان منها أو واحدة، فليس عذاب هؤلاءِ كعذاب من هو دونهم في الكفر ممن هو ملبوس عليه لجهله، والمؤمنون من أذاه في سلامة لا ينالهم منه أذى، ولم يتغلظ كفره كتغلظ هؤلاءِ، بل هو مقر بالله ووحدانيته وملائكته وجنس الكتب والرسل واليوم الآخر. وإن شارك أولئك في كفرهم بالرسول فقد زادوا عليه أنواعاً من الكفر. وهل يستوي في النار عذاب أبي طالب وأبي لهب وأبي جهل وعقبة بن أبي معيط وأبي بن خلف وأضرابهم؟

والمقصود أن هذه الطبقة وهي طبقة الرؤساءِ الدعاة الصادين عن دين الله ليست كطبقة من دونهم، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «أهون أهل النار عذاباً أبو طالب»[1]، ومعلوم أن كفر أبي طالب لم يكن مثل كفر أبي جهل وأمثاله.

***

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٦١، ٦٥٦٢) ومسلم (رقم ٢١٣) واللفظ له. وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٢٤، ٤٣٠) وشرح النووي (٣/ ٨٦).

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.

[1]هؤلاء يزعمون: أن الظلم في حق عباده هو المحرم والمنهي عنه، لا أن هناك في نفس الأمر ظلما نهى عنه، وكذلك الظلم الذي نزه نفسه عنه هو الممتنع المستحيل، لا أن هناك أمرا ممكنا مقدورا لو فعله لكان ظلما، فليس في نفس الأمر عندهم ظلم منهي عنه ولا منزه عنه، إنما هو المحرم في حقه، والمستحيل في حقه، فالظلم المنزه عنه عندهم هو الجمع بين النقيضين، وجعل الجسم الواحد في مكانين في آن واحد ونحو ذلك.

والقرآن صريح في إبطال هذا المذهب أيضا، قال الله تعالى: ﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ۝ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق: ٢٧- ٢٩] أي لا أؤاخذ عبدا بغير ذنب، ولا أمنعه من أجر ما عمله من صالح، ولهذا قال قبله ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ المتضمن لإقامة الحجة، وبلوغ الأمر والنهي، وإذا آخذتكم بعد التقدم فلست بظالم بخلاف من يؤاخذ العبد قبل التقدم إليه بأمره ونهيه، فذلك الظلم الذي تنزه الله ﷻ عنه.

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه: ١١٢] يعني لا يحمل عليه من سيئات ما لم يعمله ولا ينقص من حسنات ما عمل، ولو كان الظلم هو المستحيل الذي لا يمكن وجوده لم يكن لعدم الخوف منه معنى، ولا للأمن من وقوعه فائدة.

وقال تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦]، أي لا يحمل المسيء عقاب ما لم يعمله، ولا يمنع المحسن من ثواب عمله.

---

(١) ٢٣٦ مدارج جـ١.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧]، فدل علىٰ أنه لو أهلكهم مع إصلاحهم لكان ظالما، وعندهم يجوز ذلك، وليس بظلم لو فعل، ويؤولون الآية علىٰ أنه سبحانه أخبر أنه لا يهلكهم مع إصلاحهم، وعلم أنه لا يفعل ذلك وخلاف خبره ومعلومه مستحيل، وذلك حقيقة الظلم، ومعلوم أن الآية لم يقصد بها هذا قطعا، ولا أريد بها، ولا تحتمله بوجه، إذ يؤول معناها إلىٰ أنه ما كان ليهلك القرىٰ بظلم بسبب اجتماع النقيضين وهم مصلحون، وكلامه تعالىٰ يتنزه عن هذا ويتعالىٰ عنه.

وكذلك عند هؤلاء أيضًا: العبث والسدىٰ والباطل، كلها هي المستحيلات الممتنعة، التي لا تدخل تحت المقدور، والله سبحانه قد نزه نفسه عنها، إذ نسبه إليها أعداؤه المكذبون بوعده ووعيده، المنكرون لأمره ونهيه، فأخبر أن ذلك يستلزم كون الخلق عبثا وباطلا، وحكمته وعزته تأبىٰ ذلك، قال تعالىٰ: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥] أي: لغير شيء لا تؤمرون ولا تنهون، ولا تثابون ولا تعاقبون، والعبث قبيح، فدل علىٰ أن قبح هذا مستقر في الفطر والعقول، ولذلك أنكره عليهم إنكار منبه لهم علىٰ الرجوع إلىٰ عقولهم وفطرهم، وأنهم لو فكروا وأبصروا لعلموا أنه لا يليق به، ولا يحسن منه أن يخلق خلقه عبثا، لا لأمر ولا لنهي، ولا لثواب ولا لعقاب، وهذا يدل علىٰ أن حسن الأمر والنهي والجزاء مستقر في العقول والفطر، وأن من جوز علىٰ الله الإخلال به، فقد نسبه إلىٰ ما لا يليق به وإلىٰ ما تأباه أسماؤه الحسنىٰ وصفاته العليا.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦]، قال الشافعي: مهملا لا يؤمر ولا ينهىٰ[1]. وقال غيره: لا يثاب ولا يعاقب، وهما متلازمان، فأنكر

---

(١) انظر: أحكام القرآن للشافعي (١/ ٣٦) (٢/ ١٢٣) وسنن البيهقي الكبرىٰ (١٠/ ١١٣) وتفسير ابن كثير (٤/ ٤٥٣).

علىٰ من يحسب ذلك، فدل علىٰ أنه قبيح تأباه حكمته وعزته، وأنه لا يليق به، ولهذا استدل علىٰ أنه لا يترك سدىٰ، لقوله: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ إلىٰ آخر السورة [القيامة: ٣٧-٤٠].

[١]وأما «الفحشاء والمنكر» فالفحشاء صفة لموصوف قد حذف تجريدًا لقصد الصفة. وهي الفعلة الفحشاء، والخصلة الفحشاء. وهي ما ظهر قبحها لكل أحد، واستفحشه كل ذي عقل سليم، ولهذا فسرت بالزنا واللواط، وسماها الله «فاحشة» لتناهي قبحهما، وكذلك القبيح من القول يسمىٰ فحشًا، وهو ما ظهر قبحه جدا من السب القبيح والقذف ونحوه.

وأما «المنكر» فصفة لموصوف محذوف أيضا، أي الفعل المنكر، وهو الذي تستنكره العقول والفطر، ونسبته إليها كنسبة الرائحة القبيحة إلىٰ حاسة الشم. والمنظر القبيح إلىٰ العين. والطعم المستكره إلىٰ الذوق. والصوت المستنكر إلىٰ الأذن. فما اشتد إنكار العقول والفطر له فهو فاحشة. كما فحش إنكار الحواس له من هذه المدركات.

فالمنكر لها: ما لم تعرفه ولم تألفه، والقبيح المستكره لها: الذي تشتد نفرتها عنه هو الفاحشة، ولذلك قال ابن عباس: «الفاحشة الزنا، والمنكر ما لم يعرف في شريعة ولا سنة».

فتأمل تفريقه بين ما لم يعرف حسنه ولم يؤلف، وبين ما استقر قبحه في الفطر والعقول...

***

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝ ﴾.

---

(١) ٣٧١ مدارج جـ١.

[١]طيب الحياة جنة الدنيا، قال تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾[الأنعام: ١٢٥].

فأي نعيم أطيب من شرح الصدر؟ وأي عذاب أشد من ضيق الصدر؟ وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[يونس: ٦٢، ٦٤].

فالمؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشا، وأنعمهم بالا، وأشرحهم صدرا، وأسرهم قلبا، وهذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة. قال النبي ﷺ: **«إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا»** قالوا: وما رياض الجنة؟ وقال: **«حلق الذكر»**[٢]. ومن هذا قوله ﷺ: **«ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»**[٣]. ومن هذا قوله ﷺ وقد سألوه عن وصاله في الصوم وقال: **«إني لست كهيئتكم، إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني»**[٤].

فأخبر ﷺ أن ما يحصل له من الغذاء عند ربه يقوم مقام الطعام والشراب الحسي، وأن ما يحصل له من ذلك أمر مختص به، لا يشركه فيه غيره، فإذا أمسك عن الطعام والشراب فله عوض عنه يقوم مقامه وينوب منابه ويغني عنه...

[٥]وكلما كان وجود الشيء أنفع للعبد وهو إليه أحوج كان تألمه بفقده أشد.

---

(١) ٢٦٧ الجواب الكافي.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣٥١٠) وأحمد (٣/ ١٥٠) وأبو يعلى (٦/ ١٥٥ رقم ٣٤٣٢) والبيهقي في الشعب (١/ ٣٩٨ رقم ٥٢٩) والطبراني في الكبير (١١/ ٩٥ رقم ١١١٥٨) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب وانظر: كشف الخفاء (١/ ١٠٦ رقم ٢٧٨) وفتح الباري (١١/ ٢١٠).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ١١٩٦) ومسلم (رقم ١٣٩١) وانظر: فتح الباري (٤/ ١٠٠) وشرح النووي (٩/ ١٦١).

(٤) أخرجه البخاري بألفاظ متقاربة (١٩٦١-١٩٦٧) ومسلم (رقم ١١٠٣، ١١٠٤) وانظر: فتح الباري (٤/ ٢٠٧-٢٠٨).

(٥) ٢٦٨ الجواب الكافي.

وكلما كان عدمه أنفع كان تألمه بوجوده أشد، ولا شيء على الإطلاق أنفع للعبد من إقباله على الله، واشتغاله بذكره، وتنعمه بحبه، وإيثاره لمرضاته، بل لا حياة له ولا نعيم ولا سرور ولا بهجة إلاّ بذلك، فعدمه آلم شيء له، وأشد عذابًا عليه.

وإنما تغيب الروح عن شهود هذا الألم والعذاب لاشتغالها بغيره، واستغراقها في ذلك الغير، فتغيب به عن شهود ما هي فيه من ألم العقوبة بفراق أحب شيء إليها وأنفعه لها، وهذا بمنزلة السكران المستغرق في سكره، الذي احترقت داره وأمواله وأهله وأولاده، وهو لاستغراقه في السكر لا يشعر بألم ذلك الفوات وحسرته، حتى إذا صح وكشف عنه غطاء السكر وانتبه من رقدة الخمر، فهو أعلم بحاله حينئذ، وهكذا الحال سواء عند كشف الغطاء ومعاينة طلائع الآخرة والإشراف على مفارقة الدنيا والانتقال منها إلى الله، بل الألم والحسرة والعذاب هناك أشد بأضعاف أضعاف ذلك، فإن المصاب في الدنيا يرجو جبر مصيبته في الدنيا بالعوض، ويعلم أنه قد أصيب بشيء زائل لا بقاء له، فكيف بمن مصيبته بما لا عوض عنه، ولا بدل منه، ولا نسبة بينه وبين الدنيا جميعًا؟ فلو قضى الله سبحانه عليه بالموت من هذه الحسرة والألم لكان العبد جديرًا به، وإن الموت ليعد أكبر أمنيته وأكبر حسراته، هذا لو كان الألم على مجرد الفوات، كيف وهناك من العذاب على الروح والبدن أمور أخرى وجودية ما لا يقدره قدره؟ فتبارك من حمل هذا الخلق الضعيف هذين الألمين العظيمين اللذين لا تحملهما الجبال الرواسي.

فأعرض على نفسك الآن أعظم محبوب لك في الدنيا، بحيث لا تطيب لك الحياة إلاّ معه، فأصبحت وقد أخذ منك، وحيل بينك وبينه أحوج ما كنت إليه، كيف يكون حالك؟ هذا ومنه كل عوض، فكيف بمن لا عوض عنه، كما قيل:

من كل شيء إذا ضيعته عوض ... وما من الله إن ضيعته عوض[1]

---

(١) لم أجده.

وفي الأثر الإلهي: «ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب، ابن آدم اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء»[1].

[2]وقد جعل الله الحياة الطيبة لأهل معرفته ومحبته وعبادته، فقال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

وقد فسرت «الحياة الطيبة» بالقناعة والرضى والرزق الحسن وغير ذلك.

والصواب: أنها حياة القلب ونعيمه وبهجته وسروره بالإيمان ومعرفة الله ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليه، فإنه لا حياة أطيب من حياة صاحبها، ولا نعيم فوق نعيمه إلا نعيم الجنة.

كما كان بعض العارفين يقول: إنه لتمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيب[3].

وقال غيره: إنه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربًا[4].

وإذا كانت حياة القلب حياة طيبة تبعته حياة الجوارح، فإنه ملكها، ولهذا جعل الله المعيشة الضنك لمن أعرض عن ذكره، وهي عكس الحياة الطيبة.

وهذه الحياة الطيبة تكون في الدور الثلاث: أعني دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار. والمعيشة الضنك أيضًا تكون في الدور الثلاث، فالأبرار في النعيم هنا وهنالك، والفجار في الجحيم هنا وهنالك، قال الله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ [النحل: ٣٠].

---

(١) ذكر هذا الأثر ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٣٩).

(٢) ٢٥٩ مدارج جـ٣.

(٣) انظر: الوابل الصيب (ص ٧٠) وفيض القدير (١/ ٤٤٣).

(٤) انظر: الوابل الصيب (ص ٧٠).

وقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣].

فذكر الله ﷻ ومحبته وطاعته والإقبال عليه ضامن لأطيب الحياة في الدنيا والآخرة، والإعراض عنه والغفلة ومعصيته كفيل بالحياة المنغصة والمعيشة الضنك في الدنيا والآخرة. اهـ.

(١)وقد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحًا أن يحييه حياة طيبة، فهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده، وأي حياة أطيب من حياة اجتمعت همومه كلها، وصارت هما واحدة في مرضات الله؟ ولم يتشعب قلبه بل أقبل على الله؟! واجتمعت إرادته وأفكاره التي كانت منقسمة بكل واد منها شعبة على الله. فصار ذكره محبوبه الأعلى وحبه والشوق إلى لقائه والأنس بقربه هو المستولي عليه، وعليه تدور همومه وإرادته وتصوره، بل خطرات قلبه فإن سكت سكت بالله، وإن نطق نطق بالله، وإن سمع فبه يسمع وإن أبصر فبه يبصر، وبه يبطش، وبه يمشي، وبه يتحرك، وبه يسكن، وبه يحيى، وبه يموت، وبه يبعث، كما في صحيح البخاري عنه ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: **«ما تقرب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وبي يسمع، وبي يبصر وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي عن قبض روح عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولابد له منه»**(٢). فتضمن هذا الحديث الشريف الإلهي الذي حرام على غليظ الطبع كثيف القلب فهم معناه، والمراد به حصر أسباب محبته في أمرين: أداء فرائضه

---

(١) ٢٤٨ الجواب الكافي.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٠٢) وانظر: فتح الباري (١٦/ ٣٤٣-٣٤٦).

والتقرب إليه بالنوافل. وأخبر سبحانه أن أداء فرائضه أحب مما يتقرب إليه المتقربون ثم بعدها النوافل، وأن المحب لا يزال يكثر من النوافل حتى يصير محبوبا لله، فإذا صار محبوبا لله أوجبت محبة الله له محبة منه أخرى فوق المحبة الأولى، فشغلت هذه المحبة قلبه عن الفكرة والاهتمام بغير محبوبه، وملكت عليه روحه، ولم يبق فيه سعة لغير محبوبه البتة، فصار ذكر محبوبه وحبه مثله الأعلى، مالكا لزمام قلبه، مستوليا على روحه استيلاء المحبوب على محبه، الصادق في محبته، التي قد اجتمعت قوى حبه كلها له.

[1]ولهذا جعل سبحانه وحيه الذي يلقيه إلى الأنبياء روحًا، كما قال تعالى: ﴿ يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [غافر: ١٥]. في موضعين من كتابه[2]، وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢]؛ لأن حياة الأرواح والقلوب به، وهذه الحياة الطيبة هي التي خص بها سبحانه من قبِل وحيه، وعمل به، فقال: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]. فخصهم ﷻ بالحياة الطيبة في الدارين، ومثله قوله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ [هود: ٣]. ومثله قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [النحل:٣٠]، ومثله قوله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ﴾ [الزمر: ١٠]. فبين سبحانه أنه يسعد المحسن بإحسانه في الدنيا وفي الآخرة، كما أخبر أنه يُشقي المسيء بإساءته في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى

(١) ٢٣ إغاثة جـ١.

(٢) والموضع الثاني في سورة النحل: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ [النحل: ٢] (ج).

فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه: ١٢٤]. وقال تعالىٰ، وقد جمع بين النوعين: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. فأهل الهدىٰ والإيمان لهم شرح الصدر واتساعه وانفساحه، وأهل الضلال لهم ضيق الصدر والحرج.

وقال: تعالىٰ: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [الزمر: ٢٢]. فأهل الإيمان في النور وانشراح الصدور، وأهل الضلال في الظلمة وضيق الصدور.

والمقصود: أن حياة القلب وإضاءته مادة كل خير فيه، وموته وظلمته مادة كل شر فيه.

***

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

[(١)] معنىٰ «استعذ بالله» امتنع به واعتصم به والجأ إليه، ومصدره العوذ، والعياذ، والمعاذ؛ وغالب استعماله في المستعاذ به، ومنه قوله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وآله وسلم: «لَقَدْ عُذْتِ بِمُعَاذٍ»[(٢)]. وأصل اللفظة: من اللجأ إلىٰ الشيء والاقتراب منه، ومن كلام العرب «أطيب اللحم عوذه»، أي الذي قد عاذ بالعظم واتصل به. وناقة عائذ: يعوذ بها ولدها، وجمعها «عوذ» كحمر. ومنه في حديث الحديبية: «مَعَهُمُ العُوذُ المَطَافِيلُ»[(٣)]. والمطافيل: جمع مطفلٍ، وهي الناقة التي معها فصيلها.

---

(١) ٩١ إغاثة جـ١.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٢٥٥) وانظر: فتح الباري (٩/ ٣٥٧-٣٥٩).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢) وانظر: فتح الباري (٥/ ٣٣٨).

قالت طائفة ـ منهم صاحب جامع الأصول ـ: استعار ذلك للنساء، أي معهم النساء وأطفالهم، ولا حاجة إلى ذلك، بل اللفظ على حقيقته. أي قد خرجوا إليك بدوابهم ومراكبهم حتى أخرجوا معهم النوق التي معها أولادها، فأمر سبحانه بالاستعاذة به من الشيطان عند قراءة القرآن. وفي ذلك وجوه:

منها: أن القرآن شفاء لما في الصدور مذهب لما يلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات والإرادات الفاسدة، فهو دواء لما أَمَرَّه[1] فيها الشيطان، فأمر أن يطرد مادة الداء، ويخلي منه القلب، ليصادف الدواء محلاً خاليا، فيتمكن منه، ويؤثر فيه، كما قيل:

أَتَـانِي هَوَاهَـا قَبْـلَ أَنْ أَعْـرِفَ الْهَـوىٰ ... فَـصَادَفَ قَلْبـاً خَـالِياً فَتَمَكَّنَـا[2]

فيجيء هذا الدواء الشافي إلى قلب قد خلا من مزاحم ومضاد له فينجع فيه.

ومنها: أن القرآن مادة الهدى والعلم والخير في القلب، كما أن الماء مادة النبات، والشيطان نار يحرق النبات أولا فأولا، فكلما أحس بنبات الخير في القلب سعى في إفساده وإحراقه، فأمر أن يستعيذ بالله ﷻ منه، لئلا يفسد عليه ما يحصل له بالقرآن.

والفرق بين هذا الوجه والوجه الذي قبله، أن الاستعاذة في الوجه الأول لأجل حصول فائدة القرآن، وفي الوجه الثاني لأجل بقائها وحفظها وثباتها.

وكأن من قال: إن الاستعاذة بعد القراءة لاحظ هذا المعنى، وهو لعمر الله ملحظ جيد، إلا أن السنة وآثار الصحابة إنما جاءت بالاستعاذة قبل الشروع في القراءة، وهو قول جمهور الأمة من السلف والخلف، وهو محصل للأمرين.

---

(١) كذا بالأصل ولعله: أقره. (ج).

(٢) هذا البيت من بحر الطويل وينسب إلى مجنون ليلى: قيس بن الملوح بن مزاحم العامري شاعر الغزل المشهور، مات ٦٨هـ، وينسب أيضًا إلى يزيد بن الطثرية الشاعر الأموي، وكان حسن الشعر صاحب غزل مات ١٢٦هـ، وينسب أيضًا إلى ديك الجن الحمصي: عبدالسلام بن رغبان الكلبي الشاعر العباسي، مات ٢٣٥هـ، و ذكر البيت المناوي في فيض القدير (٥/ ٥٠٩).

ومنها: أن الملائكة تدنو من قارئ القرآن وتستمع لقراءته. كما في حديث أُسيد ابنُ حضَير لما كان يقرأ، ورأىٰ مثل الظلة فيها مثل المصابيح، فقال النبيّ عليه الصلاة والسلام: «تِلْكَ المَلائِكَةُ»(١). والشيطان ضد الملك وعدوه. فأمر القارئ أن يطلب من الله تعالىٰ مباعدة عدوه عنه حتىٰ يحضره خاص ملائكته، فهذه منزلة لا يجتمع فيها الملائكة والشياطين.

ومنها: أن الشيطان يجلب علىٰ القارئ بخيله ورجله، حتىٰ يشغله عن المقصود بالقرآن، وهو تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه، فيحرص بجهده علىٰ أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن، فلا يكمل انتفاع القارئ به، فأمر عند الشروع أن يستعيذ بالله ﷻ منه.

ومنها: أن القارئ يناجي الله تعالىٰ بكلامه، والله تعالىٰ أشد أذناً للقارئ الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلىٰ قينته. والشيطان إنما قراءته الشعر والغناء. فأمر القارئ أن يطرده بالاستعاذة عند مناجاته تعالىٰ، واستماع الرب قراءته.

ومنها: أن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي إلا إذا تمنىٰ ألقىٰ الشيطان في أمنيته، والسلف كلهم علىٰ أن المعنىٰ: إذا تلا ألقىٰ الشيطان في تلاوته. كما قال الشاعر في عثمان:

تَمنَّىٰ كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ ... وَآخِرَهُ لاقَىٰ حِمَامَ المَقَادِرِ(٢)

فإذا كان هذا فعله مع الرسل عليهم الصلاة والسلام فكيف بغيرهم؟ ولهذا يغلط القارئ تارة ويخلط عليه القراءة، ويشوشها عليه، فيخبط عليه لسانه، أو يشوش عليه

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٠١٨) ومسلم (رقم ٧٩٦) وانظر: شرح النووي (٦/ ٨٢).

(٢) هذا البيت من بحر الطويل ؛ينسب إلىٰ كعب بن مالك الأنصاري، قاله في رثاء الخليفة الراشد عثمان بن عفان لما قتل ﷺ، وقائله هذا صحابي جليل من أكابر الشعراء وكان من شعراء النبي ﷺ وشهد أكثر الوقائع، عمي في آخر حياته، وعاش سبعًا وسبعين سنة، ومات سنة ٥٠هـ رضي الله عنه وأرضاه. والبيت ذكره ابن منظور في لسان العرب (١٥/ ٢٩٥) والزمخشري في الفائق (٣/ ٣٩٢) والقرطبي في تفسيره (٢/ ٦) وابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٣١) والشنقيطي في أضواء البيان (٥/ ٢٨٤).

ذهنه وقلبه، فإذا حضر عند القراءة لم يعدم منه القارئ هذا أو هذا، وربما جمعهما له، فكان من أهم الأمور: الاستعاذة بالله تعالى منه.

ومنها: أن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهم بالخير، أو يدخل فيه، فهو يشتد عليه حينئذ ليقطعه عنه.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «إِنَّ شَيْطَاناً تَفَلَّتَ عَلَيَّ البَارِحَةَ، فَأَرَادَ أَنْ يَقْطَعَ عَلَيَّ صَلاتِي...»(١) الحديث.

وكلما كان الفعل أنفع للعبد وأحب إلى الله تعالى كان اعتراض الشيطان له أكثر.

وفي مسند الإمام أحمد من حديث سبرة بن أبي الفاكه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الإِسْلامِ، فَقَالَ: أَتُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وآبَاءِ آبَائِكَ؟ فعصاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ، فَقَالَ: أَتُهاجِرُ وَتَذَرُ أَرْضَكَ وَسَماءَكَ؟ وَإِنَما مَثَلُ المهَاجِرِ كالفَرَسِ في الطول فَعَصَاهُ وَهاجَر، ثُمَّ قعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ، وَهُوَ جِهَادُ النَّفْسِ وَالمَال فقال: تقَاتِلُ فَتُقْتَلُ، فَتُنْكَحُ المَرْأَةُ وَيُقْسَمُ المَالُ؟ قَالَ: فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ»(٢).

فالشيطان بالرصد للإنسان على طريق كل خير.

وقال منصور عن مجاهد رحمه الله: «ما من رفقة تخرج إلى مكة إلا جهز معهم إبليس مثل عدتهم»(٣) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره.

فهو بالرصد، ولاسيما عند قراءة القرآن، فأمر سبحانه العبد أن يحارب عدوه، الذي يقطع عليه الطريق، ويستعيذ بالله تعالى منه أولا، ثم يأخذ في السير، كما أن

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٨٠٨) ومسلم (رقم ٥٤١) وانظر: عمدة القاري (٤/ ٢٣٣).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٨٣) والنسائي في الكبرى (٣/ ١٥ رقم ٤٣٤٢) وفي المجتبى (رقم ٣١٣٤) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢/ ٢٨٤ رقم ١٠٤٣) وفي الجهاد (رقم ١٣) وابن قانع في معجم الصحابة (١/ ٣٠٣) والطبراني في الكبير (٧/ ١١٧ رقم ٦٥٥٨) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦/ ١١٨٦ رقم ٢٩٧٩) وفي صحيح سنن النسائي وفي صحيح الجامع (رقم ١٦٥٢).

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٤٢٦) وعزاه إلى ابن المنذر.

المسافر إذا عرض له قاطع طريق اشتغل بدفعه، ثم اندفع في سيره.

ومنها: أن الاستعاذة قبل القراءة عنوان وإعلام بأن المأتي به بعدها القرآن، ولهذا لم تشرع الاستعاذة بين يدي كلام غيره، بل الاستعاذة مقدمة وتنبيه للسامع أن الذي يأتي بعدها هو التلاوة، فإذا سمع السامع الاستعاذة استعد لاستماع كلام الله تعالى، ثم شرع ذلك للقارئ، وإن كان وحده، لما ذكرنا من الحكم وغيرها.

فهذه بعض فوائد الاستعاذة.

وقد قال أحمد في رواية حنبل: «لا يقرأ في صلاة ولا غير صلاة، إلا استعاذ؛ لقوله ﷻ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

وقال في رواية ابن مشيش: «كلما قرأ يستعيذ».

وقال عبد الله بن أحمد: «سمعت أبي كان إذا قرأ استعاذ، يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم».

وفي المسند والترمذي من حديث أبي سعيد الخدري قال: كانَ النَّبِيُّ ﷺ إذا قامَ إِلَى الصَّلاةِ اسْتَفْتَحَ ثُمَّ يَقُولُ: «أَعُوذُ باللهِ السَّمِيعِ العليم مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ»[(١)].

وقال ابن المنذر: جَاءَ عَن النبيِّ ﷺ أَنَّهُ كانَ يَقُولُ قَبْلَ الْقِرَاءَةِ: «أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»[(٢)]. واختار الشافعي وأبو حنيفة والقاضي في الجامع أنه كان يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، وهو رواية عن أحمد، لظاهر الآية، وحديث ابن

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٥٠) (٤/ ٨٥) وابن حبان (٥/ ٧٨-٧٩ رقم ١٧٧٩) وابن خزيمة (١/ ٢٣٨ رقم ٤٦٧) وأبو داود (رقم ٧٧٥) وابن ماجه (رقم ٨٠٧) والبيهقي في الكبرى (٢/ ٣٥ رقم ٢١٨٥) وفي الصغرى (رقم ٢٧٨) وابن أبي شيبة (١/ ٢١٥ رقم ٢٤٦٠) والطبراني في الكبير (٢/ ١٣٤ رقم ١٥٦٩) وأبو يعلى (٨/ ٤١١ رقم ٤٩٩٤) وتمام في فوائده (رقم ١١٧) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، وفي مشكاة المصابيح (رقم ١٢١٧).

(٢) أخرجه ابن حبان (٥/ ٨٠ رقم ١٧٨٠) وفي الموارد (رقم ٤٤٣) والبيهقي في الكبرى (٢/ ٣٥ رقم ٢١٨٣).

المنذر. وعن أحمد من رواية عبد الله: «أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ». لحديث أبي سعيد، وهو مذهب الحسن وابن سيرين، ويدل عليه ما رواه أبو داود في قصة الإفك: أنّ النبيَّ ﷺ جَلَسَ وَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ، وَقَالَ: «أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ العليم مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»[١].

وعن أحمد رواية أخرى أنه يقول: «أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»[٢]. وبه قال سفيان الثوري ومسلم بن يسار، واختاره القاضي في المجرد وابن عقيل؛ لأن قوله: ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨]. ظاهره أنه يستعيذ بقوله: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» وقوله في الآية الأخرى: ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت: ٣٦]. يقتضي أن يلحق بالاستعاذة وصفه بأنه هو السميع العليم في جملة مستقلة بنفسها مؤكدة بحرف «إن»، لأنه سبحانه هكذا ذكره. وقال إسحاق: الذي أختاره ما ذكر عن النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ». وقد جاء في الحديث تفسير ذلك، قال: «وهمزه: المُوْتة، ونفخه: الكبر، ونفثه: الشعر»[٣].

[٤]وأما قوله: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ فعلى ما

---

(١) أخرجه ابن خزيمة (١/ ٢٣٨ رقم ٤٦٧) وأبو داود (رقم ٧٧٥) والبيهقي في الكبرى (٢/ ٣٤ رقم ٢١٧٩) والدارقطني (١/ ٢٩٨ رقم ٤) والدارمي (رقم ١٢٣٩) والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ١٩٧) وعبدالرزاق (٢/ ٧٥ رقم ٢٥٥٤) وأحمد (٣/ ٥٠) وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ٢٦٥): رواه أحمد ورجاله ثقات. وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٥).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١/ ٢٥١ رقم ٢٤٥٨) وعبد الرزاق (٢/ ٨٠-٨١ رقم ٢٥٦٨) وانظر: المغني (١/ ٢٨٣).

(٣) انظر: صحيح ابن حبان (٦/ ٣٣٦) وصحيح ابن خزيمة (١/ ٢٤٠) وسنن أبي داود (١/ ٢٠٣) وسنن البيهقي في الكبرى (٢/ ٣٥) وتهذيب الآثار (٢/ ٦٤٦) والوابل الصيب (ص ١٤٣) ونيل الأوطار (٢/ ٢١٤) ولسان العرب (٣/ ٦٤).

(٤) ١٩٦ بدائع جـ١.

ذكرنا من التعبير عن إرادة الفعل بالفعل هذا هو المشهور.

وفيه وجه ألطف من هذا، وهو أن العرب تعبر بالفعل عن ابتداء الشروع فيه تارة، وتعبر عن انتهائه تارة، فيقولون: فعلت عند الشروع، وفعلت عند الفراغ، وهذا استعمال حقيقي.

وعلى هذا فيكون معنى ﴿ قَرَأْتَ ﴾ في الآية ابتداء الفعل، أي: إذا شرعت وأخذت في القراءة فاستعذ. فالاستعاذة مرتبة على الشروع الذي هو مبادئ الفعل ومقدمته وطليعته.

[1]فالقرآن أرشد إلى دفع هذين العدوين بأسهل الطرق بالاستعاذة والإعراض عن الجاهلين ودفع إساءتهم بالإحسان. وأخبر عن عظم حظ من لَقَّاه ذلك، فإنه ينال بذلك كف شر عدوه وانقلابه صديقا، ومحبة الناس له، وثناءهم عليه، وقهر هواه، وسلامة قلبه من الغل والحقد وطمأنينة الناس- حتى عدوه - إليه. هذا غير ما يناله من كرامة الله وحسن ثوابه ورضاه عنه، وهذا غاية الحظ عاجلاً وآجلاً، ولما كان ذلك لا ينال إلا بالصبر، قال: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ [فصلت: ٣٥] فإن النَّزِق الطائش لا يصبر على المقابلة.

ولما كان الغضب مركب الشيطان، فتتعاون النفس الغضبية والشيطان على النفس المطمئنة التي تأمر بدفع الإساءة بالإحسان - أمر أن يعاونها بالاستعاذة منه، فتُمِدّ الاستعاذة النفس المطمئنة فتقوى على مقاومة جيش النفس الغضبية، ويأتي مدد الصبر الذي يكون النصر معه، وجاء مدد الإيمان والتوكل، فأبطل سلطان الشيطان فـ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [النحل: ٩٩]. قال مجاهد وعكرمة والمفسرون: ليس له حجة.

والصواب: أن يقال: ليس له طريق يتسلط به عليهم: لا من جهة الحجة، ولا من جهة القدرة. والقدرة داخلة في مسمى السلطان، وإنما سميت الحجة سلطانا؛ لأن

---

(١) ٩٨ إغاثة جـ١.

صاحبها يتسلط بها تسلط صاحب القدرة بيده، وقد أخبر سبحانه أنه لا سلطان لعدوه على عباده المخلصين المتوكلين، فقال في سورة الحجر: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٣٩ - ٤٢].

وقال في سورة النحل: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٩٩- ١٠٠]. فتضمن ذلك أمرين: أحدهما نفي سلطانه وإبطاله على أهل التوحيد والإخلاص. والثاني إثبات سلطانه على أهل الشرك وعلى من تولاه.

ولما علم عدو الله أن الله تعالى لا يسلطه على أهل التوحيد والإخلاص قال: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢- ٨٣].

فعلم عدو الله أن من اعتصم بالله، ﷻ، وأخلص له وتوكل عليه لا يقدر على إغوائه وإضلاله، وإنما يكون له السلطان على من تولاه وأشرك مع الله، فهؤلاء رعيته وهو وليهم وسلطانهم ومتبوعهم.

فإن قيل: فقد أثبت له السلطان على أوليائه في هذا الموضع. فكيف ينفيه في قوله: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ﴾ [سبأ: ٢٠، ٢١]. قيل: إن كان الضمير في قوله: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾ [سبأ: ٢١]. عائدًا على المؤمنين فالسؤال ساقط، ويكون الاستثناء منقطعًا: أي لكن امتحنّاهم بإبليس، لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك. وإن كان عائدًا على ما عاد عليه في قوله: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ ﴾ [سبأ: ٢٠]. وهو الظاهر، ليصح الاستثناء المنقطع بوقوعه بعد النفي ويكون المعنى: وما سلطناه عليهم إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة. قال

ابن قُتيبة: «إن إبليس لما سأل الله تعالى النظرة فأنظره[1] قال: ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ ﴾ [ص: ٨٢]. ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ ﴾ ... ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ ﴾ بكذا [النساء: ١١٩]، ﴿ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ [النساء: ١١٨] وليس هو في وقت هذه المقالة مستيقنًا أن ما قدره فيه يتم، وإنما قال ظانًّا، فلما اتَّبعوه وأطاعوه صدق عليهم ما ظنه فيهم، فقال تعالى: وما كان تسليطنا إياه إلا لنعلم المؤمنين من الشاكين، يعني نعلمهم موجودين ظاهرين، فيحق القول ويقع الجزاء».

وعلى هذا فيكون السلطان هاهنا على من لم يؤمن بالآخرة وشك فيها، وهم الذين تولوه وأشركوا به، فيكون السلطان ثابتًا لا منفيًا، فتتفق هذه الآية مع سائر الآيات.

فإن قيل: فما تصنع بالتي في سورة إبراهيم. حيث يقول لأهل النار: ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. وهذا وإن كان قوله فالله سبحانه أخبر به عنه مقرراً له، لا منكرا، فدل على أنه كذلك.

قيل: هذا سؤال جيد. وجوابه: أن السلطان المنفي في هذا الموضع: هو الحجة والبرهان، أي ما كان لي عليكم من حجة وبرهان أحتج به عليكم، كما قال ابن عباس: «ما كان لي من حجة أحتج بها عليكم» أي: ما أظهرت لكم حجة إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي، وصدقتم مقالتي، واتبعتموني بلا برهان ولا حجة.

وأما السلطان الذي أثبته في قوله: ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ ﴾ [النحل: ١٠٠]. فهو تسلطه عليهم بالإغواء والإضلال، وتمكنه منهم، بحيث يؤزُّهم إلى الكفر والشرك ويزعجهم إليه، ولا يدعهم يتركونه، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَاطِينَ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣]. قال ابن عباس: «تغريهم إغراء»[2] وفي

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره عن أبي قلابة (٤/ ٣٠١) وابن أبي شيبة (٧/ ٦٢ رقم ٣٤٢١٧) وعبدالرزاق (١١/ ٢٧٥ رقم ٢٠٥٣٣) وابن المبارك في الزهد (رقم ١٠٤٥).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ١٢٥) وورد هذا من قول سفيان الثوري، ذكره عنه كل من ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٣٧) وابن حجر في الفتح (٨/ ٤٢٧). وذكره العيني في عمدة القاري من قول سعيد بن جبير (١٩/ ٥٠) وذكره الحربي من قول الضحاك في غريب الحديث (٣/ ٩٨٤).

رواية: «تشليهم إشلاء»(١) وفي لفظ: «تحرضهم تحريضًا» وفي آخر: «تزعجهم إلى المعاصي إزعاجًا»(٢) وفي آخر: «توقدهم»(٣) أي تحركهم كما يحرك الماء بالإيقاد تحته، قال الأخفش: «توهجهم»(٤).

وحقيقة ذلك: أن «الأزَّ» هو التحريك والتهييج، ومنه يقال لغليان القدر: الأزيز؛ لأن الماء يتحرك عند الغليان. ومنه الحديث: «لجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء»(٥). قال أبو عبيدة «الأزيز» الالتهاب والحركة، كالتهاب النار في الحطب، يقال: إزَّ قِدْرَك، أي ألْهِب تحتها بالنار(٦)، وأيزت القدر إذا اشتد غليانها، فقد حصل للأزِّ معنيان: أحدهما: التحريك، والثاني: الإيقاد والإلهاب، وهما متقاربان، فإنه تحريك خاص بإزعاج وإلهاب.

فهذا من السلطان الذي له على أوليائه وأهل الشرك، ولكن ليس له على ذلك سلطان حجة وبرهان، وإنما استجابوا له بمجرد دعوته إياهم، لما وافقت أهواءهم

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ١٢٥) عن ابن زيد. وذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٣٧) من قول مجاهد. وكذا فعل ابن منظور في اللسان (٥/ ٣٠٨).

(٢) أخرجه البخاري تعليقًا من قول سفيان بن عيينة (ص ٩١٤) قبل حديث (رقم ٤٧٣٠) وانظر: فتح الباري (٨/ ٤٢٧) وعمدة القاري (١٩/ ٥٠) وأخرجه من قول قتادة كل من عبدالرزاق الصنعاني في تفسيره (٣/ ١٢-١٣) والطبري في تفسيره (١٦/ ١٢٥). وذكره ابن كثير من قول ابن عباس في تفسيره (٢/ ٢٨٠) ومن قول قتادة في تفسيره أيضًا (٣/ ١٣٧).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره من قول ابن عباس (٥/ ٥٣٨).

(٤) ذكره عنه بدر الدين العيني في عمدة القاري (١٩/ ٥٠).

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ١٢٦) والضياء المقدسي في المختارة (٩/ ٤٦٢ رقم ٤٣٦) والحاكم (١/ ٣٩٦ رقم ٩٧١) وابن حبان (٢/ ٤٣٩ رقم ٦٦٥) وابن خزيمة (٢/ ٥٣ رقم ٩٠٠) والنسائي في الكبرى (١/ ١٩٥ رقم ٥٤٥). وفي المجتبى (رقم ١٢١٤) وأحمد (٤/ ٢٥، ٢٦) وأبو يعلى (٣/ ١٧٤ رقم ١٥٩٩) وعبد بن حميد (رقم ٥١٤) وصححه النووي في رياض الصالحين (ص ١٣٤) وقال الحافظ في الفتح (٢/ ٢٠٦): وإسناده قوي وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم.

(٦) ذكره عنه كل من الحربي في غريب الحديث (٣/ ٩٨١) وابن سلام في غريب الحديث (١/ ٢٢١-٢٢٢) وابن منظور في اللسان (٥/ ٣٠٧).

وأغراضهم، فهم الذين أعانوا على أنفسهم ومكنوا عدوهم من سلطانه عليهم، بموافقته ومتابعته فلما أعطوا بأيديهم واستأسروا له سُلِّط عليهم؛ عقوبة لهم. وبهذا يظهر معنى قوله سبحانه: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ١٤١](١).

(٢)وقد أخبر تعالى أن تسليط الشيطان إنما هو على الذين يتولونه، والذين هم به مشركون، فلما تولوه دون الله وأشركوه معه عوقبوا على ذلك بتسليطه عليهم، وكانت هذه الأولية والإشراك عقوبة خلو القلب وفراغه من الإخلاص والإنابة العاصمة من ضدها، فقد بين أن إخلاص الدين يمنع من سلطان الشيطان لأن فعل السيئات التي توجب العذاب، فإخلاص القلب لله مانع له من فعل ما يضاده، وإلهامه البر والتقوى ثمرة هذا الإخلاص ونتيجته، وإلهام الفجور عقوبة خلوه من الإخلاص.

فإن قلت: هذا الترك إن كان أمرًا وجوديًا عاد السؤال، وإن كان أمرًا عدميًا فكيف يعاقب على العدم؟

وقلت: ليس هنا ترك هو كف النفس ومنعها عما تريده وتحبه؛ فهذا قد يقال: إنه أمر وجودي، وإنما هنا عدم وخلو عن أسباب الخير، وهذا العدم ليس بكف للنفس ومنع لها عما تريده وتحبه، بل هو محض خلوها مما هو أنفع شيء لها، والعقوبة على الأمر العدمي هي بفعل السيئات لا بالعقوبات التي تناله بعد إقامة الحجة عليه بالرسل، فلله سبحانه عقوبتان.

إحداهما: جعله خاطئًا مذنبًا لا يحس بألمها ومضرتها لموافقتها شهوته وإرادته، وهي في الحقيقة من أعظم العقوبات.

والثانية: العقوبات المؤلمة بعد فعله للسيئات.

وقد قرن الله تعالى بين هاتين العقوبتين في قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤] فهذه العقوبة الأولى، ثم قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ

---

(١) بقية البحث على هذه الآية في سورة النساء، ويأتي في سبأ نقلها عن الجواب الكافي (ج).

(٢) ٣٢٧ مختصر الصواعق جـ١.

بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤] فهذه العقوبة الثانية.

وأعط هذا الموضع حقه من التأمل، وانظر كيف ترتبت هاتان العقوبتان: إحداهما على الأخرى، لكن العقوبة الأولى عقوبة موافقة لهواه وإرادته، والثانية مخالفة لما يحبه ويتلذذ به.

وتأمل عدل الرب تعالى في هذه وهذه، وأنه سبحانه إنما وضع العقوبة في محلها الأولى بها، الذي لا يليق بها غيره، وهذا أمر لو لم تشهده القلوب وتعرفه لما جاز أن ينسب إلى الله تعالى سواه، ولا يظن به غيره، فإنه من ظن السوء بمن يتعالى ويتقدس عن كل سوء وعيب.

فإن قلت: هل كان يمكنهم أن يأتوا بالإخلاص والإنابة والمحبة له وحده، من غير أن يخلق ذلك في قلوبهم، ويجعلهم مخلصين له، أم ذلك محض جعله في قلوبهم؟.

قلت: لا، بل هو محض منته وفعله، وهو من أعظم الخير الذي هو في يده، فالخير كله في يديه، ولا يقدر أحدنا يأخذ من الخير إلا ما أعطاه، ولا يتقي من الشر إلا ما وقاه.

فإن قلت: فإذا لم يخلق ذلك في قلوبهم، ولم يوفقوا له، ولا سبيل لهم إليه بأنفسهم عاد السؤال، وكان منعهم منه ظلمًا، ولزمك القول بأن العدل هو تصرف المالك في ملكه؟

قيل: لا يكون بمنعه سبحانه لهم من ذلك ظالمًا، وإنما يكون المانع ظالمًا إذا منع غيره حقًّا لذلك الغير عليه، وهذا هو الذي حرَّمه الرب على نفسه، وأما إذا منع غيره ما ليس حقًّا له، بل محض فضله ومنته عليه لم يكن ظالمًا بمنعه.

***

﴿ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾.

[(١)]تأمل حسن الاعتراض وجزالته في قول الرب تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ [النحل: ١٠١].

فقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ اعتراض بين الشرط وجوابه أفاد أمورًا:

منها: الجواب عن سؤال سائل: ما حكمة هذا التبديل وما فائدته؟

ومنها: أن الذي بدل وأتى بغيره منزل محكم نزوله قبل الإخبار بقولهم.

ومنها: أن مصدر الأمرين عن علمه تبارك وتعالى، وأن كلًّا منهما منزل؛ فيجب التسليم والإيمان بالأول والثاني.

***

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

[(٢)]المخرج الثالث: أن يكون مكرهًا على الطلاق أو الحلف به عند جمهور الأمة: من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وهو قول أحمد ومالك والشافعي وجميع أصحابهم، على اختلاف بينهم في حقيقة الإكراه وشروطه[(٣)].

قال الإمام أحمد في رواية أبي طالب يمين المستكره إذا ضرب. ابن عمر وابن الزبير لم يرياه شيئًا. وقال في رواية أبي الحارث: إذا طلق المكره لم يلزمه الطلاق، فإذا فعل به كما فعل بثابت بن الأحنف فهو مكره، لأن ثابتا عصروا رجله حتى طلق، فأتى ابن عمر وابن الزبير فلم يريا ذلك شيئًا[(٤)]، وكذا قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ

---

(١) ١٤٠ التبيان.

(٢) ٥١ أعلام جـ٤.

(٣) انظر: الأم (٧/ ٧٧) وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٣٥/ ١١) والكافي في فقه ابن حنبل (٤/ ٣٧٣) وإعانة الطالبين (٤/ ٣١٠) وشرح فتح القدير (٥/ ٦٥).

(٤) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٥٨٧ رقم ١٢٢٠) وانظر: سير أعلام النبلاء (٨/ ٨٠) والاستذكار (٦/ ٢٠١).

مُطْمَئِنٌّ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

وقال الشافعي ﷺ قال ﷻ: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّ بِٱلْإِيمَـٰنِ ﴾ وللكفر أحكام، فلما وضعها الله تعالىٰ عنه سقطت أحكام الإكراه عن القول كله، لأن الأعظم إذا سقط عن الناس سقط ما هو أصغر منه[(١)].

وفي سنن ابن ماجه وسنن البيهقي: من حديث بشر بن بكر عن الأوزاعي عن عطاء عن عبيد بن عمير عن ابن عباس عن النبي ﷺ: «إن الله وضع عن أمتي»[(٢)] وقال البيهقي: «تجاوز لي عن أمتي: الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[(٣)].

***

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

[(٤)]قوله: وكذلك أيضًا حذف المضاف مجاز، وقد كثر حتى إن في القرآن الذي هو أفصح الكلام منه أكثر من ثلاثمائة موضع، جوابه من وجهين:

أحدهما: أن أكثر المواضع التي ادعى فيها ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا ﴾ [الأعراف: ٤] ﴿

---

(١) انظر: الأم للشافعي (٣/ ٢٣٦) وأحكام القرآن له أيضًا (١/ ٢٢٤) والسنن الكبرىٰ للبيهقي (٧/ ٣٥٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه (رقم ٢٠٤٥) والبيهقي في الكبرىٰ (٦/ ٨٤ رقم ١١٢٣٦) والطبراني في الأوسط (٨/ ١٦١ رقم ٨٢٧٣) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٥٢) وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٥٠): رواه الطبراني في الأوسط وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف، وقال الكناني في مصباح الزجاجة (٢/ ١٢٦): هذا إسناد صحيح إن سلم من الانقطاع، والظاهر أنه منقطع. وقال ابن كثير في تحفة الطالب (رقم ١٥٨): إسناده جيد. وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ١٨٣٦) وفي صحيح سنن ابن ماجه.

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرىٰ (٧/ ٣٥٦ رقم ١٤٨٧١) وقال: جوّد إسناده بشر بن بكر، وهو من الثقات. وحسنه ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٣٧١).

(٤) مختصر الصواعق جـ٢.

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ ﴾ [الطلاق: ٨] إلى الحذف في القرآن لا يلزم فيها الحذف، ولا دليل على صحة دعواه، كقوله إلى أمثال ذلك، فادعى أهل المجاز أن ذلك كله من مجاز الحذف، وأن التقدير في ذلك كله أهل القرية، وهذا غير لازم؛ فإن القرية اسم للقوم المجتمعين في مكان واحد، فإذا نسب إلى القرية فعل أو حكم عليها بحكم أو أخبر عنها بخبر، كان في الكلام ما يدل على إرادة المتكلم من نسبة ذلك إلى الساكن أو المسكن، أو هو حقيقة في هذا وهذا، وليس ذلك من باب الاشتراك اللفظي، بل القرية موضوعة للجماعة الساكنين بمكان واحد، فإذا أطلقت تناولت الساكن والمسكن، وإذا قيدت بتركيب خاص واستعمال خاص كانت حقيقة فيما قيدت به، فقوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً ﴾ [النحل: ١١٢] حقيقة في الساكن وكذلك لفظة القرية في عامة القرآن؛ إنما يراد بها الساكن فتأمله، وقد يراد بها المسكن خاصة، فيكون في السياق ما يعينه، كقوله تعالى: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ [البقرة: ٢٥٩] أي: ساقطة على سقوفها، وهذا التركيب يعطي المراد، فدعوى أن هذا حقيقة القرية، وأن قوله: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ ﴾ [الطلاق: ٨] ونحوه تحكم بارد لا معنى له، وهو بالضد أولى، إذ قد اطرد استعمال القرية إلى الساكن، وحقيقة الأمر أن اللفظة موضوعة للساكن باعتبار المسكن، ثم قد يقصد هذا دون هذا، وقدي يرادان معًا فلا مجاز ههنا ولا حذف، وتخلصت بهذا من ادعاء الحذف فيما شاء الله من المواضيع، التي زعم أنها تزيد على ثلاثمائة.

الوجه الثاني: أن هذا الحذف الذي يزعمه هؤلاء ليس بحذف في الحقيقة؛ فإن قوة الكلام تعطيه، ولو صرح المتكلم بذكره كان عيًّا وتطويلًا مخلًّا بالفصاحة كقوله: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ ﴾ [الحشر: ٧] قالوا: هذا مجاز تقديرهما: أفاء الله من أموال أهل القرى، وهذا غلط وليس بمجاز، ولا يحتاج إلى هذا التقدير،

والمعنى مفهوم بدون هذا التقدير، فالقائل،: اتصل إليَّ من فلان ألف يصح كلامه لفظًا ومعنى بدون تقدير، فإن من للابتداء في الغاية، فابتداء الحصول من المجرور بمن، وكذلك في الآية اهـ.

(١)وقد حرم الله سبحانه القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء، وجعله من أعظم المحرمات، بل جعله في المرتبة العليا منها، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]. فرتب المحرمات أربع مراتب، وبدأ بأسهلها وهو الفواحش، ثم ثنَّى بما هو أشد تحريما منه وهو الإثم والظلم، ثم ثلَّث بما هو أعظم تحريما منهما وهو الشرك به سبحانه، ثم ربَّع بما هو أشد تحريما من ذلك كله، وهو القول عليه بلا علم، وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله، وفي دينه وشرعه، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧] فتقدم إليهم سبحانه بالوعيد على الكذب عليه في أحكامه، وقولهم لما لم يحرمه: هذا حرام. ولما لم يحله: هذا حلال. وهذا بيان منه سبحانه: أنه لا يجوز للعبد أن يقول: هذا حلال، وهذا حرام، إلا بما علم أن الله سبحانه أحله وحرمه.

***

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾.

(٢)هذه أربع أنواع من الثناء افتتحها بأنه أمة والأمة، هو القدوة الذي يؤتم به.

---

(١) ٣٨ أعلام جـ١.

(٢) ١٧٤ مفتاح جـ١.

قال ابن مسعود: والأمة المعلم للخير[1]. وهي فعلة من الائتمام: كقدوة وهو الذي يقتدي به. والفرق بين الأمة والإمام من وجهين:

أحدهما: أن الإمام كل ما يؤتم به، سواء كان بقصده وشعوره أو لا، ومنه سمي الطريق إمامًا، كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝٧٨ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٨، ٧٩] أي: بطريق واضح، لا يخفى على السالك، ولا يسمى الطريق أمة.

الثاني: أن الأمة فيه زيادة معنى، وهو الذي جمع صفات الكمال من العمل والعلم؛ بحيث بقي فيها فردًا وحده، فهو الجامع لخصال تفرقت في غيره، فكأنه باين غيره باجتماعها فيه، وتفرقها أو عدمها في غيره، ولفظ الأمة يشعر بهذا المعنى، لما فيه من الميم المضعفة الدالة على الضم بمخرجها وتكريرها، وكذلك ضم أوله فإن الضمة من الواو ومخرجها ينضم عند النطق بها، وأتى بالتاء الدالة على الوحدة كالغرفة واللقمة، ومنه الحديث: «إن زيد بن عمرو بن نفيل يبعث يوم القيامة أمة وحده»[2] فالضم والاجتماع لازم لمعنى الأمة. ومنه سميت الأمة التي هي آحاد الأمم؛ لأنهم الناس المجتمعون على دين واحد أو في عصر واحد.

الثاني: قوله: ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ قال ابن مسعود: القانت المطيع[3]، والقنوت يفسر بأشياء

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٤/ ١٩٢) والحاكم (٢/ ٣٩٠ رقم ٢٣٦٧) والطبراني في الكبير (١٠/ ٥٩ رقم ٩٩٤٣) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٤٩) رواه الطبراني بأسانيد ورجال بعضها رجال الصحيح. وانظر: فتح الباري (٨/ ٣٨٧).

(٢) أخرجه الضياء (٣/ ٣٠٧-٣٠٨ رقم ١١١٠) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢/ ٧٧ رقم ٧٧٤) والطبراني في الكبير (١/ ١٥١ رقم ٣٥٠) (٥/ ٨٦ رقم ٤٦٦٣) وأبو يعلى (٤/ ٤١ رقم ٢٠٤٧) وأحمد (١/ ١٨٩) والشاشي في مسنده (١/ ٢٥٧ رقم ٢٢٧).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠/ ٦٠ رقم٩٩٤٨) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٥٨/ ٤٢٠) وابن سعد في الطبقات (٢/ ٣٤٩) وانظر: تغليق التعليق (٤/ ٢٣٦) ومقدمة فتح الباري (ص ١٧٦) وتفسير ابن كثير (٤/ ٤٨).

كلها ترجع إلى دوام الطاعة.

الثالث: قوله ﴿ حَنِيفًا ﴾ والحنيف المقبل على الله، ويلزم هذا المعنى ميله عما سواه، فالميل لازم معنى الحنيف، لا أنه موضوعه لغة.

الرابع: قوله: ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ والشكر للنعم مبني على ثلاثة أركان: الإقرار بالنعمة، وإضافتها إلى المنعم بها، وصرفها في مرضاته، والعمل فيها بما يجب، فلا يكون العبد شاكرًا إلا بهذه الأشياء الثلاثة.

والمقصود أنه مدح خليله بأربع صفات، كلها ترجع إلى العلم والعمل بموجبه وتعليمه ونشره، فعاد الكمال كله إلى العلم والعمل بموجبه ودعوة الخلق إليه.

[(١)]وأثنى سبحانه على خليله إبراهيم بشكر نعمه، فقال: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠] فأخبر عنه سبحانه بأنه أمة أي قدوة يؤتم به في الخير وأنه قانتًا لله، والقانت هو المطيع المقيم على طاعته، والحنيف هو المقبل على الله المعرض عما سواه.

ثم ختم له بهذه الصفات بأنه شاكر لأنعمه، فجعل الشكر غاية خليله.

وأخبر سبحانه أن الشكر هو الغاية من خلقه وأمره، بل هو الغاية التي خلق عبيده لأجلها ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨] فهذه غاية الخلق وغاية الأمر، فقال: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٣] ويجوز أن يكون قوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ تعليلا لقضائه لهم بالنصر، ولأمره لهم بالتقوى، ولهما معا وهو الظاهر، فالشكر غاية الخلق والأمر.

وقد صرح سبحانه بأنه غاية أمره وإرساله الرسول في قوله تعالى: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ

---

(١) ١٢٤ عدة الصابرين.

وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٢١] قالوا: فالشكر مراد لنفسه، والصبر مراد لغيره، والصبر إنما حمد لإفضائه وإيصاله إلى الشكر، فهو خادم الشكر.

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي أنه قام حتى تفطرت قدماه، فقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»(١).

وثبت في المسند والترمذي: أن النبي ﷺ قال لمعاذ: «والله إني لأحبك، فلا تنسى أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك»(٢).

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا أبو معاوية وجعفر بن عون، عن هشام بن عروة قال: كان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»(٣).

***

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٨٣٦) ومسلم (رقم ٢٨١٩) وانظر: فتح الباري (٩/ ١٠٥) وشرح النووي (١٧/ ١٦٢).

(٢) أخرجه ابن حبان (٥/ ٣٦٤ رقم ٢٠٢٠) وابن خزيمة (١/ ٣٦٩ رقم ٧٥١) والنسائي في الكبرى (١/ ٣٨٧ رقم ١٢٢٦) وفي المجتبى (رقم ١٣٠٣) وأبو داود (رقم ١٥٢٢) والطبراني في الكبير (٢٠/ ٦٠ رقم ١١٠) والبزار (٧/ ١٠٤ رقم ٢٦٦١) وعبد بن حميد (رقم ١٢٠) وصححه النووي في رياض الصالحين (ص١١٥-١١٦) (ص٣٢٠) وتهذيب الأسماء (٢/ ٤٠٣) وقال في الخلاصة: إسناده صحيح، انظر: نصب الراية (٢/ ٢٣٥).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٤) وابن أبي شيبة (٦/ ١٠٤ رقم ٢٩٨٢٥) والبزار (٥/ ٤٣٨ رقم ٢٠٧٥) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٧٢): رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير عمرو بن عبدالله الأودي وهو ثقة.

(١) العظة يراد بها أمران: الأمر والنهي المقرونان بالرغبة والرهبة، ونفس الرغبة والرهبة، فالمنيب المتذكر: شديد الحاجة إلى الأمر والنهي، والمعرض الغافل شديد الحاجة إلى الترغيب والترهيب، والمعارض المتكبر: شديد الحاجة إلى المجادلة.

فجاءت هذه الثلاثة في حق هؤلاء الثلاثة في قوله: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥] أطلق الحكمة، ولم يقيدها بوصف الحسنة، إذ كلها حسنة، ووصف الحسن لها ذاتي.

وأما الموعظة فقيدها بوصف الإحسان، إذ ليس كل موعظة حسنة.

وكذلك الجدال قد يكون بالتي هي أحسن، وقد يكون بغير ذلك، وهذا يحتمل أن يرجع إلى حال المجادل وغلظته، ولينه وحدته ورفقه، فيكون مأمورًا بمجادلتهم بالحال التي هي أحسن.

ويحتمل أن يكون صفة لما يجادل به، من الحجج والبراهين، والكلمات التي هي أحسن شيء وأبينه، وأدله على المقصود، وأوصله إلى المطلوب، والتحقيق: أن الآية تتناول النوعين.

(٢) الله سبحانه يجزي العبد على ما عمل من خير في الدنيا ولابد، ثم في الآخرة يوفيه أجره، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥] فما يحصل في الدنيا من الجزاء على الأعمال الصالحة ليس جزاء توفية، وإن كان نوعًا آخر كما قال تعالى عن إبراهيم: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٧] وهذا نظير قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النحل: ١٢٢] فأخبر سبحانه أنه أتى خليله أجره في الدنيا من النعم التي أنعم بها عليه في نفسه وقلبه وولده وماله وحياته الطيبة، ولكن ليس ذلك

---

(١) ٤٤٥ مدارج جـ١.

(٢) ١٦٤ أعلام جـ٢.

أجر توفية، وقد دل القرآن في غير موضع على أن لكل من عمل خيرًا أجر [ين][1] عمله في الدنيا ويكمل له أجره في الآخرة، كقوله تعالى ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [النحل: ٣٠] وفي الآية الأخرى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةًۖ وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤١] وقال في هذه السورة ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧] وقال فيها عن خليله ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةًۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النحل: ١٢٢]، فقد تكرر هذا المعنى في هذه السورة دون غيرها في أربعة مواضع لسر بديع، فإنها سورة النعم، التي عدد الله سبحانه فيها أصول النعم وفروعها، فعرف عباده أن لهم عنده في الآخرة من النعم أضعاف هذه بما لا يدرك تفاوته، وأن هذه من بعض نعمه العاجلة عليهم، وأنهم إن أطاعوه زادهم إلى هذه النعم نعما أخرى، ثم في الآخرة يوفيهم أجور أعمالهم تمام التوفية، وقال تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ [هو: ٣].

***

﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾.

[2]قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١٢٧] وقول شعيب: ﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [هود: ٨]. ومعلوم أن الصبر والتوفيق فعل اختياري للعبد، وقد أخبر أنه به لا بالعبد، وهذا لا ينبغي أن يكون فعلًا للعبد حقيقة، ولهذا أمر به، وهو لا يأمر عبده بفعل نفسه سبحانه، وإنما يؤمر العبد بفعله هو، ومع هذا فليس فعله واقعًا به، وإنما هو بالخالق لكل شيء، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

---

(١) كذا في الأصل، ولعل الصحة حذف ما بين المعكوفين (ج).

(٢) ٦٣ شفاء العليل.

فالتصبير منه سبحانه وهو فعله، والصبر هو القائم بالعبد وهو فعل العبد؛ ولهذا أثنى على من يسأله أن يصبره، فقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٠، ٢٥١]. ففي الآية أربعة أدلة:

أحدها: قولهم: ﴿ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا ﴾ والصبر فعلهم الاختياري، فسألوه ممن هو بيده ومشيئته وإذنه: إن شاء أعطاهموه، وإن شاء منعهموه.

الثاني: قولهم: ﴿ وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾ وثبات الأقدام فعل اختياري، ولكن التثبيت فعله، والثبات فعلهم، ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله.

الثالث: قوله: ﴿ وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ فسألوه النصر، وذلك بأن يقوي عزائمهم ويشجعهم ويصبرهم ويثبتهم، ويلقي في قلوب أعدائهم الخور والخوف والرعب؛ فيحصل النصر.

وأيضًا فإن كون الإنسان منصورًا على غيره؛ إما أن يكون بأفعال الجوارح، وهو واقع بقدرة العبد واختياره، وإما أن يكون بالحجة والبيان والعلم، وذلك أيضًا بفعل العبد، وقد أخبر سبحانه أن النصر بجملته من عنده، وأثنى على من طلبه منه. وعند القدرية لا يدخل تحت مقدور الرب.

والرابع: قوله: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ وإذنه هاهنا هو الإذن الكوني القدري أي: بمشيئته وقضائه وقدره، ليس هو الإذن الشرعي الذي بمعنى الأمر؛ فإن ذلك لا يستلزم الهزيمة بخلاف إذنه الكوني وأمره الكوني، فإن المأمور المكون لا يتخلف عنه البتة.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة النحل

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

سُورَةُ الإِسْرَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾.

[1]كانت كرامة رسول الله ﷺ بالإسراء مفاجأة من غير ميعاد، ليحمل عنه ألم الانتظار، ويفاجأ بالكرامة بغتة، وكرامة موسى بعد انتظار أربعين ليلة...

وتسخير البراق لحمل رسول الله ﷺ في ليلة واحدة مسيرة شهرين ذهابًا وإياباً أعظم من تسخير الريح لسليمان مسيرة شهرين في يوم واحد ذهابًا وإيابًا؛ فإن الريح سريعة الحركة، طبعها الإسراع بما تحمله، وأما البراق فالآية فيه أعظم...

وشق صدر النبي ﷺ والاعتناء بتطهير قلبه وحشوه إيمانًا وحكمة دليل على أن محل العقل القلب، وهو متصل بالدماغ، واستدل بعض الفقهاء بغسل قلبه ﷺ في الطست من الذهب على جواز تحلية المصاحف بالذهب والمساجد، وهو في غاية البعد، فإن ذلك كان قبل النبوة،ولم يكن ذلك من ذهب الدنيا، وكان كرامة أكرم بها ﷺ، وكان من فعل الملائكة بأمر الله، وهم ليسوا داخلين تحت تكاليف البشر، وأبعد منه احتجاج من احتج به على جواز انتفاع الرجل بالحرير تبعًا لامرأته: كالفراش واللحاف والمخدة، قال: لأن الملك لا حرج عليه والنبي ﷺ انتفع بذلك تبعًا، وقد أبعد هذا القائل النجعة وأتى بغير دليل...

وقول الملائكة للنبي ﷺ ليلة الإسراء: (مرحبًا به) أصل في استعمال هذه الألفاظ وما ناسبها عند اللقاء نحو: أهلًا وسهلًا، ومرحبًا، وكرامة، وخير مقدم، وأيمن مورد، ونحوها. ووقع الاقتصار منها على لفظ مرحبًا وحدها لاقتضاء الحال لها، فإن الترحيب هو السعة، وكان قد أفضى إلى واسع الأماكن، ولم يطلق فيها سهلًا، لأن

---

(١) ٢٠٣ – ٢٠٥ البدائع جـ٣.

معناه وطئت مكانًا سهلًا، والنبي ﷺ كان محمولًا.

...[١]ثم أسري بروحه وجسده إلىٰ المسجد الأقصىٰ، ثم عرج به إلىٰ فوق السموات بجسده وروحه إلىٰ الله ﷻ، فخاطبه وفرض عليه الصلوات، وكان ذلك مرة واحدة، هذا أصح الأقوال.

وقيل: بل يقال: أسري به، ولا يقال: يقظة ولا منامًا، وقيل: كان الإسراء إلىٰ بيت المقدس يقظة، وإلىٰ السماء منامًا.

وقيل: كان الإسراء مرتين: مرة يقظة، ومرة منامًا.

وقيل: بل أسري به ثلاث مرات، وكان ذلك بعد المبعث بالاتفاق.

[٢]قوله تعالىٰ: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ دون بعث بعبده، وأرسل به، ما يفيد مصاحبته له في مسراه، فإن الباء هنا للمصاحبة، كهي في قوله هاجر بأهله، وسافر بغلامه، وليست للتعدية؛ فإن أسرىٰ يتعدىٰ بنفسه، يقال: سري به وأسراه، وهذا لأن ذلك السرىٰ كان أعظم أسفاره ﷺ، والسفر يعتمد الصاحب؛ ولهذا كان ﷺ إذا سافر يقول: «**اللهم أنت الصاحب في السفر**»[٣].

فإن قيل: فهذا المعنىٰ يفهم من الفعل الثلاثي لو قيل: سرىٰ بعبده، فما فائدة الجمع بين الهمزة والباء؟ ففيه أجوبة:

(**أحدها**) أنهما بمعنىٰ، وإن أسرىٰ لازم كسرىٰ تقول: سرىٰ زيد وأسرىٰ، بمعنىٰ واحد، هذا قول جماعة.

والثاني: إن أسرىٰ متعد ومفعوله محذوف، أي: أسرىٰ بعبده البراق، هذا قول السهيلي وغيره. ويشهد للقول الأول قول الصديق: أسرينا ليلتنا كلها، ومن الغد حتىٰ قام قائم الظهيرة.

---

(١) ٤٧ الزاد جـ١.

(٢) ٢٠٢ البدائع جـ٣.

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٣٤٢) وانظر: فتح الباري (١١/ ١٨٩).

والجواب الصحيح: أن الثلاثي المتعدي بالباء يفهم منه شيئان:
أحدهما: صدور الفعل من فاعله.
(الثاني) مصاحبته لما دخلت عليه الباء.

فإذا قلت سريت بزيد وسافرت به. كنت قد وجد منك السري والسفر مصاحبًا لزيد فيه، كما قال: ولقد سريت على الظلام بمعشر، ومنه الحديث: «أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها»[1] وأما المتعدي بالهمزة فيقتضي إيقاع الفعل بالمفعول فقط كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [النحل: ٧٨] ﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ﴾ [الشعراء: ٥٧] ونظائره، فإذا قرن هذا المتعدي بالهمزة أفاد إيقاع الفعل على المفعول مع المصاحبة المفهومة في الباء، ولو أتى بالثاني فهم منه معنى المشاركة في مصدره، وهو ممتنع فتأمله. أهـ.

...[2]قال القاضي: نص أحمد على أن الإسراء كان يقظة، وحكى له أن موسى بن عقبة قال: أحاديث الإسراء منام، فقال: هذا كلام الجهمية، ونقل حنبل أن الرؤية منام، ونقل الأشرم وغيره أنه رآه، ولا يطلق سوى ذلك، وقال أبو بكر النجار: رآه إحدى عشرة مرة، بالسنة تسع مرات ليلة المعراج حين كان يتردد بين موسى وبين ربه ﷻ، ومرتين بالكتاب.

***

﴿ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ۝٣﴾.

[3]قال ابن المبارك عن شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾ [الإسراء: ٣] قال: لم يأكل شيئًا إلا حمد الله عليه، ولم يشرب شرابًا

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٥٩٣) ومسلم (رقم ٢٧٧٠) وانظر: شرح النووي (١٧/ ١٠٣) وعمدة القاري (٣/ ٢١٥).
(٢) ٣٩ البدائع جـ٤.
(٣) ١٥٤ عدة الصابرين.

قط إلا حمد الله عليه، ولم يمش مشيًا قط إلا حمد الله عليه، ولم يبطش بشيء قط إلا حمد الله عليه، فأثنى الله عليه: إنه كان عبدًا شكورًا[١].

وقال محمد بن كعب: كان نوح إذا أكل قال: الحمد لله، وإذا شرب قال: الحمد لله، وإذا لبس قال: الحمد لله، وإذا ركب قال: الحمد لله. فسماه الله عبدًا شكورًا[٢].

وقال ابن أبي الدنيا: بلغني عن بعض الحكماء قال: لو لم يعذب الله على معصيته لكان ينبغي أن لا يعصى لشكر نعمته[٣].

***

﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ﴾.

[٤]قال ابن جرير: وكل إنسان ألزمناه ما قضى له أنه عامله، وما هو صائر إليه، من شقاء أو سعادة بعمله، في عنقه لا يفارقه[٥]، وهذا ما قاله الناس في الآية، وهو ما طار له من الشقاء والسعادة، وما طار عنه من العمل، ثم ذكر عن ابن عباس قال: طائره عمله، وما قدر عليه، فهو ملازمه أينما كان، وزائل معه أينما زال[٦].

وكذلك قال ابن جريج، وقتادة، ومجاهد: هو عمله، زاد مجاهد: وما كتب له، وقال قتادة أيضًا: سعادته وشقاوته بعمله.

قال ابن جرير: فإن قال قائل: (فكيف قال: ألزمناه طائره في عنقه إن كان الأمر على ما وصفت ولم يقل [ألزمناه] في يديه أو رجليه، أو غير ذلك من أعضاء الجسد).

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (رقم ٩٤١) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٦٢/ ٢٧٤) وأخرجه بنحوه الطبري في تفسيره (١٥/ ٢٠).

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٦٢/ ٢٧٤).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٢٠٨) والبيهقي في الشعب (٤/ ١٣٠ رقم ٤٥٤٨).

(٤) ٦١ شفاء.

(٥) تفسير الطبري (١٥/ ٥٠).

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره (١٥/ ٥١) وانظر: عمدة القاري (١٩/ ٢٢).

قيل: لأن العنق هي موضع السمات، وموضع القلائد والأطوقة، وغير ذلك مما يزين أو يشين، فجرى كلام العرب بنسبة الأشياء اللازمة [بني آدم وغيرهم من ذلك إلى أعناقهم وكذا استعمالهم ذلك، حتى أضافوا الأشياء اللازمة] سائر الأبدان إلى الأعناق، كما أضافوا جنايات أعضاء الأبدان إلى اليد، فقالوا: ذلك بما كسبت يداه، وإن كان الذي جره عليه لسانه أو فرجه، فكذلك قوله: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾[(١)]

وقال الفراء: الطائر معناه عندهم العمل[(٢)].

قال الأزهري: والأصل في هذا أن الله سبحانه لما خلق آدم علم المطيع من ذريته والعاصي، فكتب ما علمه منهم أجمعين، وقضى بسعادة من علمه مطيعًا، وشقاوة من علمه عاصيًا، فطار لكل ما هو صائر إليه عند خلقه وإنشائه[(٣)].

وأما قوله: ﴿فِى عُنُقِهِۦ﴾ فقال أبو إسحاق: إنما يقال للشيء اللازم هذا في عنق فلان، أي لزومه له كلزوم القلادة من بين ما يلبس في العنق.

قال أبو علي: مثل هذا قولهم طوقتك كذا، وقلدتك كذا، أي صرفته نحوك وألزمتك إياه، ومنه: قلده السلطان كذا، أي صارت الولاية في لزومها له في موضع القلادة ومكان الطوق.

وقيل: إنما خص العنق لأن عمله لا يخلو إما أن يكون خيرا أو شرا، وذلك مما يزين أو يشين كالحلي والغل، فأضيف إلى الأعناق.

قالت القدرية: إلزامه ذلك وسمه به، وتعليمه بعلامة يعرف الملائكة أنه سعيد أو شقي، والخبر عنه، لا أنه ألزمه العمل، فجعله لازمًا له.

قال أهل السنة: هذه طريقة لكم معروفة في تحريف الكلم عن مواضعه، سلكتموها في الجسم والطبع والعقل، وهذا لا يعرفه أهل اللغة، وهو خلاف حقيقة اللفظ، وما فسره به

---

(١) تفسير الطبري (١٥/ ٥١) وما بين المعكوفين استدركته من تفسير الطبري لإتمام المعنى.

(٢) انظر: لسان العرب (٤/ ٥١١).

(٣) انظر: لسان العرب (٤/ ٥١٢).

أعلم الأمة بالقرآن، ولا يعرف ما قلتموه عن أحد من سلف الأمة البتة، ولا فسر الآية غيركم به، ولا يصح حمل الآية عليه، فإن الخبر عنه بذلك والعلامة أعلم بها إنما حصل بعد طائره اللازم له من عمله، فلما لزمه ذلك الطائر ولم ينفك عنه أخبر عنه بذلك، وصارت عليه علامة وسمة، ونحن قد أريناكم أقوال أئمة الهدىٰ وسلف الأمة في الطائر، فأرونا قولكم عن واحد منهم. قاله قبلكم، وكل طائفة من أهل البدع تجر القرآن إلىٰ بدعها وضلالها، وتفسره بمذاهبها وآرائها، والقرآن بريء من ذلك، وبالله التوفيق.

***

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾.

...[1]الناس في هذا المقام أربعة أقسام: أحدهم من لا يريد ربه، ولا يريد ثوابه، فهؤلاء أعداؤه حقًّا، وهم أهل العذاب الدائم، وعدم إرادتهم لثوابه: إما لعدم تصديقهم به، وإما لإيثار العاجل عليه، ولو كان فيه سخطه.

والقسم الثاني: من يريده ويريد ثوابه، وهؤلاء خواص خلقه.

قال الله تعالىٰ: ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٩].

فهذا خطابه لخير نساء العالمين، أزواج نبيه ﷺ، وقال الله تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٩] فأخبر أن السعي المشكور: سعي من أراد الآخرة.

وأصرح منها قوله لخواص أوليائه ـ وهم أصحاب نبيه ﷺ ورضي عنهم في يوم أحد: ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢] فقسمهم إلىٰ هذين القسمين اللذين لا ثالث لهما.

***

(١) ٨١ المدارج جـ٢.

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ۝﴾.

...[١]أعظم الناس خذلانًا من تعلق بغير الله، فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه أعظم مما حصل له ممن تعلق به، وهو معرض للزوال والفوات، ومثل المتعلق بغير الله: كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت، أوهن البيوت.

وبالجملة: فأساس الشرك وقاعدته التي بني عليها: التعلق بغير الله، ولصاحبه الذم والخذلان، كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾[الإسراء: ٢٢] مذموما لا حامد لك، مخذولًا لا ناصر لك، إذ قد يكون بعض الناس مقهورًا محمودًا كالذي قهر بباطل، وقد يكون مذمومًا منصورًا: كالذي قهر وتسلط عليه بباطل، وقد يكون محمودا منصورا: كالذي تمكن وملك بحق، والمشرك المتعلق بغير الله قسمه أردأ الأقسام الأربعة، لا محمود ولا منصور.

***

﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝﴾.

[٢]ذكر توحيده، وذكر المناهي التي نهاهم عنها، والأوامر التي أمرهم بها، ثم ختم الآيات بقوله: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٨]، أي: أنه سيء في نفس الأمر عند الله، حتى لو لم يرد به تكليف لكان سيئه في نفسه عند الله مكروهًا له، وكراهته سبحانه له لما هو عليه من الصفة التي اقتضت أن كرهه، ولو كان قبحه إنما هو مجرد النهي لم يكن مكروهًا لله؛ إذ لا معنى للكراهة عندهم إلا كونه منهيًا عنه فيعود قوله: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ إلى معنى كل ذلك نهى عنه، عند ربك، ومعلوم أن هذا غير مراد من الآية.

---

(١) ٤٥٨ مدارج جـ١.
(٢) ٩ مفتاح جـ٢١.

وأيضًا فإذا وقع ذلك منهم فهو عند النفاة للحسن والقبح محبوب لله مرضي له، لأنه إنما وقع بإرادته، والإرادة عندهم هي المحبة لا فرق بينهما، والقرآن صريح في أن هذا كله قبيح عند الله، مكروه مبغوض له، وقع أو لم يقع، وجعل سبحانه هذا البغض والقبح سببا للنهي عنه، ولهذا جعله علة وحكمة للأمر، فتأمله، والعلة غير المعلول.

[(١)]قال تعالىٰ عقيب ذكر ما حرمه من المحرمات من عند قوله: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء: ٢٣-٣٨] إلىٰ آخر الآيات، ثم قال: ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾، وفي الصحيح: «إن الله ﷻ كره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»[(٢)].

فالسلف كانوا يستعملون الكراهة في معناها، الذي استعملت فيه في كلام الله ورسوله، أما المتأخرون فقد اصطلحوا علىٰ تخصيص الكراهة بما ليس بمحرم، وتركه أرجح من فعله، ثم حمل من حمل منهم كلام الأئمة علىٰ الاصطلاح الحادث، فغلط في ذلك، وأقبح غلطا منه من حمل لفظ الكراهة أو لفظ: «لا ينبغي» في كلام الله ورسوله علىٰ المعنىٰ الاصطلاحي الحادث.

وقد اطَّرد في كلام الله ورسوله استعمال «لا ينبغي» في المحظور شرعًا أو قدرًا، وفي المستحيل الممتنع كقول الله تعالىٰ: ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ [مريم: ٩٢] وقوله: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ [يس: ٦٩] وقوله: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ

---

(١) ٤٣ الإعلام جـ١.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٤٧٧) ومسلم (رقم ٥٩٣) وانظر: شرح النووي (١٢/ ١٢).

ﵟ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ ﵞ [الشعراء: ٢١٠-٢١١] وقوله على لسان نبيه: **«كذبني ابن آدم، وما ينبغي له، وشتمني ابن آدم، وما ينبغي له»**[(١)]، وقوله ﷺ: **«إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام»**[(٢)]، وقوله ﷺ في لباس الحرير: **«لا ينبغي هذا للمتقين»**[(٣)] وأمثال ذلك.

والمقصود: أن الله سبحانه حرَّم القول عليه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، والمفتي يخبر عن الله ﷻ وعن دينه، فإن لم يكن خبره مطابقا لما شرعه كان قائلا عليه بلا علم، ولكن إذا اجتهد واستفرغ وسعه في معرفة الحق وأخطأ لم يلحقه الوعيد، وعفي له عمَّا أخطأ به، وأثيب على اجتهاده، ولكن لا يجوز أن يقول لما أداه إليه اجتهاده، ولم يظفر فيه بنص عن الله ورسوله: إن الله حرم كذا، وأوجب كذا، وأباح كذا، وإن هذا هو حكم الله...

[(٤)]فهمت الأمة من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا ﴾ [النساء: ١٠] جميع وجوه الانتفاع من اللبس والركوب والمسكن وغيرها. وفهمت من قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ ﴾ إرادة النهي عن جميع أنواع الأذى بالقول والفعل، وإن لم ترد نصوص أخرى بالنهي عن عموم الأذى، فلو بصق رجل في وجه والديه وضربهما بالنعل، وقال: إني لم أقل لهما أف. لعده الناس في غاية السخافة والحماقة والجهل من مجرد تفريقه بين التأفيف المنهي عنه وبين هذا الفعل قبل أن يبلغه نهي غيره، ومنع هذا مكابرة للعقل والفهم والفطرة، فمن عرف مراد المتكلم بدليل من الأدلة وجب اتباع مراده، والألفاظ لم تقصد لذواتها، وإنما هي أدلة يستدل بها على مراد المتكلم، فإذا ظهر مراده، ووضح بأي طريق كان عمل بمقتضاه، سواء كان بإشارة أو كتابة أو بإيماءة أو دلالة عقلية أو قرينة حالية أو عادة له مطردة، لا يُخِلُّ بها،

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٤٨٢) وانظر: فتح الباري (٨/ ٧٤٠).
(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٧٩) وانظر: الديباج على مسلم (١/ ٢٢٥).
(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٧٥) ومسلم (رقم ٢٠٧٥) وانظر: فتح الباري (١/ ٤٨٥).
(٤) ٢١٨ الإعلام جـ١.

أو من مقتضى كماله وكمال أسمائه وصفاته، وأنه يمتنع منه إرادة ما هو معلوم الفساد وترك إرادة ما هو متيقن مصلحته، وأنه يستدل على إرادته للنظير بإرادة نظيره ومثله وشبهه، وعلى كراهة الشيء بكراهة مثله ونظيره ومشبهه، فيقطع العارف به وبحكمته وأوصافه على أنه يريد هذا، ويكره هذا، ويحب هذا، ويبغض هذا، وأنت تجد من له اعتناء شديد بمذهب رجل وأقواله، كيف يفهم مراده من تصرفه ومذاهبه، ويخبر عنه بأنه يفتي بكذا ويقوله، وأنه لا يقول بكذا، ولا يذهب إليه لما لا يوجد في كلامه صريحا، وجميع أتباع الأئمة مع أئمتهم بهذه المثابة.

وهذا أمر يعم أهل الحق والباطل لا يمكن دفعه، فاللفظ الخاص قد ينتقل إلى معنى العموم بالإرادة، والعام قد ينتقل إلى الخصوص بالإرادة، فإذا دعي إلى غداء فقال: والله لا أتغدى أو قيل له: «نم» فقال: والله لا أنام أو اشرب هذا الماء. فقال: والله لا أشرب. فهذه كلها ألفاظ عامة نقلت إلى معنى الخصوص بإرادة المتكلم، التي يقطع السامع عند سماعها، بأنه لم يرد النفي العام إلى آخر العمر، والألفاظ ليست تعبدية.

***

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾.

...[1]دين الله بين الغالي فيه والجافي عنه، وقد قال علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ: خير الناس النمط الأول الذين يرجع إليهم الغالي ويلحق بهم التالي. ذكره ابن المبارك عن محمد بن طلحة عن علي. وقال ابن عائشة: ما أمر الله عباده بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان، فإما إلى غلو وإما إلى تقصير[2]. وقال بعض السلف: دين الله بين الغالي فيه والجافي عنه[3].

(١) ١١٠ الصلاة.

(٢) أخرجه الخطابي في العزلة (ص ٩٧) وانظر: كشف الخفاء (٢/ ٢٨٤).

(٣) انظر: مشارق الأنوار للقاضي عياض (١/ ٢٠٦).

وقد مدح تعالى أهل التوسط بين الطرفين المنحرفين في غير موضع من كتابه، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٧]. وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٩]، فمنع ذي القربى والمسكين وابن السبيل حقهم انحراف في جانب الإمساك، والتبذير انحراف في جانب البذل، ورضاء الله فيما بينهما، ولهذا كانت هذه الأمة أوسط الأمم، وقبلتها أوسط القبل بين القبلتين المنحرفتين، والوسط دائما محمي الأطراف، أما الأطراف فالخلل إليها أسرع، كما قال الشاعر:

كانت هي الوسط المحمي فاكتنفت بها الحوادث حتى أصبحت طرفا[(١)]

فقد اتفق شرع الرب تعالى وقدره على أن خيار الأمور أوساطها.

[(٢)]والفرق بين الجود والسرف: أن الجواد حكيم يضع العطاء مواضعه، والمسرف مبذر، وقد يصادف عطاؤه موضعه، وكثيرًا لا يصادفه، وإيضاح ذلك أن الله سبحانه بحكمته جعل في المال حقوقا، وهي نوعان: حقوق موظفة، وحقوق ثانية. فالحقوق الموظفة كالزكاة والنفقات الواجبة على من تلزمه نفقته.

والثانية: كحق الضيف، ومكافأة المهدي، وما وقى به عرضه ونحو ذلك، فالجواد يتوخى بماله أداء هذه الحقوق على وجه الكمال: طيبة بذلك نفسه، راضية مؤملة للخلف في الدنيا والثواب في العقبى، فهو يخرج ذلك بسماحة قلب، وسخاوة نفس، وانشراح صدر، بخلاف المبذر، فإنه يبسط يده في ماله بحكم هواه وشهوته، جزافا لا

---

(١) البيت من بحر الوسيط وقائله أبو تمام: حبيب بن أوس الطائي أحد أمراء البيان، وفي شعره قوة وجزالة، توفي سنة ٢٣١هـ. وذكر البيت كما هو هنا المناوي في فيض القدير (٢/ ١٨٨) بينما ذُكر البيت في ديوان أبي تمام هكذا:

كانت هي الوسط الممنوع فاستلبت ما حولها الخيلُ حتى أصبحت طرفا

(٢) ٢٨٦ الروح.

على تقدير ولا مراعاة مصلحة، وإن اتفقت له فالأول بمنزلة من بذر حبة في الأرض تنبت، وتوخى ببذره مواضع المغل والإنبات، فهذا لا يعد مبذرًا ولا سفيها. والثاني بمنزلة من بذر حبة في سباخ وعزاز من الأرض. وإن اتفق بذره في محل النبات بذر بذرا متراكما بعضه على بعض. فلذلك المكان البذر فيه ضائع معطل، وهذا المكان بذر بذرا متراكما بعضه على بعض، فلذلك يحتاج أن يقلع بعض زرعه، ليصلح الباقي، ولئلا تضعف الأرض عن تربيته.

والله سبحانه هو الجواد على الإطلاق، بل كل جود في العالم العلوي والسفلي بالنسبة إلى جوده أقل من قطرة في بحار الدنيا، وهي من جوده، ومع هذا فإنما ينزل بقدر ما يشاء، وجوده لا يناقض حكمته، ويضع عطاءه مواضعه، وإن خفي على أكثر الناس: أن تلك مواضعه، فالله يعلم حيث يضع فضله، وأي المحال أولى به[1].

...[2] وسأله ﷺ رجل فقال: إني ذو مال كثير وذو أهل وولد وحاضرة، فأخبرني كيف أنفق؟ وكيف أمنع؟ فقال: **«تخرج الزكاة من مالك، فإنها طهرة تطهرك، وتصل بها رحمك وأقاربك، وتعرف حق السائل والجار والمسكين»** فقال: يا رسول الله أقلل في، قال: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإسراء: ٢٩] فقال: حسبي، وقال: يا رسول الله إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله ورسوله؟ قال رسول الله ﷺ: **«نعم إذا أديتها إلى رسولي فقد برئت منها، ولك أجرها، وإثمها على من بدلها»**[3].

---

(١) ذكر ابن القيم في آخر كتاب الروح فروقًا كثيرة عن علم وتحقيق يحسن الرجوع إليها (ج).

(٢) ٢٩٠ الإعلام جـ٤.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٦) والحاكم (٢/ ٣٩٢ رقم ٣٣٧٤) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وذكره المنذري في الترغيب مختصرًا (١/ ٢٩٩ رقم ١١٠٤) وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ٦٣): رواه أحمد والطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح.

وسئل ﷺ عن الصدقة على أبي رافع مولاه فقال: «**إنا آل محمد لا تحل لنا الصدقة، وإن مولى القوم من أنفسهم**»[(١)].

وسأله ﷺ عمر عن أرضه بخيبر، واستفتاه ما يصنع فيها، وقد أراد أن يتقرب بها إلى الله فقال: «**إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها**» ففعل[(٢)] وتصدق عبد الله بن زيد بحائط له فأتاه أبواه، فقالا: يا رسول الله إنها كانت قيم وجوهنا، ولم يكن لنا مال غيره، فدعا عبد الله فقال: «**إن الله قد قبل منك صدقتك، وردها على أبويك**» فتوارثاها بعد ذلك[(٣)].

وسئل ﷺ أي الصدقة أفضل؟ فقال: «**المنيحة: أن يمنح أحدكم الدرهم، أو ظهر الدابة، أو لبن الشاة، أو لبن البقرة**»[(٤)].

وسئل ﷺ مرة عن هذه المسألة فقال: «**جهد المقل، وابدأ بمن تعول**»[(٥)].

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٣٩٠) وابن حبان (٨/ ٨٨ رقم ٣٢٩٣) وابن خزيمة (٤/ ٥٧ رقم ٢٣٤٤) وأبو داود (رقم ١٦٥٠) وابن أبي شيبة (٧/ ٣٢٤ رقم ٣٦٥٢٥) والطبراني في الكبير (١/ ٣١٦ رقم ٩٣٢) والروياني (١/ ٤٧٤ رقم ٧١٩) والحاكم (١/ ٤٠٤) وقال: صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي. ونقل ابن حجر في الفتح (٣/ ٣٥٦) تصحيح الترمذي وابن حبان، وانظر: شرح النووي (٧/ ١٧٥-١٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٧٢) ومسلم (رقم ١٦٣٢) وانظر: فتح الباري (٥/ ٤٠٠-٤٠١) وشرح النووي (١١/ ٨٦).

(٣) أخرجه الضياء في المختارة (٩/ ٣٨٠-٣٨١ رقم ٣٤٩) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣/ ٤٧٧ رقم ١٩٤٠) والدار القطني (٤/ ٢٠٠رقم ١٤) والحاكم (٤/ ٣٨٧ رقم ٨٠٢١) وابن عساكر في تاريخه (٤/ ٣٤٠).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٤٦٣) وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ١٣٣): رواه أحمد وأبو يعلى وزاد: «الدينار أو البقرة» والبزار والطبراني في الأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح. وانظر: شرح النووي (٧/ ٧١-٧٢) وعمدة القاري (١٣/ ١٢٧) (١٣/ ١٨٤-١٨٥).

(٥) أخرجه ابن حبان (٨/ ١٣٤ رقم ٣٣٤٦) وابن خزيمة (٤/ ٩٩ رقم ٢٤٤٤) وأبو داود (رقم ١٦٧٧) والبيهقي في الكبرى (٤/ ١٨٠ رقم ٧٥٦١) وفي شعب الإيمان (٣/ ٢٥٠ رقم ٣٤٥٤) وأحمد (٢/ ٣٥٨). وابن أبي الدنيا في العيال (١/ ١٣٦ رقم ٤) وابن عساكر في تاريخه (٨/ ١١١) والحاكم =

[(١)] وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢] فأخبر عن فحشه في نفسه، وهو القبيح الذي قد تناهىٰ قبحه، حتىٰ استقر فحشه في العقول، حتىٰ عند كثير من الحيوانات، كما ذكر البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودي قال: رأيت في الجاهلية قردًا زنىٰ بقردة، فاجتمع القرود عليهما فرجموهما حتىٰ ماتا[(٢)]، ثم أخبر عن غايته بأنه ساء سبيلًا، فإنه سبيل هلكة وبوار وافتقار في الدنيا وسبيل عذاب في الآخرة وخزي ونكال ولما كان نكاح أزواج الآباء من أقبحه خصه بمزيد ذم فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢] وعلق سبحانه فلاح العبد علىٰ حفظ فرجه منه فلا سبيل له إلىٰ الفلاح بدونه منه فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٧]. وهذا يتضمن ثلاثة أمور: أن من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين وأنه من الملومين ومن العادين ففاته الفلاح واستحق اسم العدوان ووقع في اللوم فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك.

***

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ۝﴾.

[(٣)] حقيق بكل عاقلٍ أن لا يسلك سبيلًا حتىٰ يعلم سلامتها وآفاتها وما توصل إليه تلك الطريق من سلامةٍ أو عطب، وهذان السبيلان هلاك الأولين والآخرين بهما، وفيهما من المعاطب والمهالك ما فيهما، ويفضيان بصاحبهما إلىٰ أقبح الغايات وشر موارد الهلكات، ولهذا جعل الله ﷻ سبيل الزنى شر سبيل، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟

=

(١/ ٥٧٤ رقم ١٥٠٩) وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه.

(١) ٢٠٢ الجواب.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٨٤٩) وانظر: فتح الباري (٧/ ١٤٩، ١٦٠) وفيض القدير (٣/ ١٣٠) وسير أعلام النبلاء (٤/ ١٥٩-١٦٠).

(٣) ٣٧٧ الروضة.

ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢].

فإذا كانت هذه سبيل الزنا فكيف بسبيل اللواط، التي تعدل الفعلة منه في الإثم والعقوبة أضعافها وأضعاف أضعافها من الزنا؟ كما ستقف عليه إن شاء الله تعالى.

فأما سبيل الزنا فأسوأ سبيل، ومقيل أهلها في الجحيم شر مقيل، ومستقر أرواحهم في البرزخ في تنور من نار يأتيهم لهبها من تحتهم، فإذا أتاهم اللهب ضجوا وارتفعوا، ثم يعودون إلى موضعهم، فهم هكذا إلى يوم القيامة، كما رآهم النبي ﷺ في منامه[(١)] ورؤيا الأنبياء وحي لا شك فيها...

...[(٢)]وقال أبو نعيم الفضل بن دُكين: حدثنا عبد السلام بن شداد، عن غزوان بن جرير، عن أبيه: أنهم تذاكروا عند علي بن أبي طالب ﷺ الفواحش، فقال لهم: هل تدرون أي الزنا أعظم؟ قالوا: يا أمير المؤمنين كله عظيم. قال: ولكن سأخبركم بأعظم الزنا عند الله: هو أن يزني الرجل بزوجة الرجل المسلم فيصير زانيا، وقد أفسد على الرجل زوجته. ثم قال عند ذلك: إن الناس يرسل عليهم يوم القيامة ريح منتنة، حتى يتأذى منها كل بر وفاجر، حتى إذا بلغت منهم كل مبلغ، وألمَّت أن تمسك بأنفاس الأمم كلهم، ناداهم مناد يسمعهم الصوت، ويقول لهم: هل تدرون ما هذه الريح التي قد آذتكم؟ فيقولون: لا ندري والله، إلا أنها قد بلغت منا كل مبلغ. فيقال: ألا إنها ريح فروج الزناة، الذين لقوا الله بزناهم ولم يتوبوا منه، ثم يصرف بهم. فلم يذكر عند الصرف بهم جنة ولا نارًا.

وقال الخرائطي حدثنا علي بن داود القنطري حدثنا سعيد بن عفير حدثني مسلم بن علي الخشني عن أبي عبدالرحمن عن الأعمش عن شقيق عن حذيفة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «يا معشر المسلمين إياكم والزنا، فإن فيه ست خصال: ثلاث في الدنيا، وثلاث في الآخرة: فأما اللواتي في الدنيا: فذهاب البهاء، ودوام الفقر، وقصر العمر.

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٣٨٦) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٤٤٢).
(٢) ٣٨٢ الروضة.

وأما اللواتي في الآخرة: فسخط الله، وسوء الحساب، ودخول النار»[١].

ويذكر عن أنس بن مالك ﷺ قال: المقيم على الزنا كعابد وثن[٢]. ورفعه بعضهم، وهذا أولى أن يشبه بعابد الوثن من مدمن الخمر، وفي المسند وغيره مرفوعا: مدمن الخمر كعابد وثن[٣]. فإن الزنا أعظم من شرب الخمر.

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: ليس بعد قتل النفس أعظم من الزنا[٤].

وفي الصحيحين من حديث أبي وائل عن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: قلت: يا رسول الله ﷺ أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: **«أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك»** قال: قلت: ثم أي؟ قال: **«أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم منك»** قال: قلت: ثم أي؟ قال: **«أن تزني بحليلة جارك»** فأنزل الله تصديق ذلك في كتابه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾[٥] [الفرقان: ٦٨].

وقال قتيبة بن سعيد حدثنا ابن لهيعة عن ابن أنعم عن رجل عن عبدالله بن عمرو

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٣٧٩ رقم ٥٤٧٥) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٣/ ١٢٨) إلى ابن أبي حاتم والخرائطي في مساوئ الأخلاق وابن مردويه والبيهقي في الشعب وضعفه، وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٨٥-٨٦).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥/ ١٠٧ رقم ٤٨١٠) وذكره المنذري في الترغيب (٣/ ١٩٠ رقم ٣٦٢٧) وعزاه إلى الخرائطي وغيره، وقال: وقد صح أن مدمن الخمر إذا مات لقي الله كعابد وثن، ولاشك أن الزنا أشد وأعظم عند الله من شرب الخمر، والله أعلم.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢٧٢ والضياء في المختارة (١٠/ ٣٣٠ رقم ٣٥٦) وابن حبان (١٢/ ١٦٧ رقم ٥٣٤٧) وفي الموارد (رقم ١٣٩٧) وابن ماجه (رقم ٣٣٧٥) والطبراني (١٢/ ٤٥ رقم ١٢٤٢٨) وعبد بن حميد (رقم ٧٠٨) وقال المنذري في الترغيب (٣/ ١٧٧ رقم ٣٥٦٣): رواه أحمد هكذا ورجاله رجال الصحيح. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ٧٤): رواه أحمد والبزار والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح.

(٤) ذكر هذا القول إبراهيم الضويان في منار السبيل (٢/ ٣٢٥).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٤٤٧٧) ومسلم (رقم ٨٦) وانظر فتح الباري (١٣/ ٤٩١) وشرح النووي (٢/ ٨٠).

ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الزاني بحليلة جاره لا ينظر الله إليه يوم القيامة ولا يزكيه، ويقول له: ادخل النار مع الداخلين**»(١).

وذكر سفيان بن عيينة عن جامع بن شداد عن أبي وائل عن عبدالله قال: إذا بخس المكيال حبس القطر، وإذا ظهر الزنا وقع الطاعون، وإذا كثر الكذب كثر الهرج(٢)، وفي الصحيحين من حديث الأعمش عن أبي حازم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر**»(٣). وذكر سفيان الثوري عن منصور عن ربعي بن حراش عن أبي ذر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يبغض ثلاثة: الشيخ الزاني، والمقل المختال، والبخيل المنان**»(٤). وذكر الأعمش عن خيثمة عن أبي عبدالرحمن عن عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «**مثل الذي يجلس على فراش المغيبة مثل الذي ينهشه الأساود يوم القيامة**»(٥) المغيبة هي التي قد سافر زوجها في جهادٍ أو حجٍّ أو غيرهما.

وفي النسائي وغيره من حديث بريدة عن النبي ﷺ قال: «**حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كأمهاتهم، وما من رجل من القاعدين يخلف رجلًا من المجاهدين في أهله إلا نصب له يوم القيامة، فيقال: يا فلان هذا فلان، فخذ من حسناته ما شئت**» ثم

---

(١) أخرجه الديلمي في الفردوس (٢/ ٣٠١ رقم ٣٣٧١) وانظر: فيض القدير (٤/ ٧٠) والترغيب والترهيب (٣/ ١٩٢ رقم ٣٦٣٤).

(٢) أخرجه أبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن (٣/ ٦٨٩ رقم ٣٢٥).

(٣) لم أجده عند البخاري، والحديث أخرجه مسلم (رقم ١٠٧) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٢٠٢) وشرح النووي (٢/ ١١٥).

(٤) أخرجه الحاكم (١/ ٥٧٧ رقم ١٥٢٠) وابن حبان (٨/ ١٣٦-١٣٧ رقم ٣٣٤٩) وابن خزيمة (٤/ ١٠٤ رقم ٢٤٥٦) والنسائي في الكبرى (٢/ ٤٤ رقم ٢٣٥١) والترمذي (رقم ٢٥٦٨) وأحمد (٥/ ١٥٣).

(٥) أخرجه عبد الرزاق (٧/ ١٣٩ رقم ١٢٥٤٧) وقال المنذري في الترغيب (٣/ ١٩٢ رقم ٣٦٣٦): رواه الطبراني ورواته ثقات. وانظر: المطالب العالية (٩/ ١٠١).

التفت النبي ﷺ إلى أصحابه، فقال له: «ما ترون يدع له من حسناته شيئًا»[١] وفي لفظ: «وإذا خلفه في أهله فخانه، قيل له يوم القيامة: هذا خانك في أهلك، فخذ من حسناته ما شئت، فما ظنكم؟»[٢].

ويكفي في قبح الزنى أن الله ﷻ مع كمال رحمته شرع فيه أفحش القتلات وأصعبها وأفضحها، وأمر أن يشهد عباده المؤمنون تعذيب فاعله، ومن قبحه أن الله سبحانه فطر عليه بعض الحيوان البهيم الذي لا عقل له كما ذكر البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودي قال: رأيت في الجاهلية قردا زنى بقردة، فاجتمع عليهما القرود فرجموهما، حتى ماتا، وكنت فيمن رجمهما[٣].

والزنى يجمع خلال الشر كلها: من قلة الدين، وذهاب الورع، وفساد المروءة، وقلة الغيرة، فلا تجد زانيا معه ورع، ولا وفاء بعهد، ولا صدق في حديث، ولا محافظة على صديق، ولا غيرة تامة على أهله، فالغدر والكذب، والخيانة وقلة الحياء، وعدم المراقبة، وعدم الأنفة للحرم، وذهاب الغيرة من القلب من شعبه وموجباته. ومن موجباته غضب الرب بإفساد حرمه وعياله، ولو تعرض رجل إلى ملك من الملوك بذلك لقابله أسوأ مقابلة.

ومنها: سواد الوجه وظلمته، وما يعلوه من الكآبة والمقت، الذي يبدو عليه للناظرين.

ومنها: ظلمة القلب وطمس نوره، وهو الذي أوجب طمس نور الوجه وغشيان الظلمة له.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٨٩٧) وابن حبان (١٠/ ٤٩١ رقم ٤٦٣٤) والنسائي في الكبرى (٣/ ٣٣-٣٤ رقم ٤٤٠٠) وفي المجتبى (رقم ٣١٩١) وانظر: شرح النووي (١٣/ ٤١).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٣/ ٣٤ رقم ٤٣٩٩) وفي المجتبى (رقم ٣١٩٠) وأبو عوانة في مسنده (٤/ ٤٨٣ رقم ٧٤٢٠).

(٣) تقدم تخريجه قريبًا.

ومنها: الفقر اللازم، وفي أثر يقول الله تعالى: «أنا الله مهلك الطغاة، ومفقر الزناة»[(١)].

ومنها: أنه يذهب حرمة فاعله، ويسقطه من عين ربه ومن أعين عباده.

ومنها: أنه يسلبه أحسن الأسماء وهو اسم العفة والبر والعدالة، ويعطيه أضدادها كاسم الفاجر والفاسق والزاني والخائن.

ومنها: أنه يسلبه اسم المؤمن، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»[(٢)]. فسلبه اسم الإيمان المطلق، وإن لم يسلب عنه مطلق الإيمان. وسئل جعفر بن محمد عن هذا الحديث، فخطَّ دائرة في الأرض، وقال: هذه دائرة الإيمان، ثم خط دائرة أخرى خارجة عنها، وقال: هذه دائرة الإسلام، فإذا زنى العبد خرج من هذه، ولم يخرج من هذه ولا يلزم من ثبوت جزء ما من الإيمان له أن يسمى مؤمنا، كما أن الرجل يكون معه جزء من العلم والفقه، ولا يسمى به عالمًا فقيها، ومعه جزء من الشجاعة والجود، ولا يسمى بذلك شجاعًا ولا جوادًا، وكذلك يكون معه شيء من التقوى ولا يسمى متقيا، ونظائره، فالصواب إجراء الحديث على ظاهره، ولا يتأول بما يخالف ظاهره، والله أعلم.

ومنها: أن يعرض نفسه لسكنى التنور، الذي رأى النبي ﷺ فيه الزناة والزواني.

ومنها: أنه يفارقه الطيب الذي وصف الله به أهل العفاف، ويستبدل به الخبيث الذي وصف الله به الزناة، كما قال الله تعالى: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور: ٢٦].

وقد حرم الله الجنة على كل خبيث بل جعلها مأوى الطيبين، ولا يدخلها إلا طيب، قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ

(١) فعن شعيب عن أبيه عن جده قال: أوحى الله إلى موسى: «أنا قاتل القتالين ومفقر الزناة» أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٦١/ ١٥٢)، وذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٣٣٨) وقال المناوي في فيض القدير (٤/ ٧٢): قال المنذري: فيه الماضي بن محمد، وقال في الميزان: حديث منكر، وإسناده فيه ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٤٧٥) ومسلم (رقم ٥٧) وانظر: فتح الباري (٣/ ١١١).

بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣]، فإنما استحقوا سلام الملائكة ودخول الجنة بطيبهم، والزناة من أخبث الخلق، وقد جعل الله سبحانه جهنم دار الخبيث وأهله، فإذا كان يوم القيامة ميز الخبيث من الطيب، وجعل الخبيث بعضه على بعض، ثم ألقاه وألقى أهله في جهنم فلا يدخل النار طيب ولا يدخل الجنة خبيث.

ومنها: الوحشة التي يضعها الله ﷻ في قلب الزاني، وهي نظير الوحشة التي تعلو وجهه، فالعفيف على وجهه حلاوة، وفي قلبه أنس، ومن جالسه استأنس به. والزاني تعلو وجهه الوحشة، ومن جالسه استوحش منه[1]....

***

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

...[2]إن الله سبحانه لم يخلق خلقه سدى مهملا، بل جعلهم موردا للتكليف، ومحلا للأمر والنهي، وألزمهم فهم ما أرشدهم إليه مجملا ومفصلا، وقسمهم إلى شقي وسعيد، وجعل لكل واحد من الفريقين منزلًا، وأعطاهم مواد العلم والعمل: من القلب، والسمع، والبصر، والجوارح، نعمة منه وتفضلًا.

فمن استعمل ذلك في طاعته، وسلك به طريق معرفته على ما أرشد إليه ولم يبغ عنه عدولًا، فقد قام بشكر ما أوتيه من ذلك، وسلك به إلى مرضاة الله سبيلًا.

ومن استعمله في إرادته وشهوته ولم يرع حق خالقه فيه يخسر إذا سئل عن ذلك، ويحزن حزنًا طويلًا. فإنه لابد من الحساب على حق هذه الأعضاء، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

---

(١) استطرد المؤلف ـ رحمه الله ـ في ذكر مضار الزنا، وعرج على مفاسد اللواط في عدة صحائف (ج).

(٢) ٥ الإغاثة جـ١.

ولما كان القلب لهذه الأعضاء كالملك المتصرف في الجنود، الذي تصدر كلها عن أمره، ويستعملها فيما شاء، فكلها تحت عبوديته وقهره، وتكتسب منه الاستقامة والزيغ، وتتبعه فيما يعقده من العزم أو يحله، قال النبي ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله**»(١). فهو ملكها، وهي المنفذة لما يأمرها به، القابلة لما كان يأتيها من هديه، ولا يستقيم لها شيء من أعمالها حتى تصدر عن قصده ونيته. وهو المسؤول عنها كلها، لأن كل راع مسؤول عن رعيته: كان الاهتمام بتصحيحه وتسديده أولى ما اعتمد عليه السالكون. والنظر في أمراضه وعلاجها أهم ما تنسك به الناسكون.

ولما علم عدو الله إبليس أن المدار على القلب والاعتماد عليه، أجلب عليه بالوساوس، وأقبل بوجوه الشهوات إليه، وزين له من الأقوال والأعمال ما يصده عن الطريق، وأمده من أسباب الغي بما يقطعه عن أسباب التوفيق، ونصب له من المصايد والحبائل ما إن سلم من الوقوع فيها لم يسلم من أن يحصل له بها التعويق، فلا نجاة من مصائده ومكائده إلا بدوام الاستعانة بالله تعالى، والتعريض لأسباب مرضاته، والتجاء القلب إليه، وإقباله عليه في حركاته وسكناته، والتحقق بذل العبودية الذي هو أولى ما تلبس به الإنسان، ليحصل له الدخول في ضمان ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥].

فهذه الإضافة هي القاطعة بين العبد وبين الشياطين، وحصولها يسبب تحقيق مقام العبودية لرب العالمين، وإشعار القلب إخلاص العمل ودوام اليقين، فإذا أشرب القلب العبودية والإخلاص صار عند الله من المقربين، وشمله استثناء ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٣].

***

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٢) ومسلم (رقم ١٥٩٩) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٥٦٨) وشرح النووي (١١/ ٢٨-٢٩).

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾.

[(١)] قيل: المعنى: لابتغوا السبيل إليه بالمغالبة والقهر كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض، ويدل عليه قوله في الآية الأخرى: ﴿ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]. قال شيخنا ﷺ: والصحيح أن المعنى لابتغوا إليه سبيلا بالتقرب إليه وطاعته فكيف تعبدونهم من دونه؟ وهم لو كانوا آلهة كما يقولون لكانوا عبيدا له، قال: ويدل على هذا وجوه: منها: قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء: ٥٧] أي: هؤلاء الذين تعبدونهم من دوني هم عبادي كما أنتم عبادي، ويرجون رحمتي، ويخافون عذابي، فلماذا تعبدونهم من دوني؟ الثاني: أنه سبحانه لم يقل لابتغوا عليه سبيلا. بل قال: ﴿ لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٤٢].

وهذا اللفظ إنما يستعمل في القرب كقوله تعالى: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة: ٣٥]، وأما في المغالبة فإنما يستعمل بعلي كقوله: ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٣٤].

الثالث: أنهم لم يقولوا: إن آلهتهم تغالبه، وتطلب العلو عليه، وهو سبحانه قال: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ ﴾ [الإسراء: ٤٢] وهم إنما كانوا يقولون: إن آلهتهم تبتغي التقرب إليه، وتقربهم زلفى إليه، قال تعالى: لو كان الأمر كما تقولون لكانت تلك الآلهة عبيدا له، فلماذا تعبدون عبيده من دونه؟

[(٢)] وكذلك قوله سبحانه مقررًا برهان التوحيد أحسن التقرير وأبلغه وأوجزه ﴿ لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٤٢] فإن الآلهة التي كانوا يثبتونها معه كانوا يعترفون بأنها عبيده ومماليكه ومحتاجة إليه، فلو كانوا

(١) ٢٧٥ الجواب الكافي.

(٢) ٩٥ الصواعق جـ١.

آلهة كما يقولون لعبدوه وتقربوا إليه وحده دون غيره، فكيف يعبدونهم دونه؟ وقد أفصح سبحانه بهذا بعينه في قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ [الإسراء: ٥٧] أي: هؤلاء الذين تعبدونهم من دوني هم عبيدي كما أنتم عبيدي، يرجون رحمتي ويخافون عذابي، فلماذا تعبدونهم من دوني؟

***

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) ﴾.

[(١)] إنه غير ممتنع أن ترد الروح إلى المصلوب والغريق والمحرق ونحن لا نشعر بها؛ لأن ذلك الرد نوع آخر غير المعهود، فهذا المغمى عليه والمسكوت والمبهوت أحياء وأرواحهم معهم، ولا نشعر بحياتهم، ومن تفرقت أجزاؤه لا يمتنع على من هو على كل شيء قدير أن يجعل للروح اتصالا بتلك الأجزاء على تباعد ما بينها وقربه، ويكون في تلك الأجزاء شعور بنوع من الألم واللذة، وإذا كان الله ﷻ قد جعل في الجمادات شعورًا وإدراكًا تسبح ربها به، وتسقط الحجارة من خشيته، وتسجد له الجبال والشجر، وتسبحه الحصى والمياه والنبات، قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

ولو كان التسبيح هو مجرد دلالتها على صانعها لم يقل: ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾، فإن كل عاقل يفقه دلالتها على صانعها.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) ﴾ [ص: ١٨] والدلالة على الصانع لا تختص بهذين الوقتين.

---

(١) ٨٨ الروح.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ ﴾ [سبأ: ١٠] والدلالة لا تختص معيته وحده، وكذب على الله من قال التأويب رجع الصدى، فإن هذا يكون لكل مصوت.

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج: ١٨] والدلالة على الصانع لا تختص بكثير من الناس. وقد قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَـٰٓفَّـٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾ [النور: ٤١] فهذه صلاة وتسبيح حقيقة يعلمها الله، وإن جحدها الجاهلون المكذبون.

وقد أخبر تعالى عن الحجارة أن بعضها يزول عن مكانه ويسقط من خشيته.

وقد أخبر عن الأرض والسماء أنهما يأذنان له وقولهما ذلك أي يستعمان كلامه، وأنه خاطبهما فسمعا خطابه، وأحسنا جوابه فقال لهما: ﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١] وقد كان الصحابة يسمعون تسبيح الطعام وهو يؤكل[١]. وسمعوا حنين الجذع اليابس في المسجد[٢]. فإذا كانت هذه الأجسام فيها الإحساس والشعور فالأجسام التي كانت فيها الروح والحياة أولى بذلك، وقد أشهد الله سبحانه عباده في هذه الدار إعادة حياة كاملة إلى بدن قد فارقته الروح، فتكلم ومشى وأكل وشرب وتزوج وولد له. كـ ﴿ ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٤٣] ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٩] وكقتيل بني إسرائيل، أو كالذين قال

---

(١) لقد صح عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل. أخرجه البخاري (رقم ٣٥٧٩) وانظر: فتح الباري (٦/ ٥٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٥٨٣، ٣٥٨٤) وانظر: فتح الباري (٦/ ٤٧٣-٤٧٩) وشرح النووي (١٣/ ٢١٥) و(١٥/ ١٢٧) (١٧/ ١٣٣).

لموسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] فأماتهم الله ثم بعثهم من بعد موتهم، وكأصحاب الكهف، وقصة إبراهيم في الطيور الأربعة، فإذا أعاد الحياة التامة إلى هذه الأجساد بعد ما بردت بالموت، فكيف يمتنع على قدرته الباهرة أن يعيد إليها بعد موتها حياة ما غير مستقرة، يقضي بها ما أمره فيها، ويستنطقها بها ويعذبها أو ينعمها بأعمالها، وهل إنكار ذلك إلا مجرد تكذيب وعناد وجحود، وبالله التوفيق.

***

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾.

[1]على أصح القولين: والمعنى جعلنا بين القرآن إذا قرأته وبينهم حجابًا يحول بينهم وبين فهمه وتدبره والإيمان به، ويبينه قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٦].

وهذه الثلاثة هي الثلاثة المذكورة في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥].

فأخبر سبحانه أن ذلك جعله، فالحجاب يمنع رؤية الحق، والأكنة تمنع من فهمه، والوقر يمنع من سماعه.

وقال الكلبي: الحجاب ههنا مانع يمنعهم من الوصول إلى رسول الله بالأذى من الرعب ونحوه، مما يصدهم عن الإقدام عليه، ووصفه بكونه مستورا، فقيل بمعنى ساتر، وقيل على النسب أي ذو ستر.

والصحيح أنه على بابه أي مستورا عن الأبصار فلا يرى، ومجيء مفعول بمعنى فاعل لا يثبت، والنسب في مفعول لم يشتق من فعله: كمكان مهول أي ذي هول،

(١) ٩٤ شفاء.

ورجل مرطوب أي ذي رطوبة، فأما مفعول فهو جار على فعله، فهو الذي وقع عليه الفعل: كمضروب ومجروح ومستور.

(١)قال تعالى، حاكيًا عن اليهود: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ [البقرة: ٨٨] وهو جمع أغلف، وهو الداخل في غلافه، كقُلف وأقلف، وهذه الغشاوة هي الأكنة التي ضربها الله على قلوبهم، عقوبة لهم على رد الحق والتكبر عن قبوله. فهي أكنة على القلوب ووقر في الأسماع، وعمى في الأبصار، وهي الحجاب المستور عن العيون في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٥-٤٦]. فإذا ذكر لهذه القلوب تجريد التوحيد وتجريد المتابعة، ولّى أصحابها على أدبارهم نفورًا.

وأشار بالقلب المنكوس- وهو المكبوب- إلى قلب المنافق، كما قال تعالى: ﴿۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟﴾ [النساء: ٨٨]. أي نكسهم وردهم في الباطل الذي كانوا فيه، بسبب كسبهم وأعمالهم الباطلة، وهذا شر القلوب وأخبثها، فإنه يعتقد الباطل حقا ويوالي أصحابه، والحق باطلاً ويعادي أهله، فالله المستعان.

وأشار بالقلب الذي له مادتان إلى القلب الذي لم يتمكن فيه الإيمان، ولم يزهر فيه سراجه، حيث لم يتجرد للحق المحض، الذي بعث الله به رسوله، بل فيه مادة منه ومادة من خلافه، فتارة يكون للكفر أقرب منه للإيمان، وتارة يكون للإيمان أقرب منه للكفر، والحكم للغالب وإليه يرجع.

....(٢)الصواب هو الجواب الثالث، وهو جواب صاحب الكشاف وغيره: إن المسحور على بابه، وهو من سحر حتى جن، فقالوا: مسحور مثل مجنون زائل العقل لا يعقل ما يقول، فإن المسحور الذي لا يتبع هو الذي فسد عقله بحيث لا يدري ما

---

(١) ١٣ الإغاثة جـ١.

(٢) ٢٢٥ البدائع جـ٢.

يقول، فهو كالمجنون، ولهذا قالوا فيه ﴿ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ [الدخان: ١٤]، فأما من أصيب في بدنه بمرض من الأمراض يصاب به الناس، فإنه لا يمنع ذلك من اتباعه، وأعداء الرسل لم يقذفوهم بأمراض الأبدان، وإنما قذفوهم بما يحذرون به سفهاءهم من اتباعهم، وهو أنهم قد سحروا حتى صاروا لا يعلمون ما يقولون بمنزلة المجانين، ولهذا قال تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٩] مثلوك بالشاعر مرة، والساحر أخرى، والمجنون مرة، والمسحور أخرى، فضلوا في جميع ذلك ضلال من يطلب في تيهه وتحيره طريقا يسلكه فلا يقدر عليه، فإن أي طريق أخذها فهي طريق ضلال وحيرة، فهو متحير في أمره لا يهتدي سبيلا، ولا يقدر على سلوكها.

فهكذا حال أعداء رسول الله ﷺ معه، حتى ضربوا له أمثالا برأه الله منها، وهو أبعد خلق الله منها، وقد علم كل عاقل أنها كذب وافتراء وبهتان.

وأما قولكم: إن سحر الأنبياء ينافي حماية الله تعالى لهم، فإنه سبحانه كما يحميهم ويصونهم ويحفظهم ويتولاهم، فيبتليهم بما شاء من أذى الكفار لهم، ليستوجبوا كمال كرامته، وليتسلى بهم من بعدهم من أممهم وخلفائهم إذا أوذوا من الناس، فرأوا ما جرى على الرسل والأنبياء صبروا ورضوا وتأسوا بهم، ولتمتلئ صاع الكفار، فيستوجبون ما أعد لهم من النكال العاجل والعقوبة الآجلة، فيمحقهم بسبب بغيهم وعداوتهم، فيعجل تطهير الأرض منهم، فهذا من بعض حكمته تعالى في ابتلاء أنبيائه ورسله بإيذاء قومهم، وله الحكمة البالغة والنعمة السابغة، لا إله غيره ولا رب سواه(١).

***

﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى

(١) هذا نهاية بحث مطول في تفسير المعوذتين حول السحر، وفي وصف السحر الذي حصل للنبي ﷺ وغيره. (ج).

فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾.

(1)تأمل ما أجيبوا به عن كل سؤال على التفصيل، فإنهم قالوا: ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ فقيل لهم في جواب هذا السؤال: إن كنتم تزعمون أنه لا خالق لكم ولا رب، فهلا كنتم خلقًا لا يصيبه التعب كالحجارة والحديد؟! وما هو أكبر في صدوركم من ذلك، فإن قلتم: لنا رب خالق خلقنا على هذه الصفة، وأنشأنا هذه النشأة، التي لا تقبل البقاء، ولم يجعلنا حجارة ولا حديدًا، فقد قامت عليكم الحجة بإقراركم، فما الذي يحول بين خالقكم ومنشئكم وبين إعادتكم خلقًا جديدًا.

وللحجة تقرير آخر، وهو أنكم لو كنتم من حجارة أو حديد أو خلق أكبر منهما لكان قادرًا على أن يفنيكم، ويحيل ذواتكم، وينقلها من حال إلى حال. ومن قدر على التصرف في هذه الأجسام مع شدتها وصلابتها بالإفناء والإحالة، ونقلها من حال إلى حال، فما يعجزه عن التصرف فيما هو دونها بإفنائه وإحالته ونقله من حال إلى حال؟ فأخبر سبحانه أنهم يسألون سؤالا آخر بقولهم: من يعيدنا إذا استحالت أجسامنا وفنيت؟ فأجابهم بقوله ﴿ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الإسراء: ٥١] وهذا الجواب نظير جواب قول السائل: ﴿ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨]، فلما أخذتهم الحجة ولزمهم حكمها، ولم يجدوا عنها معدلا، انتقلوا إلى سؤال آخر يتعللون به، كما يتعلل المقطوع بالحجاج بمثل ذلك، وهو قولهم: متى هو؟ فأجيبوا بقوله: ﴿ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٥١، ٥٢].

(2)قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾

---

(١) ١٠٢ الصواعق جـ١.

(٢) ١٤٣ الإعلام جـ١.

[الإسراء: ٤٩] فرد عليهم سبحانه ردا يتضمن الدليل القاطع على قدرته على إعادتهم خلقا جديدا، فقال: ﴿ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الإسراء: ٥٠، ٥١] فلما استبعدوا أن يعيدهم الله خلقا جديدا بعد أن صاروا عظامًا ورفاتًا قيل لهم: كونوا حجارة أو حديدًا أو خلقًا مما يكبر في صدوركم، سواء كان الموت أو السماء أو الأرض أو أي خلق استعظمتموه وكبر في صدوركم، ومضمون الدليل: أنكم مربوبون مخلوقون مقهورون على ما يشاء خالقكم، وأنتم لا تقدرون على تغيير أحوالكم من خلقة، إلى خلقة لا تقبل الاضمحلال كالحجارة والحديد، ومع ذلك فلو كنتم على هذه الخلقة من القوة والشدة، لنفذت أحكامي فيكم وقدرتي ومشيئتي، ولم تسبقوني ولم تفوتوني، كما يقول القائل لمن هو في قبضته: اصعد إلى السماء، فإني لاحقك، أي لو صعدت إلى السماء لحقتك، وعلى هذا فمعنى الآية: لو كنتم حجارة أو حديدًا أو أعظم خلقًا من ذلك لما أعجزتموني ولما فتموني.

وقيل: المعنى كونوا حجارة أو حديدًا عند أنفسكم، أي صوروا أنفسكم وقدروها خلقًا لا يضمحل ولا ينحل، فإنا سنميتكم ثم نحييكم ونعيدكم خلقًا جديدًا.

وبين المعنيين فرق لطيف، فإن المعنى الأول يقتضي أنكم لو قدرتم على نقل خلقتكم من حالة إلى حالة، هي أشد منها وأقوى، لنفذت مشيئتنا وقدرتنا فيكم، ولم تعجزونا، فكيف وأنتم عاجزون عن ذلك؟

والمعنى الثاني يقتضي أنكم صوروا أنفسكم وأنزلوها هذه المنزلة، ثم انظروا أتفوتونا وتعجزونا أم قدرتنا ومشيئتنا محيطة بكم، ولو كنتم كذلك؟

وهذا من أبلغ البراهين القاطعة التي لا تعرض فيها شبهة البتة، بل لا تجد العقول السليمة عن الإذعان والانقياد لها بدا، فلما علم القوم صحة هذا البرهان، وأنه ضروري انتقلوا إلى المطالبة بمن يعيدهم، فقالوا من يعيدنا؟ وهذا سواء كان سؤالا منهم عن تعيين المعيد أو إنكارا منهم له، فهو من أقبح التعنت وأبينه، ولهذا كان

جوابه ﴿ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ولما علم القوم أن هذا جواب قاطع انتقلوا إلى باب آخر من التعنت، وهو السؤال عن وقت هذه الإعادة، فأنغضوا إليه رءوسهم وقالوا: متى هو؟ فقال تعالى: ﴿ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾.

فليتأمل اللبيب لطف موقع هذا الدليل، واستلزامه لمدلوله استلزامًا لا محيد عنه، وما تضمنه من السؤالات والجواب عنها أبلغ جواب وأصحه وأوضحه، فلله ما يفوت المعرضين عن تدبر القرآن المتعوضين عنه بزبالة الأذهان ونخالة الأفكار.

[1]أي إن كنتم كما تزعمون لا تبعثون بعد الموت خلقا جديدا فكونوا خلقا لا يفنى ولا يبلى: إما من حجارة أو من حديد أو أكبر من ذلك، ووجه الملازمة ما تقدم ذكره، وهو إما أن تقروا بأن لكم ربًا متصرفًا فيكم ومالكا لكم، تنفذ فيكم مشيئته وقدرته، يميتكم إذا شاء، ويحييكم إذا شاء، فكيف تنكرون قدرته على إعادتكم خلقا جديدا بعدما أماتكم، وإما أن تنكروا أن يكون لكم رب قادر قاهر مالك نافذ المشيئة والقدرة فيكم، فكونوا خلقا لا يقبل الفناء والموت، فإذا لم تستطيعوا أن تكونوا كذلك، فما تنكرون من قدرة من جعلكم خلقا يموت ويحيا أن يحييكم بعد ما أماتكم، فهذا استدلال يعجزهم عن كونهم خلقا لا يموت، والذي في الواقعة استدلال يعجزهم عن رد الروح إلى مكانها إذا قاربت الموت، وليس بعد هذا الاستدلال إلا الإذعان والانقياد أو الكفر والعناد.

***

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾.

---

(١) ١٥٠ التبيان.

(١) قوله(٢): «الرجاء» أضعف منازل المريدين.

فليس كذلك، بل هو من أجل منازلهم، وأعلاها وأشرفها، وعليه وعلىٰ الحب والخوف مدار السير إلىٰ الله، وقد مدح الله تعالىٰ أهله، وأثنىٰ عليهم. فقال: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وفي الحديث الصحيح الإلهي عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه ﷻ: «يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك علىٰ ما كان منك ولا أبالي»(٣). وروىٰ الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «يقول الله ﷻ: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه، إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن اقترب إليّ شبرًا اقتربت إليه ذراعاه وإن اقترب إليّ ذراعًا اقتربت إليه باعًاه وإن أتاني يمشي أتيته هرولةً»(٤).

وقد أخبر تعالىٰ عن خواص عباده الذين كان المشركون يزعمون أنهم يتقربون بهم إلىٰ الله تعالىٰ: أنهم كانوا راجين له خائفين منه فقال تعالىٰ: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً ۝ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ

---

(١) ٤١ المدارج جـ٢.

(٢) أي الإمام الهروي رحمه الله صاحب متن منازل السائرين الذي شرحه ابن القيم في مدارج السالكين.

(٣) أخرجه الضياء في المختارة (٤/ ٣٩٩ رقم ١٥٧١) والترمذي (رقم ٣٥٤٠) والدارمي (رقم ٢٧٨٨) وأحمد (٥/ ١٦٧، ١٧٢) والطبراني في الصغير (رقم ٨٢٠) وفي الأوسط (٥/ ٣٣٧-٣٣٨ رقم ٥٤٨٣) وفي الكبير (١٢/ ١٩ رقم ١٢٣٤٦) ونقل المنذري في ترغيبه (٢/ ٣٠٨، ٣١٣) تحسين الترمذي، وفي ٤٠/ ١٣٤)، وكذا فعل ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٣٨٠) والنووي في رياض الصالحين (ص ١٣٢).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٠٥) ومسلم (رقم ٢٦٧٥) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٥١٣) وشرح النووي (١٧/ ٢-٣).

رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الإسراء: ٥٦ - ٥٧].

يقول تعالىٰ: هؤلاء الذين تدعونهم من دوني: هم عبادي يتقربون إليَّ بطاعتي، ويرجون رحمتي، ويخافون عذابي، فلماذا تدعونهم من دوني، فأثنىٰ عليهم بأفضل أحوالهم ومقاماتهم: من الحب والخوف والرجاء.

(١) والكلام علىٰ ما ذكره من وجوه:

(أحدها) أن الخوف أحد أركان الإيمان والإحسان الثلاثة، التي عليها مدار مقامات السالكين جميعها، وهي: الخوف، والرجاءُ، والمحبة وقد ذكره سبحانه في قوله: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً ﴿٥٦﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٦ - ٥٧].

فجمع بين المقامات الثلاثة، فإن ابتغاءَ الوسيلة إليه هو التقرب إليه بحبه وفعل ما يحبه. ثم يقول: ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾، فذكر الحب والخوف والرجاءَ.

والمعنىٰ: أن الذين تدعونهم من دون الله من الملائكة والأنبياء والصالحين يتقربون إلىٰ ربهم ويخافونه ويرجونه، فهم عبيده كما أنكم عبيده، فلماذا تعبدونهم من دونه وأَنتم وهم عبيد له؟ وقد أَمر سبحانه بالخوف منه في قوله: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥]. فجعل الخوف منه شرطاً في تحقق الإيمان، وإن كان الشرط داخلاً في الصيغة علىٰ الإيمان، فهو المشروط في المعنىٰ، والخوف شرط في حصوله وتحققه، وذلك لأن الإيمان سبب الخوف الحاصل عليه، وحصول المسبب شرط في تحقق السبب، كما أن حصول السبب موجب لحصول مسببه.

فانتفاءُ الإيمان عند انتفاء الخوف انتفاءٌ للمشروط عند انتفاءِ شرطه.

---

(١) ٢٨٢ الهجرتين.

وانتفاءُ الخوف عند انتفاءِ الإيمان انتفاءٌ للمعلول عند انتفاءِ علته. فتدبره.

والمعنى: إن كنتم مؤمنين فخافوني. والجزاءُ محذوف مدلول عليه بالأول عند سيبويه وأصحابه، أو هو المتقدم نفسه، وهو جزاءٌ وإن تقدم كما هو مذهب الكوفيين. وعلى التقديرين فأداة الشرط قد دخلت على السبب المقتضي للخوف وهو الإيمان، وكل منهما مستلزم للآخر، لكن الاستلزام مختلف، وكل منهما منتف عند انتفاءِ الآخر، لكن جهة الانتفاءِ مختلفة كما تقدم.

والمقصود: أن الخوف من لوازم الإيمان وموجباته فلا يتخلف عنه. وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ [المائدة: ٤٤]. وقد أثنى سبحانه على أقرب عباده إليه بالخوف منه، فقال عن أنبيائه بعد أن أثنى عليهم ومدحهم: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، فالرغب: الرجاءُ والرغبة، والرهب: الخوف والخشية.

[١]روى مسلم في صحيحه من حديث عمرو بن العاص: أنه سمع النبي ﷺ يقول: **«إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليَّ، فإنه من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه عشرًا، ثم سلوا لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي»**[٢].

وقال أحمد أنبأنا عبد الرزاق أنبأنا سفيان عن ليث عن كعب عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ: **«قال إذا صليتم فسلوا الله لي الوسيلة»**. قيل: يا رسول الله ﷺ، وما الوسيلة؟ قال: **«أعلى درجة في الجنة، لا ينالها إلا رجل واحد، وأرجو أن أكون أنا هو»**[٣] هكذا الرواية: **«أن أكون أنا هو»** ووجهها أن تكون الجملة خبرًا عن اسم كان

---

(١) ٦٢ حادي الأرواح.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٣٨٤) وانظر: شرح النووي (٤/ ٨٥-٨٨).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٦٥) وهناد في الزهد (١/ ١١٧ رقم ١٤٧) والترمذي (رقم ٣٦١٢) وانظر: شرح النووي (٤/ ٨٥) وعمدة القاري (٥/ ١٢٢) وتحفة الأحوذي (١٠/ ٥٨-٥٩).

المستتر فيها، ولا يكون «أنا» فصلًا ولا توكيدًا، بل مبتدأ.

وفي الصحيحين من حديث جابر قال: قال رسول الله ﷺ: **«من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمد الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة»**(١).

هكذا لفظ الحديث «مقاما» بالتنكير، ليوافق لفظ الآية، ولأنه لما تعين وانحصر نوعه في شخصه جرى مجرى المعرفة، فوصف بما توصف به المعارف، وهذا ألطف من جعل الذي وعدته بدلا فتأمله.

وفي المسند من حديث عمارة بن غزية عن موسى بن وردان عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: **«الوسيلة درجة عند الله ﷻ ليس فوقها درجة، فسلوا الله لي الوسيلة»**(٢). وذكره ابن أبي الدنيا، وقال فيه: **«درجة في الجنة، ليس في الجنة درجة أعلى منها، فسلوا الله أن يؤتينيها على رؤوس الخلائق»**(٣).

وقال أبو نعيم: أنبأنا سليمان بن أحمد، حدثنا أحمد بن عمرو بن مسلم الخلال حدثنا عبد الله بن عمران العابدي حدثنا فضيل بن عياض عن منصور عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، والله إنك لأحب إليَّ من نفسي، وإنك لأحب إليَّ من أهلي، وأحب إليَّ من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك، فما أصبر حتى آتيك، فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبين، وإني إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك، فلم يرد عليه

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦١٤) وانظر: الفتح (٢/ ٩٤).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٨٣) والطبراني في الأوسط (٢/ ١٢٦ رقم ١٤٦٦) والديلمي في الفردوس (٤/ ٤٣٣ رقم ٧٢٥٨) وإسماعيل الجهضمي في فضل الصلاة على النبي ﷺ (رقم ٤٩)، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٣٣٢): رواه أحمد والطبراني في الأوسط وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف. وانظر: فيض القدير (٦/ ٣٧٤-٣٧٥). والحديث صححه الألباني في تحقيقه لفضل الصلاة على النبي وفي السلسلة الصحيحة رقم (٣٥٧١) وحسنه في صحيح الجامع (رقم ١٩٨٨).

(٣) لم أجده.

النبي ﷺ حتى نزل جبريل بهذا الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُولَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[١] [النساء: ٦٩].

قال الحافظ أبو عبد الله المقدسي: لا أعلم بإسناد هذا الحديث بأسًا[٢].

وسميت درجة النبي ﷺ الوسيلة؛ لأنها أقرب الدرجات إلى عرش الرحمن، وهي أقرب الدرجات إلى الله، وأصل اشتقاق لفظ الوسيلة من القرب، وهي فعيلة من وسل إليه إذا تقرب إليه. قال لبيد:

بلى كل ذي رأي إلى الله واسل[٣]

ومعنى الوسيلة من الوصلة، ولهذا كانت أفضل الجنة وأشرفها، وأعظمها نورًا.

وقال صالح بن عبد الكريم: قال لنا فضيل بن عياض: أتدرون لم حسنت الجنة؟ لأن عرش رب العالمين سقفها[٤].

وقال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس: «نور سقف مساكنهم نور عرشه».

وقال بكر: عن أشعث عن الحسن: «إنما سميت عدن، لأن فوقها العرش، ومنه

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٤٠) والطبراني في الصغير (رقم ٥٢) وفي الأوسط (١/ ١٥٢-١٥٣ رقم ٤٧٧) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٠): رواه الطبراني في الصغير والأوسط ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن عمران وهو ثقة. والحديث ذكره الضياء المقدسي في صفة الجنة بتحقيقي (رقم ٢٠).

(٢) انظر: صفة الجنة، للمقدسي (ص ٦٢) بتحقيقي، وهو من منشورات دار بلنسية بالرياض.

(٣) هذا عجز بيت، وصدره: أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم.

ذكره ابن منظور في لسان العرب (١١/ ٧٢٤) والمناوي في فيض القدير (٤/ ١٠٩) والشنقيطي في أضواء البيان (٣/ ١٦٣). والبيت من بحر الطويل وقائله: لبيد بن ربيعة العامري أبو عقيل أحد الشعراء الفرسان الأشراف، أدرك الإسلام ويعد من الصحابة من المؤلفة قلوبهم، ويقال: إنه ترك الشعر فلم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحدًا. وقد قال فيه رسول الله ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر، كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل» أخرجه البخاري (رقم ٣٨٤١) ومسلم (رقم ٢٢٥٦)، مات لبيد ﷺ سنة ٤١).

(٤) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٩/ ٣١٢).

تفجر أنهار الجنة، وللحور العدنية الفضل على سائر الحور، والقربى والزلفى واحد، وإن كان في الوسيلة معنى التقرب إليه بأنواع الوسائل».

وقال الكلبي: «اطلبوا إليه القربة بالأعمال الصالحة». وقد كشف سبحانه عن هذا المعنى كل الكشف بقوله ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧] فقوله: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ هو تفسير للوسيلة التي يبتغيها هؤلاء الذين يدعوهم المشركون من دون الله، فيتنافسون في القرب منه.

ولما كان رسول الله ﷺ أعظم الخلق عبودية لربه وأعلمهم به، وأشدهم له خشية، وأعظمهم له محبة كانت منزلته أقرب المنازل إلى الله، وهي أعلى درجة في الجنة، وأمر النبي ﷺ أمته أن يسألوها له، لينالوا بهذا الدعاء زلفى من الله وزيادة الإيمان.

وأيضًا فإن الله سبحانه قدرها له بأسباب (منها) دعاء أمته له بها بما نالوه على يده من الإيمان والهدى صلوات الله وسلامه عليه. وقوله: «**حلت عليه**» يروى «**عليه**» و«**له**»، فمن رواه باللام فمعناه حصلت له، ومن رواه بعلى فمعناه وقعت عليه شفاعتي، والله أعلم.

***

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧)﴾.

[(١)] فابتغاء الوسيلة إليه: طلب القرب منه بالعبودية والمحبة، فذكر مقامات الإيمان الثلاثة التي عليها بناؤه: الحب، والخوف، والرجاء، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

وفي صحيح مسلم عن جابر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ـ قبل موته

(١) ٣٥ المدارج جـ٢.

بثلاث ـ: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه»[(١)]. وفي الصحيح عنه ﷺ: «يقول الله ﷻ: أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء»[(٢)].

«الرجاء» حادٍ يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب، وهو الله والدار الآخرة. ويطيب لها السير. وقيل: هو الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى، والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه، وقيل: هو الثقة بجود الرب تعالى.

والفرق بينه وبين «التمني» أن «التمني» يكون مع الكسل، ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد، و«الرجاء» يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل.

فالأول: كحال من يتمنى أن يكون له أرض يبذرها ويأخذ زرعها.

والثاني: كحال من يشق أرضه ويفلحها ويبذرها، ويرجو طلوع الزرع.

ولهذا أجمع العارفون على أن «الرجاء» لا يصح إلا مع العمل...

***

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾.

[(٣)]أخبر سبحانه: أن القرآن بصائر لجميع الناس. والبصائر جمع بصيرة، وهي فعيلة بمعنى مفعلة، أي مبصرة لمن تبصر. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء: ٥٩]. أي مبينة موجبة للتبصر. وفعل الإبصار يستعمل لازمًا ومتعديًا. يقال: أبصرته، بمعنى أريته، وأبصرته، بمعنى رأيته، فمبصرة في الآية: بمعنى مرئية، لا بمعنى رائية، والذين ظنوها بمعنى رائية غلطوا في الآية، وتحيروا في معناها.

فإنه يقال: بصر به، وأبصره، فيعدى بالباء تارة، والهمزة تارة. ثم يقال: أبصرته

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٨٧٧) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٦١، ٣٨٥).

(٢) أخرجه ابن حبان (٢/ ٤٠١ رقم ٦٣٣) وفي الموارد (رقم ٢٤٦٨) والدارمي (رقم ٢٧٣١) وأحمد (٣/ ٤٩١) وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ٣١٨): رواه أحمد والطبراني في الأوسط ورجال أحمد ثقات.

(٣) ١٦٩ إغاثة جـ٢.

كذا، أي أريته إياه، كما يقال: بصرته به. وبصر هو به.

فهاهنا بصيرة، وتبصرة، ومبصرة. فالبصيرة: المبينة التي تبصر، والتبصرة مصدر مثل التذكرة، وسُمِّي بها ما يوجب التبصرة، فيقال: هذه الآية تبصرة، لكونها آلة التبصر، وموجبه.

فالقرآن بصيرة وتبصرة، وهدىٰ وشفاء، ورحمة، بمعنىٰ عام، وبمعنىٰ خاص. ولهذا يذكر الله سبحانه هذا وهذا، فهو هدىٰ للعالمين، وموعظة للمتقين، وهدىٰ للمتقين، وشفاء للعالمين، وشفاء للمؤمنين، وموعظة للعالمين، وموعظة للمتقين، فهو في نفسه هدىٰ ورحمة، وشفاء وموعظة.

فمن اهتدىٰ به واتعظ واشتفىٰ، كان بمنزلة من استعمل الدواء الذي يحصل به الشفاء، فهو دواء له بالفعل. وإن لم يستعمله، فهو دواء له بالقوة، وكذلك الهدىٰ.

فالقرآن هدىٰ بالفعل لمن اهتدىٰ به، وبالقوة لمن لم يهتد به، فإنما يهتدي به ويرحم، ويتعظ المتقون الموقنون. والهدىٰ في الأصل: مصدر هَدَىَ يَهدي هُدىً.

فمن لم يعمل بعلمه لم يكن مهتديا، كما في الأثر «من ازداد علمًا ولم يزدد هدًى لم يزدد من الله تعالىٰ إلا بعدًا»[1] ولكن يسمَّىٰ هدىٰ، لأن من شأنه أن يهدىٰ.

وهذا أحسن من قول من قال: إنه هُدًىٰ، بمعنىٰ هادٍ، فهو مصدرٌ بمعنىٰ الفاعل، كعدل بمعنىٰ العادل، وزور بمعنىٰ الزائر، ورجل صوم أي بمعنىٰ صائم، فإن الله سبحانه قد أخبر أنه يَهْدىٰ به. فالله الهادي، وكتابه الهدىٰ الذي يهدىٰ به علىٰ لسان رسوله ﷺ.

***

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾.

---

(١) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس عن علي ﷺ مرفوعًا، وفيه: «ولم يزدد في الدنيا زهدًا» وذكر باقي الحديث (٣/ ٦٠٢ رقم ٥٨٨٧) وقال العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٣٠٤ رقم ٢٤٠٢): رواه الديلمي عن علي رفعه وسنده ضعيف، كما قال العراقي. وانظر: فيض القدير (٦/ ٥٢).

[(١)]وباب هذه المعرفة والتعبد هو معرفة إحاطة الرب سبحانه بالعالم وعظمته. وأن العوالم كلها في قبضته، وأن السموات السبع والأرضين السبع في يده كخردلة في يد العبد.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ﴾ [الإسراء: ٦٠]، وقال: ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴾ [البروج: ٢٠]، ولهذا يقرن سبحانه بينَ هذين الاسمين الدالين على هذين المعنيين: اسم العلو الدال على أنه الظاهر وأنه لا شيء فوقه، واسم العظمة الدال على الإحاطة وأنه لا شيء دونه، كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [سبأ: ٢٣]، وقال: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١١٥]، هو تبارك وتعالى كما أنه العالي على خلقه بذاته فليس فوقه شيء، فهو الباطن بذاته، فليس دونه شيء، بل ظهر على كل شيء فكان فوقه، وبطن فكان أقرب إلى كل شيء من نفسه، وهو محيط به حيث لا يحيط الشيء بنفسه، وكل شيء في قبضته وليس شيء في قبضة، نفسه، فهذا قرب الإحاطة العامة.

وأما القرب المذكور في القرآن والسُّنَّة فقرب خاص من عابديه وسائليه وداعيه، وهو من ثمرة التعبد باسمه الباطن قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فهذا قربه من داعيه، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦]، فذكر الخبر وهو قريب عن لفظ الرحمة وهي مؤنثة، إيذانًا بقربه تعالى من المحسنين، فكأنه قال: إن الله برحمته قريب من المحسنين.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»[(٢)]، و«أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنْ عَبْدِهِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ»[(٣)]، فهذا قرب خاص غير قرب

---

(١) ٢٢ الهجرتين.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٤٨٢) وانظر: فتح الباري (٢/ ١٨٣، ٣٠٠، ٤٩١) (١١/ ١٣٢) وشرح النووي (٤/ ٢٠٠، ٢٠٦).

(٣) أخرجه ابن خزيمة (٢/ ١٨٢ رقم ١١٤٧) والنسائي في الكبرى (١/ ٤٨٢ رقم ١٥٤٤) والبيهقي في =

الإحاطة وقرب البطون. وفي الصحيح من حديث أبي موسى أنهم كانوا مع النبي ﷺ في سفر، فارتفعت أصواتهم بالتكبير، فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فإنكم لا تَدْعُونَ أصمَّ وَلا غائِباً، إنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، أَقْرَبُ إِلَى أَحدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»[1]، فهذا قربه من داعيه وذاكره، يعني فأي حاجة بكم إلى رفع الأصوات، وهو لقربه يسمعها وإن خفضت، كما يسمعها إذا رفعت، فإنه سميع قريب. وهذا القرب هو من لوازم المحبة، فكلما كان الحب أعظم كان القرب أكثر...

***

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾.

...[2]لما تم خلق آدم ﷺ في أحسن تقويم، وأكمل صورة وأجملها، وكملت محاسنه الباطنة، بالعلم[3] والحلم والوقار، وتولى ربه سبحانه خلقه بيده، فجاء في أحسن خلق، وأتم صورة، طوله في السماء ستون ذراعًا، قد ألبس رداء الجمال والحسن، والمهابة والبهاء، فرأت الملائكة منظرًا لم يشاهدوا أحسن منه ولا أجمل، فوقعوا كلهم سجودًا له، بأمر ربهم تبارك وتعالى، فشق الحسود قميصه من دُبُرٍ، واشتعلت في قلبه نيران الحسد المتين، فعارض النص بالمعقول بزعمه، كفعل أوليائه من المبطلين. وقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]. فأعرض عن النص الصريح، وقابله بالرأي الفاسد القبيح. ثم أردف ذلك بالاعتراض على العليم الحكيم، الذي لا تجد

الكبرى (٣/ ٤ رقم ٤٤٣٩) والترمذي (رقم ٣٥٧٩) وقال: حسن صحيح، وكذا صححه الحاكم في المستدرك (١/ ٤٥٣ رقم ١١٦٢) وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (رقم ٥٧٢) وفي مشكاة المصابيح (رقم ١٢٢٩).

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٩٩٢) ومسلم (رقم ٢٧٠٤) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٧٤).

(٢) ٢٠١ الإغاثة جـ٢.

(٣) تقدم أول البحث في سورة الأعراف. (ج).

العقول إلى الاعتراض على حكمته سبيلًا. فقال: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

وتحت هذا الكلام من الاعتراض معنى: أخبرني، لم كرمته عليَّ؟ وغور هذا الاعتراض: أن الذي فعلته ليس بحكمة ولا صواب، وأن الحكمة كانت تقتضي أن يسجد هو لي، لأن المفضول يخضع للفاضل، فلم خالفت الحكمة؟ ثم أردف ذلك بتفضيل نفسه عليه، وإزرائه به، فقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢].

ثم قرر ذلك بحجته الداحضة، في تفضيل مادته وأصله على مادة آدم عليه السلام وأصله. فأنتجت له هذه المقدمات إباءه وامتناعه من السجود، ومعصيته الرب المعبود. فجمع بين الجهل والظلم، والكبر والحسد والمعصية، ومعارضة النص بالرأي والعقل، فأهان نفسه كل الإهانة من حيث أراد تعظيمها، ووضعها من حيث أراد رفعتها، وأذلها من حيث أراد عزتها، وآلها كل الألم من حيث أراد لذتها، ففعل بنفسه ما لو اجتهد أعظم أعدائه في مضرته لم يبلغ منه ذلك المبلغ. ومن كان هذا غشه لنفسه فكيف يسمع منه العاقل ويقبل ويواليه؟. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ...﴾ الآية. [الكهف: ٥٠].

***

﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾.

[1]أعاد الضمير بلفظ الخطاب وإن كان (من تبعك) يقتضي الغيبة، لأنه اجتمع مخاطب وغائب، فغلب المخاطب، وجعل الغائب تبعا له، كما كان تبعا له في المعصية والعقوبة، فحسن أن يجعل تبعا له في اللفظ، وهذا من حسن ارتباط اللفظ بالمعنى واتصاله به، وانتصب (جزاءً موفورًا) عند ابن مالك على المصدر، وعامله عنده المصدر الأول، قال: والمصدر يعمل في المصدر، تقول: عجبت من قيامك

(١) ١٨٥ البدائع جـ٤.

قياما، ويعمل فيه الفعل نحو قام قياما واسم الفاعل كقوله:

فأصبحت لا أقرب الغانيات مزدجرا عن هواها ازدجارًا[(١)]

واسم المفعول هو مطلوب طلبًا وبعد، ففي نصب جزاء قولان آخران:

أحدهما: أنه منصوب بما في معنى: فإن جهنم جزاؤكم من الفعل، فإنه متضمن لتجازون، وهو الناصب جزاء.

الثاني: أنه حال وساغ وقوع المصدر حالًا ههنا، لأنه موصوف. ذكر الزمخشري هذين القولين، وهذا كما تقول: خذ عطاءك عطاءً موفورًا.

والذي يظهر في الآية أن جزاء ليس بمصدر، وإنما هو اسم للحظ والنصيب، فليس مصدر جزيته جزاء، بل هو كالعطاء والنصيب؛ ولهذا وصفه بأنه موفور أي تام لا نقص فيه، وعلى هذا فنصبه على الاختصاص، وهو يشبه نصب الصفات المقطوعة، وهذا كما قال الزمخشري وغيره في قوله تعالى: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ﴾ إلى قوله: ﴿ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ [النساء: ٧]، قال: نصبه على الاختصاص، أي أعني نصيبًا مفروضًا، ويجوز أن ينتصب انتصاب المصدر المؤكد كقوله تعالى: ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١١].

***

﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾.

...[(٢)]أما المشي الواجب: فالمشي إلى الجمعات والجماعات في أصح القولين لبضعة وعشرين دليلًا، مذكورة في غير هذا الموضع. والمشي حول البيت للطواف الواجب، والمشي بين الصفا والمروة بنفسه أو بمركوبه، والمشي إلى حكم الله

(١) هذا البيت من بحر المتقارب، وينسب للأعشى (ميمون بن قيس الوائلي) من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية، وأحد أصحاب المعلقات، أدرك الإسلام ولم يسلم، مات سنة ٧هـ.

(٢) ١٢١ المدارج جـ١.

ورسوله إذا دعي إليه، والمشي إلىٰ صلة رحمه، وبر والديه، والمشي إلىٰ مجالس العلم الواجب طلبه وتعلمه، والمشي إلىٰ الحج إذا قربت المسافة، ولم يكن عليه فيه ضرر.

والحرام: المشي إلىٰ معصية الله، وهو من رَجِلِ الشيطان، قال تعالىٰ: ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ [الإسراء: ٦٤] قال مقاتل: استعن عليهم بركبان جندك ومشاتهم، فكل راكب وماش في معصية الله فهو من جند إبليس.

وكذلك تتعلق هذه الأحكام الخمس بالركوب أيضًا.

فواجبه: في الركوب في الغزو والجهاد والحج الواجب.

ومستحبه في الركوب المستحب من ذلك، ولطلب العلم، وصلة الرحم، وبر الوالدين. وفي الوقوف بعرفة نزاع: هل الركوب فيه أفضل أم علىٰ الأرض؟ والتحقيق أن الركوب أفضل إذا تضمن مصلحة: من تعليم للمناسك واقتداء به، وكان أعون علىٰ الدعاء، ولم يك فيه ضرر علىٰ الدابة.

وحرامه: الركوب في معصية الله ﷻ.

ومكروهه: الركوب للهو واللعب، وكل ما تركه خير من فعله.

ومباحه: الركوب لما لم يتضمن فوت أجر، ولا تحصيل وزر.

فهذه خمسون مرتبة علىٰ عشرة أشياء: القلب واللسان والسمع والبصر والأنف والفم واليد والرجل والفرج والاستواء علىٰ ظهر الدابة[١].

***

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾.

...[٢]الله سبحانه خلق عباده المؤمنين وخلق كل شيء لأجلهم، كما قال تعالىٰ:

---

(١) تقدم أصل هذا البحث في آخر تفسير الفاتحة (ج).

(٢) ٢٤٠ طريق الهجرتين.

﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان: ٢٠]. وكرمهم وفضلهم على كثير ممن خلق، فقال: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠].

[وقال] لصالحيهم وصفوتهم: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٣]. وقال لموسى: ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ [طه: ٤١]. واتخذ منهم الخليلين، والخلة أعلى درجات المحبة.

وقد جاء في بعض الآثار: يقول تعالى: «**ابن آدم خلقتك لنفسي، وخلقت كل شيء لك، فبحقي عليك لا تشتغل بما خلقته لك عما خلقتك له**».

وفي أثر آخر يقول تعالى: «**ابن آدم، خلقتك لنفسي فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب، ابن آدم اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء**»(١).

فالله سبحانه خلق عباده له، ولهذا اشترى منهم أنفسهم، وهذا عقد لم يعقده مع خلق غيرهم، فيما أخبر به على لسان رسوله ﷺ، ليسلموا إليه النفوس التي خلقها له.

وهذا الشراء دليل على أنها محبوبة له مصطفاة عنده، مرضية لديه. وقدر السلعة يعرف بجلالة قدر مشتريها وبمقدار ثمنها، هذا إذا جهل قدرها في نفسها، فإذا عرف قدر السلعة وعرف مشتريها، وعرف الثمن المبذول فيها علم شأنها ومرتبتها في الوجود.

فالسلعة أنت، والله المشتري، والثمن جنته والنظر إلى وجهه وسماع كلامه في دار الأمن والسلام. والله لا يصطفى لنفسه إلا أعز الأشياء وأَشْرَفَهَا وأعظمها قيمة. وإذا كان قد اختار العبد لنفسه، وارتضاه لمعرفته ومحبته، وبنى له داراً في جواره وقربه،

---

(١) ذكر الأثرين المناوي في فيض القدير (٢/ ٣٠٥) بينما ذكر ابن كثير الأثر الثاني في تفسيره (٤/ ٢٣٩).

وجعل ملائكته خدَمه يسعون في مصالحه في يقظته ومنامه وحياته وموته.

ثم إنَّ العبد أبق عن سيده ومالكه، معرضاً عن رضاه، ثم لم يكفه ذلك حتى خامر عليه، وصالح عدوه، ووالاه من دونه، وصار من جنده، مؤثراً لمرضاته على مرضاة وليه ومالكه، فقد باع نفسه - التي اشتراها منه إلهه ومالكه وجعل ثمنها جنته والنظر إلى وجهه - من عدوه، وأبغض خلقه إليه، واستبدل غضبه برضاه، ولعنته برحمته ومحبته. فأي مقت خلى هذا المخدوع عن نفسه لم يتعرض له من ربه؟

...[1]قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ ﴾ [الإسراء: ٧٠].

فسبحان من ألبسه خلع الكرامة كلها من العقل، والعلم، والبيان، والنطق، والشكل، والصورة الحسنة، والهيئة الشريفة، والقد المعتدل، واكتساب العلوم بالاستدلال والفكر، واقتناص الأخلاق الشريفة الفاضلة من البر والطاعة والانقياد.

فكم بين حاله وهو نطفة في داخل الرحم مستودع هنا وبين حاله، والملك يدخل عليه في جنات عدن ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤].

فالدنيا قرية والمؤمن رئيسها، والكل مشغول به ساع في مصالحه، والكل قد أقيم في خدمته وحوائجه.

فالملائكة الذين هم حملة عرش الرحمن ومن حوله، يستغفرون له، والملائكة الموكلون به يحفظونه، والموكلون بالقطر والنبات يسعون في رزقه، ويعملون فيه.

والأفلاك مسخرة منقادة دائرة بما فيه مصالحه، والشمس والقمر والنجوم مسخرات جاريات بحساب أزمنته وأوقاته، وإصلاح رواتب أقواته.

والعالم الجوي مسخر له برياحه وهوائه وسحابه وطيره، وما أودع فيه.

والعالم السفلي كله مسخر له مخلوق لمصالحه: أرضه وجباله وبحاره وأنهاره،

---

(١) ٢٦٣ المفتاح جـ١.

وأشجاره وثماره، ونباته وحيوانه، وكل ما فيه، كما قال تعالىٰ: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ١٢، ١٣].

وقال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٣٢] إلىٰ قوله: ﴿ كَفَّارٌ ﴾.

فالسائر في معرفة آلاء الله وتأمل حكمته وبديع صفاته أطول باعًا وأملأ صواعًا من اللصيق بمكانه المقيم في بلد عادته وطبعه راضيًا بعيش بني جنسه، لا يرضىٰ لنفسه إلا أن يكون واحدًا منهم، يقول: لي أسوة بهم، وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر، وليست نفائس البضائع إلا لمن امتطىٰ غارب الاغتراب، وطوف في الآفاق حتىٰ رضي من الغنيمة بالإياب، فاستلان ما استوعره البطالون، وأنس بما استوحش منه الجاهلون.

***

﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾.

[1] التثبيت فعله، والثبات فعل رسوله، فهو سبحانه المثبت، وعبده الثابت.

ومثله قوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

فأخبر سبحانه أن تثبيت المؤمنين وإضلال الظالمين فعله، فإنه يفعل ما يشاء.

وأما الثبات والضلال فمحض أفعالهم. ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ [المائدة: ١٣].

فأخبر أنه هو الذي قسَّىٰ قلوبهم حتىٰ صارت قاسية، فالقساوة وصفها وفعلها، وهي أثر فعله، وهو جعلها قاسية، وذلك أثر معاصيهم ونقضهم ميثاقهم، وتركهم بعض ما ذكروا به، فالآية مبطلة لقول القدرية والجبرية.

(١) ٥٩ شفاء.

...[(١)]فأكمل الخلق أكملهم عبودية، وأعظمهم شهوداً لفقره وضرورته وحاجته إلىٰ ربه، وعدم استغنائه عنه طرفة عين.

ولهذا كان من دعائه ﷺ: «أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عين، ولا إلىٰ أحد من خلقك»[(٢)]، وكان يدعو: «يا مقلّب القُلُوبِ ثَبِّتْ قلبِي عَلَىٰ دينك»[(٣)]. يعلم ﷺ أن قلبه بيد الرحمن ﷻ، لا يملك منه شيئاً، وأن الله سبحانه يصرفه كما يشاءُ، كيف وهو يتلو قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٧٤]، فضرورته ﷺ إلىٰ ربه وفاقته إليه بحسب معرفته به، وحسب قربه منه ومنزلته عنده.

وهذا أمر إنما بدا منه لمن بعده ما يرشح من ظاهر الوعاءِ، ولهذا كان أقربَ الخلق إلىٰ الله وسيلة، وأعظمهم عنده جاهاً، وأرفعهم عنده منزلة، لتكميله مقام العبودية والفقر إلىٰ ربه.

وكان يقول لهم: «أَيهَا النَّاسُ، مَا أُحبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي إِنَّمَا أنا عَبْدٌ»[(٤)]،

---

(١) ١٠ طريق الهجرتين.

(٢) أخرجه الضياء في المختارة (٦/ ٣٠٠ رقم ٢٣١٩) وابن حبان (٣/ ٢٥٠ رقم ٩٧٠) وفي موارد الظمآن (رقم ٢٣٧٠) والنسائي في الكبرىٰ (٦/ ١٤٧ رقم ١٠٤٠٥) وأبو داود (رقم ٥٠٩٠) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٥/ ٣٤٩ رقم ٢٩٢٥) والطبراني في الصغير (رقم ٤٤٤٩) وفي الأوسط (٤/ ٤٣ رقم ٣٥٦٥) وأحمد (٥/ ٤٢) وصححه إسناده المنذري في الترغيب (١/ ٢٦٠ رقم ٩٨٤) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٣٧) رواه الطبراني وإسناده حسن. وانظر: فتح الباري (١١/ ١٤٨).

(٣) أخرجه الضياء في المختارة (٦/ ٢١١ رقم ٢٢٢٢) وابن حبان (٣/ ٢٢٢-٢٢٣ رقم ٩٤٣) وفي الموارد (رقم ٢٤١٩) والنسائي في الكبرىٰ (٤/ ٤١٤ رقم ٧٧٣٧) والترمذي (رقم ٢١٤٠) و(رقم ٣٥٢٢) وأحمد (٣/ ١١٢) والبيهقي في الشعب (١/ ٤٧٥ رقم ٧٥٧) وابن أبي عاصم في السنن (١/ ١٠١ رقم ٢٢٥) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٦٨٣) والحديث حسنه الترمذي.

(٤) أخرجه الضياء في المختارة (٥/ ٢٦ رقم ١٦٢٩) والنسائي في الكبرىٰ (٦/ ٧٠ رقم ١٠٠٧٧) وأحمد (٣/ ١٥٣، ٢٤٩) وعبد بن حميد (رقم ١٣٣٧) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣/ ٨٨ رقم ١٠٩٧) (٤/ ١٠١ رقم ١٥٧٢).

وكان يقول: «لا تُطْروني كَمَا أَطْرَتِ النصارىٰ المسيح ابن مريم، وإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»[1].

وذكره الله سبحانه بسمة العبودية في أشرف مقاماته: مقام الإسراءِ، ومقام الدعوة، ومقام التحدي، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء:١]، وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، وقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، وفي حديث الشفاعة: «إِنَّ الْمَسِيحَ يَقُولُ لَهُمْ: اذْهَبُوا إِلَىٰ مُحَمَّدٍ: عَبْدٍ غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ»[2]، فنال ذلك المقام بكمال عبوديته لله، وبكمال مغفرة الله له.

[3]فإن قيل: قد ذكرتم: أن المحب يسامح بما لا يسامح به غيره. ويعفىٰ للولي عما لا يعفىٰ لسواه، وكذلك العالم أيضًا، يغفر له ما لا يغفر للجاهل. كما روىٰ الطبراني بإسناد جيد مرفوعًا إلىٰ النبي ﷺ: «إن الله سبحانه إذا جمع الناس يوم القيامة في صعيد واحد، قال للعلماء: إني كنت أعبد بفتواكم، وقد علمت أنكم كنتم تخلطون كما يخلط الناس، وإني لم أضع علمي فيكم وأنا أريد أن أعذبكم، اذهبوا فقد غفرت لكم»[4] هذا معنىٰ الحديث، وقد روي مسندًا ومرسلًا.

فهذا الذي ذكرتم صحيح، وهو مقتضىٰ الحكمة والجود والإحسان، ولكن ماذا تصنعون بالعقوبة المضاعفة التي ورد التهديد بها في حق أولئك إن وقع منهم ما يكره، كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٤٥) وانظر: فتح الباري (١٢/ ١٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٧١٢) ومسلم (رقم ١٩٤) وانظر: فتح الباري (١١/ ٥٠٧-٥١٠) وشرح النووي (٣/ ٥٥-٥٨).

(٣) ٣٣٣ المدارج جـ١.

(٤) أخرجه الطبراني في الصغير (رقم ٥٩١) والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (رقم ٥٦٧) والفسوي في المعرفة والتاريخ (٣/ ٣٨٣) وابن عدي في الكامل (٤/ ١١١) وقال: وهذا الحديث بهذا الحديث بهذا الإسناد باطل. وقد ذكره الذهبي في ميزان الاعتدال (٣/ ٤٦٤).

[الأحزاب: ٣٠] وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥] أي لولا تثبيتنا لك لقد كدت تركن إليهم بعض الشيء، ولو فعلت لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات أي ضاعفنا لك العذاب في الدنيا والآخرة...

***

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝ ﴾.

...قال تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ ﴾ [الإسراء: ٧٨] فليست اللام بمعنى «في» قطعًا بل قيل: إنها لام التعليل، أي لأجل دلوك الشمس.

وقيل: إنها بمعنى «بعد»، فإنه ليس المراد إقامتها وقت الدلوك. سواء فسر بالزوال أو الغروب، وإنما يؤمر بالصلاة بعد الدلوك.

[(١)]قوله تعالى: ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٨] قيل: يشهده الله ﷻ وملائكته، وقيل: يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، فيتفق نزول هؤلاء البدل عند صعود أولئك، فيجتمعون في صلاة الفجر، وذلك لأنها هي أول ديوان النهار وآخر ديوان الليل، فيشهده ملائكة الليل والنهار.

واحتج لهذا القول بما في الصحيح من حديث الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**فَضْلُ صَلاةِ الْجَمِيعِ عَلَى صَلاةِ الْوَاحِدِ خَمْسٌ وَعِشْرُونَ دَرَجَةً**»، ويجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر، لقول أبي هريرة: واقرؤوا إن شئتم: ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾[(٢)].

قال أصحاب القول الأول: وهذا لا ينافي قولنا، وهو أن يكون الله سبحانه وملائكة

---

(١) ٢١٢ طريق الهجرتين.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٧١٧) ومسلم (رقم ٦٤٩) وانظر: فتح الباري (٢/ ١٣١-١٣٥) وشرح النووي (٥/ ١٥١).

الليل والنهار يشهدون قرآن الفجر، وليس المراد الشهادة العامة، فإن الله على كل شيء شهيد، بل المراد شهادة خاصة، وهي شهادة حضور ودنوّ متصل بدنو الرب ونزوله إلى سماءِ الدنيا في الشطر الأخير من الليل.

وقد روى الليث بن سعد: حدثني زيادة بن محمد عن محمد بن كعب القرظي عن فضالة بن عبيد الأنصاري عن أَبي الدرداء عن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ ﷻ يَنْزِلُ فِي ثَلاثِ سَاعَاتٍ يَبْقَيْنَ مِنَ اللَّيْلِ، فَيَفْتَحُ الذِّكْرَ فِي السَّاعَةِ الأُولَى الَّذِي لَم يَرَهُ غَيْرُهُ فَيَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ، ثُمَّ يَنْزِلُ فِي السَّاعَةِ الثانية إِلَى جَنَّةِ عَدْنٍ وَهِي دَارُهُ الَّتِي لَمْ تَرَهَا عَيْنٌ وَلَمْ تَخْطُرُ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، وَهِي مَسْكَنُهُ لا يسكنها معه من بني آدم غير ثلاث، وهم النبيون والصديقون والشهداءُ، ثم يقول: طوبى لمن دخلك، ثم ينزل في الساعة الثالثة إلى سماءِ الدنيا بروحه وملائكته فتنتفض فيقول: قومي بعزتي، ثم يطلع إلى عباده فيقول: هل من مستغفر فأَغفر له؟ أَلا من سائل يسأَلني فأعطيه؟ أَلا داع يدعوني فأُجيبه؟ حتى تكون صلاة الفجر**»[1].

ولذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾، يشهده الله ﷻ وملائكته ملائكة الليل والنهار[2].

ففي هذا الحديث أن النزول يدوم إلى صلاة الفجر. وعلى هذا فيكون شهود الله سبحانه لقرآن الفجر مع شهود ملائكة الليل والنهار له.

وهذه خاصة بصلاة الصبح ليست لغيرها من الصلاة، وهذا لا ينافي دوام النزول في سائر الأحاديث إلى طلوع الفجر، ولاسيما وهو معلق في بعضها على انفجار الصبح، وهو اتساع ضوئه.

---

(١) أخرجه الطبراني في الدعاء (رقم ١٣٥) والعقيلي في الضعفاء (٢/ ٩٣ رقم ٥٥٢) في ترجمة زيادة بن محمد الأنصاري، وقال: والحديث في نزول الله عزوجل إلى السماء الدنيا ثابت فيه أحاديث صحاح إلا أن زيادة هذا جاء في حديثه بألفاظ لم يأت بها الناس، ولا يتابعه عليها منهم أحد. وقال الذهبي في ميزان الاعتدال (٣/ ١٤٥): فهذه ألفاظ منكرة لم يأت بها غير زيادة.

(٢) يأتي قريبًا بحث مكمل لهذا. (ج).

وفي لفظ: «حَتَّىٰ يَضِيءَ الْفَجْرُ»[١]، وفي لفظ: «حَتَّىٰ يَسْطَعَ الْفَجْر»[٢]، وذلك هو وقت قراءة الفجر، وهذا دليل على استحباب تقديمها مع مواظبة النبي ﷺ وخلفائه الراشدين على تقديمها في أول وقتها، فكان النبي ﷺ يقرأُ فيها بالستين إلى المائة ويطيل ركوعها وسجودها وينصرف منها والنساءُ لا يعرفن من الغلس، وهذا لا يكون إلا مع شدة التقديم في أول الوقت لتقع القراءة في وقت النزول فيحصل الشهود المخصوص.

مع أنه قد جاء في بعض الأحاديث مصرحاً به دوام ذلك إلى الانصراف من صلاة الصبح، رواه الدارقطني في «كتاب نزول الرب كل ليلة إلى سماءِ الدنيا» من حديث محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**ينزل الله ﷻ إلى سماءِ الدنيا لنصف الليل الآخر أو الثلث الآخر يقول: من ذا الذي يدعوني فأستجيب له؟ من ذا الذي يسألني فأعطيه؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفر له؟ حتى يطلع الفجر أو ينصرف القارئ من صلاة الصبح**»[٣] رواه عن محمد جماعة: منهم سليمان بن بلال وإسماعيل بن جعفر والدراوردي وحفص بن غياث ويزيد بن هارون وعبد الوهاب بن عطاء ومحمد بن جعفر والنضر بن شميل كلهم قال: «**أو ينصرف القارئ من صلاة الفجر**»، فإن كانت هذه اللفظة محفوظة عن النبي ﷺ فهي صريحة في المعنى كاشفة للمراد.

وإن لم تكن محفوظة وكانت من شك الراوي هل قال هذا أو هذا، فقد قدمنا أنه لا منافاة بين اللفظين، وأن حديث الليث بن سعد عن محمد بن زياد يدل على دوام النزول إلى وقت صلاة الفجر، وأن تعليقه بالطلوع لكونه أول الوقت الذي يكون فيه الصعود، كما رواه يونس بن أبي إسحاق عن أبيه عن الأغر أبي مسلم قال: شهدت على النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ ﷻ يُمْهِلُ حَتَّى إِذَا كَانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ هَبَط إِلَى هَذِهِ السَّماءِ، ثُمَّ أَمَرَ بِأَبْوَابِ

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٧٥٨) ولفظه: «ينزل الله إلى السماء الدنيا كل ليلة، حين يمضي ثلث الليل الأول، فيقول: أنا الملك: أنا الملك. من ذا الذي يدعوني فأستجيب له. من ذا الذي يسألني فأعطيه. من ذا الذي يستغفرني فأغفر له. فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر». وانظر: شرح النووي (٦/ ٣٧).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٣، ٤٤٦).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٥٠٤) والدارمي (رقم ١٤٧٨) والمقدسي في الترغيب في الدعاء (رقم ٣١).

السَّمَاءِ فَفُتِحَتْ ثُمَّ قَالَ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأُجِيبُهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغِيثٍ أَغِيثُهُ؟ هَلْ مِن مُضْطَرٍّ أَكْشِفُ عَنْهُ؟ فَلا يَزَالُ ذَلِكَ مَكَانَهُ حَتَّىٰ يَطْلَعَ الْفَجْرُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنَ الدُّنْيَا، ثُمَّ يَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ؟»[1]. قال الدارقطني: فزاد فيه يونس بن أبي إسحاق زيادة حسنة. والمقصود ذكر القرب من الإمام في صلاة الفجر وتقديمها في أول وقتها. والله أعلم.

[2]وكان ﷺ لا يعين سورة في الصلاة بعينها لا يقرأ إلا بها إلا في الجمعة والعيدين، وأمّا في سائر الصلوات، فقد ذكر أبو داود من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدّه أنه قال: «مَا منَ المفصَّلِ سورةٌ صغيرةٌ ولا كبيرةٌ إلا وقد سمِعتُ رسولَ الله ﷺ يَؤمُّ الناسَ بها في الصَّلاةِ المَكْتُوبةِ»[3].

وكان من هديه قراءةَ السورة كاملة، وربما قرأها في الركعتين، وربما قرأ أول السورة. وأما قراءة أواخر السور وأوساطِها، فلم يُحفظ عنه. وأما قراءةُ السورتين في ركعة: فكان يفعله في النافلة، وأما في الفرض، فلم يُحفظ عنه.

وأما حديثُ ابن مسعود ﷺ: «إني لأعرف النظائِرَ التي كان رسولُ الله ﷺ يقرُن بينهن السورتين في الركعة (الرحمن) و(النجم) في ركعة و(اقتربت) و(الحاقة) في ركعة و(الطور) و(الذاريات) في ركعة و(إذا وقعت) و(ن) في ركعة»[4] الحديث. فهذا حكاية فعل لم يُعين محلَّه، هل كان في الفرض أو في النفل؟ وهو محتمِل.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٤، ٤٣).

(٢) ١١١ الزاد جـ١.

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ٨١٤) والبيهقي في الكبرى (٢/ ٣٨٨ رقم ٣٨١٩) وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود وفي مشكاة المصابيح (رقم ٨٦٦).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ٨٢٢) وأحمد (١/ ٤٢٧، ٤٥٥) والبيهقي في الكبرى (٣/ ٩ رقم ٤٤٦٥) وأبو عوانة في مسنده (١/ ٤٨٣ رقم ١٧٩٥) والطبراني في الكبير (١٠/ ٣٥ رقم ٩٨٦٤) والبزار (٥/ ١٢٨ رقم ١٧١٥) وانظر: شرح النووي (٦/ ١٠٥) والمغني (١/ ٤٤٢). والحديث صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (رقم ١٣٩٦).

وأما قراءةُ سورة واحدة في ركعتين معاً، فقلما كان يفعله. وقد ذكر أبو داود عن رجل من جُهينة: أنه سمع رسول الله ﷺ يقرأ في الصبح (إذا زلزلت) في الركعتين كلتيهما، قال: فلا أدري أنسيَ رسولُ الله ﷺ، أم قرأ ذلك عمداً[1].

وكان ﷺ يُطيلُ الركعة الأولى على الثانية مِن صلاة الصُّبح ومِن كل صلاة، وربما كان يُطيلها حتى لا يسمَعَ وقْعَ قدمٍ، وكان يُطيل صلاة الصبح أكثرَ مِن سائر الصلوات، وهذا لأن قرآن الفجر مشهود، يشهده اللهُ تعالى وملائكتُه.

وقيل: يشهدُه ملائكةُ الليلِ والنهارِ، والقولان مبنيان على أن النزولَ الإلهي هل يدومُ إلى انقضاء صلاة الصبح، أو إلى طلوع الفجر؟ وقد ورد فيه هذا وهذا.

وأيضاً فإنها لما نقص عددُ ركعاتها، جُعِلَ تطويلُها عوضاً عما نقصته من العدد. وأيضاً فإنها تكون عقيبَ النوم، والناس مستريحون.

وأيضاً فإنهم لم يأخذوا بَعْدُ في استقبال المعاش، وأسباب الدنيا.

وأيضاً فإنها تكون في وقت تواطأ فيه السمعُ واللِّسان والقلبُ لفراغه وعدمِ تمكن الاشتغال فيه، فَيفهمُ القُرآنَ ويتدبره.

وأيضاً فإنها أساس العمل وأولُه، فأُعطيت فضلاً من الاهتمام بها وتطويلها، وهذه أسرار إنما يعرفها من له التفات إلى أسرار الشريعة ومقاصدها وَحِكَمِهَا، واللّه المستعان.

***

﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾.

[2]قد اختلف السلفُ والخلف في أنه: هل كان فرضاً عليه أم لا؟[3] والطائفتان احتجوا بقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ ﴾ [الإسراء: ٧٩] قالوا: فهذا

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٨١٦) والبيهقي في الكبرى (٢/ ٣٩٠ رقم ٣٨٢٩) وصححه بدر الدين العيني في عمدة القاري (٦/ ٣٢) وانظر: عون المعبود (٣/ ٢٣) ونيل الأوطار (٢/ ٢٥٣-٢٥٤).

(٢) ١٧٢ الزاد جـ١.

(٣) أي قيام الليل: هل كان فرضًا على رسول الله ﷺ أم كان نافلة؟

صريح في عدم الوجوب.

قال الآخرون: أمره بالتهجد، في هذه السورة، كما أمره في قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [المزمل: ١] ولم يجىء ما ينسخُه عنه.

وأما قولُه تعالىٰ: ﴿ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ فلو كان المرادُ به التطوعَ، لم يخصه بكونه نافلة له، وإنما المراد بالنافلة: الزيادة، ومطلقُ الزيادة لا يدل علىٰ التطوع، قال تعالىٰ: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ [الأنبياء: ٧٢]، أي: زيادة علىٰ الولد.

وكذلك النافلة في تهجد النبي ﷺ: زيادة في درجاته، وفي أجره، ولهذا خصه بها، فإن قيامَ الليل في حق غيره مباحٌ، ومكفِّرٌ للسيئات، وأما النبي ﷺ، فقد غَفَرَ اللهُ له ما تقدم مِن ذنبه وما تأخر، فهو يعمل في زيادة الدرجات وعلو المراتب، وغيره يعمل في التكفير.

قال مجاهد بن جبر: إنما كان نافلةً للنبي ﷺ، لأنه قد غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكانت طاعته نافلة، أي: وزيادة في الثواب، ولغيره كفارة لذنوبه[١].

قال ابن المنذر في تفسيره: حدثنا يعلىٰ بن أبي عبيد، حدثنا الحجاج بن محمد المصيصي، عن ابن جريج، عن عبد الله بن كثير، عن، مجاهد قال: ما سوىٰ المكتوبة، فهو نافلة مِن أجل أنه لا يعمل في كفارة الذنوب، وليست للناس نوافل، إنما هي للنبي ﷺ خاصة، والناس جميعاً يعملون ما سوىٰ المكتوبة لذنوبهم في كفارتها[٢].

حدثنا محمد، حدثنا نصر، حدثنا عبد اللّه، حدثنا عمرو، عن سعيد وقبيصة، عن سفيان، عن أبي عثمان، عن الحسن في قوله تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ ﴾، قال: لا تكون نافلة الليل إلا للنبي ﷺ.

وذُكر عن الضحاك، قال: نافلة للنبي ﷺ خاصة.

***

---

(١) أخرجه الطبري عنه في تفسيره (١٥/ ١٤٣).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٥/ ١٤٣) وانظر: التهجد وقيام الليل لابن أبي الدنيا (ص ٩٣) والدر المنثور (٥/ ٣٢٣-٣٢٤).

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾.

...[1] قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ، بمكة، فأمر بالهجرة، وأنزل عليه: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾[2] [الإسراء: ٨٠].

قال قتادة: أخرجه الله من مكة إلىٰ المدينة مخرج صدق، ونبي الله يعلم أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل الله سلطانًا نصيرًا[3]، وأراه ﷺ دار الهجرة، وهو بمكة، فقال: «أرأيت دار هجرتكم: بسبخة ذات نخل بين لابتين»[4].

وذكره الحاكم في صحيحه عن علي بن أبي طالب: أن النبي ﷺ قال لجبرائيل: «من يهاجر معي؟ قال: أبو بكر الصديق»[5]...

...[6] وقد أمر الله تعالىٰ رسوله: أن يسأله أن يجعل مدخله ومخرجه علىٰ الصدق، فقال: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾.

وأخبر عن خليله إبراهيم ﷺ، أنه سأله أنه يهب له لسان صدق في الآخرين، فقال: ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٤].

وبشر عباده بأن لهم عنده قدم صدق، ومقعد صدق. فقال تعالىٰ: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ

---

(١) ١٤٤ الزاد جـ٢.

(٢) أخرجه الضياء في المختارة (٩/ ٥٣٥ رقم ٥٢٢) والبيهقي في الكبرىٰ (٩/ ٩ رقم ١٧٥١٤) والحاكم (٣/ ٤ رقم ٤٢٥٩) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ٤ رقم ٤٢٦٠).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٢٢٩٧) وانظر: فتح الباري (١/ ٤٤٧) (٧/ ٢٢٨).

(٥) أخرجه الحاكم (٣/ ٦ رقم ٤٢٦٦) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد والمتن ولم يخرجاه.

(٦) ٢٧٠ الزاد جـ٢.

ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢] وقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤-٥٥].

فهذه خمسة أشياء: مدخل الصدق، ومخرج الصدق، ولسان الصدق، وقدم الصدق، ومقعد الصدق.

حقيقة الصدق في هذه الأشياء: هو الحق الثابت، المتصل بالله، الموصل إلى الله. وهو ما كان به وله، من الأقوال والأعمال وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة.

فمدخل الصدق، ومخرج الصدق: أن يكون دخوله وخروجه حقًّا ثابتًا بالله وفي مرضاته، بالظفر بالبغية، وحصول المطلوب، ضد مخرج الكذب ومدخله، الذي لا غاية له يوصل إليها، ولا له ساق ثابتة يقوم عليها، كمخرج أعدائه يوم بدر، ومخرج الصدق كمخرجه ﷺ هو وأصحابه في تلك الغزوة.

وكذلك مدخله ﷺ المدينة: كان مدخل صدق بالله، ولله، وابتغاء مرضاة الله فاتصل به التأييد والظفر والنصر وإدراك ما طلبه في الدنيا والآخرة.

بخلاف مدخل الكذب الذي رام أعداؤه أن يدخلوا به المدينة يوم الأحزاب، فإنه لم يكن بالله ولا لله، بل كان محادة لله ورسوله، فلم يتصل به إلا الخذلان والبوار.

وكذلك مدخل من دخل من اليهود المحاربين لرسول الله ﷺ حصن بني قريظة فإنه لما كان مدخل كذب: أصابه معهم ما أصابهم.

فكل مدخل معهم ومخرج كان بالله ولله وصاحبه ضامن على الله، فهو مدخل صدق ومخرج صدق.

وكان بعض السلف إذا خرج من داره: رفع رأسه إلى السماء، وقال: اللهم إني أعوذ بك أن أخرج مخرجا لا أكون فيه ضامنًا عليك.

يريد: أن لا يكون المخرج مخرج صدق، ولذلك فسر مدخل الصدق ومخرجه: بخروجه ﷺ من مكة ودخوله المدينة، ولا ريب أن هذا على سبيل التمثيل فإن هذا المدخل والمخرج من أجل مداخله ومخارجه ﷺ. وإلا فمداخله كلها مداخل صدق،

ومخارجه مخارج صدق، إذ هي لله وبالله وبأمره ولابتغاء مرضاته.

وما خرج أحد من بيته ودخل سوقه أو مدخلًا آخر إلا بصدق أو بكذب، فمخرج كل واحد ومدخله: لا يعدو الصدق والكذب، والله المستعان.

...[1]والعلم «اللدني» ما يحصل للعبد من غير واسطة، بل بإلهام من الله، وتعريف منه لعبده، كما حصل للخضر عليه السلام بغير واسطة موسى قال الله تعالى: ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٥].

وفرق بين الرحمة والعلم وجعلهما «من عنده» و«من لدنه»، إذ لم ينلهما على يد بشر، وكان «من لدنه» أخص وأقرب من «عنده»، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾ فـ«السلطان النصير» الذي من لدنه سبحانه: أخص وأقرب مما عنده، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾ وهو الذي أيده به، والذي من عنده: نصره بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٢].

«والعلم اللدني» ثمرة العبودية والمتابعة، والصدق مع الله والإخلاص له، وبذل الجهد في تلقي العلم من مشكاة رسوله، وكمال الانقياد له، فيفتح له من فهم الكتاب والسنة بأمر يخصه به، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد سئل: «هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟ فقال: لا، والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، إلا فهما يؤتيه الله عبدًا في كتابه»[2] فهذا هو العلم اللدني الحقيقي.

وأما علم من أعرض عن الكتاب والسنة، ولم يتقيد بهما: فهو من لدن النفس والهوى، والشيطان فهو لدني، لكن لدن منْ؟ وإنما يعرف كون العلم لدنيًّا رحمانيًّا:

---

(١) ٤٧٥ المدارج جـ٢.

(٢) أخرجه بلفظ قريب البخاري (رقم ٣٠٤٧) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٢٦١).

بموافقته لما جاء به الرسول ﷺ عن ربه ﷻ فالعلم اللدني نوعان: لدني رحماني ولدني شيطاني بطناوي، والمحك: هو الوحي، ولا وحي بعد رسول الله ﷺ.

وأما قصة موسى مع الخضر ـ عليهما السلام ـ: فالتعلق بها في تجويز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللدني إلحاد وكفر، مخرج عن الإسلام، موجب لإراقة الدم.

والفرق: أن موسى لم يكن مبعوثًا إلى الخضر ولم يكن الخضر مأمورًا بمتابعته، ولو كان مأمورًا بها لوجب عليه أن يهاجر إلى موسى ويكون معه. ولهذا قال له: «أنت موسى نبي بني إسرائيل؟ قال: نعم» ومحمد ﷺ مبعوث إلى جميع الثقلين، فرسالته عامة للجن والإنس، في كل زمان. ولو كان موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ حيين لكانا من أتباعه. وإذا نزل عيسى ابن مريم ـ عليهما السلام ـ فإنما يحكم بشريعة محمد ﷺ.

فمن ادعى أنه مع محمد ﷺ كالخضر مع موسى، أو جوز ذلك لأحد من الأمة: فليجدد إسلامه وليتشهد شهادة الحق؛ فإنه بذلك مفارق لدين الإسلام بالكلية، فضلًا عن أن يكون من خاصة أولياء الله، وإنما هو من أولياء الشيطان وخلفائه ونوابه، وهذا الموضع مقطع ومفرق بين زنادقة القوم، وبين أهل الاستقامة منهم فحرِّك تَرَهْ.

***

﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾.

...[1]الباطل ضد الحق، يراد به المعدوم الذي لا وجود له، والموجود الذي مضرة وجوده أكثر من منفعته.

فمن الأول: قول الموحد: كل إله سوى الله باطل، ومن الثاني قوله: السحر باطل، والكفر باطل، قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

---

(١) ٢٤٣ الإغاثة جـ١.

فالباطل إما معدوم لا وجود له، وإما موجود لا نفع فيه، فالكفر والفسوق والعصيان والسحر، والغناء، واستماع الملاهي: كله من النوع الثاني.

قال ابن وهب: أخبرني سليمان بن بلال عن كثير بن زيد: أنه سمع عبيد الله يقول للقاسم بن محمد: «كيف ترىٰ في الغناء، قال: فقال له القاسم: هو باطل، فقال: قد عرفت أنه باطل، فكيف ترىٰ فيه؟ فقال له القاسم: أرأيت الباطل، أين هو ؟ قال: في النار، قال: فهو ذاك»[١].

وقال رجل لابن عباس رضي الله عنهما: «ما تقول في الغناء، أحلال هو أم حرام؟ فقال: لا أقول حراماً إلا ما في كتاب الله. فقال: أفحلال هو؟ فقال: ولا أقول ذلك، ثم قال له: أرأيت الحق والباطل، إذا جاءا يوم القيامة، فأين يكون الغناء؟ فقال الرجل: يكون مع الباطل، فقال له ابن عباس: اذهب فقد أفتيت نفسك»[٢].

فهذا جواب ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن غناء الأعراب، الذي ليس فيه مدح الخمر والزنا واللواط، والتشبيب بالأجنبيات، وأصوات المعازف، والآلات المطربات، فإن غناء القوم لم يكن فيه شيء من ذلك، ولو شاهدوا هذا الغناء لقالوا أعظم قول. فإن مضرته وفتنته فوق مضرة شرب الخمر بكثير، وأعظم من فتنته.

فمن أبطل الباطل أن تأتي شريعة بإباحته، فمن قاس هذا على غناء القوم فقياسه من جنس قياس الربا على البيع، والميتة على المذكاة، والتحليل الملعون فاعله على النكاح الذي هو سنة رسول الله ﷺ. وهو أفضل من التخلي لنوافل العبادة، فلو كان نكاح التحليل جائزاً في الشرع لكان أفضل من قيام الليل، وصيام التطوع، فضلاً أن يلعن فاعلُه.

***

(١) ذكره ابن عبد البر في التمهيد (٢٢/ ١٩٩).

(٢) ذكره الحافظ ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم (١/ ٢٨٠).

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾.

[١]الصحيح: أن «من» ههنا لبيان الجنس لا للتبعيض. وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧].

فالقرآنُ هو الشِّفاء التام مِن جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواءِ الدنيا والآخرة، وما كُلُّ أحدٍ يُؤهَّل ولا يُوفَّق للاستشفاء به، وإذا أحسن العليل التداويَ به، ووضعَه علىٰ دائه بصدقٍ وإيمان، وقبولٍ تام، واعتقادٍ جازم، واستيفاءٍ لشروطه، لم يُقاوِمْهُ الداءُ أبداً.

وكيف تُقاوِمُ الأدواءُ كلامَ ربِّ الأرض والسماءِ الذي لو نزل علىٰ الجبال، لصَدَعَهَا، أو علىٰ الأرض، لقطعها.

فما مِن مرضٍ من أمراض القُلُوبِ والأبدان إلا وفى القُرآن سبيلُ الدلالة علىٰ دوائه وسببه، والحِمية منه لمن رزقه الله فهماً في كتابه.

وقد تقدَّم في أول الكلام علىٰ الطب بيانُ إرشاد القرآن العظيم إلىٰ أُصوله ومجامعه التي هي: حفظُ الصحة والحِميةُ، واستفراغُ المؤذي، والاستدلالُ بذلك علىٰ سائر أفراد هذه الأنواع. وأما الأدوية القلبية، فإنه يذكرها مُفصَّلةً، ويذكر أسبابَ أدوائها وعلاجها. قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]، فمَن لم يَشْفِه القرآنُ، فلا شفاه الله، ومَن لم يَكفِه، فلا كفاه الله.

...[٢]ولا ينكر عدمُ انتفاع كثير من المرضىٰ بطبِّ النبوة، فإنه إنما ينتفعُ به مَن تلقَّاه بالقبول، واعتقاد الشفاء به، وكمال التلقي له بالإيمان والإذعان، فهذا القرآنُ الذي هو شفاء لما في الصدور إن لم يُتلقَّ هذا التلقي لم يحصل به شفاءُ الصُّدور مِن أدوائها، بل لا يزيدُ المنافقين إلا رجساً إلىٰ رجسهم، ومرضاً إلىٰ مرضهم، وأين يقعُ طبُّ الأبدان منه.

فطِب النبوةِ لا يُناسب إلا الأبدانَ الطيبة، كما أنَّ شِفاء القرآن لا يُناسب إلا الأرواح الطيبة والقلوب الحية، فإعراضُ الناس عن طِبِّ النبوة كإعراضهم عن

(١) ٣٧٧ الزاد جـ١.

(٢) ١٥٧ الزاد جـ٣.

الاستشفاء بالقرآن الذي هو الشفاء النافع، وليس ذلك لقصور في الدواء، ولكن لخُبثِ الطبيعة، وفساد المحل، وعدمِ قبوله.. والله الموفق[(١)].

...[(٢)]في مسند الإمام أحمد من حديث أسامة بن شريك عن النبي ﷺ قال: «**إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله**»[(٣)] وفي لفظ: «**إن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء أو دواء، إلا داء واحدًا**» قالوا: يا رسول الله ما هو؟ قال: «**الهرم**»[(٤)] قال الترمذي: هذا حديث صحيح. وهذا يعم أدواء القلب والروح والبدن وأدويتها.

وقد جعل النبي ﷺ الجهل داء، وجعل دواءه سؤال العلماء.

فروىٰ أبو داود في سننه من حديث جابر بن عبد الله قال: خرجنا في سفر فأصاب رجلًا منا حجر فشجه في رأسه، ثم احتلم فسأل أصحابه، فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ قالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر علىٰ الماء. فاغتسل فمات فلما قدمنا علىٰ النبي ﷺ أُخبر بذلك، فقال: «**قتلوه قتلهم الله! ألا سألوا إذ لم يعلموا؟ فإنما شفاء العي السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر أو يعصب علىٰ جرحه بخرقة ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده**»[(٥)] فأخبر أن الجهل داء، وأن شفاءه السؤال.

---

(١) تقدم في سورة يونس ما له علاقة بهذا البحث. (ج).

(٢) ٣ الجواب.

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٨) والبيهقي في سننه الكبرىٰ (٩/ ٣٤٣ رقم ١٩٣٤٤) والحميدي في مسنده (١/ ٥٠ رقم ٩٠) والطبراني في المعجم الأوسط (٣/ ٧٥ رقم ٢٥٣٤) وأبو يعلىٰ (٩/ ١١٣ رقم ٥١٨٣) قال الهيثمي في المجمع (٥/ ٨٤): رواه أحمد والطبراني ورجال الطبراني ثقات. وانظر: فتح الباري (١٠/ ١٣٥).

(٤) أخرجه الضياء في المختارة (٤/ ١٦٩ رقم ١٣٨٤) وأبو داود (رقم ٣٨٥٥) وابن ماجه (رقم ٣٤٣٦) والترمذي (رقم ٢٠٣٨) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣/ ١٤٠ رقم ١٤٦٧) والطبراني في الكبير (١/ ١٧٩ رقم ٤٦٤) وأحمد (٤/ ٢٧٨) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وقال الكناني في مصباح الزجاجة (٤/ ٤٩): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات. وانظر: فتح الباري (١٠/ ١٣٥).

(٥) أخرجه أبو داود (رقم ٣٣٦) والبيهقي في الكبرىٰ (١/ ٢٢٧ رقم ١٠١٦) والدارقطني (١/ ١٨٩ رقم ٣) قال ابن حجر في تلخيص الحبير (١/ ١٤٧): وصححه ابن السكن، وقال ابن أبي داود: تفرد به
=

وقد أخبر سبحانه عن القرآن أنه شفاء، فقال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت: ٤٤] وقال: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢] ومن هنا لبيان الجنس لا للتبعيض، فإن القرآن كله شفاء، كما قال في الآية الأخرى، فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب، فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أنجع في إزالة الداء من القرآن.

***

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾.

...[1]قال تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٨٤] أي على ما يشاكله ويناسبه ويليق به، كما يقول الناس:

كل إناء بالذي فيه ينضح[2]

فمن أرادت من الأرواح الخبيثة السفلية أن تكون مجاورة للأرواح الطيبة العلوية في مقام الصدق بين الملأ الأعلى فقد أرادت ما تأباه حكمة أحكم الحاكمين.

ولو أن ملكاً من ملوك الدنيا جعل خاصته وحاشيته سفلة الناس وسقطهم وغرتهم، الذين تتناسب أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم في القبح والرداءة والدناءة لقدح

= الزبير بن خريق، وكذا قال الدارقطني قال: وليس بالقوي. وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود (١/ ٩٣): حسن دون قوله: إنما كان يكفيه.

(١) ١٠٣ طريق الهجرتين.

(٢) ذكره الجبرتي في عجائب الآثار (١/ ١٩) والعجلوني في كشف الخفاء (٢/ ١٤٩، ٢٤٣) غير منسوب إلى أحد. بينما هو عجز بيت لكثير من الشعراء فابن بناتة المصري المتوفى سنة ٧٦٨ هـ قال:

يشف على مكتوبه طيب ما حوى ... كل إناء بالذي فيه ينضح

وقال صفي الدين الحلي المتوفى سنة ٧٥٠هـ:

إذا ما فعلت الخير ضوعف شرهم ... وكل إناء بالذي فيه ينضح

وغيرهما كثير.

الناس في ملكه، وقالوا: لا يصلح للملك.

فما الظن بمجاوري الملك الأعظم مالك الملوك في داره، وتمتعهم برؤية وجهه وسماع كلامه ومرافقتهم للملأ الأعلى الذين هم أطيب خلقه وأزكاهم وأشرفهم، أفيليق بذلك الرفيق الأعلى والمحل الأسنى والدرجات العلى روح سفلية أرضية، قد أخلدت إلى الأرض، وعكفت على ما تقتضيه طبائعها، مما [تشاركها] فيه، بل قد تزيد على الحيوان البهيم وقصرت همتها عليه، وأقبلت بكليتها عليه، لا ترى نعيماً ولا لذة ولا سروراً إلا ما وافق طباعها من كل مأكل ومشرب ومنكح، من أين كان وكيف اتفق، فالفرق بينها وبين الحمير والكلاب والبقر بانتصاب القامة ونطق اللسان والأكل باليد، وإلا فالقلب والطبع على شاكلة قلوب هذه الحيوانات وطباعها، وربما كانت طباع الحيوانات خيراً من طباع هؤلاء وأسلم وأقبل للخير. ولهذا جعلهم الله سبحانه شر الدواب، فقال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢- ٢٣]، فهل يليق بحكمة العزيز الحكيم أن يجمع بين خير البرية وأزكى الخلق وبين شر البرية وشر الدواب في دار واحدة، يكونون فيها على حال واحدة من النعيم أو العذاب؟ قال الله تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم: ٣٥- ٣٦].

...[١] قال شفيق بن إبراهيم: أغلق باب التوفيق عن الخلق من ستة أشياء: اشتغالهم بالنعمة عن شكرها، ورغبتهم في العلم وتركهم العمل، والمسارعة إلى الذنب وتأخير التوبة، والاغترار بصحبة الصالحين وترك الاقتداء بفعالهم، وإدبار الدنيا عنهم وهم يتبعونها، وإقبال الآخرة عليهم وهم معرضون عنها.

[قلت] وأصل ذلك: عدم الرغبة والرهبة، وأصله ضعف اليقين، وأصله ضعف

---

(١) ١٧٦ الفوائد.

البصيرة، وأصله مهانة النفس ودناءتها، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، وإلا فلو كانت النفس شريفة كبيرة لم ترض بالدون.

فأصل الخير كله بتوفيق الله ومشيئته، وشرف النفس ونبلها وكبرها.

وأصل الشر خستها ودناءتها وصغرها، قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٩، ١٠]؛ أي: أفلح من كبرها وكثرها ونماها بطاعة الله، وخاب من صغرها وحقرها بمعاصي الله، فالنفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها وأفضلها وأحمدها عاقبة، والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقذار، فالنفس الشريفة العلية لا ترضى بالظلم ولا بالفواحش، ولا بالسرقة والخيانة؛ لأنها أكبر من ذلك وأجل، والنفس المهينة الحقيرة الخسيسة بالضد من ذلك، فكل نفس تميل إلى ما يناسبها ويشاكلها، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ﴾ أي: على ما يشاكله ويناسبه، فهو يعمل على طريقته التي تناسب أخلاقه وطبيعته، وكل إنسان يجري على طريقته ومذهبه وعادته التي ألفها وجبل عليها.

فالفاجر يعمل بما يشبه طريقته من مقابلة النعم بالمعاصي والإعراض عن المنعم.

والمؤمن يعمل بما يشاكله من شكر المنعم ومحبته، والثناء عليه والتودد إليه، والحياء منه والمراقبة له، وتعظيمه وإجلاله.

***

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝ ﴾.

...[1] إن قيل: فما تقولون في قوله تعالى: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [الحجر: ٢٩] فأضاف النفخ إلى نفسه، وهذا يقتضي المباشرة منه تعالى، كما في قوله: ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ [ص: ٧٥]، ولهذا فرق بينهما في الذكر في الحديث الصحيح في قوله: «فيأتون

---

(١) ١٩١ الروح.

آدم، فيقولون: أنت آدم أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء»[1]، فذكروا لآدم أربع خصائص اختص بها عن غيره، ولو كانت الروح التي فيه إنما هي من نفخة الملك لم يكن له خصيصة بذلك، وكان بمنزلة المسيح بل وسائر أولاده، فإن الروح حصلت فيهم من نفخة الملك، وقد قال تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ [الحجر: ٢٩] فهو الذي سواه بيده، وهو الذي نفخ فيه من روحه؟

قيل: هذا الموضع الذي أوجب لهذه الطائفة أن قالت بقدم الروح، وتوقف فيها آخرون، ولم يفهموا مراد القرآن، فأما الروح المضافة إلى الرب فهي روح مخلوقة، أضافها إلى نفسه إضافة تخصيص وتشريف، كما بينا. وأما النفخ فقد قال تعالى في مريم: ﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ [الأنبياء: ٩١] وقد أخبر في موضع آخر أنه أرسل إليها الملك، فنفخ في فرجها، وكان النفخ مضافًا إلى الله أمرًا وإذنًا وإلى الرسول مباشرة.

يبقى ها هنا أمران: (أحدهما): أن يقال: فإذا كان النفخ حصل في مريم من جهة الملك، وهو الذي ينفخ الأرواح في سائر البشر، فما وجه تسمية المسيح روح الله؟ وإذا كان سائر الناس تحدث أرواحهم من هذه الروح، فما خاصية المسيح؟

الثاني: أن يقال: فهل تعلق الروح بآدم كانت بواسطة نفخ هذا الروح، هو الذي نفخها فيه بإذن الله، كما نفخها في مريم أم الرب تعالى هو الذي نفخها بنفسه، كما خلقه بيده. قيل: لعمر الله أنهما سؤالان مهمان:

فأما الأول: فالجواب عنه: أن الروح الذي نفخ في مريم هو الروح المضاف إلى الله الذي اختصه لنفسه وأضافه إليه، وهو روح خاص من بين سائر الأرواح، وليس بالملك الموكل بالنفخ في بطون الحوامل من المؤمنين والكفار، فإن الله سبحانه وكل بالرحم

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٤٧٦) ومسلم (رقم ١٩٣) وانظر: فتح الباري (١١/ ٥٠٧-٥١٠) وشرح النووي (٣/ ٥٥).

ملكًا ينفخ الروح في الجنين، فيكتب رزق المولود وأجله وعمله وشقاوته وسعادته. وأما هذا الروح المرسل إلى مريم فهو روح الله الذي اصطفاه من الأرواح لنفسه، فكان لمريم بمنزلة الأب لسائر النوع، فإن نفخته لما دخلت في فرجها كان ذلك بمنزلة لقاح الذكر للأنثى من غير أن يكون هناك وطء. وأما ما اختص به آدم فإنه لم يخلق كخلقة المسيح من أم، ولا كخلقة سائر النوع من أب وأم، ولا كان الروح الذي نفخ الله فيه منه هو الملك الذي ينفخ الروح في سائر أولاده، ولو كان كذلك لم يكن لآدم به اختصاص، وإنما ذكر في الحديث ما اختص به على غيره، وهو أربعة أشياء: خلق الله له بيده، ونفخ فيه من روحه، وإسجاد ملائكته له وتعليمه أسماء كل شيء فنفخه فيه من روحه يستلزم نافخا ونفخا ومنفوخا منه، فالمنفوخ منه هو الروح المضافة إلى الله، فمنها سرت النفخة في طينة آدم، والله تعالى هو الذي نفخ في طينته من تلك الروح، هذا هو الذي دل عليه النص، وأما كون النفخة بمباشرة منه سبحانه، كما خلقه بيده، أو أنها حصلت بأمره كما حصلت في مريم ـ عليها السلام ـ فهذا يحتاج إلى دليل، والفرق بين خلق الله له بيده ونفخه فيه من روحه: أن اليد غير مخلوقة والروح مخلوقة، والخلق فعل من أفعال الرب، وأما النفخ فهل هو من أفعاله القائمة به أو هو مفعول من مفعولاته القائمة بغيره المنفصلة عنه، وهذا مما لا يحتاج إلى دليل، وهذا بخلاف النفخ في فرج مريم، فإنه مفعول من مفعولاته، وأضافه إليه لأنه بإذنه وأمره، فنفخه في آدم هل هو فعل له أو مفعول؟ وعلى كل تقدير: فالروح الذي نفخ منها في آدم روح مخلوقة غير قديمة، وهي مادة روح آدم، فروحه أولى أن تكون حادثة مخلوقة، وهو المراد.

(المسألة الثامنة عشرة: وهي تقدم خلق الأرواح على الأجساد أو تأخر خلقها عنها). فهذه المسألة للناس فيها قولان معروفان، حكاهما شيخ الإسلام وغيره، وممن ذهب إلى تقدم خلقها محمد بن نصر المروزي وأبو محمد بن حزم، وحكاه ابن حزم إجماعًا، ونحن نذكر حجج الفريقين، وما هو الأولى منها بالصواب[1].

(١) ذكر المؤلف البحث من كل جوانبه فمن أراده فليرجع إليه. (ج).

[1]وأما ما احتجت به هذه الطائفة فأما ما أتوا به من اتباع متشابه القرآن والعدول عن محكمة، فهذا شأن كل ضال ومبتدع، فمحكم القرآن من أوله إلى آخره يدل على أن الله تعالى خالق الأرواح ومبدعها. وأما قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء: ٨٥] فمعلوم قطعًا أنه ليس المراد هاهنا بالأمر الطلب الذي هو أحد أنواع الكلام، فيكون المراد أن الروح كلامه الذي يأمر به، وإنما المراد بالأمر هاهنا المأمور، وهو عرف مستعمل في لغة العرب، وفي القرآن منه كثير، كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١] أي مأموره الذي قدره وقضاه، وقال له: كن فيكون، وكذلك قوله تعالى: ﴿ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ [هود: ١٠١] أي مأموره الذي أمر به من إهلاكهم. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧].

وكذلك الخلق يستعمل بمعنى المخلوق، كقوله تعالى للجنة: «أنت رحمتي»[2] فليس في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ ما يدل على أنها قديمة غير مخلوقة بوجه ما.

وقد قال بعض السلف في تفسيرها: جرى بأمر الله في أجساد الخلق وبقدرته استقر. وهذا بناء على أن المراد بالروح في الآية روح الإنسان، وفي ذلك خلاف بين السلف والخلف. وأكثر السلف بل كلهم على أن الروح المسئول عنها في الآية ليست أرواح بني آدم، بل هو الروح الذي أخبر الله عنه في كتابه أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة، وهو ملك عظيم.

وقد ثبت في الصحيح من حديث الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: بينا أنا أمشي مع رسول الله ﷺ، في حرة المدينة وهو متكئ على عسيب، فمررنا على نفر من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه

(١) ١٨٥ الروح.
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٨٥٠) ومسلم (رقم ٢٨٤٦) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٤٣٦- ٤٣٧).

عسى أن يخبر فيه بشيء تكرهونه، وقال بعضهم: نسأله فقام رجل، فقال يا أبا القاسم ما الروح؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ، فعلمت أنه يوحى إليه، فقمت، فلما تجلى عنه قال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1] [الإسراء: ٨٥].

ومعلوم أنهم إنما سألوه عن أمر لا يعرف إلا بالوحي، وذلك هو الروح الذي عند الله لا يعلمها الناس، وأما أرواح بني آدم فليست من الغيب.

وقد تكلم فيها طوائف من الناس من أهل الملل وغيرهم، فلم يكن الجواب عنها من أعلام النبوة.

فإن قيل: فقد قال أبو الشيخ حدثنا الحسين بن محمد بن إبراهيم أنبأنا إبراهيم ابن الحكم عن أبيه عن السدي عن أبي مالك عن ابن عباس قال: بعثت قريش عقبة ابن أبي معيط وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة إلى يهود المدينة يسألونهم عن النبي ﷺ فقالوا لهم: إنه قد خرج فينا رجل يزعم أنه نبي، وليس على ديننا ولا على دينكم. قالوا: فمن تبعه؟ قالوا: سفلتنا، والضعفاء، والعبيد، ومن لا خير فيه. وأما أشراف قومه فلم يتبعوه. فقالوا: إنه قد أظل زمان نبي يخرج، وهو على ما تصفون من أمر هذا الرجل، فائتوه فاسألوه عن ثلاث خصال نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي صادق، وإن لم يخبركم بهن فهو كذاب، سلوه عن الروح التي نفخ الله تعالى في آدم فإن قال لكم: هي من الله، فقولوا: كيف يعذب الله في النار شيئًا هو منه، فسأل جبريل عنها، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ يقول: هو خلق من خلق الله ليس هو من الله[2] ـ ثم ذكر باقي الحديث.

قيل: مثل هذا الإسناد لا يحتج به، فإنه من تفسير السدى عن أبي مالك، وفيه

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٢٥) ومسلم (رقم ٢٧٩٤) وانظر: فتح الباري (٨/ ٤٠١) وشرح النووي (١٧/ ١٣٦).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١/ ١٦٥) والطبري في تفسيره (١٥/ ١٩١-١٩٢).

أشياء منكرة، وسياق هذه القصة في السؤال من الصحاح والمسانيد كلها تخالف سياق السدي.

وقد رواها الأعمش والمغيرة بن مقسم عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله، قال: مر النبي ﷺ على ملأ من اليهود وأنا أمشي معه، فسألوه عن الروح. قال: فسكت فظننت أنه يوحى إليه، فنزلت: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ يعني اليهود، ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتُوا[١] مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وكذلك هي في قراءة عبد الله، فقالوا: كذلك نجد مثله في التوراة: أن الروح من أمر الله عز وجل؟ رواه جرير بن عبد الحميد وغيره عن المغيرة[٢].

وروى يحيى بن زكريا بن أبي زائدة عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: أتت اليهود إلى النبي ﷺ فسألوه عن الروح فلم يجبهم النبي ﷺ بشيء، فأنزل الله عز و جل: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[٣] فهذا يدل على ضعف حديث السدي، وأن السؤال كان بمكة، فإن هذا الحديث وحديث ابن مسعود صريح في أن السؤال كان بالمدينة مباشرة من اليهود، ولو كان قد تقدم السؤال والجواب بمكة لم يسكت النبي ﷺ، ولبادر إلى جوابهم بما تقدم من إعلام الله له وما أنزله عليه.

وقد اضطربت الروايات عن ابن عباس في تفسير هذه الآية أعظم اضطراب، فإما أن تكون من قبل الرواة، أو تكون أقواله قد اضطربت فيها، ونحن نذكر ذلك فقد ذكرنا رواية السدى عن أبي مالك عنه، ورواية داود بن أبي هند عن عكرمة عنه تخالفها، وفي رواية داود بن أبي هند هذه اضطراب، فقال مسروق بن المرزبان

---

(١) هذه قراءة عبد الله بن مسعود، بينما القراءة المعتمدة في المصحف العثماني ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم ﴾.

(٢) انظر: عمدة القاري (٢/ ١٩٩) وشرح النووي (١٧/ ١٣٧).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٣١٤٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب. وانظر: فتح الباري (٨/ ٤٠١).

وإبراهيم بن أبي طالب عن يحيى بن زكريا عنه: أن اليهود أتت النبي ﷺ ـ الحديث.

وقال محمد بن نصر المروزي: حدثنا إسحاق أنبأنا يحيى بن زكريا عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال: قالت قريش لليهود أعطونا شيئًا نسأل عنه هذا الرجل. فقالوا: سلوه عن الروح، فنزلت: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ الآية[1]. هذا يخالف الرواية الأخرى عنه وحديث ابن مسعود.

وعن ابن عباس: رواية ثالثة، قال هشيم: حدثنا أبو بشر عن مجاهد عن ابن عباس: قل الروح أمر من أمر الله عز و جل، وخلق من خلق الله، وصور مثل صور بني آدم، وما نزل من السماء ملك إلا ومعه واحد من الروح[2]. وهذا يدل على أنها غير الروح التي في ابن آدم.

وعنه رواية رابعة قال ابن منده: روى عبد السلام بن حرب عن خصيف عن مجاهد عن ابن عباس: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ قد نزل من القرآن بمنزلة كن، نقول كما قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ ثم ساق من طريق خصيف عن عكرمة عن ابن عباس أنه كان لا يفسر أربعة أشياء: الرقيم والغسلين والروح، وقوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾[3] [الجاثية: ١٣].

وعنه رواية خامسة رواها جويبر عن الضحاك عنه: أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن الروح، فقال: قال الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ يعني خلقًا من خلقي ﴿ وَمَآ

---

(١) أخرجه ابن حبان (١/ ٣٠١ رقم ٩٩) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٩٢ رقم ١١٣١٤) والطبراني في الأوسط (٨/ ٧٣ رقم ٨٠٠٢) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٤٥/ ١٢٥) وقال: قال قتيبة بن سعيد: كتب عني هذا الحديث أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وابنا أبي شيبة وأبو خيثمة وقالوا: هو غريب.

(٢) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٣/ ٨٦٥ رقم ٤٠٤) وقال ابن حجر في فتح الباري (٨/ ٤٠٢): وقد روى ابن إسحاق في تفسيره بإسناد صحيح عن ابن عباس. وذكره.

(٣) انظر: فتح الباري (٨/ ٤٠٢).

أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ يعني لو سئلتم عن خلق أنفسكم وعن مدخل الطعام والشراب ومخرجهما ما وصفتم ذلك حق صفته، وما اهتديتم لصفتها.

وعنه رواية سادسة روى عبد الغني بن سعيد حدثنا موسى بن عبد الرحمن عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس وعن مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ وذلك أن قريشًا اجتمعت فقال بعضهم لبعض: والله ما كان محمد يكذب، ولقد نشأ فينا بالصدق والأمانة، فأرسلوا جماعة إلى اليهود فاسألوهم عنه، وكانوا مستبشرين به، ويكثرون ذكره، ويدعون نبوته، ويرجون نصرته، موقنين بأنه سيهاجر إليهم، ويكونون له أنصارًا، فسألوهم عنه، فقالت لهم اليهود: سلوه عن ثلاث: سلوه عن الروح، وذلك أنه ليس في التوراة قصته ولا تفسيره إلا ذكر اسم الروح، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ يريد من خلق ربي ﷻ.

والروح في القرآن على عدة أوجه:

(أحدها) الوحي كقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢] وقوله تعالى: ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [غافر: ١٥] وسمي الوحي روحًا لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح.

(الثاني) القوة والثبات والنصرة التي يؤيد بها من شاء من عباده المؤمنين، كما قال: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

(الثالث) جبريل كقوله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، وقال تعالى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٩٧]، وهو روح القدس. قال تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ ﴾ [النحل: ١٠٢].

(الرابع) الروح التي سأل عنها اليهود، فأجيبوا بأنها من أمر الله.

وقد قيل: إنها الروح المذكورة في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا

يَتَكَلَّمُونَ ﴾ [النبأ: ٣٨]، وأنها الروح المذكور في قوله: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾ [القدر: ٤].

(الخامس) المسيح ابن مريم، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء: ١٧١].

وأما أرواح بني آدم فلم تقع تسميتها في القرآن إلا بالنفس، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ [الفجر: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة: ٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ﴾ [الأنعام: ٩٣] وقال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧، ٨]. وقال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وأما في السنة فجاءت بلفظ النفس والروح، والمقصود أن كونها من أمر الله لا يدل على قدمها وأنها غير مخلوقة.

وأما استدلالهم بإضافتها إليه سبحانه بقوله تعالى: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [الحجر: ٢٩] فينبغي أن يعلم أن المضاف إلى الله سبحانه نوعان: صفات لا تقوم بأنفسها: كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر، فهذه إضافة صفة إلى الموصوف بها، فعلمه وكلامه وإرادته وقدرته وحياته صفات له غير مخلوقة، وكذلك وجهه ويده سبحانه.

والثاني: إضافة أعيان منفصلة عنه: كالبيت والناقة والعبد والرسول والروح، فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه ومصنوع إلى صانعه، لكنها إضافة تقتضي تخصيصا وتشريفا يتميز به المضاف عن غيره: كبيت الله، وإن كانت البيوت كلها ملكا له، وكذلك ناقة الله والنوق كلها ملكه وخلقه، لكن هذه إضافة إلى إلهيته تقتضي محبته لها وتكريمه وتشريفه، بخلاف الإضافة العامة إلى ربوبيته، حيث تقتضي خلقه وإيجاده، فالإضافة العامة تقتضي الإيجاد والخاصة تقتضي الاختيار، والله يخلق ما يشاء ويختار مما خلقه، كما قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [القصص: ٦٨].

وإضافة الروح إليه من هذه الإضافة الخاصة لا من العامة ولا من باب إضافة الصفات، فتأمل هذا الموضع فإنه يخلصك من ضلالات كثيرة وقع فيها من شاء الله من الناس.

***

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾.

...[1] احتجاجه سبحانه على نبوة رسوله ﷺ، وصحة ما جاء به من الكتاب، وأنه من عنده وكلامه الذي تكلم به، وأنه ليس من صنع البشر بقوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ [البقرة: ٢٣]، فأمر من ارتاب في هذا القرآن الذي أنزله على عبده، وأنه كلام الله أن يأتي بسورة واحدة مثله، وهذا يتناول أقصر سورة من سوره، ثم فسح له إن عجز عن ذلك أن يستعين بمن أمكنه الاستعانة به من المخلوقين. وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يونس: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ ﴾ [هود: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤]، ثم سجل عليهم تسجيلًا عامًا في كل مكان وزمان بعجزهم ولو تظاهر عليه الثقلان فقال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٨].

فانظر إلى أي موقع يقع من الأسماع والقلوب هذا الحجاج الجليل القاطع الواضح، الذي لا يجد طالب الحق ومؤثره ومريده عنه محيدًا، ولا فوقه مزيدًا، ولا وراءه غاية، ولا أظهر منه آية، ولا أوضح منه برهانًا، ولا أبلغ منه بياناً.

---

(١) ٩٧ الصواعق جـ١.

...[١] يصف سبحانه أهل الجهل بالعمىٰ والصم والبكم وذلك صفة قلوبهم، حيث فقدت العلم النافع فبقيت علىٰ عماها وصمها وبكمها، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٧٢]، والمراد عمىٰ القلب في الدنيا. وقال تعالىٰ: ﴿ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ ﴾، لأنهم هكذا كانوا في الدنيا والعبد يبعث علىٰ ما مات عليه، واختلف في هذا العمىٰ في الآخرة.

فقيل: هو عمىٰ البصيرة؛ بدليل إخباره تعالىٰ عن رؤية الكفار ما في القيامة ورؤية الملائكة ورؤية النار.

وقيل: هو عمىٰ البصر، ورجح هذا بأن الإطلاق ينصرف إليه، وبقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴾ [طه: ١٢٥]، وهذا عمىٰ العين، فإن الكافر لم يكن بصيرًا بحجته.

وأجاب هؤلاء عن رؤية الكفار في القيامة بأن الله يخرجهم من قبورهم إلىٰ موقف القيامة بصراء، ويحشرون من الموقف إلىٰ النار عميًا، قاله الفراء وغيره.

***

﴿ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ﴾.

[٢] قد قيل في هذه الآية أيضًا إنهم عمي وبكم وصم عن الهدى، كما قيل في قوله: ﴿ وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤]، قالوا: لأنهم يتكلمون يومئذ ويسمعون ويبصرون، ومن نصر أنه العمىٰ والبكم والصم المضاد للبصر والسمع والنطق قال

---

(١) ١١١ المفتاح جـ١.

(٢) ٤٥ المفتاح جـ١.

بعضهم: هو عمى وصمم وبكم مقيد لا مطلق، فهم عمى عن رؤية ما يسرهم وسماعه، ولهذا قد روى عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لا يرون شيئًا يسرهم[1]، وقال آخرون: هذا الحشر حين تتوفاهم الملائكة يخرجون من الدنيا كذلك، فإذا قاموا من قبورهم إلى الموقف قاموا كذلك، ثم إنهم يسمعون ويبصرون فيما بعد، وهذا مروي عن الحسن، وقال آخرون: هذا إنما يكون إذا دخلوا النار واستقروا فيها سلبوا الأسماع والأبصار والنطق، حين يقول لهم الرب تبارك وتعالى: ﴿ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، فحينئذ ينقطع الرجاء وتبكم عقولهم، فيصيرون بأجمعهم عميًا بكمًا صمًّا، لا يبصرون ولا يسمعون ولا ينطقون، ولا يسمع منهم إلا الزفير والشهيق، وهذا منقول عن مقاتل، والذين قالوا: المراد به العمى عن الحجة إنما مرادهم أنهم لا حجة لهم، ولم يريدوا أن لهم حجة هم عمى عنها، بل هم عمى عن الهدى كما كانوا في الدنيا، فإن العبد يموت على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه، وبهذا يظهر أن الصواب هو القول الآخر وأنه عمى البصر، فإن الكافر يعلم الحق يوم القيامة عيانًا، ويقر بما كان يجحده في الدنيا، فليس هو أعمى من الحق يومئذ ﴿ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ [ص: ٢٠] إن الحشر هو الضم والجمع، ويراد به تارة الحشر إلى موقف القيامة كقول النبي ﷺ: «إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلًا»[2] وكقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ [التكوير: ٥]. وكقوله تعالى: ﴿ وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٧]، ويراد به الضم والجمع إلى دار المستقر، فحشر المتقين جمعهم وضمهم إلى الجنة، وحشر الكافرين جمعهم وضمهم إلى النار[3].

***

(١) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ١٦٨) وأضواء البيان (٤/ ١٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٤٩) ومسلم (رقم ٢٨٦٠) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٧٩- ٣٨٧) وشرح النووي (١٧/ ١٩٣).

(٣) يأتي بقية البحث في سورة طه إن شاء الله. (ج).

﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٩٨ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ۝٩٩ ﴾.

...[1]قوله سبحانه ردًّا على الذين قالوا: ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٩٨ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٩٨، ٩٩]، أي مثل هؤلاء المكذبين، والمراد به النشأة الثانية، وهي الخلق الجديد، وهي المثل المذكور في غير موضع، وهم هم بأعيانهم، فلا تنافي في شيء من ذلك، بل هو الحق الذي دل عليه العقل والسمع، ومن لم يفهم ذلك حق فهمه تخبَّط عليه أمر المعاد، وبقي منه في أمر مريج.

والمقصود أنه دلَّهم سبحانه بخلق السماوات والأرض على الإعادة والبعث، وأكد هذا القياس بضرب من الأولى، وهو أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، فالقادر على خلق ما هو أكبر وأعظم منكم أقدر على خلقكم، وليس أول الخلق بأهون عليه من إعادته، فليس مع المكذبين بالقيامة إلا مجرد تكذيب الله ورسله، وتعجيز قدرته، ونسبة علمه إلى القصور، والقدح في حكمته.

ولهذا يخبر الله سبحانه عمن أنكر ذلك بأنه كافر بربه، جاحد له، لم يقر برب العالمين فاطر السماوات والأرض، كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ﴾ [الرعد: ٥]، وقال المؤمن للكافر الذي قال: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝٣٦ ﴾ [الكهف: ٣٦]. فمنكر المعاد كافر برب العالمين وإن زعم أنه مقر به.

***

(١) ١٤٧ الإعلام جـ١.

﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾.

...[1] وقال تعالىٰ حاكيًا عن موسىٰ أنه قال لفرعون: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٢] أي هالكًا، علىٰ قراءة من فتح التاء، وهي قراءة الجمهور، وضمها الكسائي وحده، وقراءة الجمهور أحسن وأوضح وأفخم معنى، وبها تقوم الدلالة ويتم الإلزام بتحقيق كفر فرعون وعناده.

ويشهد لها قوله تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾ [النمل: ١٣، ١٤].

***

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

...[2] إنه سبحانه سلىٰ نبيه بإيمان أهل العلم به، وأمره أن لا يعبأ بالجاهلين شيئًا، فقال تعالىٰ: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الإسراء: ١٠٨].

وهذا شرف عظيم لأهل العلم، وتحته أن أهله العالمون قد عرفوه وآمنوا به وصدقوا، فسواء آمن به غيرهم أو لا.

---

(١) ٩٠ مفتاح جـ١.

(٢) ٥٠ المفتاح جـ١.

[(١)]قال إمام التفسير مجاهد: هم قوم من أهل الكتاب لما سمعوا القرآن خروا سجدًا، وقالوا: ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾ كان الله ﷻ وعد على ألسنة أنبيائه ورسله أن يبعث في آخر الزمان نبيًا عظيم الشأن، يظهر دينه على الدين كله، وتنتشر دعوته في أقطار الأرض، وعلى رأس أمته تقوم الساعة، وأهل الكتابين مجمعون على أن الله وعدهم بهذا النبي، فالسعداء منهم عرفوا الحق فآمنوا به واتبعوه، والأشقياء قالوا: نحن ننتظره ولم يبعث بعد رسولًا، فالسعداء لما سمعوا القرآن من الرسول عرفوا أنه النبي الموعود به، فخروا سجدًا لله إيمانًا به وبرسوله، وتصديقًا بوعده الذي أنجزه، فرأوه عيانًا، فقالوا: ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾.

[(٢)]الله سبحانه قَدَّر مجيء موسى أحوج ما كان الوقت إليه؛ فإن العرب تقول: جاء فلان على قدر. إذا جاءت وقت الحاجة إليه. قال جرير:

نال الخلافة إذ كانت على قدر ... كما أتى ربه موسى على قدر[(٣)]

وقال مجاهد: على موعد[(٤)]. وهذا فيه نظر؛ لأنه لم يسبق بين الله سبحانه وبين موسى موعد للمجيء، حتى يقال: إنه أتى على ذلك الموعد.

ولكن وجه هذا: أن المعنى «جئت على الموعد الذي وعدنا: أن ننجزه، والقدر الذي قدرنا: أن يكون في وقته» وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً

---

(١) ٤٤ هداية الحيارى.

(٢) ١٢٧ مدارج جـ٣.

(٣) هذا البيت من بحر البسيط، وينسب لجرير بن عطية بن حذيفة الخطفي، أشعر أهل عصره، عاش عمره كله يناضل شعراء زمنه ويساجلهم، فلم يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل، وكان عفيفًا وهو من أغزل الناس شعرًا، مات سنة ١١٠هـ، وفي ديوانه: إذ كانت له قدرًا. وذكر البيت الطبري في تفسيره (١/ ٣٦٣) (١٦/ ١٦٨) وابن كثير في تفسيره (١/ ١١٥) والخطابي في غريب الحديث (٢/ ٢١٠).

(٤) انظر: تفسير السيوطي (٥/ ٥٧٩) وتفسير ابن كثير (٣/ ١٥٤) وعمدة القاري (١٥/ ٢٨٩) وتعليق التغليق ٠٤/ ٢٣-٢٤).

﴿١٠٨﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨] لأن الله ﷻ وعد بإرسال نبي في آخر الزمان يملأ الأرض نورًا وهدًى، فلما سمعوا القرآن: علموا أن الله أنجز ذلك الوعد الذي وعد به. واستشهاده بهذه الآية يدل على محله من العلم؛ لأن الشيء إذا وقع في وقته الذي هو أليق الأوقات بوقوعه فيه: كان أحسن وأنفع وأجدى. كما إذا وقع الغيث في أحوج الأوقات إليه، وكما إذا وقع الفرج في وقته الذي يليق به.

ومن تأمل أقدار الرب تعالى وجريانها في الخلق علم أنها واقعة في أليق الأوقات بها. فبعث الله سبحانه موسى أحوج ما كان الناس إلى بعثته. وبعث عيسى كذلك، وبعث محمد ـ صلى الله عليه وعليهم أجمعين ـ أحوج ما كان أهل الأرض إلى إرساله. فهكذا وقت العبد مع الله يعمره بأنفع الأشياء له أحوج ما كان إلى عمارته.

***

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ ﴾.

[(1)]أي اسم دعوتموه به فإنما دعوتم المسمى بذلك الاسم، فأخبر سبحانه أنه إله واحد، وإن تعددت أسماؤه الحسنى المشتقة من صفاته، ولهذا كانت حسنى، وإلا فلو كانت كما يقول الجاحدون لكماله أسماء محضة فارغة من المعاني، ليس لها حقائق لم تكن حسنى، ولكانت أسماء الموصوفين بالصفات والأفعال أحسن منها: فدلت الآية على توحيد الذات وكثرة النعوت والصفات.

...[(2)]فهذا الدعاء المشهور، وأنه دعاء المسألة، وهو سبب النزول، قالوا: كان النبي ﷺ يدعو ربه، فيقول مرة: يا الله، ومرة: يا رحمن، فظن الجاهلون من المشركين أنه يدعو إلهين، فأنزل الله تعالى هذه الآية، قال ابن عباس: سمع المشركون النبي ﷺ

---

(١) ١٧٤ الصواعق جـ١.
(٢) ٥ البدائع جـ٢.

يدعو في سجوده يا رحمن يا رحيم، فقالوا: هذا يزعم أنه يدعو واحدًا وهو يدعو مثنى مثنى، فأنزل الله هذه الآية: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾[1].

وقيل: إن الدعاء ههنا بمعنى التسمية، كقولهم: دعوت ولدي سعيدًا، وأدعه بعبد الله ونحوه، والمعنى سموا الله أو سموا الرحمن، فالدعاء ههنا بمعنى التسمية، وهذا قول الزمخشري، والذي حمله على هذا قوله: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، فإن المراد بتعدده معنى أي، وعمومها ههنا تعدد الأسماء ليس إلا.

والمعنى أي اسم سميتموه به من أسماء الله تعالى: إما الله وإما الرحمن، فله الأسماء الحسنى، أي فللمسمى سبحانه الأسماء الحسنى، والضمير في له يعود إلى المسمى، فهذا الذي أوجب له أن يحمل الدعاء في هذه الآية على التسمية، وهذا الذي قاله هو من لوازم المعنى المراد بالدعاء في الآية، وليس هو عين المراد، بل المراد بالدعاء معناه المعهود المطرد في القرآن، وهو دعاء السؤال ودعاء الثناء، ولكنه متضمن معنى التسمية، فليس المراد مجرد التسمية الخالية عن العبادة والطلب، بل التسمية الواقعة في دعاء الثناء والطلب، فعلى هذا المعنى يصح أن يكون في ﴿تَدْعُواْ﴾ معنى تسموا فتأمله، والمعنى: أيًّا ما تسموا في ثنائكم ودعائكم وسؤالكم والله أعلم.

...[2]والمثال الثاني مما ادعوا أنه مجاز اسمه سبحانه الرحمن، وقالوا: وصفه بالرحمة مجاز، قالوا: لأن الرأفة والرحمة هي رقة تعتري القلب، وهي من الكيفيات النفسية، والله منزه عنها، وهذا باطل من وجوه:

أحدها: أنهم جحدوا حقيقة الرحمة فقالوا إن نسبتها إلى الله تعالى محال، وأنه ليس برحيم بعباده على الحقيقة، وقد سبقهم إلى هذا النفي مشركو العرب الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠] فأنكروا حقيقة

(١) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ١٨٢) وتفسير السيوطي (٥/ ٣٤٨) وتفسير ابن كثير (٣/ ٦٩).
(٢) ١٠٩ الصواعق جـ٢.

اسمه الرحمن وأن يسمى بذلك، ولم يكونوا ينكرون ذاته وربوبيته، ولا ما يجعله المعطلة معنى اسم الرحمن، من الإحسان؛ فإن أحدًا لم ينكر إحسان الله إلى خلقه، فإن قيل: فلو كان هذا كما ذكرتم لأنكروا اسم الرحيم، لأن المعنى واحد. (قيل): إنما لم ينكروا الرحيم لأن ورود الرحمن في أسمائه أكثر من ورود الرحيم، ولهذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩] ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [مريم: ٤٥] ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [النبأ: ٣٧] ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الرحمن: ١، ٢]، وإنما جاء الرحيم مقيدًا كقوله: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]. ومقرونًا باسم الرحمن، كما في الفاتحة أو باسم آخر نحو ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: مراراً]، وأيضًا فالرحمن جاء على بناء فعلان الدال على الصفة الثابتة اللازمة الكاملة، كما يشعر به هذا البناء نحو: غضبان وندمان وحيران، فالرحمن من صفته الرحمة، والرحيم من يرحم بالفعل، وأيضًا فلا يخلو إنكارهم لهذا الاسم إما أن تكون دلالته على حقيقة الرحمة أولا، فإن كان الأول فمن أنكر أن يكون حقيقة فقد وافقهم، وإن لم يكن كذلك، فمن المعلوم أن موضوع الاسم وحقيقته صفة الرحمن القائمة بموصوفها، فلو كانت حقيقة الاسم منتفية في نفس الأمر لكان طعنهم أقوى، وكان ذلك بمنزلة وصفه بالأكل والشرب والنوم والجور ونحوها مما لا يليق به، وبالجملة فالذي أنكر أن يكون الله رحمانًا على الحقيقة هو (جهم بن صفوان) وشيعته، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ومن أعظم الإلحاد في أسمائه إنكار حقائقها ومعانيها والتصريح بأنها مجازات، (وهو) أنواع، هذا أحدها.

الثاني: جحدها وإنكارها بالكلية.

الثالث: تشبيهه فيها بصفات المخلوقين ومعاني أسمائه، وأن الثابت له منها مماثل للثابت لخلقه، وهذا يذكره المتكلمون في كتبهم، ويجعلونها مقالة لبعض الناس،

وهذه كتب المقالات بين أظهرنا لا نعلم ذلك مقالة لطائفة من بعض الطوائف البتة، وإنما المعطلة الجهمية يسمون كل من أثبت صفات الكمال لله تعالى مشبهًا وممثلًا، ويجعلون التشبيه لازم قولهم،ويجعلون لازم المذهب مذهبًا، ويسرعون في الرد عليهم وتكفيرهم...

***

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ [الإسراء: ١١١].

(١) لم ينف الولي نفيًا عامًّا مطلقًا، بل نفى أن يكون له ولي من الذلِّ، وأثبت في موضع آخر أن له أولياء بقوله: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس: ٦٢] وقوله: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، فهذا موالاة رحمة وإحسان وجبر، والموالاة المنفية موالاة حاجة وذل.

...(٢) وموالاته لأوليائه سلامٌ من أن تكون عن ذل، كما يوالي المخلوقُ المخلوقَ، بل هي موالاة رحمة وخير وإحسان وبر، كما قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾، فلم ينف أن يكون له ولي مطلقًا، بل نفى أن يكون له وليٌّ من الذل.

هذا ما تيسر الله جمعه من تفسير سورة الإسراء

والحمد لله رب العالمين



(١) ١٦٢ المفتاح جـ١.

(٢) ١٣٦ بدائع جـ٢.

سُورَةُ الكَهْفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝ ﴾ [الكهف: ٧].

[١]أخبر أنه زين الأرض بما عليها من المال وغيره للابتلاء والامتحان، كما أخبر أنه خلق الموت والحياة لذلك، وخلق السموات والأرض لهذا الابتلاء أيضًا[٢]. فهذه ثلاثة مواضع في القرآن يخبر فيها ـ سبحانه ـ أنه خلق العالم العلوي والسفلي وما بينهما، وأجل العالم وأجل أهله، وأسباب معائشهم التي جعلها زينة للأرض من الذهب والفضة والمساكن والملابس والمراكب والزروع والثمار والحيوان والنساء والبنين وغير ذلك، كل ذلك خلقه للابتلاء والامتحان ليختبر خلقه أيهم أطوع له وأرضى؛ فهو الأحسن عملًا.

وهذا هو الحق الذي خلق به وله السموات والأرض وما بينهما، وغايته الثواب والعقاب، وفواته وتعطيله هو العبث الذي نزه نفسه عنه، وأخبر أنه يتعالىٰ عنه، وأن ملكه الحق وتفرده بالإلهية وحده وبربوبية كل شيء ينفي هذا الظن بالباطل والحسبان الكاذب، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ۝ ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦] فنزه سبحانه نفسه عن ذلك، كما نزهها عن الشريك والولد والصاحبة، وسائر العيوب والنقائص من السنة والنوم، واللغوب والحاجة، واكترائه بحفظ السموات والأرض، وتقدم الشفعاء بين يديه بدون إذنه، كما يظنه أعداؤه المشركون، يخرجون عن علمه جزئيات العالم أو شيئًا منها، فكما أن كماله المقدس وكمال أسمائه وصفاته يأبىٰ ذلك ويمنع منه، فكذلك يبطل خلقه لعباده عبثًا، وتركهم

(١) ١٧٠ عدة الصابرين.

(٢) يعني آية سورة هود وآية سورة الملك (ج).

سدىٰ لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يردهم إليه، فيثيب محسنهم بإحسانه ومسيئهم بإساءته، ويعرف المبطلون منهم أنه كانوا كاذبين، ويشهدهم أن رسله وأتباعهم كانوا أولىٰ بالصدق والحق منهم، فمن أنكر ذلك فقد أنكر إلهيته وربوبيته وملكه الحق، وذلك عين الجحود والكفر به ـ سبحانه ـ كما قال المؤمن لصاحبه الذي حاوره في المعاد وأنكره: ﴿ أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ [الكهف: ٣٧] فأخبر أن إنكاره للمعاد كفر بذات الرب سبحانه.

...[1] الفتوة: هذه المنزلة حقيقتها هي منزلة الإحسان إلىٰ الناس وكف الأذىٰ عنهم واحتمال أذاهم، فهي استعمال حسن الخلق معهم، فهي في الحقيقة نتيجة حسن الخلق واستعماله.

والفرق بينها وبين المروءة: أن المروءة أعم منها، فالفتوة نوع من أنواع المروءة. فإن المروءة استعمال ما يجمل ويزين مما هو مختص بالعبد، أو متعد إلىٰ غيره وترك ما يدنس ويشين مما هو مختص أيضًا به، أو متعلق بغيره و«الفتوة» إنما هي استعمال الأخلاق الكريمة مع الخلق، فهي ثلاثة منازل: منزلة التخلق وحسن الخلق. ومنزلة الفتوة. ومنزلة المروءة. وقد تقدمت منزلة الخلق.

وهذه منزلة شريفة لم تعبر عنها الشريعة باسم «الفتوة»، بل عبرت عنها باسم «مكارم الأخلاق»، كما في حديث يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر ﷺ عن النبي ﷺ: «إن الله بعثني لأتمم مكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال»[2].

وأصل «الفتوة» من «الفتىٰ» وهو الشاب الحديث السن، قال الله تعالىٰ عن أهل الكهف: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف: ١٣]، وقال عن قوم إبراهيم أنهم قالوا: ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ [الأنبياء: ٦٠]، وقال تعالىٰ

(١) ٣٤٠ مدارج جـ٢.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٢٣١ رقم ٧٩٧٩) والطبراني في الأوسط (٧/ ٧٤ رقم ٦٨٩٥) والسمعاني في أدب الإملاء والاستملاء (ص ٢٥) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ١٥٧٩).

عن يوسف: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ [يوسف: ٣٦]، وقال لفتيانه: ﴿ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ ﴾ [يوسف: ٦٢].

فاسم «الفتى» لا يشعر بمدح ولا ذم، كاسم الشاب والحدث، ولذلك لم يجيء اسم الفتوة في القرآن ولا في السنة ولا في لسان السلف، وإنما استعمله من بعدهم في مكارم الأخلاق، وأصلها عندهم: أن يكون العبد أبدًا في أمر غيره.

***

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾ [الكهف: ١٤].

[1]هذا من أحسن الاستدلال والاستشهاد، فإن هؤلاء كانوا بين قومهم الكفار في خدمة ملكهم الكافر، فما هو إلا أن وجدوا حقيقة الإيمان والتوفيق، وذاقوا حلاوته، وباشر قلوبهم، فقاموا من بين قومهم، وقالوا: ﴿ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الآية.

والربط على قلوبهم: يتضمن الشد عليها بالصبر والتثبيت، وتقويتها وتأييدها بنور الإيمان، حتى صبروا على هجران دار قومهم، ومفارقة ما كانوا عليه من خفض العيش، وفروا بدينهم إلى الكهف.

والربط على القلب عكس الخذلان، فالخذلان حلُّه من رباط التوفيق؛ فيغفل عن ذكر ربه ويتبع هواه، ويصير أمره فرطًا، والربط على القلب شده برباط التوفيق، فيتصل بذكر ربه ويتبع مرضاته ويجتمع عليه شمله.

***

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

---

(١) ٦٧ مدارج جـ٣.

...[١]استنبط أبو القاسم السهيلي: أن عدة أصحاب الكهف سبعة، قال: لأن الله تعالى حكى قول من قال: ثلاثة، وخمسة، ولم يذكر الواو في قوله: ﴿رَّابِعُهُمْ﴾ ﴿سَادِسُهُمْ﴾، وحكى قول من قال: إنهم سبعة، ثم قال: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢] قال: لأن الواو عاطفة على كلام مضمر، تقديره: نعم، ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وذلك أن قائلًا لو قال: إن زيدًا شاعر. فقلت له: وفقيه. كنت قد صدقته، كأنك قلت: نعم هو كذلك وفقيه أيضًا[٢].

***

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾.

[٣]المخرج الرابع: أن يستثنى في يمينه أو طلاقه، وهذا موضع اختلف فيه الفقهاء، فقال الشافعي وأبو حنيفة: يصح الاستثناء في الإيقاع والحلف، فإذا قال: «أنتِ طالق إن شاء الله» أو «أنت حرة إن شاء الله» أو «إن كلمت فلانًا فأنت طالق إن شاء الله» أو «الطلاق يلزمني لأفعلن كذا إن شاء الله» أو «أنت عليَّ حرام، أو الحرام يلزمني إن شاء الله» نفعه الاستثناء، ولم يقع به طلاق في ذلك كله.

ثم اختلفا في الموضع [الذي] يعتبر فيه الاستثناء، فاشترط أصحاب أبي حنيفة اتصاله بالكلام فقط، سواء نواه من أوله أو قبل الفراغ من كلامه أو بعده.

وقال أصحاب الشافعي: إن عقد اليمين ثم عَنَّ له الاستثناء لم يصح. وإن عنَّ له الاستثناء في أثناء اليمين فوجهان؛ أحدهما: يصح، والثاني: لا يصح. وإن نوى

(١) ٥٤ أعلام جـ٤.
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٧٩).
(٣) ٥٤ أعلام جـ٤.

الاستثناء مع عقد اليمين صح وجهًا واحدًا[(١)].

وقد ثبت بالسنة الصحيحة أن سليمان بن داود ـ عليهما الصلاة والسلام ـ قال: «**لأطوفن الليلة على كذا وكذا امرأة، تحمل كل امرأة منهن غلامًا يقاتل في سبيل الله، فقال له الملك الموكل به: قل إن شاء الله. فلم يقل**»، فقال النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده لو قالها لقاتلوا في سبيل الله أجمعون**»[(٢)]، وهذا صريح في نفع الاستثناء والمقصود بعد عقد اليمين.

وثبت في السنن عنه ﷺ أنه قال: «**والله لأغزون قريشًا، والله لأغزون قريشًا، والله لأغزون قريشًا**»، ثم سكت قليلًا. ثم قال: «**إن شاء الله. ثم لم يغزهم**»[(٣)] رواه أبو داود. وفي جامع الترمذي من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال رسول الله ﷺ: «**من حلف على يمين، فقال: إن شاء الله. فلا حنث عليه**»[(٤)]، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤].

فهذه النصوص الصحيحة لم يشترط في شيء منها البتة في صحة الاستثناء ونفعه أن ينويه مع الشروع في اليمين ولا قبلها، بل حديث سليمان صريح في خلافه، وكذلك حديث: «**لأغزون قريشًا**»، وحديث ابن عمر متناول لكل من قال: إن شاء الله بعد

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٣٥/ ٢٨٣-٢٨٦) والأم (٥/ ١٨٧) (٧/ ١٦٢) وشرح النووي (١١/ ١١٩) وبدائع الصنائع (٣/ ٢٧-٢٩) والمدونة الكبرى (٤/ ١٩٦، ٢٠٥) (٥/ ١٦-١٧).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٨١٩) ومسلم (رقم ١٦٥٤) وانظر: فتح الباري (٦/ ٤٦٠) (٩/ ٣٣٩).

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ٣٢٨٥، ٣٢٨٦) وابن حبان (١٠/ ١٨٥ رقم ٤٣٤٣) وفي موارد الظمآن (رقم ١١٨٦) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٤٧ رقم ١٩٧١٢) والطبراني في الأوسط (١/ ٣٠٠ رقم ١٠٠٤) وفي الكبير (١١/ ٢٨٢ رقم ١١٧٤٢) وأبو يعلى (٥/ ٧٨ رقم ٢٦٧٥) وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ١٨٢): رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح. وانظر: فتح الباري (١١/ ٦٠٣) وقد صحح الألباني الموقوف، وضعف المرفوع في صحيح وضعيف سنن أبي داود.

(٤) أخرجه الترمذي (رقم ١٥٣١) وحسنه، وانظر: فتح الباري (١١/ ٦٠٣-٦٠٥).

يمينه، سواء نوى الاستثناء قبل الفراغ أولم ينوه، والآية دالة على نفع الاستثناء مع النسيان أظهر دلالة، ومن شرط النية قبل الفراغ لم يكن لذكر الاستثناء بعد النسيان عنده تأثير.

أيضًا فالكلام بآخره، وهو كلام واحد متصل بعضه ببعض، ولا معنى لاشتراط النية في أجزائه وأبعاضه. وأيضًا فإن الرجل قد يستحضر بعد فراغه من الجملة ما يرفع بعضها، ولا يذكر ذلك في حال تكلمه بها، فيقول: لزيد عندي ألف درهم، ثم في الحال يذكر أنه قضاه منها مائة، فيقول: إلا مائة، فلو اشتراط نيه الاستثناء قبل الفراغ لتعذَّر عليه استدراك ذلك، وألجئ إلى الإقرار بما لا يلزمه والكذب فيه، وإذا كان هذا في الإخبار فمثله في الإنشاء سواء؛ فإن الحالف قد يبدو له فيعلق اليمين بمشيئة الله، وقد يذهل في أول كلامه عن قصد الاستثناء، أو يشغله شاغل عن نيته فلو لم ينفعه الاستثناء حتى يكون ناويا له في أول يمينه لفات مقصود الاستثناء، وحصل الحرج الذي رفعه الله تعالى عن الأمة به، ولما قال لرسوله إذا نسيه: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾، وهذا متناول لذكره إذا نسي الاستثناء قطعًا، فإنه سبب النزول، ولا يجوز إخراجه وتخصيصه، لأنه مراد قطعًا، وأيضًا فإن صاحب هذا القول إن طرده لزمه ألا يصح مخصص من صفة أو بدل أو غاية أو استثناء بإلا ونحوها حتى ينويه المتكلم من أول كلامه...

...[1] فالتحقيق في المسألة أن المستثنِيَ إما أن يقصد بقوله: «إن شاء الله» التحقيق أو التعليق، فإن قصد به التحقيق والتأكيد وقع الطلاق، وإن قصد به التعليق وعدم الوقوع في الحال لم تطلق؛ هذا هو الصواب في المسالة، وهو اختيار شيخنا وغيره من الأصحاب.

وقال أبو عبد الله بن حمدان في رعايته: قلت: إن قصد التأكيد والتبرك وقع، وإن

(١) ٧٧ أعلام جـ٤.

قصد التعليق وجهل استحالة العلم بالمشيئة فلا. وهذا قول آخر غير الأقوال الأربعة المحكية في المسألة، وهو أنه إنما ينفعه الاستثناء إذا قصد التعليق وكان جاهلًا باستحالة العلم بمشيئة الله تعالىٰ، فلو علم استحالة العلم بمشيئته تعالىٰ لم ينعقد الاستثناء، والفرق بين علمه بالاستحالة وجهلة بها أنه إذا جهل استحالة العلم بالمشيئة، فقد علَّق الطلاق بما هو ممكن في ظنه فيصح تعليقه، وإذا لم يجهل استحالة العلم بالمشيئة فقد علقه علىٰ محال يعلم استحالته فلا يصح التعليق، وهذا أحد الأقوال في تعليقه بالمحال.

قلت: وقولهم: «إن العلم بمشيئة الرب محال» خطأ محض، فإن مشيئة الرب تعلم بوقوع الأسباب التي تقتضي مسبباتها؛ فإن مشيئة المسبب مشيئة لحكمه، فإذا أوقع عليها بعد ذلك طلاقًا علمنا أن الله قد شاء طلاقها، فهذا تقرير الاحتجاج من الجانبين، ولا يخفىٰ ما تضمنه من رجحان أحد القولين، والله أعلم.

وقد قدمنا اختلاف الفقهاء في اشتراط نية الاستثناء وزمنها، وأن أضيق الأقوال قول من يشترط النية من أول الكلام، وأوسع منه قول من يشترطها قبل فراغه، وأوسع منه قول من يجوز إنشاءها بعد الفراغ من الكلام، كما يقوله أصحاب أحمد وغيرهم، وأوسع منه قول من يجوزه بالقرب، ولا يشترط اتصاله بالكلام، كما نص عليه أحمد في رواية المروزي، فقال: حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «**إن شاء الله**»، إذ هو استثناء بالقرب، ولم يخلط كلامه بغيره، وقال إسماعيل بن سعيد الشالنجي: سألت أحمد بن حنبل عن الاستثناء في اليمين، فقال: من استثنىٰ بعد اليمين فهو جائز، علىٰ مثل فعل النبي ﷺ، إذ قال: «**والله لأغزون قريشًا**» ثم سكت ثم قال: «**إن شاء الله**» ولم يبطل ذلك، قال: ولا أقول فيه بقول هؤلاء، يعنىٰ من لم ير ذلك إلا متصلًا، هذا لفظ الشالنجي في مسائله.

وأوسع من ذلك قول من قال: ينفعه الاستثناء، ويصح ما دام في المجلس، نص عليه الإمام أحمد في إحدىٰ الروايات عنه، وهو قول الأوزاعي كما سنذكره. وأوسع

منه من وجه قول من لا يشترط النية بحال، كما صرح به أصحاب أبي حنيفة، وقال صاحب الذخيرة في كتاب «الطلاق» في الفصل السادس عشر منه: ولو قال لها: «أنت طالق إن شاء الله»، ولا يدري أي شيء شاء الله لا يقع الطلاق؛ لأن الطلاق مع الاستثناء ليس بإيقاع، فعلمه وجهله يكون سواء، ولو قال لها: «أنت طالق» فجرىٰ علىٰ لسانه من غير قصد «إن شاء الله»، وكان قصده إيقاع الطلاق لا يقع الطلاق، لأن الاستثناء قد وجد حقيقة، والكلام مع الاستثناء لا يكون إيقاعًا.

...[1]وتفسير الآية، عند جماعة المفسرين: أنك لا تقل لشيء: أفعل كذا وكذا، حتىٰ تقول: إن شاء الله، فإذا نسيت أن تقولها، فقلها متىٰ ذكرتها، وهذا هو الاستثناء المتراخي، الذي جوزه ابن عباس، وتأول عليه الآية، وهو الصواب.

...والذي أجمع عليه المفسرون: أن أهل مكة سألوا النبي ﷺ عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، فقال: «أخبركم غدًا» ولم يقل: «إن شاء الله» فتلبَّث الوحي أيامًا، ثم نزلت هذه الآية[2]، تقال ابن عباس، ومجاهد، والحسن وغيرهم: معناه إذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت فاستثن[3]، قال: ابن عباس رضي الله عنهما: ويجوز الاستثناء إلىٰ سنة[4]. وقال: عكرمة رحمه الله: واذكر ربك إذا غضبت[5]، وقال الضحاك والسدي: هذا في الصلاة، أي إذا نسيت الصلاة فصلِّها متىٰ ذكرتها.

---

(١) ٤٣١ مدارج جـ٢.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٥/ ١٩٢) وانظر: الدر المنثور (٥/ ٣٥٧) وتفسير ابن كثير (٣/ ٧٣). وتفسير القرطبي (٢٠/ ٩٣).

(٣) أخرجه الطبراني في الصغير (رقم ٨٧٦) وفي الأوسط (٧/ ٦٨ رقم ٦٨٧٢) وفي الكبير (١١/ ٩٠ رقم ١١١٤٣) قال الهيثمي في المجمع: (٧/ ٥٣): رواه الطبراني في الثلاثة وفيه عبد العزيز بن حصين وهو ضعيف.

(٤) تقدم قريبًا توجيه كلام ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ (ج).

(٥) أخرجه البيهقي في الشعب (٦/ ٣١٢ رقم ٨٢٩٦) والخطيب البغدادي في تاريخه (٤/ ٨٢) وانظر: الدر المنثور (٥/ ٣٧٨) وتفسير ابن كثير (٣/ ٨٠).

[(١)]وأما قولكم: «إن الاستثناء بابه الأيمان» إن أردتم به اختصاص الأيمان به فلم تذكروا على ذلك دليلًا، وقوله ﷺ: «من حلف فقال: إن شاء الله فقد استثنى»[(٢)]، وفي لفظ آخر: «من حلف فقال: إن شاء الله فهو بالخيار؛ فإن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل»[(٣)] فحديث حسن، ولكن لا يوجب اختصاص الاستثناء بالمشيئة باليمين، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، وهذا ليس بيمين، ويشرع الاستثناء في الوعد والوعيد والخبر عن المستقبل، كقوله: غدًا أفعل إن شاء الله، وقد عتب الله على رسوله ﷺ حيث قال لمن سأله من أهل الكتاب عن أشياء: «غدًا أخبركم» ولم يقل إن شاء الله، فاحتبس الوحي عنه شهرًا، ثم نزل عليه: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أي إذا نسيت ذلك الاستثناء عقيب كلامك فاذكره به إذا ذكرت، هذا معنى الآية، وهو الذي أراده ابن عباس بصحة الاستثناء المتراخي، ولم يقل ابن عباس قط ولا من هو دونه: إن الرجل إذا قال لامرأته: «أنت طالق» أو لعبده: «أنت حر» ثم قال بعد سنة «إن شاء الله» إنها لا تطلق ولا يعتق العبد، وأخطأ من نقل ذلك عن ابن عباس، أو عن أحد من أهل العلم البتة، ولم يفهموا مُراد ابن عباس، والمقصود أن الاستثناء لا يختص باليمين لا شرعًا ولا عرفًا ولا لغة، وإن أردتم بكون بابه الأيمان كثرته فيها؛ فهذا لا ينفي دخوله في غيرها.

[(٤)]وإن قال بلسانه: «لا أوري ولا أكني» والتورية والكناية في قلبه، كما لو قال: «لا

---

(١) ٧٥ أعلام جـ٤.

(٢) أخرجه ابن حبان (١٠/ ١٨٢ رقم ٤٣٣٩) وفي موارد الظمآن (رقم ١١٨٥) والنسائي في الكبرى (٣/ ١٤١ رقم ٤٧٧٠) وفي الصغرى (رقم ٣٨٢٨، ٣٨٢٩) وأبو داود (رقم ٣٢٦١) والترمذي (رقم ١٥٣١) وحسنه.

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٣/ ١٤١ رقم ٤٧٧١) وفي الصغرى (رقم ٣٨٣٠) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٣٦١ رقم ١٤٨٩٦) والدارمي (رقم ٢٣٤٣) وأبو عوانة (٤/ ٥٠ رقم ٥٩٩٠) وأحمد (٢/ ٦٨، ١٢٦) والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٦٢١٠) وفي صحيح سنن النسائي.

(٤) ٣٥٦ أعلام جـ٣.

أستثني» بلسانه، وفي نيته الاستثناء ثم استثنى، فإنه ينفعه، حتى لو لم ينو الاستثناء ثم عزم عليه واستثنى، نفعه ذلك بالسنة الصحيحة الصريحة، التي لا معارض لها بوجه في غير حديث، كقول الملك لسليمان: قل إن شاء الله، وقول النبي ﷺ: «إلا الإذخر»[1] بعد أن ذكَّره به العباس، وقوله: «إن شاء الله» بعد أن قال: «لأغزون قريشًا» ثلاث مرات، ثم قال بعد الثالثة وسكوته: «إن شاء الله»، والقرآن صريح في نفع الاستثناء إذا نسيه ولم ينوه في أول كلامه ولا أثناءه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾، وهذا إما أن يختصَّ بالاستثناء إذا نسيه كما فسره به جمهور المفسرين، أو يعمه ويعم غيره وهو الصواب.

فأما أن يخرج منه الاستثناء الذي سيق الكلام لأجله ويرد إلى غيره فلا يجوز، ولأن الكلام الواحد لا يعتبر في صحته نية كل جملة من جمله وبعض من أبعاضه، فالنص والقياس يقتضي نفع الاستثناء، وإن خطر له بعد انقضاء الكلام، وهذا هو الصواب المقطوع به.

[2]والإلحاد في أسمائه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها، وهو مأخوذ من الميل كما يدل عليه مادته (ل ح د) فمنه اللحد وهو الشق في جانب القبر، الذي قد مال عن الوسط، ومنه الملحد في الدين: المائل عن الحق إلى الباطل، قال ابن السكيت: الملحد المائل عن الحق المدخل فيه ما ليس منه، ومنه الملتحد، وهو مفتعل من ذلك، وقولهن تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٧] أي من تعدل إليه، وتهرب إليه، وتلتجئ إليه، وتبتهل إليه، فتميل إليه عن غيره، تقول العرب: التحد فلان إلى فلان إذا عدل إليه[3].

***

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٣٤٩) ومسلم (رقم ١٣٥٣) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٢٠٨).
(٢) ١٦٩ بدائع جـ١.
(٣) انظر: مشارق الأنوار (١/ ٣٥٥) ومختار الصحاح (ص ٢٤٧) ولسان العرب (٣/ ٣٨٨-٣٨٩).

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا (٢٨) ﴾.

[1]قوله: «الصبر حبس النفس على مكروه، وعقل اللسان عن الشكوى، ومكابدة الغصص في تحمله، وانتظار الفرج عند عاقبته» فيقال: هذا أحد أقسام الصبر، وهو الصبر على البلاء، وأما الصبر على الطاعة فقد يعرض فيه ذلك أو بعضه، وقد لا يعرض فيه، بل يتحلى بها ويأتي بها محبة ورضى، ومع هذا فالصبر واقع عليها، فإنه حبس النفس على مداومتها والقيام بها، قال الله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾[الكهف: ٢٨].

وأما الصبر عن المعصية فقد يعرض فيه ذلك أو بعضه، وقد لا يعرض فيه، لتمكن الصابر من قهر داعيها وغلبته، وإذا كان ما ذكر من الأمور الأربعة إنما يعرض في الصبر على البلية فقوله: «إنه في طريق الخاصة تجلد ومناوأة وجرأة ومنازعة»، ليس كذلك، وإنما فيه التجلد، فأين المناوأة والجرأة والمنازعة؟ وأما لوازم الطبيعة من وجود ألم البلوى فلا تنقلب ولا تعدم فلا يصح أن يقال: إن وجود التألم والتجلد عليه، وحبس النفس عن التسخط واللسان عن الشكوى، جرأة ومنازعة، بل هو محض العبودية والاستكانة وامتثال الأمر، وهو من عبودية الله المفروضة، على عبده في البلاء، فالقيام بها عين كمال العبد، ولوازم الطبيعة لابد منها[2].

ومن رام أن لا يجد البرد والحر والجوع والعطش والألم عند تمام أسبابها وعللها فقد رام الممتنع، وهل يكون الأجر إلا على وجود تلك الآلام والمشاق والصبر

(١) ٢٦٦ طريق الهجرتين.

(٢) انظر: عمدة القاري (٢٥/ ٨٥)وفيض القدير (٢/ ٤٨٨) (٣/ ٢٨٢) وشرح الزرقاني (٢/ ٢٦٨) ولسان العرب (٤/ ٤٣٨) ومختار الصحاح (ص ١٤٩).

عليها؟ وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل**»[(١)] وقيل له في مرضه: إنك لتوعك وعكًا شديدًا، قال: «**أجل إن لي أجر رجلين منكم**»[(٢)]، يعني في وعكه، ولا ريب أن ذلك الوعك مؤلم له ﷺ، وأيضًا في مرض موته قال: «**وا رأساه**»[(٣)] وهذا إنما هو من وجود ألم الصداع، وكان يقول في غمرات الموت: «**اللهم أعني على سكرات الموت**»[(٤)] وهذا كله لتكميل أجره وزيادة رفعة درجاته ﷺ، وهل كان ذلك إلا محض العبودية وعين الكمال؟ وهل الجرأة والمناوأة والمنازعة إلا في ترك الصبر، وفي التسخط والشكوى؟

[(٥)]قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الكهف: ٢٨]. وفي الآية رد ظاهر على الطائفتين وإبطال لقولهما، فإنه سبحانه أغفل قلب العبد عن ذكره فغفل هو، فالإغفال فعل الله، والغفلة فعل العبد.

ثم أخبر عن اتباعه هواه، وذلك فعل العبد حقيقة، والقدرية تحرف هذا النص وأمثاله بالتسمية والعلم، فيقولون: معنى أغفلنا قلبه سميناه غافلًا، أو وجدناه غافلًا، أي علمناه كذلك، وهذا من تحريفهم، بل أغفلته مثل أقمته وأقعدته وأغنيته وأفقرته، أي جعلته كذلك، وأما أفعلته أو أوجدته كذلك كأحمدته وأجبنته وأبخلته وأعجزته

---

(١) أخرجه الضياء المقدسي في المختارة (٣/ ٢٤٦ رقم ١٠٥٣) وابن حبان (٧/ ١٦٠ رقم ٢٩٠٠) والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٥٢ رقم ٧٤٨٢) والدارمي (رقم ٢٧٨٣) والطبراني في الكبير (٢٤/ ٢٤٥ رقم ٦٢٩) والبزار (٣/ ٣٤٩ رقم ١١٥٠) وانظر: فتح الباري (١٠/ ١١١).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٦٤٨) ومسلم (رقم ٢٥٧١) وانظر: شرح النووي (١٦/ ١٢٧-١٢٨).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٧٢١٧) وانظر: فتح الباري (١٠/ ١٢٣-١٣٤) وشرح النووي (١١/ ٩٠-٩١).

(٤) أخرجه الحاكم (٢/ ٥٠٥ رقم ٣٧٣١) والنسائي في الكبرى (٤/ ٢٥٩ رقم ٧١٠١) والترمذي (رقم ٩٧٨) وابن ماجه (رقم ١٦٢٣) وأبو يعلى (٨/ ٩ رقم ٤٥١٠) وأحمد (٦/ ٦٤) وابن أبي الدنيا في المحتضرين (رقم ٣٢) وانظر: فتح الباري (٨/ ١٤٠) وقال أبو عيسى الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٥) ٦٤ شفاء.

فلا يقع في أفعال الله البتة، إنما يقع في أفعال العاجز أن يجعل جبانًا وبخيلًا وعاجزًا فيكون معناه صادفته كذلك، وهل يخطر بقلب الداعي: اللهم أقدرني أو أوزعني وألهمني أي: سمني واعلمني كذلك؟ وهل هذا إلا كذب عليه وعلى المدعو سبحانه، والعقلاء يعلمون علمًا ضروريًّا أن الداعي إنما سأل الله أن يخلق له ذلك، ويشاءه له، ويقدره عليه، حتى القدري إذا غابت عنه بدعته وما تقلده عن أشياخه وأسلافه وبقي وفطرته لم يخطر بقلبه سوى ذلك، وأيضًا فلا يمكن أن يكون العبد هو المغفِّل لنفسه عن الشيء، فإن إغفاله لنفسه عنه مشروط بشعوره به، وذلك مضاد لغفلته عنه، بخلاف إغفال الرب تعالى له فإنه لا يضاد علمه بما يغفل عنه العبد، وبخلاف غفلة العبد فإنها لا تكون إلا مع عدم شعوره بالمغفول عنه، وهذا ظاهر جدًّا. فثبت أن الإغفال فعل الله بعبده، والغفلة فعل العبد.

[1]وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ أضاع نفسه وغبن مع ذلك، تراه حافظًا لماله مضيعًا لدينه، وقال الحسن: «إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همته»[2].

[3]قال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨] وينبغي أن يعلم أن الهوى وحده لا يستقل بفساد السيئات إلا مع الجهل وإلا فصاحب الهوى لو جزم بأن ارتكاب هواه يضره ولابد ضررًا راجحًا لانصرفت نفسه عن طاعته له بالطبع، فإن الله سبحانه جعل في النفس حبًّا لما ينفعها وبغضًا لما يضرها، فلا تفعل مع حضور عقلها ما تجزم بأنه يضرها ضررًا راجحًا ولهذا يوصف تارك ذلك بالعقل والحجى واللب. فالبلاء مركب من تزيين الشيطان وجهل النفس،

---

(١) ٧٨ إغاثة جـ١.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ١٤٥-١٤٦).

(٣) ١٧١ شفاء.

فإنه يزين لها السيئات، ويريها أنها في صور المنافع واللذات والطيبات، ويغفلها عن مطالعتها لمضرتها، فتولد من بين هذا التزيين وهذا الإغفال والإنساء لها إرادة وشهوة، ثم يمدها بأنواع التزيين، فلا يزال يقوىٰ حتىٰ يصير عزمًا جازمًا يقترن به الفعل، كما زين للأبوين الأكل من الشجرة وأغفلهما عن مطالعة مضرة المعصية.

فالتزيين هو سبب إيثار الخير والشر، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٣]، وقال: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ [فاطر: ٨] وقال في تزيين الخير: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ٧] وقال في تزيين النوعين: ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

وتزيين الخير والهدىٰ بواسطة الملائكة والمؤمنين وتزيين الشر والضلال بواسطة الشياطين من الجن والإنس، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٣٧] وحقيقة الأمر أن التزيين إنما يغتر به الجاهل؛ لأنه يلبس له الباطل والضار المؤذي صورة الحق والنافع الملائم. فأصل البلاء كله من الجهل وعدم العلم، ولهذا قال الصحابة: كل من عصىٰ الله فهو جاهل[١]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ [النساء: ١٧]، وقال: ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٥٤].

[٢]وإما الإغفال، فقال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره عن مجاهد (٤/ ٢٩٩) وانظر: فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٧/ ٩١) وتفسير ابن كثير (٢/ ١٣٦، ٤٩٠).

(٢) ٩٨ شفاء.

﴿ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ سئل أبو العباس ثعلب عن قوله: ﴿ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا ﴾ فقال: جعلناه غافلًا[1]، قال: ويكون في الكلام أغفلته سميته غافلًا ووجدته غافلًا. قلت: الغفل: الشيء الفارغ والأرض الغفل التي لا علامة بها، والكتاب الغفل الذي لا شكل عليه، فأغفلناه تركناه غفلًا عن الذكر فارغًا منه، فهو إبقاء له على العدم الأصلي، لأنه سبحانه لم يشأ له الذكر فبقي غافلًا، فالغفلة وصفه والإغفال فعل الله فيه بمشيئته وعدم مشيئته لتذكره، فكل منهما مقتض لغفلته، فإذا لم يشأ له التذكر لم يتذكر، وإذا شاء غفلته امتنع منه الذكر.

فإن قيل: فهل تضاف الغفلة والكفر والإعراض ونحوها إلى عدم مشيئة الرب أضدادها، أم إلى مشيئته لوقوعها؟

قيل: القرآن قد نطق بهذا وبهذا، قال تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾ [المائدة: ٤١]، وقال: ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ [المائدة: ٤١]: ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فإن قيل: فكيف يكون عدم السبب المقتضي موجبًا للأثر؟

قيل: الأثر إن كان وجوديًّا فلابد له من مؤثر وجودي، وأما العدم فيكفي فيه عدم سببه وموجبه، فيبقى على العدم الأصلي، فإذا أضيف إليه كان من باب إضافة الشيء إلى دليله، فعدم السبب دليل على عدم المسبب، وإذا سمي موجبًا ومقتضيًا بهذا الاعتبار فلا مشاحة في ذلك، وأما أن يكون العدم أثرًا ومؤثرًا فلا. وهذا الإغفال ترتب عليه اتّباع هواه وتفريطه في أمره.

قال مجاهد: ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ أي ضياعًا. وقال قتادة: أضاع أكبر الضيعة. وقال السدي: هلاكًا. وقال أبو الهيثم: أمر فرط أي متهاون به مضيع، والتفريط تقديم العجز. قال أبو إسحاق: من قدم العجز في أمر أضاعه وأهلكه. قال الليث: الفرط:

---

(١) انظر: لسان العرب (١١/ ٤٩٨).

الأمر الذي يفرط فيه يقول كل أمر فلان فرط. قال الفراء: فرطًا متروكًا يفرط فيما لا ينبغي التفريط فيه، واتبع ما لا ينبغي اتّباعه، وغفل عما لا يحسن الغفلة عنه.

***

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾.

[1]قال جماعة من المفسرين: السندس ما رقَّ من الديباج. والإستبرق ما غلظ منه[2]. وقالت طائفة: ليس المراد به الغليظ، ولكن المراد به الصفيق. وقال الزجاج: هما نوعان من الحرير، وأحسن الألوان والأخضر، وألين اللباس الحرير، فجمع لهم بين حسن منظر اللباس والتذاذ العين بـه وبين نعومته والتذاذ الجسم به، وقال تعالى: ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [الحج: ٢٣]، وهاهنا مسألة، وهذا موضع ذكرها، وهي أن الله ﷻ أخبر أن لباس أهل الجنة حرير. وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «**من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة**»[3] متفق على صحته من حديث عمر بن الخطاب وأنس بن مالك.

وقد اختلف في المراد بهذا الحديث. فقالت طائفة من السلف والخلف: إنه لا يلبس الحرير في الجنة، ويلبس غيره من الملابس، قالوا: وأما قوله تعالى: ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [فاطر: ٣٣]، فمن العام المخصوص.

وقال الجمهور: وهذا من الوعيد الذي له حكم أمثاله من نصوص الوعيد، التي تدل

---

(١) ١٤١ حادي الأرواح.

(٢) انظر: عمدة القاري (٨/ ٧) (١٣/ ١٧٠).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٥٨٣٣) ومسلم (رقم ٢٠٧٣) واظر: فتح الباري (١٠/ ٣٢).

علىٰ أن الفعل مقتض لهذا الحكم، وقد يتخلف عنه لمانع، وقد دل النص والإجماع علىٰ أن التوبة مانعة من لحوق الوعيد، ويمنع من لحوقه أيضًا الحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، ودعاء المسلمين، وشفاعة من يأذن الله له في الشفاعة فيه، وشفاعة أرحم الراحمين إلىٰ نفسه، فهذا الحديث نظير الحديث الآخر: «من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة»[1] وقال تعالىٰ: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢].

***

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾.

[2]هدي النبي ﷺ فيما يقول من رأىٰ ما يعجبه من أهله وماله، يذكر عن أنس عنه أنه قال: «ما أنعم الله علىٰ عبد نعمة في أهل ولا مال أو ولد، فيقول: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، فيرىٰ فيه آفة دون الموت، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[3] [الكهف: ٣٩].

***

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾.

[4]يقول سبحانه لعباده: أنا أكرمت آباكم ورفعت قدره وفضلته علىٰ غيره، فأمرت

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٥٧٥) ومسلم (رقم ٢٠٠٣) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٣٢).

(٢) ٩١ زاد المعاد جـ٢.

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب (٤/ ٨٩-٩٠ رقم ٤٣٦٩) (٤/ ١٢٤ رقم ٤٥٢٥) والطبراني في الصغير (رقم ٥٨٨) وفي الأوسط (٦/ ١٢٦ رقم ٥٩٩٥) والضياء المقدسي في الترغيب في الدعاء (رقم ٧٠) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٣٥٧) وابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ١) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٤٠): رواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه عبد الملك بن زرارة وهو ضعيف.

(٤) ١٠٩ الجواب الكافي.

ملائكتي كلهم أن يسجدوا له تكريمًا وتشريفًا فأطاعوني وأبى عدوي وعدوه، فعصى أمري، وخرج عن طاعتي، فكيف يحسن بكم بعد هذا أن تتخذونه وذريته أولياء من دوني، فتطيعونه في معصيتي، وتوالونه في خلاف مرضاتي وهم أعدا عدو لكم؟ فواليتم عدوي وقد أمرتكم بمعاداته، ومن والى أعداء الملك كان هو وأعداؤه عنده سواء، فإن المحبة والطاعة لا تتم إلا بمعاداة أعداء المطاع وموالاة أوليائه، وأما أن توالي أعداء الملك ثم تدعي أنك موال له فهذا محال. هذا لو لم يكن عدو الملك عدوا لكم فكيف إذا كان عدوكم على الحقيقة والعداوة التي بينكم وبينه أعظم من العداوة التي بين الشاة وبين الذئب؟ فكيف يليق بالعاقل أن يوالي عدوه وعدو وليه ومولاه الذي مولى له سواه؟ ونبه سبحانه على قبح هذه الموالاة بقوله: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾، كما نبه على قبحها بقوله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[1] فتبين أن عداوته لربه وعداوته لنا كل منهما سبب يدعو إلى معاداته فما هذه الموالاة؟ وما هذا الاستبدال؟ بئس للظالمين بدلًا. ويشبه أن يكون تحت هذا الخطاب نوع من العتاب لطيف عجيب، وهو أني عاديت إبليس إذ لم يسجد لأبيكم آدم مع ملائكتي، فكانت معاداته لأجلكم، ثم كان عاقبة هذه المعاداة أن عقدتم بينكم وبينه عقد المصالحة.

[2]فتحت هذا الخطاب إني عاديت إبليس، وطردته من سمائي، وباعدته من قربي إذ لم يسجد لأبيكم آدم، ثم أنتم يا بنيه توالونه وذريته من دوني وهم أعداء لكم.

فليتأمل اللبيب مواقع هذا الخطاب وشدة لصوقه بالقلوب والتباسه بالأرواح. وأكثر القرآن جاء على هذا النمط من خطابه لعباده بالتودد والتحنن واللطف والنصيحة البالغة، وأعلم عباده أنه لا يرضى لهم إلا أكرم الوسائل وأفضل المنازل

---

(١) يأتي تقسيم الفسق في سورة الحجرات، كما يأتي إن شاء الله في تفسير هذه الآية ما يحسن الإحالة عليه في تفسيره للمعوذتين (ج).

(٢) ١٣٤ طريق الهجرتين.

وأجل العلوم والمعارف، قال تعالىٰ: ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر: ٧].

[١] فتأمل ما تحت هذه المعاتبة وما في طي هذا الخطاب من سوءِ هذا العبد وما تعرض له من المقت والخزي والهوان ومن استعطاف ربه واستعتابه ودعائه إياه إلىٰ العود إلىٰ وليه ومولاه الحق الذي هو أولىٰ به، فإذا عاد إليه وتاب إليه فهو بمثابة من أَسر له العدو محبوباً له، واستولوا عليه وحالوا بينه وبينه، فهرب منهم ذلك المحبوب وجاءَ إلىٰ محبه اختياراً وطوعاً حتىٰ توسد عتبة بابه، فخرج المحب من بيته فوجد محبوبه متوسداً عتبة بابه واضعاً خده وذقنه عليها، فكيف يكون فرحه به؟ ولله المثل الأعلىٰ. ويكفىٰ في هذا المثل الذي ضربه رسول الله ﷺ لمن فتح الله عين قلبه فأبصر ما في طيه وما في ضمنه، وعلم أنه ليس كلام مجاز ولا مبالغة ولا تخييل، بل كلام معصوم في منطقه وعلمه وقصده وعمله، كل كلمة منه في موضعها ومنزلتها ومقرها، لا يتعدىٰ بها عنه ولا يقصر بها. والذي يزيد هذا المعنىٰ تقريراً أن محبة الرب لعبده سبقت محبة العبد له سبحانه، فإنه لولا محبة الله له لما جعل محبته في قلبه، فإنه ألهمه حبه وآثره به، فلما أحبه العبد جازاه علىٰ تلك المحبة محبة أعظم منها، فإنه من تقرب إليه شبراً تقرب إليه ذراعاً، ومن تقرب إليه ذراعاً تقرب إليه باعاً، ومن أتاه مشياً أتاه هرولة.

وهذا دليل علىٰ أن محبة الله لعبده الذي يحبه فوق محبة العبد له. وإذا تعرض هذا المحبوب لمساخط حبيبه فهو بمنزلة المحبوب الذي فر من محبه وآثر غيره عليه، فإذا عاوده وأقبل إليه وتخلىٰ عن غيره، فكيف لا يفرح به محبه أعظم فرح وأكمله، والشاهد أقوىٰ شاهد تؤيده الفطرة والعقل، فلو لم يخبر الصادق المصدوق بما أخبر به من هذا الأمر العظيم لكان في الفطرة والعقل ما يشهد به، فإذا انضافت الشرعة

---

(١) ٢٤٢ طريق الهجرتين.

المنزلة إلى العقل المنور، فذلك الذي لا غاية له بعده، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاءُ، والله ذو الفضل العظيم.

***

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾.

(1)ذم الله تعالى في كتابه من نسي ما تُقدِّم يداه، فقال: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ [الكهف: ٥٧]، فإذا طالع جنايته شمَّر لاستدراك الفارط بالعلم والعمل، وتخلص من رق الجناية بالاستغفار والندم، وطلب التمحيص وهو تخليص إيمانه ومعرفته من خبث الجناية كتمحيص الذهب والفضة، وهو تخليصهما من خبثهما، ولا يمكن دخوله الجنة إلا بعد هذا التمحيص، فإنها طيبة لا يدخلها إلا طيب، ولهذا تقول لهم الملائكة: ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [النحل: ٣٢] فليس في الجنة ذرة خبث.

وهذا التمحيص يكون في دار الدنيا بأربعة أشياء: بالتوبة والاستغفار وعمل الحسنات الماحية والمصائب المكفرة، فإن محصته هذه الأربعة وخلصته: كان من الذين تتوفاهم الملائكة طيبين، يبشرونهم بالجنة، وكان من الذين ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾ عند الموت ﴿ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

(١) ١٤١ مدارج جـ١.

وإن لم تف هذه الأربعة بتمحيصه وتخليصه فلم تكن التوبة نصوحا وهي العامة الشاملة الصادقة ولم يكن الاستغفار كاملا تاما، وهو المصحوب بمفارقة الذنب والندم عليه، وهذا هو الاستغفار النافع لا استغفار من في يده قدح السكر، وهو يقول: أستغفر الله. ثم يرفعه إلى فيه، ولم تكن الحسنات في كميتها وكيفيتها وافية بالتكفير ولا المصائب، وهذا إما لعظم الجناية، وإما لضعف الممحص، وإما لهما، محص في البرزخ بثلاثة أشياء.

أحدها: صلاة أهل الإيمان الجنازة عليه واستغفارهم له وشفاعتهم فيه.

الثاني: تمحيصه بفتنة القبر وروعة الفتان والعصرة والانتهار وتوابع ذلك.

الثالث: ما يهدي إخوانه المسلمون إليه من هدايا الأعمال من الصدقة عنه والحج والصيام عنه وقراءة القرآن عنه والصلاة، وجعل ثواب ذلك له.

وقد أجمع الناس على وصول الصدقة والدعاء، قال الإمام أحمد: لا يختلفون في ذلك، وما عداهما فيه اختلاف، والأكثرون يقولون بوصول الحج. وأبو حنيفة يقول: إنما يصل إليه ثواب الإنفاق. وأحمد ومن وافقه: مذهبهم في ذلك أوسع المذاهب، يقولون: يصل إليه ثواب جميع القرب بدنيها وماليها والجامع للأمرين، واحتجوا بأن النبي ﷺ قال لمن سأله: يا رسول الله، هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد مماتهما؟ قال: «نعم»[1] فذكر الحديث. وقد قال: «من مات وعليه صيام صام عنه وليه»[2].

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٥١٤٢) والبيهقي في الشعب (٦/ ١٩٩ رقم ٧٨٩٦) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٦/ ١١٥٢ رقم ٢١٧٠) والحاكم (٤/ ١٧١ رقم ٧٢٦٠) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. بينما ضعف الحديث الألباني في السلسلة الضعيفة (٢/ ٦٢ رقم ٥٩٧) وضعيف الترغيب (رقم ١٤٨٢) وفي مشكاة المصابيح (رقم ٤٩٣٦) وضعيف سنن أبي داود.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٩٥٢) ومسلم (رقم ١١٤٧) وانظر: فتح الباري (٤/ ١٩٣-١٩٤) وشرح النووي (٨/ ٢٣-٢٤).

فإن لم تف هذه بالتمحيص مُحِّص بين يدي ربه في الموقف بأربعة أشياء: أهوال القيامة، وشدة الموقف، وشفاعة الشفعاء، وعفو الله ﷻ.

فإن لم تف هذه الثلاثة بتمحيصه فلابد له من دخول الكير رحمة في حقه ليتخلص ويتمحص ويتطهر في النار، فتكون النار طهرة له وتمحيصًا لخبثه، ويكون مكثه فيها على حسب كثرة الخبث وقلته وشدته وضعفه وتراكمه، فإذا خرج خبثه وصُفِّي ذهبه، وصار خالصًا طيبًا أخرج من النار وأدخل الجنة.

(١)[روى] ابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «سأل موسى ربه عن ست خصال كان يظن أنها له خالصة والسابعة لم يكن موسى يحبها، قال: يا رب أي عبادك أتقى؟ قال: الذي يذكر ولا ينسى. قال: فأي عبادك أهدى؟ قال: الذي يتبع الهدى. قال: فأي عبادك أحكم؟ قال: الذي يحكم للناس ما يحكم لنفسه. قال: أي عبادك أعلم؟ قال: عالم لا يشبع من العلم، يجمع علم الناس إلى علمه. قال: فأي عبادك أعز؟ قال: الذي إذا قدر عفا. قال: فأي عبادك أغنى؟ قال: الذي يرضى بما أوتي. قال: فأي عبادك أفقر؟ قال: صاحب منقوص»(٢) فأخبر في هذا الحديث أن أعلم عباده الذي لا يشبع من العلم فهو يجمع علم الناس إلى علمه لنهمته في العلم وحرصه عليه.

ولا ريب أن كون العبد أعظم عباد الله من أعظم أوصاف كماله، وهذا هو الذي حمل موسى على الرحلة إلى عالم الأرض ليعلمه مما علمه الله، هذا وهو كليم الرحمن، وأكرم الخلق على الله في زمانه وأعلم الخلق، فحمله حرصه ونهمته في العلم على الرحلة إلى العالم الذي وصف له، فلولا إن العلم أشرف ما بذلت فيه المهج، وأنفقت فيه الأنفاس لاشتغل موسى عن الرحلة إلى الخضر بما هو بصدده من أمر الأمة، وعن

---

(١) ١٥٩ مفتاح جـ١.

(٢) أخرجه ابن حبان (١٤/ ١٠٠-١٠١ رقم ٦٢١٧) وفي الموارد (رقم ٨٦) وابن عساكر في تاريخه (٦١/ ١٣٥-١٣٦).

مقاساة النصب والتعب في رحلته وتلطفه للخضر في قوله: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف: ٦٦]، فلم ير اتباعه حتى استاذنه في ذلك، وأخبره أنه جاء متعلما مستفيدًا، فهذا النبي الكريم كان عالما بقدر العلم وأهله صلوات الله وسلامه عليه.

***

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ ﴾.

(1) إن الله سبحانه أخبرنا عن صفيه وكليمه الذي كتب له التوارة بيده وكلمه منه إليه: أنه رحل إلى رجل عالم يتعلم منه ويزداد علمًا إلى علمه، فقال: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [الكهف: ٦٠] حرصًا منه على لقاء هذا العالم وعلى التعلم منه، فلما لقيه سلك معه مسلك المتعلم مع معلمه، وقال له: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ فبدأه بعد السلام بالاستئذان على متابعته، وأنه لا يتبعه إلا بإذنه، وقال: ﴿ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ فلم يجئ ممتحنًا ولا متعنتًا، وإنما جاء متعلمًا مستزيدًا علمًا إلى علمه. وكفى بهذا فضلًا وشرفًا للعلم، فإن نبي الله وكليمه سافر ورحل حتى لقي النصب من سفره في تعلم ثلاث مسائل من رجل عالم، ولما سمع به لم يقر له قرار حتى لقيه، وطلب منه متابعته وتعليمه، وفي قصتهما عبر وآيات وحكم ليس هذا موضع ذكرها.

***

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ ﴾.

(2) لما سافر موسى إلى الخضر وجد في طريقه مس الجوع والنصب، فقال لفتاه: ﴿ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾ [الكهف: ٦٢]؛ فإنه سفر إلى مخلوق.

---

(١) ٥٥ مفتاح جـ١.

(٢) ٢٠٣ بدائع جـ٣.

ولما واعده ربه ثلاثين ليلة وأتمها بعشر فلم يأكل فيها لم يجد مس الجوع ولا النصب؛ فإنه سفر إلىٰ ربه تعالىٰ، وهكذا سفر القلب وسيره إلىٰ ربه لا يجد فيه من الشقاء والنصب ما يجده في سفره إلىٰ بعض المخلوقين.

***

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾.

[1]إن [الله] سبحانه ذكر فضله ومنته على أنبيائه ورسله وأوليائه وعباده بما آتاهم من العلم، فذكر نعمته علىٰ خاتم أنبيائه ورسله بقوله: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣]، وقد تقدمت هذه الآية. وقال في يوسف: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٢٢]. وقال في كليمه موسىٰ: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [القصص: ١٤]. ولما كان الذي آتاه موسىٰ من ذلك أمرًا عظيمًا خصه به علىٰ غيره، ولا يثبت له إلا الأقوياء: أولو العزم هيأه له بعد أن بلغ أشده واستوىٰ، يعني تم وكملت قوته، وقال في حق المسيح: ﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [المائدة: ١١٠]. وقال في حقه ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، فجعل تعليمه مما بشر به أمه وأقر عينها به، وقال في حق داود: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ [ص: ٢٠]، وقال في حق الخضر صاحب موسىٰ وفتاه: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٥]، فذكر من نعمه عليه تعليمه وما آتاه من رحمته.

---

(١) ٥٧ مفتاح جـ١.

[(١)]قال الله تعالى: ﴿ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ وفرق بين الرحمة والعلم، وجعلهما «من عنده» و«من لدنه»، إذ لم ينلهما على يد بشر، وكان «من لدنه» أخص وأقرب من «عنده»، ولهذا قال: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٠]. فـ«السلطان النصير» الذي من لدنه سبحانه: أخص وأقرب مما عنده، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴾، وهو الذي أيده به. والذي من عنده: نصره بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٢]. و«العلم اللدني» ثمرة العبودية والمتابعة، والصدق مع الله، والإخلاص له، وبذل الجهد في تلقي العلم من مشكاة رسوله، وكمال الانقياد له. فيفتح له من فهم الكتاب والسنة بأمر يخصه به، كما قال علي بن أبي طالب ﷺ وقد سئل: «هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟ فقال: لا، والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، إلا فهمًا يؤتيه الله عبدًا في كتابه[(٢)]: فهذا هو العلم اللدني.

[(٣)]قال تعالى عن موسى وفتاه: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٥] فجمع له بين الرحمة والعلم، وذلك نظير قول أصحاب الكهف: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [الكهف: ١٠] فإن الرشد هو العلم بما ينفع، والعمل به، والرشد والهدى إذا أفرد كلٌّ منهما تضمن الآخر، وإذا قُرن أحدهما بالآخر، فالهدى هو العلم بالحق، والرشد هو العمل به، وضدهما الغيُّ واتباع الهوى.

وقد يقابل الرشد بالضر والشر، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾

---

(١) ٤٧٥ مدارج جـ٢.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٠٤٧) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٢٤٦-٢٤٧).

(٣) ١٦٨ إغاثة جـ٢.

[الجن: ٢١] وقال مؤمنو الجن: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن: ١٠].

فالرشد يقابل الغيَّ، كما في قوله: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ [الأعراف: ١٤٦] ويقابل الضرَّ والشر، كما تقدم، وذلك لأن الغي سبب لحصول الشر والضر ووقوعهما بصاحبه.

فالضرر والشر غاية الغي وثمرته، كما أن الرحمة والفلاح غاية الهدىٰ وثمرته.

فلهذا يُقابل كل منهما بنقيضه وسبب نقيضه، فيقابل الهدىٰ بالضلال، كقوله: ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [النحل: ٩٣] وقوله: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾ [النحل: ٣٧] وهو كثير.

ويقابل بالضلال والعذاب، كقوله: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣] فقابل الهدىٰ بالضلال والشقاء.

وجمع سبحانه بين الهدىٰ والفلاح، والهدىٰ والرحمة، كما يجمع بين الضلال والشقاء، والضلال والعذاب، كقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ [القمر: ٤٧] فالضلال ضدُّ الهدىٰ، والسعر العذاب، وهو ضدُّ الرحمة.

[1]وأما قوله عن الغلام أنه طبع يوم طبع كافرًا[2]، فالمراد به أنه كتب كذلك وقدر وختم، فهو من طبع الكتاب. ولفظ الطبع لما صار يستعمله كثير من الناس في الطبيعة التي هي بمعنىٰ الخلقة والجبلة ظن الظان أن هذا مراد الحديث، وهذا الغلام الذي قتله الخضر ليس في القرآن ما يبين أنه كان غير بالغ ولا مكلف، بل قراءة ابن عباس

---

(١) ٢٩٥ شفاء.

(٢) أخرجه ابن حبان (١٤/ ١٠٨ رقم ٦٢٢١) والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٢٧-٤٢٩ رقم ٥٨٤٤) وأبو داود (رقم ٤٧٠٦) والترمذي (رقم ٣١٥٠) وأحمد (٥/ ١١٨، ١٢١) وعبد بن حميد (رقم ١٦٩) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

تدل على أنه كان كافرًا في الحال، وتسميته غلامًا لا يمنع أن يكون مكلفًا قريب العهد بالصغر. ويدل عليه أن موسى لم ينكر قتله لصغره بل لكونه زاكيًا ولم يقتل نفسًا. لكن يقال في الحديث الصحيح ما يدل على أنه كان غير بالغ من وجهين: أحدهما: أنه قال: فمر بصبي يلعب مع الصبيان. الثاني: أنه قال: ولو أدرك لأرهق أبويه طغيانًا وكفرًا. وهذا دليل على كونه لم يدرك بعد، فيقال: الكلام على الآية على التقديرين، فإن كان بالغًا وقد كفر فقد قتل على كفره الواقع بعد البلوغ ولا إشكال، وإن كان غير بالغ فلعل تلك الشريعة كان فيها التكليف قبل الاحتلام عند قوة عقل الصبي وكمال تمييزه، وإن لم يكن التكليف قبل البلوغ بالشرائع واقعًا فلا يمتنع وقوعه بالتوحيد ومعرفة الله، كما قاله طوائف من أهل الكلام والفقه من أصحاب أبي حنيفة وأحمد وغيرهم، وعلى هذا فيمكن أن يكون مكلّفًا بالإيمان قبل البلوغ، وإن لم يكن مكلفًا بشرائعه. وكفر الصبي المميز عند أكثر العلماء مؤاخذ به، فإذا ارتد صار مرتدًا لكن لا يقتل حتى يبلغ. فالغلام الذي قتله الخضر إما أن يكون كافرًا بعد البلوغ فلا إشكال، وإما أن يكون غير بالغ وهو مكلف في تلك الشريعة فلا أشكال أيضًا، وإما أن يكون مكلفًا بالتوحيد والمعرفة غير مكلف بالشرائع، فيجوز قتله في تلك الشريعة.

وإما أن لا يكون مكلفًا فقتل لئلا يفتن أبويه عن دينهما، كما يقتل الصبي الكافر في ديننا إذا لم يندفع ضرره عن المسلمين إلا بالقتل.

وأما قتل صبي لم يكفر بعد بين أبوين مؤمنين للعلم بأنه إذا بلغ كفر وفتن أبويه، فقد يقال: ليس في القرآن ولا في السنة ما يدل عليه. وأيضًا فإن الله لم يأمر أن يعاقب أحد بما يعلم أنه يكون منه قبل أن يكون منه، ولا هو سبحانه يعاقب العباد على ما يعلم أنهم سيفعلونه حتى يفعلونه.

وقائل هذا القول يقول: إنه ليس في قصة الخضر شيء من الاطّلاع على الغيب الذي لا يعلمه عموم الناس، وإنما فيها علمه بأسباب لم يكن علم بها موسى، مثل علمه بأن السفينة لمساكين يعملون ورائهم ملك ظالم، وهذا أمر يعلمه غيره، وكذلك

كون الجدار كان لغلامين يتيمين، وأن أباهما كان رجلًا صالحًا، وأن تحته كنزًا لهما، مما يمكن أن يعلمه كثير من الناس، وكذلك كفر الصبي مما يمكن أنه كان يعلمه كثير من الناس حتى أبواه، لكن لحبهما له لا ينكران عليه أو لا يقبل منهما، فإن كان الأمر على ذلك فليس في الآية حجة على قولهم أصلًا، وأن ذلك الغلام لم يكفر بعد، ولكن سبق في العلم أنه إذا بلغ كفر، فمن يقول هذا يقول: إن قتله دفعًا لشره، كما قال نوح: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧].

وعلى هذا فلم يكن قبل قيام الكفر به كافرًا وقراءة ابن عباس، وأما الغلام فكان كافرًا وكان أبواه مؤمنين، ظاهرة أنه كان حينئذ كافرًا.

فإن قيل: فهذا الغلام كان أبواه مؤمنين، فلو كان مولودًا على فطرة الإسلام وهو بين أبوين مسلمين لكان مسلمًا تبعًا لهما وبحكم الفطرة، فكيف يقتل والحالة هذه.

قيل: إن كان بالغًا فلا إشكال، وإن كان مميزًا وقد كفر فيصح كفره وردته عند كثير من العلماء، وأن لا يقتل حتى يبلغ عندهم فلعل في تلك الشريعة يجوز قتل المميز الكافر. وإن كان صغيرًا غير مميز فيكون قتله خاصًا به، لأن الله أطلع الخضر على أنه لو بلغ لاختار غير دين الأبوين. وعلى هذا يدل قول ابن عباس لنجدة، وقد سأله عن قتل صبيان الكفار، فقال: لئن علمت فيهم ما علمه الخضر من الغلام فأقتلهم.

فإن قيل: إذا كان مولودًا على الفطرة وأبواه مؤمنين فمن أين جاء الكفر؟

قيل: إنما قال النبي ﷺ ذلك في الغالب، وإلا فالكفر قد يأتيه من قبل غير أبويه، فهذا الغلام إن كان كافرًا في الحال فقد جاء الكفر من غير جهة أبويه. وإن كان المراد أنه إذا بلغ سيكفر باختياره فلا إشكال...

***

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾.

[(١)]قال تعالىٰ عن ذي القرنين: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤]. قال علي ابن أبي طلحة عن عباس: علمًا، قال قتادة وابن زيد وابن جريج والضحاك: علمًا تسبب به إلىٰ ما يريد، وكذلك قال إسحاق: علمًا يوصله إلىٰ حيث يريد، وقال المبرد: وكل ما وصل شيء بشيء فهو سبب. وقال كثير من المفسرين: آتيناه من كل ما بالخلق إليه حاجة علمًا ومعونة له. وقد سمىٰ الله سبحانه الطريق سببًا في قوله: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ۝﴾ [الكهف: ٨٥] قال مجاهد: طريقًا. وقيل: السبب الثاني هو الأول، أي اتبع سببًا من تلك الأسباب التي أوتيها مما يوصله إلىٰ مقصوده. وسمَّىٰ سبحانه أبواب السماء أسبابًا، إذ منها يدخل إلىٰ السماء، قال تعالىٰ عن فرعون: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]، أي أبوابها التي أدخل منها إليها، وقال زهير:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو رام أسباب السماء بسلم[(٢)]

وسمىٰ الحبل سببًا لإيصاله إلىٰ المقصود، قال تعالىٰ: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج: ١٥] قال بعض أهل اللغة: السبب من الحبال: القوي الطويل، قال: ولا يدعىٰ الحبل سببًا حتىٰ يصعد به وينزل[(٣)]، ثم قيل لكل شيء وصلت به إلىٰ موضع أو حاجة تريدها: سبب، يقال: ما بيني وبين فلان سبب أي آصرة رحم، أو عاطفة مودة.

وقد سمَّىٰ تعالىٰ وصل الناس بينهم أسبابًا، وهي التي يتسببون بها إلىٰ قضاء حوائجهم بعضهم من بعض، قال تعالىٰ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] يعني الواصلات التي كانت بينهم في الدنيا، وقال

---

(١) ١٨٩ شفاء.

(٢) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلىٰ زهير بن أبي سلمىٰ، حكيم الشعراء في الجاهلية وقد فُضِّل علىٰ شعراء العرب كافة، كان أبوه وخاله وأخته سلمىٰ وابناه: كعب وبجير شعراء، مات سنة ١٣ قبل الهجرة، وذكر هذا البيت ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٢٧) وابن عساكر في تاريخه (٤٥/ ٣٨٠) والقرطبي في تفسيره (٢/ ٢٠٦).

(٣) ذكره ابن منظور في لسان العرب (١/ ٤٥٩) ونسبه إلىٰ خالد بن جنبة رحمه الله.

ابن عباس وأصحابه: يعني أسباب المودة الواصلات التي كانت بينهم في الدنيا، وقال ابن يزيد: هي الأعمال التي كانوا يؤملون أن يصلوا بها إلىٰ ثواب الله، وقيل: هي الأرحام التي كانوا يتعاطفون بها، وبالجملة فسمىٰ الله سبحانه ذلك كله أسبابًا، لأنها كانت يتوصل بها إلىٰ مسبباتها، وهذا كله عند نفاة الأسباب مجاز لا حقيقة له، وبالله التوفيق.

***

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾.

[1]قال تعالىٰ: ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ [الكهف: ١٠٠، ١٠١]. وهذا يتضمن معنيين: أحدهما: أن أعينهم في غطاء عما تضمنه الذكر من آيات الله وأدلة توحيده وعجائب قدرته، والثاني: أن أعين قلوبهم في غطاء عن فهم القرآن وتدبره والاهتداء به، وهذا الغطاء للقلب أولًا ثم يسري منه إلىٰ العين.

[2]قال تعالىٰ في وصف المغترين: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]. وهؤلاء إذا انكشف الغطاء وثبتت حقائق الأمور علموا أنهم لم يكونوا علىٰ شيء ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر: ٤٧]، وفي أثر معروف: إذا رأيت الله سبحانه يزيدك من نعمه وأنت مقيم عل معصيته فاحذره، فإنما هو استدراج يستدرجك به[3].

(١) ٩٣ شفاء.

(٢) ٢٩٨ الروح.

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٥) والطبري في تفسيره (٧/ ١٩٥) وابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١٢٩٠ رقم ٧٢٨٨) والطبراني في الأوسط (٩/ ١١٠ رقم ٩٢٧٢) وفي الكبير (١٧/ ٣٣٠ رقم ٩١٣) والروياني في
=

وشاهد هذا في القرآن في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤].

وهذا من أعظم الغرة أن تراه يتابع عليك نعمه، وأنت مقيم على ما يكره، فالشيطان موكل بالغرور، وطبع النفس الأمارة الاغترار، فإذا اجتمع الرأي والبغي والرأي المحتاج، والشيطان الغرور والنفس المغترة لم يقع هناك خلاف. فالشياطين غروا المغترين بالله، وأطمعوهم مع إقامتهم على ما يسخط الله ويغضبه في عفوه وتجاوزه، وحدثوهم بالتوبة لتسكن قلوبهم ثم دافعوهم بالتسويف حتى هجم الأجل، فأُخذوا على أسوأ أحوالهم، وقال تعالى: ﴿ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [الحديد: ١٤] وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [فاطر: ٥].

وأعظم الناس غرورًا بربه من إذا مسّه الله برحمة منه وفضل قال: ﴿ هَٰذَا لِى ﴾ أي: أنا أهله وجدير به ومستحق له، ثم قال: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ فظن أنه أهل لما أولاه من النعم مع كفره بالله، ثم زاد في غروره فقال: ﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ [فصلت: ٥٠] يعني الجنة والكرامة، وهكذا تكون الغرة بالله، فالمغتر بالشيطان مغتر بوعوده وأمانيه، وقد ساعد اغتراره بدنياه ونفسه، فلا يزال كذلك حتى يتردى في آبار الهلاك.

[(١)] وسئل ﷺ عن الأخسرين أعمالًا يوم القيامة، فقال: «**هم الأكثرون أموالًا إلا من قال هكذا وهكذا، من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، وقليل ما هم**»[(٢)].

مسنده ١/ ١٩٥ رقم ٢٦٠) والديلمي في الفردوس (١/ ٢٧٦ رقم ١٠٧٣) والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٢٨ رقم ٤٥٤٠) وابن المبارك في الزهد (رقم ٣٢١) كلهم رووه مرفوعًا إلى النبي ﷺ.

(١) ٣٩٩ أعلام جـ٤.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٩٩٠) وانظر: فتح الباري (٣/ ٣٢٤) وشرح النووي (٧/ ٧٣-٧٤).

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾.

[1]وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

ومعنىٰ هذا: أنه لو فُرض البحرُ مدادًا، وبعده سبعة أبحر تمده كلُّها مدادًا، وجميع أشجار الأرض أقلامًا، وهو ما قام منها علىٰ ساقٍ من النبات، والأشجار المثمرة وغير المثمرة، وتستمد بذلك المداد، لَفنيت البحار والأقلام، وكلمات الرب لا تفنىٰ ولا تنفد، فسبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته[2].

فأين هذا من وصف من يصفه بأنه ما تكلم ولا يتكلم، ولا يقوم به كلام أصلًا؟ وقول من وصف كلامه بأنه معنىٰ واحد، لا ينقضي ولا يتجزَّأ،ولا له بعضٌ ولا كلٌّ، ولا هو سور وآيات ولا حروف وكلمات.

***

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾.

[3]قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الكهف: ١١٠]. أي كما أنه إله واحد لا إله سواه، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده، فكما تفرد بالإلهية يجب أن يفرد بالعبودية. فالعمل الصالح هو الخالي من الرياء، المقيد بالسنة، وكان من دعاء

---

(١) ٣٧ المنار المنيف.

(٢) عن جويرية رض الله عنها: أن النبي ﷺ خرج من عندها بكرة، حين صلى الصبح وهي في مسجدها، ثـم رجع بعد أن أضحىٰ، وهي جالسة، فقال: «ما زلتِ علىٰ الحال التي فارقتك عليها؟» قالت: نعم. قـال النبي ﷺ: «لقد قلتُ بعدكِ أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلتِ منذ اليوم لـوزنتهن: سبحان الله وبحمده: عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته» أخرجه مسلم (رقم ٢٧٢٦).

(٣) ١٧٦ الجواب الكافي.

عمر بن الخطاب ﷺ: «اللهم اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا»[١].

وهذا الشرك في العبادة يبطل ثواب العمل، وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجبًا، فإنه ينزله منزلة من لم يعمله، فيعاقب على ترك الأمر فإن الله سبحانه إنما أمر بعبادته خالصة، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة: ٥] فمن لم يخلص لله في عبادته لم يفعل ما أمر به، بل الذي أتى به شيء غير المأمور به فلا يصح ولا يقبل منه، ويقول الله تعالى: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملًا أشرك معي فيه غيري فهو للذي أشرك به، وأنا منه بريء**»[٢].

وهذا الشرك ينقسم إلى أكبر وأصغر، ومغفور وغير مغفور، والنوع الأول ينقسم إلى كبير وأكبر، وليس شيء منه مغفور، فمنه الشرك بالله في المحبة والتعظيم بأن يحب مخلوقًا كما يحب الله، فهذا من الشرك الذي لا يغفره الله، وهو الشرك الذي قال سبحانه فيه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم وقد جمعتهم الجحيم: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨] ومعلوم أنهم ما سووهم به سبحانه في الخلق والرزق والإماتة والإحياء والملك والقدرة، وإنما سووهم به في الحب والتأله والخضوع.

وقال ﷺ: «**اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل**» فقيل له: كيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟ فقال: «**قولوا: اللهم إن نعوذ بك أن نشرك بك**

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (ص ١١٨) وأبو الشيخ في طبقات المحدثين بأصبهان (٤/ ٢٦١ رقم ٦٥٣) في ترجمة الفضل بن أحمد الوراق.

(٢) أخرجه مسلم بلفظ قريب (رقم ٢٩٨٥) وابن خزيمة (٢/ ٦٧ رقم ٩٣٨) وابن ماجه (رقم ٤٢٠٢) والطبري في تهذيب الآثار (٢/ ٧٩٠ رقم ١١١٢) والطبراني في الأوسط (٦/ ٣٢٤ رقم ٦٥٢٩) وأبو يعلى (١١/ ٤٣٠ رقم ٦٥٥٢) وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٦) وشرح النووي (١٨/ ١١٥-١١٦).

شيئًا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلم»[1] ذكره أحمد.

وقال ﷺ: «إن أخوف ما أخاف على أمتي الشرك الأصغر» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء، يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تُرَاءون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟»[2] ذكره أحمد.

[3]إن العلم إمام العمل، وقائد له، والعمل تابع له ومؤتم به، فكل عمل لا يكون خلف العلم مقتديًا به، فهو غير نافع لصاحبه بل مضرة عليه، كما قال بعض السلف: من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح، والأعمال إنما تتفاوت في القبول والرد بحسب موافقتها للعلم ومخالفتها له، فالعمل الموافق للعلم هو المقبول، والمخالف له هو المردود، فالعلم هو الميزان وهو المحك، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] قال الفضيل بن عياض: هو أخلص العمل وأصوبه، قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، فالخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة[4]، وقد قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]. هذا هو العمل المقبول الذي لا يقبل الله من الأعمال سواه، وهو أن يكون موافقًا لسنة رسول الله ﷺ مرادًا به وجه الله. ولا يتمكن العامل من الإتيان بعمل يجمع

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٣) والطبراني في الأوسط (٤/ ١٠ رقم ٣٤٧٩) وابن أبي شيبة (٦/ ٧٠ رقم ٢٩٥٤٧) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٢٣-٢٢٤): رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح غير أبي علي ووثقه ابن حبان.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٨) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٠٢): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح وقال المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٣٤): رواه أحمد بإسناد جيد.

(٣) ٨٢ مفتاح جـ١.

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٩٥) وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٣).

هذين الوصفين إلا بالعلم؛ فإنه إن لم يعلم ما جاء به الرسول لم يمكنه قصده، وإن لم يعرف معبوده لم يمكنه إرادته وحده، فلولا العلم لما كان عمله مقبولًا، فالعلم هو الدليل على الإخلاص، وهو الدليل على المتابعة، وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧] وأحسن ما قيل في تفسير الآية أنه: إنما يتقبل الله عمل من اتقاه في ذلك العمل، وتقواه فيه أن يكون لوجهه على موافقة أمره، وهذا إنما يحصل بالعلم، وإذا كان هذا منزلة العلم وموقعه عُلِمَ أنه أشرف شيء وأجله وأفضله، والله أعلم.

[1] والأعمال أربعة: واحد مقبول، وثلاثة مردودة؛ فالمقبول ما كان لله خالصًا وللسنة موافقًا، والمردود ما فقد منه الوصفان أو أحدهما، وذلك أن العمل المقبول هو ما أحبه الله ورضيه، وهو سبحانه إنما يحب ما أمر به وما عمل لوجهه، وما عدا ذلك من الأعمال فإنه لا يحبها، بل يمقتها ويمقت أهلها، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢].

قال الفضيل بن عياض: هو اخلص العمل وأصوبه، فسئل عن معنى ذلك، فقال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل حتى يكون خالصًا صوابًا، فالخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة، ثم قرأ قوله: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾.

فإن قيل: فقد بان بهذا أن العمل لغير الله مردود غير مقبول، والعمل لله وحده مقبول؛ فبقي قسم آخر وهو أن يعمل العمل لله ولغيره، فلا يكون لله محضًا ولا للناس محضًا، فما حكم هذا القسم؟ هل يبطل العمل كله أم يبطل ما كان لغير الله ويصح ما كان لله؟ قيل: هذا القسم تحته أنواع ثلاثة:

أحدها: أن يكون الباعث الأول على العمل هو الإخلاص، ثم يعرض له الرياء وإرادة غير الله في إثنائه، فهذا المعول فيه على الباعث الأول ما لم يفسخه بإرادة جازمة

---

(١) ١٨١ أعلام جـ٢. ط دار الجيل، قدم له وعلقه عليه: طه عبد الرؤوف سعد.

لغير الله، فيكون حكمه حكم قطع النية في أثناء العبادة وفسخها، أعني قطع ترك استصحاب حكمها.

الثاني: عكس هذا، وهو أن يكون الباعث الأول لغير الله، ثم يعرض له قلب النية لله، فهذا لا يحتسب له بما مضى من العمل، ويحتسب له من حين قلب نيته؛ ثم إن كانت العبادة لا يصح آخرها إلا بصحة أولها وجبت الإعادة، كالصلاة، وإلا لم تجب كمن أحرم لغير الله ثم قلب نيته لله عند الوقوف والطواف.

الثالث: أن يبتدئها مريدًا بها الله والناس، فيريد أداء فرضه والجزاء والشكور من الناس، وهذا كمن يصلي بالأجرة فهو لو لم يأخذ الأجرة صلى، ولكنه يصلي لله وللأجرة، وكمن يحج ليسقط الفرض عنه ويقال فلان حج، أو يعطي الزكاة كذلك، فهذا لا يقبل منه العمل. وإن كانت النية شرطًا في سقوط الفرض وجبت عليه الإعادة، فإن حقيقة الإخلاص التي هي شرط في صحة العمل والثواب عليه لم توجد، والحكم المعلق بالشرط عدم عند عدمه، فإن الإخلاص هو تجريد القصد طاعةً للمعبود، ولم يؤمر إلا بهذا. وإذا كان هذا هو المأمور به فلم يأت به بقي في عهدة الأمر؛ وقد دلت السنة الصريحة على ذلك، كما في قوله ﷺ: «**يقول الله ﷻ يوم القيامه: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملا أشرك فيه غيري فهو كله للذي أشرك به**» وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[1].

هذا ما يسر جمعه من تفسير سورة الكهف

والحمد لله رب العالمين



(١) تقدم تخريجه قريبًا.

سُورَةُ مَرْيَمَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝ ﴾.

[(١)] قول زكريا ﴿ وَلَمْ أَكُنْۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ [مريم: ٤]، فقد قيل: إنه دعاء المسألة، والمعنى إنك عودتني إجابتك وإسعافك ولم تشقني بالرد والحرمان، فهو توسل إليه تعالى بما سلف من إجابته وإحسانه.

كما حكى أن رجلاً سأل رجلًا وقال: أنا الذي أحسنت إليَّ وقت كذا وكذا. فقال: مرحبًا بمن توسل إلينا بنا، وقضى حاجته، وهذا ظاهر ههنا.

ويدل عليه أنه قدم ذلك أمام طلبه الولد، وجعله وسيلة إلى ربه، فطلب منه أن يجاريه على عادته التي عوده من قضاء حوائجه وإجابته إلى ما سأله.

[(٢)] قول زكريا عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ [مريم: ٥، ٦]، فهذا ميراث العلم والنبوة والدعوة إلى الله، وإلا فلا يظن بنبي كريم أنه يخاف عصبته أن يرثوه ماله، فيسأل الله العظيم ولدًا يمنعهم ميراثه، ويكون أحق به منهم. وقد نزه الله أنبياءه ورسله عن هذا وأمثاله، فبعدًا لمن حرف كتاب الله ورد على رسوله كلامه، ونسب الأنبياء إلى ما هم برآء منزهون عنه، والحمد لله على توفيقه وهدايته.

---

(١) ٤ البدائع جـ٢.

(٢) ٦٧ المفتاح جـ١.

ويذكر عن أبي هريرة ﷺ أنه مر بالسوق فوجدهم في تجاراتهم وبيوعاتهم، فقال: أنتم ههنا فيما أنتم فيه وميراث رسول الله ﷺ يقسم في مسجده؟ فقاموا سراعًا إلى المسجد لم يجدوا فيه إلا القرآن والذكر ومجالس العلم، فقالوا: أين ما قلت: يا أبا هريرة؟ فقال: هذا ميراث محمد ﷺ يقسم بين ورثته، وليس بمواريثكم ودنياكم، أو كما قال.

***

﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ ﴾.

(١)أما الحنين فقال في الصحاح: الحنين الشوق وتوقان النفس، تقول منه: حنَّ إليه يحن حنينًا فهو حان، والحنان الرحمة، تقول منه: حن عليه يحن حنانًا، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ [مريم: ١٣]. وتحنن عليه ترحم، والعرب تقول: حنانك يا رب وحنانيك بمعنى واحدٍ أي رحمتك(٢)، قال امرء القيس:

ويمنحُها بنو شمجى بن جَرْمٍ معيزم حنانَك ذا الحنان(٣)

(٤)وهو ما السر في كونه سلم عليهم بلفظ النكرة، وشرع لعباده أن يسلموا على رسوله بلفظ المعرفة؟ وكذلك تسليمهم على نفوسهم وعلى عباده الصالحين، فقد تقدم بيان الحكمة في كون السلام ابتداء بلفظ النكرة.

ونزيد هنا فائدة أخرى، وهي أنه قد تقدم أن في دخول اللام في السلام أربع فوائد،

---

(١) ٤٥ الروضة.

(٢) انظر: مختار الصحاح (ص ٦٧).

(٣) هذا البيت من بحر الوافر، وينسب إلى امرئ القيس بن حجر بن الحارث الكندي الشاعر الجاهلي أشهر شعراء العرب على الإطلاق، قال الشعر وهو غلام وجعل يشبب ويلهو ويعاشر صعاليك العرب فبلغ ذلك أباه، فنهاه وأبعده إلى حضر موت موطن أبيه وعشيرته، ثم جعل يشرب ويطرب ويلهو وقد قُتِل أبوه فبلغه ذلك وهو يشرب، فقال: رحم الله أبي ضيعني صغيرًا وحملني دمه كبيرًا.

لا صحو اليوم ولا سكر غدًا اليوم خمر وغدًا أمر

وثأر لأبيه. ذكر البيت الطبري في تفسيره (١٦/ ٥٦-٥٧) وابن سلام في غريب الحديث (٤/ ٤٠١) وانظر: أخبار أبي القاسم الزجاجي (ص ٢٩٣).

(٤) ١٦٦ البدائع جـ٢.

وهذا المقام مستغن عنها؛ لأن المتكلم بالسلام هو الله تعالى فلم يقصد تبركًا بذكر الاسم كما يقصده العبد، فإن التبرك استدعاء البركة، واستجلابها، والعبد هو الذي يقصد ذلك، ولا قصد أيضًا تعرضًا وطلبًا على ما يقصده العبد، ولا قصد العموم، وهو أيضًا غير لائق هنا؛ لأن سلامًا منه سبحانه كافٍ من كل سلام، ومغن عن كل تحيةٍ، ومقرب من كل أمنية، فأدنى سلام منه ـ ولا أدنى ـ هناك يستغرق الوصف، ويتم النعمة ويدفع البؤس، ويطيب الحياة، ويقطع مواد العطب والهلاك، فلم يكن لذكر الألف واللام هناك معنى.

(١)وقد بان بهذا الفرق بين سلام الله على رسله وعباده وبين سلام العباد عليهم، فإن سلام العباد لما كان متضمنًا لفوائد الألف واللام التي تقدمت من قصد التبرك باسمه السلام، والإشارة إلى طلب السلام له وسؤالها من الله باسم السلام، وقصد عموم السلام كان الأحسن في حق المسلم على الرسول أن يقول: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، وإن كان قد ورد سلام عليك فالمعرفة أكثر وأصح وأتم معنى، فلا ينبغي العدول عنه ويشح في هذا المقام بالألف واللام والله أعلم.

وقد عرفت بهذا جواب السؤال الرابع عشر وهو: ما الحكمة في تسليم الله تعالى على يحيى بلفظ النكرة، وتسليم المسيح على نفسه بلفظ المعرفة؟

لا ما يقوله من لا تحصيل له: إن سلام يحيى جرى مجرى ابتداء السلام في الرسالة والمكاتبة فنكر، وسلام المسيح جرى مجرى السلام في آخر المكاتبة فعرف، فإن السورة كالقصة الواحدة، ولا يخفى فساد هذا الفرق، فإنهما سلامان متغايران من مسلِّمين: أحدهما: سلام الله تعالى على عباده. والثاني: سلام العبد على نفسه، فكيف يُبنى أحدهما على الآخر.

وكذلك قول من قال: إن الثاني عُرِّف لتقدم ذكره في اللفظ، فكانت الألف واللام

---

(١) ١٦٧ البدائع جـ٢.

فيه للعهد، وهذا أقرب من الأول، لإمكان أن يكون المسيح أشار إلى السلام الذي سلمه الله على يحيى، فأراد أن لي من السلام في مثل هذه المواطن الثلاثة مثل ما حصل له، والله أعلم.

وأما السؤال الخامس عشر: وهو ما الحكمة في تقييد السلام في قصتي يحيى والمسيح صلوات الله عليهما بهذه الأوقات الثلاثة؟ فسره ـ والله أعلم ـ أن طلب السلامة يتأكد في المواضع التي هي مظان العطب ومواطن الوحشة، وكلما كان الموضع مظنة ذلك تأكد طلب السلامة وتعلقت بها الهمة، فذكرت هذه المواطن الثلاثة، لأن السلامة فيها آكد وطلبها أهم، والنفس عليها أحرص، لأن العبد فيها قد انتقل من دار كان مستقرا فيها موطن النفس على صحبتها وسكناها إلى دار هو فيها معرض للآفات والمحن والبلاء، فإن الجنين من حين خرج إلى هذه الدار انتصب لبلائها وشدائدها ولأوائها ومحنها وأفكارها، كما أفصح الشاعر بهذا المعنى، حيث يقول:

تأمل بكاء الطفل عند خروجه ... إلى هذه الدنيا إذا هو يولد

تجد تحته سرا عجيبا كأنه ... بكل الذي يلقاه منه مهدد

وإلا فما يبكيه منها وإنها ... لأوسع مما كان فيه وأرغد[1]

ولهذا من حين خرج ابتدرته طعنة الشيطان في خاصرته فبكى لذلك، ولما حصل له من الوحشة بفراق وطنه الأول، وهو الذي أدركه الأطباء والطبائعيون. وأما ما أخبر به الرسول ﷺ فليس في صناعتهم ما يدل عليه كما ليس فيها ما ينفيه، فكان طلب السلامة في هذه المواطن من آكد الأمور.

الموطن الثاني: خروجه من هذه الدار إلى دار البرزخ عند الموت ونسبة الدنيا إلى تلك الدار كنسبة داره في بطن أمه إلى الدنيا تقريبا وتمثيلا، وإلا فالأمر أعظم من ذلك

---

(١) هذه الأبيات من بحر الطويل، وتنسب لابن الرومي: علي بن العباس بن جريج من طبقة بشار والمتنبي، مات مسمومًا سنة ٢٨٣هـ. البيت الثالث فقط ذكره كل من القزويني في التدوين في أخبار قزوين (٢/ ١١٦) والمناوي في فيض القدير (١/ ٥٠١) (٥/ ١٦).

وأكبر، وطلب السلامة أيضا عند انتقاله إلى تلك الدار من أهم الأمور.

الموطن الثالث: موطن يوم القيامة يوم يبعث الله تعالى الأحياء، ولا نسبة لما قبله من الدور إليه، وطلب السلامة فيه آكد من جميع ما قبله، فإن عطبه لا يستدرك، وعثرته لا تقال، وسقمه لا يداوى، وفقره لا يسد. فتأمل كيف خص هذه المواطن بالسلام لشدة الحاجة إلى السلامة فيها، واعرف قدر القرآن وما تضمنه من الأسرار وكنوز العلم والمعارف التي عجزت عقول الخلائق عن إحصاء عشر معشارها.

وتأمل ما في السلام مع الزيادة على السلامة من الأنس وذهاب الوحشة، ثم نزل ذلك على الوحشة الحاصلة للعبد في هذه المواطن الثلاثة عند خروجه إلى عالم الابتلاء، وعند معاينته هول المطلع إذا قدم على الله وحيدًا مجردًا عن كل مؤنس، إلا ما قدمه من صالح عمل، وعند موافاته القيامة مع الجمع الأعظم ليصير إلى إحدى الدارين، التي خلق لها، واستعمل بعمل أهلها، فأي موطن أحق بطلب السلامة من هذه المواطن؟ فنسأل الله السلامة فيها بمنه وكرمه ولطفه وجوده وإحسانه.

***

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنًا﴾.

[(١)]في الصحيحين عن عبد الله بن جعفر، قال: «رأيتُ رسول الله ﷺ يأكُلُ القِثَّاءَ بالرُّطَبِ»[(٢)]. وفي سنن أبي داود، عن أنس قال: «كان رسولُ الله ﷺ يُفْطِرُ على رُطَباتٍ قَبْلَ أن يُصَلِّيَ، فإنْ لم تكُنْ رُطباتٍ فتمراتٍ، فإن لم تكن تَمَراتٍ، حَسَا حسَوَاتٍ من ماءٍ»[(٣)].

---

(١) ٣٤٩ الزاد جـ٣.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٤٤٠) ومسلم (رقم ٢٠٤٣) وانظر: فتح الباري (٩/ ٥٦٤) وشرح النووي (١٣/ ٢٢٧).

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ٢٣٥٦) والترمذي (رقم ٦٩٦) وأحمد (٣/ ١٦٤) والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٤/ ٤١١-٤١٢ رقم ١٥٨٥) والحاكم (١/ ٥٩٧ رقم ١٥٧٦) والدارقطني (٢/ ١٨٥ رقم ٢٤) وحسنه الترمذي وانظر: عمدة القاري (١١/ ٦٦) وتحفة الأحوذي (٣/ ٣١١) وعون المعبود (٦/ ٣٤٥).

طبْعُ الرُّطَبِ: طبعُ المياه: حار رَطب، يُقوِّي المعدة الباردة ويُوافقها، ويزيد في الباه، ويُخصِبُ البدنَ، ويوافق أصحابَ الأمزجة الباردة، ويَغذُو غِذاءً كثيراً. وهو مِن أعظم الفاكهة موافقةً لأهلِ المدينة وغيرِها من البلاد، التي هو فاكهتُهم فيها، وأنفعها للبدن، وإن كان مَن لم يَعْتَدْهُ يُسرعُ التعفُّن في جسده، ويَتولَّدُ عنه دم ليس بمحمود، ويحدث في إكثاره منه صُدَاعٌ وسوداءٌ، ويُؤذي أسنانه، وإصلاحُه بالسَّكنْجَبِين ونحوه.

وفي فِطر النبي ﷺ من الصوم عليه، أو على التمر، أو الماء تدبيرٌ لطيفٌ جداً، فإن الصوم يُخلي المعدة من الغذاء، فلا تَجِدُ الكبدُ فيها ما تَجذِبُه وتُرسله إلى القُوَىٰ والأعضاء، والحلوُ أسرع شيء وصولاً إلى الكبد، وأحبُّه إليها، ولاسِيَّما إن كان رطباً، فيشتدُّ قبولها له، فتنتفع به هي والقُوَىٰ، فإن لم يكن فالتمرُ، لحلاوته وتغذيته، فإن لم يكن فحسواتُ الماء تُطفىء لهيبَ المعدة، وحرارة الصوم، فتنتبهُ بعده للطعام، وتأخذه بشهوة.

[1]فائدة عزيزة الوجود: احتج المعتزلة على مخلوقية القرآن بقوله تعالى: ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر: ٦٢] ونحو ذلك من الآيات. فأجاب الأكثرون بأنه عام مخصوص يخص محل النزاع كسائر الصفات من العلم ونحوه. قال ابن عقيل في الإرشاد: ووقع لي أن القرآن لا يتناوله هذا الإخبار ولا يصلح لتناوله.

قال: لأن به حصل عقد الإعلام بكونه خالقًا لكل شيء، وما حصل به عقد الإعلام والإخبار لم يكن داخلا تحت الخبر. قال: ولو أن شخصًا قال: لا أتكلم اليوم كلامًا إلا كان كذبًا لم يدخل إخباره بذلك تحت ما أخبر به.

قلت: ثم تدبرت هذا فوجدته مذكورا في قوله تعالى: في قصة مريم ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٦]، وإنما

(١) ٢١٨ البدائع جـ٤.

أمرت بذلك لئلا تسأل عن ولدها فقولها: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ به حصل إخبار بأنها لا تكلم الإنس، ولم يكن ما أخبرت به داخلًا تحت الخبر وإلا كان قولها هذا مخالفًا لنذرها.

***

﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾.

[(١)] سئل ﷺ عن قوله تعالى: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ [مريم: ٢٨] وبين عيسى وموسى عليهما السلام ما بينهما، فقال: «**كانوا يسمون بأنبيائهم، وبالصالحين قبلهم**»[(٢)].

[(٣)] قوله سبحانه عن المسيح أنه قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣٠، ٣١]. قال سفيان بن عيينة: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ قال: معلمًا للخير.

وهذا يدل على أن تعليم الرجل الخير هو البركة التي جعلها الله فيه؛ فإن البركة حصول الخير ونماؤه ودوامه، وهذا في الحقيقة ليس إلا في العلم الموروث عن الأنبياء وتعليمه، ولهذا سمى سبحانه كتابه مباركًا، كما قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠]. وقال: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ [ص: ٢٩]. ووصف رسوله بأنه مبارك، كما في قول المسيح: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ فبركة كتابه ورسوله هي سبب ما يحصل بهما من العلم والهدى والدعوة إلى الله.

[(٤)] وقال المسيح: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ قال غير واحد من السلف:

---

(١) ٢٧١ الإعلام جـ٤.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢١٣٥) وانظر: شرح النووي (١٤/ ١١٧).

(٣) ١٧٤ المفتاح جـ١.

(٤) ٩٠ جلاء الأفهام.

معلمًا للخير أينما كنت. وهذا جزء المعنى؛ فالمبارك كثير الخير في نفسه الذي يحصله لغيره تعليمًا وإقدارًا ونصحًا وإرادة واجتهادًا، ولهذا يكون العبد مباركًا، لأن الله بارك فيه وجعله كذلك. والله تعالى مبارك لأن البركة كلها منه، فعبده المبارك هو المتبارك ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾ [الفرقان: ١]، وقوله: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ﴾ [الملك: ١]. وسنعود إلى هذا المعنى عن قريب إن شاء الله تعالى.

***

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ۝٤٢ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ۝٤٣ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ۝٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ۝٤٥ ﴾.

...[1]أمر الله تعالى أكرم خلقه عليه بمخاطبة رئيس القبط بالخطاب اللين، فمخاطبة الرؤساء بالقول اللين أمر مطلوب شرعًا وعقلًا وعرفًا؛ ولذلك تجد الناس كالمفطورين عليه، وهكذا كان النبي ﷺ يخاطب رؤساء العشائر والقبائل. وتأمل امتثال موسى لما أمر به كيف قال لفرعون: ﴿ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ [النازعات: ١٨، ١٩] فأخرج الكلام معه مخرج السؤال والعرض لا مخرج الأمر، وقال: ﴿ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾، ولم يقل: إلى أن أزكيك. فنسب الفعل إليه هو، وذكر لفظ التزكي دون غيره لما فيه من البركة والخير والنماء، ثم قال: ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أكون كالدليل بين يديك، الذي يسير أمامك، وقال: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ استدعاء لإيمانه بربه الذي خلقه ورزقه ورباه بنعمه صغيرًا ويافعًا وكبيرًا، وكذلك قول إبراهيم الخليل لأبيه: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٤٢]

---

(١) ١٣٢ البدائع جـ٣.

فابتدأ خطابه بذكر أبوته الدالة علىٰ توقيره ولم يسمه باسمه، ثم أخرج الكلام معه مخرج السؤال، فقال: ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾، ولم يقل لا تعبد. ثم قال: ﴿ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ [مريم: ٤٣] فلم يقل له: إنك جاهل لا علم عندك، بل عدل عن هذه العبارة إلىٰ ألطف عبارة تدل علىٰ هذا المعنىٰ، فقال: ﴿ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾، ثم قال: ﴿ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾ [مريم: ٤٣]. وهذا مثل قول موسىٰ لفرعون: ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ ثم قال: ﴿ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤٥] فنسب الخوف إلىٰ نفسه دون أبيه، كما يفعل الشفيق الخائف علىٰ من يشفق عليه، وقال: ﴿ يَمَسَّكَ ﴾ فذكر لفظ المس الذي هو ألطف من غيره، ثم نكر العذاب، ثم ذكر الرحمن ولم يقل الجبار ولا القهار. فأي خطاب ألطف وألين من هذا.

ونظير هذا خطاب صاحب يس لقومه، حيث قال: ﴿ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٢٠-٢٢] ونظير ذلك قول نوح لقومه: ﴿ يَـٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [نوح: ٢-٤].

وكذلك سائر خطاب الأنبياء لأمتهم في القرآن إذا تأملته وجدته ألين خطاب وألطفه، بل خطاب الله لعباده وألطف خطاب وألينه، كقوله تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١] الآيات. وقوله تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ﴾ [الحج: ٧٣]. وقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ ﴾ [فاطر: ٥]. وتأمل ما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف: ٥٠].

من اللطف الذي سلب العقول. وقوله تعالى: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝ ﴾ [الزخرف: ٥]. على أحد التأويلين أي: نترككم فلا ننصحكم ولا ندعوكم، ونعرض عنكم إذا أعرضتم أنتم وأسرفتم. وتأمل لطف خطاب نُذر الجن لقومهم، وقولهم: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ ﴾ [الأحقاف: ٣١].

***

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۝ ﴾.

...[١]أما لسان الصدق: فهو الثناء الحسن عليه[٢] من سائر الأمم بالصدق، ليس ثناء بالكذب، كما قال عن إبراهيم وذريته من الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله وسلامه: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ [مريم: ٥٠] والمراد باللسان ههنا: الثناء الحسن. فلما كان الصدق باللسان، وهو محله، أطلق الله سبحانه ألسنة العباد بالثناء على الصادق، جزاءً وفاقًا، وعبر به عنه.

فإن اللسان يراد به ثلاثة معان: هذا. واللغة كقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤]. وقوله: ﴿ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ [الروم: ٢٢]. وقوله: ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣]. ويراد به الجارحة نفسها. كقوله تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝ ﴾ [القيامة: ١٦].

وأما قدم الصدق: ففسر بالجنة، وفسر بمحمد ﷺ. وفسر بالأعمال الصالحة.

وحقيقة «القدم» ما قدموه. وما يقدمون عليه يوم القيامة، وهم قدموا الأعمال والإيمان بمحمد ﷺ، ويُقْدِمون على الجنة التي هي جزاء ذلك.

---

(١) ٢٧٢ المدارج جـ٢.

(٢) الضمير يرجع إلى إبراهيم ﷺ بدعوته في سورة الشعراء (ج).

فمن فسره بها أراد: ما يقدمون عليه، ومن فسره بالأعمال وبالنبي ﷺ: فلأنهم قدموها. وقدموا الإيمان به بين أيديهم. فالثلاثة قدم صدق.

وأما مقعد الصدق: فهو الجنة عند الرب تبارك وتعالى[١].

ووصف ذلك كله بالصدق مستلزم ثبوته واستقراره وأنه حق، ودوامه ونفعه، وكمال عائدته؛ فإنه متصل بالحق سبحانه، كائن به وله، فهو صدق غير كذب، وحق غير باطل، ودائم غير زائل، ونافع غير ضار. وما للباطل ومتعلقاته إليه سبيل ولا مدخل.

ومن علامات الصدق: طمأنينة القلب إليه. ومن علامات الكذب: حصول الريبة، كما في الترمذي مرفوعًا من حديث الحسن بن علي - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: «الصدق طمأنينة، والكذب ريبة»[٢].

[٣]قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم بن معقل بن منبه حدثنا عبد الصمد قال: سمعت وهب بن منبه قال: لما رأى موسى النار انطلق يسير حتى وقف منها قريبًا.. فذكر الحديث إلى أن قال: فنودي من الشجرة فقيل له: يا موسى، فأجاب سريعًا ولا يدري من دعاه، وما كان سرعة جوابه إلا استئناسًا بالأنس، فقال: لبيك مرارًا، إني أسمع صوتك وأحس وجْسَك ولا أرى مكانك. فأين أنت؟ قال: أنا فوقك ومعك وأمامك وأقرب إليك منك، فلما سمع موسى هذا علم أنه لا ينبغي ذلك إلا لربه تبارك وتعالى فأيقن به، فقال: كذلك أنت إلهي أسمع أم كلام رسولك؟ فقال: بل

---

(١) تقدم في سورة الإسراء بحث موسع حول هذا على قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ [الإسراء: ٨٠] الآية (ج).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٥١٨) وأحمد (١/ ٢٠٠) والبزار (٤/ ١٧٥ رقم ١٣٣٦) وأبو يعلى (١٢/ ١٣٢ رقم ٦٧٦٢) والبيهقي في الشعب (٥/ ٥٢ رقم ٥٧٤٧) وفي السنن الكبرى (٥/ ٣٣٥ رقم ١٠٦٠١) والحاكم (٤/ ١١٠ رقم ٧٠٤٦) وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٣) ٢٨٤ الصواعق جـ٢.

أنا الذي أكلمك فادن مني[١]، الحديث قد رواه عبد بن حميد في تفسيره ويعقوب بن سفيان الفسوي.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا أحب الله عبدًا نادى جبرائيل: أن الله قد أحب فلاناً فأحبه»[٢] الحديث والذي تعقله الأمم من النداء إنما هو الصوت المسموع، كما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝﴾ [ق: ٤١][٣].

[٤]مما يظن أنه مجاز وليس بمجاز لفظ النداء الإلهي: وقد تكرر في الكتاب والسنة تكرارًا مطردًا في محاله متنوعًا تنوعًا يمنع حمله على المجاز. فأخبر تعالى أنه نادى الأبوين في الجنة، ونادى كليمه، وأنه ينادي عباده يوم القيامة.

وقد ذكر سبحانه النداء في تسعة مواضع في القرآن أخبر فيها عن ندائه بنفسه. ولا حاجة إلى أن يقيد النداء بالصوت، فإنه بمعناه وحقيقته باتفاق أهل اللغة، فإذا انتفى الصوت انتفى النداء قطعًا، ولهذا جاء إيضاحه في الحديث الصحيح[٥].

***

﴿وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝﴾.

[٦]وذكر جرير عن الأعمش عن شمر بن عطية عن هلال بن يساف قال: كنا جلوسًا إلى كعب والربيع بن خثيم وخالد بن عرعرة في أناس، فجاء ابن عباس فقال:

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (ص٦١) وابن أبي حاتم في تفسيره (٩/ ٢٨٤٣ رقم ١٦١٢٢) وانظر: الدر المنثور (٥/ ٥٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٠٩) ومسلم (رقم ٢٦٣٧) وانظر: عمدة القاري (٢٢/ ١٢١) وشرح النووي (١٦/ ١٨٣-١٨٤).

(٣) تكملة البحث في سورة (ق) حول هذه الآية وغيرها (ج).

(٤) ٢٧٧ الصواعق جـ٢.

(٥) بحث المؤلف فيما يلي بحثًا واسعًا في الموضوع ممتعًا لطالب الحق. فراجعه. (ج).

(٦) الروح ١٣٠.

هذا ابن عم نبيكم قال: فأوسع له فجلس، فقال: يا كعب كل ما في القرآن قد عرفت غير أربعة أشياء فأخبرني عنهن: ما سجين؟ وما عليون؟ وما سدرة المنتهي؟ وما قول الله لإدريس: ﴿وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم: ٥٧].

قال: أما «عليون» فالسماء السابعة فيها أرواح المؤمنين. وأما «سجين» فالأرض السابعة السفلى وأرواح الكفار تحت جند إبليس. وأما قول الله سبحانه لإدريس: ﴿وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ فأوحى الله إليه أني رافع لك كل يوم مثل أعمال بني آدم، وكلم صديقًا له من الملائكة أن يكلم له ملك الموت فيؤخره حتى يزداد عملًا، فحمله بين جناحيه، فعرج به حتى إذا كان في السماء الرابعة، لقيه ملك الموت فكلمه في حاجته، فقال: وأين هو؟ قال: هو ذا بين جناحي. قال: فالعجب أني أمرت أن أقبض روحه في السماء الرابعة. فقبض روحه. وأما «سدرة المنتهى» فإنها سدرة على رؤوس حملة العرش، ينتهي إليها علم الخلائق، ثم ليس لأحد وراءها علم، فلذلك سميت سدرة المنتهى[(١)].

***

﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾.

[(٢)]قد فسر الصحابة والتابعون إضاعتها بتفويت وقتها.

والتحقيق: أن إضاعتها تتناول تركها، وترك وقتها، وترك واجباتها وأركانها.

وأيضًا إن مؤخرها عن وقتها عمدًا متعد لحدود الله كمقدمها عن وقتها، فما بالها

---

(١) خبر إدريس ﷺ أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ٩٦) وقال ابن حجر في فتح الباري (٦/ ٣٧٥): وكون إدريس رفع وهو حي لم يثبت من طريق مرفوعة قوية، ثم ذكر هذا الأثر، ثم قال: وهذا من الإسرائيليات، والله أعلم بصحة ذلك. وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٢٧): وقد روى ابن جرير هاهنا أثرًا غريبًا عجيبًا. وذكره، ثم قال : وهذا من أخبار كعب الأحبار الإسرائيليات، وفي بعضه نكارة.
(٢) ٣٨ الصلاة.

تقبل مع تعدي هذا الحد، ولا تقبل مع تعدي الحد الآخر؟.

قالوا: وأيضًا فنقول لمن قال: إنه يستدركها بالقضاء: أخبرنا عن هذه الصلاة التي تأمر بفعلها، هي التي أمر الله بها، أم هي غيرها؟

فإن قال: هي بعينها، قيل له: فالعامد بتركها حينئذ ليس عاصيًا، لأنه قد فعل ما أمر الله به بعينه، فلا يلحقه الإثم والملامة، وهذا باطل قطعًا.

وإن قال: ليست هي التي أمر الله بها.

قيل له: فهذا من أعظم حججنا عليك إذا سلمت أن هذه غير مأمور بها.

ثم نقول أيضًا: ما تقولون فيمن تعمد تفويتها حتى خرج وقتها ثم صلاها، أطاعة صلاته تلك أم معصية؟

فإن قالوا: صلاته طاعة وهو مطيع بها، خالفوا الإجماع والقرآن والسنن الثابتة.

وإن قالوا: هي معصية، قيل: فكيف يتقرب إلى الله بالمعصية، وكيف تنوب المعصية عن الطاعة؟

فإن قلتم: هو مطيع بفعلها عاصٍ بتأخيرها، وهو أنه إذا تقرب بالفعل الذي هو طاعة لا بالتفويت الذي هو معصية.

قيل لكم: الطاعة هي موافقة الأمر وامتثاله على الوجه الذي أمر به، فأين أمر الله ورسوله ممن تعمد تفويت الصلاة بفعلها بعد خروج وقتها حتى يكون مطيعًا له بذلك؟ فلو ثبت ذلك لكان فاصلًا للنزاع في المسألة.

قالوا: وأيضًا فغير أوقات العبادة لا تقبل تلك العبادة بوجه، كما أن الليل لا يقبل الصيام، وغير أشهر الحج لا يقبل الحج، وغير وقت الجمعة لا تقبل الجمعة، فأي فرق بين من قال: أنا أفطر النهار وأصوم الليل، أو قال: أنا أفطر رمضان في هذا الحر الشديد وأصوم مكانه شهرًا في الربيع؟ أو قال: أنا أؤخر الحج من شهره إلى المحرم، أو قال: أنا أصلي الجمعة بعد العشاء الآخرة، أو أصلي العيدين في وسط الشهر، وبين من قال: أنا أؤخر صلاة النهار إلى الليل وصلاة الليل إلى النهار، فهل يمكن أحدًا قط

أن يفرق بين ذلك؟

قالوا: وقد جعل الله سبحانه للعبادات أمكنه وأزمنة وصفات، فلا ينوب مكان عن المكان الذي جعله الله مكانًا ميقاتًا لها، كعرفة، ومزدلفة، ومنى، ومواضع الجمار، والمبيت، والصفا والمروة، ولا تنوب صفة من صفاتها التي أوجبها الله عليها عن صفة، فكيف ينوب زمان عن زمانها الذي أوجبها الله فيه عنه.

قالوا: وقد دل النص والإجماع على أن من أخر الصلاة عن وقتها عمدًا أنها قد فاتته، كما قال النبي ﷺ: «من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله». وما فات فلا سبيل إلى إدراكه البتة. ولو أمكن أن يدرك لما سمي فائتًا، وهذا مما لا شك فيه لغة وعرفًا، وكذلك هو في الشرع.

[(١)]قوله: هل تحبط الأعمال بترك الصلاة أم لا؟ فقد عرف جوابها مما تقدم، وإنا نفرد هذه المسألة بالكلام عليها بخصوصيتها، فنقول:

أما تركها بالكلية فإنه لا يقبل معه عمل، كما لا يقبل مع الشرك عمل؛ فإن الصلاة عمود الإسلام - كما صح عن النبي ﷺ - وسائر الشرائع كالأطناب والأوتاد ونحوها، وإذا لم يكن للفسطاط عمود لم ينتفع بشيء من أجزائه، فقبول سائر الأعمال موقوف على قبول الصلاة، فإذا ردت عليه سائر الأعمال. وقد تقدم الدليل على ذلك.

[(٢)]وأما تركها أحيانًا فقد روى البخاري في صحيحه من حديث بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «بكروا بصلاة العصر، فإن من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله»[(٣)].

وقد تكلم قوم في معنى هذا الحديث، فأتوا بما لا حاصل له.

قال المهلب معناه: من تركها مضيعًا لها، متهاونًا بفضل وقتها مع قدرته على

---

(١) ٣١ كتاب الصلاة.

(٢) ٣٢ كتاب الصلاة.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٥٥٣) وقول: بكروا بصلاة العصر، ليس من قول رسول الله ﷺ، بل هو مدرج من قول بريدة بن الحصيب ﷺ.

أدائها، حبط عمله في الصلاة خاصة، أي لا يحصل له أجر المصلي في وقتها، ولا يكون له عمل ترفعه الملائكة. وحاصل هذا القول: إن من تركها فاته أجرها.

ولفظ الحديث ومعناه يأبى ذلك، ولا يفيد حبوط عمل قد ثبت وفعل، وهذا حقيقة الحبوط في اللغة والشرع، ولا يقال لمن فاته ثواب عمل من الأعمال أنه قد حبط عمله، وإنما يقال فاته أجر ذلك العمل. وقالت طائفة: يحبط عمل ذلك اليوم لا جميع عمله، فكأنهم استصعبوا حبوط الأعمال الماضية كلها بترك صلاة واحدة، وتركها عنده ليس بردة تحبط الأعمال، فهذا الذي استشكله هؤلاء هو وارد عليهم بعينه في حبوط عمل ذلك اليوم.

والذي يظهر في الحديث ـ والله أعلم بمراد رسوله ـ أن الترك نوعان:

ترك كلي لا يصليها أبدًا فهذا يحبط العمل جميعه.

وترك معين في يوم معين فهذا يحبط عمل ذلك اليوم، فالحبوط العام في مقابلة الترك العام، والحبوط المعين في مقابلة الترك المعين.

فإن قيل: كيف تحبط الأعمال بغير الردة؟

قيل: نعم، قد دل القرآن والسنة والمنقول عن الصحابة أن السيئات تحبط الحسنات، كما أن الحسنات يذهبن السيئات.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢].

وقالت عائشة لأم زيد بن أرقم: أخبري زيدًا أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ إلا أن يتوب ـ لما باع بالعينة ـ [(١)].

---

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (٥/ ٣٣٠ رقم ١٠٥٨٠) والدارقطني (٣/ ٥٢ رقم ٢١١) وعبدالرزاق (٨/ ١٨٥ رقم ١٤٨١٣) وانظر: الأم (٣/ ٣٨، ٧٨) والاستذكار (٦/ ٢٧١-٢٧٢) والمحلى (٩/ ٤٧-٤٩) والمدونة الكبرى (٩/ ١١٨-١١٩) وشرح الزرقاني (٣/ ٣٢٦).

وقد نص الإمام أحمد على هذا فقال: ينبغي للعبد في هذا الزمان أن يستدين ويتزوج لئلا ينظر [إلى] ما لا يحل فيحبط عمله. وآيات الموازنة في القرآن تدل على هذا، فكما أن السيئة تذهب بالحسنة أكبر منها، فالحسنة يحبط أجرها بسيئة أكبر منها.

فإن قيل: فأي فائدة في تخصيص صلاة العصر بكونها محبطة دون غيرها من الصلوات؟

قيل: الحديث لم ينف الحبوط بغير العصر إلا بمفهوم لقب، وهو مفهوم ضعيف جدًّا. وتخصيص العصر بالذكر لشرفها من بين الصلوات، ولهذا كانت هي الصلاة الوسطى بنص رسول الله ﷺ الصحيح الصريح، ولهذا خصها بالذكر في الحديث الآخر، وهو قوله: «الذي تفوته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله». أي فكأنما سلب أهله وماله فأصبح بلا أهل ولا مال، وهذا تمثيل لحبوط عمله بتركها، كأنه شبه أعماله الصالحة - بانتفاعه وتمتعه بها - بمنزلة أهله وماله، فإذا ترك صلاة العصر فهو كمن له أهل ومال فخرج من بيته لحاجة وفيه أهله وماله فرجع وقد اجتيح الأهل والمال، فبقي وترًا دونهم، وموتورًا بفقدهم، فلو بقيت عليه أعماله الصالحة لم يكن التمثيل مطابقًا. والحبوط نوعان: عام وخاص.

فالعام: حبوط الحسنات كلها بالردة، والسيئات كلها بالتوبة.

والخاص: حبوط السيئات والحسنات بضعها ببعض، وهذا حبوط مقيد جزئي، وقد تقدم دلالة القرآن والسنة والآثار وأقوال الأئمة عليه.

ولما كان الكفر والإيمان كل منهما يبطل الآخر ويذهبه كانت شعبة كل واحد منهما لها تأثير في إذهاب بعض شعب الآخر، فإن عظمت الشعبة ذهب في مقابلتها شعب كثيرة. وتأمل قول أم المؤمنين في مستحل العينة: إنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ، كيف قويت هذه الشعبة التي آذن الله فاعلها بحربه وحرب رسوله على إبطال محاربة الكفار، فأبطل الحراب المكروه الحراب المحبوب، كما تبطل محاربة أعدائه التي يحبها، محاربته التي يبغضها. والله المستعان.

[(١)]قوله سبحانه: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝ ﴾ [مريم: ٥٩].

قال شعبة بن الحجاج: حدثنا أبو إسحاق عن أبي عبيدة عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ في هذه الآية قال: هو نهر في جهنم خبيث الطعم بعيد القعر[(٢)].

قال محمد بن نصر: حدثنا عبدالله بن سعد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن زياد بن زبار، حدثني شرقي بن القطامي قال: حدثني لقمان بن عامر الخزاعي. قال: جئت أبا أمامه الباهلي. فقلت: حدثني حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ فقال: سمعت من رسول الله ﷺ يقول: «**لو أن صخرة قذف بها من شفير جهنم ما بلغت سبعين خريفًا ثم تنتهي إلى غي وأثام**» قلت: وما غي وأثام؟ قال: «**بئران في أسفل جهنم يسيل فيهما صديد أهل جهنم**»[(٣)] فهذا الذي ذكره الله في كتابه: ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ و﴿ أَثَامًا ﴾

قال محمد بن نصر، حدثنا الحسن بن عيسى، حدثنا عبدالله بن المبارك، أخبرنا هشيم ابن بشير قال: أخبرني زكريا بن أبي مريم الخزاعي، قال: سمعت أبا أمامة الباهلي يقول: إن ما بين شفير جهنم إلى قعرها مسيرة خمسين خريفًا من حجر يهوى ـ أو قال صخرة تهوى ـ عظمها كعشرة عشراوات عظام سمان. فقال مولى لعبد الرحمن بن خالد بن الوليد: هل تحت ذلك من شيء يا أبا أمامة؟ قال: نعم، غي وأثام[(٤)].

---

(١) ١٧ الصلاة.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ١٠٠) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ١٩٩ رقم ٣٥) وانظر: التخويف من النار (ص ٨٦).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ١٠٠) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ١١٩-١٢٠ رقم ٣٦) والطبراني في الكبير (٨/ ١٧٥ رقم ٧٧٣١) وفي مسند الشاميين (٢/ ٤٠٥ رقم ١٥٨٩) وقال المنذري في الترغيب (٤/ ٢٥٥ رقم ٥٥٦٩): رواه الطبراني والبيهقي مرفوعًا، ورواه غيرهما موقوفًا على أبي أمامة وهو أصح. وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٨٩)ك رواه الطبراني وفيه ضعفاء قد وثقهم ابن حبان، وقال: يخطئون.

(٤) أخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ١٢١ رقم ٣٧) وانظر: لسان الميزان (٢/ ٤٨٢) وميزان =

وقال أيوب بن بشير عن شفي بن ماتع قال: إن في جهنم واديًا يسمى غيًّا، يسيل دمًا وقيحًا فهو لمن خلق له، قال تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾[1]. فوجه الدلالة من الآية أن الله سبحانه جعل هذا المكان من النار لمن أضاع الصلاة واتبع الشهوات، ولو كان مع عصاة المسلمين لكانوا في الطبقة العليا من طبقات النار، ولم يكونوا في هذا المكان الذي هو أسفلها؛ فإن هذا ليس من أمكنة أهل الإسلام بل من أمكنه الكفار. ومن الآية دليل آخر وهو قوله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ [مريم: ٥٩، ٦٠] فلو كان مضيع الصلاة مؤمنًا لم يشترط في توبته الإيمان وأنه يكون تحصيلًا للحاصل.

***

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۝ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝ ﴾.

[2]هذا الرب الذي له هذا الجند العظيم ولا يتنزلون إلا بأمره، وهو المالك ما بين أيديهم وما خلفهم وما بين ذلك، وهو الذي كملت قدرته وسلطانه وملكه، وكمل علمه. فلا ينسى شيئًا أبدًا، وهو القائم بتدبير السماوات والأرض وما بينهما كما هو الخالق لذلك كله؛ وهو ربه ومليكه، فهذا الرب هو الذي لا سمي له لتفرده بكمال هذه الصفات والأفعال، فأما من لا صفة له ولا فعل ولا حقائق لأسمائه، إن هي إلا ألفاظ فارغة من المعاني فالعدم سمي له...

الاعتدال في نقد الرجال (٣/ ١١٠) وقال الحافظ ابن رجب في التخويف من النار (ص ٥٤) بعد أن ذكره: وقد روي هذا بإسناد فيه ضعف... والموقوف أصح.

(١) أخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ١٢٢ رقم ٣٨) وانظر: الدر المنثور (٥/ ٥٢٨).

(٢) ٢١٢ الصواعق جـ١.

(١) وقال تعالى: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥] قال ابن عباس: «شبهًا ومثلًا، وهو من يساميه»(٢).

وذلك نفي عن المخلوق أن يكون مشابهًا للخالق، ومماثلًا له، بحيث يستحق العبادة والتعظيم، ولم يقل سبحانه: هل تعلمه سميًا، أو مشبهًا لغيره، فإن هذا لم يقله أحد. بل المشركون المشبهون جعلوا بعض المخلوقات مشابهًا له، مساميًا، وندًّا وعدلا، فأنكر عليهم هذا التشبيه والتمثيل.

وكذلك قوله: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [النحل: ٧٣ - ٧٤].

فنهاهم أن يضربوا له مثلًا من خلقه، ولم ينههم أن يضربوه هو مثلًا لخلقه، فإنّ هذا لم يقله أحد، ولم يكونوا يفعلونه؛ فإن الله سبحانه أجلُّ وأعظم وأكبر من كل شيء في فطر الناس كلهم. ولكن المشبهون المشركون يغلون فيمن يعظمونه، فيشبهونهم بالخالق، والله تعالى أجل في صدور جميع الخلق من أن يجعلوا غيره أصلًا، ثم يشبهونه سبحانه بغيره.

فالذي يشبهه بغيره، إن قصد تعظيمه، لم يكن في هذا تعظيم، لأنه مثَّل أعظم العظماء بما هو دونه، بل بما ليس بينه وبينه نسبة وشبه في العظمة والجلالة، وعاقل لا يفعل هذا. وإن قصد التنقيص شبهه بالناقصين المذمومين، لا بالكاملين الممدوحين.

ومن هنا يعلم أن إثبات صفات الكمال له لا يتضمن التشبيه والتمثيل، لا بالكاملين ولا بالناقصين، وأن نفي تلك الصفات يستلزم تشبيهه بأنقص الناقصين.

فانظر إلى الجهمية وأتباعهم، جاءوا إلى التشبيه المذموم فأعرضوا عنه صفحًا،،

---

(١) ٢٣٠ الإغاثة جـ٢.

(٢) أخرجه بنحوه الطبري في تفسيره (١٦/ ١٠٦) والبيهقي في الشعب (١/ ١٤٣ رقم ١٢٢) وفي الاعتقاد (ص ٤٥) وانظر: فتح الباري (٦/ ٤٦٨) (١٣/ ٣٥٦).

وجاءوا إلىٰ الكمال والمدح فجعلوه تشبيهًا وتمثيلًا، عكس ما يثبته القرآن، وجاء به من كل وجه.

ومن هذا قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ٤]، هو سلب عن المخلوق مكافأته ومماثلته للخالق سبحانه، ولم يقل: ولم يكن هو كفوًا لأحد، فينفي عن نفسه مشابهته للمخلوق ومكافأته له، إذ كان ذلك أبين وأظهر من أن يحتاج إلىٰ نفيه.

وسر ذلك: أن المقصود أن المخلوق لا يماثله سبحانه في شيء من صفاته وخصائصه. وأما كونه سبحانه هو لا يماثل المخلوق، ولا يشابهه، ولا هو ندٌّ له ولا كفو، فليس فيه مدح له.

فإنه لو مدح بعض الملوك أو غيرهم بأنه لا يشبه الحيوانات، ولا الحجارة، ولا الخشب، ونحو ذلك، لم يعد هذا مدحًا، ولا ثناء عليه، ولا كمالًا له بخلاف ما إذا قيل: لا تجعل للملك ندًّا ولا كفوًا، ولا شبيهًا من رعيته، تعظمه كتعظيمه، وتطيعه كطاعته، فإنه ليس في رعيته من يساميه. ولا يماثله، ولا يكافئه: كان هذا غاية المدح.

***

﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ [مريم: ٦٩].

[1]الشيعة الفرقة التي شايع بعضها بعضًا أي تابعه، ومنه الأشياع أي الأتباع. فالفرق بين الشيعة والأشياع أن الأشياع هم التبع، والشيعة القوم الذين شايعوا أي تبع بعضهم بعضًا، وغالب ما يستعمل في الذم، ولعله لم يرد في القرآن إلا كذلك، كهذه الآية وكقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا ﴾ [الأنعام: ١٥٩]. وقوله: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾ [سبأ: ٥٤]. وذلك والله أعلم لما في لفظ الشيعة من الشياع والإشاعة التي هي ضد الائتلاف والاجتماع، ولهذا لا يطلق لفظ الشيع إلا علىٰ فرق

---

(١) ١٥٥ البدائع جـ١.

الضلال لتفرقهم واختلافهم. والمعنى لننزعن من كل فرقة أشدهم عتوا على الله وأعظمهم فسادًا، فنلقيهم في النار.

وفيه إشارة إلى أن العذاب يتوجه إلى السادات أولا، ثم تكون الأتباع تبعا لهم فيه، كما كانوا تبعا لهم في الدنيا.

***

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾.

[(١)] قال أبو هريرة وقد عاد مريضًا، فقال له: إن رسول الله ﷺ، قال: «إن الله ﷻ يقول: هي ناري أسلطها على عبدي المؤمن في الدنيا، لتكون حظه من النار في الآخرة»[(٢)].

وقال مجاهد: الحمى حظ كل مؤمن من النار، ثم قرأ: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾[(٣)] [مريم: ٧١]، وهذا لم يرد به مجاهد تفسير الورود الذي في القرآن، فإن السياق يأبى حمله على الحمى قطعًا، وإنما مراده أن الله سبحانه وعد عباده كلهم بورود النار، فالحمى للمؤمن تكفر خطاياه، فيسهل عليه الورود يوم القيامة،

---

(١) ٩٢ عدة الصابرين.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ١١١) والترمذي (رقم ٢٠٨٨) والبيهقي في الكبرى (٣/ ٣٨١ رقم ٦٣٨٣) وابن ماجه (رقم ٣٤٧٠) والحاكم (١/ ٤٩٦ رقم ١٢٧٧) وهناد في الزهد (١/ ٢٣٣ رقم ٣٩١) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٥٤١) وابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (رقم ١٩) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الكتاني في مصباح الزجاجة (٤/ ٦١): هذا إسناد صحيح رجاله موثقون.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ١١١) والبيهقي في الكبرى (٧/ ١٦١ رقم ٩٨٤٥) وابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (رقم ٢٠) وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٣٤).

ويروى مرفوعًا عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ دون ذكر الآية، أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١/ ٧١ رقم ٦٢)، وذكره المنذري في الترغيب مرفوعاً عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ (٤/ ١٥٤ رقم ٥٢٢٧) وقال: رواه البزار بإسناد حسن، وحسّن إسناده أيضاً الهيثمي في المجمع (٢/ ٣٠٦).

فينجو منها سريعًا، والله أعلم.

ويدل عليه حديث أبي ريحانة عن النبي ﷺ: «**الحمى كير من كير جهنم، وهي نصيب المؤمن من النار**»[(١)].

***

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾.

[(٢)]لما قال: «**لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة**» قالت له حفصة: أليس الله تعالى يقول: ﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾؟ قال: «**أو لم تسمعي قوله: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾**[(٣)] [مريم: ٧٢]»؟ فأشكل عليها الجمع بين النصين، وظنت الورود هو دخولها، كما يقال: ورد المدينة إذا دخلها. فأجابها النبي ﷺ بأن ورود المتقين غير ورود الظالمين، فإن المتقين يردونها ورودًا ينجون به من عذابها، والظالمين يردونها ورودًا يصيرون جثيًّا فيها به.

وقال له عمر: ألم تكن تحدثنا أنا نأتي البيت ونطوف به؟ فقال: «**هل قلت إنك تدخله العام؟**» قال: لا. قال: «**فإنك آتيه ومطوف به**»[(٤)] فأشكل على عمر رجوعهم عام الحديبية ولم يدخلوا المسجد الحرام ولا طافوا بالبيت، فبين لهم أن اللفظ مطلق لا دليل فيه على ذلك العام بعينه، فتنزيله على ذلك العام غلط، فرجع عمر وعلم أنه قد غلط في فهمه.

[(٥)]وذكر عنه أيضًا: «**حرس ليلة في سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلها، ويصام**

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (رقم ٢١) وابن عبد البر في التمهيد (٦/ ٣٦٠) وابن عساكر في تاريخه (٢٣/ ١٩٨).

(٢) ٢١٩ الصواعق جـ١.

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٤٩٦) وانظر: شرح النووي (١٦/ ٥٨).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢) وانظر: عمدة القاري (١٤/ ٥).

(٥) ١٥٩ الزاد جـ٢.

نهارها»[١]. وقال: «حرمت النار على عين دمعت أو بكت من خشية الله، وحرمت النار على عين سهرت في سبيل الله»[٢]، وذكر أحمد عنه: «من حرس من وراء المسلمين في سبيل الله متطوعًا لا بأجرة سلطان: لم ير النار بعينيه، إلا تحلة القسم، فإن الله يقول: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾»[٣]، وقال لرجل حرس المسلمين ليلة في سفرهم من أولها إلى الصباح على ظهر فرسه، لم ينزل إلا لصلاة أو قضاء حاجة: «قد أوجبت، فلا عليك أن لا تعمل بعدها»[٤]. وقال: «من بلغ بسهم في سبيل الله فله درجة في الجنة»[٥].

***

(١) أخرجه أحمد (١/ ٦١) والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٦ رقم ٤٢٣٤) وابن أبي عاصم في الجهاد (٢/ ٤٢٤ رقم ١٥٠) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٢١٥) وابن قانع في معجم الصحابة (٢/ ٢٥٥) والضياء في المختارة (١/ ٤٨٧-٤٨٨ رقم ٣٦١) والحاكم (٢/ ٩١ رقم ٢٤٢٦) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٣٤) وابن أبي عاصم في الجهاد (٢/ ٤١٣ رقم ١٤٤) وفي الآحاد والمثاني (٤/ ٣٠٢ رقم ٢٣٢٦) والحاكم (٢/ ٩٢ رقم ٢٤٣٢) والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٧٣ رقم ٨٨٦٩) والبيهقي في الكبرى (٩/ ١٤٩ رقم ١٨٢٢٦) والدارمي (رقم ٢٤٠٠) وصححه الحاكم وقال المنذري في الترغيب (٢/ ١٦٠): رواه أحمد واللفظ له ورواته ثقات.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٧) وأبو يعلى في المفاريد (رقم ٨) والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٨٥ رقم ٤٠٢) وقال المنذري في الترغيب (٢/ ١٥٨-١٥٩ رقم ١٩١٩): رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني ولا بأس بإسناده في المتابعات. وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ٢٨٧): رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني وفي أحد إسنادي أحمد ابن لهيعة وهو أحسن حالًا من رشدين.

(٤) أخرجه أبو داود (رقم ٢٥٠١) والبيهقي في الكبرى (٩/ ١٤٩ رقم ١٨٢٢٤) وأبو عوانة (٤/ ٥٠٠-٥٠١ رقم ٧٤٨١) والحاكم (٢/ ٩٣ رقم ٢٤٣٣) والطبراني في الأوسط (١/ ١٢٩-١٣٠ رقم ٤٠٧) وصححه العراقي في أماليه (ص ١٠١).

(٥) أخرجه ابن حبان (١٠/ ٤٧٥-٤٧٦ رقم ٤٦١٥) وفي موارد الظمآن (رقم ١٦٤٥) وأبو داود (رقم ٢٩٦٥) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٧٢ رقم ٢١١٠٠) والنسائي (رقم ٣١٤٣) وأحمد (٤/ ١١٣) والحاكم (٢/ ١٣٢ رقم ٢٥٦٠) والطيالسي (رقم ١١٥٤) والفاكهي في أخبار مكة (٣/ ١٩٢ رقم ١٩٦٠) وصححه الحاكم.

﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾.

[(١)]أعظم الناس خذلانًا من تعلق بغير الله؛ فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه أعظم مما حصل له ممن تعلق به، وهو معرض للزوال والفوات. ومثل المتعلق بغير الله: كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت، أوهن البيوت.

وبالجملة فأساس الشرك وقاعدته التي بنى عليها: التعلق بغير الله، ولصاحبه الذم والخذلان، كما قال تعالى: ﴿ لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومًا مَّخۡذُولًا ﴾ [الإسراء: ٢٢]. ﴿ مَذۡمُومًا ﴾ لا حامد لك، ﴿ مَّخۡذُولًا ﴾ لا ناصر لك، إذ قد يكون بعض الناس مقهورًا محمودًا كالذي قهر بباطل، وقد يكون مذمومًا منصورًا، كالذي قهر وتسلط عليه بباطل، وقد يكون محمودًا منصورًا كالذي تمكن وملك بحق. والمشرك المتعلق بغير الله قسمه أردأ الأقسام الأربعة، لا محمود ولا منصور.

[(٢)]إن اعتماد العبد على المخلوق وتوكله عليه يوجب له الضرر من جهته هو ولابد، عكس ما أمَّله منه، فلابد أن يخذل من الجهة التي قدَّر أن ينصر منها، ويذم من حيث قدر أن يحمد، وهذا أيضًا كما أنه ثابت بالقرآن والسنة فهو معلوم بالاستقراء والتجارب، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]. وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ ﴾ [يس: ٧٤، ٧٥]. أي يغضبون لهم ويحاربون، كما يغضب الجند ويحارب عن أصحابه، وهم لا يستطيعون نصرهم، بل هم كَلٌّ عليهم، وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا

---

(١) ٤٥٧ المدارج جـ١.

(٢) ٤٠ الإغاثة جـ١.

زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ [هود: ١٠١] أي غير تخسير، وقال تعالى. ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٣]. وقال تعالىٰ: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً ﴾ [الإسراء: ٢٢]. فإن المشرك يرجو بشركه النصر تارة، والحمد والثناء تارة؛ فأخبر سبحانه أن مقصوده ينعكس عليه، ويحصل له الخذلان والذم.

والمقصود: أن هذين الوجهين في المخلوق ضدهما في الخالق سبحانه، فصلاح القلب وسعادته وفلاحه في عبادة الله والاستعانة به وهلاكه وشقاؤه وضرره العاجل والآجل في عبادة المخلوق والاستعانة به.

[(١)] يزيد ذلك إيضاحًا أن اعتماده علىٰ المخلوق وتوكله عليه يوجب له الضرر من جهته، فإنهن يخذل من تلك الجهة، وهذا أيضًا معلوم بالاعتبار والاستقراء بغيره إلا خذل، قال تعالىٰ: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]. ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ [يس: ٧٤، ٧٥].

***

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ [مريم: ٨٣، ٨٤].

[(٢)] قال ابن عباس «تُغريهم إغراء»[(٣)] وفي رواية: «تُشليهم إشلاء»[(٤)]، وفي لفظ:

---

(١) ٦١ طريق الهجرتين.

(٢) ١٠٠ الإغاثة.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ١٢٥) وذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٣٧) بلفظ: تغويهم إغواء، بالواو بدل الراء. وورد عن سفيان الثوري كما في الفتح (٨/ ٤٢٧) وعن سعيد بن جبير كما في عمدة القاري (١٩/ ٥٠) وعن الضحاك كما في غريب الحديث للحربي (٣/ ٩٨٤).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ١٢٥) عن ابن زيد. وذكره ابن كثير (٣/ ١٣٧) عن مجاهد، وكذا ابن منظور في اللسان (٥/ ٣٠٨).

«تحرضهم تحريضًا»، وفي آخر: «تزعجهم إلى المعاصي إزعاجًا»[١]، وفي آخر: «توقدهم»[٢] أي تحركهم كما يحرك الماء بالإيقاد تحته، قال الأخفش: «توهجهم»[٣].

وحقيقة ذلك: أن «الأزّ» هو التحريك والتهييج، ومنه يقال لغليان القدر: الأزيز؛ لأن الماء يتحرك عند الغليان. ومنه الحديث: «لجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء»[٤]. قال أبو عبيدة: «الأزيز» الالتهاب والحركة، كالتهاب النار في الحطب، يقال: إزَّ قِدْرَك، أي ألْهِب تحتها بالنار[٥]؛ وأيزت القدر إذا اشتد غليانها، فقد حصل للأزّ معنيان: أحدهما: التحريك، والثاني: الإيقاد والإلهاب، وهما متقاربان، فإنه تحريك خاص بإزعاج وإلهاب.

فهذا من السلطان الذي له على أوليائه وأهل الشرك، ولكن ليس له على ذلك سلطان حجة وبرهان، وإنما استجابوا له بمجرد دعوته إياهم، لما وافقت أهواءهم وأغراضهم، فهم الذين أعانوا على أنفسهم ومكنوا عدوهم من سلطانه عليهم،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب سورة مريم (ص ٩١٤) والطبري في تفسيره (١٦/ ١٢٥) عن قتادة والصنعاني في تفسيره (٣/ ١٢) والطبراني في مسند الشاميين (٤/ ٥-٦ رقم ٢٥٦٧) وانظر: فتح الباري (٨/ ٤٢٧).

(٢) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٥٣٨) إلى ابن الأنباري في الوقف عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله: ﴿تؤزهم أزًّا﴾ قال: توقدهم وقودًا.

(٣) ذكره بدر الدين العيني في عمدة القاري (١٩/ ٥٠).

(٤) أخرجه الضياء في المختارة (٩/ ٤٦٢ رقم ٤٣٦) وابن حبان (٣/ ٣٠ رقم ٧٥٣) وأحمد (٤/ ٢٥) والحاكم (١/ ٣٩٦ رقم ٩٧١) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٤٨١ رقم ٧٧٤) والترمذي في الشمائل المحمدية (رقم ٣٢٣) وصححه النووي في رياض الصالحين (ص ١٣٤) وقال ابن حجر في الفتح (٢/ ٢٠٦): وإسناده قوي وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم.

(٥) لسان العرب (٥/ ٣٠٧) وغريب الحديث للحربي (٣/ ٩٨١) وانظر: غريب الحديث لابن سلام (١/ ٢٢٢).

بموافقته ومتابعته فلما أعطوا بأيديهم واستأسروا له سُلِّط عليهم؛ عقوبة لهم. وبهذا يظهر معنى قوله سبحانه: ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾ [النساء: ١٤١]. فالآية على عمومها وظاهرها، وإنما المؤمنون يصدر منهم من المعصية والمخالفة التي تضاد الإيمان ما يصير به للكافرين عليهم سبيل بحسب تلك المخالفة، فهم الذين تَسَبّبوا إلى جعل السبيل عليهم، كما تسبّبوا إليه يوم أحد بمعصية الرسول ومخالفته، والله سبحانه لم يجعل للشيطان على العبد سلطانًا، حتى جعل له العبد سبيلًا إليه بطاعته والشرك به، فجعل الله حينئذ له عليه تسلّطا وقَهْرًا، فمن وجد خيرًا فليحمد الله تعالى، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

فالتوحيد والتوكل والإخلاص يمنع سلطانه، والشرك وفروعه يوجب سلطانه، والجميع بقضاء مَنْ أزِمَّة الأمور بيده، ومَردُّها إليه، وله الحجة البالغة، فلو شاء لجعل الناس أمة واحدة، لكن أبت حكمته وحمده وملكه إلا ذلك. ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الجاثية: ٣٦ - ٣٧].

[(١)] ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣]. فالإرسال ههنا إرسال كوني قدري كإرسال الرياح، وليس بإرسال ديني شرعي، فهو إرسال تسليط. بخلاف قوله في المؤمنين: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجر: ٤٢]. فهذا السلطان المنفي عنه على المؤمنين هو الذي أرسل به جنده على الكافرين.

قال أبو إسحاق: ومعنى الإرسال ههنا التسليط[(٢)]. تقول قد أرسلت فلانا على فلان إذا سلطته عليه، كما قال: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ

(١) ٦٢ شفاء.

(٢) لسان العرب (١١/ ٢٨٥).

ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]. فاعلم أن من اتبعه هو مسلط عليه.

قلت: ويشهد له قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ١٠٠]. وقوله: ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ فالأز في اللغة التحريك والتهييج، ومنه يقال لغليان القدر الأزيز لتحرك الماء عند الغليان، وفي الحديث: «كان لصدر رسول الله ﷺ أزيز كأزيز المرجل من البكاء».

وعبارات السلف تدور على هذا المعنى، قال ابن عباس: تغريهم إغراء.

وفي رواية أخرى عنه: تسلهم سلًّا، وفي رواية أخرى: تحرضهم تحريضًا.

في أخرى: تزعجهم للمعاصي إزعاجًا. وفي أخرى: توقدهم إيقادًا، أي: كما يتحرك الماء بالوقد تحته. قال أبو عبيدة: الأزيز الإلهاب والحركة كالتهاب النار في الحطب، يقال: إز قدرك أي ألهب تحتها النار. وائتزت القدر إذا اشتد غليانها، وهذا اختيار الأخفش. والتحقيق أن اللفظة تجمع المعنيين جميعًا.

قالت القدرية: معنى ﴿ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ خلينا بينهم وبينها ليس معناه التسليط.

قال أبو علي: الإرسال يستعمل بمعنى التخلية بين المرسل وما يريد، فمعنى الآية: خلينا بين الشياطين وبين الكافرين ولم يمنعهم منهم ولم يعذهم، بخلاف المؤمنين الذين قيل فيهم ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ قال الواحدي: وإلى هذا الوجه يذهب القدرية في معنى الآية. قال: وليس المعنى على ما ذهبوا إليه.

وقال أبو إسحاق: والمختار أنهم أرسلوا عليهم وقيضوا لهم بكفرهم، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: ٣٦]. وقال: ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥] وإنما معنى الإرسال التسليط.

قلت: وهذا هو المفهوم من معنى الإرسال، كما في الحديث: «إذا أرسلت كلبك

المعلم»[(١)] أي سلطته، ولو خلى بينه وبين الصيد من غير إرسال منه لم يبح صيده، وكذلك قوله: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴾ [الذاريات: ٤١] أي سلطناها وسخرناها عليهم، وكذلك قوله: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ [الفيل: ٣]. وكذلك قوله: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً ﴾ [القمر: ٣١]. والتخلية بين المرسل وبين ما أرسل عليه من لوازم هذا المعنى، ولا يتم التسليط إلا به، فإذا أرسل الشيء الذي من طبعه وشأنه أن يفعل فعلا ولم تمنعه من فعله، فهذا هو التسليط، ثم إن القدرية تناقضوا في هذا القول فإنهم إن جوزوا منعهم منهم وعصمتهم وإعادتهم فقد نقضوا أصلهم. فإن منع المختار من فعله الاختياري مع سلامة النية وصحة بنيته تدل على أن فعله وتركه مقدور للرب، وهذا عين قول أهل السنة، وإن قالوا: لا يقدر على منعهم وعصمهم منهم وإعادتهم فقد جعلوا قدرتهم ومشيئتهم بفعل ما لا يقدر الرب على المنع منه، وهذا أبطل الباطل.

ثم قالت القدرية: ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ تأمرهم بالمعاصي أمرًا، وحكوا ذلك عن الضحاك، وهذا لا يلتفت إليه؛ إذ لا يقال لمن أمر غيره بشيء قد أزه، ولا تساعد اللغة على ذلك. ولو كان ذلك صحيحًا لكان يؤز المؤمنين أيضًا فإنه يأمرهم بالمعاصي أكثر من أمر الكافرين، فإن الكافر سريع الطاعة والقبول من الشيطان، فلا يحتاج من أمره ما يحتاج إليه من أمر المؤمنين، بل يأمر الكافر مرة ويأمر المؤمن مرات، فلو كان الأز الأمر لم يكن له اختصاص بالكافرين.

[(٢)]وتأمل حكمة القرآن وجلالته كيف أوقع الاستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنه الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس، ولم يقل من شر وسوسته،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٧٥) ومسلم (رقم ١٩٢٩) وانظر: فتح الباري (٩/ ٦١٠) وشرح النووي (١٣/ ٧٣-٧٤).

(٢) ٢٥٧ المدارج جـ٢.

لتعم الاستعاذة شره جميعه، فإن قوله: ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ﴾ [الناس: ٤]، يعم كل شره ووصفه بأعم صفاته وأشدها شرًّا وأقواها تأثيرًا وأعمها فسادًا، وهي الوسوسة التي هي مبادئ الإرادة، فإن القلب يكون فارغًا من الشر والمعصية فيوسوس إليه ويخطر الذنب بباله فيصوره لنفسه، ويمنيه ويشهيه فيصير شهوة، ويزينها له ويحسنها ويخيلها له في خيال تميل نفسه إليه فيصير إرادة، ثم لا يزال يمثل ويخيل، ويمني ويشهي، وينسي علمه بضررها، ويطوي عنه سوء عاقبتها فيحول بينه وبين مطالعته، فلا يرىٰ إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط، وينسى ما وراء ذلك، فتصير الإرادة عزيمة جازمة، فيشتد الحرص عليها من القلب، فيبعث الجنود في الطلب، فيبعث الشيطان معهم مددًا لهم وعونًا، فإن فتروا حركهم، وإن ونوا أزعجهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣]. أي تزعجهم إلىٰ المعاصي إزعاجًا، كلما فتروا أو ونوا أزعجتهم الشياطين وأزتهم وأثارتهم، فلا تزال بالعبد تقوده إلىٰ الذنب وتنظم شمل الاجتماع بألطف حيلة وأتم مكيدة، قد رضي لنفسه بالقيادة لفجرة بني آدم، وهو الذي استكبر وأبىٰ أن يسجد لأبيهم فلا بتلك النخوة والكبر ولا يرضاه أن يصيروا قوادًا لكل من عصىٰ الله، كما قال بعضهم:

عجبت من إبليس في تيهه ... وقبح ما أظهر من نخوته
تاهٍ علىٰ آدم في سجدة ... وصار قوادًا لذريته[1]

فأصل كل معصية وبلاء إنما هو الوسوسة، فلهذا وصفه بها لتكون الاستعاذة من شرها أهم من كل مستعاذ منه، وإلا فشره بغير الوسوسة حاصل أيضًا. فمن شره أنه لص سارق لأموال الناس، فكل طعام أو شراب لم يذكر اسم الله عليه فله فيه حظ

(١) هذان البيتان من بحر السريع وينسبان لأبي نوّاس الحسن بن هاني بن عبد الأول شاعر العراق في عصره، مات ١٩٨هـ، وجاء عجز البيت الأول في ديوانه: وخبث ما أظهر من نيته.
انظر: أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي (ص ٩١) والبيان والتبيين للجاحظ (١/ ٤٤) والتمثيل والمحاضرة لأبي منصور الثعالبي (ص ٤٣٧).

بالسرقة والخطف.

وكذلك يبيت في البيت إذا لم يذكر فيه اسم الله، فيأكل طعام الإنس بغير إذنهم، ويبيت في بيوتهم بغير أمرهم، فيدخل سارقًا ويخرج مغيرًا، ويدل على عوراتهم، فيأمر العبد بالمعصية ثم يلقي في قلوب الناس يقظة ومنامًا أنه فعل كذا وكذا.

ومن هذا أن العبد يفعل الذنب لا يطلع عليه أحد من الناس، فيصبح والناس يتحدثون به، وما ذاك إلا أن الشيطان زينه له وألقاه في قلبه ثم وسوس إلى الناس بما فعل وألقاه إليهم، فأوقعه في الذنب ثم فضحه به، فالرب تعالى يستره والشيطان يجهد في كشف ستره وفضيحته، فيغتر العبد ويقول: هذا ذنب لم يره إلا الله، ولم يشعر بأن عدوه ساع في إذاعته وفضيحته، وقل من يتفطن من الناس لهذه الدقيقة.

[(١)]العبودية نوعان: عامة، وخاصة، فالعبودية العامة: عبودية أهل السماوات والأرض كلهم لله، برِّهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، فهذه عبودية القهر والملك.

قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم: ٨٨-٩٣].

فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم. وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ [الفرقان: ١٧]. فسماهم عباده مع ضلالهم. لكن تسمية مقيدة بالإشارة.

وأما المطلقة: فلم تجيء إلا لأهل النوع الثاني، كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الزمر:م ٤٦]. وقال: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾

---

(١) ١٠٥ المدارج جـ١.

[غافر: ٣١]. وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٨].

فهذا يتناول العبودية الخاصة والعامة.

وأما النوع الثاني: فعبودية الطاعة والمحبة، واتباع الأوامر. قال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨]. وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ٦٣]. وقال تعالى عن إبليس: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠]. فقال تعالى عنهم: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

فالخلق كلهم عبيد ربوبيته. وأهل طاعته وولايته: هم عبيد إلهيته[1].

***

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾.

[2]قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال محمد بن المنكدر لأبي حازم: يا أبا حازم ما أكثر من يلقاني فيدعو لي بالخير ما أعرفهم وما صنعت إليهم خيرًا قط؟ فقال أبو حازم: لا تظن أن ذلك من قبلك، ولكن انظر إلى الذي ذلك من قبله فاشكره. وقرأ أبو عبد الرحمن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾[3] [مريم: ٩٦].

[4]وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إنَّ الله يحب فلانا فأحبوه. فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في

---

(١) تقدم البحث كاملًا في سورة الفاتحة (ج).

(٢) ١٣٨ عدة الصابرين.

(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣/ ٢٣٣) وابن عساكر في تاريخه (٥٦/ ٦٢) وعند أبي نعيم: لا تظن أن ذلك من عملك.

(٤) ٤٣٨ الروضة.

الأرض»[١]، وفي لفظ لمسلم: «إن الله إذا أحب عبدًا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانًا فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانًا فأحبوه. فيحبه أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبدًا دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلانًا فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في السماء: إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه. ثم يوضع له البغضاء في الأرض»[٢]. وفي لفظ آخر لمسلم عن سهيل بن أبي صالح قال: كنا بعرفة فمر عمر بن عبدالعزيز وهو على الموسم، فقام الناس ينظرون إليه فقلت لأبي: يا أبتِ إني أرى الله يحب عمر بن عبدالعزيز قال: وما ذاك؟ قلت: لما له من الحب في قلوب الناس. فقال: إني سمعت أبا هريرة ﷺ يحدث عن رسول الله ﷺ[٣] ثم ذكر الحديث. وأخرجه الترمذي ثم زاد في آخره: فذلك قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾ ﴾[٤] انتهى، وقال بعض السلف في تفسيرها: يحبهم ويحببهم إلى عباده[٥].

[٦]وجميع المعاصي يجتمع فيها هذان الوصفان، وهما العداوة والبغضاء، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة، فإن التحاب والتآلف إنما هو بالإيمان والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴾ أي يلقي بينهم المحبة، فيحب بعضهم بعضًا، فيتراحمون، ويتعاطفون بما جعل الله

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٠٩) ومسلم (رقم ٢٦٣٧) وانظر: شرح النووي (١٦/ ١٨٣-١٨٤).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٣٧) وانظر: عمدة القاري (١٥/ ١٣٢) وشرح الزرقاني (٤/ ٤٤٥).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٣٧) والبيهقي في الزهد الكبير (٢/ ٣٠٠ رقم ٨٠١) وانظر: شرح الزرقاني (٤/ ٤٤٥) وسير أعلام النبلاء (٥/ ١١٩، ١٤٦) وتاريخ دمشق (٤٥/ ١٤٥).

(٤) أخرجه الترمذي (رقم ٣١٦١).

(٥) أخرجه الطبري عن ابن عباس (١٦/ ١٣٣) وابن أبي شيبة (٧/ ١٣٧ رقم ٣٤٧٨٧) وهناد في الزهد (١/ ٢٧٣ رقم ٤٧٨) والبيهقي في الزهد الكبير (٢/ ٣٠٤ رقم ٨١١) وابن أبي الدنيا في الأولياء (رقم ٣٢) وانظر: التمهيد (٢١/ ٢٣٩) وشرح الزرقاني (٤/ ٤٤٥).

(٦) ١٥٤ الإغاثة جـ٢.

لبعضهم في قلوب بعض من المحبة.

وقال ابن عباس: «يحبهم ويحببهم إلى عباده».

قال هرم بن حيَّان: «ما أقبل عبدٌ بقلبه إلى الله ﷻ إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم»[1].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة مريم

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ١٣٣) والبيهقي في الزهد الكبير (٢/ ٢٩٩-٣٠٠ رقم ٧٩٩) وانظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٩) والتمهيد (٢١/ ٢٤٠) وتفسير ابن كثير (٣/ ١٤١).



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾.

[1]قالوا: والأوقات ثلاثة أنواع:

وقت للقادر المستيقظ الذاكر غير المعذور، فهي خمسة:

ووقت للذاكر المستيقظ المعذور، وهي ثلاثة. فإن في حقه: وقت الظهر والعصر واحد. ووقت المغرب والعشاء واحد.

ووقت الفجر واحد. فالأوقات في حق هذا ثلاثة. وإذا أخر الظهر إلى أن فعلها في وقت العصر فإنما صلاها في وقتها.

ووقت في حق غير المكلف بنوم أو نسيان. فهو غير محدود البتة، بل الوقت في حقه عند يقظته وذكره. لا وقت له إلا ذلك.

هذا الذي دلت عليه نصوص الشرع وقواعده، وهذا المفرط المضيع خارج عن هذه الأقسام. وهو قسم رابع فبأيها تلحقونه؟

قالوا: وقد شرع الله سبحانه قضاء رمضان لمن أفطره لعذر، من حيض أو سفر أو مرض، ولم يشرعه قط لمن أفطره متعمدًا من غير عذر، لا بنص ولا بإيماء ولا تنبيه، ولا تقتضيه قواعده. وإنما غاية ما معكم: قياسه على المعذور مع اطراد قواعد الشرع على التفريق بينهما، بل قد أخبر الشارع: أن صيام الدهر لا يقضيه عن يوم يفطره بلا عذر، فضلًا عن يوم مثله.

قالوا: وأما قولكم: «إنه كان يجب عليه أمران: العبادة، وإيقاعها في وقتها، فإذا ترك أحدهما بقي عليه الآخر» فهذا إنما ينفع فيما إذا لم يكن أحد الأمرين مرتبطًا بالآخر

---

(١) ٣٨٠ مدارج جـ١.

ارتباط الشرطية، كمن أمر بالحج والزكاة، فترك أحدهما: لم يسقط عنه الآخر. أما إذا كان أحدهما شرطًا في الآخر، وقد تعذر الإتيان بالشرط الذي لم يؤمر بالمشروط إلا به، فكيف يقال: إنه يؤمر بالآخر بدونه، ويصح منه بدون وصفه وشرطه؟ فأين أمر الله بذلك؟ وهل الكلام إلا فيه؟

قالوا: وإن قلنا: إنما يجب القضاء بأمر جديد فلا أمر معكم بالقضاء في محل النزاع وقياسه على مواقع الإجماع: ممتنع كما بيناه.

وإن قلنا: يجب بالأمر الأول، فهذا فيما إذا كان القضاء نافعًا، ومصلحته كمصلحة الأداء، كقضاء المريض والمسافر والحائض للصوم، وقضاء المغمى عليه والنائم والناسي. أما إذا كان القضاء غير مبرئ للذمة، ولا هو معذور بتأخير الواجب عن وقته، فهذا لم يتناوله الأمر الأول ولا أمر ثان. وإنما هو القياس الذي علم افتراق الأصل والفرع فيه في وصف ظاهر التأثير مانع للإلحاق...

...[1]هل تقبل صلاة الليل بالنهار وصلاة النهار بالليل أم لا؟

فهذه المسألة لها صورتان: إحداهما يقبل فيها بالنص والإجماع، وهي ما إذا فاتته صلاة النهار بنوم أو نسيان، فصلاها بالليل وعكسه. كما ثبت في الصحيحين من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «من نسي صلاة أو نام عنها فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها»[2] واللفظ لمسلم.

وروى مسلم عنه أيضا: قال رسول الله ﷺ: «إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها فليصلها إذا ذكرها، فإن الله يقول: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾»[3].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ حين قفل من غزوة خيبر سار ليلة

(١) ٣٣ كتاب الصلاة.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٩٧) ومسلم (رقم ٦٨٤) وانظر: فتح الباري (٢/ ٧١) وشرح النووي (٥/ ١١١، ١٨٣).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٦٨٤) وانظر: فتح الباري (٢/ ٧٢) وعمدة القاري (٥/ ٩٣-٩٤).

حتى إذا أدركه الكرى عرَّس، وقال لبلال: «اكلأ لنا الليل» فصلى بلال ما قدر له، ونام رسول الله ﷺ وأصحابه فلما تقارب الفجر استند بلال إلى راحلته مواجه الفجر، فغلبت بلالًا عيناه وهو مستند إلى راحلته، فلم يستيقظ رسول الله ﷺ ولا بلال ولا أحد من أصحابه حتى ضربتهم الشمس، فكان رسول الله ﷺ أولهم استيقاظًا[(١)]. الحديث[(٢)].

[(٣)]قالوا: وقد قال رسول الله ﷺ: «من ترك صلاة العصر حبط عمله»[(٤)]. وقال: «الذي تفوته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله»[(٥)]. فلو كان يمكنه استدراكها بالليل لم يحبط عمله، ولم يكن موتورًا من أعماله بمنزلة الموتور من أهله وماله.

وقالوا: وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «من أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك العصر»[(٦)]. فكذا من أدرك ركعة من الصبح قبل أن تطلع الشمس فقد أدرك الصبح. ولو كان فعلها بعد المغرب وطلوع الشمس صحيحًا مطلقًا لكان مدركًا سواء أدرك ركعة أو أقل من ركعة أو لم يدرك منها شيئًا؛ فإنه ﷺ لم يرد: إن أدرك ركعة صحت صلاته بلا إثم، إذ لا خلاف بين الأمة أنه لا يحل له تأخيرها إلى أن يضيق وقتها عن كمال فعلها، وإنما أراد بالإدراك الصحة والإجزاء، وعندكم تصح وتجزئ ولو أدرك منها قدر تكبيرة أو لم يدرك منها شيئًا، فلا معنى للحديث عندكم البتة.

قالوا: والله سبحانه قد جعل لكل صلاة وقتًا محدود الأول والآخر، ولم يأذن في فعلها قبل دخول وقتها ولا بعد خروج وقتها، والمفعول قبل الوقت وبعده أمر غير المشروع، فلو كان الوقت ليس شرطًا في صحتها لكان لا فرق في الصحة بين فعلها

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٦٨٠) وانظر: شرح النووي (٥/ ١٨١).

(٢) ساق المؤلف تكملة البحث ثم ذكر الصورة الثانية فيمن ترك الصلاة عمدًا فمن أراده فليراجعه (ج).

(٣) ٣٧ كتاب الصلاة.

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٥٥٣) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٢، ٦٦) وشرح النووي (٥/ ١٢٦).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٥٥٢) ومسلم (رقم ٦٢٦) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٠-٣١) وشرح النووي (٥/ ١٢٥-١٢٦).

(٦) أخرجه البخاري (رقم ٥٧٩) ومسلم (رقم ٦٠٨) وانظر: شرح النووي (٥/ ١٠٥-١١٠).

قبل الوقت وبعده؛ لأن كلا الصلاتين صلاها في غير وقتها، فكيف قبلت من هذا المفرط بالتفويت ولم تقبل من المفرط بالتعجيل؟

قالوا: والصلاة في الوقت واجبة على كل حال. حتى أنه يترك جميع الواجبات والشروط لأجل الوقت. فإذا عجز عن الوضوء أو الاستقبال، أو طهارة الثوب والبدن وستر العورة، أو قراءة الفاتحة، أو القيام، في الوقت وأمكنه أن يصلي بعد الوقت بهذه الأمور فصلاته في الوقت بدونها هي التي شرعها الله وأوجبها، ولم يكن له أن يصلي بعد الوقت مع كمال هذه الشروط والواجبات.

فعلم أن الوقت مقدم عند الله ورسوله على جميع الواجبات، فإذا لم يكن إلا أحد الأمرين وجب أن يصلي في الوقت بدون هذه الشروط والواجبات، ولو كان له سبيل إلى استدراك الصلاة بعد خروج وقتها لكان صلاته بعد الوقت مع كمال الشروط والواجبات خيرًا من صلاته في الوقت بدونها وأحب إلى الله، وهذا باطل بالنص والإجماع.

وقالوا أيضًا: فقد توعد الله سبحانه من فوت الصلاة عن وقتها بوعيد التارك لها. قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [الماعون: ٤، ٥]، وقد فسر أصحاب رسول الله ﷺ السهو عنها بأنه تأخيرها عن وقتها كما ثبت ذلك عن سعد بن أبي وقاص. وفيه حديث مرفوع.

***

﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ۝ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ۝ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ۝ ﴾.

[(١)]أما الفتون فهو مصدر فتنه يفتنه فتونًا، قال الله تعالى: ﴿ وَفَتَنَّـٰكَ فُتُونًا ﴾ [طه: ٤٠]. أي امتحناك واختبرناك. والفتنة يقال على ثلاثة معان:

أحدها: الامتحان والاختبار، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي امتحانك واختبارك.

والثاني: الافتتان نفسه، يقال: هذه فتنة فلان أي افتتانه. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥]. يقال أصابته الفتنة، وفتنته الدنيا، وفتنته المرأة، وأفتنته، قال الأعشى:

لـئن فتنتنـي ولَهِـيَ بـالأمس أفتنـت ... سعيدا فأضحى قد قلـى كـل مـسلم[(٢)]

وأنكر الأصمعي أفتنته.

والثالث: المفتون به نفسه يسمى فتنةً، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن: ١٥].

وأما قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٣]. أي لم تكن عاقبة شركهم إلا أن تبرأوا منه وأنكروه.

وأما قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ ﴾ [الذاريات: ١٣، ١٤]. فقيل: المعنى يحرقون، ومنه فتنت الذهب إذا أدخلته النار لتنظر ما جودته، ودينار مفتون.

قال الخليل: والفتن الإحراق، قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

---

(١) ٤٧ روضة المحبين.

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب لأعشى همدان: عبدالرحمن بن عبدالله بن الحارث الهمداني من شعراء الدولة الأموية، كان أحد الفقهاء القراء، انحاز إلى عبدالرحمن بن الأشعث ضد الحجاج، فلما أسر وجيء به إلى الحجاج فضربت عنقه سنة ٨٣هـ وفي ديوانه: فأمسى بدل فأضحى وذكر البيت أبو الحسن الرامهرمزي في أمثال الحديث (ص ١٦٣) وابن منظور في اللسان (١٣/ ٣١٧-٣١٨).

وورقٌ فتينٌ أي: فضة محرقة، وافتتن الرجل وفتن إذا أصابته فتنة فذهب ماله أو عقله وفتنته المرأة إذا ولهته[١]. وقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَـٰتِنِينَ ۝ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ١٦١-١٦٣] [أي لا تفتنون على عبادته إلا من سبق في علم الله أنه يصلى الجحيم] فذلك الذي يفتن بفتنتكم إياه.

وأما قوله تعالى: ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴾ [القلم: ٥، ٦]. فقيل: الباء زائدة. وقيل: المفتون مصدر، كالمعقول والميسور والمحلوف والمعسور.

والصواب: أن يبصر مضمن معنى يشعر ويعلم، قال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ ﴾ [الأحقاف: ٣٣] فعدى فعل الرؤية بالباء، وفي الحديث: «المؤمن أخو المؤمن، يسعهما الماء والشجر، ويتعاونان على الفتان»[٢] يُروى بفتح الفاء، وهو واحد، وبضمها وهو جمع فاتن، كتاجر وتجار، والمقصود أن الحب موضع الفتون فما فتن من فتن إلا بالمحبة.

...[٣]ومن فوائد هذه المسألة أن نسأل: كيف وردت الآية الأولى ب على والآية الثانية بالباء؟ الجواب: لابد أن نسأل عن المعنى الذي لأجله قال تعالى: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ [طه: ٣٩] بحرف على، وقال تعالى: ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر: ١٤] بالباء و﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [هود: ٣٧] وما الفرق؟

فالفرق أن الآية الأولى وردت في إظهار أمر كان خفيًا، وإبداء ما كان مكتومًا، فإن الأطفال إذ ذاك كانوا يغذون ويصنعون سرًّا، فلما أراد أن يصنع موسى ويغذى ويربى على حال أمن وظهور لا تحت خوف واستسرار، دخلت على في اللفظ تنبيهًا على

(١) انظر: لسان العرب (١٣/ ٣١٧، ٣٢٠).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٣٠٧٠) والبيهقي في الكبرى (٦/ ١٥٠ رقم ١١٦١١) وابن سعد في الطبقات (١/ ٣١٩) وأبو عبيد في الأموال (رقم ٧٣٠) وقوّى سنده الشوكاني في نيل الأوطار (٦/ ٥٩) بينما ضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود وفي ضعيف الجامع (رقم ٥٩٣٢).

(٣) ٥ بدائع جـ٢.

المعنى؛ لأنها تعطي الاستعلاء، والاستعلاء، ظهور وإبداء، فكأنه يقول ﷺ: ولتصنع على أمن لا تحت خوف، وذكر العين لتضمنها معنى الرعاية والكلاءة.

وأما قوله تعالى: ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر: ١٤] ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [هو: ٣٧]. فإنه إنما يريد برعاية منا وحفظ، ولا يريد إبداء شيء ولا إظهاره بعد كتم، فلم يحتج في الكلام إلى معنى على بخلاف ما تقدم هذا كلامه. ولم يتعرض ـ رحمه الله تعالى ـ لوجه الإفراد هناك والجمع هنا، وهو من ألطف معاني الآية.

والفرق بينهما يظهر من الاختصاص الذي خص به موسى في قوله تعالى: ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ [طه: ٤١]. فاقتضى هذا الاختصاص الاختصاص الآخر في قوله: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ [طه: ٣٩] فإن هذه الإضافة إضافة تخصيص.

وأما قوله تعالى: ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ فليس فيه من الاختصاص ما في صنع موسى على عينه ﷺ واصطناعه إياه لنفسه. وما يسنده سبحانه إلى نفسه بصيغة ضمير الجمع قد يريد به ملائكته كقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٨]، وقوله: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ [الكهف: ١٣] ونظائره فتأمله.

[(1)] والاصطناع بمعنى الاصطفاء. قال تعالى لموسى: ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ [طه: ٤١] والاصطناع في الأصل: اتخاذ الصنيعة. وهي الخير تسديه إلى غيرك. قال الشاعر:

وإذا اصطنعت صنيعة فاقصد بها وجه الذي يولي الصنائع أو دع[(2)]

قال ابن عباس: اصطنعتك لوحيي ورسالتي[(3)].

---

(١) ٢٩٦ مدارج جـ٣.

(٢) لم أجده.

(٣) ذكره القرطبي في تفسيره (١١/ ١٩٨) بلفظ: اصطفيتك لوحيي ورسالتي.

وقال الكلبي: اخترتك بالرسالة لنفسي، لكي تحبني وتقوم بأمري.

وقيل: اخترتك بالإحسان إليك لإقامة حجتي، فتكلم عبادي عني.

قال أبو إسحاق: اخترتك بالإحسان إليك لإقامة حجتي، وجعلتك بيني وبين خلقي، حتىٰ صرت في الخطاب والتبليغ عني بالمنزلة التي أكون أنا بها لو خاطبتهم[1].

وقيل: مثل حاله بحال من يراه بعض الملوك ـ لجوامع خصال فيه وخصائص ـ أهلًا لكرامته وتقريبه، فلا يكون أحد أقرب منه منزلة إليه، ولا ألطف محلًّا فيصطنعه بالكرامة والأثرة، ويستخلصه لنفسه، بحيث يسمع به، ويبصر به، ويطلع علىٰ سره.

***

﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾.

...[2]قوله تعالىٰ لكليمه موسىٰ وأخيه هارون ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٣، ٤٤]. فأمر تعالىٰ أن يلينا القولَ لأعظم أعدائه وأشدهم كفرًا وأعتاهم عليه؛ لئلا يكون إغلاظُ القول له ـ مع أنه حقيق به ـ ذريعةً إلىٰ تنفيره وعدم صبره لقيام الحجة، فنهاهما عن الجائز لئلا يترتب عليه ما هو أكره إليه تعالىٰ.

***

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾.

(١) انظر: عمدة القاري (١٩/ ٥٩-٦٠) وتفسير الطبري (١٦/ ١٤٧) وشعب الإيمان (١/ ١٨٧).
(٢) ١٥٠ أعلام جـ٣.

[1]ما الحكمة في تسليم النبي ﷺ على من اتبع الهدىٰ في كتابه إلىٰ هرقل بلفظ النكرة، وتسليم موسىٰ عليهم بلفظ المعرفة؟

فالجواب عنه: أن تسليم النبي ﷺ تسليم ابتدائي، ولهذا صدر به الكتاب حيث قال: من محمد رسول الله إلىٰ هرقل عظيم الروم، سلام علىٰ من اتبع الهدىٰ، ففي تنكيره ما في تنكير سلام من الحكمة وقد تقدم بيانها.

وأما قول موسىٰ: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه: ٤٧] فليس بسلام تحية فإنه لم يبتدئ به فرعون بل هو خبر محض؛ فإن من اتبع الهدىٰ له السلام المطلق دون من خالفه، فإنه قال له: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ۝ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٤٧، ٤٨] أفلا ترىٰ أن هذا ليس بتحية في ابتداء الكلام ولا خاتمته، وإنما وقع متوسطًا بين الكلامين إخبارًا محضًا عن وقوع السلامة وحلولها علىٰ من اتبع الهدىٰ، ففيه استدعاء لفرعون وترغيب له بما جبلت النفوس علىٰ حبه وإيثاره من السلامة، وأنه إن اتبع الهدىٰ الذي جاءه به فهو من أهل السلام. والله تعالىٰ أعلم. وتأمل حسن سياق هذه الجمل، وترتيب هذا الخطاب، ولطف هذا القول اللين الذي سلب القلوب حسنه وحلاوته مع جلالته وعظمته، كيف ابتدأ الخطاب بقوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧] وفي ضمن ذلك إنا لم نأتك لننازعك ملكك، ولا لنشركك فيه، بل نحن عبدان مأموران مرسلان من ربك إليك، وفي إضافة اسم الرب إليه هنا دون إضافته إليهما استدعاء لسمعه وطاعته وقبوله، كما يقول الرسول للرجل من عند مولاه: أنا رسول مولاك إليك وأستاذك، وإن كان أستاذهما معًا، ولكن ينبهه بإضافته إليه علىٰ السمع والطاعة له.

ثم إنهما طلبا منه أن يرسل معهما بني إسرائيل ويخلي بينهم وبينهما ولا يعذبهم،

---

(١) ١٦٩ بدائع جـ٢.

ومن طلب من غيره ترك العدوان والظلم وتعذيب من لا يستحق العذاب فلم يطلب منه شططًا ولم يرهقه من أمره عسرًا، بل طلب منه غاية النصف، ثم أخبره بعد الطلب بثلاث إخبارات:

أحدها: قوله تعالى: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ فقد برئنا من عهدة نسبتك لنا إلى التقول والافتراء بما جئناك به من البرهان والدلالة الواضحة فقد قامت الحجة.

ثم بعد ذلك للمرسل إليه حالتان:

إما أن يسمع ويطيع فيكون من أهل الهدى، والسلام على من اتبع الهدى.

وإما أن يكذب ويتولى، فالعذاب على من كذب وتولى.

فجمعت الآية طلب الإنصاف، وإقامة الحجة، وبيان ما يستحق السامع المطيع، وما يستحقه المكذب المتولي بألطف خطاب وأليق قول وأبلغ ترغيب وترهيب.

***

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ۝ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝﴾.

...الاستطراد أسلوب لطيف جدًّا في القرآن، وهو نوعان:

أحدهما: أن يستطرد من الشيء إلى لازمه، مثل هذا، ومثل قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ثم استطرد من جوابهم إلى قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ

ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف: ٩-١٣]. وهذا ليس من جوابهم ولكن تقرير له، وإقامة الحجة عليهم.

ومثله قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٤٩-٥٢] فهذا جواب موسىٰ.

ثم استطرد سبحانه منه إلىٰ قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ۝ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٣-٥٥] ثم عاد إلىٰ الكلام الذي استطرد منه.

والنوع الثاني: أن يستطرد من الشخص إلىٰ النوع كقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣] إلىٰ آخره فالأول آدم، والثاني بنوه، ومثله قوله: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَـٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ۝ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَـٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ [الأعراف: ١٨٩، ١٩٠]. إلىٰ آخر الآيات، فاستطرد من ذكر المشركين من أولادهما، والله أعلم.

(١) فاعلم أن أنواع الهداية أربعة:

أحدها: الهداية العامة المشتركة بين الخلق المذكورة في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] أي أعطىٰ كل شيء صورته التي لا يشتبه فيها بغيره، وأعطىٰ كل عضو شكله وهيئته، وأعطىٰ كل موجود خلقه المختص به، ثم

(١) ٣٥ بدائع جـ٣.

هداه إلى ما خلقه له من الأعمال، وهذه هداية الحيوان المتحرك بإرادته إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، وهداية الجماد المسخر لما خلق له فله هداية تليق به، كما أن لكل نوع من الحيوان هداية تليق به، وإن اختلفت أنواعها وصورها، وكذلك كل عضو له هداية تليق به، فهدى الرجلين للمشي واليدين للبطش والعمل واللسان للكلام والأذن للاستماع والعين لكشف المرئيات، وكل عضو لما خلق له وهدى الزوجين من كل حيوان إلى الازدواج والتناسل وتربية الولد، وهدى الولد إلى التقام الثدي عند وضعه وطلبه مراتب هدايته سبحانه لا يحصيها إلا هو، فتبارك الله رب العالمين.

وهدى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتًا ومن الشجر ومن الأبنية ثم تسلك سبل ربها مذللة لها لا تستعصي عليها، ثم تأوي إلى بيوتها، وهداها إلى طاعة يعسوبها واتباعه والائتمام به أين توجه بها، ثم هداها إلى بناء البيوت العجيبة الصنعة المحكمة البناء.

ومن تأمل بعض هدايته المبثوثة في العالم شهد له بأنه الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم، وانتقل من معرفة هذه الهداية إلى إثبات النبوة بأيسر نظر وأول وهلة وأحسن طريق وأخصرها وأبعدها من كل شبهة، فإنه لم يهمل هذه الحيوانات سدى ولم يتركها معطلة، بل هداها إلى هذه الهداية، التي تعجز عقول العقلاء عنها: كيف يليق به أن يترك النوع الإنساني - الذي هو خلاصة الوجود، الذي كرَّمه وفضَّله على كثير من خلقه - مهملًا وسدى معطلًا، لا يهديه إلى أقصى كمالاته وأفضل غاياته، بل يتركه معطلا لا يأمره ولا ينهاه ولا يثيبه ولا يعاقبه، وهل هذا إلا مناف لحكمته ونسبته له مما لا يليق بجلاله، ولهذا أنكر ذلك على من زعمه، ونزَّه نفسه عنه، وبيَّن أنه يستحيل نسبة ذلك إليه، وأنه يتعالى عنه، فقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦] فنزَّه نفسه عن هذا الحسبان، فدل على أنه مستقر بطلانه في الفطر السليمة

والعقول المستقيمة.

هذا أحد ما يدل على إثبات المعاد بالعقل، وأنه مما تظاهر عليه العقل والشرع، وكما هو أصح الطريقين في ذلك. ومن فهم هذا فهم سر اقتران قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]، بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧]، وكيف جاء ذلك في معرض جوابهم عن هذا السؤال والإشارة به إلى إثبات النبوة، وأن من لم يهمل أمر كل دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه، بل جعلها أمما وهداها إلى غاياتها ومصالحها وكيف لا يهديكم إلى كمالكم ومصالحكم، فهذه أحد أنواع الهداية وأعمها.

النوع الثاني: هداية البيان والدلالة والتعريف لنجدي الخير والشر وطريقي النجاة والهلاك، وهذه الهداية لا تستلزم الهدى التام، فإنها سبب وشرط لا موجب، ولهذا ينبغي الهدى معها كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] أي بينا لهم وأرشدناهم ودللناهم فلم يهتدوا، ومنها قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

النوع الثالث: هداية التوفيق والإلهام، وهي الهداية المستلزمة للاهتداء، فلا يتخلف عنها، وهي المذكورة في قوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨]، وفي قوله: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]، وفي قول النبي ﷺ: «من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له»[1]، وفي قوله تعالى:

---

(١) أخرجه أبو نعيم في المسند المستخرج على صحيح مسلم (٢/ ٤٥٥ رقم ١٩٥٣) وابن خزيمة (٣/ ١٤٣ رقم ١٧٨٥) والنسائي في الكبرى (١/ ٥٢٩ رقم ١٧٠٩) وأبو داود (رقم ٢١١٨) والبيهقي في الكبرى (٧/ ١٤٦ رقم ١٣٠٦٨) وصححه النووي في شرح صحيح مسلم (٦/ ١٦٠).

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص: ٥٦] فنفى عنه هذه الهداية، وأثبت له هداية الدعوة والبيان في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

النوع الرابع: غاية هذه الهداية، وهي الهداية إلى الجنة والنار إذا سيق أهلهما إليهما، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [يونس: ٩]. وقال أهل الجنة فيها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال تعالى عن أهل النار: ﴿ ۞ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣].

إذا عرف هذا فالهداية المسئولة في قوله: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ إنما تتناول المرتبة الثانية والثالثة خاصة، فهي طلب التعريف والبيان والإرشاد والتوفيق والإلهام.

فإن قيل: كيف يطلب التعريف والبيان، وهو حاصل له، وكذلك الإلهام والتوفيق.

قيل: هذه هي المسألة الثامنة عشرة.

وقد أجاب عنها من أجاب بأن المراد التثبيت ودوام الهداية، ولقد أجاب وما أجاب، وذكر فرعًا لا قوام له بدون أصله، وثمرة لا وجود لها بدون حاملها، ونحن نبين بحمد الله أن الأمر فوق ما أجاب به وأعظم من ذلك بحول الله.

فاعلم أن العبد لا يحصل له الهدى التام المطلوب إلا بعد ستة أمور، وهو محتاج إليها حاجة لا غنى له عنها.

الأمر الأول: معرفته في جميع ما يأتيه ويذره بكونه محبوبًا للرب تعالى مرضيًا له فيؤثره، وكونه مغضوبًا له مسخوطًا عليه فيجتنبه، فإن نقص من هذا العلم والمعرفة شيء نقص من الهداية التامة بحسبه.

الأمر الثاني: أن يكون مريدًا لجميع ما يحب الله منه أن يفعله عازمًا عليه ومريدًا لترك جميع ما نهى الله عازمًا على تركه بعد خطوره بالبال مفصلًا، وعازمًا على تركه من

حيث الجملة مجملًا، فإن نقص من إرادته لذلك شيء نقص من الهدىٰ التام بحسب ما نقص من الإرادة.

الأمر الثالث: أن يكون قائمًا به فعلًا وتركًا، فإن نقص من فعله شيء نقص من هداه بحسبه، فهذه ثلاثة هي أصول في الهداية ويتبعها ثلاثة هي من تمامها وكمالها.

أحدها: أمور هُدِيَ إليها جملة، ولم يهتد إلىٰ تفاصيلها، فهو محتاج إلىٰ هداية التفصيل فيها.

الثاني: أمور هُدِيَ إليها من وجه دون وجه، فهو محتاج إلىٰ تمام الهداية فيها لتكمل له هدايتها.

الثالث: الأمور التي هدي إليها تفصيلًا من جميع وجوهها، فهو محتاج إلىٰ الاستمرار إلىٰ الهداية والدوام عليها، فهذه أصول تتعلق بما يعزم علىٰ فعله وتركه.

ويتعلق بالماضي أمر سابع، وهو أمور وقعت منه علىٰ غير جهة الاستقامة، فهو محتاج إلىٰ تداركها بالتوبة منها، وتبديلها بغيرها، وإذا كان كذلك فإنما يقال: كيف يسأل الهداية وهي موجودة له؟ ثم يجاب عن ذلك بأن المراد التثبيت والدوام عليها إذا كانت هذه المراتب حاصلة له بالفعل، فحينئذ يكون سؤاله الهداية سؤال تثبيت ودوام، فأما إذا كان ما يجهله أضعاف ما يعلمه، وما لا يريده من رشده أكثر مما يريده ولا سبيل له إلىٰ فعله إلا بأن يخلق الله فاعليه فيه فالمسئول هو أصل الهداية علىٰ الدوام تعليمًا وتوفيقًا وخلقًا للإرادة فيه وإقدارًا له وخلقا للفاعلية وتثبيتًا له علىٰ ذلك، فعلم أنه ليس أعظم ضرورة منه إلىٰ سؤال الهداية: أصلها وتفصيلها علمًا وعملًا، والتثبيت عليها، والدوام إلىٰ الممات.

وسر ذلك أن العبد مفتقر إلىٰ الهداية في كل نفس في جميع ما يأتيه ويذره: أصلًا وتفصيلًا وتثبيتًا ومفتقر إلىٰ مزيد العلم بالهدىٰ علىٰ الدوام، فليس له أنفع ولا هو إلىٰ شيء أحوج من سؤال الهداية، فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم، وأن يثبت قلوبنا علىٰ دينه.

...[1]فلنرجع إلى ما ساقنا إلى هذا الموضع وهو الكلام على الهداية العامة، التي هي قرينة الخلق في الدلالة على الرب تبارك وتعالى وأسمائه وصفاته وتوحيده.

قال تعالى إخبارا عن فرعون أنه قال: ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٤٩، ٥٠] قال مجاهد: أعطى كل شيء خلقه لم يعط الإنسان خلق البهائم ولا البهائم خلق الإنسان[2]، وأقوال أكثر المفسرين تدور على هذا المعنى، قال عطية ومقاتل: أعطى كل شيء صورته[3].

وقال الحسن وقتادة: أعطى كل شيء صلاحه[4]، والمعنى أعطاه من الخلق والتصوير ما يصلح به لما خلق له، ثم هداه لما خلق له، وهداه لما يصلحه في معيشته، ومطعمه ومشربه، ومنكحه وتقلبه وتصرفه، هذا هو القول الصحيح الذي عليه جمهور المفسرين، فيكون نظير قوله: ﴿ قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى: ٣].

وقال الكلبي والسدي: أعطى الرجل المرأة، والبعير الناقة، والذكر الأنثى من جنسه[5].

ولفظ السدي: أعطى الذكر الأنثى مثل خلقه، ثم هدى إلى الجماع[6]. وهذا القول اختيار ابن قتيبة والفراء.

قال الفراء: أعطى الذكر من الناس امرأة مثله، والشاة شاة، والثور بقرة، ثم ألهم الذكر كيف يأتيها. قال أبو إسحاق: وهذا التفسير جائز، لأنا نرى الذكر من الحيوان

---

(١) ٧٨ شفاء.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ١٧٢) (٢١/ ٩٤).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ١٧٢) وتفسير السيوطي (٥/ ٥٨٢) وتفسير ابن كثير (٣/ ١٥٦).

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ١٧٢) وتفسير السيوطي (٥/ ٥٨١).

(٥) أخرجه الصنعاني في تفسيره (٣/ ١٧).

(٦) يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٥٨١) وعزاه إلى ابن أبي حاتم.

يأتي الأنثى، ولم ير ذكرا قد أتى أنثى، قبله فألهمه الله ذلك وهداه إليه.

قال: والقول الأول ينتظم هذا المعنى، لأنه إذا هداه لمصلحته، فهذا داخل في المصلحة.

قلت: أرباب هذا القول هضموا الآية معناها، فإن معناها أجل وأعظم مما ذكروه.

وقوله: ﴿ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ ﴾ يأبى هذا التفسير، فإن حمل كل شيء على ذكور الحيوان وإناثه خاصة ممتنع لا وجه له، وكيف يخرج من هذا اللفظ الملائكة والجن، ومن لم يتزوج من بني آدم، ومن لم يسافد من الحيوان، وكيف يسمى الحيوان الذي يأتيه الذكر خلقا له، وأين نظير هذا في القرآن، وهو سبحانه لما أراد التعبير عن هذا المعنى الذي ذكروه ذكره بأدل عبارة عليه وأوضحها فقال: ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴾ [النجم: ٤٥] فحمل قوله: ﴿ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ﴾ على هذا المعنى غير صحيح فتأمله.

وفي الآية قول آخر قاله الضحاك، قال: أعطى كل شيء خلقه: أعطى اليد البطش، والرجل المشي، واللسان النطق، والعين البصر، والأذن السمع.

ومعنى هذا القول أعطى كل عضو من الأعضاء ما خلق له، والخلق على هذا بمعنى المفعول، أي أعطى كل عضو مخلوقه الذي خلقه له، فإن هذه المعاني كلها مخلوقة لله أودعها الأعضاء.

وهذا المعنى وإن كان صحيحا في نفسه لكن معنى الآية أعم، والقول هو الأول، وأنه سبحانه أعطى كل شيء خلقه المختص به، ثم هداه لما خلق له، ولا خالق سواه سبحانه، ولا هادي غيره، فهذا الخلق وهذه الهداية من آيات الربوبية ووحدانيته.

فهذا وجه الاستدلال على عدو الله فرعون، ولهذا لما علم فرعون أن هذه حجة قاطعة لا مطعن فيها بوجه من الوجوه عدل إلى سؤال فاسد عن وارد، فقال: ﴿ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴾[طه: ٥١] أي فما للقرون الأولى لم تقر بهذا الرب ولم تعبده، بل عبدت الأوثان.

والمعنى: لو كان ما تقوله حقًّا لم يخف على القرون الأولى ولم يهملوه، فاحتج عليه بما يشاهده هو وغيره من آثار ربوبية رب العالمين، فعارضه عدو الله بكفر الكافرين به وشرك المشركين، وهذا شأن كل مبطل. ولهذا صار هذا ميزانًا في ورثته يعارضون نصوص الأنبياء بأقوال الزنادقة والملاحدة وأفراخ الفلاسفة والصابئة والسحرة ومبتدعة الأمة وأهل الضلال منهم.

فأجابه موسى عن معارضته بأحسن جواب، فقال: ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾ [طه: ٥٢] أي أعمال تلك القرون وكفرهم وشركهم معلوم لربي قد أحصاه وحفظه وأودعه في كتاب، فيجازيهم عليه يوم القيامة، ولم يودعه في كتاب خشية النسيان والضلال، فإنه سبحانه لا يضل ولا ينسى، وعلى هذا فالكتاب ها هنا كتاب الأعمال، وقال الكلبي: يعني به اللوح المحفوظ. وعلى هذا فهو كتاب القدر السابق.

والمعنى على هذا أنه سبحانه قد علم أعمالهم وكتبها عنده قبل أن يعملوها فيكون هذا من تمام قوله: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ فتأمله.

وهو سبحانه في القرآن كثيرًا ما يجمع بين الخلق والهداية، كقوله في أول سورة أنزلها على رسوله: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١-٥]، وقوله: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [الرحمن: ١-٤]، وقوله: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴾ [البلد: ٨-١١]، وقوله: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٢، ٣]، وقوله: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ [النمل: ٦٠] الآيات ثم قال: ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [النمل: ٦٣] فالخلق إعطاء الوجود العيني الخارجي، والهدى إعطاء الوجود العلمي الذهني، فهذا خلقه، وهذا هداه وتعليمه.

المرتبة الثانية من مراتب الهداية هداية الإرشاد والبيان للمكلفين، وهذه الهداية لا تستلزم حصول التوفيق واتّباع الحق وإن كانت شرطاً فيه أو جزء سبب، وذلك لا يستلزم حصول المشروط والمسبب، بل قد يتخلف عنه المقتضى: إما لعدم كمال السبب أو لوجود مانع، ولهذا قال تعالى: وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧].

وقال: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة: ١١٥].

فهداهم هدي البيان والدلالة فلم يهتدوا، فأضلهم عقوبة لهم على ترك الاهتداء أولا بعد أن عرفوا الهدى، فأعرضوا عنه، فأعماهم عنه بعد أن أراهموه.

وهذا شأنه سبحانه في كل من أنعم عليه بنعمة فكفرها فإنه يسلبه إياها بعد أن كانت نصيبه وحظه، كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٥٣].

وقال تعالى عن قوم فرعون: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤] أي جحدوا بآياتنا بعد أن تيقنوا صحتها، وقال: ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٦]، وهذه الهداية هي التي أثبتها لرسوله، حيث قال: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢].

ونفى عنه ملك الهداية الموجبة وهي هداية التوفيق والإلهام بقوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص: ٥٦].

ولهذا قال ﷺ: «بعثت داعيًا ومبلغًا، وليس إليّ من الهداية شيء، وبعث إبليس

مزينًا ومغويًا، وليس إليه من الضلالة شيء»[1].

قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [يونس: ٢٥] فجمع سبحانه بين الهدايتين العامة والخاصة، فعم بالدعوة حجة مشيئة وعدلًا، وخص بالهداية نعمة مشيئة وفضلًا.

وهذه المرتبة أخص من التي قبلها فإنها هداية تخص المكلفين، وهي حجة الله علىٰ خلقه التي لا يعذب أحدا إلا بعد إقامتها عليه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥] وقال: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقال: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٥٦، ٥٧].

وقال: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ [الملك: ٨، ٩].

فإن قيل: كيف تقوم حجته عليهم وقد منعهم من الهدىٰ وحال بينهم وبينه.

قيل: حجته قائمة عليهم بتخليته بينهم وبين الهدىٰ، وبيان الرسل لهم وإراءتهم الصراط المستقيم حتىٰ كأنهم يشاهدونه عيانا وأقام لهم أسباب الهداية ظاهرا وباطنا، ولم يحل بينهم وبين تلك الأسباب، ومن حال بينه وبينها منهم بزوال عقل أو صغر لا تمييز معه أو كونه بناحية من الأرض لم تبلغه دعوة رسله، فإنه لا يعذبه حتىٰ يقيم عليه حجته، فلم يمنعهم من هذا الهدىٰ، ولم يحل بينهم وبينه.

---

(١) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ١٠٨٢) والديلمي في مسند الفردوس (٢/ ١١-١٢ رقم ٢٠٩٤) وابن عدي في الكامل (٣/ ٣٩) والعقيلي في الضعفاء (٢/ ٨) وأبو الشيخ في تاريخ أصبهان (٤/ ٢٩٣) قال الذهبي في المغني في الضعفاء (١/ ٢٠٤): قال الدارقطني: لا أعلم روىٰ غيرهذا الحديث الباطل، يعني وذكر الحديث، وانظر: ميزان الاعتدال في نقد الرجال (٢/ ٤١٦).

نعم قطع عنهم توفيقه، ولم يرد من نفسه إعانتهم والإقبال بقلوبهم إليه، فلم يحل بينهم وبين ما هو مقدور لهم، وإن حال بينهم وبين ما لا يقدرون عليه وهو فعله ومشيئته وتوفيقه، فهذا غير مقدور لهم، وهو الذي منعوه، وحيل بينهم وبينه.

فتأمل هذا الموضع واعرف قدره والله المستعان.

المرتبة الثالثة من مراتب الهداية: هداية التوفيق والإلهام، وخلق المشيئة المستلزمة للفعل. وهذه المرتبة أخص من التي قبلها، وهي التي ضل جهال القدرية بإنكارها، وصاح عليهم سلف الأمة وأهل السنة منهم من نواحي الأرض عصرا بعد عصر إلى وقتنا هذا، ولكن الجبرية ظلمتهم ولم تنصفهم، كما ظلموا أنفسهم بإنكار الأسباب والقوى، وإنكار فعل العبد وقدرته، وأن يكون له تأثير في الفعل البتة، فلم يهتدوا لقول هؤلاء، بل زادهم ضلالا على ضلالهم وتمسكا بما هم عليه، وهذا شأن المبطل إذا دعا مبطلًا آخر إلى ترك مذهبه، لقوله ومذهبه الباطل: كالنصراني إذا دعا اليهودي إلى التثليث وعبادة الصليب وأن المسيح إله تام غير مخلوق إلى أمثال ذلك من الباطل الذي هو عليه، وهذه المرتبة تستلزم أمرين: أحدهما: فعل الرب تعالى وهو الهدى.

والثاني: فعل العبد وهو الاهتداء، وهو أثر فعله سبحانه، فهو الهادي والعبد المهتدي، قال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ [الإسراء: ٩٧]، ولا سبيل إلى وجود الأثر إلا بمؤثره التام، فإن لم يحصل فعله لم يحصل فعل العبد، ولهذا قال تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧].

وهذا صريح في أن هذا الهدى ليس له ﷺ ولو حرص عليه، ولا إلى أحد غير الله، وأن الله سبحانه إذا أضل عبدًا لم يكن لأحد سبيل إلى هدايته، كما قال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

وقال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى

مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: ١٣].

وقال: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١].

وقال: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقال أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣] ولم يريدوا أن بعض الهدىٰ منه وبعضه منهم، بل الهدىٰ كله منه، ولولا هدايته لهم لما اهتدوا.

وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ﴾ [الزمر: ٣٦، ٣٧].

وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤].

وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

وقال: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

وقال: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة: ١٦].

وأمر سبحانه عباده كلهم أن يسألوه هدايتهم الصراط المستقيم كل يوم وليلة في الصلوات الخمس، وذلك يتضمن الهداية إلى الصراط والهداية فيه.

كما أن الضلال نوعان: ضلال عن الصراط فلا يهتدي إليه، وضلال فيه، فالأول: ضلال عن معرفته. والثاني: ضلال عن تفاصيله أو بعضها.

قال شيخنا: ولما كان العبد في كل حال مفتقرًا إلى هذه الهداية في جميع ما يأتيه ويذره من أمور قد أتاها على غير الهداية، فهو محتاج إلى التوبة منها.

وأمور هدي إلى أصلها دون تفصيلها أو هدي إليها من وجه دون وجه، فهو محتاج إلى تمام الهداية فيها ليزداد هدى.

وأمور هو محتاج إلى أن يحصل له من الهداية فيها في المستقبل مثل ما حصل له في الماضي. وأمور هو خال عن اعتقاد فيها فهو محتاج إلى الهداية.

وأمور لم يفعلها فهو محتاج إلى فعلها على وجه الهداية إلى غير ذلك من أنواع الهدايات فرض الله عليه أن يسأله، هذه الهداية في أفضل أحواله وهي الصلاة مرات متعددة في اليوم والليلة. انتهى كلامه.

[(١)]المرتبة الرابعة من مراتب الهداية: الهداية إلى الجنة والنار يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿۞ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣].

(١) ٨٤ شفاء.

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ [محمد: ٤، ٥]، فهذه هداية بعد قتلهم فقيل: المعنى سيهديهم إلى طريق الجنة، ويصلح حالهم في الآخرة بإرضاء خصومهم وقبول أعمالهم.

وقال ابن عباس: سيهديهم إلى أرشد الأمور، ويعصمهم أيام حياتهم في الدنيا.

واستشكل هذا القول، لأنه أخبر عن المقتولين في سبيله بأنهم[1] سيهديهم. واختاره الزجاج، وقال: يصلح بالهم في المعاش وأحكام الدنيا، قال: وأراد به يجمع لهم خير الدنيا والآخرة. وعلى هذا القول فلابد من حمل قوله: ﴿ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ على معنى يصح معه إثبات الهداية وإصلاح البال.

***

﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ۝ ﴾.

[2]ظاهر الآية: أن الحامل لموسى على العجلة هو طلب رضا ربه، وأن رضاه في المبادرة إلى أوامره، والعجلة إليها، ولهذا احتج السلف بهذه الآية على أن الصلاة في أول الوقت أفضل. سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يذكر ذلك، قال: إن رضا الرب في العجلة إلى أوامره.

***

﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ۝ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۝ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ۝ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ۝ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ۝ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ۝ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن

---

(١) كذا بالأصل ولعله: بأنه (ج).

(٢) ٥٩ مدارج جـ٣.

تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾.

[١]من تلاعبه[٢] بهم: عبادتهم العجل من دون الله تعالى، وقد شاهدوا ما حلَّ بالمشركين من العقوبة والأخذة الرابية، ونبيهم حيٌّ لم يمت.

هذا، وقد شاهدوا صانعه يصنعه ويصوغه، ويصليه النار، ويدقه بالمطرقة، ويسطو عليه بالمبرد، ويقلبه بيديه ظهرًا لبطن.

ومن عجيب أمرهم: أنهم لم يكتفوا بكونه إلههم، حتى جعلوه إله موسى. فنسبوا موسى ﵇ إلى الشرك وعبادة غير الله تعالى، بل عبادة أبلد الحيوانات، وأقلها دفعا على نفسه، بحيث يضرب به المثل في البلادة والذل. فجعلوه إله كليم الرحمن.

ثم لم يكتفوا بذلك حتى جعلوا موسى ﵇ ضالًا مخطئًا، فقالوا: ﴿فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨]. قال ابن عباس: «أي ضل وأخطأ الطريق».

وفي رواية عنه: «أي إن موسى ذهب يطلب ربه فضلَّ، ولم يعلم مكانه»[٣].

وعنه أيضًا: «نسي أن يذكر لكم أن هذا إلهه وإلهكم».

وقال السدي: «أي ترك موسى إلهه هاهنا، وذهب يطلبه»[٤].

وقال قتادة: «أي إن موسى إنما يطلب هذا، ولكنه نسيه وخالفه في طريق آخر».

هذا هو القول المشهور: أن قوله: ﴿فَنَسِيَ﴾ من كلام السامري وعُبَّاد العجل معه.

وعن ابن عباس رواية أخرى «أن هذا من إخبار الله تعالى عن السامري: أنه نسي، أي ترك ما كان عليه من الإيمان».

والصحيح: القول الأول، والسياق يدل عليه، ولم يذكر البخاري في التفسير غيره،

---

(١) ٣٠٠ إغاثة جـ٢.

(٢) أي الشيطان. أعاذنا الله وإياكم منه.

(٣) انظر: الدر المنثور (٣/ ٥٣٥) (٥/ ٥٨٨).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ٢٠١).

فقال: [فنسي موساهم[١]] يقولونه: «أخطأ الرب»[٢].

فإنه لما جعله إله موسى استحضر سؤالًا من بني إسرائيل يوردونه عليه، فيقولون له: إذا كان هذا إله موسى، فلأي شيء ذهب عنه لموعد إلهه؟ فأجاب عن هذا السؤال قبل إيراده عليه بقوله: ﴿ فَنَسِيَ ﴾ .

وهذا من أقبح تلاعب الشيطان بهم.

فانظر إلى هؤلاء، كيف اتخذوا إلهًا مصنوعًا من جوهر أرضي، إنما يكون تحت التراب، محتاجًا إلى سبك بالنار، وتصفية وتخليص لخبثه منه، مدقوقًا بمطارق الحديد، مقلبًا في النار مرة بعد مرة، قد نحت بالمبارد، وأحدث الصانع صورته وشكله على صورة الحيوان المعروف بالبلادة والذل والضيم. وجعلوه إله موسى، ونسبوه إلى الضلال، حيث ذهب يطلب إلها غيره.

قال محمد بن جرير: وكان سبب اتخاذهم العجل ما حدثني به عبد الكريم بن الهيثم قال: حدثني إبراهيم بن بشار الرمادي حدثنا سفيان بن عيينة حدثنا أبو سعيد عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: «لما هجم فرعون على البحر هو وأصحابه، وكان فرعون على فرس أدهم [ذنوب] فلما هجم فرعون على البحر هاب الحصان أن يقتحم في البحر، فمثل له جبريل على فرس أنثى [وَدِيق] فلما رآها الحصان تقحَّم خلفها، قال: وعرف السامري جبريل [لأن أمه حين خافت أن يذبح خلفته في غارٍ وأطبقت عليه، وكان جبريل يأتيه فيغذوه بأصابعه، فيجد في بعض أصابعه لبنًا، وفي الأخرى عسلًا، وفي الأخرى سمنًا، فلم يزل يغذوه حتى نشأ، فلما عاينه في البحر عرفه] فقبض قبضة من أثر فرسه. قال: أخذ قبضة من تحت الحافر.

قال سفيان: وكان ابن مسعود يقرؤها: «فقبضت قبضة من أثر فرس الرسول».

---

(١) زيادة من صحيح البخاري.

(٢) أخرجه البخاري تعليقًا (ص٩١٦) من كتاب التفسير، باب سورة طه، وانظر: فتح الباري (٦/ ٤٢٧) (٨/ ٤٣٣).

قال أبو سعيد: قال عكرمة عن ابن عباس: «وأُلقي في روع السامري: إنك لا تلقيها على شيء، فتقول: كن كذا وكذا إلا كان، فلم تزل القبضة معه في يده، حتى جاوز البحر، فلما جاوز موسى وبنو إسرائيل البحر، وأغرق الله آل فرعون. قال موسى لأخيه هارون: اخلفني في قومي وأصلح، ومضى موسى لموعد ربه. قال: وكان مع بني إسرائيل حلي من حلي آل فرعون قد استعاروه، فكأنهم تأثموا منه، فأخرجوه لتنزل النار فتأكله. فلما جمعوه قال السامري بالقبضة التي كانت في يده هكذا. فقذفها فيه [وأومأ ابن إسحاق بيده هكذا]، وقال: كن عجلًا جسدًا له خوارٌ، فصار عجلًا جسدًا له خوار، فكان يدخل الريح في دبره ويخرج من فيه، يسمع له صوت. ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٨] فعكفوا على العجل يعبدونه. فقال هارون: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٩ - ٩٠].

وقال السدي: «لما أمر الله موسى أن يخرج ببني إسرائيل من أرض مصر أمر موسى بني إسرائيل أن يخرجوا، وأمرهم أن يستعيروا الحلي من القبط. فلما نجى الله موسى ومن معه من بني إسرائيل من البحر، وأغرق آل فرعون أتى جبريل إلى موسى ليذهب به إلى الله، فأقبل على فرس، فرآه السامري، فأنكره. ويقال: إنه فرس الحياة. فقال حين رآه: إن لهذا لشأنًا، فأخذ من تربة حافر الفرس. فانطلق موسى ﷺ، واستخلف هارون على بني إسرائيل، وواعدهم ثلاثين ليلة، فأتمها الله تعالى بعشر. فقال لهم هارون: يا بني إسرائيل، إن الغنيمة لا تحل لكم، وإن حلي القبط إنما هو غنيمة، فاجمعوها جميعًا واحفروا لها حفرة فادفنوها، فإن جاء موسى فأحلها أخذتموها [وإلا كان شيئًا لم تأكلوه] فجمعوا ذلك الحلي في تلك الحفرة، وجاء السامري بتلك القبضة فقذفها، فأخرج الله من الحلي عجلًا جسدًا له خوار [وعدت بنو إسرائيل موعد موسى فعدوا الليلة يومًا واليوم يومًا. فلما كان تمام العشرين أخرج لهم

العجل] فلما رأوه قال لهم السامري: ﴿ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمۡ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾ [طه: ٨٨] يقول: ترك موسى إلهه هاهنا، وذهب يطلبه. فعكفوا عليه يعبدونه، وكان يخور ويمشي، فقال لهم هارون: يا بني إسرائيل، ﴿ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ﴾ [طه: ٩٠]، يقول: إنما ابتليتم بالعجل: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَـٰنُ ﴾ [طه: ٩٠]، فأقام هارون ومن معه من بني إسرائيل، لا يقاتلونهم. وانطلق موسى إلى الله يكلمه، فلما كلمه قال له: ﴿ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ [وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ]﴾ [طه: ٨٣-٨٥]. فأخبره خبرهم. قال موسى: يا رب هذا السامري أمرهم أن يتخذوا العجل. فالروح من نفخها فيه؟ قال الرب تعالى: أنا، قال: يا رب أنت إذاً أضللتهم».

وقال ابن إسحاق عن حكيم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان السامري [من أهل باجِرْما] من قوم يعبدون البقر، فكان يحب عبادة البقر في نفسه، وكان قد أظهر الإسلام في بني إسرائيل. فلما ذهب موسى إلى ربه قال لهم هارون: أنتم قد حملتم أوزارًا من زينة القوم آل فرعون وأمتعةً وحليًّا فتطهروا منها، فإنها نجس، وأوقد لهم نارًا. فقال: اقذفوا ما كان معكم من ذلك فيها فجعلوا يأتون بما كان معهم من تلك الأمتعة والحلي، فيقذفون به فيها، حتى إذا انكسر الحلي فيها، ورأى السامري أثر فرس جبريل، فأخذ ترابا من أثر فرس جبريل، فأخذ ترابا من أثر حافره، ثم أقبل إلى النار، فقال لهارون: يا نبي الله، أُلقي ما في يدي؟ ولا يظن هارون إلا أنه كبعض ما جاء به غيره من الحلي والأمتعة. فقذفه فيها، فقال: كن عجلًا جسدًا له خوار، فكان البلاء والفتنة. فقال: هذا إلهكم وإله موسى، فعكفوا عليه، وأحبوه حبا لم يحبوا شيئا مثله قط. يقول الله ﷻ: فنسي أي ترك ما كان عليه من الإسلام، يعني السامري. ﴿ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴾ [طه: ٨٩].

وكان اسم السامري موسى بن ظفر وقع في أرض مصر فدخل في بني إسرائيل.

فلما رأى هارون ما وقعوا فيه قال: ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ۝ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ [طه: ٩٠-٩١].

فأقام هارون فيمن معه من المسلمين ممن لم يفتتن، وأقام من يعبد العجل على عبادة العجل وتخوف هارون إن سار بمن معه من المسلمين أن يقول له موسى: ﴿ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾ [طه: ٩٤]. وكان له هائبًا مطيعًا[١].

فقال تعالى مذكرًا لبني إسرائيل بهذه القصة التي جرت لأسلافهم مع نبيهم ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [البقرة: ٥١]. يعني من بعد ذهابه إلى ربه، وليس المراد من بعد موته. ﴿ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٥١]. أي بعبادة غير الله تعالى، لأن الشرك أظلم الظلم، لأن المشرك وضع العبادة في غير موضعها.

فلما قدم موسى عليه السلام ورأى ما أصاب قومه من الفتنة اشتد غضبه، وألقى الألواح عن رأسه، وفيها كلام الله الذي كتبه له، وأخذ برأس أخيه ولحيته، ولم يعتبِ الله عليه في ذلك، لأنه حمله عليه الغضب لله. وكان الله عز وجل قد أعلمه بفتنة قومه، ولكن لما رأى الحال مشاهدةً حدث له غضبٌ آخر، فإنه ليس الخبر كالمعاينة.

***

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۝ ﴾.

...[٢]الناس يقومون من قبورهم مهطعين إلى الداعي، يؤمون الصوت، لا يعرجون عنه يمنة ولا يسرة، كما قال: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ﴾ [طه: ١٠٨] أي

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٢٨١-٢٨٣).
(٢) ١٢٥ التبيان.

يقبلون من كل أوب إلى صوته وناحيته، لا يعرجون عنه، قال الفراء: وهذا كما تقول: دعوتك دعوة لا عوج لك عنها، وقال الزجاج: المعنى لا عوج لهم عن دعائه، أي لا يقدرون إلا على اتباعه وقصده.

فإن قلت: إذا كان المعنى لا عوج لهم عن دعوتي، فكيف قال: (لا عوج له) قيل: قالت طائفة: اللام بمعنى عن، أي لا عوج عنه، وقالت طائفة: المعنى لا عوج لهم عن دعائي، كما قال الزجاج، وفي القولين تكلف ظاهر، ولما كانت الدعوة تسمع الجميع لا تعوج عنهم، وكلهم يؤم صوت الداعي ويتبعه لا يعوج عنه، كان مجيء اللام منتظمًا للمعنيين ودالًا عليهما، والمعنى لا عوج لدعائه لا في أسماعهم إياه، ولا في إجابتهم له.

[(١)]قال تعالى: ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ [طه: ١٠٨] أي: سكنت وذلت وخضعت[(٢)].

...[(٣)]كانت أم الدرداء ﷺ إذا سافرت فصعدت على جبل تقول لمن معها: أسمعت الجبال ما وعدها ربها؟! فيقال: ما أسمعها فتقول: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾[(٤)] [طه: ٥-٧] فهذا حال الجبال، وهي الحجارة الصلبة، وهذه رقتها وخشيتها وتدكدكها من جلال ربها وعظمته، وقد أخبر عنها فاطرها وباريها إنه لو أنزل عليها كلامه لخشعت ولتصدعت من خشية الله، فيا عجبًا من مضغة لحم أقسى من هذه الجبال، تسمع آيات الله تتلى عليها ويذكر الرب تبارك وتعالى فلا تلين ولا تخشع ولا تنيب، فليس بمستنكر على الله ﷻ ولا يخالف حكمته أن يخلق لها نارًا تذيبها إذ لم تلن بكلامه وذكره وزواجره ومواعظه، فمن لم يلن لله في هذه الدار قلبه، ولم ينب إليه، ولم يذبه بحبه والبكاء من

(١) ٥٢٠ مدارج جـ١.
(٢) يأتي إن شاء الله البحث عن الخشوع في سورة الحديد والمؤمنون (ج).
(٣) ٢٢٠ مفتاح جـ١.
(٤) انظر: تاريخ مدينة دمشق (٢٢/ ٣٤٢).

خشيتهن فليتمتع قليلًا فإن أمامه الملين الأعظم: وسيرد إلىٰ عالم الغيب والشهادة فيرىٰ ويعلم.

***

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾.

[1]يعني لا يُحمل عليه من سيئات ما لم يعمله، ولا ينقص من حسنات ما عمل، ولو كان الظلم هو المستحيل الذي لا يمكن وجوده: لم يكن لعدم الخوف منه معنىً، ولا للأمن من وقوعه فائدة.

...[2]تأمل أول نقص دخل علىٰ أبي البشر وسرىٰ إلىٰ أولاده، كيف كان من عدم العلم والعزم، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ [طه: ١١٥] والنسيان، سواء كان عدم العلم أو عدم الصبر، كما فسر بهما هاهنا، فهو أمر عدمي.

ولهذا قال آدم لما رأىٰ ما دخل عليه من ذلك ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣].

فإنه إذا اعترف بنقصه، خص نفسه ـ بما حصل لها من عدم العلم والصبر ـ وبالنسيان الذي أوجب فوات حظه من الجنة، ثم قال: ﴿ وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾.

فإنه سبحانه إن لم يغفر السيئات الوجودية فيمنع أثرها وعقابها ويق العبد من ذلك وإلا ضرته آثارها ولابد، كآثار الطعام المسموم إن لم يتداركه المداوي بشرب الترياق

---

(١) ١٣٦ مدارج جـ١.

(٢) ١٠٧ طريق الهجرتين.

ونحوه وإلا ضره ولابد، وإن لم يرحمه سبحانه بإيجاد ما يصلح به النفس وتصير عالمة بالحق عاملة به وإلا خسر، والمغفرة تمنع الشر، والرحمة توجب الخير.

والرب سبحانه إن لم يغفر للإنسان فيقيه السيئات ويرحمه فيؤتيه الحسنات وإلا هلك ولابد، إذ كان ظالمًا لنفسه ظلومًا بنفسه، فإن نفسه ليس عندها خير يحصل لها منها، وهي متحركة بالذات، فإن لم تتحرك إلى الخير تحركت إلى الشر فضرت صاحبها، وكونها متحركة بالذات من لوازم كونها نفسًا؛ لأن ما ليس حساسًا متحركًا بالإرادة فليس نفسًا.

ففي الصحيح عن النبي ﷺ «أصدق الأسماء حارث وهمام»[1] فالحارث الكاسب العامل، والهمام الكثير الهم، والهم مبدأ الإرادة، فالنفس لا تكون إلا مريدة عاملة، فإن لم توفق للإرادة الصالحة وإلا وقعت في الإرادة الفاسدة والعمل الضار.

وقد قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ [المعارج: ١٩-٢٢].

فأخبر سبحانه أن الإنسان خلق على هذه الصفة، وأن من كان على غيرها فلأجل ما زكاه الله به من فضله وإحسانه.

...[2] ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه: ١١٢] قال المفسرون من السلف والخلف قاطبة: الظلم أن يحمل عليه سيئات غيره، والهضم أن ينقص من حسنات ما عمل.

وعند الجبرية أن هذا لو وقع لم يكن ظلمًا، ومن المعلوم أن الآية لم ترفع عنه خوف المحال لذاته، وأنه لا يخاف الجمع بين النقيضين، فإنه لا يخاف ذلك، ولو أتى بكل كفر وإساءة، فلا يجوز تحريف كلام الله بحمله على هذا، فإن الخوف من الشيء

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٤٩٥٠) والبيهقي في الكبرى (٩/ ٣٠٦ رقم ١٩٠٩٠) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٨١٤) وأحمد (٤/ ٣٤٥) وأبو يعلى (١٣/ ١١١-١١٣ رقم ٧١٦٩) والطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٨٠ رقم ٩٤٩) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٥٧٨) وعون المعبود (١٣/ ٢٠٠).

(٢) ٣١٥ مختصر الصواعق جـ١.

يستلزم تصور وجوده وإمكانه، وما لا يمكن وجوده يستحيل خوفه.

وأيضًا فإنه لا يحسن أن ينفي الجمع بين الضدين في السياق الذي نفى الله فيه الظلم كقوله تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦] فلا يحسن بوجه أن يقال عقيب هذه الجملة: وما ربك بجامع للعبيد بين الوجود والعدم في آن واحد، وإنما الظلم المنفي هو خلاف ما اقتضاه قوله: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾ وكذلك قوله: ﴿ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ [النساء: ٧٧] ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٤] ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٦٠] أي لا يترك من أعمالهم ما هو بقدر الفتيل والنقير، فيكون ظلمًا.

وعند الجبرية يجوز أن يترك ثواب جميع أعمالهم من أولها إلى آخرها بغير سبب يقتضي تركها إلا مجرد المشيئة والقدرة، ولا يكون ذلك ظلمًا وكذلك قوله: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الزخرف: ٧٦] ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [هود: ١٠١] بين أنه لم يعاقبهم بغير جرم فيكون ظالمًا لهم، بل عاقبهم بظلمهم أنفسهم. ...[1]

وقال أهل السنة والحديث ومن وافقهم: الظلم وضع الشيء في غير موضعه[2]. وهو سبحانه حكم عدل لا يضع الشيء إلا في موضعه الذي يناسبه، ويقتضيه العدل والحكمة والمصلحة، وهو سبحانه لا يفرق بين متماثلين، ولا يساوي بين مختلفين، ولا يعاقب إلا من يستحق العقوبة، ويضعها موضعها لما في ذلك من الحكمة، ولا يعاقب إلا من يستحق العقوبة، ويضعها موضعها لما في ذلك من الحكمة، ولا يعاقب أهل البر والتقوى، وهذا قول أهل اللغة قاطبة.

وتفسير الظلم بذينيك التفسيرين اصطلاح حادث ووضع جديد.

---

(١) ٣١٢ مختصر الصواعق جـ١.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٨/ ١٠٧) وفتح الباري (١٢/ ٢٦٥) وشرح النووي (٢/ ١٤٣) وعمدة القاري (١٢/ ١١٠) والتمهيد (٢٠/ ١٥٧) وتهذيب الأسماء (٣/ ٨) والتعريفات (ص ١٨٦) وغريب الحديث لابن قتيبة (١/ ٤٨٤) ولسان العرب (١٢/ ٣٧٣) ومختار الصحاح (ص ١٧٠).

قال ابن الأنباري: الظلم وضع الشيء في غير موضعه، يقال: ظلم الرجل سقاءه إذا سقى منه قبل أن يخرج منه زبده. وقال الشاعر:

وصاحب صدق لم تنلني شكاية ظلمت وفي ظلمي له عامدًا أجر[١]

أراد بالصاحب وطب اللبن، وظلمه إياه إن يستقيه قبل أن يخرج زبده.

قال والعرب تقول: هو أظلم من حية، لأنها تأتي الحفر الذي لم تحفره فتسكنه[٢].

ويقال: قد ظلم الماء الوادي، إذا وصل منه إلى مكان لم يكن يصل إليه فيما مضى.

وقال الحسن بن مسعود الفراء: أصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه[٣].

قال: ومنه قولهم: من أشبه أباه فما ظلم[٤]، وقوله: من استرعى الذئب فقد ظلم[٥]، يعنون من أشبه أباه فما وضع الشبه في غير موضعه، وهذا القول هو الصواب المعروف في لغة العرب والقرآن والسنة...

***

﴿ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴾.

---

(١) ذكر البيت ابن منظور في اللسان (١٢/ ٣٧٥) ونسبه إلى ثعلب. وذكره أيضًا الشنقيطي في أضواء البيان (٣/ ٢٦٧) وانظر: مجالس ثعلب (ص ١٢٢).

(٢) ذكره ابن منظور في اللسان (١٢/ ٣٧٥) (١٤/ ٢٢٠).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١/ ٢٣٤، ٢٨٤) وتفسير القرطبي (١/ ٣٠٩، ٤٠١) وفتح الباري (٥/ ٩٥) والديباج على مسلم (١/ ١٤١) وتحفة الأحوذي (٦/ ١٥٠) وغريب الحديث لابن قتيبة (٢/ ٨٤) والقاموس (ص ١٤٦٤) واللسان (١٢/ ٣٧٣).

(٤) ذكره ابن عبد البر في التمهيد (١٨/ ٢٨٥) والمزي في تهذيب الكمال (٢٤/ ٣٨٧) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥/ ٤٤٦) وابن حجر في الإصابة (٦/ ٤٦٤) وابن قتيبة في غريب الحديث (١/ ٤٨٤) وابن منظور في اللسان (١٢/ ٣٧٣).

(٥) أخرجه هبة الله الطبري اللالكائي في كرامات الأولياء (رقم ٦٧) عن عمر بن الخطاب ﷺ، وابن عساكر في تاريخه (٢٠/ ٢٥) وذكره ابن حجر في الإصابة (٣/ ٦) وحسنه ونقل تحسينه العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٥١٥) وانظر: لسان العرب (١٢/ ٣٧٣).

...[١]سأل سائل فقال: إذا كانت الجنة لا موت فيها، فكيف يأكلون فيها لحم الطير، وهو حيوان قد فارقته الروح؟! فأجيب بأنه يجوز أن لا يكون ميتًا. وهذا جواب في غاية الغثاثة.

قال ابن عقيل: وما الذي أحوجه إلى هذا والجنة دار لا يخلق فيها أذى ولانصب لا مطلقًا، بل لا يدخل الداخل إليها ذلك على طريق الإكرام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝﴾ [طه: ١١٨-١١٩] وذلك مشروط بالطاعة، فإذا جاز ذلك في حق آدم علم أنه ليس بواجب في حق الطير، ولا يمتنع في قدرة الله تعالى أن يكون هذا الطائر مشويًا لا عن روح خرجت منه أو عن روح خرجت خارج الجنة وولج الجنة وهو لحم مشوي. (قلت): وما الذي أوجب هذا التكلف كله، فالجنة دار الخلود لأهلها وسكانها، وأما الطير فهو نوع من أنواع الأطعمة التي يحدثها الله لهم شيئًا بعد شيء، فهو دائم النوع وإن كان آحاده متصرمة، كالفاكهة وغيرها، وقد ثبت عن النبي ﷺ أن المؤمنين ينحر لهم يوم القيامة ثور الجنة، الذي كان يأكل منها فيكون نزلهم[٢]، فهذا حيوان قد كان يأكل من الجنة فينحر نزلًا لأهلها، والله أعلم.

[٣]الله سبحانه مهد الأرض لآدم وذريته قبل خلقه، فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] وقضى أن يعرفه قدر المخالفة، وأقام عذره بقوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [البقرة: ٣٦] وتداركه برحمة بقوله: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [طه: ١٢٢] يا آدم لا تجزع من كأس خطأ كان سبب كيسك، فقد استخرج منك داء العجب، وألبسك رداء العبودية لو لم تذنبوا، لا تحزن بقولي لك: اهبطوا منها فلك خلقتها، ولكن اخرج إلى

---

(١) ١٧٦ بدائع جـ٣.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٣١٥) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٧٥) وعمدة القاري (٢٣/ ١٠٣).

(٣) ٢٢٣ بدائع جـ٣.

مزرعة المجاهدة، واجتهد في البذر، واسق شجرة الندم بساقية الدمع، فإذا عاد العود أخضر فعد لما كان...

...[(١)]تأمل قوله تعالىٰ: ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ [طه: ١١٧] كيف شرك بينهما في الخروج، وخص الذكر بالشقاء، لاشتغاله بالكسب والمعاش، والمرأة في خدرها.

...[(٢)]قوله تعالىٰ لآدم: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [طه: ١١٨، ١١٩] فقابل بين الجوع والعُري دون الجوع والظمأ، وبين الظمأ والضحىٰ دون الظمأ والجوع، فإن الجوع عُرىٰ الباطن وذله، والعُرىٰ جوع الظاهر وذُلُّه، فقابل بين نفي ذل باطنه وظاهره، وجوع باطنه وظاهره، والظمأ حرُّ الباطن، والضحىٰ حرُّ الظاهر، فقابل بينهما...

...[(٣)]من له غرض في دقائق المعاني يتجاوز نظره قالب اللفظ إلىٰ لب المعنىٰ، والواقف مع الألفاظ مقصور النظر علىٰ الزينة اللفظية.

فتأمل قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [طه: ١١٨، ١١٩] كيف قابل الجوع بالعرىٰ والظمأ بالضحىٰ، والواقف مع القالب ربما يخيل إليه أن الجوع يقابل بالظمأ،والعرىٰ بالضحى. والداخل إلىٰ بلد المعنىٰ يرىٰ هذا الكلام في أعلا الفصاحة والجلالة؛ لأن الجوع ألم الباطن، والعرىٰ ألم الظاهر، فهما متناسبان في المعنىٰ، وكذلك الظمأ مع الضحىٰ؛ لأن الظمأ موجب لحرارة الباطن، والضحىٰ موجب لحرارة الظاهر، فاقتضت الآية نفي جميع الآفات ظاهرًا وباطنًا، وفي هذا الباب حكاية مشهورة وهي أن ابن حمدان قال يومًا للمتنبي: قد انتقد عليك قولك:

وقفت وما في الموت شك لواقف　　كأنك في جفن الردىٰ وهو نائم

(١) ٢٢٩ بدائع جـ٣.
(٢) ٢٥١ روضة المحبين.
(٣) ٢٤٠ بدائع جـ٣.

تمـر بـك الأبطـال كلمـىٰ هزيمـة   ووجهـك وضـاح وثغـرك باسـم

قالوا: ركبت صدر كل بيت علىٰ عجز الآخر وكان الأولىٰ أن يقول:

وقفت وما في الموت شك لواقـف   ووجهـك وضـاح وثغـرك باسـم
تمـر بـك الأبطـال كلمـىٰ هزيمـة   كأنك في جفن الـردىٰ وهـو نـائم(١)

فليتم المعنىٰ حينئذ؛ لأن انبساط الوجه ووضوحه مع الوقوف في موقف الموت أشبه بأوصاف الكماة، والسلامة من الردىٰ مع مرور الأبطال كلمىٰ هزيمة أعجب في حصول النجاة، وهذا كما انتقد علىٰ امرئ القيس قوله:

كـأني لم أركـب جـوادًا للـذة   ولم أتبطن كاعبًا ذات خلخـال(٢)(٣)

***

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

(٤)خلق بدن آدم من الأرض وروحه من ملكوت السماء، وقرن بينهما، فإذا أجاع بدنه وأسهره وأقامه في الخدمة وجدت روحه خفة وراحة، فتاقت إلىٰ الموضع الذي خلقت منه، واشتاقت إلىٰ عالمها العلوي. وإذا أشبعه ونعّمه ونومه واشتغل بخدمته

---

(١) هذان البيتان من بحر الطويل، وينسبان للمتنبي أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبدالصمد الجعفي الكوفي أبي الطيب الشاعر الحكيم وأحد مفاخر الأدب العربي، له الأمثال السائرة والحكم البالغة والمعاني المبتكرة مات سنة ٣٥٤هـ ذكرهما أسامة بن منقذ في البديع في نقد الشعر (ص ٢٥٧) وانظر: يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر لأبي منصور الثعالبي (١/ ٢٨).

(٢) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلىٰ امرئ القيس، وذكر البيت ابن منظور في اللسان (١٣/ ٥٧)، وأسامة بن منقذ في البديع (ص ٢٥٦) وأبو هلال العسكري في الصناعتين (١/ ٢٧٩).

(٣) تتمة البحث فيه الجواب لمن أراده (ج).

(٤) ١٦٧ فوائد.

وراحته أخلد البدن إلى الموضع الذي خلق منه، فانجذبت الروح معه فصارت في السجن، فلولا أنها ألفت السجن، لاستغاثت من ألم مفارقتها وانقطاعها عن عالمها الذي خلقت منه، كما يستغيث المعذّب.

وبالجملة فكلما خف البدن لطفت الروح وخفت وطلبت عالمها العلوي.وكلما ثقل وأخلد إلى الشهوات والراحة ثقلت الروح وهبطت من عالمها وصارت أرضية سفليّة فترى الرجل روحه في الرفيق الأعلى وبدنه عندك فيكون نائما على فراشه وروحه عند سدرة المنتهى تجول حول العرش. وآخر واقف في الخدمة ببدنه وروحه في السفل تجول حول السفليات، فإذا فارقت الروح البدن التحقت برفيقها الأعلى أو الأدنى، فعند الرفيق الأعلى كل قرّة عين، وكل نعيم وسرور وبهجة ولذة وحياة طيبة. وعند الرفيق الأسفل كل هم وغم وضيق وحزن وحياة نكدة ومعيشة ضنك، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤].

فذكره كلامه الذي أنزله على رسوله، والإعراض عنه ترك تدبره والعمل به والمعيشة الضنك، فأكثر ما جاء في التفسير أنها عذاب القبر، قاله ابن مسعود وأبو هريرة وأبو سعيد الخدري وابن عباس. وفيه حديث مرفوع[١].

وأصل الضنك في اللغة: الضيق والشدة، وكل ما ضاق فهو ضنك، يقال: «منزل ضنك وعيش ضنك»[٢]، فهذه المعيشة الضنك، في مقابلة التوسيع على النفس والبدن

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ٢٢٧) عن أبي سعيد الخدري وأخرجه أيضًا (١٦/ ٢٢٨) عن أبي هريرة. وذكره السيوطي عن ابن مسعود في الدر المنثور (٥/ ٦٠٩) وعزاه إلى هناد وعبد بن حميد وابن المنذر والطبراني والبيهقي. وأخرجه الحاكم عن أبي هريرة (١/ ٥٣٧ رقم ١٤٠٥) وأخرجه أيضًا مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ (٢/ ٤١٣ رقم ٣٤٣٩) وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري وكذا أخرجه مرفوعًا ابن حبان في صحيحه (٧/ ٣٨٩ رقم ٣١١٩) وفي موارد الظمآن (رقم ١٧٥١) والبيهقي في إثبات عذاب القبر (رقم ٥٧) وانظر: فتح الباري (٨/ ٤٣٣).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ٢٢٥) وعمدة القاري (١٩/ ٥٩).

بالشهوات واللذات والراحة، فإن النفس كلما وسعت عليها ضيّقت على القلب حتى تعيش معيشة ضنكا، وكلما ضيّقت عليها وسعت على القلب حتى ينشرح وينفسح، فضنك المعيشة في الدنيا بموجب التقوى سعتها في البرزخ والآخرة، وسعة المعيشة في الدنيا بحكم الهوى ضنكها في البرزخ والآخرة، فآثر أحسن المعيشتين وأطيبهما وأدومهما.فأشق البدن بنعيم الروح، ولا تشق الروح بنعيم البدن، فإن نعيم الروح وشقاءها أدوم وأعظم، ونعيم البدن وشقاءه أقصر وأهون، والله المستعان.

...[1]ثم قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾[طه: ١٢٤].

لما أخبر سبحانه عن حال من اتبع هداه في معاشه ومعاده أخبر عن حال من أعرض عنه ولم يتبعه، فقال: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ أي: عن الذكر الذي أنزلته، فالذكر هنا مصدر مضاف إلى الفاعل: كقيامي وقراءتي، لا إلى المفعول، وليس المعنى: ومن أعرض عن أن يذكرني، بل هذا لازم المعنى ومقتضاه من وجه آخر سنذكره.

وأحسن من هذا الوجه أن يقال: الذكر هنا مضاف إضافة الأسماء لا إضافة المصادر إلى معمولاتها، والمعنى: ومن أعرض عن كتابي ولم يتبعه، فإن القرآن يسمى ذكرًا.

قال تعالى: ﴿ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ ﴾ [الأنبياء: ٥٠]. وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران: ٥٨]. وقال تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [القلم: ٥٢]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ﴾[فصلت: ٤١]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ﴾[يس: ١١].

وعلى هذا فإضافته كإضافة الأسماء الجوامد التي لا يقصد بها إضافة العامل إلى معموله.

(١) ٤٢ مفتاح جـ١.

ونظيره في إضافة اسم الفاعل ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنْبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ﴾ [غافر: ٣] فإن هذه الإضافات لم يقصد بها قصد الفعل المتجدد، وإنما قصد بها قصد الوصف الثابت اللازم، وكذلك جرت أوصافًا على أعرف المعارف، وهو اسم الله تعالى في قوله تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ ٱلذَّنْبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [غافر: ٢، ٣].

وقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ فسرها غير واحد من السلف بعذاب القبر، وجعلوا هذه الآية أحد الأدلة الدالة على عذاب القبر، ولهذا قال: ﴿ وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦] أي تترك في العذاب كما تركت العمل بآياتنا، فذكر عذاب البرزخ وعذاب دار البوار.

ونظيره قوله تعالى في حق آل فرعون: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾، فهذا في البرزخ ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦] فهذا في القيامة الكبرى.

ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٣] فقول الملائكة: ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾ المراد به عذاب البرزخ الذي أوله يوم القبض والموت.

ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [الأنفال: ٥٠] فهذه الإذاقة هي في البرزخ وأولها حين الوفاة، فإنه معطوف على قوله: ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ وهو من القول المحذوف مقوله لدلالة الكلام عليه كنظائره، وكلاهما واقع وقت الوفاة.

وفي الصحيح عن البراء بن عازب ﷺ في قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧] قال: نزلت في عذاب القبر[١] والأحاديث في عذاب القبر تكاد تبلغ حد التواتر.

والمقصود: أن الله سبحانه أخبر أن من أعرض عن ذكره، وهو الهدى الذي من اتبعه لا يضل ولا يشقى، فإن له معيشة ضنكا، وتكفل لمن حفظ عهده أن يحييه حياة طيبة، ويجزيه أجره في الآخرة، فقال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]، فأخبر سبحانه عن فلاح ما تمسك بعهده علمًا وعملًا في العاجلة بالحياة الطيبة وفي الآخرة بأحسن الجزاء، وهذا بعكس من له المعيشة الضنك في الدنيا والبرزخ ونسيانه في العذاب بالآخرة.

[٢]وقوله تعالى: ﴿ وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴾ [طه: ١٢٤، ١٢٥] اختلف فيه: هل هو من عمى البصيرة أو من عمى البصر، والذين قالوا: هو من عمى البصيرة إنما حملهم على ذلك قوله: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مريم: ٣٨]. وقوله: ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [ق: ٢٢]. وقوله: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الفرقان: ٢٢]. وقوله: ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ [التكاثر: ٦، ٧].

ونظائر هذا مما يثبت لهم الرؤية في الآخرة كقوله تعالى: ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ﴾ [الشورى: ٤٥] وقوله: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٣٦٩) ومسلم (رقم ٢٨٧١) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٣٤-٢٣٩) (١٣/ ٤٢٨) وشرح النووي (١٧/ ٢٠١-٢٠٤).

(٢) ٤٤ مفتاح جـ١.

تُبۡصِرُونَ ﴾ [الطور: ١٣-١٥] وقوله: ﴿ وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ [الكهف: ٥٣].

والذين رجحوا انه من عمى البصر قالوا: السياق لا يدل إلا عليه، لقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴾ [طه: ١٢٦] وهو لم يكن بصيرًا في كفره قط، بل قد تبين له حينئذ أنه كان في الدنيا في عمى عن الحق، فكيف يقول: وقد كنت بصيرًا. وكيف يجاب بقول: ﴿ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه: ١٢٦].

بل هذا الجواب فيه تنبيه على أنه من عمى البصر، وأنه جوزي من جنس عمله، فإنه لما أعرض عن الذكر الذي بعث الله به رسوله، وعميت عنه بصيرته أعمى الله بصره يوم القيامة وتركه في العذاب، كما ترك الذكر في الدنيا، فجازاه على عمى بصيرته عمى في الآخرة، وعلى تركه ذكره تركه في العذاب.

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗا ﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقد قيل في هـذه الآية أيضًا أنهم عمي وبكم وصم عن الهدى، كما قيل في قولـه: ﴿ وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴾ قالوا: لأنهم يتكلمون يومئذ ويسمعون ويبصرون.

ومن نصر أنه العمى والبكم والصمم المضاد للبصر والسمع والنطق قال بعضهم: هو عمى وصمم وبكم مقيد لا مطلق، فهم عمي عن رؤية ما يسرهم وسماعه، ولهذا قد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لا يرون شيئًا يسرهم.

وقال آخرون: هذا الحشر حين تتوفاهم الملائكة يخرجون من الدنيا كذلك، فإذا قاموا من قبورهم إلى الموقف قاموا كذلك، ثم إنهم يسمعون ويبصرون فيما بعد، وهذا مروي عن الحسن.

وقال آخرون: هذا إنما يكون إذا دخلوا النار واستقروا فيها سلبوا الأسماع والأبصار والنطق، حين يقول لهم الرب تبارك وتعالى: ﴿ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾

[المؤمنون: ١٠٨] فحينئذ ينقطع الرجاء وتبكم عقولهم فيصيرون بأجمعهم عميًا بكمًا صمًا، لا يبصرون، ولا يسمعون، ولا ينطقون، ولا يسمع منهم إلا الزفير والشهيق، وهذا منقول عن مقاتل.

والذين قالوا: المراد به العمى عن الحجة، إنما مرادهم أنهم لا حجة لهم، ولم يريدوا أن لهم حجة هم عمي عنها، بل هم عمي عن الهدى كما كانوا في الدنيا؛ فإن العبد يموت على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه.

وبهذا يظهر أن الصواب هو القول الآخر، وأنه عمى البصر فإن الكافر يعلم الحق يوم القيامة عيانًا، ويقر بما كان يجحده في الدنيا، فليس هو أعمى عن الحق يومئذ، وفصل الخطاب: أن الحشر هو الضم والجمع.

ويراد به تارة الحشر إلى موقف القيامة كقول النبي ﷺ: «**إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلًا**» وكقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥] وكقوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

ويراد به الضم والجمع إلى دار المستقر، فحشر المتقين جمعهم وضمهم إلى الجنة، وحشر الكافرين جمعهم وضمهم إلى النار.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥].

وقال تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣].

فهذا الحشر هو بعد حشرهم إلى الموقف وهو حشرهم وضمهم إلى النار، لأنه قد أخبر عنهم أنهم قالوا: ﴿يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [الصافات: ٢٠، ٢١] ثم قال تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ وهذا الحشر الثاني.

وعلى هذا فهم ما بين الحشر الأول من القبور إلى الموقف، والحشر الثاني من

الموقف إلى النار، فعند الحشر الأول يسمعون ويبصرون ويجادلون ويتكلمون. وعند الحشر الثاني يحشرون على وجوههم عميًا وبكمًا وصمًا، فلكل موقف حال يليق به ويقتضيه عدل الرب تعالى وحكمته، فالقرآن يصدق بعضه بعضًا ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

...[1] إخباره أن الدنيا والغنى والمال إنما جعلها متعة لمن لا نصيب له في الآخرة، وأن الآخرة جعلها للمتقين، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ١٣١].

وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ [الأحقاف: ٢٠] وإلى هذا المعنى أشار النبي ﷺ بقوله لعمر: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة»[2] وسيأتي الحديث.

إنه سبحانه لم يذكر المترفين وأصحاب الثروة إلا بالذم كقوله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ [الواقعة: ٤٥] وقوله: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا ﴾ [الإسراء: ١٦] وقوله تعالى: ﴿ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٣].

إنه سبحانه ذم محب المال، فقال: ﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر: ١٩، ٢٠] فذمهم بحب المال وعيَّرهم به.

...[3] العارف لا يأمر الناس بترك الدنيا، فإنهم لا يقدرون على تركها، ولكن يأمرهم بترك الذنوب مع إقامتهم على دنياهم، فترك الدنيا فضيلة، وترك الذنوب فريضة، فكيف يؤمر بالفضيلة من لم يقم الفريضة، فإن صعب عليهم ترك الذنوب، فاجتهد أن

---

(١) ١٩٥ عدة الصابرين.
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٩١٣) وانظر: فتح الباري ٠٩/ ٢٨٨-٢٨٩).
(٣) ١٦٨ الفوائد.

تحبب الله إليهم بذكر آلائه وإنعامه وإحسانه، وصفات كماله ونعوت جلاله، فإن القلوب مفطورة على محبته؛ فإذا تعلقت بحبه هان عليها ترك الذنوب والاستقلال منها والإصرار عليها.

وقد قال يحيى بن معاذ: «طلب العاقل للدنيا خير من ترك الجاهل لها».

العارف يدعو الناس إلى الله من دنياهم فتسهل عليهم الإجابة، والزاهد يدعوهم إلى الله بترك الدنيا فتشق عليهم الإجابة؛ فإن الفطام عن الثدي الذي ما عقل الإنسان نفسه إلا وهو يرتضع منه شديد، ولكن تخير من المرضعات أزكاهن وأفضلهن، فإن للبن تأثيرًا في طبيعة المرتضع، ورضاع المرأة الحمقى يعود بحمق الولد، وأنفع الرضاعة ما كان من المجاعة: فإن قويت على مرارة الفطام، وإلا فارتضع بقدر؛ فإن من البشمِ ما يقتل[(١)].

***

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾.

...[(٢)]قال حنبل: قلت لأبي عبد الله: ما أحب إليك ما يتقرب به العبد من العمل إلى الله؟ قال: كثرة الصلاة والسجود، وأقرب ما يكون العبد من الله إذا عفر وجهه له ساجدًا.

يعني بهذا إذا سجد لله على التراب، في هذا بيان أن الصلاة أفضل أعمال الخير.

وروى عنه المروزي أنه قال: كل تسبيح في القرآن صلاة[(٣)] إلا موضع واحد.

قال: ﴿ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ [الطور: ٤٩] ركعتين قبل الفجر، ﴿ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ [ق: ٤٠]

---

(١) البشم معناها: التخمة. يقال: الشبع داعية البشم، والبشم داعية السقم، والسقم داعية الموت. انظر: غريب الحديث لابن قتيبة (٢/ ٢٢٦) والنهاية في غريب الحديث (١/ ١٣١) والقاموس المحيط (ص ١٣٩٦).

(٢) ١١٣ بدائع جـ٤.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٨/ ١٤٦) عن ابن عباس، والضياء المقدسي في المختارة (١٠/ ٣١٤ رقم ٣٣٥).

ركعتين بعد المغرب[١].

قال أبو حفص: والحجة في تفضيل الصلاة على سائر أعمال القرب قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥] ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

وكان حذيفة إذا أحزنه أمر صلَّى، وقال: «أعني على نفسك بكثرة السجود»[٢] وقال: «أفضل الأعمال الصلاة لأول وقتها»[٣] وقال: «جعلت قرة عيني في الصلاة»[٤]، ولأنها تختص بجمع الهمة، وحضور القلب، والانقطاع عن كل شيء سواها، بخلاف غيرها من الطاعات، ولهذا كانت ثقيلة على النفس.

نقل عنه محمد بن الحكم في الرجل يفوته ورده من الليل، لا يقرأ به في ركعتي الفجر، كان النبي ﷺ يخففهما، لكن يقرأ إذا أصبح، أرجو أن يحسب له بقيام الليل.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة طه

والحمد لله رب العالمين



---

(١) أخرجه الصنعاني في تفسيره (٣/ ٢٤٩) والطبري في تفسيره (٢٦/ ١٨١) (٢٧/ ٣٩-٤٠) والطبراني في الأوسط (٧/ ٢٦٤-٢٦٥ رقم ٧٤٥٨) وانظر: عمدة القاري (٧/ ٢١٧).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٤٨٩) وانظر: شرح النووي (٤/ ٢٠٦).

(٣) أخرجه ابن حبان (٤/ ٣٣٩ رقم ١٤٧٥) وابن خزيمة (١/ ١٦٩ رقم ٣٢٧) وأبو داود (رقم ٤٢٦) والبيهقي في الكبرى (١/ ٢٣٢ رقم ١٠٣٥) والدارقطني (١/ ٢٤٦ رقم ٥) وابن أبي شيبة (١/ ٢٨٠ رقم ٣٢١٩) وعبدالرزاق (١/ ٥٨٢ رقم ٢٢١٧) والطبراني في الأوسط (٨/ ٢٥٤ رقم ٨٥٥٧) وفي الكبير (٢٥/ ٨١ رقم ٢٠٧) وعبد بن حميد (رقم ١٥٦٩) وانظر: فتح الباري (٢/ ١٠، ٤١).

(٤) أخرجه الضياء في المختارة (٤/ ٣٦٧ رقم ١٥٣٣) والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٨٠ رقم ٨٨٨٨) وفي الصغرى (رقم ٣٩٣٩) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٧٨ رقم ١٣٢٣٢) والحاكم (٢/ ١٧٤ رقم ٢٦٧٦) والطبراني في الأوسط (٥/ ٢٤١ رقم ٥٢٠٣) وفي الصغير (رقم ٧٤١) وفي الكبير (٢٠/ ٤٢٠ رقم ١٠١٢) وأبو يعلى (٦/ ١٩٩ رقم ٣٤٨٢) وأحمد (٣/ ١٢٨) وانظر: فتح الباري (٣/ ١٥) وصححه الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ٣٤٥) والمباركفوري في تحفة الأحوذي (٢/ ٣٨٢).

سُورَةُ الأَنبِيَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۝ ﴾.

...[1]ما احتج به سبحانه على النصارى مبطلًا لدعوى إلهية المسيح كقوله: ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٧] فأخبر تعالى أن هذا الذي أضافه من نسب الولد إلى الله من مشركي العرب والنصارى غير سائغ في العقول إذا تأمله المتأمل، ولو أراد الله أن يفعل هذا لكان يصطفي لنفسه، ويجعل هذا الولد المتخذ من الجوهر الأعلى السماوي الموصوف بالخلوص والنقاء من عوارض البشر المجبول على الثبات والبقاء، لا من جواهر هذا العالم الفاني الكثير الأدناس والأوساخ والأقذار.

ولما كان هذا الحجاج كما ترى في هذه القوة والجلالة أتبعه بقوله: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ [الزمر: ٤].

وقال تعالى: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة: ٧٥] وقد تضمنت هذه الحجة دليلين يبطلان إلهية المسيح وأمه.

أحدهما: حاجتهما إلى الطعام والشراب وضعف بنيتهما عن القيام بنفسها، بل هي محتاجة فيما يعينهما إلى الغذاء والشراب، والمحتاج إلى غيره لا يكون إلهًا إذ من

---

(١) ١٠٤ مختصر الصواعق جـ١.

لوازم الإله أن يكون غنيًّا.

الثاني: أن الذي يأكل الطعام يكون منه ما يكون من الإنسان من الفضلات القذرة التي يستحي الإنسان من نفسه وغيره حال انفصالها عنه، بل يستحي من التصريح بذكرها . ولهذا ـ والله أعلم ـ عبر الله سبحانه عنها بلازمها من أكل الطعام الذي ينتقل الذهن منه إلى ما يلزمه من هذه الفضلة، فكيف يليق بالرب سبحانه أن يتخذ صاحبة وولدًا من هذا الجنس؟ ولو كان يليق به ذلك أو يمكن لكان الأولى به أن يكون من جنس لا يأكل ولا يشرب ولا يكون منه الفضلات المستقذرة اهـ.

***

﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

(١) الله تعالى جعل العبودية وصف أكمل خلقه، وأقربهم إليه، فقال: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٧٢]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، وهذا يبين أن الوقف التام في قوله في سورة الأنبياء ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنبياء: ١٩] هاهنا، ثم يبتدئ ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠]. فهما جملتان تامتان مستقلتان، أي: أن له من في السماوات ومن في الأرض عبيدًا وملكًا، ثم استأنف جملة أخرى، فقال: ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾ يعني: أن الملائكة الذين عنده لا يستكبرون عن عبادته، يعني: لا يأنفون عنها، ولا يتعاظمون ولا يستحسرون، فيعيون وينقطعون ـ

---

(١) ١٠٢ مدارج جـ١.

يقال: حسر واستحسر، إذا تعب وأعيا ـ بل عبادتهم وتسبيحهم كالنفس لبني آدم، فالأول: وصف لعبيد ربوبيته، والثاني: وصف لعبيد إلهيته.

***

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

[1]إن قوام السماوات والأرض والخليقة بأن تأله الإله الحق، فلو كان فيهما إله آخر غير الله لم يكن إلهًا حقًّا، إذا الإله الحق لا شريك له، ولا سميَّ له، ولا مثل له، فلو تألهت غيره لفسدت كل الفساد بانتفاء ما به صلاحها، إذ صلاحها بتأله الإله الحق، كما أنها لا توجد إلا باستنادها إلىٰ الرب الواحد القهار، ويستحيل أن تستند في وجودها إلىٰ ربين متكافئين، فكذلك يستحيل أن تستند في بقائها وصلاحها إلىٰ إلهين متساويين.

إذا عرف هذا، فاعلم أن حاجة العبد إلىٰ أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا في محبته، ولا في خوفه، ولا في رجائه، ولا في التوكل عليه، ولا في العمل له، ولا في الحلف به، ولا في النذر له، ولا في الخضوع له، ولا في التذلل والتعظيم والسجود والتقرب، أعظم من حاجة الجسد إلىٰ روحه، والعين إلىٰ نورها، بل ليس لهذه الحاجة نظير تقاس به، فإن حقيقة العبد روحه وقلبه، ولا صلاح لها إلا بإلهها الذي لا إله إلا هو، فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره، وهي كادحة إليه كدحًا فملاقيته، ولابد لها من لقائه، ولا صلاح لها إلا بمحبتها وعبوديتها له ورضاه وإكرامه لها.

[2]إذا عرف ذلك فكل حي له إرادة ومحبة وعمل يحسنه، وكل متحرك فأصل حركته المحبة والإرادة. ولا صلاح للموجودات إلاّ بان تكون حركاتها ومحبتها لفاطرها وبارئها وحده، كما لا وجود لها إلاّ بإبداعه وحده.

---

(١) ٥٧ طريق الهجرتين.

(٢) ٢٧٤ الجواب الكافي.

ولهذا قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

ولم يقل سبحانه: لما وجدتا، ولكانتا معدومتين ولا قال: لعدمتا، إذ هو سبحانه قادر على أن يبقيهما على وجه الفساد، لكن لا يمكن أن تكون على وجه الصلاح والاستقامة إلاّ بان يكون الله وحده وهو معبودهما ومعبود ما حوتاه وسكن فيهما، فلو كان للعالم إلهان لفسد نظامه غاية الفساد، فإن كل إله يطلب مغالبة الآخر والعلو عليه وتفرده دونه بالإلهية، إذ الشرك نقص في كمال الإلهية، والإله لا يرضى لنفسه أن يكون إلهًا ناقصًا، فإن قهر أحدهما الآخر كان هو الإله وحده، والمقهور ليس بإله، وإن لم يقهر أحدهما الآخر لزم عجز كل منهما ونقصه، ولم يكن تام الإلهية، فيجب إن يكون فوقهما إله قاهر لهما حاكم عليهما، وإلا ذهب كل منهما بما خلق، وطلب كل منهما العلو على الآخر، وفي ذلك فساد أمر السموات والأرض ومن فيهما، كما هو المعهود من فساد البلد إذا كان فيها ملكان متكافئان، وفساد الزوجة إذا كان لها بعلان، والشول إذا كان فيه فحلان. وأصل فساد العالم إنما هو من فساد اختلاف الملوك والخلفاء، ولهذا لم يطمع أعداء الإسلام فيهم في زمن من الأزمنة إلاّ في زمن تعدد الملوك من المسلمين واختلافهم، وانفراد كل واحد منهم ببلاد، وطلب بعضهم العلو على بعض، فصلاح السموات والأرض واستقامتهما وانتظام أمر المخلوقات على أتم نظام ومن أظهر الأدلة على أنه لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، وأن كل معبود من لدن عرشه إلى قرار أرضه باطل إلّا وجهه الأعلى.

قال الله تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢].

وقال تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢١-٢٣].

***

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝ ﴾.

[(١)]أما هديه في الشراب فمن أكمل هدي يحفظ به الصحة: فإنه كان يشرب العسلَ الممزوجَ بالماء البارد، وفي هذا مِن حفظ الصحة ما لا يَهتدي إلى معرفته إلا أفاضلُ الأطباء، فإنَّ شُربه ولعقَه على الرِّيق يُذيب البلغم، ويغسِلُ خَمْل المَعِدَة، ويجلُو لزوجتها، ويدفع عنها الفضلات، ويُسخنها باعتدال، ويفتحُ سددها، ويفعل مثل ذلك بالكَبِد والكُلَى والمثَانة، وهو أنفع للمَعِدَة من كل حلو دخلها، وإنما يضر بالعَرَض لصاحب الصَّفراء لحدَّتِه وحِدَّة الصفراء، فربما هيَّجها، ودفعُ مضرَّته لهم بالخلِّ، فيعودُ حينئذ لهم نافعاً جداً، وشربه أنفع من كثير من الأشربة المتخذة من السكر أو أكثرِها، ولاسِيَّما لمن لم يعتد هذه الأشربة، ولا ألِفَها طبعُه، فإنه إذا شربها لا تلائمه ملاءمةَ العسل، ولا قريباً منه.

والمحكَّمُ في ذلك: العادة، فإنها تهدم أُصولاً، وتبني أُصولاً.

وأما الشراب إذا جَمَعَ وصْفَيِ الحلاوة والبرودة: فمن أنفع شيء للبدن، ومن أكبر أسباب حفظ الصحة، وللأرواح والقُوى، والكبد والقلب، عشقٌ شديدٌ له، واستمدادٌ منه، وإذا كان فيه الوصفانِ، حصَلتْ به التغذيةُ، وتنفيذُ الطعام إلى الأعضاء، وإيصاله إليها أتمَّ تنفيذ.

والماء البارد رطب يقمع الحرارة، ويحفظ على البدن رطوباته الأصلية، ويرد عليه

(١) ٢٨٩ زاد المعاد جـ٣.

بدل ما تحلَّل منها، ويُرقِّقُ الغِذاء ويُنفِذه في العروق. واختلف الأطباء: هل يُغذِّي البدن ؟ على قولين: فأثبتت طائفةٌ التغذية به بناءً على ما يشاهدونه من النمو والزيادة والقوة في البدن به، ولا سِيَّما عند شدة الحاجة إليه.

قالوا: وبينَ الحيوانِ والنبات قدرٌ مشترك مِن وجوه عديدة.

منها: النموُّ والاغتذاءُ والاعتدال، وفي النبات: قوةُ حِسٍّ وحركة تُناسبه، ولهذا كان غِذاءُ النبات بالماء، فما يُنكر أن يكون للحيوان به نوعُ غذاء، وأن يكون جزءاً من غذائه التام.

قالوا: ونحن لا ننكر أنَّ قوة الغذاء ومعظمه في الطعام، وإنما أنكرنا أن لا يكون للماء تغذية ألبتة. قالوا: وأيضاً الطعام إنما يُغذِّي بما فيه من المائية، ولولاها ما حصلت به التغذيةُ.قالوا: ولأن الماء مادة حياة الحيوان والنبات، ولا ريب أنَّ ما كان أقربَ إلى مادة الشيء، حصلت به التغذية، فكيف إذا كانت مادته الأصلية، قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، فكيف ننكِرُ حصولَ التغذية بما هو مادة الحياة على الإطلاق؟

قالوا: وقد رأينا العطشان إذا حصل له الرِّيُّ بالماء البارد، تراجعت إليه قواه ونشاطُه وحركته، وصبرَ عن الطعام، وانتفع بالقدر اليسير منه، ورأينا العطشانَ لا ينتفِعُ بالقدرِ الكثير مِن الطعام، ولا يحدث له به القوة والاغتذاءَ، ونحن لا ننكِرُ أنَّ الماءَ يُنفِذُ الغذاء إلى أجزاء البدن، وإلى جميع الأعضاء، وأنه لا يتم أمر الغذاء إلا به، وإنما ننكر على مَن سلب قوةَ التغذية عنه البتة، ويكاد قولُه عندنا يدخُل في إنكار الأُمور الوجدانية.

وأنكرت طائفةٌ أُخرى حصولَ التغذية به، واحتجَّت بأُمور يرجعُ حاصِلُها إلى عدم الاكتفاء به، وأنه لا يقومُ مقام الطعام، وأنه لا يزيد في نموِّ الأعضاء، ولا يخلف عليها بدل ما حلَّلته الحرارةُ، ونحو ذلك مما لا ينكره أصحاب التغذية، فإنهم يَجعلون تغذيته بحسب جوهره، ولطافته ورقته، وتغذيةُ كل شيء بحسبه، وقد شُوهد الهواءُ الرَّطب البارد اللَّين اللَّذيذ يُغذِّي بحسبه، والرائحة الطيبة تُغذِّي نوعاً من الغذاء،

فتغذية الماء أظهر وأظهر.

والمقصودُ: أنه إذا كان بارداً، وخالطه ما يُحليه ـ كالعسل، أو الزبيب. أو التمر أو السكر ـ كان من أنفع ما يدخل البدن، وحفِظَ عليه صحته، فلهذا كان أحبُّ الشرابِ إلى رسولِ الله ﷺ البارِدَ الحلوَ. والماءُ الفاترُ ينفخ، ويفعل ضدَّ هذه الأشياء.

ولما كان الماء البائت أنفعَ من الذي يُشرب وقتَ استقائه، قال النبيُّ ﷺ وقد دخل إلى حائط أبي الهيثم بن التيهان: «هَلْ من ماءٍ بات في شَنَّة»؟ فأتاه به، فشرب منه، رواه البخاري ولفظُه: «إنْ كان عِنْدَكَ ماءٌ باتَ في شَنَّة وإلاَّ كَرَعْنَا»[1] والماء البائت: بمنزلة العجين الخمير، والذي شُرِب لوقته بمنزلة الفطير[2].

وأيضاً: فإنَّ الأجزاء الترابية والأرضية تُفارقه إذا بات، وقد ذُكِر أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان يُسْتَعْذَبُ له الماء[3]، «ويَختار البائت منه»[4]. وقالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يُستقى له الماء العذب مِن بئر السقيا[5].

***

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

[6]أثنى سبحانه في كتابه على المتفكرين في خلق السموات والأرض وذم المعرضين عن ذلك، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٦١٣) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٧٧).

(٢) انظر: فيض القدير (٥/ ٢١٨).

(٣) أخرجه ابن حبان (١٢/ ١٤٩ رقم ٥٣٣٢) وفي موارد الظمآن (رقم ١٣٦٥) وأبو داود (رقم ٣٧٣٥) وأبو يعلى (٨/ ٨٢ رقم ٤٦١٣) وإسحاق بن راهويه (٢/ ٣١٧ رقم ٨٤١) والبيهقي في الشعب (٥/ ١٢١ رقم ٦٠٣٣) انظر: فتح الباري (١٠/ ٧٤).

(٤) انظر: فتح الباري (١٠/ ٧٧) وعون المعبود (١٠/ ١٣٧).

(٥) أخرجه أبو يعلى (٨/ ٨٢ رقم ٤٦١٣) والخطيب في تاريخه (٣/ ١٣٠) وابن عساكر في تاريخه (٤/ ٢٤٧) وابن شبة في أخبار المدينة (١/ ١٠١ رقم ٤٦٢).

(٦) ١٩٧ مفتاح جـ١.

[الأنبياء: ٣٢] وتأمل كيف خلق هذا السقف الأعظم مع صلابته وشدته ووثاقته من دخان وهو بخار الماء، قال الله تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢] وقال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨] وقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾.

فانظر إلى هذا البناء العظيم الشديد الواسع، الذي رفع سمكه أعظم ارتفاع، وزينه بأحسن زينة، وأودعه العجائب والآيات، وكيف ابتدأ خلقه من بخار ارتفع من الماء وهو الدخان.

فسبحان من لا يقدر الخلق قدره ... ومن هو فوق العرش فرد موحد[١]

لقد تعرف إلى خلقه بأنواع التعرفات، ونصب لهم الدلالات، وأوضح لهم الآيات البينات، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة، وأن الله لسميع عليم، فارجع البصر إلى السماء، وانظر فيها وفي كواكبها ودورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودؤوبها في الحركة على الدوام من غير فتور في حركتها، ولا تغير في سيرها، بل تجري في منازل قد رتبت لها بحساب مقدر، لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها فاطرها وبديعها.

***

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

[٢]سئل البخاري عن الخضر وإلياس، هل هما أحياء؟ فقال: كيف يكون هذا؟ وقد

---

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وقائله أمية بن أبي الصلت، وهو شاعر جاهلي من أهل الطائف، اطلع على الكتب القديمة التوراة والإنجيل والزبور، حرّم على نفسه الخمر ونبذ عبادة الأوثان، وأدرك النبي ﷺ، وشهد أنه على الحق، ولكنه لم يدخل في دين الله ﷻ، وقال فيه رسول الله ﷺ: «وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم» أخرجه البخاري (رقم ٣٨٤١) ومسلم (رقم ٢٢٥٦) والبيت ذكره أبو عمر ابن عبد البر في الاستذكار (٢/ ٥٢٨) والتمهيد (٧/ ١٣٣) وابن القيم في حاشيته على سنن أبي داود (١٣/ ٢١).

(٢) ٦٨ المنار المنيف.

قال النبي ﷺ: «لا يبقى على رأس مئة سنة ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد»[١].

وسئل عن ذلك كثير غيرهما من الأئمة فقالوا: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

وسئل عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فقال: لو كان الخضر حيًا لوجب عليه أن يأتي النبي ﷺ ويجاهد بين يديه، ويتعلم منه، وقد قال النبي ﷺ يوم بدر: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض»[٢]. وكانوا ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلًا معروفين بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم، فأين كان الخضر حينئذ؟

قال أبو الفرج ابن الجوزي: والدليل على أن الخضر ليس بباقٍ في الدنيا أربعة أشياء: القرآن، والسنة، وإجماع المحققين من العلماء، والمعقول. أما القرآن فقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ فلو دام الخضر كان خالدًا.

***

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

[٣]الله سبحانه كما هو خالق الخلق فهو خالق ما به غناهم وفقرهم، فخلق الغنى والفقر ليبتلي بهما عباده أيهم أحسن عملًا، وجعلهما سببًا للطاعة والمعصية، والثواب والعقاب، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] قال ابن عباس - رضي الله عنهما - بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، وكلها بلاء[٤] وقال ابن يزيد: نبلوكم بما تحبون وما تكرهون، لننظر كيف صبركم وشكركم فيما تحبون وما تكرهون. وقال الكلبي: بالشر بالفقر والبلاء. والخير

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١١٦) ومسلم (رقم ٢٥٣٧) وانظر: عمدة القاري (٥/ ٩٧-٩٨).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٧٦٣) وانظر: فتح الباري (٦/ ٤٣٤).

(٣) ١٦٩ عدة الصابرين.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١٧/ ٢٥) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ١٠٠٧) وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٧٩).

بالمال والولد، فأخبر سبحانه أن الغنى والفقر مطيتا الابتلاء والامتحان.

وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ۝ كَلَّا ﴾ [الفجر: ١٥-١٧] فأخبر سبحانه أنه يبتلي عبده بإكرامه له وبتنعيمه له، وبسط الرزق عليه، كما يبتليه بتضييق الرزق وتقديره عليه، وأن كليهما ابتلاء منه وامتحان.

ثم أنكر سبحانه على من زعم أن بسط الرزق وتوسعته إكرام من الله لعبده، وأن تضييقه عليه إهانة منه له، فقال ﴿ كَلَّا ﴾ أي: ليس الأمر كما يقول الإنسان، بل قد أبتلي بنعمتي وأنعم ببلائي، وإذا تأملت ألفاظ الآية وجدت هذا المعنى يلوح على صفحاتها ظاهرا للمتأمل. وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٦٥]...

***

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ۝ ﴾.

[(١)] تنقسم[(٢)] بذلك إلى قسمين: أحدهما محبة تنشأ من: الإحسان، ومطالعة الآلاء والنعم؛ فإن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها، ولا أحد أعظم إحساناً من الله سبحانه، فإن إحسانه على عبده في كل نفس ولحظة، وهو يتقلب في إحسانه في جميع أحواله. ولا سبيل له إلى ضبط أجناس هذا الإحسان فضلاً عن أنواعه أو عن أفراده. ويكفي أن من بعض أنواعه نعمة النفس التي لا تكاد تخطر ببال العبد، وله عليه في كل يوم وليلة فيه أربعة وعشرون ألف نعمة، فإنه يتنفس في اليوم والليلة أربعة وعشرون ألف نفس، وكل نفس نعمة منه سبحانه، فإذا كان أدنى نعمة

(١) ٣١٥ طريق الهجرتين.

(٢) أي المحبة.

عليه في كل يوم أربعة وعشرين ألف نعمة فما الظن بما فوق ذلك وأعظم منه ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾[1].

هذا إلى ما يصرف عنه من المضرات وأنواع الأذى التي تقصده، ولعلها توازن النعم في الكثرة، والعبد لا شعور به بأكثرها أصلاً، والله سبحانه يكلؤه منها بالليل والنهار، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ﴾ [الأنبياء:٤٢]، وسواء كان المعنى من يكلؤكم ويحفظكم منه إذا أراد بكم سوءاً، ويكون يكلؤكم مضمناً معنى يجيركم وينجيكم من بأسه، أو كانت «من» البدلية أي من يكلؤكم بدل الرحمن، أي هو الذي يكلؤكم وحده، لا كالئ لكم غيره.

ونظير «من» هذه قوله: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٠]، على أحد القولين، أي عوضكم وبدلكم، واستشهدوا على ذلك بقول الشاعر:

جـارية لم تأكل المرقّقا ولم تذق من البقول الفستقا[2]

أي لم تأكل الفستق بدل البقول، وعلى كلا القولين فهو سبحانه منعم عليهم بكلاءتهم وحفظهم وحراستهم مما يؤذيهم بالليل والنهار وحده، لا حافظ لهم غيره. هذا مع غناه التام عنهم، وفقرهم التام إليه من كل وجه.

وفي بعض الآثار يقول تعالى: **«أنا الجواد، ومن أعظم مني جوداً وكرماً؟ أبيت أكلأ عبادي في مضاجعهم وهم يبارزونني بالعظائم»**[3].

***

---

(١) إبراهيم: ٣٤، والنحل: ١٨.

(٢) هذا البيت من بحر الرجز وقائله أبو نخيلة بن حزن بن زائدة الحماني التميمي شاعر راجز، مات سنة ١٤٥هـ. ذكر البيت ابن منظور في لسان العرب (١٠/ ٣٠٨) (١١/ ٦١) وابن كثير في تفسيره (٣/ ١٨٠) والشنقيطي في أضواء البيان (٤/ ١٥٤) وجاء فيهما: جارية لم تلبس المرققا.

(٣) أخرجه بنحوه الديلمي في الفردوس (٥/ ٢٤٧ رقم ٨٠٩٢) وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٩٢-٩٣) وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٢٢٨) وشرح حديث لبيك (ص ١٣٨).

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

...[(١)]قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأنبياء: ٤٧] يجوز أن تكون اللام لام التعليل: أي: لأجل يوم القيامة. وقد قيل: إن «القسط» منصوب على أنه مفعول له، أي نضعها لأجل القسط، وقد استوفى شروط نصبه.

***

﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٩].

[(٢)]«الإشفاق» رقة الخوف، وهو خوف برحمة من الخائف لمن يخاف عليه، فنسبته إلى الخوف نسبة الرأفة إلى الرحمة. فإنه ألطف الرحمة وأرقها، ولهذا قال صاحب المنازل: «الإشفاق: دوام الحذر، مقرونًا بالترحم، وهو على ثلاث درجات. الأولى: إشفاق على النفس أن تجمع إلى العناد»، أي تسرع وتذهب إلى طريق الهوى والعصيان، ومعاندة العبودية.

و«إشفاق على العمل: أن يصير إلى الضياع». أي يخاف على عمله أن يكون من الأعمال التي قال الله فيها: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]، وهي الأعمال التي كانت لغير الله،وعلى غير أمره وسنة رسوله ﷺ، ويخاف أيضًا أن يضيع عمله في المستقبل، إما بتركه، وإما بمعاصي تفرقه وتحبطه، فيذهب ضائعًا، ويكون حال صاحبه كالحال التي قال الله تعالى عن أصحابها: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [البقرة: ٢٦٦] قال عمر بن الخطاب ﷺ للصحابة ﷺ: «فيمن ترون هذه الآية نزلت؟ فقالوا: الله أعلم، فغضب عمر، وقال: قولوا: نعلم، أو لا نعلم. فقال

---

(١) ٣٨٢ زاد المعاد جـ٤.

(٢) ٥١٧ مدارج جـ١.

ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، قال: يا ابن أخي قل. ولا تحقرنَّ نفسك، قال ابن عباس: ضربت مثلًا لعمل. قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لرجل غني يعمل بطاعة الله، فبعث الله إليه الشيطان، فعمل بالمعاصي حتى أغرق جميع أعماله»[(١)] اهـ.

...[(٢)]واقتران التوراة بالقرآن في غير موضع من الكتاب: كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ﴾ [القصص: ٤٨، ٤٩].

وقوله في الأنعام ردًّا على من قال: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١] الآية ثم قال: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: ٩٢].

وقال في آخر السورة: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٤، ١٥٥].

وقال في سورة آل عمران: ﴿الم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١-٤].

وقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٨-٥٠].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٥٣٨) وانظر: عمدة القاري (١٨/ ١٢٩).
(٢) ١١١ جلاء الأفهام.

ولهذا يذكر ﷺ قصة موسى ويعيدها ويبديها، ويسلي رسول الله ﷺ، ويقول رسول الله ﷺ عندما يناله من أذى الناس: «**لقد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر**»[(١)] ولهذا قال النبي ﷺ: «**إنه كائن في أمتي ما كان في بني إسرائيل، حتى لو كان فيهم من أتى أمه علانية لكان في هذه الأمة من يفعله**»[(٢)]. فتأمل هذا التناسب بين الرسولين والكتابين والشريعتين؛ أعني الشريعة الصحيحة التي لم تبدل، والأمتين واللغتين.

[(٣)]ثم أخبر تعالى عن القرآن بأنه ذكر للعالمين. وفي موضع آخر: تذكرة للمتقين. وفي موضع آخر لرسوله ﷺ ولقومه، وفي موضع آخر: ذكر مطلق. وفي موضع آخر: ذكر مبارك، وفي موضع آخر وصفه بأنه ذو الذكر. وبجمع هذه المواضع تبين المراد من كون ذكرًا عامًّا وخاصًّا، وكونه ذا ذكر، فإنه يذكر العباد بمصالحهم في معاشهم ومعادهم.

ويذكرهم بالمبدأ والمعاد، ويذكرهم بالرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، وحقوقه على عباده، ويذكرهم بالخير ليقصدوه، وبالشر ليجتنبوه.

ويذكرهم بنفوسهم، وأحوالها وآفاتها، وما تكمل به، ويذكرهم بعدوهم وما يريد منهم، وبماذا يحترزون من كيده، ومن أي الأبواب والطرق يأتي إليهم.

ويذكرهم بفاقتهم وحاجتهم إليه، وأنهم مضطرون إليه، لا يستغنون عنه نفسًا واحدًا، ويذكرهم بنعمه عليهم، ويدعوهم بها إلى نعم أخرى أكبر منها.

ويذكرهم بأسه وشدة بطشه، وانتقامه ممن عصى أمره، وكذب رسله، ويذكرهم بثوابه وعقابه، ولهذا يأمر سبحانه عباده أن يذكروا ما في كتابه، كما قال: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦١٠٠) ومسلم (رقم ١٠٦٢) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٥١٢).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٦٤١) وحسنه، والحاكم (١/ ٢١٨ رقم ٤٤٤) والديلمي في الفردوس (٣/ ٤٣٩ رقم ٥٣٤٧).

(٣) ٨٠ التبيان.

وإذا كان كذلك فأحق وأولىٰ وأول من كان ذاكرًا له من أنزل عليه، ثم لقومه، ثم لجميع العالمين، وحيث خص به المتقين فلأنهم الذين انتفعوا بذكره.

وأما وصفه بأنه ذو الذكر فلأنه مشتمل علىٰ الذكر، فهو صاحب الذكر، ومنه الذكر، فهو ذكر وفيه الذكر، كما أنه هدىٰ وفيه الهدىٰ، وشفاء وفيه الشفاء، ورحمة وفيه الرحمة.

***

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

[1] وأصح الأقوال في الآية أن المعنىٰ من قبل نزول التوراة فإنه سبحانه قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨] وقال: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٠] ثم قال: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ ذلك، ولهذا قطعت (قبل) عن الإضافة، وبنيت لأن المضاف منوىٰ معلوم، وإن كان غير مذكور في اللفظ.

وذكر سبحانه هؤلاء الثلاثة، وهم أئمة الرسل، وأكرم الخلق عليه: محمد وإبراهيم وموسىٰ، وقد قيل: من قبل أي: في حال صغره، قبل البلوغ، وليس في اللفظ ما يدل علىٰ هذا، والسياق إنما يقتضىٰ من قبل ما ذكر.

وقيل: المعنىٰ بقوله: من قبل، أي: في سابق علمنا، وليس في الآية أيضًا ما يدل علىٰ ذلك، ولا هو أمر مختص بإبراهيم، بل كل مؤمن فقد قدر الله هداه في سابق علمه، والمقصود قوله: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ قال البغوي: إنه أهل للهداية والنبوة، وقال أبو الفرج، أي: عالمين بأنه موضع لإيتاء الرشد.

وقال صاحب الكشاف: المعنىٰ علمه به أنه علم منه أحوالًا بديعة وأسرارًا عجيبة، وصفات قد رضيها وحمدها،حتىٰ أهله لمخالته ومخالصته، وهذا كقولك في حر من

---

(١) ٣٢ شفاء العليل.

الناس: أنا عالم بفلان، فكلامك هذا من الاحتواء على محاسن الأوصاف، وهذا كقوله: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَـٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الدخان: ٣٢].

ونظيره قوله: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٣، ٣٤].

وقريب منه قوله: ﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١] حيث وضعنا هذا التخصيص في ا لمحل الذي يليق به من الأماكن والأناسي.

***

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ﴿٥٢﴾ ﴾.

[(١)] الإنابة هي: عكوف القلب على الله ﷻ كاعتكاف البدن في المسجد لا يفارقه، وحقيقة ذلك عكوف القلب على محبته، وذكره بالإجلال والتعظيم، وعكوف الجوارح على طاعته بالإخلاص له والمتابعة لرسوله، ومن لم يعكف قلبه على الله وحده، عكف على التماثيل المتنوعة؛ كما قال إمام الحنفاء لقومه: ﴿ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٢] فاقتسم هو وقومه حقيقة العكوف، فكان حظ قومه العكوف على التماثيل، وكان حظه العكوف على الرب الجليل.

والتماثيل: جمع تمثال، وهي: الصورة الممثلة، فتعلق القلب بغير الله واشتغاله به والركون إليه؛ عكوف منه على التماثيل التي قامت بقلبه، وهو نظير العكوف على تماثيل الأصنام، ولهذا كان شرك عبادة الأصنام بالعكوف بقلوبهم وهممهم وإراداتهم على تماثيلهم، فإذا كان في القلب تماثيل قد ملكته واستعبدته، بحث يكون عاكفًا عليها، فهو نظير عكوف الأصنام عليها، ولهذا سماه النبي ﷺ عبدًا لها، ودعا عليه

---

(١) ١٩٥ فوائد.

بالتعس والنكس، فقال: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش**»[(١)].

...[(٢)]أخبر الله سبحانه عن كليمه موسى عليه السلام: أنه أحرق العجل الذي عبد من دون الله، ونسفه في اليم، وكان من ذهب وفضة، وذلك محق له بالكلية.

وقال عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ [الأنبياء: ٥٨] وهو الفتات وذلك نص في الاستئصال.

وروى الإمام أحمد في مسنده والطبراني في المعجم من حديث الفرج بن فضالة عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله بعثني رحمة للعالمين، وهدى للعالمين، وأمرني ربي بمحقِ المعازف والمزامير والأوثان، والصليب، وأمر الجاهلية**»[(٣)] لفظ الطبراني. والفرج: حمصي. قال أحمد في رواية: هو ثقة وقال يحيى: ليس به بأس، وتكلم فيه آخرون. وعلي بن يزيد: دمشقي ضعفه غير واحد، وقال أبو مسهر ـ وهو بلديُّه ـ: لا أعلم به إلا خيرًا، وهو أعرف به. «والمحق» نهاية الإتلاف.

وأيضًا: فالقياس يقتضي ذلك، لأن محل الضمان: هو ما قَبِل المعاوضة، وما نحن فيه لا يقبلها البتة، فلا يكون مضمونًا،وإنما قلنا: لا يقبل المعاوضة، لأن النبي ﷺ قال: «**إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام**»[(٤)] وهذا نص. وقال: «**إن الله إذا حرم شيئًا حرم ثمنه**»[(٥)] والملاهي محرمات بالنص، فحرم بيعها.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٨٨٧) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٥٤).

(٢) ٢٧٢ الطرق الحكمية.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٨) والطبراني في الكبير (٨/ ١٩٦ رقم ٧٨٠٣) والطيالسي (رقم ١١٣٤) وأبو علي الأشيب في جزئه (رقم ١٢) وانظر: المفتي (١٠/ ١٧٣).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٢٢٣٦) ومسلم (رقم ١٥٨١) وانظر: شرح النووي (١١/ ٦).

(٥) أخرجه ابن حبان (١١/ ٣١٢ رقم ٤٩٣٨) والدارقطني (٣/ ٧ رقم ٢٠) وابن المنذر في الأوسط (٢/ ٢٩١ رقم ٨٨٥) وابن الجعد (رقم ٣٣١٩) وانظر: التمهيد (١٧/ ٤٠٣) وجامع العلوم والحكم (١/ ٤١٤-٤١٥).

وأما قبول ما فوق الحد المبطل للصورة لجعله آنية: فلا يثبت به وجوب الضمان، لسقوط حرمته، حيث صار جزء المحرم، أو ظرفًا له، كما أمر به النبي ﷺ في كسر دِنان الخمر، وشق ظروفها، فلا ريب أن للمجاورة تأثيرًا في الامتهان والإكرام.

وقد قال تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ [النساء: ١٤٠]، وسئل النبي ﷺ عن القوم: يكونون بين المشركين، يؤاكلونهم ويشاربونهم؟ فقال: «هم منهم» هذا لفظه أو معناه.

فإذا كان هذا في المجاورة المنفصلة فكيف بالمجاورة التي صارت جزءًا من أجزاء المحرم، أو لصيقة به؟ وتأثير الجوار ثابت عقلًا وشرعًا وعرفًا.

والمقصود أن إتلاف المال ـ على وجه التعزير والعقوبة ـ ليس بمنسوخ...

***

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾.

[١]ذكر النبيين الكريمين، وأثنى عليهما بالحكم والعلم، وخصّ بفهم القضية أحدهما، وقد ذكرت الحكمين الداوودي والسليماني ووجههما ومن صار من الأئمة إلى هذا، ومن صار إلى هذا، وترجيح الحكم السليماني من عدة وجوه، وموافقته للقياس وقواعد الشرع في كتاب الاجتهاد والتقليد.

[٢]وعلى هذا الأصل تبتنى الحكومة المذكورة في كتاب الله ﷻ، التي حكم فيها النبيان الكريمان: داود وسليمان صلى الله عليهما وسلم؛ إذ حكما في الحرث الذي نفشت فيه غنم القوم، والحرث: هو البستان.

---

(١) ٥٧ مفتاح جـ١.
(٢) ٣٢٦ أعلام جـ١.

وقد روىٰ أنه كان بستان عنب، وهو المسمىٰ بالكرم، والنفش: رَعْيُ الغنم ليلًا، فحكم داود بقيمة المتلف، فاعتبر الغنم فوجدها بقدر القيمة، فدفعها إلىٰ أصحاب الحرث، إما لأنه لم يكن لهم دراهم أو تعذر بيعها، ورضوا بدفعها ورضي أولئك بأخذها بدلًا عن القيمة، وأما سليمان فقضىٰ بالضمان علىٰ أصحاب الغنم، وأن يضمنوا ذلك بالمثل بأن يعمروا البستان حتىٰ يعود كما كان، ولم يضيع عليهم مُغَلَّه من الإتلاف إلىٰ حين العود، بل أعطىٰ أصحاب البستان ماشية أولئك ليأخذوا من نمائها بقدر نماء البستان، فيستوفوا من نماء غنمهم نظير ما فاتهم من نماء حرثهم، وقد اعتبر النماءين فوجدهما سواء، وهذا هو العلم الذي خصَّه الله به، وأثنىٰ عليه بإدراكه. وقد تنازع علماء المسلمين في مثل هذه القضية علىٰ أربعة أقوال:

أحدها: موافقة الحكم السليماني في ضمان النفس وفي المثل، وهو الحق، وهو أحد القولين في مذهب أحمد، ووجه للشافعية والمالكية، والمشهور عندهم خلافه.

والقول الثاني: موافقته في ضمان النفش دون التضمين بالمثل، وهذا هو المشهور من مذهب مالك والشافعي وأحمد.

والثالث: موافقته في التضمين بالمثل دون النفش، كما إذا رَعَاها صاحبها باختياره دون ما إذا تفلتت ولم يشعر بها، وهو قول داود ومن وافقه.

والقوال الرابع: أن النفش لا يوجب الضمان بحال، وما وجب من ضمان الراعي بغير النفش، فإنه يضمن بالقيمة لا بالمثل، وهذا مذهب أبي حنيفة.

وما حكم به نبي الله سليمان هو الأقرب إلىٰ العدل والقياس، وقد حكم رسول الله ﷺ علىٰ أهل الحوائط حفظها بالنهار، وأن ما أفسدت المواشي بالليل ضمان علىٰ أهلها، فصح بحكمه ضمان النفش، وصح بالنصوص السابقة والقياس الصحيح وجوب الضمان بالمثل، وصح بنص الكتاب الثناء علىٰ سليمان بتفهيم هذا الحكم، فصح أنه الصواب، وبالله التوفيق.

***

﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾.

[(١)] جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد، وإظهار الفقر والفاقة إلىٰ ربه، ووجود طعم المحبة في المتملق له، والإقرار له بصفة الرحمة، وأنه أرحم الراحمين، والتوسل إليه بصفاته ـ سبحانه ـ وشدة حاجته هو وفقره، ومتىٰ وجد المبتلىٰ هذا كشفت عنه بلواه، وقد جرب أنه من قالها سبع مرات، ولاسيما مع هذه المعرفة كشف الله ضره.

***

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

[(٢)] كيف ينهي عن التشبه به فيما يثنىٰ عليه ويمدحه به، وكذلك أثنىٰ علىٰ أيوب بقوله: ﴿ مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ وعلىٰ يعقوب بقوله: ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [يوسف: ٨٦] وعلىٰ موسىٰ بقوله: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص: ٢٤].

وقد شكا إليه خاتم أنبيائه ورسله بقوله: «اللهم أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي»[(٣)] الحديث، فالشكوىٰ إليه سبحانه لا تنافي الصبر الجميل، بل إعراض عبده عن الشكوىٰ إلىٰ غيره جملة، وجعل الشكوىٰ إليه وحده هو الصبر، والله تعالىٰ يبتلي عبده ليسمع شكواه وتضرعه ودعاءه.

وقد ذم سبحانه من لم يتضرع إليه ولم يستكن له وقت البلاء، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ

---

(١) ٢٠٠ فوائد.

(٢) ٣٣ عدة الصابرين.

(٣) أخرجه الضياء في المختارة (٩/ ١٧٩-١٨٠ رقم ١٦٢) والطبراني في الدعاء (رقم ١٠٣٦) وابن عدي في الكامل (٦/ ١١١) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٩/ ١٥٢) والخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (رقم ١٨٣٩).

أَخَذْنَاهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٦]. والعبد أضعف من أن يتجلد على ربه، والرب تعالى لم يرد من عبده أن يتجلد عليه، بل أراد منه أن يستكين له ويتضرع إليه، وهو تعالى يمقت من يشكوه إلى خلقه، ويحب من يشكو ما به إليه، وقيل لبعضهم: كيف تشتكي إليه ما ليس يخفى عليه، فقلت: ربي يرضى ذل العبد إليه.

والمقصود أنه سبحانه أمر رسوله أن يصبر صبر أولي العزم الذين صبروا لحكمه اختيارًا، وهذا أكمل الصبر، ولهذا دارت قصة الشفاعة يوم القيامة على هؤلاء، حتى ردوها إلى أفضلهم وخيرهم، وأصبرهم لحكم الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

(١)وأما دعوة ذي النون: فإن فيها من كمال التوحيد، والتنزيه للرب تعالى، واعتراف العبد بظلمه لنفسه وذنبه: ما هو من أبلغ أدوية الكرب والهم والغم، وأبلغ الوسائل إلى الله سبحانه في قضاء الحوائج، فإن التوحيد والتنزيه يتضمنان إثبات كل كمال لله وسلب كل نقص وعيب وتمثيل عنه، والاعتراف بالظلم: يتضمن إيمان العبد بالشرع والثواب والعقاب، ويوجب انكساره وبرجوعه إلى الله واستقالته عثرته والاعتراف بعبوديته وافتقاره إلى ربه.

فهاهنا أربعة أمور قد وقع التوسل بها، التوحيد، والتنزيه، والعبودية، والاعتراف، اهـ.

***

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

---

(١) ٢٧٧ زاد المعاد جـ٣.

[(١)]قال الله ﷻ: ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ [الأنبياء: ٩٠] والفرق بين «الرغبة» و«الرجاء» أن الرجاء طمع، والرغبة طلب، فهي ثمرة الرجاء، فإنه إذا رجا الشيء طلبه، والرغبة من الرجاء كالهرب من الخوف، فمن رجا شيئًا طلبه ورغب فيه، ومن خاف شيئًا هرب منه. والمقصود أن الراجي طالب، والخائف هارب.

[(٢)]﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ ﴾ إلى أن قال: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٩،٩٠] أي: رغبًا فيما عندنا ورهبًا من عذابنا والضمير في قوله: ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ عائد على الأنبياء المذكورين في هذه السورة عند عامة المفسرين.

و«الرغب والرهب» رجاء الرحمة، والخوف من النار عندهم أجمعين. وذكر ـ سبحانه ـ عباده، الذين هم خواص خلقه، وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم، وجعل منها: استعاذتهم به من النار، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٥، ٦٦].

وأخبر عنهم: أنهم توسلوا إليه بإيمانهم أن ينجيهم من النار، فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٦] فجعلوا أعظم وسائلهم إليه: وسيلة الإيمان، وأن ينجيهم من النار.

وأخبر تعالى عن سادات العارفين أولي الألباب: أنهم كانوا يسألونه جنته ويتعوذون به من ناره، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ الآيات إلى آخرها [آل عمران: ١٩٠-١٩٨] ولا خلاف أن الموعود به على ألسنة رسله: هي الجنة التي سألوها.

وقال عن خليله إبراهيم ﷺ: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾

(١) ٥٥ مدارج جـ٢.
(٢) ٧٦ مدارج جـ٢.

رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٢-٨٩] فسأل الله الجنة واستعاذ به من النار، وهو الخزي يوم البعث. وأخبرنا سبحانه عن الجنة: أنها كانت وعدًا عليه مسئولًا أي يسأله إياها عباده وأولياؤه.

(١)وقد أثنى الله على أقرب عباده إليه بالخوف منه، فقال عن أنبيائه بعد أن أثنى عليهم ومدحهم: فالرغب الرجاء والرغبة، والرهب: الخوف والخشية، وقال عن ملائكته الذين قد أمنهم من عذابه: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴾ [النحل: ٥٠] وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إني أعلمكم بالله وأشدكم له خشية»(٢) وفي لفظ آخر: «إني أخوفكم لله وأعلمكم بما أتقى»(٣) وكان ﷺ يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء...

(٤)ذكر الحكم الكوني والشرعي عقيب الوصف المناسب له، وتارة يذكر بأن، وتارة يقرن بالفاء، وتارة يذكر مجردًا.

فالأول كقوله: ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٩، ٩٠] وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ [الذاريات: ١٥، ١٦] وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا

---

(١) ٢٨٢ طريق الهجرتين.

(٢) أخرجه بنحوه البخاري (رقم ٢٠) وانظر: فتح الباري (١/ ٧٠، ١٤٠) والتمهيد (٥/ ١٢٠).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١١١٠) وانظر: فتح الباري (٤/ ١٤٧) (١٠/ ٥١٤).

(٤) ١٩٦ شفاء العليل.

ﵟٱلۡمُخۡلَصِينَﵞ [يوسف: ٢٤] وقوله: ﵟوَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَﵞ [الأعراف: ١٧٠].

والثاني كقوله: ﵟوَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَاﵞ [المائدة: ٣٨]، ﵟٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖﵞ [النور: ٢].

والثالث كقوله: ﵟإِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍﵞ [الحجر: ٤٥]، ﵟإِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡﵞ [البقرة: ٢٧٧] وهذا في التنزيل يزيد على عدة آلاف موضع، بل القرآن مملوء منه.

فإن قيل: هذا إنما يفيد كون تلك الأفعال أسبابًا لما رتب عليها لا يقتضي إثبات التعليل في فعل الرب وأمره، فأين هذا من هذا؟!

قيل: لما جعل الرب سبحانه هذه الأوصاف عللًا لهذه الأحكام وأسبابًا لها دل ذلك على أنه حكم بها شرعًا وقدرًا، لأجل تلك الأوصاف، وأنه لم يحكم بها لغير علة ولا حكمة، ولهذا كان كل من نفى التعليل والحكم نفى الأسباب، ولم يجعل لحكم الرب الكوني والديني سببًا ولا حكمة هي العلة الغائية، وهؤلاء ينفون الأسباب والحكم، ومن تأمل شرع الرب وقدره وجزاءه جزم جزمًا ضروريًّا ببطلان قول النفاة، والله سبحانه قد رتب الأحكام على أسبابها وعللها، وبيَّن ذلك خبرًا وحسًّا وفطرة وعقلًا، ولو ذكرنا ذلك على التفصيل لقام منه عدة أسفار.

(1)والفرق بين الإخبار بالحال وبين الشكوى وإن اشتبهت صورتهما: أن الإخبار بالحال يقصد المخبر به قصدًا صحيحًا من علم سبب إدانته أو الاعتذار لأخيه من أمر طلبه منه، أو يحذره من الوقوع في مثل ما وقع فيه، فيكون ناصحًا بإخباره له، أو حمله على الصبر بالتأسي به، كما يذكر عن الأحنف أنه شكا إليه رجل شكوى، فقال: يا ابن أخي لقد ذهب ضوء عيني من كذا وكذا سنة فما أعلمت به

---

(١) ٣١٥ الروح.

أحدًا. ففي ضمن هذا الأخبار من حمل الشاكي على التأسي والصبر ما يثاب عليه المخبر وصورته صورة الشكوى، ولكن القصد ميز بينهما، ولعل من هذا قول النبي ﷺ لما قالت عائشة: وارأساه! فقال: «بل أنا وارأساه!»[1] أي الوجع القوي بي أنا دونك، فتأسي بي فلا تشتكي.

ويلوح لي فيه معنى آخر، وهو أنها كانت حبيبة رسول الله ﷺ، بل كانت أحب النساء إليه على الإطلاق، فلما اشتكت إليه رأسها أخبرها أن بمحبها من الألم مثل الذي بها، وهذا غاية الموافقة من المحب ومحبوبه يتألم بتألمه، ويسر بسروره، حتى إذا آلمه عضو من أعضائه آلم المحب ذلك العضو بعينه، وهذا من صدق المحبة وصفاء المودة، فالمعنى الأول يفهم أنك لا تشتكي واصبري، فبي من الوجع مثل ما بك، فتأسي بي في الصبر وعدم الشكوى.

والمعنى الثاني: يفهم إعلامها بصدق محبته لها، أي انظري قوة محبتي لك كيف واسيتك في ألمك ووجع رأسك، فلم تكوني متوجعة وأنا سليم من الوجع، بل يؤلمني ما يؤلمك، كما يسرني ما يسرك، كما قيل:

وإن أولى البرايا أن تواسيه ... عند السرور الذي واساك في الحزن[2]

وأما الشكوى فالأخبار العاري عن القصد الصحيح، بل يكون مصدره السخط وشكاية المبتلي إلى غيره، فإن شكا إليه ﷺ لم يكن ذلك شكوى، بل استعطاف وتملق واسترحام له، كقول أيوب: رب ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، وقول يعقوب: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، وقول موسى: اللهم لك

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٦٦٦) وانظر: فتح الباري (١٠/ ١٢٥).

(٢) هذا البيت من بحر البسيط، وقائله دعبل الخزاعي، كان في شعره جودة، وصادق البحتري، وله كتاب في طبقات الشعراء، أصله من الكوفة وأقام ببغداد وتوفي سنة ٢٤٦هـ في قرية الطيب بين واسط وخورستان، ذكر البيت أبو منصور الثعالبي في الإعجاز والإيجاز (ص ٢١٣) وفي خاص الخاص (ص ٢٥٣) وياقوت الحموي في معجم الأدباء (١/ ١٢٧).

الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك. وقول سيد ولد آدم: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني! إلى بعيد يتجهمني أو إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل عليَّ غضبك، أو ينزل بي سخطك لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك**»[1] فالشكوى إلى الله سبحانه لا تنافي الصبر بوجه، فإن الله تعالى قال عن أيوب: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٤٤] مع إخباره عنه بالشكوى إليه في قوله: ﴿ مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ ﴾.

وأخبر عن نبيه يعقوب أنه وعد من نفسه بالصبر الجميل والنبي إذا قال وفَّى مع قوله: ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾، ولم يجعل ذلك نقصًا لصبره. ولا يلتفت إلى غير هذا من ترهات القوم، كما قال بعضهم لما قال: ﴿ مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ ﴾ قال تعالى: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ﴾ [ص: ٤٤] ولم يقل صبورًا، حيث قال: ﴿ مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ ﴾ وقال: بعضهم: لم يقل ارحمني، وإنما قال: أنت أرحم الراحمين، فلم يزد على الأخبار بحاله ووصف ربه. وقال بعضهم: إنما شكا مس الضر حين ضعف لسانه عن الذكر، فشكا مس ضر ضعف الذكر لا ضر المرض والألم. وقال بعضهم: استخرج منه هذا القول ليكون قدوة للضعفاء من هذه الأمة، وكأن هذا القائل رأى أن الشكوى إلى الله تنافي الصبر.

وغلط أقبح الغلط فالمنافي للصبر شكواه لا الشكوى إليه، فالله يبتلي عبده ليسمع تضرعه ودعاءه والشكوى إليه ولا يحب التجلد عليه وأحب ما إليه انكسار قلب عبده بين يديه وتذلله له وإظهار ضعفه وفاقته وعجزه وقلة صبره، فاحذر كل الحذر من

(١) تقدم تخريجه قبل صفحات عند تفسير الآيتين (٨٧، ٨٨) من هذه السورة.

إظهار التجلد عليه، وعليك بالتضرع والتمسكن وإبداء العجز والفاقة والذل والضعف، فرحمته أقرب إلى هذا القلب من اليد للفم. اهـ.

***

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

[(١)] قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠١] قد تقدمت الأحاديث بوقوع أهل السعادة في إحدى القبضتين، وكتابتهم بأسمائهم وأسماء آبائهم في ديوان السعداء قبل خلقهم.

وفي صحيح الحاكم من حديث الحسين بن واقد عن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨] قال المشركون: فالملائكة وعيسى وعزير يعبدون من دون الله، قال: فنزلت: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ وهذا إسناد صحيح[(٢)].

وقال علي بن المديني: ثنا يحيى بن آدم ثنا أبو بكر بن عياش عن عاصم قال أخبرني أبو رزين عن أبي يحيى عن ابن عباس أنه قال: آية لا يسأل الناس عنها لا أدري أعرفوها فلم يسألوا عنها أو جهلوها فلا يسألون عنها، فقيل له: وما هي؟ فقال: لما نزلت: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ شق ذلك على قريش أو على أهل مكة، وقالوا: يشتم آلهتنا فجاء ابن الزبعري فقال: مالكم؟ قالوا: يشتم آلهتنا، قال: وما قال؟ قالوا: قال: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ قال: ادعوه لي. فلما دعي النبي ﷺ قال:

---

(١) ٢٦ شفاء العليل.

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٤١٦ رقم ٣٤٤٩).

يا محمد هذا شيء لآلهتنا خاصة أم لكل من عبد من دون الله فقال: لا بل لكل من عبد من دون الله. قال: فقال ابن الزبعري: خصمت ورب هذه البنية، يعني: الكعبة. ألست تزعم أن الملائكة عباد صالحون، وأن عيسى عبد صالح، وأن عزيرًا عبد صالح، وهذه بنو مليح تعبد الملائكة، وهذه النصارى تعبد عيسى، وهذه اليهود تعبد عزيرًا، قال: فضج أهل مكة، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾[1] [الأنبياء: ١٠١، ١٠٢] قال: ونزلت: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧] قال: هو الضجيج.

وهذا الإيراد الذي أورده ابن الزبعري لا يرد على الآية، فإنه سبحانه قال: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ولم يقل ومن تعبدون [وما] لما لا يعقل، فلا يدخل فيها الملائكة والمسيح وعزير، وإنما ذلك للأحجار ونحوها التي لا تعقل.

وأيضًا فإن السورة مكية والخطاب فيها لعباد الأصنام، فإنه قال: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ﴾ فلفظة [إنكم] ولفظة [ما] تبطل سؤاله، وهو رجل فصيح من العرب لا يخفى عليه ذلك، ولكن إيراده إنما كان من جهة القياس والعموم المعنوي، الذي يعم الحكم فيه بعموم علته، أي إن كان كونه معبودًا يوجب أن يكون حصب جهنم، فهذا المعنى بعينه موجود في الملائكة وعزير والمسيح، فأجيب بالفارق وذلك من وجوه:

أحدها: أن الملائكة والمسيح وعزيرًا، ممن سبقت لهم من الله الحسنى، فهم سعداء لم يفعلوا ما يستوجبون به النار، فلا يعذبون بعبادة غيرهم مع بعضهم ومعاداتهم لهم، فالتسوية بينهم وبين الأصنام أقبح من التسوية بين البيع والربا والميتة والذكي، وهذا شأن أهل الباطل، وإنما يسوون بين ما فرق الشرع والعقل والفطرة بينه، ويفرقون بين ما سوى الله ورسوله بينه.

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٤٠/ ٣٢٩) وانظر: تخريج الأحاديث والآثار (٢/ ٣٧٠) وتحفة الطالب لابن كثير (ص ٣٣٥).

الفرق الثاني: أن الأوثان حجارة غير مكلفة ولا ناطقة، فإذا حصبت بها جهنم إهانة لها ولعابديها لم يكن في ذلك من لا يستحق العذاب بخلاف الملائكة والمسيح وعزير فإنهم أحياء ناطقون، فلو حصبت بهم النار كان ذلك إيلامًا وتعذيبًا لهم.

الثالث: أن من عبد هؤلاء بزعمه فإنه لم يعبدهم في الحقيقة، فإنهم لم يدعوا إلى عبادتهم، وإنما عبد المشركون الشياطين، وتوهموا أن العبادة لهؤلاء، فإنهم عبدوا بزعمهم من ادعى أنه معبود مع الله وأنه معه إله.

وقد برأ الله سبحانه ملائكته والمسيح وعزيرًا من ذلك، وإنما ادعى ذلك الشياطين، وهم بزعمهم يعتقدون أنهم يرضون بأن يكونوا معبودين مع الله، ولا يرضى بذلك إلا الشياطين، ولهذا قال سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

وقال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: ٦٠] وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ۝ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٩] فما عبد غير الله إلا الشيطان، وهذه الأجوبة منتزعة من قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ ﴾ [الأنبياء: ١٠١] فتأمل الآية تجدها تلوح في صفحات ألفاظها وبالله التوفيق.

والمقصود ذكر الحسنى التي سبقت من الله لأهل السعادة قبل وجودهم.

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم ثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد ثنا أبو عامر العقدي ثنا عروة بن ثابت الأنصاري ثنا الزهري عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف: أن عبد الرحمن بن عوف مرض مرضًا شديدًا أغمي عليه، فأفاق فقال: أغمي عليّ؟ قالوا: نعم.

قال: إنه أتاني رجلان غليظان فأخذا بيدي، فقالا: انطلق نحاكمك إلى العزيز الأمين. فانطلقا بي، فتلقاهما رجل وقال: أين تريدان به؟ قالا: نحاكمه إلى العزيز الأمين. فقال: دعاه، فإن هذا ممن سبقت له السعادة وهو في بطن أمه[(١)].

وقال عبد الله بن محمد البغوي ثنا داود بن رشيد ثنا ابن علية حدثني محمد بن محمد القرشي عن عامر بن سعد قال: أقبل سعد من أرض له فإذا الناس عكوف على رجل فاطلع فإذا هو يسب طلحة والزبير وعليًا فنهاه، فكأنما زاده إغراء، فقال: ويلك تريد أن تسب أقوامًا هم خير منك لتنتهين أو لأدعون عليك، فقال: كأنما يخوفني نبي من الأنبياء، فانطلق فدخل دارًا فتوضأ ودخل المسجد، ثم قال: اللهم إن كان هذا قد سب أقوامًا قد سبقت لهم منك حسنى أسخطك سبه إياهم فأرني اليوم آية تكون للمؤمنين آية. وقال: تخرج بختية من دار بني فلان لا يردها شيء حتى تنتهي إليه، ويتفرق الناس، وتجعله بين قوائمها، وتطأه حتى طفى قال: فأنا رأيت سعدا يتبعه الناس يقولون: استجاب الله لك يا أبا إسحاق استجاب الله لك يا أبا إسحاق[(٢)].

وقال تعالى: ﴿ وَجَـٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا ﴾ [الحج: ٨٧] أي: الله سماكم من قبل القرآن وفي القرآن، فسبقت تسمية الحق سبحانه لهم مسلمين قبل إسلامهم وقبل وجودهم، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧/ ١١٥ رقم ٩٦٨٤) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ١٢٢٠) وابن المستفاض في القدر (رقم ٤٣٥) وابن أبي الدنيا في المحتضرين (رقم ٣٥٢) والحاكم (٢/ ٢٩٦ رقم ٣٠٦٦) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٢) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٢٣٦١) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٠/ ٣٤٨) والطبراني في الكبير (١/ ١٤٠ رقم ٣٠٧) وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ١٥٤): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

وقال ابن عباس في رواية الوالبي عنه في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢] قال: سبقت لهم السعادة في الذكر الأول[١]. وهذا لا يخالف قول من قال: إنه الأعمال الصالحة التي قدموها، ولا قول من قال: إنه محمد ﷺ فإنه سبق لهم من الله في الذكر الأول السعادة بأعمالهم على يد محمد ﷺ، فهو خير تقدم لهم من الله، ثم قدمه لهم على يد رسوله، ثم يقدمهم عليه يوم لقائه.

***

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

[٢]ثبت في صحيح البخاري من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «إنكم محشورون حفاة عراة غرلًا، ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم»[٣].

[٤]لما وعد الله سبحانه وهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده أنه يعيد الخلق كما بدأهم أول مرة، كان من صدق وعده أن يعيده على الحالة التي بدأه عليها من تمام أعضائه وكمالها، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩] وأيضًا فإن الختان إنما شرع في الدنيا لتكميل الطهارة والتنزه من البول، وأهل الجنة لا يبولون ولا يتغوطون، فليس

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ٨٢) وانظر: فتح الباري (٨/ ٣٤٦) وتفسير ابن كثير (٢/ ٤٠٧).

(٢) ١٥٦ جلاء الأفهام.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٤٩) ومسلم (رقم ٢٨٦٠) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٨٩-٣٩٠) (١١/ ٣٨٤).

(٤) ١٢٤ تحفة المودود.

هناك نجاسة تصيب الغرلة فيحتاج إلى التحرز منها، والقلفة لا تمنع لذة الجماع ولا تعوقه، هذا إن قدر استمرارهم على تلك الحالة التي بعثوا عليها، وإلا فلا يلزم من كونهم يبعثون كذلك أن يستمروا على تلك الحالة التي بعثوا عليها، فإنهم يبعثون حفاةً عراةً بهمًا، ثم يكسون ويمد خلقهم ويزاد فيه بعد ذلك، يزاد في خلق أهل الجنة والنار، وإلا فوقت قيامهم من القبور يكونون على صورتهم التي كانوا عليها في الدنيا وعلى صفاتهم وهيئاتهم وأحوالهم، فيبعث كل عبد على ما مات عليه، ثم ينشئهم الله سبحانه كما يشاء، وهل تبقى تلك الغرلة التي كملت خلقهم في القبور أو تزول، يمكن هذا وهذا، ولا يعلم إلا بخبر يجب المصير إليه، والله ﷻ أعلم.

[1]وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ﴾ والسجل: الورق المكتوب فيه، والكتاب: نفس المكتوب، واللام بمنزلة على: أي نطوي السماء كطي الدرج على ما فيه من السطور المكتوبة، ثم استدل على النظير بالنظير فقال: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾.

***

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾.

[2]الزبور هنا جميع الكتب المنزلة من السماء لا تختص بزبور داود.

والذكر: أم الكتاب الذي عند الله، والأرض: الدنيا، وعباده الصالحون: أمة محمد ﷺ هذا أصح الأقوال في هذه الآية، وهي علم من أعلام نبوة رسول الله ﷺ، فإنه أخبر بذلك بمكة وأهل الأرض كلهم كفار أعداء له ولأصحابه، والمشركون قد أخرجوهم من ديارهم ومساكنهم وشتتوهم في أطراف الأرض، فأخبرهم ربهم تبارك وتعالى أنه

(١) ١٤٨ إعلام الموقعين جـ١.
(٢) ٣٩ شفاء العليل.

كتب في الذكر الأول: إنهم يرثون الأرض من الكفار، ثم كتب ذلك في الكتب التي أنزلها على رسله.

والكتاب قد أطلق عليه الذكر في قول النبي ﷺ في الحديث المتفق على صحته: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء»(١). فهذا هو الذكر الذي كتب فيه أن الدنيا تصير لأمة محمد ﷺ.

والكتب المنزلة قد أطلق عليه الزبر في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ [النحل: ٤٣، ٤٤] أي أرسلناهم بالآيات الواضحات والكتب التي فيها الهدى والنور. والذكر هنا الكتابان اللذان أنزلا قبل رسول الله ﷺ، وهما التوراة والإنجيل. والذكر في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ هو القرآن، ففي هذه الآية علمه بما كان قبل كونه وكتابته له بعد علمه، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ [يس: ١٢].

وقد اختلف الناس في الأرض المذكورة هنا، فقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: هي أرض الجنة(٢)، وهذا قول أكثر المفسرين، وعن ابن عباس قول آخر: إنها الدنيا التي فتحها الله على أمة محمد ﷺ(٣). وهذا القول هو الصحيح، ونظيره قوله تعالى في سورة النور: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥]، وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «زويت لي الأرض مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣١٩١) ومسلم (رقم ٢٦٥٣) وانظر: فتح الباري (٦/ ٢٨٩).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٧/ ١٠٤) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٥١٣) وتفسير السيوطي (٥/ ٦٨٥).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٧/ ١٠٥).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ٢٨٨٩) وانظر: فتح الباري (٨/ ٢٩٣).

وقالت طائفة من المفسرين: المراد بذلك أرض بيت المقدس، وهي من الأرض التي أورثها الله عباده الصالحين، وليست الآية مختصة بها.

***

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

...[1] وأصح القولين في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] أنه على عمومه، وفيه على هذا التقدير وجهان:

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته، أما أتباعه فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة.

وأما أعداؤه المحاربون له فالذين عجل قتلهم وموتهم خير لهم من حياتهم، لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة، وهم قد كتب عليهم الشقاء، فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر، وأما المعاهدون له فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته، وهم أقل شرًّا بذلك العهد من المحاربين له.

وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن دمائهم وأموالهم وأهلهم واحترامها، وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيرها؛ وأما الأمم النائية عنه، فإن الله سبحانه رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض، فأصاب كل العالمين النفع برسالته.

الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد، لكن المؤمنون قبلوا هذه الرحمة فانتفعوا بها دنيا وآخرى، والكفار ردوها فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة لهم لكن لم يقبلوها، كما يقال: هذا دواء لهذا المرض، فإذا لم يستعمله لم يخرج عن أن يكون دواء لذلك المرض، ومما يحمد عليه ﷺ ما جبله الله عليه من مكارم الأخلاق وكرائم الشيم، فإن

(١) ٩٨ جلاء الأفهام.

من نظر في أخلاقه وشيمه ﷺ علم أنها خير أخلاق، فإنه ﷺ كان أعلم الخلق، وأعظمهم أمانة، وأصدقهم حديثًا، وأجودهم وأسخاهم، وأشدهم احتمالاً، وأعظمهم عفوًا ومغفرة، وكان لا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا، كما روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمرو أنه قال في صفة رسول الله ﷺ في التوراة: «محمد عبدي ورسولي، سميته المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء، وأفتح به أعينًا عميا وآذانًا صمًّا وقلوبًا غلفًا، حتى يقولوا: لا إله إلا الله»[1]. وأرحم الخلق وأرأفهم بهم، وأعظم الخلق نفعًا لهم في دينهم ودنياهم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الأنبياء

والحمد لله رب العالمين



(١) أخرجه البخاري (رقم ٢١٢٥) وانظر: عمدة القاري (١١/ ٢٤٢).

سُورَةُ الحَجِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾.

(١)المرضع من لها ولد ترضعه، والمرضعة من ألقمت الثدى للرضيع، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ [الحج: ٢]. أبلغ من مرضع في هذا المقام.

فإن المرأة قد تذهل عن الرضيع إذا كان غير مباشر للرضاعة، فإذا التقم الثدي واشتغلت برضاعه لم تذهل عنه، إلا لأمر هو أعظم عندها من اشتغالها بالرضاع.

وتأمل رحمك الله تعالى السر البديع في عدوله سبحانه عن كل حامل إلى قوله ذات حمل، فإن الحامل قد تطلق على المهيئة للحمل، وعلى من هي في أول حملها وباديه، فإذا قيل: ذات حمل لم يكن إلا لمن قد ظهر حملها وصلح للوضع كاملًا أو سقطًا، كما يقال: ذات ولد، فأتى في المرضعة بالتاء التي تحقق فعل الرضاعة دون التهيؤ لها، وأتى في الحامل بالسبب الذي يحقق وجود الحمل وقبوله للوضع. والله ﷻ أعلم.

(٢)وقد يكون سبب السكر غير تناول المسكر: إما ألم شديد يغيب به العقل حتى يكون كالسكران، وقد يكون سببه مخوف عظيم، هجم عليه وهلة واحدة، حتى يغيب عقل من هجم عليه، ومن هذا قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج: ٢].

فهم سكارى من الدهش والخوف، وليسوا بسكارى من الشراب، فسكرهم سكر

---

(١) ٢١ بدائع جـ٤.

(٢) ٣٠٧ مدارج جـ٣.

خوف ودهش، لا سكر لذة وطرب.

وقد يكون سببه قوة الفرح بإدراك المحبوب بحيث يختلط كلامه، وتتغير أفعاله بحيث يزول عقله، ويعربد أعظم من عربدة شارب الخمر وربما قتله سكر هذا الفرح لسبب طبيعي، وهو انبساط دم القلب وهلة واحدة انبساطًا غير معتاد - والدم حامل الحار الغريزي - فيبرد القلب بسبب انبساط الدم عنه، فيحدث الموت.

ومن هذا قول سكران الفرح بوجد راحلته في المفازة بعد أن استشعر الموت: «اللهم أنت عبدي وأنا ربك» أخطأ من شدة فرحه[1].

وسكرة الفرح فوق سكرة الشراب. فصور في نفسك حال فقير معدم، عاشق للدنيا أشد العشق، ظفر بكنز عظيم، فاستولى عليه آمنًا مطمئنًا، كيف تكون سكرته أو من غاب عنه غلامه بمال له عظيم مدة سنين حتى أضرَّ به العدم، فقدم عليه من غير انتظار له بماله كله، وقد كسب أضعافه؟

وقد يوجبه غضب شديد، يحول بين الغضبان وبين تمييزه. بل قد يكون سكر الغضب أقوى من سكر الطرب. ولهذا قال النبي ﷺ: «لا يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان»[2].

ولا يستريب من شم رائحة الفقه: أن الغضب إذا وصل بصاحبه إلى هذه الحال فطلق لم يقع طلاقه، وقد نص الإمام أحمد على أن الإغلاق الذي قال فيه النبي ﷺ: «لا طلاق ولا عتاق في إغلاق»[3]: أنه الغضب. وقال أبو داود: أظنه الغضب. والشافعي

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٧٤٧) وانظر: فتح الباري (٦/ ٥٢٣) (١١/ ٣١٤).

(٢) أخرجه ابن حبان (١١/ ٤٤٩ رقم ٥٠٦٣) والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٧٤ رقم ٥٩٦٢) وابن ماجه (رقم ٢٣١٦) وابن الجارود (رقم ٩٩٧) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٠٥ رقم ٢٠٠٦٤) والدارقطني (٤/ ٢٠٦ رقم ١٤) وأبو عوانة (٤/ ١٦٩ رقم ٦٤٠٢) وانظر: فتح الباري (١٣/ ١٣٧) والحديث عند البخاري بلفظ: «لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان» (رقم ٧١٥٨) ومسلم بلفظ: «لا يحكم أحد بين اثنين وهو غضبان» (رقم ١٧١٧).

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ٢١٩٣) وابن ماجه (رقم ٢٠٤٦) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٣٥٧ رقم ١٤٨٧٤) =

سمى نذر اللَّجاج والغضب نذر الغلق، وذلك لأن الغضبان قد انغلق عليه باب القصد والتميز بشدة غضبه وإذا كان الإكراه غلقا فالغضب الشديد أولى أن يكون غلقًا وكذلك السكر غلق والجنون غلق فالغلق والإغلاق أيضًا كلمة جامعة لمن انغلق عليه باب القصد والتميز بسبب من الأسباب وقد أشبعنا الكلام في هذا في كتابنا المسمى إغاثة اللهفان في طلاق الغضبان[1].

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝ ﴾.

[2]يقول سبحانه: إن كنتم في ريب من البعث فلستم ترتابون في أنكم مخلوقون، ولستم ترتابون في مبدأ خلقكم من حال إلى حال حين الموت. والبعثُ الذي وعدتم به نظير النشأة الأولى، فهما نظيران في الإمكان والوقوع، فإعادتكم بعد الموت خلقًا جديدًا كالنشأة الأولى التي لا ترتابون فيها، فكيف تنكرون إحدى النشأتين مع مشاهدتكم لنظيرها؟

= والدارقطني (٤/ ٣٦ رقم ٩٩) وأبو يعلى (٧/ ٤٢١ رقم ٤٤٤٤) وأحمد (٦/ ٢٧٦) والطبراني في مسند الشاميين (١/ ٢٨٧ رقم ٥٠٠) والحاكم (٢/ ٢١٦ رقم ٢٨٠٢) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(١) الموجود رسالة صغيرة فهل هنا غيرها. (ج).

(٢) ١٤٠ أعلام جـ١.

وقد أعاد سبحانه هذا المعنى وأبداه في كتابه بأوجز العبارات، وأدلها، وأفصحها، وأقطعها للعذر، وألزمها للحجة، كقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨-٦٢] فدلهم بالنشأة الأولى على الثانية، وأنهم لو تذكروا لعلموا أن لا فرق بينهما في تعلق القدرة بكل واحدة منهما.

...[١]قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥-٧].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]. جعل الله سبحانه إحياء الأرض بعد موتها نظير إحياء الأموات، وإخراج النبات منها نظير إخراجهم من القبور، ودلَّ بالنظير على نظيره، وجعل ذلك آية ودليلًا على خمسة مطالب.

أحدها: وجود الصانع، وأنه الحق المبين، وذلك يستلزم إثبات صفات كماله وقدرته، وإرادته وحياته، وعلمه وحكمته، ورحمته، وأفعاله. **الثاني**: أنه يحيي الموتى. **الثالث**: عموم قدرته على كل شيء. **الرابع**: إتيان الساعة وأنها لا ريب فيها. **الخامس**: أنه يخرج الموتى من القبور، كما أخرج النبات من الأرض.

وقد كرر سبحانه ذكر هذا الدليل في كتابه مرارًا؛ لصحة مقدماته، ووضوح دلالته، وقرب تناوله، وبُعده من كل معارضة وشبهة، وجعله تبصرةً وذكرى، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٧، ٨] فالمنيب إلى ربه يتذكر بذلك، فإذا تذكر تبصر به، فالتذكر

---

(١) ١٤٤ أعلام جـ١.

قبل التبصر، وإن قدم عليه في اللفظ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

والتذكر: تَفَعُّلٌ من الذكر، وهو حضور صورة من المذكور في القلب، فإذا استحضره القلب وشاهده على وجهه أوجب له البصيرة، فأبصر ما جعل دليلًا عليه، فكان في حقه تبصرة وذكرى، والهدى مداره على هذين الأصلين: التذكر والتبصر.

[(١)] والمجوس تُعظم الأنوار، والنيران، والماء، والأرض، ويقرون بنبوة زرادشت ولهم شرائع يصيرون إليها، وهم فرق شتى.

منهم: المزدكية، أصحاب مزدك الموبذ. والموبذ عندهم: العالم القدوة. وهؤلاء يرون الاشتراك في النساء والمكاسب كما يشترك في الهواء، والطرق، وغيرها.

ومنهم الخرمية: أصحاب بابك الخرمي. وهم شر طوائفهم، لا يقرون بصانع، ولا معاد، ولا نبوة، ولا حلال، ولا حرام، وعلى مذهبهم: طوائف القرامطة، والإسماعيلية، والنصيرية، والبشكية، والدرزية، والحاكمية، وسائر العبيدية، الذين يسمون أنفسهم الفاطمية، وهم من أكفر الكفار.

فكل هؤلاء يجمعهم هذا المذهب ويتفاوتون في التفصيل.

فالمجوس شيوخ هؤلاء كلهم، وأئمتهم، وقدوتهم، وإن كان المجوس قد يتقيدون بأصل دينهم وشرائعهم، وهؤلاء لا يتقيدون بدين من ديانات العالم، ولا بشريعة من الشرائع.

***

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ ﴾.

---

(١) ٢٤٧ إغاثة جـ٢.

[١]قال تعالىٰ: ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الحج: ١٥] قال بعض أهل اللغة: السبب من الحبال القوي الطويل.

قال: ولا يدعىٰ الحبل سببًا حتىٰ يصعد به وينزل، ثم قيل لكل شيء وصلت به إلىٰ موضع أو حاجة تريدها: سبب، يقال: ما بيني وبين فلان سبب، أي آصرة رحم أو عاطفة مودة.

وقد سمىٰ تعالىٰ وصل الناس بينهم أسبابًا، وهي التي يتسببون بها إلىٰ قضاء حوائجهم بعضهم من بعض، قال تعالىٰ: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ [البقرة: ١٦٦] يعني الواصلات التي كانت بينهم في الدنيا. وقال ابن عباس وأصحابه: يعني أسباب المودة الواصلات التي كانت بينهم في الدنيا.

وقال ابن زيد: هي الأعمال التي كانوا يؤملون أن يصلوا بها إلىٰ ثواب الله، وقيل: هي الأرحام التي كانوا يتعاطفون بها.

وبالجملة فسمىٰ الله سبحانه ذلك كله أسبابًا لأنها كانت يتوصل بها إلىٰ مسبباتها، وهذا كله عند نفاة الأسباب مجاز لا حقيقة له، وبالله التوفيق.

***

﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾.

[٢]«الذوق» مباشرة الحاسة الظاهرة والباطنة للملائم والمنافر، ولا يختص ذلك بحاسة الفم في لغة القرآن بل ولا في لغة العرب، قال الله تعالىٰ: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج:٢٢] وقال: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٤]. وقال تعالىٰ: ﴿ هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ [ص: ٥٧]. وقال: ﴿ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢].

---

(١) ١٩٠ شفاء العليل.

(٢) ٨٧ مدارج جـ٣.

فتأمل كيف جمع بين الذوق واللباس، ليدل على مباشرة المذوق وإحاطته وشموله، فأفاد الإخبار عن إذاقته: أنه واقع مباشر غير منتظر؛ فإن الخوف قد يتوقع ولا يباشر، وأفاد الإخبار عن لباسه: أنه محيط شامل كاللباس للبدن.

وفي الصحيح عنه ﷺ: **«ذاق طعم الإيمان: من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا»**[(١)].

فأخبر: أن للإيمان طعمًا، وأن القلب يذوقه، كما يذوق الفم طعم الطعام والشراب. وقد عبر النبي ﷺ عن إدراك حقيقة الإيمان، والإحسان، وحصوله للقلب ومباشرته له: بالذوق تارة، وبالطعام والشراب تارة، وبوجود الحلاوة تارة، كما قال: **«ذاق طعم الإيمان»**، وقال: **«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»**[(٢)].

***

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾.

[(٣)]اختلفوا في جر لؤلؤ ونصبه. فمن نصبه ففيه وجهان:

أحدهما: أنه عطف على موضع قوله: ﴿مِنۡ أَسَاوِرَ﴾.

والثاني: أنه منصوب بفعل محذوف دل عليه الأول أي ويحلون لؤلؤًا.

(١) أخرجه مسلم (رقم ٣٤) وانظر عمدة القاري (١/ ١٠٩) والديباج على مسلم (١/ ٥١) وتحفة الأحوذي (٧/ ٣١٢).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٦) ومسلم (رقم ٤٣) وانظر: فتح الباري (١/ ٨٢-٨٣) وشرح النووي (٢/ ١٣).

(٣) ١٤٣ حادي الأرواح.

ومن جره فهو عطف على الذهب، ثم يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون لهم أساور من ذهب، وأساور من لؤلؤ.

ويحتمل أن تكون الأساور مركبة من الأمرين معًا: الذهب المرصع باللؤلو. والله أعلم بما أراد.

قال ابن أبي الدنيا: حدثني محمد بن رزق حدثنا زيد بن الحباب قال: حدثني عنبسة بن سعيد قاضي الري عن جعفر بن أبي المغيرة عن شِمْر بن عطية عن كعب قال: «إن لله ﷻ ملكًا منذ يوم خلق يصوغ حلي أهل الجنة إلى أن تقوم الساعة، لو أن حليًا من حلي أهل الجنة أخرج لذهب بضوء شعاء الشمس، فلا تسألوا بعد هذا عن حلي أهل الجنة»[١].

حدثنا الحسن بن يحيى بن كثير العنبري: حدثنا أبي عن أشعث عن الحسن قال: «الحلي في الجنة على الرجال أحسن منه على النساء»[٢].

حدثنا أحمد بن منيع حدثنا الحسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا يزيد بن أبي حبيب عن داود بن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ، قال: **«لو أن رجلًا من أهل الجنة اطلع فبدا سواره لطمس ضوؤه ضوء الشمس، كما تطمس الشمس ضوء النجوم»**[٣].

وقال ابن وهب حدثني ابن لهيعة عن عقيل بن خالد عن الحسن عن أبي هريرة قال: إن أبا أمامة حدث أن رسول الله ﷺ حدثهم، وذكر حلي أهل الجنة، فقال: **«مسورون بالذهب والفضة مكللون بالدر، عليهم أكاليل من در وياقوت متواصلة،**

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٣٦ رقم ٣٤٠٠٩) وأبو الشيخ الأصبهاني في العظمة (٢/ ٧٥١ رقم ٣٥٥).

(٢) ذكره المناوي في فيض القدير (٣/ ٢٢٧).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ١٦٩) والبزار (٣/ ٣١٥ رقم ١١٠٩) والطبراني في الأوسط (٨/ ٣٦٣ رقم ٨٨٨٠) وذكره المنذري في الترغيب (٤/ ٣١٤ رقم ٥٧٥٣) وقال: رواه ابن أبي الدنيا والترمذي وقال: حديث حسن غريب، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (رقم ٣٧٦٥).

وعليهم تاج كتاج الملوك، شباب مرد مكحلون»[١].

وقد أخرجا في الصحيحين والسياق لمسلم عن أبي حازم قال: «كنت خلف أبي هريرة وهو يتوضأ للصلاة، فكان يمد يده حتى يبلغ إبطه، فقلت: يا أبا هريرة ما هذا الوضوء؟ فقال: يا بني فروخ أنتم ههنا؟: لو علمت أنكم ههنا ما توضأت هذا الوضوء، سمعت خليلي ﷺ يقول: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء»[٢]. وقد احتج بهذا من يرى استحباب غسل العضد وإطالته.

والصحيح: أنه لا يستحب، وهو قول أهل المدينة، وعن أحمد روايتان.

والحديث لا يدل على الإطالة، فإن الحيلة إنما تكون زينة في الساعد والمعصم لا في العضد والكتف، وأما قوله: «فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل»[٣] فهذه الزيادة مدرجة في الحديث من كلام أبي هريرة لا من كلام النبي ﷺ.

***

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝﴾.

[٤]أما مكة: فإن فيها شيئاً آخر يمنع مِن قسمتها، ولو وجبت قسمةُ ما عداها مِن القُرى، وهى أنها لا تُملك، فإنها دارُ النُّسُك، ومتعبَّدُ الخلق، وحرَمُ الربِّ ﷻ الذي جعله للناس سواءً العاكِفُ فيه والباد، فهي وقف من الله على العالمين، وهم فيها سواء، ومِنَى مُنَاخُ مَنْ سَبَقَ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور وعزاه إلى ابن أبي حاتم (٧/ ٢٦) وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٥٥٨).
(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٠) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٣٨٦) وشرح النووي (٣/ ١٤٠).
(٣) أخرجه البخاري (رقم ١٣٦) ومسلم (رقم ٢٤٦) وانظر: فتح الباري (١/ ٢٣٦).
(٤) ٤١٣ زاد المعاد جـ٣.

[الحج: ٢٥]، والمسجد الحرام هنا، المراد به الحرم كُلُّهُ، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ﴾ [التوبة: ٢٨]. فهذا المرادُ به الحرم كُلُّه، وقولُه سبحانه: ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ [الإسراء: ١]، وفي الصحيح: أنه أُسْرِيَ به مِّنَ بيت أُم هانئ[١].

وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [البقرة: ١٩٦] وليس المراد به: حضورَ نفس موضع الصلاة اتفاقاً، وإنما هو حضورُ الحرم والقُرب منه، وسياقُ آية الحج تدُلُّ على ذلك، فإنه قال: ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾، وهذا لا يختصُّ بمقام الصلاةِ قطعاً، بل المراد به الحَرَمُ كُلُّه، فالذي جعله للناس سواءً العاكف فيه والباد، هو الذي توعَّد مَنْ صَدَّ عنه، ومَن أراد الإلحادَ بالظلم فيه، فالحرمُ ومشاعرُه كالصَّفا والمروة، والمسعى ومِنَى، وعَرَفَة، ومُزْدَلِفَة، لا يختصُّ بها أحدٌ دونَ أحد، بل هي مشتركة بين الناس، إذ هي مَحلُّ نُسُكهم ومتعبدِهم، فهي مسجد من الله، وقفه ووضعه لخلقه، ولهذا امتنع النبيُّ ﷺ أن يُبنى له بيت بمِنَى يُظِلُّه من الحر، وقال: «مِنَى مُناخُ مَن سَبَقَ»[٢].

ولهذا ذهب جمهورُ الأئمةِ مِن السَّلَف والخَلَف، إلى أنه لا يجوزُ بيعُ أراضي مكة، ولا إجارةُ بيوتها، هذا مذهبُ مجاهد وعطاء في أهل مكة، ومالك في أهل المدينة، وأبي حنيفة في أهل العراق، وسفيان الثوري، والإمام أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه. وروى الإمام أحمد رحمه الله، عن علقمة بن نضلة، قال: «كانت رِباعُ مكة

---

(١) انظر: فتح الباري (٧/ ٢٠٤).

(٢) أخرجه ابن خزيمة (٤/ ٢٨٤ رقم ٢٨٩١) وأبو داود (رقم ٢٠١٩) والترمذي (رقم ٨٨١) وقال: هذا حديث حسن صحيح. والحاكم (١/ ٦٣٨ رقم ١٧١٤) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وانظر: تحفة الأحوذي (٣/ ٥٣٩).

تُدعى السَّوائب على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، مَن احتاج سكن، ومَن استغنى أسكن»(١).

وروى أيضاً عن عبد الله بن عمرو: «مَن أكل أُجُورَ بيوتِ مكة، فإنما يأكُلُ في بطنه نار جهنم» رواه الدارقطني مرفوعاً إلى النبي ﷺ، وفيه: «إنَّ اللهَ حَرَّمَ مَكَّة، فَحَرامٌ بَيْعَ رِبَاعِهَا وأَكْلُ ثَمَنِهَا»(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا معمر، عن لَيْثٍ، عن عطاء، وطاوس، ومجاهد، أنهم قالوا: يُكره أن تُباع رِباعُ مكَّة أو تُكرى بيوتها(٣).

وذكر الإمام أحمد، عن القاسم بن عبد الرحمن، قال: «مَن أكل من كِراء بيوتِ مكة، فإنما يأكُلُ في بطنه ناراً»(٤).

وقال أحمد: حدَّثنا هُشيم، حدَّثنا حجَّاج، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمر، قال: «نَهَى عَنْ إجارَةِ بُيوتِ مَكَّة، وعَنْ بَيْعِ رَباعِهَا»(٥).

وذكر عن عطاء، قال: «نهى عن إجارة بيوتِ مكة»(٦) وقال أحمد: حدَّثنا إسحاق بن

---

(١) أخرجه ابن ماجه (رقم ٣١٠٧) والدارقطني (٣/ ٥٨ رقم ٢٢٨) وابن أبي شيبة (٣/ ٣٣١ رقم ١٤٦٩٣) والطبراني في الكبير (١٨/ ٨ رقم ٧) قال الحافظ في الفتح (٣/ ٤٥٠): وفي إسناده انقطاع وإرسال.

(٢) أخرجه الدارقطني (٣/ ٥٧ رقم ٢٢٤) وقال: رواه أبو حنيفة مرفوعًا... والصحيح أنه موقوف. وأخرج الجزء الأول من الحديث البيهقي في سننه الكبرى موقوفًا (٦/ ٣٥ رقم ١٠٩٦٧) وابن أبي شيبة (٣/ ٣٣٠ رقم ١٤٦٨٤) وأبو عبيد القاسم بن سلام في الأموال (رقم ١٦٣) والفاكهي في أخبار مكة (٣/ ٢٤٦ رقم ٢٠٥١).

(٣) أخرجه الفاكهي في أخبار مكة عن مجاهد (٣/ ٢٥٠ رقم ٢٠٦٥) وذكره السيوطي في الدر المنثور عن عطاء، وعزاه إلى ابن أبي شيبة وعبد بن حميد (٦/ ٢٥).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٣/ ٣٣٠ رقم ١٤٦٨٢).

(٥) أخرجه عبدالرزاق عن مجاهد (٥/ ١٤٧ رقم ٩٢١١).

(٦) أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (٣/ ٢٤٩ رقم ٢٠٦١) وابن أبي شيبة (٣/ ٣٣٠ رقم ١٤٦٨١) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٤٩).

يوسف قال: حدَّثنا عبد الملك، قال: «كتب عُمَرُ بنُ عبد العزيز إلى أمير أهل مكة ينهاهم عن إجارة بيوتِ مكة، وقال: إنه حرام»[(١)].

وحكى أحمد عن عمر «أنه نهى أن يتَّخِذَ أهلُ مكَّة للدورِ أبواباً، لِينزِلَ البادي حيث شاء»[(٢)]، وحكى عن عبد الله بن عمر، عن أبيه «أنه نهى أن تُغْلَقَ أبوابُ دورِ مكة[(٣)]، فنهى مَن لا باب لداره أن يتَّخِذَ لها باباً، ومَن لداره باب أن يُغلِقَه، وهذا في أيام المَوْسِم».

قال المجوِّزون للبيع والإجارة: الدليلُ على جواز ذلك، كتابُ الله وسُنَّةُ رسولِه، وعملُ أصحابه وخُلفائه الراشدين. قال الله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ ﴾ [الحشر: ٨]، وقال: ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وقال: ﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ ﴾ [الممتحنة: ٩] فأضاف الدورَ إليهم، وهذه إضافة تمليك، وقال النبي ﷺ وقد قيل له: أين تنزِلُ غداً بدارك بمكة؟ فقال: «وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ رِباعٍ»، ولم يقل: إنه لا دار لي، بل أقرَّهم على الإضافة، وأخبر: أن عقيلاً استولى عليها ولم ينزِعْهَا مِن يده، وإضافةُ دورهم إليهم في الأحاديث أكثرُ من أن تُذكر، كدار أُم هانىء، ودار خديجة، ودار أبي أحمد بن جحش وغيرها، وكانوا يتوارثُونها كما يتوارثون المنقولَ، ولهذا قال النبي ﷺ: «وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ مَنْزِلٍ»[(٤)]، وكان عقيل هو ورث دورَ أبي طالب، فإنه كان

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣/ ٣٣٠ رقم ١٤٦٨٣) وعبدالرزاق (٥/ ١٤٧ رقم ٩٢١٢) وابن سعد في الطبقات (٥/ ٣٦٤) وأبو عبيد القاسم بن سلام في الأموال (رقم ١٦٥).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٥/ ١٤٧ رقم ٩٢١١) والفاكهي في أخبار مكة (٣/ ٢٤٥ رقم ٢٠٤٩) وانظر: فتح الباري (٣/ ٤٥١) وعمدة القاري (٩/ ٢٢٨) وتفسير ابن كثير (٣/ ٢١٥).

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور، وعزاه إلى عبد بن حميد (٦/ ٢٥).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ١٥٨٨) ومسلم (رقم ١٣٥١) وانظر: فتح الباري (٨/ ١٥) وشرح النووي (٩/ ١٢٠).

كافراً، ولم يرثه علي ﷺ، لاختلاف الدينِ بينهما، فاستولى عَقِيلٌ على الدور، ولم يزالوا قبل الهجرة وبعدها، بل قبل المبعث وبعده، مَن مات، ورِثَ ورثتُه داره إلى الآن.

***

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾.

[1]أما تقديم الرجال على الركبان ففيه فائدة جليلة، وهي أن الله شرط في الحج الاستطاعة، ولا بد من السفر إليه لغالب الناس، فذكر نوعي الحجاج لقطع توهم من يظن أنه لا يجب إلا على راكب، وقدم الرجال اهتمامًا بهذا المعنى وتأكيدًا.

ومن الناس من يقول: قدمهم جبرًا لهم، لأن نفوس الركبان تزدريهم وتوبخهم وتقول: إن الله لم يكتبه عليكم ولم يرده منكم، وربما توهموا أنه غير نافع لهم، فبدأ بهم جبرًا لهم ورحمة اهـ.

***

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾.

[2]قرن الله سبحانه في كتابه بين الإشراك وقول الزور، وقال تعالى: ﴿ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ﴾ [الحج: ٣٠، ٣١].

وفي الصحيحين أيضًا عن النبي ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «الشرك بالله، ثم عقوق الوالدين»، وكان متكئًا فجلس، ثم قال: «ألا وقول

---

(١) ٦٩ بدائع جـ١.

(٢) ١١٩ أعلام جـ١.

الزور، ألا وقول الزور» فما زال يكررها حتىٰ قلنا: ليته سكت[١].

وفي الصحيحين عن أنس عن النبي ﷺ: «أكبر الكبائر الإشراك بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين، وقول الزور»[٢].

ولا خلاف بين المسلمين أن شهادة الزور من الكبائر.

واختلف الفقهاء في الكذب في غير الشهادة: هل هو من الصغائر أو من الكبائر؟ علىٰ قولين هما روايتان عن الإمام أحمد، حكاهما أبو الحسين في تمامه.

واحتج من جعله من الكبائر بأن الله سبحانه جعله في كتابه من صفات شر البرية، وهم الكفار والمنافقون، فلم يصف به إلا كافرًا أو منافقًا، وجعله علم أهل النار وشعارهم، وجعل الصدق علم أهل الجنة وشعارهم.

وفي الصحيح من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق؛ فإنه يهدي إلىٰ البر، وإن البر يهدي إلىٰ الجنة، وإن الرجل ليصدق حتىٰ يكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدي إلىٰ الفجور، وإن الفجور يهدي إلىٰ النار، وإن الرجل ليكذب حتىٰ يكتب عند الله كذابًا»[٣].

وفي الصحيحين مرفوعًا: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»[٤].

وقال معمر عن أيوب عن ابن أبي مليكة عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما كان خلق أبغض إلىٰ رسول الله ﷺ من الكذب، ولقد كان الرجل يكذب عنده الكذبة فما

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٦٥٤) ومسلم (رقم ٨٧) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤١١) وشرح النووي (٢/ ٨١-٨٢).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٨٧١) ومسلم (رقم ٨٨) وانظر: فتح الباري (٥/ ٢٦٣) (١٠/ ٤١٢) وشرح النووي (٢/ ٨٢).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٠٧) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٥٠٨) وشرح النووي (١٦/ ١٦٠).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٣٣) ومسلم (رقم ٥٩) وانظر: فتح الباري (١/ ٨٩) وشرح النووي (٢/ ٤٦-٤٨).

تزال في نفسه حتى يعلم أنه قد أحدث منها توبة»[١].

وقال مروان الطاطري: ثنا محمد بن مسلم ثنا أيوب عن ابن أبي مليكة عن عائشة قالت: «ما كان شيء أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب، وما جرب على أحد كذبًا فرجع إليه ما كان حتى يعرف منه توبة»[٢] حديث حسن رواه الحاكم في المستدرك من طريق ابن وهب عن محمد بن مسلم عن أيوب عن ابن سيرين عن عائشة رضي الله عنها.

وروى عبد الرزاق عن معمر عن موسى بن أبي شيبة أن النبي ﷺ: «أبطل شهادة رجل في كذبة كذبها»[٣] وهو مرسل، وقد احتج به أحمد في إحدى الروايتين عنه.

وقال قيس بن أبي حازم: سمعت أبا بكر الصديق ﷺ يقول: «إياكم والكذب، فإن الكذب مجانب الإيمان»[٤] يروى موقوفًا ومرفوعًا. وروى شعبة عن سلمة بن كهيل عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: «المسلم يُطْبَع على كل طبيعة غير الخيانة والكذب»[٥] ويروى مرفوعًا أيضًا.

---

(١) أخرجه ابن حبان (١٣/ ٤٤ رقم ٥٧٣٦) وفي موارد الظمآن (رقم ١٠٥) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٩٦ رقم ٢٠٦١٠) والترمذي (رقم ١٩٧٣) وحسنه.

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٠/ ١٩٦ رقم ٢٠٦١١) والحاكم (٤/ ١١٠ رقم ٧٠٤٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٠/ ١٩٦ رقم ٢٠٦١٢) وانظر: الاستذكار (٨/ ٥٧٦) والتمهيد (١/ ٦٨) (١٦/ ٢٥٦).

(٤) أخرجه الضياء في المختارة (١/ ١٤٤-١٤٦ رقم ٥٨) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٩٦ رقم ٢٠٦١٥) وأحمد (١/ ٥) وهناد في الزهد (٢/ ٦٣٢ رقم ١٣٦٨) وابن المبارك في الزهد (رقم ٧٣٦)، قال الحافظ العراقي: إسناده حسن. وقال الدراقطني في العلل: الأصح وقفه، ورواه ابن عدي من عدة طرق ثم عول على وقفه، انظر: البيان والتعريف (١/ ٣١٧ رقم ٨٥٢) وقال البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٢٠٦ رقم ٤٨٠٥): هذا إسناد ضعيف، والصحيح أنه موقوف.

(٥) أخرجه البيهقي في الشعب (٤/ ٣٢٣ رقم ٥٢٦٧) وفي السنن الكبرى (١٠/ ١٩٧ رقم ٢٠٦١٦) وابن المبارك في الزهد (رقم ٨٢٨) وابن عدي في الكامل (١/ ٢٤٠) وابن أبي شيبة (٥/ ٢٣٦ رقم ٢٥٦٠٤) والبزار (٣/ ٣٤٠-٣٤١ رقم ١١٣٩) وقال البيهقي في الكبرى (١٠/ ١٩٧): هذا موقوف وهو الصحيح، وقد روي مرفوعًا. وقال في الشعب (٤/ ٢٠٧ رقم ٤٨٠٨): وروي مرفوعًا ورفعه ضعيف.

وفي المسند والترمذي من حديث خريم بن فاتك الأسدي أن رسول الله ﷺ: «صلى صلاة الصبح فلما انصرف قام قائمًا قال: «**عدلت شهادة الزور الشرك بالله**» ثلاث مرات، ثم تلا هذه الآية: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾[1].

وفي المسند من حديث عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «**بين الساعة تسليم الخاصة وفشو التجارة حتى تعين المرأة زوجها على التجارة وقطع الأرحام وشهادة الزور وكتمان شهادة الحق**»[2].

وقال الحسن بن زياد اللؤلؤي: ثنا أبو حنيف قال: كنا عند محارب بن دثار، فتقدم إليه رجلان، فادعى أحدهما على الآخر مالًا، فجحده المدعَى عليه، فسأله البينة فجاء رجل فشهد عليه، فقال المشهود عليه: لا والله الذي لا إله إلا هو ما شهد عليَّ بحق، وما علمته إلا رجلًا صالحًا، غير هذه الزلة، فإنه فعل هذا لحقد كان في قلبه عليَّ، وكان محارب متكئًا فاستوى جالسًا، ثم قال: يا ذا الرجل سمعت ابن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ليأتين على الناس يوم تشيب فيه الولدان، وتضع الحوامل ما في بطونها، وتضرب الطير بأذنابها، وتضع ما في بطونها من شدة ذلك اليوم ولا ذنب عليها، وإن شاهد الزور لا تقار قدماه على الأرض حتى يقذف به في النار**»[3]. فإن كنت شهدت بحق فاتق الله وأقم على شهادتك، وإن كنت شهدت بباطل فاتق الله

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٣٥٩٩) والترمذي (رقم ٢٢٩٩، ٢٣٠٠) وابن ماجه (رقم ٢٣٧٢) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٢١ رقم ٢٠١٧٠) وابن أبي شيبة (٤/ ٥٤٠ رقم ٢٣٠٣٨) وعبدالرزاق (٨/ ٣٢٧ رقم ١٥٣٩٥) والطبراني في الكبير (٤/ ٢٠٩ رقم ٤١٦٢) وأحمد (٤/ ١٧٨) وقال الترمذي: هذا عندي أصح، وخريم بن فاتك له صحبة،وقد روى عن النبي ﷺ أحاديث وهو مشهور.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (رقم ١٠٤٩) وأحمد (١/ ٤٠٧، ٤١٩) والشاسي في مسنده (٢/ ١٩٢ قم ٧٦٥) والحاكم (٤/ ١١٠ رقم ٧٠٤٣) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢/ ٢٤٦ رقم ٦٤٧) وفي صحيح الأدب المفرد.

(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٥٧/ ٦٤).

وغط رأسك واخرج من ذلك الباب.

[(١)]قوله تعالىٰ: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣٠، ٣١] فتأمل هذا المثل ومطابقته لحالِ من أشرك بالله وتعلق بغيره، ويجوز لك في هذا التشبيه أمران:

أحدهما: أن تجعله تشبيهًا مركبًا، ويكون قد شبه من أشرك بالله وعبد معه غيره برجل قد تسبَّب إلىٰ هلاك نفسه هلاكًا لا يُرجىٰ معه نجاة، فصوَّر حاله بصورة حال من خرَّ من السماء فاختطفته الطير في الهوىٰ، فتمزَّق مِزَقًا في حواصلها، أو عصفَت به الريح حتىٰ هوتْ به في بعض المطارح البعيدة، وعلىٰ هذا لا تنظر إلىٰ كل فرد من أفراد المشبَّه ومقابله من المشبه به.

والثاني: أن يكون من التشبيه المفرَّق، فيقابل كل واحد من أجزاء الممثَّل بالمثل به، وعلىٰ هذا فيكون قد شبَّه الإيمان والتوحيد في علوه وسعته وشرفه بالسماء التي هي مصعده ومهبطه، فمنها هبط إلىٰ الأرض، وإليها يصعد منها، وشبه تارك الإيمان والتوحيد بالساقط من السماء إلىٰ أسفل سافلين من حيث التضييق الشديد والآلام المتراكمة، والطير الذي تخطف أعضاءه وتمزقه كل ممزق بالشياطين التي يرسلها الله ﷻ عليه وتوزه أزًّا، وتزعجه وتقلقه إلىٰ مظان هلاكه، فكل شيطان له مزعة من دينه وقلبه، كما أن لكل طير مزعةً من لحمه وأعضائه، والريح التي تهوىٰ به في مكان سحيق هو هواه الذي يحمله علىٰ إلقاء نفسه في أسفل مكانٍ وأبعده من السماء.

[(٢)]قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠] قال جماعة من المفسرين ﴿حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ هاهنا مغاضبه، وما نهىٰ عنه، و«تعظيمها» ترك ملابستها.

---

(١) ١٨٠ أعلام جـ١.

(٢) ٧٤ مدارج جـ٢.

قال الليث: حرمات الله: ما لا يحل انتهاكها، وقال قوم: الحرمات: هي الأمر والنهي. وقال الزجاج: الحرمة ما وجب القيام به، وحرم التفريط فيه. وقال قوم: الحرمات هاهنا المناسك، ومشاعر الحج زمانًا ومكانًا.

والصواب: أن «الحرمات» تعم هذا كله، وهي جمع «حرمة»، وهي ما يجب احترامه، وحفظه: من الحقوق، والأشخاص، والأزمنة، والأماكن، فتعظيمها: توفيتها حقها، وحفظها من الإضاعة.

***

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

[(١)] قال الله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ ثم كشف عن معناهم، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [هود: ٢٣].

و«الخبت» في أصل اللغة: المكان المنخفض من الأرض، وبه فسر ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة لفظ «المخبتين»، وقالا: هم المتواضعون.

وقال مجاهد: المخبت المطمئن إلى الله ﷻ، وقال: والخبت: المكان المطمئن من الأرض.

وقال الأخفش: الخاشعون، وقال إبراهيم النخعي: المصلون المخلصون.

وقال الكلبي: هم الرقيقة قلوبهم، وقال عمرو بن أوس: هم الذين لا يظلمون، وإذا

---

(١) ٣ مدارج جـ٢.

ظُلموا لم ينتصروا[(١)].

وهذه الأقوال تدور على معنيين: التواضع، والسكون إلى الله ﷻ، ولذلك عُدِّي بإلى، تضمينًا لمعنى الطمأنينة، والإنابة والسكون إلى الله.

***

﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

[(٢)]الذبيحة تجري مجرى العبادة، ولهذا يقرن الله سبحانه بينهما كقوله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ [الكوثر: ٢] وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢]. فأخبر أنه إنما سخرها لمن يذكر اسمه عليها، وأنه يناله التقوى ـ وهو التقرب إليه بها، وذكر اسمه عليها ـ فإذا لم يذكر اسمه عليها كان ممنوعًا من أكلها، وكانت مكروهة لله، فأكسبتها كراهيته لها ـ حيث لم يذكر عليها اسمه أو ذكر عليها اسم غيره ـ وصف الخبث فكانت بمنزلة الميتة.

وإذا كان هذا في متروك التسمية وما ذكر عليه اسم غير الله فما ذبحه عدوُّه المشرك به الذي هو من أخبث البرية أولى بالتحريم؛ فإن فِعل الذابح وقصده وخبثه لا ينكر أن يؤثر في المذبوح.

كما أن خبث الناكح ووصفه وقصده يؤثر في المرأة المنكوحة، وهذه أمور إنما يصدق بها من أشرق فيه نور الشريعة وضياؤها، وباشر قلبه بشاشة حكمها وما اشتملت

(١) انظر: لسان العرب (٢/ ٢٧-٢٨) والنهاية في غريب الحديث (٢/ ٤) وفتح الباري (٨/ ٤٣٨) وعون المعبود (٤/ ٢٦٣).

(٢) ١٥٥ أعلام جـ١.

عليه من المصالح في القلوب والأبدان، وتلقَّاها صافيةً من مِشكاة النبوة، وأحكم العقد بينها وبين الأسماء والصفات التي لم يطمس نور حقائقها ظلمة التأويل والتحريف.

[(١)]قال أبو الدرداء ﷺ: يا حبذا نوم الأكياس وفطرهم، كيف يغبنون به قيام الحمقى وصومهم، والذرة من صاحب تقوى أفضل من أمثال الجبال عبادة من المغترين[(٢)]، وهذا من جواهر الكلام وأدله على كمال فقه الصحابة، وتقدمهم على من بعدهم في كل خير ﷺ.

فاعلم أن العبد إنما يقطع منازل السير إلى الله بقلبه وهمته، لا ببدنه، والتقوى في الحقيقة تقوى القلوب، لا تقوى الجوارح، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٢]، وقال: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧]، وقال النبي ﷺ: «**التقوى هاهنا**»[(٣)]، وأشار إلى صدره، فالكيس يقطع من المسافة بصحة العزيمة وعلو الهمة، وتجريد القصد وصحة النية مع العمل القليل، أضعاف أضعاف ما يقطعه الفارغ من ذلك مع التعب الكثير والسفر الشاق؛ فإن العزيمة والمحبة تذهب المشقة وتطيب السير.

والتقدم والسبق إلى الله سبحانه إنما هو بالهمم وصدق الرغبة والعزيمة، فيتقدم صاحبُ الهمةِ مع سكونه صاحبَ العملِ الكثير بمراحل، فإن ساواه في همته تقدم عليه بعمله، وهذا موضع يحتاج إلى تفصيل يوافق فيه الإسلام الإحسان.

فأكمل الهدي: هدي رسول الله ﷺ، وكان موفيًا كل واحد منهما حقه، فكان مع كماله وإرادته وأحواله مع الله، يقوم حتى ترم قدماه...

***

---

(١) ١٤٠ فوائد.

(٢) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس (٥/ ٢٦٩ رقم ٨١٥١) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢١١) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٧/ ١٧٥) وانظر: صفة الصفوة (١/ ٦٣٠).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٦٤).

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

[1] لما استقرَّ رسولُ الله ﷺ بالمدينة، وأيَّده الله بنصره، بعباده المؤمنين الأنصار، وألَّف بين قلوبهم، بعد العداوة والإحَنِ التي كانت بينهم، فمنعته أنصارُ الله وكتيبةُ الإسلام من الأسود والأحمر، وبذلُوا نفوسهم دونه، وقدَّموا محبتَه على محبة الآباء والأبناء والأزواج، وكان أولى بهم مِن أنفسهم، رمتهُمُ العربُ واليهودُ عن قوس واحدة، وشمَّروا لهم عن سَاقِ العداوة والمحاربة، وصاحوا بهم مِن كُلِّ جانب، والله سبحانه يأمرهم بالصبرِ والعفو والصفح حتى قويت الشوكةُ، واشتد الجناحُ، فأذن لهم حينئذ في القتال، ولم يفرِضه عليهم، فقال تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج: ٣٩]. وقد قالت طائفة: إن هذا الإذن كان بمكة، والسُّورة مكية، وهذا غلط لوجوه:

أحدها: أن الله لم يأذن بمكة لهم في القتال، ولا كان لهم شَوْكة يتمكنُّون بها من القتال بمكة.

الثاني: أن سِياقَ الآية يدل على أن الإذن بعد الهجرة، وإخراجهم من ديارهم، فإنه قال: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ [الحج: ٤٠] وَهؤُلاء هم المهاجرون.

الثالث: قوله تعالى: ﴿ ۞ هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ [الحج: ١٩] نَزَلَتْ في الَّذِينَ تَبَارَزُوا يومَ بدر من الفريقين.

الرابع: أنه قد خاطبهم في آخرها بقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾، والخطابُ

---

(١) ١٥٠ زاد المعاد جـ٢.

بذلك كله مدني، فأما الخطاب: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فمشترك.

الخامس: أنه أمر فيها بالجهاد الذي يَعُمُّ الجهادَ باليد وغيره، ولا ريبَ أن الأمر بالجهاد المطلق إنما كان بعد الهجرة، فأمَّا جهادُ الحُجَّة، فأمر به في مكة بقوله: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ ﴾ أي: بالقرآن ﴿ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٢]، فهذه سورة مكية، والجهاد فيها هو التبليغُ، وجهادُ الحُجَّة، وأما الجهادُ المأمور به في سورة الحج فيدخل فيه الجهادُ بالسيف.

السادس: أن الحاكم روىٰ في مستدركه من حديث الأعمش، عن مسلم البَطِين، عن سعيد بن جُبير، عن ابنِ عباس قال: «لما خَرَجَ رسول الله ﷺ مِنْ مكَّة قال أبو بكر: أخرجُوا نبيَّهم؟ إنَّا لله وإنَّا إليه رَاجِعُونَ لَيهْلِكُنَّ، فأنزل الله ﷻ: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ﴾ [الحج: ٣٩] وهي أول آية نزلت في القتال»[1]. وإسناده علىٰ شرط الصحيحين، وسياق السورة يدل علىٰ أن فيها المكيَّ والمدنيَّ، فإن قصة إلقاء الشيطان في أُمنية الرسول مكية، والله أعلم.

ثم فرضَ عليهم القِتَالَ بعدَ ذلك لمن قاتلهم دون مَن لم يُقاتِلْهم، فقال: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٠].

ثم فرض عليهم قتالَ المشركِينَ كافَّة، وكان محرَّماً، ثم مأذوناً به، ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال، ثم مأموراً به لجميع المشركين: إما فرضَ عَيْنٍ علىٰ أحد القولين، أو فرضَ كِفاية علىٰ المشهور.

والتحقيق: أن جنسَ الجهادِ فرضُ عَيْن: إما بالقلب، وإما باللِّسان، وإما بالمال، وإما باليد، فعلىٰ كُلِّ مسلم أن يُجاهد بنوعٍ مِن هذه الأنواع.

أما الجهاد بالنفس، ففرض كفاية، وأما الجهاد بالمال، ففي وجوبِهِ قولانِ،

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٢٦٩ رقم ٢٩٦٨) والضياء في المختارة (١٠/ ٣٥٩ رقم ٣٨٤) والنسائي في الكبرىٰ (٣/ ٣ رقم ٤٢٩٢) والبيهقي في الكبرىٰ (٩/ ١٠ رقم ١٧٥١٨) والترمذي (رقم ٣١٧١) وحسنه وصححه الحاكم، وانظر: فتح الباري (٧/ ٢٨٠).

والصحيح وجوبه لأن الأمرَ بالجهاد به وبالنفس في القرآن سواء، كما قال تعالى: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٤١].

وعلَّق النجاةَ من العذاب الأليم، ومغفرةَ الذنب، ودخولَ الجنة به، فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [الصف: ١٠-١٢].

وأخبر أنهم إن فعلوا ذلك، أعطاهم ما يُحبون مِن النصر والفتحِ القريب، فقال: ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ﴾ [الصف: ١٣] ـ أي: ولكم خصلة أخرى تُحِبُّونها في الجهادِ، وهي ﴿ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ [الصف: ١٣].

وأخبر سبحانه أنه: ﴿ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم ﴾ [التوبة: ١١١] وأعاضهم عليها الجنةَ، وأن هذا العقد والوعد قد أودعه أفضلَ كتبه المنزَّلة مِن السماء، وهي التوراة والإنجيل والقرآن، ثم أكد ذلك بإعلامهم أنه لا أحدَ أوفى بعهده منه تبارك وتعالى، ثم أكد ذلك بأن أمَرَهُم بأن يستبشِروا ببيعهم الذي عاقدهم عليه، ثم أعلمهم أن ذلك هو الفوزُ العظيمُ.

فليتأملِ العاقِد مع ربه عقد هذا التبايعِ ما أعظمَ خطَرَه وأجلَّه، فإن الله ﷻ هو المشتري، والثمن جنَّاتُ النعيم، والفوزُ برضاه، والتمتع برؤيته هناك، والذي جرى على يده هذا العقدُ أشرفُ رسله وأكرمُهم عليه مِن الملائكة والبَشر، وإن سِلْعَةً هذا شأنُها لقد هُيِّئَتْ لأمرٍ عَظِيمٍ وخَطْبٍ جَسِيمٍ:

قَدْ هَيَّؤوكَ لأمرٍ لَوْ فَطِنْتَ لَـهُ … فَارْبأ بِنَفْسِكَ أَنْ تَرعَى مَعَ الهَمَلِ [١]

---

(١) هذا البيت من بحر البسيط وينسب للشاعر الطغرائي: الحسين بن علي الأصبهاني، كان من الوزراء =

مَهْرُ المحبةِ والجَنَّةِ بذلُ النفس والمال لمالكهما الذي اشتراهما من المؤمنين، فما للجبان المُعرِضِ المُفْلِس وسَوْمِ هذه السلعة، باللَّهِ ما هَزُلَتْ فيستامها المفلسون، ولا كَسَدَت، فيبيعَهَا بالنسيئة المُعْسِرُونَ، لقد أقيمت للعرض في سوق مَن يُرِيد، فلم يرضَ رَبُّهَا لها بثمن دون بذل النفوس، فتأخر البطَّالون، وقام المحبُّونَ ينتظرون أَيُّهُم يصلُح أن يكون نفسُه الثمن، فدارت السِّلعة بينهم، ووقعت في يد ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤].

(١) قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [الحج: ٤٠].

قال الزجاج: «تأويل هذا: لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدم في كل شريعة نبي ـ المكان الذي يصلي فيه، فلولا الدفع لهدم في زمن موسى الكنائس التي كان يصلي فيها في شريعته، وفي زمن عيسى الصوامع والبيع، وفي زمن محمد المساجد».

وقال الأزهري: «أخبر الله سبحانه أنه لولا دفعه بعض الناس عن الفساد ببعضهم لهدمت متعبدات كل فريق من أهل دينه وطاعته في كل زمان، فبدأ بذكر الصوامع والبيع، لأن صلوات من تقدم من أنبياء بني إسرائيل وأصحابهم كانت فيها قبل نزول القرآن. وأخرت المساجد لأنها حدثت بعدهم».

وقال ابن زيد: «الصلوات صلوات أهل الإسلام تنقطع إذا دخل عليهم العدو»(٢).

قال الأخفش: «وعلى هذا القول الصلوات لا تهدم، ولكن تحل محل فعل آخر، كأنه قال: تركت صلوات».

وقال أبو عبيدة: «إنما يعني مواضع الصلوات».

= الكتاب، نعت بالأستاذ اتصل بالسلطان مسعود السلجوقي صاحب الموصل فولاه وزارته، توفي ٥١٣هـ.

(١) ٦٦٦ أحكام أهل الذمة جـ٢.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٧/ ١٧٧).

وقال الحسن: «يدفع عن مصليات أهل الذمة بالمؤمنين». وعلى هذا القول لا يحتاج إلى التقدير الذي قدره أصحاب القول الأول وهذا ظاهر اللفظ ولا إشكال فيه بوجه، فإن الآية دلت على الواقع لم تدل على كون هذه الأمكنة ـ غير المساجد ـ محبوبةً مرضيةً له، لكنه أخبر أنه لولا دفعه الناس بعضهم ببعض لهدمت هذه الأمكنة، التي كانت محبوبة له قبل الإسلام، وأقر منها ما أقر بعده وإن كانت مسخوطة له، كما أقر أهل الذمة وإن كان يبغضهم ويمقتهم ويدفع عنهم بالمسلمين مع بغضه لهم. وهكذا يدفع عن مواضع متعبداتهم بالمسلمين وإن كان يبغضها وهو سبحانه يدفع عن متعبداتهم التي أقروا عليها شرعا وقدرا، فهو يحب الدفع عنها وإن كان يبغضها، كما يحب الدفع عن أربابها وإن كان يبغضهم.

وهذا القول هو الراجح إن شاء الله تعالى، وهو مذهب ابن عباس في الآية. قال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا عبيد الله هو ابن موسى عن إسرائيل عن السدي عمن حدثه عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ ﴾. قال: الصوامع التي يكون فيها الرهبان، والبيع مساجد اليهود، والصلوات كنائس النصارى، والمساجد مساجد المسلمين[1].

قال ابن أبي حاتم: وأخبرنا الأشج ثنا حفص بن غياث عن داود عن أبي العالية قال: ﴿ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ ﴾ قال: صوامع وإن كان يشرك به، وفي لفظ: إن الله يحب أن يذكر ولو من كافر! وفي تفسير شيبان عن قتادة: الصوامع للصابئين، والبيع للنصارى، والصلوات لليهود، والمساجد للمسلمين[2].

***

(١) أخرجه الطبري في تفسيره مختصرًا (١٧/ ١٧٦) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٥٩) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم.
(٢) أخرجه الصنعاني في تفسيره (٣/ ٣٩).

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾.

[(١)] ههنا عدة أمور عاقب بها الكفار بمنعهم عن الإيمان، وهي: الختم والطبع والأكنة والغطاء والغلاف والحجاب والوقر والغشاوة والران والغل والسد والقفل والصمم والبكم والعمى والصد والصرف والشد على القلب والضلال والإغفال والمرض وتقليب الأفئدة والحول بين المرء وقلبه وإزاغة القلوب والخذلان والإركاس والتثبيط والتزيين وعدم إرادة هداهم وتطهيرهم وإماتة قلوبهم بعد خلق الحياة فيها، فتبقى على الموت الأصلي، وإمساك النور عنها فتبقى في الظلمة الأصلية، وجعل القلب قاسيًا لا ينطبع فيه مثال الهدى وصورته، وجعل الصدر ضيقًا حرجًا لا يقبل الإيمان.

وهذه الأمور منها ما يرجع إلى القلب: كالختم والطبع والقفل والأكنة والإغفال والمرض ونحوها.

ومنها ما يرجع إلى رسوله الموصل إليه الهدى: كالصمم والوقر.

ومنها ما يرجع إلى طليعته ورائده: كالعمى والغشاء.

ومنها ما يرجع إلى ترجمانه ورسوله المبلغ عنه: كالبكم النطقي، وهو نتيجة البكم القلبي، فإذا بكم القلب بكم اللسان.

ولا تصغ إلى قول من يقول: إن هذه مجازات واستعارات، فإنه قال بحسب مبلغه من العلم والفهم عن الله ورسوله، وكان هذا القائل حقيقة الفعل عنده أن يكون من حديد، والختم أن يكون بشمع أو طين، والمرض أن يكون حمى بنافض أو قولنج أو غيرهما من أمراض البدن، والموت هو مفارقة الروح للبدن ليس إلا، والعمى ذهاب ضوء العين الذي تبصر به.

وهذه الفرقة من أغلظ الناس حجابا، فإن هذه الأمور إذا أضيفت إلى محلها كانت

---

(١) ٩٢ شفاء العليل.

بحسب تلك المحال، فنسبة قفل القلب إلى القلب كنسبة قفل الباب إليه، وكذلك الختم والطابع الذي عليه هو بالنسبة إليه كالختم والطابع الذي على الباب والصندوق ونحوهما، وكذلك نسبة الصمم والعمى إلى الأذن والعين، وكذلك موته وحياته نظير موت البدن وحياته، بل هذه الأمور ألزم للقلب منها للبدن، فلو قيل: إنها حقيقة في ذلك مجاز في الأجسام المحسوسة لكان مثل قول هؤلاء وأقوى منه، وكلاهما باطل، فالعمى في الحقيقة والبكم والموت والقفل للقلب. ثم قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

والمعنى أنه معظم العمى وأصله، وهذا كقوله ﷺ: «إنما الربا في النسيئة»[(١)]. وقوله: «إنما الماء من الماء»[(٢)]. وقوله: «ليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى غنى النفس»[(٣)]. وقوله: «ليس المسكين الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان، إنما المسكين الذي لا يجد ما يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه»[(٤)]. وقوله: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[(٥)].

ولم يرد نفي الاسم عن هذه المسميات، إنما أراد أن هؤلاء أولى بهذه الأسماء وأحق ممن يسمونه بها، فهكذا قوله: ﴿ لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾، وقريب من هذا قوله: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية، وعلى التقديرين فقد أثبت للقلب عمى حقيقة، وهكذا جميع ما نسب إليه.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٥٩٦) وانظر: فتح الباري (٤/ ٣٨١-٣٨٢) وشرح النووي (١١/ ٢٣-٢٤).

(٢) أخرجه مسلم (رقم٣٤٣) وانظر: فتح الباري (١/ ١٣) (١/ ٣٩٧-٣٩٩) وشرح النووي (٤/ ٣٦-٣٧).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٦٤٤٦) ومسلم (رقم ١٠٥١) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٢٤) (١١/ ٢٦٢) وشرح النووي (٧/ ١٤٠-١٤١).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ١٤٧٩) ومسلم (رقم ١٠٣٩) وانظر: فتح الباري (٤/ ١٨٥) وشرح النووي (٧/ ١٢٩).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٦١١٤) ومسلم (رقم ٢٦٠٩) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٢٤، ٩١٥).

ولما كان القلب ملك الأعضاء وهي جنوده، وهو الذي يحركها ويستعملها، والإرادة والقوىٰ والحركة الاختيارية تنبعث كانت هذه الأمثال أصلًا وللأعضاء تبعًا.

فلنذكر هذه الأمور مفصلة ومواقعها في القرآن، فقد تقدم الختم، قال الأزهري: وأصله التغطية وختم البذر في الأرض إذ غطاه.

قال أبو إسحاق: معنىٰ ختم وطبع في اللغة واحد، وهو التغطية علىٰ الشيء والاستيثاق منه، فلا يدخله شيء، كما قال تعالىٰ: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وكذلك قوله: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [النحل: ١٠٨] قلت: الختم والطبع يشتركان فيما ذكر، ويفترقان في معنىٰ آخر، وهو أن الطبع ختم يصير سجية وطبيعة، فهو تأثير لازم لا يفارق[1].

[2]وأما معاينة القلب: فهي انكشاف صورة المعلوم له، بحيث تكون نسبته إلىٰ القلب كنسبة المرئي إلىٰ العين، وقد جعل الله سبحانه القلب يبصر ويعمىٰ، كما تبصر العين وكما تعمىٰ، قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] فالقلب يرىٰ ويسمع ويعمىٰ ويصم، وعماه وصممه أبلغ من عمىٰ البصر وصممه.

وأما ما يثبته متأخرو القوم من هذا القسم الثالث، وهو رؤية الروح وسمعها وإرادتها وأحكامها التي هي أخص من أحكام القلب، فهؤلاء اعتقادهم أن الروح غير النفس والقلب.

ولا ريب أن ههنا أمورًا معلومة وهي: البدن وروحه القائم به، والقلب المشاهد فيه وفي سائر الحيوان، والغريزة وهي القوة العاقلة التي محلها القلب. ونسبتها إلىٰ

---

(١) بقية البحث ذكر عقوبة الله لمن صد عن سبيله، وذكرها الشيخ مجموعة هنا، وقد حاولنا توزيعها في محالها من القرآن حسب الاجتهاد إلا أن الباحث لا يستغني عن مراجعتها في الأصل (ج).

(٢) ٢٤٦ مدارج جـ٣.

القلب كنسبة القوة الباصرة إلى العين والقوة السامعة إلى الأذن، ولهذا تسمى تلك القوة قلبا، كما تسمى القوة الباصرة بصرًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]، ولم يرد شكل القلب فإنه لكل أحد، وإنما أراد القوة والغريزة المودعة فيه.

والروح: هي الحاملة للبدن، ولهذه القوى كلها، فلا قوام للبدن ولا لقواه إلا بها - ولها باعتبار إضافتها إلى كل محل - حكم واسم يخصها هناك. فإذا أضيفت إلى محل البصر سميت بصرًا، وكان لها حكم يخصها هناك. وإذا أضيفت إلى محل السمع سميت سمعًا وكان لها حكم يخصها هناك. وإذا أضيفت إلى محل العقل - وهو القلب - سميت قلبًا. ولها حكم يخصها هناك، هي في ذلك كله روح.

فالقوة الباصرة والعاقلة والسامعة والناطقة: روح باصرة وسامعة وعاقلة وناطقة. فهي في الحقيقة هذا العاقل، الفاهم المدرك، المحب العارف، المحرك للبدن، الذي هو محل الخطاب والأمر والنهي - هو شيء واحد له صفات متعددة بحسب متعلقاته، فإنه يسمى نفسًا مطمئنة، ونفسًا لوَّامة، ونفسًا أمارة. وليس هو ثلاثة أنفس بالذات والحقيقة، ولكن هو نفس واحدة لها صفات متعددة.

[(١)]والله ﷻ يغار على قلب عبده أن يكون معطَّلًا من حبه وخوفه ورجائه، وأن يكون فيه غيره، فالله ﷻ خلقه لنفسه، واختاره من بين خلقه، كما في الأثر الإلهي: «ابن آدم خلقتك لنفسي، وخلقت كل شيء لك، فبحقي عليك لا تشتغل بما خلقته لك عمّا خلقتك له»[(٢)]. وفي أثر آخر: «خلقتك لنفسي فلا تلعب، وتكفلت لك برزقك فلا تتعب[(٣)]، يا ابن آدم اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل

(١) ٣٢٦ روضة المحبين.
(٢) ذكره المناوي في فيض القدير (٢/ ٣٠٥).
(٣) ذكره المناوي في فيض القدير (٢/ ٣٠٥).

شيء، وأنا خير لك من كل شيء»[١].

ويغار على لسانه أن يتعطل من ذكره، ويشتغل بذكر غيره. ويغار على جوارحه أن تتعطل من طاعته، وتشتغل بمعصيته، فيقبح بالعبد أن يغار مولاه الحق على قلبه ولسانه وجوارحه وهو لا يغار عليها.

وإذا أراد الله بعبده خيرًا سلط على قلبه إذا أعرض عنه واشتغل بحب غيره أنواع العذاب حتى يرجع قلبه إليه. وإذا اشتغلت جوارحه بغير طاعته ابتلاها بأنواع البلاء، وهذا من غيرته ﷻ على عبده.

وكما أنه ﷻ يغار على عبده المؤمن فهو يغار له ولحرمته، فلا يُمَكّن المفسد أن يتوصل إلى حرمته غيرةً منه لعبده، فإنه ﷻ يدفع عن الذين آمنوا، فيدفع عن قلوبهم وجوارحهم وأهلهم وحريمهم وأموالهم، يتولى سبحانه الدفع عن ذلك كله غيرةً منه لهم، كما غاروا لمحارمه من نفوسهم ومن غيرهم، والله تعالى يغار على إمائه وعبيده من المفسدين شرعًا وقدرًا. ومن أجل ذلك حرم الفواحش وشرع عليها أعظم العقوبات وأشنع القتلات لشدة غيرته على إمائه وعبيده، فإن عطلت هذه العقوبات شرعًا أجراها سبحانه قدرًا.

[٢]فاستحضر بعض العقوبات التي رتبها الله ﷻ على الذنوب، وجوز وصولها إليك، واجعل ذلك داعيا للنفس إلى هجرانها، وأنا أسوق لك منها طرفا يكفي العاقل مع التصديق ببعضه.

فمنها: الختم على القلوب والأسماع، والغشاوة على الأبصار، والأقفال على القلوب، وجعل الأكنة عليها والرين عليها والطبع، وتقليب الأفئدة والإبصار، والحيلولة بين المرء وقلبه، وإغفال القلب عن ذكر الرب، وإنساء العبد نفسه وترك

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٠٢) (٤/ ٢٣٩) وابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٣٦٢).

(٢) ١٥٨ الجواب الكافي.

إرادة الله تطهير القلب، وجعل الصدر ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء، وصرف القلوب عن الحق، وزيادتها مرضا على مرضها، وإركاسها وإنكاسها، بحيث تبقى منكوسة.

كما ذكر الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه قال: «القلوب أربعة: فقلب أجرد فيه سراج يزهر، فذلك قلب المؤمن، وقلب أغلف، فذلك قلب الكافر، وقلب منكوس، فذلك قلب المنافق، وقلب تمده مادتان: مادة إيمان، ومادة نفاق، وهو لما غلب عليه منهما»[(١)].

ومنها: التثبط عن الطاعة، والإقعاد عنها.

ومنها: جعل القلب أصم لا يسمع الحق، أبكم لا ينطق به، أعمى لا يراه، فتصير النسبة بين القلب وبين الحق الذي لا ينفعه غيره، كالنسبة بين أذن الأصم والأصوات، وعين الأعمى والألوان، ولسان الأخرس والكلام، وبهذا يعلم أن العمى والصمم والبكم للقلب بالذات والحقيقة، وللجوارح بالعرض والتبعية ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]. وليس المراد نفي العمى الحسي عن البصر، كيف وقد قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ [الفتح: ١٧]. وقال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ [عبس: ١، ٢]. وإنما المراد أن العمى التام في الحقيقة عمى القلب، حتى إن عمى البصر بالنسبة إليه كالأعمى، حتى إنه يصح نفيه بالنسبة إلى كماله وقوته، كما قال ﷺ: «**ليس الشديد بالصرعة، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب**». وقوله ﷺ: «**ليس المسكين بالطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان، ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس، ولا يفطن له فيتصدق عليه**» ونظائره كثيرة.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ١٦٨ رقم ٣٠٤٠٤) وأحمد (٣/ ١٧) والطبراني في الصغير (رقم ١٠٧٥)، والديلمي في الفردوس (٣/ ٢٣٥ رقم ٤٦٩٧) وابن المبارك في الزهد (رقم ١٤٣٩) وأبو نعيم (١/ ٢٧٦) وجوّد إسناده السيوطي في الدر المنثور (١/ ٢١٥) وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٧): وهذا إسناد جيد حسن، وقال في (٣/ ٢٩٣): إسناده جيد.

والمقصود: أن من عقوبات المعاصي جعل القلب أعمىٰ أصم أبكم.

ومنها: الخسف بالقلب كما يخسف بالمكان وما فيه: فيخسف به إلىٰ أسفل سافلين، وصاحبه لا يشعر.

وعلامة الخسف به: أنه لا يزال جوالا حول السفليات والقاذورات والرذائل، كما أن القلب الذي رفعه الله وقربه إليه لا يزال جوّالا حول البر والخير.

***

﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾.

[1] أخبر الله سبحانه أنه جعل ما ألقاه الشيطان في أمنية الرسول محنة واختبارًا لعباده فافتتن به فريقان، وهم الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم، وعلم المؤمنين أن القرآن والرسول حق، وأن إلقاء الشيطان باطل فآمنوا بذلك، وأخبتت له قلوبهم، فهذه غاية مطلوبة مقصودة بهذا القضاء والقدر.

والله سبحانه جعل القلوب علىٰ ثلاثة أقسام: مريضة وقاسية ومخبتة، وذلك لأنها إما أن تكون يابسة جامدة لا تلين للحق اعترافًا وإذعانًا، أو لا تكون كذلك.

فالأول حال القلوب القاسية الحجرية، التي لا تقبل ما يبث فيها، ولا ينطبع فيها الحق، ولا ترتسم فيها العلوم النافعة، ولا تلين لإعطاء الأعمال الصالحة.

وأما النوع الثاني فلا يخلوا إما أن يكون الحق ثابتا فيه لا يزول عنه لقوته مع لينه، أو يكون ثابتا مع ضعف وانحلال. والثاني هو القلب المريض، والأول هو الصحيح المخبت، وهو الذي جمع الصلابة والصفاء واللين، فيبصر الحق بصفائه، ويشتد فيه بصلابته، ويرحم الخلق بلينه. كما في أثر مروي: «القلوب آنية الله في أرضه، فأحبها

(١) ١٩٢ شفاء العليل.

إلى الله أصلبها وأرقها وأصفاها»[١]. كما قال تعالى في أصحاب هذه القلوب: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

فهذا وصف منه للمؤمنين الذين عرفوا الإيمان بصفاء قلوبهم، واشتدوا على الكفار بصلابتها، وتراحموا فيما بينهم بلينها.

وذلك أن القلب عضو من أعضاء البدن وهو أشرف أعضائه وملكها المطاع، وكل عضو، كاليد مثلًا ـ إما أن تكون جامدة ويابسة لا تلتوي ولا تبطش أو تبطش بضعف، فذلك مثل القلب القاسي.

أو تكون مريضة ضعيفة عاجزة ولضعفها ومرضها، فذلك مثل الذي فيه مرض، أو تكون باطشة بقوة ولين، فذلك مثل القلب العليم الرحيم.

فبالعلم خرج عن المرض الذي ينشأ من الشهوة والشبهة؛ وبالرحمة خرج عن القسوة، ولهذا وصف سبحانه من عدا أصحاب القلوب المريضة والقاسية بالعلم والإيمان والإخبات.

فتأمل ظهور حكمته سبحانه في أصحاب هذه القلوب، وهم كل الأمة.

فأخبر أن الذين أوتوا العلم علموا أنه الحق من ربهم، كما أخبر أنهم في المتشابه يقولون: «آمنا به كل من عند ربنا»، وكلا الوصفين موضع شبهة، فكان حظهم منه الإيمان وحظ أرباب القلوب المنحرفة عن الصحة الافتتان.

ولهذا جعل سبحانه إحكام آياته في مقابلة ما يلقي الشيطان بإزاء الآيات المحكمات في مقابلة المتشابهات، فالإحكام ههنا بمنزلة إنزال المحكمات هناك، ونسخ ما يلقي الشيطان ههنا في مقابلة رد المتشابه إلى المحكم هناك.

والنسخ ههنا رفع ما ألقاه الشيطان لا رفع ما شرعه الرب سبحانه.

---

(١) أخرجه بلفظ قريب الديلمي في الفردوس عن أبي الدرداء (٣/ ٢٠٧ رقم ٤٥٨٤) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٩٧) مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ وقال: غريب من حديث ثور.

وللنسخ معنى آخر هو النسخ من أفهام المخاطبين ما فهموه مما لم يرده ولا دل اللفظ عليه، وإن أوهمه كما أطلق الصحابة النسخ على قوله: ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٨٤] قالوا: نسختها قوله: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] الآية فهذا نسخ من الفهم لا نسخ للحكم الثابت، فإن المحاسبة لا تستلزم العقاب في الآخرة ولا في الدنيا أيضًا، ولهذا عمهم بالمحاسبة.

ثم أخبر بعدها أنه يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، ففهم المؤاخذة التي هي المعاقبة من الآية، تحميل لها فوق وسعها، فرفع هذا المعنى من فهمه بقوله: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ إلى آخرها، فهذا رفع لفهم غير المراد من إلقاء الملك، وذاك رفع لما ألقاه غير الملك في أسماعهم أو في التمني.

وللنسخ معنى ثالث عند الصحابة والتابعين، وهو ترك الظاهر: إما بتخصيص عام، أو بتقييد مطلق، وهذا كثير في كلامهم جدًّا.

وله معنى رابع، وهو الذي يعرفه المتأخرون، وعليه اصطلحوا، وهو رفع الحكم بجملته بعد ثبوته بدليل رافع له، فهذه أربعة معان للنسخ. والإحكام له ثلاثة معان:

أحدها: الإحكام الذي في مقابلة المتشابه كقوله: ﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ [آل عمران: ٧].

والثاني: الإحكام في مقابلة نسخ ما يلقي الشيطان كقوله: ﴿ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [الحج: ٥٢] وهذا الإحكام يعم جميع آياته، وهو إثباتها وتقريرها وبيانها، ومنه قوله: ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ [هود: ١].

الثالث: إحكام في مقابلة الآيات المنسوخة، كما يقول السلف كثيرًا: هذه الآية محكمة غير منسوخة.

وذلك لأن الإحكام تارة يكون في التنزيل، فيكون في مقابلة ما يلقيه الشيطان في

أمنيته ما يلقيه المبلغ أو في سمع المبلغ، فالحكم هنا هو المنزل من عند الله، أحكمه الله أي فصله من اشتباهه بغير المنزل، وفصل منه ما ليس منه بإبطاله.

وتارة يكون في إبقاء المنزل واستمراره فلا ينسخ بعد ثبوته.

وتارة يكون في معنى المنزل وتأويله وهو تمييز المعنى المقصود من غيره حتى لا يشتبه به.

والمقصود أن قوله: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [الحج: ٥٣] هي لام التعليل على بابها، وهذا الاختبار والامتحان مظهر لمختلف القلوب الثلاثة، فالقاسية والمريضة ظهر خبؤها من الشك والكفر. والمخبتة ظهر خبؤها من الإيمان والهدى وزيادة محبته وزيادة بغض الكفر والشرك والنفرة عنه، وهذا من أعظم حكمة هذا الإلقاء.

[(١)] وفي المسند وغيره عن النبي ﷺ: «القلوب آنية الله في أرضه، فأحبها إليه أصلبها وأرقها وأصفاها»[(٢)]، وقد ذكر سبحانه أنواع القلوب في قوله: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج: ٥٣، ٥٤] فذكر القلب المريض وهو الضعيف المنحل، الذي لا تثبت فيه صورة الحق، والقلب القاسي اليابس الذي لا يقبلها ولا تنطبع فيه، فهذان القلبان شقيان معذبان.

ثم ذكر القلب المخبت المطمئن إليه، وهو الذي ينتفع بالقرآن ويزكو به.

قال الكلبي: ﴿ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ﴾ فترق للقرآن قلوبهم.

وقد بين سبحانه حقيقة الإخبات ووصف المخبتين في قوله: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾

---

(١) ١٠٦ شفاء العليل.

(٢) تقدم تخريجه قبل قليل.

ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥].

فذكر للمخبتين أربع علامات: وجل قلوبهم عند ذكره، والوجل خوف مقرون بهيبة ومحبة، وصبرهم على أقداره، وإتيانهم بالصلاة قائمة الأركان ظاهرًا وباطنًا، وإحسانهم إلى عباده بالإنفاق مما آتاهم، وهذا إنما يتأتى للقلب المخبت.

قال ابن عباس: ﴿ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ المتواضعين. وقال مجاهد: المطمئنين إلى الله. وقال الأخفش: الخاشعين. وقال ابن جرير: الخاضعين. قال الزجاج: اشتقاقه من الخبت وهو المنخفض من الأرض، وكل مخبت متواضع فالإخبات سكون الجوارح على وجه التواضع والخشوع لله.

فإن قيل: كان معناه التواضع والخشوع فكيف عدي بإلى في قوله: ﴿ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ [هود: ٢٣].

قيل: ضمن معنى أنابوا واطمأنوا وتابوا، وهذه عبارات السلف في هذا الموضع.

والمقصود: أن القلب المخبت ضد القاسي والمريض، وهو سبحانه الذي جعل بعض القلوب مخبتًا إليه وبعضها قاسيا وجعل للقسوة آثارًا وللإخبات آثارًا.

فمن آثار القسوة: تحريف الكلم عن مواضعه، وذلك من سوء الفهم وسوء القصد، وكلاهما ناشئ عن قسوة القلب. ومنها نسيان ما ذكر به، وهو ترك ما أمر به علمًا وعملًا.

ومن آثار الإخبات وجل القلوب لذكره سبحانه، والصبر على أقداره، والإخلاص في عبوديته، والإحسان إلى خلقه.

[١]والفرق بين الصبر والقسوة: أن الصبر خلق كسبي يتخلق به العبد، وهو حبس النفس عن الجزع والهلع والتشكي، فيحبس النفس عن التسخط، واللسان عن الشكوى،

---

(١) ٢٩٣ الروح.

والجوارح عما لا ينبغي فعله، وهو ثبات القلب على الأحكام القدرية والشرعية.

وأما القسوة فيبس في القلب يمنعه من الانفعال، وغلظة تمنعه من التأثر بالنوازل، فلا يتأثر لغلظته وقساوته لا لصبره واحتماله.

وتحقيق هذا أن القلوب ثلاثة (قلب قاس) غليظ بمنزلة اليد اليابسة، (وقلب مائع) رقيق جدًّا، فالأول لا ينفعل بمنزلة الحجر، والثاني بمنزلة الماء، وكلاهما ناقص.

وأصح القلوب (القلب الرقيق) الصافي الصلب، فهو يرى الحق من الباطل بصفائه، ويقبله ويؤثره برقته، ويحفظه ويحارب عدوه بصلابته.

وفي أثر: «القلوب آنية الله في أرضه بأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها».

وهذا القلب الزجاجي؛ فإن الزجاجة جمعت الأوصاف الثلاثة.

وأبغض القلوب إلى الله القلب القاسي، قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٢] وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة: ٧٤] وقال تعالى: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج: ٥٣].

فذكر القلبين المنحرفين عن الاعتدال، هذا بمرضه، وهذا بقسوته، وجعل إلقاء الشيطان فتنة لأصحاب هذين القلبين، ورحمة لأصحاب القلب الثالث، وهو القلب الصافي الذي ميز بين إلقاء الشيطان وإلقاء الملك بصفائه، وقبل الحق بإخباته ورقته، وحارب النفوس المبطلة بصلابته وقوته.

فقال تعالى عقب ذلك: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٥٤].

***

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ

وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾.

[(١)] الفرق بين إلهام الملك وإلقاء الشيطان من وجوه:

منها: أن ما كان لله موافقًا لمرضاته وما جاء به رسوله فهو من الملك، وما كان لغيره غير موافق لمرضاته فهو من إلقاء الشيطان.

ومنها: أن ما أثمر إقبالًا على الله وإنابة إليه وذكرًا له وهمة صاعدة إليه، فهو من إلقاء الملك، وما أثمر ضد ذلك فهو من الشيطان.

ومنها: أن ما أورث أنسًا ونورًا في القلب وانشراحًا في الصدر فهو من الملك، وما أورث ضد ذلك فهو من الشيطان.

ومنها: أن ما أورث سكينة وطمأنينة فهو من الملك، وما أورث قلقًا وانزعاجًا واضطرابًا فهو من الشيطان.

فالإلهام الملكي: يكثر في القلوب الطاهرة النقية التي قد استنارت بنور الله، فللملك بها اتصال وبينه وبينها مناسبة، فإنه طيب طاهر لا يجاور إلا قلبًا يناسبه، فتكون لمة الملك بهذا القلب أكثر من لمة الشيطان، وأما القلب المظلم الذي قد اسود بدخان الشهوات والشبهات فإلقاء الشيطان ولمته به أكثر من لمة الملك.

[(٢)] فتأمل هذا المثل الذي أمر الناس كلهم باستماعه، فمن لم يسمعه فقد عصى أمره، كيف تضمن إبطال الشرك وأسبابه بأوضح برهان في أوجز عبارة وأحسنها وأحلاها، وسجل على جميع آلهة المشركين أنهم لو اجتمعوا كلهم في صعيد واحد وعاون بعضهم بعضًا بأبلغ المعاونة لعجزوا عن خلق ذباب واحد، ثم بين عجزهم وضعفهم عن استنقاذ ما يسلبهم الذباب إياه حين يسقط عليهم، فأي شيء أضعف من هذا الإله المطلوب ومن عابده الطالب نفعه وحده؟ فهل قدر القوي العزيز حق

---

(١) ٣١٣ الروح.

(٢) ٩٧ مختصر الصواعق جـ١.

قدره من أشرك معه آلهة هذا شأنها، فأقام سبحانه حجة التوحيد وبين ذلك بأعذب ألفاظ وأحسنها، لم يكتنفها غموض، ولم يشنها تطويل، ولم يعبها تقصير، ولم يزر بها زيادة ولا نقص، بل بلغت في الحسن والفصاحة والبيان والإيجاز ما لا يتوهمه متوهم، ولا يظن ظان أن يكون أبلغ في معناها منها، وتحتها من المعنى الجليل القدر العظيم الشأن البالغ في النفع ما هو أجل من الألفاظ اهـ.

[(١)] فضرب لهم سبحانه مثلًا من عقولهم يدلهم على قبح عبادتهم لغيره، وأن هذا أمر مستقر قبحه وهجنته في كل عقل وإن لم يرد به الشرع، وهل في العقل أنكر وأقبح من عبادة من لو اجتمعوا كلهم لم يخلقوا ذبابًا واحدًا، وإن يسلبهم الذباب شيئًا لم يقدروا على الانتصار منه واستنقاذ ما سلبهم إياه، وتركِ عبادة الخلاق العليم القادر على كل شيء، الذي ليس كمثله شيء، أفلا تراه كيف احتج عليهم بما ركبه في العقول من حسن عبادته وحده وقبح عبادة غيره.

[(٢)] حقيق على كل عبد أن يستمع قلبه لهذا المثل، ويتدبره حق تدبره، فإنه يقطع مواد الشرك من قلبه، وذلك أن المعبود أقل درجاته أن يقدر على إيجاد ما ينفع عابده وإعدام ما يضره، والآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خلق الذباب ولو اجتمعوا كلهم لخلقه، فكيف ما هو أكبر منه؟ ولا يقدرون على الانتصار من الذباب إذا سلبهم شيئًا مما عليهم من طيب ونحوه فيستنقذوه منه، فلا هم قادرون على خلق الذباب الذي هو من أضعف الحيوانات، ولا على الانتصار منه واسترجاع ما سلبهم إياه، فلا أعجز من هذه الآلهة ولا أضعف منها فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله.

وهذا المثل من أبلغ ما أنزله الله سبحانه في بطلان الشرك وتجهيل أهله وتقبيح

---

(١) ٨ مفتاح جـ٢.

(٢) ١٨١ أعلام جـ١.

عقولهم، والشهادة على أن الشيطان قد تلاعب بهم أعظم من تلاعب الصبيان بالكرة، حيث أعطوا الإلهية التي من بعض لوازمها القدرة على جميع المقدورات والإحاطة بجميع المعلومات، والغني عن جميع المخلوقات، وأن يصمد إلى الرب في جميع الحاجات وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات وإجابة الدعوات، فأعطوها صورا وتماثيل يمتنع عليها القدرة على أقل مخلوقات الإله الحق وأذلها وأصغرها وأحقرها ولو اجتمعوا لذلك وتعاونوا عليه.

وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء إلاهيتهم أن هذا الخلق الأقل الأذل العاجز الضعيف لو اختطف منهم شيئا واستلبه فاجتمعوا على أن يستنقذوه منه لعجزوا عن ذلك، ولم يقدروا عليه، ثم سوى بين العابد والمعبود في الضعف والعجز بقوله: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ قيل: الطالب العابد، والمطلوب المعبود، فهو عاجز متعلق بعاجز.

وقيل: هو تسوية بين السالب والمسلوب، وهو تسوية بين الإله والذباب في الضعف والعجز، وعلى هذا فقيل: الطالب الإله الباطل، والمطلوب الذباب يطلب منه ما استلبه منه.

وقيل: الطالب الذباب والمطلوب الإله، فالذباب يطلب منه ما يأخذه مما عليه، والصحيح أن اللفظ يتناول الجميع، فضعف العابد والمعبود والمستَلَب والمستَلِب، فمن جعل هذا إلهًا مع القوي العزيز فما قدره حق قدره، ولا عرفه حق معرفته ولا عظمه حق تعظيمه.

***

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ (٧٧)﴾.

[1]الذي يظهر في الآية والله أعلم بمراده من كلامه. أنها اشتملت على مطلق العبادة،

(١) ٨٠ البدائع جـ١.

وتفصيلها فذكر الأعم ثم ما هو أخص منه، ثم ما هو أخص من الأخص، فذكر القنوت أولا وهو الطاعة الدائمة، فيدخل فيه القيام والذكر والدعاء وأنواع الطاعة.

ثم ذكر ما هو أخص منه وهو السجود، الذي يشرع وحده كسجود الشكر والتلاوة ويشرع في الصلاة، فهو أخص من مطلق القنوت، ثم ذكر الركوع الذي لا يشرع إلا في الصلاة، فلا يسن الإتيان به منفردا، فهو أخص مما قبله، ففائدة الترتيب النزول من الأعم إلى الأخص إلى أخص منه، وهما طريقتان معروفتان في الكلام. النزول من الأعم إلى الأخص، وعكسها وهو الترقي من الأخص إلى ما هو أعم منه، إلى ما هو أعم ونظيرها: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ [الحج: ٧٧] فذكر أربعة أشياء: أخصها الركوع، ثم السجود أعم منه، ثم العبادة أعم من السجود، ثم فعل الخير العام المتضمن لذلك كله.

والذي يزيد هذا وضوحًا الكلام على ما ذكره بعد هذه الآية من قوله: ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الحج: ٢٦] فإنه ذكر أخص هذه الثلاثة، وهو الطواف الذي لا يشرع إلا بالبيت خاصة، ثم انتقل منه إلى الاعتكاف ـ وهو القيام المذكور في الحج ـ وهو أعم من الطواف، لأنه يكون في كل مسجد، ويختص بالمساجد لا يتعداها، ثم ذكر الصلاة التي تعم سائر بقاع الأرض سوى ما منع منه مانع أو استثني شرعًا.

وإن شئت قلت: ذكر الطواف الذي هو أقرب العبادات بالبيت.

ثم الاعتكاف الذي يكون في سائر المساجد.

ثم الصلاة التي تكون في البلد كله بل في كل بقعة، فهذا تمام الكلام على ما ذكره من الأمثلة، وله رحمه الله مزيد السبق وفضل التقدم.

[1]إن أفضل منازل الخلق عند الله منزلة الرسالة والنبوة، فالله يصطفي من

(١) ٧٨ مفتاح جـ١.

الملائكة رسلًا ومن الناس. وكيف لا يكون أفضل الخلق عند الله من جعلهم وسائط بينه وبين عباده في تبليغ رسالاته، وتعريف أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، ومراضيه ومساخطه، وثوابه وعقابه، وخصهم بوحيه، واختصهم بتفضيله، وارتضاهم لرسالته إلى عباده، وجعلهم أزكى العالمين نفوسا، وأشرفهم أخلاقًا، وأكملهم علوما وأعمالا، وأحسنهم خلقة، وأعظمهم محبة وقبولا في قلوب الناس، وبرأهم من كل وصم وعيب وكل خلق دنيء، وجعل أشرف مراتب الناس بعدهم مرتبة خلافتهم ونيابتهم في أممهم، فإنهم يخلفونهم على منهاجهم وطريقهم من نصيحتهم للأمة، وإرشادهم الضال، وتعليمهم الجاهل، ونصرهم المظلوم، وأخذهم على يد الظالم، وأمرهم بالمعروف وفعله، ونهيهم عن المنكر وتركه، والدعوة إلى الله بالحكمة للمستجيبين، والموعظة الحسنة للمعرضين الغافلين، والجدال بالتي هي أحسن للمعاندين المعارضين، فهذه حال أتباع المرسلين وورثة النبيين، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وسواء كان المعنى أنا ومن اتبعني على بصيرة، وأنا أدعو إلى الله، أو المعنى: أدعو إلى الله على بصيرة. والقولان متلازمان، فإنه لا يكون من أتباعه حقًّا إلا من دعا إلى الله على بصيرة كما كان متبوعه يفعل، فهؤلاء خلفاء الرسل حقًّا وورثتهم دون الناس، وهم أولو العلم الذين قاموا بما جاء به علمًا وعملًا وهداية وإرشادًا وصبرًا وجهادًا، وهؤلاء هم الصديقون، وهم أفضل أتباع الأنبياء ورأسهم وإمامهم الصديق الأكبر أبو بكر ﷺ قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠] فذكر مراتب السعداء وهي أربعة، وبدأ بأعلاهم مرتبة، ثم الذين يلونهم إلى آخر المراتب، وهؤلاء الأربعة هم أهل الجنة الذين هم أهلها، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

***

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

[1]أخبر تعالى أنه اجتباهم، والاجتباء كالاصطفاء، وهو افتعال من اجتبى الشيء يجتبيه: إذا ضمه إليه وحازه إلى نفسه، فهم المجتبون الذين اجتباهم الله إليه، وجعلهم أهله وخاصته وصفوته من خلقه بعد النبيين والمرسلين.

ولهذا أمرهم تعالى أن يجاهدوا فيه حق جهاده، فيبذلوا له أنفسهم، ويفردوه بالمحبة والعبودية، ويختاروه وحده إلها محبوبا على كل ما سواه، كما اختارهم على من سواهم، فيتخذونه وحده إلههم ومعبودهم الذي يتقربون إليه بألسنتهم وجوارحهم وقلوبهم ومحبتهم وإرادتهم، فيؤثرونه في كل حال على من سواه، كما اتخذهم عبيده وأولياءه وأحباءه، وآثرهم بذلك على من سواهم.

ثم أخبرهم تعالى أنه يسر عليهم دينه غاية التيسير، ولم يجعل عليهم فيه من حرج البتة، لكمال محبته لهم ورأفته ورحمته وحنانه بهم.

ثم أمرهم بلزوم ملة إمام الحنفاء أبيهم إبراهيم، وهي إفراده تعالى وحده بالعبودية والتعظيم والحب والخوف والرجاء والتوكل والإنابة والتفويض والاستسلام، فيكون تعلق ذلك من قلوبهم به وحده لا بغيره.

ثم أخبر تعالى أنه نوَّه بهم وأثنى عليهم قبل وجودهم، وسماهم عباده المسلمين قبل أن يظهرهم.

ثم نوَّه بهم وسماهم كذلك بعد أن أوجدهم اعتناء بهم ورفعة لشأنهم وإعلاء لقدرهم، ثم أخبر تعالى أنه فعل ذلك ليشهد عليهم رسوله، ويشهدوا هم على الناس، فيكونون مشهودا لهم بشهادة الرسول، شاهدين على الأمم بقيام حجة الله عليهم، فكان

(١) ١٣٣ أعلام جـ٤.

هذا التنويه وإشارة الذكر لهذين الأمرين الجليلين ولهاتين الحكمتين العظيمتين.

والمقصود: أنهم إذا كانوا بهذه المنزلة عنده تعالىٰ، فمن المحال أن يحرمهم كلهم الصواب في مسألة فيفتي فيها بعضهم بالخطأ، ولا يفتي فيها غيره بالصواب، ويظفر فيها بالهدىٰ من بعدهم، والله المستعان.

(1) إن إبراهيم بالسريانية معناه أب رحيم، والله ﷻ جعل إبراهيم الأب الثالث للعالم، فإن أبانا الأول آدم، والأب الثاني نوح، وأهل الأرض كلهم من ذريته، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ [الصافات: ٧٧]، وبهذا يتبين كذب المعبرين من العجم الذين يزعمون أنهم لا يعرفون نوحاً ولا ولده، ولا ينسبون إليه، وينسبون ملوكهم من آدم إليهم، ولا يذكرون نوحاً في آبائهم، وقد أكذبهم الله ﷻ في ذلك.

فالأب الثالث أب الآباء وعمود العالم، وإمام الحنفاء الذي اتخذه الله خليلاً، وجعل النبوة والكتاب في ذريته، ذاك خليل الرحمن، وشيخ الأنبياء كما سماه النبي ﷺ بذلك، فإنه لما دخل الكعبة وجد المشركين قد صوروا فيها صورته وصورة إسماعيل ابنه، وهما يستقسمان بالأزلام، فقال: قاتلهم الله، لقد علموا أن شيخنا لم يكن يستقسم بالأزلام. ولم يأمر الله رسوله ﷺ أن يتبع ملة أحد من الأنبياء غيره، فقال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٣]، وأمر أمته بذلك فقال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا ﴾ [الحج: ٧٨]، «وملة» منصوب علىٰ إضمار فعل، أي: اتبعوا وألزموا ملة إبراهيم، ودل علىٰ المحذوف ما تقدم من قوله: ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ [الحج: ٧٨]، وهذا هو الذي يقال له الإغراء. وقيل: منصوب انتصاب المصادر، والعامل فيه مضمون ما تقدم قبله، وكان رسول الله ﷺ يوصي أصحابه إذا أصبحوا وإذا أمسوا أن يقولوا: «أصبحنا علىٰ فطرة

(1) ١٥٤ جلاء الأفهام.

الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، وملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين»[١][٢].

[٣]وقد اختلفت عبارات السلف في «حق الجهاد».

فقال ابن عباس: «هو استفراغُ الطاقة فيه[٤]، وألا يَخافَ في اللهِ لومةَ لائم».

وقال مقاتل: «اعملوا للهِ حقَّ عمله، واعبدُوه حقَّ عِبادته». وقال عبد الله بنُ المبارك: «هو مجاهدةُ النفس والهوى». ولم يُصِبْ مَن قال: إن الآيتين منسوختان لظنه أنهما تضمنتا الأمر بما لا يُطاق.

وحقّ تُقاته وحقّ جهاده: هو ما يُطيقه كلُّ عبد في نفسه، وذلك يختِلف باختلافِ أحوال المكلَّفين في القُدرةِ، والعجزِ، والعلمِ، والجهلِ. فحقُّ التقوى، وحقُّ الجهاد بالنسبة إلى القادر المتمكن العالِم شيء، وبالنسبة إلى العاجز الجاهل الضعيف شيء.

وتأمل كيف عقَّب الأمر بذلك بقوله: ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨] والحَرَج: الضِّيقُ، بل جعله واسعاً يسَعُ كُلّ أحد، كما جعل رِزقه يسع كُلّ حي، وكلَّف العبدَ بما يسعه العبدُ، ورزق العَبدَ ما يسعُ العبد، فهو يسعه تكليفَه، ويسعه رزقُهُ، وما جعل على عبده في الدين من حَرَج بوجه ما، قال النبيُّ ﷺ: «بُعِثْتُ بِالحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ»[٥] أي: بالمِلَّة، فهى حنيفيَّة في التوحيد، سمحَةٌ في العمل...

---

(١) يأتي البحث إن شاء الله كاملًا في سورة الصافات (ج).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٤ رقم ٩٨٣١) والدارمي (رقم ٢٦٨٨) وأحمد (٣/ ٤٠٦، ٤٠٧) والبزار (٥/ ٢٩١ رقم ١٩١١) والطبراني في الدعاء (رقم ٢٩٣) وابن السني (رقم ٣٤) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١١٦): رواه أحمد والطبراني ورجالهما رجال الصحيح.

(٣) ١٠٥ زاد المعاد جـ٢.

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٧/ ٢٠٥).

(٥) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٦) والطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٢١٦ رقم ٧٨٦٨) والروياني (٢/ ٣١٧ رقم ١٢٧٩) وقال العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٥٢): رواه أحمد في مسنده بسند حسن. وانظر: فيض القدير (٣/ ٢٠٣).

[(١)] قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨] أي: متى اعتصمتم به تولاكم، ونصركم على أنفسكم وعلى الشيطان، وهما العدوان اللذان لا يفارقان العبد، وعداوتهما أضر من عداوة العدو الخارج، فالنصر على هذا العدوّ أهم، والعبد إليه أحوج، وكمال النصرة على العدو بحسب كمال الاعتصام بالله.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الحج

والحمد لله رب العالمين



(١) ١٨٠ مدارج السالكين جـ١.

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾.

[(١)] لما أُنزلت هذه الآيات على النبي ﷺ قال: «قد أنزلت عليَّ عشر آياتٍ من أقامهن دخل الجنة»[(٢)] ثم قرأ هذه الآيات.

[(٣)] قال الله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الحديد: ١٦] قال ابن مسعود ﷺ: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين»[(٤)] وقال ابن عباس: «إن الله استبطأ قلوب المؤمنين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن»[(٥)] وقال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾.

---

(١) ٣٣٩ روضة المحبين.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣١٧٣) والنسائي في الكبرى (١/ ٤٥٠ رقم ١٤٣٩) والحاكم (٢/ ٤٢٥ رقم ٣٤٧٩) والضياء في المختارة (١/ ٣٤١-٣٤٢ رقم ٢٣٤) وعبدالرزاق (٣/ ٣٨٣ رقم ٦٠٣٨) والضياء في المختارة (١/ ٣٤١-٣٤٢ رقم ٢٣٤) وعبدالرزاق (٣/ ٣٨٣ رقم ٦٠٣٨) وأحمد (١/ ٣٤) وعبد بن حميد (رقم ١٥) والعقيلي في الضعفاء (٤/ ٤٦٠) والحديث ضعفه النسائي وقال عنه منكر. بينما صححه الحاكم وقال الترمذي: هذا أصح من الحديث الأول.

(٣) ٥٢٠ مدارج جـ١.

(٤) أخرجه مسلم (رقم ٣٠٢٧).

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٥٧-٥٨) وقال في الموضع الأول: وأخرج ابن مردويه عن أنس لا أعلمه إلا مرفوعًا إلى النبي ﷺ، وقال في الموضع الثاني: وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس، وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣١١).

و«الخشوع» في أصل اللغة: الانخفاض، والذل، والسكون، قال تعالىٰ: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه: ١٠٨]، أي: سكنت، وذلت، وخضعت. ومنه وصف الأرض بالخشوع، وهو يبسها، وانخفاضها، وعدم ارتفاعها بالري والنبات، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت: ٣٩] و«الخشوع» قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل، والجمعية عليه، وقيل: «الخشوع» الانقياد للحق، وهذا من موجبات الخشوع.

فمن علاماته: أن العبد إذا خولف ورُدَّ عليه بالحق، استقبل ذلك بالقبول والانقياد، وقيل: «الخشوع» خمود نيران الشهوة، وسكون دخان الصدور، وإشراق نور التعظيم في القلب، وقال الجنيد: الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب.

وأجمع العارفون علىٰ أن «الخشوع» محله القلب، وثمرته علىٰ الجوارح، وهي تظهره، و«رأىٰ النبي ﷺ رجلًا يعبث بلحيته في الصلاة، فقال: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه»[(١)] وقال النبي ﷺ: «التقوىٰ هاهنا» ـ وأشار إلىٰ صدره ـ ثلاث مرات، وقال بعض العارفين: حسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن[(٢)].

ورأىٰ بعضهم رجلًا خاشع المنكبين والبدن، فقال: يا فلان، الخشوع هاهنا. وأشار إلىٰ صدره لا هاهنا، وأشار إلىٰ منكبيه،وكان بعض الصحابة ﷺ وهو حذيفة، يقول: «إياكم وخشوع النفاق، فقيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترىٰ الجسد خاشعًا، والقلب ليس بخاشع»[(٣)].

---

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٣/ ٢١٠) وضعفه المناوي في الفتح السماوي (٢/ ٨٥٤ رقم ٧٣٢).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٣٠) من قول أبي حفص الحداد رحمه الله. وانظر: صفة الصفوة (٤/ ١٢٠) وشرح سنن ابن ماجه (١/ ٧٠، ٢٧٢).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٢٤٣ رقم ٣٥٧١١) والبيهقي في الشعب (٥/ ٣٦٤ رقم ٦٩٦٦) وأحمد في الزهد (ص ١٤٢) وانظر: صفة الصفوة (١/ ٦٣٦) وجامع العلوم والحكم (١/ ٤٣٣).

ورأى عمر بن الخطاب ﷺ رجلًا طأطأ رقبته في الصلاة، فقال: «يا صاحب الرقبة، ارفع رقبتك، ليس الخشوع في الرقاب، إنما الخشوع في القلوب»[١]. ورأت عائشة ـ رضي الله عنها ـ شبابًا يمشون ويتماوتون في مشيتهم، فقالت لأصحابها: من هؤلاء؟ فقالوا: نُسَّاك، فقالت: «كان عمر بن الخطاب: إذا مشي أسرع، وإذا قال أسمع، وإذا ضرب أوجع، وإذا أطعم أشبع، وكان هو الناسك حقًّا»[٢]، وقال الفضيل بن عياض: كان يكره أن يري الرجل من الخشوع أكثر مما في قلبه، وقال حذيفة ﷺ: «أول ما تفقدون من دينكم الخشوع، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة»[٣]، «ورب مصل لا خير فيه»[٤]، ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيهم خاشعًا[٥]، وقال سهل: من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان».

...[٦]وكذلك إذا قام إلى الصلاة فإنه يستقبل ربه وهو فوقه فيدعوه من تلقائه، لا عن يمينه ولا عن يساره، ويدعوه من العلو لا من السفل، وقد ثبت في الصحيحين عن

(١) انظر: الكبائر (ص ١٤٤).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات بلفظ قريب عن الشفاء بنت عبد الله (٣/ ٢٩٠) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٤٤/ ٢٨٨)، بينما ذكره عن عائشة ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث (٣/ ٣٧٠).

(٣) أخرجه الحاكم (٤/ ٥١٦ رقم ٨٤٤٨) وابن أبي شيبة (٧/ ١٤٠ رقم ٣٤٨٠٨) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٨١).

(٤) يروى مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أول ما يرفع عن الناس الأمانة، وآخر ما يبقى الصلاة، ورب مصلٍّ لا خير فيه» أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ١٧٤) والبيهقي في الشعب (٤/ ٣٢٥ رقم ٥٢٧٤) والطبراني في الصغير (رقم ٣٨٧) والديلمي في الفردوس (١/ ١٥ رقم ١٠) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٣٢١) رواه الطبراني في الصغير، وفيه حكيم بن نافع وثقه ابن معين وضعفه أبو زرعة وبقية رجاله ثقات.

(٥) أخرجه الحاكم من قول عبادة بن الصامت ﷺ (١/ ١٧٩ رقم ٣٣٨) والترمذي (رقم ٢٦٥٣) والدارمي (رقم ٢٨٨) والطبراني في مسند الشاميين (٣/ ١٧٦ رقم ٢٠٢٢) وقال الحاكم: هذا إسناد صحيح، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٦) ٢٧٥ مختصر الصواعق جـ٢.

النبي ﷺ أنه قال: «**لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم إلى السماء في الصلاة، أو لا ترجع إليهم أبصارهم**»[١]. واتفق العلماء على أن رفع البصر إلى السماء للمصلي منهي عنه.

وروى أحمد عن محمد بن سيرين أن النبي ﷺ كان يرفع بصره في الصلاة إلى السماء حتى أنزل الله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ﴾[٢] فكان بصره لا يجاوز موضع سجوده، فهذا مما جاءت به الشريعة تكميلًا للفطرة، لأن الداعي السائل الذي أمر بالخشوع وهو الذل والسكون لا يناسب حاله أن ينظر إلى ناحية من يدعوه ويسأله، بل يناسبه الإطراق وخفض بصره أمامه، فليس في هذا النهي ما ينفي كونه فوق سماواته على عرشه، كما زعم بعض جهال الجهمية، فإنه لا فرق عندهم بين تحت التحت والعرش بالنسبة إليه، ولو كان كذلك لم ينه عن رفع بصره إلى جهة، ويؤمر برده إلى غيرها، لأن الجهتين عند الجهمية سواء بالنسبة إليه، وأيضًا فلو كان الأمر كذلك لكان النهي ثابتًا في الصلاة وغيرها.

وقد قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٤٤] فليس العبد منهيًا عن رفع بصره إلى السماء مطلقًا، وإنما نهى عنه في الوقت الذي أمر فيه بالخشوع، لأن خفض البصر من تمام الخشوع، كما قال تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ﴾ [القمر: ٧] وأيضًا فلو كان النهي عن رفع البصر إلى السماء لكون الرب ليس في السماء لكان لا فرق بين رفعه إلى ورده إلى جميع الجهات، ولو كان مقصوده أن ينهي الناس أن يعتقدوا أن الله في السماء أو يقصدوا بقلوبهم التوجه إلى العلو لبين لهم ذلك بيانًا شافيًا ولم يحملهم فيه على أدب من آداب المصلي، وهو إطراقه بين يدي ربه وخشوعه، ورمي بصره إلى الأرض، كما يفعل بين يدي الملوك، فهذا إنما يدل على نقيض قولهم...

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٥٠) ومسلم (رقم ٤٢٨) واللفظ له، وانظر: فتح الباري (١٠/ ٥٩٦) وشرح النووي (٤/ ١٥٢).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ٢٥٤ رقم ٣٢٦٢) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٨٣) وعزاه إلى سعيد ابن منصور وابن جرير والبيهقي عن محمد بن سيرين رحمه الله- وانظر: فيض القدير (٥/ ١٩٩، ٣٩٨).

[(١)]إنك إذا تأملت الأحاديث الصحيحة وجدتها مفسرة للآية مشتقة منها، كقوله ﷺ: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإنما يستقبل ربه»[(٢)]، وقوله: «فالله يقبل عليه بوجهه، ما لم يصرف وجهه عنه»[(٣)] وقوله: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصقن قبل وجهه»[(٤)]، وقوله: «فإن الله بينه وبين القبلة»[(٥)]، وقوله: «إن الله يأمركم بالصلاة، فإذا صليتم فلا تلتفتوا، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت»[(٦)] رواه ابن حبان في صحيحه والترمذي.

وقال: «إن العبد إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم قام إلى الصلاة، أقبل الله عليه بوجهه فلا ينصرف عنه حتى ينصرف أو يحدث حدث سوء»[(٧)] وقال: جابر ﷺ عن النبي ﷺ: «إذا قام العبد يصلي أقبل الله عليه بوجهه فإذا التفت أعرض الله عنه، وقال: يا ابن آدم أنا خير ممن تلتفت إليه، فإذا أقبل على صلاته أقبل الله عليه، فإذا التفت أعرض الله عنه»[(٨)]، وقال ابن عمر عن النبي ﷺ: «إذا صلى أحدكم فلا يتنخمن تجاه وجه

---

(١) ١٨٨ مختصر الصواعق جـ٢.

(٢) أخرجه ابن خزيمة (رقم ٢/ ٤٦ رقم ٨٨٠) وأبو داود (رقم ٤٨٠) وأحمد (٣/ ٢٤) وأبو يعلى (٢/ ٢٧٨ رقم ٩٩٣) والحاكم (١/ ٣٨٧ رقم ٩٤٣) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ١٧٥ رقم ١٢١) وابن شبة في أخبار المدينة (١/ ١٦ رقم ٤٤) والحديث صححه الحاكم، وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود (رقم ٤٨٠): حسن صحيح. وحسنه في صحيح الجامع (رقم ٢٦٦١).

(٣) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى (٢/ ٢٨٢ رقم ٣٣٤٨) والعراقي في آماليه (رقم ٩٠).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ٣٠٠٨) وانظر: فتح الباري (١/ ٥٠٨) وشرح النووي (٥/ ٣٨).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٤٠٥) وانظر: فتح الباري (١/ ٥٠٨).

(٦) أخرجه الترمذي (رقم ٢٨٦٣) وابن خزيمة (١/ ٢٤٤ رقم ٤٨٣) والحاكم (١/ ٣٦٢ رقم ٨٦٣) والطبراني في الكبير (٣/ ٢٨٦ رقم ٣٤٢٧) وأحمد (٤/ ١٣٠) والعراقي في آماليه (رقم ٩٠) وقال: هذا حديث صحيح. وكذا صححه الترمذي والحاكم.

(٧) أخرجه ابن ماجه (رقم ١٠٢٣) وابن أبي شيبة (٢/ ١٤٢ رقم ٧٤٥٤) والبزار (٧/ ٢٩٥ رقم ٢٨٨٩).

(٨) ذكره المنذري في الترغيب (١/ ٢٠٩ رقم ٧٨٩) وعزاه إلى البزار. وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ٨٠): رواه البزار وفيه الفضل بن عيسى الرقاشي وقد أجمعوا على ضعفه. وانظر: عمدة القاري (٥/ ٣١١).

الرحمن»[١] وقال أبو هريرة عن النبي ﷺ: «إن العبد إذا قام إلى الصلاة فإنه بين عيني الرحمن، فإذا التفت قال له: ابن آدم! إلى من تلتفت؟ إلى خير لك مني تلتفت»[٢].

[٣]فإذا قيل: ما تقولون في صلاة من عدم الخشوع: هل يعتد بها أم لا؟

قيل: أما الاعتداد بها في الثواب: فلا يعتد له فيها، إلا بما عقل فيه منها، وخشع فيه لربه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها». وفي المسند مرفوعًا: «إن العبد ليصلي الصلاة ولم يكتب له إلا نصفها أو ثلثها أو ربعها حتى بلغ عشرها»[٤].

وقد علق الله فلاح المصلين بالخشوع في صلاتهم، فدل على أن من لم يخشع فليس من أهل الفلاح، ولو اعتد له بها ثوابًا لكان من المفلحين.

وأما الاعتداد بها في أحكام الدنيا وسقوط القضاء: فإن غلب عليها الخشوع وتعقلها اعتد بها إجماعًا، وكانت السنن والأذكار عقيبها جوابر ومكملات لنقصها. وإن غلب عليه عدم الخشوع فيها وعدم تعقلها فقد اختلف الفقهاء في وجوب إعادتها. فأوجبها أبو عبد الله بن حامد من أصحاب أحمد وأبو حامد الغزالي في إحيائه، لا في وسيطه و بسيطه.

واحتجوا بأنها صلاة لا يثاب عليها، ولم يضمن له فيها الفلاح، فلم تبرأ ذمته منها، ويسقط القضاء عنه كصلاة المرائي.

قالوا: ولأن الخشوع والعقل: روح الصلاة ومقصودها ولبها، فكيف يعتد بصلاة

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٥٣) ومسلم (رقم ٥٤٧).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في التهجد وقيام الليل (رقم ٥٠٨) والعقيلي في الضعفاء (١/ ٧٠) وانظر: مشكل الحديث وبيانه لابن فورك (ص ٢٥٨-٢٥٩).

(٣) ٢٥٢ مدارج جـ١.

(٤) أخرجه أبو يعلى (٣/ ١٩٧ رقم ١٦٢٨) والنسائي في الكبرى (١/ ٢١٢ رقم ٦١٤) والبيهقي في الكبرى (٢/ ٢٨١ رقم ٣٣٤٢) وانظر: عون المعبود (٣/ ٣).

فقدت روحها ولبها، وبقيت صورتها وظاهرها؟.

قالوا: ولو ترك العبد واجبا من واجباتها عمدًا لأبطلها تركه. وغايته أن يكون بعضا من أبعاضها بمنزلة فوات عضو من أعضاء العبد المعتق في الكفارة، فكيف إذا عدمت روحها ولبها ومقصودها؟ وصارت بمنزلة العبد الميت إذا لم يعتد بالعبد المقطوع اليد، يعتقه تقربا إلى الله تعالى في كفارة واجبة، فكيف يعتد بالعبد الميت. وقال بعض السلف: الصلاة كجارية تهدى إلى ملك من الملوك، فما الظن بمن يهدى إليه جارية شلاء أو عوراء أو عمياء أو مقطوعة اليد والرجل أو مريضة أو دميمة أو قبيحة، حتى يهدى إليه جارية ميتة بلا روح وجارية قبيحة، فكيف بالصلاة التي يهديها العبد ويتقرب بها إلى ربه تعالى؟ والله طيب لا يقبل إلا طيبا، وليس من العمل الطيب: صلاة لا روح فيها، كما أنه ليس من العتق الطيب عتق عبد لا روح فيه.

قالوا: وتعطيل القلب عن عبودية الحضور والخشوع: تعطيل لملك الأعضاء عن عبوديته وعزل له عنها، فماذا تغني طاعة الرعية وعبوديتها، وقد عزل ملكها وتعطل؟.

قالوا: والأعضاء تابعة للقلب، تصلح بصلاحه وتفسد بفساده، فإذا لم يكن قائما بعبوديته فالأعضاء أولى أن لا يعتد بعبوديتها، وإذا فسدت عبوديته بالغفلة والوسواس، فأنى تصح عبودية رعيته وجنده ومادتهم منه، وعن أمره يصدرون وبه يأتمرون؟

قالوا: وفي الترمذي وغيره، مرفوعًا إلى النبي ﷺ: «**إن الله لا يستجيب الدعاء من قلب غافل**»[1] وهذا إما خاص بدعاء العبادة، وإما عام له ولدعاء المسألة، وإما خاص بدعاء المسألة الذي هو أبعد. فهو تنبيه على أنه لا يقبل دعاء العبادة الذي هو خاص حقه من قلب غافل.

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٤٧٩) والحاكم (١/ ٦٧٠ رقم ١٨١٧) والطبراني في الأوسط (٥/ ٢١١ رقم ٥١٠٩) وفي الدعاء (رقم ٦٢) قال الحاكم: هذا حديث مستقيم الإسناد، تفرد به صالح المري وهو أحد زهاد أهل البصرة ولم يخرجاه، وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٣٩٢) وعمدة القاري (٢٢/ ٢٩٨).

قالوا: ولأن عبودية من غلبت عليه الغفلة والسهو في الغالب لا تكون مصاحبة للإخلاص. فإن الإخلاص قصد المعبود وحده بالتعبد. والغافل لا قصد له، فلا عبودية له.

قالوا: وقد قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤، ٥] وليس السهو عنها تركها، وإلا لم يكونوا مصلين، وإنما هو السهو عن واجبها: إما عن الوقت كما قال ابن مسعود وغيره، وإما عن الحضور والخشوع. والصواب: أنه يعم النوعين فإنه سبحانه أثبت لهم صلاة، ووصفهم بالسهو عنها، فهو السهو عن وقتها الواجب أو عن إخلاصها وحضورها الواجب، ولذلك وصفهم بالرياء، ولو كان السهو سهو ترك لما كان هناك رياء.

قالوا: ولو قدرنا أنه السهو عن واجب فقط فهو تنبيه على التوعد بالويل على سهو الإخلاص والحضور بطريق الأولى لوجوه:

أحدها: أن الوقت يسقط في حال العذر وينتقل إلى بدله والإخلاص والحضور لا يسقط بحال ولا بدل له.

الثاني: أن واجب الوقت يسقط لتكميل مصلحة الحضور فيجوز الجمع بين الصلاتين للشغل المانع من فعل إحداهما في وقتها بلا قلب ولا حضور: كالمسافر والمريض وذي الشغل الذي يحتاج معه إلى الجمع، كما نص عليه أحمد وغيره.

فبالجملة: مصلحة الإخلاص والحضور وجمعية القلب على الله في الصلاة: أرجح في نظر الشارع من مصلحة سائر واجباتها، فكيف يظن به أنه يبطلها بترك تكبيرة واحدة أو اعتدال في ركن أو ترك حرف أو شدة من القرآن أو ترك تسبيحة أو قول: «سمع الله لمن حمده» أو قول: «ربنا ولك الحمد» أو ذكر رسول الله ﷺ بالصلاة عليه ثم يصححها مع فوات لبها ومقصودها الأعظم وروحها وسرها. فهذا ما احتجت به هذه الطائفة وهي حجج - كما تراها - قوة وظهورًا. قال أصحاب القول الآخر: قد ثبت عن النبي ﷺ في الصحيح أنه قال: «إذا أذن المؤذن أدبر الشيطان وله ضراط حتى

لا يسمع التأذين، فإذا قُضيَ التأذين أقبل، فإذا ثُوِّب بالصلاة أدبر، فإذا قُضيَ التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء وبين نفسه، فيذكره ما لم يكن يذكر، يقول: اذكر كذا. اذكر كذا. لما لم يكن يذكر، حتى يظل الرجل لا يدري كم صلى فإذا وجد ذلك أحدكم فليسجد سجدتين وهو جالس»(١).

قالوا: فأمره النبي ﷺ في هذه الصلاة التي قد أغفله الشيطان فيها، حتى لم يدر كم صلى: بأن يسجد سجدتي السهو، ولم يأمره بإعادتها، ولو كانت باطلة كما زعمتم لأمره بإعادتها.

قالوا: وهذا هو السر في سجدتي السهو ترغيمًا للشيطان في وسوسته للعبد، وكونه حال بينه وبين الحضور في الصلاة، ولهذا سماها النبي ﷺ المرغمتين(٢). وأمر من سها بهما ولم يفصِّل في سهوه الذي صدر عنه موجب السجود بين القليل والكثير، والغالب والمغلوب، وقال: «لكل سهو سجدتان»(٣). ولم يستثن من ذلك السهو الغالب مع أنه الغالب.

قالوا: ولأن شرائع الإسلام على الأفعال الظاهرة، وأما حقائق الإيمان الباطنة: فتلك عليها شرائع الثواب والعقاب، فلله تعالى حكمان: حكم في الدنيا على الشرائع الظاهرة وأعمال الجوارح، وحكم في الآخرة على الظواهر والبواطن، ولهذا كان النبي ﷺ يقبل علانية المنافقين، ويكل أسرارهم إلى الله تعالى، فيناكحون ويرثون ويورثون، ويعتد بصلاتهم في أحكام الدنيا، فلا يكون حكمهم حكم تارك الصلاة، إذ قد أتوا

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٠٨) ومسلم (رقم ٣٨٩) وانظر: فتح الباري (١/ ٥٨٩) وشرح النووي (٤/ ٩١-٩٢).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ١٠٢٥) وابن حبان (٦/ ٣٨٠ رقم ٢٦٥٥) وابن خزيمة (٢/ ١٣٤ رقم ١٠٦٣) وانظر: عون المعبود (٣/ ٢٣٣).

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ١٠٣٨) والبيهقي في الكبرى (٢/ ٣٣٧ رقم ٣٦٣٨) وأحمد (٥/ ٢٨٠) وابن أبي شيبة (١/ ٣٩٠ رقم ٤٤٨٣) وعبدالرزاق (٢/ ٣٢٢ رقم ٣٥٣٣) والطبراني في الكبير (٢/ ٩٢ رقم ١٤١٢) وانظر: شرح النووي (٥/ ٥٧) وعمدة القاري (٤/ ١٤٠) وعون المعبود (٣/ ٢٥٠-٢٥١).

بصورتها الظاهرة، وأحكام الثواب والعقاب ليست إلى البشر، بل إلى الله، والله يتولاه في الدار الآخرة.

قالوا: فنحن في حكم شرائع الإسلام نحكم بصحة صلاة المنافق والمرائي مع أنه لا يسقط عنه العقاب، ولا يحصل له الثواب في الآخرة، فصلاة المسلم الغافل المبتلى بالوسواس وغفلة القلب عن كمال حضوره أولى بالصحة.

نعم: لا يحصل مقصود هذه الصلاة من ثواب الله عاجلًا ولا آجلًا، فإن للصلاة مزيد ثواب عاجل في القلب من قوة إيمانه واستنارته وانشراحه وانفساحه ووجود حلاوة العبادة والفرح والسرور واللذة، التي تحصل لمن اجتمع همه وقلبه على الله، وحضر قلبه بين يديه، كما يحصل لمن قربه السلطان منه، وخصه بمناجاته والإقبال عليه، والله أعلى وأجل.

وكذلك ما يحصل هذا من الدرجات العلى في الآخرة ومرافقة المقربين.

كل هذا يفوته بفوات الحضور والخضوع، وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحدًا وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض وليس كلامنا في هذا كله.

فإن أردتم وجوب الإعادة: لتحصل هذه الثمرات والفوائد: فذاك إليه إن شاء أن يحصلها، وإن شاء أن يفوتها على نفسه، وإن أردتم بوجوبها أنا نلزمه بها ونعاقبه على تركها، ونرتب عليه أحكام تارك الصلاة فلا.

وهذا القول الثاني أرجح القولين، والله أعلم.

***

﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

[1] الفردوس اسم يقال على جميع الجنة، ويقال على أفضلها وأعلاها، كأنه أحق بهذا الاسم من غيره من الجنات، وأصل الفردوس البستان، والفراديس: البساتين، قال

---

(١) ٧٥ حادي الأرواح.

كعب: هو البستان الذي فيه الأعناب، وقال الليث: الفردوس: جنة ذات كروم، يقال: كرم مفردس أي معرش.

وقال الضحاك: هي الجنة الملتفة بالأشجار وهو اختيار المبرد، وقال: الفردوس فيما سمعت من كلام العرب: الشجر الملتف، والأغلب عليه العنب، وجمعه الفراديس، قال: ولهذا سمى باب الفراديس بالشام[١] وأنشد لجرير:

فقلت للركب إذ جد المسير بنا ما بعد يبرين من باب الفراديس[٢]

وقال مجاهد: هذا البستان بالرومية واختاره الزجاج، فقال: هو بالرومية منقول إلى لفظ العربية، قال: وحقيقته أنه البستان الذي يجمع كل ما يكون في البساتين قال حسان:

وإن ثواب الله كل موحد جنان من الفردوس فيها يخلد[٣]

***

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ

---

(١) انظر: القاموس المحيط (ص ١٣٨٨) ولسان العرب (٦/ ١٦٣-١٦٤) ومختار الصحاح (ص ٢٠٨).

(٢) هذا البيت من بحر البسيط، قائله: جرير بن عطية الخطفي اليربوعي التميمي أشعر أهل عصره ولد ومات في اليمامة، وعاش عمره يناضل شعراء زمنه، ويساجلهم، فلم يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل، وكان عفيفًا من أغزل الناس شعرًا، مات سنة ١١٠هـ.
ذكر البيت ابن الجوزي في المنتظم (٧/ ١٤٧) والحموي في معجم البلدان (٢/ ٥٢٥) (٥/ ٤٢٧) وعبدالله البكري الأندلسي في معجم ما استعجم (٢/ ٥٧٢).

(٣) هذا البيت من بحر الطويل، وقائله حسان بن ثابت الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ وأحد المخضرمين أدرك الجاهلية والإسلام، قال المبرد في الكامل: أعرق قوم في الشعراء آل حسان، فإنهم يعدون ستة في نسق، كلهم شاعر، وهم: سعيد بن عبدالرحمن بن حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام، توفي بالمدينة سنة ٥٤هـ ﷺ.

إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾.

[(١)]استوعب سبحانه ذكر أحوال ابن آدم قبل كونه نطفة بل ترابًا وماء إلىٰ حين بعثه يوم القيامة، فأول مراتب خلقه أنه سلالة من طين، ثم بعد ذلك سلالة من ماء مهين، وهي النطفة التي استلت من جميع البدن، فتمكث كذلك أربعين يومًا، ثم يقلب الله سبحانه تلك ا لنطفة علقة: وهي قطعة سوداء من دم، فتمكث كذلك أربعين يومًا أخرىٰ، ثم يصيرها سبحانه مضغة: وهي قطعة لحم أربعين يومًا، وفي هذا الطور تقدر أعضاؤه وصورته وشكله وهيأته[(٢)].

[(٣)]هذا كثير في القرآن يدعو العبد إلىٰ النظر والتفكر في مبدأ خلقه ووسطه وآخره، إذ نفسه وخلقه من أعظم الدلائل علىٰ خالقه وفاطره، وأقرب شيء إلىٰ الإنسان نفسه، وفيه من العجائب الدالة علىٰ عظمة الله ما تنقضي الأعمار في الوقوف علىٰ بعضه، وهو غافل عنه، معرض عن التفكر فيه، ولو فكر في نفسه لزجره ما يعلم من عجائب خلقها عن كفره. قال الله تعالىٰ: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ [عبس: ١٧-٢٢].

فلم يكرر سبحانه علىٰ أسماعنا وعقولنا ذكر هذا لنسمع لفظ النطفة والعلقة والمضغة والتراب، ولا لنتكلم بها فقط، ولا لمجرد تعريفنا بذلك، بل لأمر وراء ذلك كله هو المقصود بالخطاب، وإليه جرىٰ ذلك الحديث.

فانظر الآن إلىٰ النطفة بعين البصيرة، وهي قطرة من ماء مهين ضعيف مستقذر، لو مرت بها ساعة من الزمان فسدت وانتنت، كيف استخرجها رب الأرباب العليم

---

(١) ١٤٥ تحفة المودود.

(٢) هنا بحث المؤلف بحثًا مطولًا حول تخليق الجنين وأطواره، فمن أراده فليرجع إليه (ج).

(٣) ١٨٨ مفتاح جـ١.

القدير من بين الصلب والترائب، منقادة لقدرته، مطيعة لمشيئته، مذللة الانقياد على ضيق طرقها، واختلاف مجاريها إلى أن ساقها إلى مستقرها ومجمعها.

وكيف جمع سبحانه بين الذكر والأنثى، وألقى المحبة بينهما، وكيف قادهما بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع، الذي هو سبب تخليق الولد وتكوينه، وكيف قدر اجتماع ذينك الماءين مع بعد كل منهما عن صاحبه، وساقهما من أعماق العروق والأعضاء، وجمعهما في موضع واحد جعل لهما قرارًا مكينا، لا يناله هواء يفسده، ولا برد يجمده ولا عارض يصل إليه، ولا آفة تتسلط عليه، ثم قلب تلك النطفة البيضاء المشربة علقة حمراء، تضرب إلى سواد، ثم جعلها مضغة لحم مخالفة للعلقة في لونها وحقيقتها وشكلها، ثم جعله عظاما مجردة، لا كسوة عليها مباينة للمضغة في شكلها وهيأتها وقدرها وملمسها ولونها، وانظر كيف قسم تلك الأجزاء المتشابهة المتساوية إلى الأعصاب والعظام والعروق والأوتار واليابس واللين وبين ذلك.

ثم كيف ربط بعضها ببعض أقوى رباط وأشده وأبعده عن الانحلال.

وكيف كساها لحما ركبه عليها، وجعله وعاء لها وغشاء وحافظا، وجعلها حاملة له مقيمة له، فاللحم قائم بها وهي محفوظة به، وكيف صورها، فأحسن صورها وشق لها السمع والبصر والفم والأنف وسائر المنافذ، ومد اليدين والرجلين وبسطهما، وقسم رؤسهما بالأصابع، ثم قسم الأصابع بالأنامل، وركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء، كل واحد منها له قدر يخصه ومنفعة تخصه.

ثم انظر الحكمة البالغة في تركيب العظام قواما للبدن وعمادا له، وكيف قدرها ربه وخالقها بتقادير مختلفة وأشكال مختلفة، فمنها الصغير والكبير، والطويل والقصير، والمنحنى والمستدير، والدقيق والعريض، والمصمت والمجوف، وكيف ركب بعضها في بعض، فمنها ما تركيبه تركيب الذكر في الأنثى، ومنها ما تركيبه تركيب اتصال فقط، وكيف اختلفت أشكالها باختلاف منافعها.

[(١)]ومن حجب الملك في الصدر، وأجلسه هناك على كرسي المملكة، وأقام جند الجوارح والأعضاء والقوى الباطنة والظاهرة في خدمته وذللها له، فهي مؤتمرة إذا أمرها، منتهية إذا نهاها، سامعة له مطيعة، تكدح وتسعى في مرضاته، فلا تستطيع منه خلاصًا ولا خروجا عن أمره.

فمنها رسوله، ومنها بريده، ومنها ترجمانه، ومنها أعوانه، وكل منها على عمل لا يتعداه، ولا يتصرف في غير عمله، حتى إذا أراد الراحة أوعز إليها بالهدوء والسكون، ليأخذ الملك راحته، فإذا استيقظ من منامه قامت جنوده بين يديه على أعمالها، وذهبت حيث وجهها دائبة لا تفتر، فلو شاهدته في محل ملكه والأشغال والمراسيم صادرة عنه وواردة، والعساكر في خدمته، والبُرُدُ تتردد بينه وبين جنده ورعيته، لرأيت له شأنًا عجيبًا، فماذا فات الجاهل الغافل من العجائب والمعارف والعبر، التي لا يحتاج فيها إلى طول الأسفار وركوب القفار.

قال تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١] فدعا عباده إلى التفكر في أنفسهم، والاستدلال بها على فاطرها وباريها ولولا هذا لم نوسع الكلام في هذا الباب، ولا أطلنا النفس إلى هذه الغاية، ولكن العبرة بذلك حاصلة والمنفعة عظيمة والفكرة فيه مما يزيد المؤمن إيمانًا، فكم دون القلب من حرس، وكم له من خادم، وكم له من عبيد ولا يشعر به، ولله ما خلق له وهيأ له وأريد منه، وأعد له من الكرامة والنعيم أو الهوان والعذاب، فإما على سرير الملك في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ينظر إلى وجه ربه، ويسمع خطابه. وإما أسير في السجن الأعظم بين أطباق النيران في العذاب الأليم.

فلو عقل هذا السلطان ما هيأ له لضن بملكه، ولسعى في الملك الذي لا ينقطع ولا يبيد، ولكنه ضربت عليه حجب الغفلة، ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

***

(١) ٢٧٠ مفتاح جـ١.

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ ۝ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ ﴾.

(١)هذا أيضًا على أحد القولين، أي تغور العيون في الأرض فلا يقدر على الماء، قال ابن عباس: يريد أن سيغيض فيذهب، فلا يكون من هذا الباب، بل يكون من باب القدرة على ما سيفعله.

(٢)وأما الإنشاء فإنما وقع إطلاقه عليه سبحانه فعلًا كقوله: ﴿ وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾ [الرعد: ١٢] وقوله: ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّـٰتٍ ﴾ [المؤمنون: ١٩] وقوله: ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّـٰتٍ ﴾ [الواقعة: ٦١] وهو كثير ولم يرد لفظ المنشئ.

وأما العبد فيطلق عليه الإنشاء باعتبار آخر وهو شروعه في الفعل وابتداؤه له، يقول: أنشأ يحدثنا، وأنشأ السير، فهو منشئ لذلك، وهذا إنشاء مقيد وإنشاء الرب إنشاء مطلق، وهذه اللفظة تدور على معنى الابتداء، أنشأه الله أي ابتدأ خلقه، وأنشأ يفعل كذا ابتدأ، وفلان ينشئ الأحاديث، أي يبتدئ وضعها، والناشئ أول ما ينشأ من السحاب.

***

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾.

(٣)أخبر عن هؤلاء الأمم أنهم تطابقوا على تكذيب رسلهم، وأنه عمهم بالإهلاك، وقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

(١) ٩٩ التبيان.
(٢) ١٣٣ شفاء.
(٣) هداية الحيارى.

ومعلوم قطعًا أن الله تعالىٰ لم يهلك هذه الأمم الكثيرة إلا بعد ما تبين لهم الهدىٰ فاختاروا عليه الكفر، ولو لم يتبين لهم الهدىٰ لم يهلكهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ [القصص: ٥٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس: ٩٨] أي فلم يكن قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس...

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

(١) الله سبحانه ذم الذين تقطعوا أمرهم بينهم زبرًا، كل حزب بما لديهم فرحون، والزبر: الكتب المصنفة التي رغبوا بها عن كتاب الله وما بعث الله به رسوله(٢)، فقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥١-٥٣].

فأمر تعالىٰ الرسل بما أمر به أممهم: أن يأكلوا من الطيبات، وأن يعملوا صالحًا، وأن يعبدوه وحده، وأن يطيعوا أمره وحده، وأن لا يتفرقوا في الدين؛ فمضت الرسل وأتباعهم علىٰ ذلك، ممتثلين لأمر الله، قابلين لرحمته، حتىٰ نشأت خلوفٌ قطعوا

---

(١) ٢١٠ أعلام جـ٢.

(٢) تقدم في سورة النساء بحث في هذا الموضوع يحسن الرجوع إليه (ج).

أمرهم بينهم زبرًا، كل حزب بما لديهم فرحون، فمن تدبر هذه الآيات، ونزلها على الواقع تبين له حقيقة الحال، وعلم من أي الحزبين هو، والله المستعان.

***

﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

(١)كل لذة أعقبت ألمًا أو منعت لذة أكمل منها فليست بلذة في الحقيقة، وإن غالطت النفس في الالتذاذ بها، (فأي لذة) لآكل طعامٍ شهي مسمومٍ يُقطِّع أمعاءه عن قريب؟ وهذه هي لذات الكفار والفساق بعلوهم في الأرض وفسادهم وفرحهم فيها بغير الحق ومرحهم، وذلك مثل لذة الذين اتخذوا من دون الله أولياء يحبونهم كحب الله، فنالوا بهم مودة بينهم في الحياة الدنيا، ثم استحالت تلك اللذة أعظم ألم وأمره، ومن ذلك لذة العقائد الفاسدة والفرح بها، ولذة غلبة أهل الجور والظلم والعدوان والزنا والسرقة وشرب المسكرات، وقد أخبر الله ﷻ أنه لم يمكنهم من ذلك لخير يريده بهم، إنما هو استدراجٌ منه لينيلهم به أعظم الألم، قال الله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦] وقال تعالى: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ٥٥].

***

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

---

(١) ١٧٥ روضة المحبين.

[(١)]من منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة «الخوف» وهي من أجل منازل الطريق، وأنفعها للقلب. وهي فرض على كل أحد. قال الله تعالى: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقال تعالى: ﴿ وَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [البقرة: ٤٠] وقال: ﴿ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ [المائدة: ٤٤].

ومدح أهله في كتابه وأثنى عليهم، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١] وفي المسند والترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله قول الله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون: ٦٠] أهو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق قال: «**لا يا ابنة الصديق، ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه**»[(٢)].

قال الحسن: عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها، وخافوا أن ترد عليهم، إن المؤمن جمع إحسانًا وخشية، والمنافق جمع إساءة وأمنًا[(٣)]. و«الوجل» و«الخوف» و«الخشية» و«الرهبة» ألفاظ متقاربة غير مترادفة. قال أبو القاسم الجنيد: الخوف توقع العقوبة على مجاري الأنفاس. وقيل: الخوف اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف. وقيل: الخوف قوة العلم بمجاري الأحكام وهذا سبب الخوف لا أنه نفسه. وقيل: الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره.

والخشية أخص من الخوف، فإن الخشية للعلماء بالله، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨] فهي خوف مقرون بمعرفة، وقال النبي ﷺ:

---

(١) ٥١١ مدارج جـ١.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣١٧٥) وأحمد (٦/ ٢٠٥) وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (رقم ٩٨٥) والطبراني في الأوسط (١/ ١٨٣ رقم ٥٧٩) وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٧٦): رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن. وانظر: فتح الباري (٧/ ٦٦) وتفسير الطبري (١٨/ ٣٢) وتفسير السيوطي (٦/ ١٠٥) وتفسير ابن كثير (٣/ ٢٤٩).

«إني أتقاكم لله، وأشدكم له خشية»[١].

فالخوف حركة، والخشية انجماع، وانقباض وسكون، فإن الذي يرى العدو والسيل ونحو ذلك: له حالتان. إحداهما: حركة للهرب منه وهي حالة الخوف. والثانية: سكونه وقراره في مكان لا يصل إليه فيه وهي الخشية، ومنه: انخشى الشيء. والمضاعف والمعتل أخوان: كتقضى البازي وتقضض.

وأما «الرهبة» فهي الإمعان في الهرب من المكروه، وهي ضد الرغبة التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه.

[٢]ومما ينبغي أن يعلم أن من رجا شيئًا استلزم رجاؤه ثلاثة أمور: أحدها: محبة ما يرجوه. الثاني: خوفه من فواته. الثالث: سعيه في تحصيله بحسب الإمكان.

وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك، فهو من باب الأماني. والرجاء شيء والأماني شيء آخر. فكل راج خائف، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات. وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»[٣] وهو سبحانه كما جعل الرجاء لأهل الأعمال الصالحة فكذلك جعل الخوف لأهل الأعمال الصالحة، فعلم أن الرجاء والخوف النافع هو ما اقترن به العمل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (رقم ٢٠) ومسلم (رقم ٢٣٠٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣١٣) وشرح النووي (٧/ ٢١٩).

(٢) ٤٧ الجواب الكافي.

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٢٤٥٠) والحاكم (٤/ ٣٤٣ رقم ٧٨٥١) وعبد بن حميد (رقم ١٤٦٠) والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٥١٢ رقم ٨٨١) والرامهرمزي في أمثال الحديث (رقم ٨٣) والحديث حسنه الترمذي وصححه الحاكم.

رَاجِعُونَ ۝ أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١] وقد روىٰ الترمذي في جامعه عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقلت: أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرفون؟ فقال: «**لا يا ابنة الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، ويخافون أن لا يتقبل منهم، أولئك يسارعون في الخيرات**» وقد روي من حديث أبي هريرة أيضًا. والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن.

ومن تأمل أحوال الصحابة ﷺ وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جمعنا بين التقصير بل التفريط والأمن، فهذا الصديق يقول: «وددت أني شعرة في جنب عبد مؤمن»[1] ذكره أحمد عنه.

***

﴿ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝ أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝ أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾.

[2]دعا سبحانه إلىٰ تدبر القول وتأمل حال القائل، فإن كون القول كذبًا وزورًا يعرف من نفس القول تارة. وتارة من تناقضه واضطرابه وظهور شواهد الكذب عليه، ويعرف من حال القائل تارة، فإن المعروف بالكذب والفجور والمنكر والخداع والمكر لا تكون أقواله إلا مناسبة لأفعاله، ولا يأتي منه من القول والفعل ما يتأتىٰ من البار الصادق من كل فاحشة وغدر وفجور وكذب، بل قلب هذا وقصده وعمله وقوله يشبه بعضه بعضًا، وقلب ذلك وقوله وعمله وقصده يشبه بعضه بعضًا، فدعاهم سبحانه إلىٰ تدبر القول، وتأمل سيرة القائل وأحواله، وحينئذ يتحقق لهم، ويتبين حقيقة الأمر، وأن ما جاء به أعلىٰ مراتب الصدق.

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (ص ١٠٨) وانظر: صفة الصفوة (١/ ٢٥١) والرياض النضرة (٢/ ١٣٧).

(٢) ٩٨ مختصر الصواعق جـ١.

[(١)] وأما الأدب مع الرسول ﷺ: فالقرآن مملوء به.

فرأس الأدب معه: كمال التسليم له، والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق، دون أن يحمله معارضة خيال باطل، يسميه معقولًا، أو يحمله شبهة أو شكًّا، أو يقدم عليه آراء الرجال، وزبالات أذهانهم، فيوحده بالتحكيم والتسليم، والانقياد والإذعان، كما وحد المرسل ﷻ بالعبادة والخضوع والذل، والإنابة والتوكل.

فهما توحيدان، لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما: توحيد المرسل، وتوحيد متابعة الرسول، فلا يحاكم إلىٰ غيره، ولا يرضىٰ بحكم غيره، ولا يقف تنفيذ أمره، وتصديق خبره علىٰ عرضه علىٰ قول شيخه وإمامه، وذوي مذهبه وطائفته، ومن يعظمه، فإن أذنوا له نفذه وقبل خبره، وإلا فإن طلب السلامة: أعرض عن أمره وخبره وفوضه إليهم، وإلا حرفه عن مواضعه، وسمَّىٰ تحريفه تأويلًا، وحملًا، فقال: نؤوله ونحمله.

فلأن يلقىٰ العبدُ ربه بكل ذنب علىٰ الإطلاق - ما خلا الشرك بالله - خير له من أن يلقاه بهذه الحال، ولقد خاطبت يومًا بعض أكابر هؤلاء، فقلت له: سألتك بالله، لو قُدر أن الرسول ﷺ حي بين أظهرنا، وقد واجهنا بكلامه وبخطابه: أكان فرضًا علينا أن نتبعه من غير أن نعرضه علىٰ رأي غيره وكلامه ومذهبه، أم لا نتبعه حتىٰ نعرض ما سمعناه منه علىٰ آراء الناس وعقولهم؟ فقال: بل كان الفرض المبادرة إلىٰ الامتثال من غير التفات إلىٰ سواه، فقلت: فما الذي نسخ هذا الفرض عنا؟ وبأي شيء نسخ؟ فوضع إصبعه علىٰ فيه، وبقي باهتًا متحيرًا، وما نطق بكلمة.

هذا أدب الخواص معه، لا مخالفة أمره والشرك به، ورفع الأصوات، وإزعاج الأعضاء بالصلاة عليه والتسليم، وعزل كلامه عن اليقين، وأن يستفاد منه معرفة الله،

---

(١) ٣٨٧ مدارج جـ٢.

أو يتلقى منه أحكامه، بل المعول في باب معرفة الله: على العقول المنهوكة المتحيرة المتناقضة، وفي الأحكام: على تقليد الرجال وآرائها، والقرآن والسنة إنما نقرؤهما تبركًا، لا أنا نتلقى منهما أصول الدين ولا فروعه، و من طلب ذلك ورامه عاديناه، وسعينا في قطع دابره، واستئصال شأفته ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ۚ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٣-٧٤].

والناصح لنفسه، العامل على نجاتها: يتدبر هذه الآيات حق تدبرها، ويتأملها حق تأملها، وينزلها على الواقع: فيرى العجب، ولا يظنها اختصت بقوم كانوا فبانوا: «فالحديث لك، واسمعي يا جارة»(١) والله المستعان.

***

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ۚ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

---

(١) ذكره الذهبي في السير (٣/ ٤٠٤) ولفظه عنده: «إياك أعني واسمعي يا جارة». وكذا ذكره المزي في تهذيب الكمال (٣/ ٣٧٤) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٩/ ٣٧٣) والعجلوني في كشف الخفاء (١/ ١٤١ رقم ٣٦٥) وابن قدامة في المغني (٧/ ٣٥٣).

[(١)]أخبر سبحانه أن الحق لو اتبع أهواء العباد فجاء شرع الله ودينه بأهوائهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن، ومعلوم أن عند النفاة يجوز أن يرد شرع الله ودينه بأهواء العباد، وأنه لا فرق في نفس الأمر بين ما ورد به وبين ما تقتضيه أهواؤهم إلا مجرد الأمر، وأنه لو ورد بأهوائهم جاز وكان تعبدًا ودينًا، وهذه مخالفة صريحة للقرآن، وأنه من المحال أن يتبع الحق أهواءهم، وأن أهواءهم مشتملة على قبح عظيم لو ورد الشرع به لفسد العالم أعلاه وأسفله وما بين ذلك.

ومعلوم أن هذا الفساد إنما يكون لقبح خلاف ما شرعه الله وأمر به ومنافاته لصلاح العالم علويه وسفليه، وأن خراب العالم وفساده لازم لحصوله ولشرعه، وأن كمال حكمة الله وكمال علمه ورحمته وربوبيته يأبى ذلك ويمنع منه، ومن يقول: الجميع في نفس الأمر سواء، يجوز ورود التعبد بكل شيء سواء كان من مقتضى أهوائهم أو خلافها، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ [الأنبياء: ٢٢] أي: لو كان في السماوات والأرض آلهة تعبد غير الله لفسدتا وبطلتا، ولم يقل: أرباب، بل قال: آلهة، والإله هو المعبود المألوه، وهذا يدل على أنه من الممتنع المستحيل عقلًا أن يشرع الله عبادة غيره أبدًا، وأنه لو كان معه معبود سواه لفسدت السموات والأرض، فقبح عبادة غيره قد استقر في الفطر والعقول، وإن لم يرد بالنهي عنه شرع، بل العقل يدل على أنه أقبح القبيح على الإطلاق، وأنه من المحال أن يشرعه الله قط فصلاح العالم في أن يكون الله وحده هو المعبود، وفساده وهلاكه في أن يعبد معه غيره ومحال أن يشرع لعباده ما فيه فساد العالم وهلاكه، بل هو المنزه عن ذلك.

***

---

(١) ١١ مفتاح جـ٢.

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ (٩٠) مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) ﴾.

...[(١)]وفي هذا المشهد يتحقق للعبد مقام ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ علمًا وحالًا، فيثبت قدم العبد في توحيد الربوبية، ثم يرقى منه صاعدًا إلى توحيد الإلهية، فإنه إذا تيقن أن الضر والنفع والعطاء والمنع والهدى والضلال والسعادة والشقاء: كل ذلك بيد الله لا بيد غيره، وأنه الذي يقلب القلوب، ويصرفها كيف يشاء. وأنه لا موفق إلا من وفقه وأعانه، ولا مخذول إلا من خذله وأهانه وتخلى عنه، وأن أصح القلوب وأسلمها وأقومها وأرقها وأصفاها وأشدها وألينها: من اتخذه وحده إلها ومعبودا، فكان أحب إليه من كل ما سواه، وأخوف عنده من كل ما سواه، وأرجى له من كل ما سواه، فتتقدم محبته في قلبه جميع المحاب، فتنساق المحاب تبعًا لها، كما ينساق الجيش تبعا للسلطان، ويتقدم خوفه في قلبه جميع المخوفات، فتنساق المخاوف كلها تبعا لخوفه، ويتقدم رجاؤه في قلبه جميع الرجاء، فينساق كل رجاء تبعًا لرجائه. فهذا علامة توحيد الإلهية في هذا القلب، والباب الذي دخل إليه منه توحيد الربوبية، أي باب توحيد الإلهية: هو توحيد الربوبية. فإن أول ما يتعلق القلب يتعلق بتوحيد الربوبية، ثم يرتقي إلى توحيد الإلهية، كما يدعو الله سبحانه عباده في كتابه بهذا النوع من التوحيد إلى النوع الآخر، ويحتج عليهم به، ويقررهم به، ثم يخبر أنهم ينقضونه بشركهم به في الإلهية.

---

(١) ٤١١ مدارج جـ١.

وفي هذا المشهد يتحقق له مقام ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، قال الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٧] أي فأين يصرفون عن شهادة أن لا إله إلا الله وعن عبادته وحده، وهم يشهدون: أنه لا رب غيره ولا خالق سواه، وكذلك قوله تعالى: ﴿ لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤، ٨٥] فتعلمون أنه إذا كان هو وحده مالك الأرض ومن فيها، وخالقهم وربهم ومليكهم فهو وحده إلههم ومعبودهم، فكما لا رب لهم غيره، فهكذا لا إله لهم سواه ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ ﴾ [المؤمنون: ٨٦، ٨٧].

[١]وقال تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١].

فتأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز البين، فإن الإله الحق لابد أن يكون خالقًا فاعلًا، يوصل إلى عابده النفع، ويدفع عنه الضر، فلو كان معه سبحانه إله لكان له خلق وفعل، وحينئذ فلا يرضى شركة الإله الآخر معه، بل إن قدر على قهره وتفرده بالإلهية دونه فعل، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب به، كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض، بمماليكهم إذا لم يقدر المنفرد على قهر الآخر والعلو عليه، فلابد من أحد أمور ثلاثة:

إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه، وإما أن يعلو بعضهم على بعض، وإما أن يكونوا كلهم تحت قهر إله واحد، يتصرف فيهم، ولا يتصرفون فيه، ويمتنع من حكمهم، ولا يمتنعون من حكمه، فيكون وحده هو الإله وهم العبيد المربوبون المقهورون.

---

(١) ٩٥ مختصر الصواعق جـ١.

(١) وقوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠] وقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان: ٣] وهو كثير في القرآن، وبه تتم الحجة كما تبين. والمقصود: أن العبد يحصل له هذا المشهد من مطالعة الجنايات والذنوب، وجريانها عليه وعلى الخليقة بتقدير العزيز الحكيم، وأنه لا عاصم من غضبه وأسباب سخطه إلا هو، ولا سبيل إلى طاعته إلا بمعونته، ولا وصول إلى مرضاته إلا بتوفيقه، فموارد الأمور كلها منه، ومصادرها إليه، وأزمة التوفيق جميعها بيديه، فلا مستعان للعباد إلا به، ولا متكل إلا عليه، كما قال شعيب خطيب الأنبياء: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

***

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾.

(٢) الهمزات: جمع همزة كتمرات وتمرة، وأصل الهمز الدفع، قال أبو عبيد عن الكسائي: همزته، ولمزته، ولهزته، ونهزته ـ إذا دفعته. والتحقيق: أنه دفع بنخز، وغمز يشبه الطعن، فهو دفع خاص، فهمزات الشياطين: دفعهم الوساوس والإغواء إلى القلب، قال ابن عباس والحسن: «همزات الشياطين: نزغاتهم ووساوسهم»[٣] وفسرت همزاتهم بنفخهم ونفثهم، وهذا قول مجاهد.

وفسرت بخنقهم، وهو الموتة التي تشبه الجنون.

وظاهر الحديث أن الهمز نوع غير النفخ والنفث، وقد يقال ـ وهو الأظهر ـ إن همزات الشياطين إذا أفردت دخل فيها جميع إصاباتهم لابن آدم، وإذا قرنت بالنفخ

(١) ٤١٢ مدارج جـ١.
(٢) ٩٥ إغاثة جـ١.
(٣) انظر: فيض القدير (١/ ٢٨٨).

والنفث كانت نوعًا خاصًا، كنظائر ذلك.

ثم قال: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ قال ابن زيد: في أموري، وقال الكلبي: عند تلاوة القرآن، وقال عكرمة: عند النزع والسياق، فأمره أن يستعيذ من نوعي شر إصابتهم بالهمز وقربهم ودنوّهم منه.

فتضمنت الاستعاذة أن لا يمسوه ولا يقربوه، وذكر ذلك سبحانه عقيب قوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦] فأمره أن يحترز من شر شياطين الإنس بدفع إساءتهم إليه بالتي هي أحسن، وأن يدفع شر شياطين الجن بالاستعاذة منهم. ونظير هذا قوله في سورة الأعراف: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] فأمره بدفع شر الجاهلين بالإعراض عنهم، ثم أمره بدفع شر الشيطان بالاستعاذة منه، فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

***

﴿لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

[(١)] ينبغي أن يعلم أن عذاب القبر ونعيمه اسم لعذاب البرزخ ونعيمه، وهو ما بين الدنيا والآخرة، وقال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] وهذا البرزخ يشرف أهله فيه على الدنيا والآخرة، وسمى عذاب القبر ونعيمه، وأنه روضة أو حفرة نار، باعتبار غالب الخلق، فالمصلوب والحريق والغريق وأكيل السباع والطيور له من عذاب البرزخ ونعيمه قسطه الذي تقتضيه أعماله، وإن تنوعت أسباب النعيم والعذاب وكيفياتها، فقد ظن بعض الأوائل أنه إذا حرق جسده بالنار وصار

---

(١) ٩٠ الروح.

رمادًا، وذرىٰ بعضه في البحر وبعضه في البر في يوم شديد الريح: أنه ينجو من ذلك، فأوصىٰ بنيه أن يفعلوا به ذلك، فأمر الله البحر فجمع ما فيه، وأمر البر فجمع ما فيه، ثم قال: قم، فإذا هو قائم بين يدي الله، فسأله: ما حملك علىٰ ما فعلت؟ فقال: خشيتك يا رب، وأنت أعلم، فما تلافاه أن رحمه[1]. فلم يفت عذاب البرزخ ونعيمه لهذه الأجزاء، التي صارت في هذه الحال حتىٰ لو علق الميت علىٰ رءوس الأشجار في مهاب الرياح لأصاب جسده من عذاب البرزخ حظه ونصيبه، ولو دفن الرجل الصالح في أتون من النار لأصحاب جسده من نعيم البرزخ وروحه نصيبه وحظه، فيجعل الله النار علىٰ هذا بردًا وسلامًا، والهواء علىٰ ذلك نارًا وسمومًا، فعناصر العالم ومواده منقادة لربها وفاطرها وخالقها يصرفها كيف يشاء، ولا يستعصىٰ عليه منها شيء أراده، بل هي طوع مشيئته مذللة منقادة لقدرته، ومن أنكر هذا فقد جحد رب العالمين.

إن الموت معاد وبعث أول، فإن الله ﷻ جعل لابن آدم معادين وبعثين، يجزىٰ فيهما الذين أساءوا بما عملوا، ويجزىٰ الذين أحسنوا بالحسنىٰ. فالبعث الأول مفارقة الروح للبدن ومصيرها إلىٰ دار الجزاء الأول، والبعث الثاني يوم يرد الله الأرواح إلىٰ أجسادها ويبعثها من قبورها إلىٰ الجنة أو النار، وهو الحشر الثاني: ولهذا في الحديث الصحيح: «وتؤمن بالبعث الآخر»[2]. فإن البعث الأول لا ينكره أحد، وإن أنكر كثير من الناس الجزاء فيه والنعيم والعذاب.

وقد ذكر الله ﷻ هاتين القيامتين، وهما الصغرىٰ والكبرىٰ في سورة المؤمنين، وسورة الواقعة، وسورة القيامة، وسورة المطففين، وسورة الفجر، وغيرها من السور، وقد اقتضىٰ عدله وحكمته أن جعلها داري جزاء المحسن والمسيء، ولكن توفية الجزاء إنما يكون يوم المعاد الثاني في دار القرار، كما قال تعالىٰ: ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٧٥٦) وانظر: شرح النووي (١٧/ ٧١).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٧٧٧) ومسلم (رقم ٩) وانظر: شرح النووي (١/ ١٦٢).

ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقد اقتضىٰ عدله، وأوجبت سماؤه الحسنىٰ وكماله المقدس تنعيم أبدان أوليائه وأرواحهم، وتعذيب أبدان أعدائه وأرواحهم، فلابد أن يذيق بدن المطيع له وروحه من النعيم واللذة ما يليق به، ويذيق بدن الفاجر العاصي له وروحه من الألم والعقوبة ما يستحقه، هذا موجب عدله وحكمته وكماله المقدس، ولما كانت هذه الدار دار تكليف وامتحان لا دار جزاء لم يظهر فيها ذلك.

وأما البرزخ فأول دار الجزاء، فظهر فيها من ذلك ما يليق بتلك الدار وتقتضي الحكمة إظهاره، فإذا كان يوم القيامة الكبرىٰ وفي أهل الطاعة وأهل المعصية ما يستحقونه من نعيم الأبدان والأرواح وعذابهما.

فعذاب البرزخ ونعيمه أول عذاب الآخرة ونعيمها، وهو مشتق منه، وواصل إلىٰ أهل البرزخ هناك، كما دل عليه القرآن والسنة الصحيحة الصريحة في غير موضع دلالة صريحة كقوله ﷺ: «**فيفتح له باب إلىٰ الجنة، فيأتيه من روحها ونعيمها**» وفي الفاجر: «**فيفتح له باب إلىٰ النار، فيأتيه من حرها وسمومها**»[(١)].

ومعلوم قطعًا أن البدن يأخذ حظه من هذا الباب، كما تأخذ الروح حظها، فإذا كان يوم القيامة دخل من ذلك الباب إلىٰ مقعده الذي هو داخله.

وهذان البابان يصل منهما إلىٰ العبد في هذه الدار أثر خفي محجوب بالشواغل والغوشي الحسية والعوارض، ولكن يحس به كثير من الناس وإن لم يعرف سببه، ولا يحسن التعبير عنه، فوجود الشيء غير الإحساس به والتعبير عنه، فإذا مات كان وصول ذلك الأثر إليه من ذينك البابين أكمل، فإذا بعث كمل وصول ذلك الأثر إليه، فحكمة الرب تعالىٰ منتظمة لذلك أكمل انتظام في الدور الثلاث. اهـ.

***

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣، ٨١) والطبري في تهذيب الآثار (٢/ ٤٩٢) والطبراني في الأوسط (٣/ ١٠٥-١٠٧ رقم ٢٦٣٠) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٥٢): رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن.

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾.

(1) نزه نفسه عن هذا الحسبان المضاد لحكمته وعلمه وحمده، فقال: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٦].

وتأمل ما في هذين الاسمين، وهما الملك الحق من إبطال هذا الحسبان الذي ظنه أعداؤه، إذ هو مناف لكمال ملكه ولكونه الحق، إذ الملك الحق هو الذي يكون له الأمر والنهي، فيتصرف في خلقه بقوله وأمره، وهذا هو الفرق بين الملك والمالك، إذ المالك هو المتصرف بفعله، والملك هو المتصرف بفعله وأمره، والرب تعالى مالك الملك فهو المتصرف بفعله وأمره.

فمن ظن أنه خلق خلقه عبثا لم يأمرهم ولم ينههم فقد طعن في ملكه، ولم يقدره حق قدره، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ٩١].

فمن جحد شرع الله وأمره ونهيه، وجعل الخلق بمنزلة الأنعام المهملة فقد طعن في ملك الله، ولم يقدره حق قدره، وكذلك كونه تعالى إله الخلق يقتضي كمال ذاته وصفاته وأسمائه، ووقوع أفعاله على أكمل الوجوه وأتمها.

فكما أن ذاته الحق، فقوله الحق، ووعده الحق، وأمره الحق، وأفعاله كلها حق، وجزاؤه المستلزم لشرعه ودينه ولليوم الآخر حق.

فمن أنكر شيئًا من ذلك فما وصف الله بأنه الحق المطلق من كل وجه، وبكل اعتبار فكونه حقًّا يستلزم شرعه ودينه وثوابه وعقابه.

فكيف يظن بالملك الحق أن يخلق خلقه عبثا، وأن يتركهم سدى، لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يثيبهم ولا يعاقبهم، كما قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾

---

(١) ١٦٤ البدائع جـ٤.

[القيامة: ٣٦] قال الشافعي رحمه الله: مهملًا لا يؤمر ولا ينهى[١]. وقال غيره: لا يجزى بالخير والشر، ولا يثاب ولا يعاقب. والقولان متلازمان، فالشافعي ذكر سبب الجزاء والثواب والعقاب وهو الأمر والنهي، والآخر ذكر غاية الأمر والنهي وهو الثواب والعقاب.

ثم تأمل قوله تعالى بعد ذلك: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [القيامة: ٣٧، ٣٨] فمن لم يتركه وهو نطفة سدى بل قلب النطفة وصرفها حتى صارت أكمل مما هي، وهي العلقة ثم قلب العلقة، حتى صارت أكمل مما هي حتى خلقها، فسوى خلقها فدبرها بتصريفه وحكمته في أطوار كمالاتها، حتى انتهى كمالها بشرًا سويًا، فكيف يتركه سدى لا يسوقه إلى غاية كماله الذي خلق له. فإذا تأمل العاقل البصير أحوال النطفة من مبدئها إلى منتهاها دلته على المعاد والنبوات، كما تدله على إثبات الصانع وتوحيده وصفات كماله، فكما تدل أحوال النطفة من مبدئها إلى غايتها على كمال قدرة فاطر الإنسان وبارئه، فكذلك تدل على كمال حكمته وعلمه وملكه، وأنه الملك الحق المتعالي عن أن يخلقها عبثا ويتركها سدى بعد كمال خلقها.

وتأمل كيف لما زعم أعداؤه الكافرون أنه لم يأمرهم ولم ينههم على ألسنة رسله، وأنه لا يبعثهم للثواب والعقاب، كيف كان هذا الزعم منهم قولا بأن خلق السموات والأرض باطل، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

فلما ظن أعداؤه أنه لم يرسل إليهم رسولًا، ولم يجعل لهم أجلًا للقائه، كان ذلك ظنًا منهم أنه خلق خلقه باطلًا.

[٢]قوله: وأي حكمة في تكليف الثقلين وتعريضهم بذلك للعقوبة وأنواع المشاق،

---

(١) ذكره عنه ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٥٣).

(٢) ٢٦٦ شفاء العليل.

فاعلم أنه لولا التكليف لكان خلق الإنسان عبثًا وسدى، والله يتعالى عن ذلك، وقد نزه نفسه عنه، كما نزه نفسه عن العيوب والنقائص.

قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥] وقال: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦] قال الشافعي: لا يؤمر ولا ينهى، ومعلوم أن ترك الإنسان كالبهائم مهملًا معطلًا مضاد للحكمة، فإنه خلق لغاية كماله، وكماله أن يكون عارفًا بربه محبًا له قائمًا بعبوديته.

قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] وقال: ﴿ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق: ١٢] وقال: ﴿ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩٧].

فهذه المعرفة وهذه العبودية هما غاية الخلق والأمر، وهما أعظم كمال الإنسان، والله تعالى من عنايته به ورحمته له عرضه لهذا الكمال، وهيأ له أسبابه الظاهرة والباطنة ومكنه منها، ومدار التكليف على الإسلام والإيمان والإحسان، وهي ترجع إلى شكر المنعم كلها دقيقها وجليلها منه وتعظيمه وإجلاله ومعاملته بما يليق أن يعامل به، فتذكر آلاؤه، وتشكر فلا يكفر، ويطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، هذا مع تضمن التكليف لاتصاف العبد بكل خلق جميل، وإتيانه بكل فعل جميل وقول سديد، واجتنابه لكل خلق سيء، وترك كل فعل قبيح وقول زور.

فتكليفه متضمن لمكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال، وصدق القول والإحسان إلى الخليقة وتكميل نفسه بأنواع الكمالات وهجر أضداد ذلك، والتنزه عنها مع تعريضه بذلك التكليف للثواب الجزيل الدائم، ومجاورة ربه في دار البقاء، فأي الأمرين أليق بالحكمة هذا أو إرساله هملًا، كالخيل والبغال والحمير، يأكل ويشرب وينكح: كالبهائم أيقتضى كماله المقدس ذلك، فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب

العرش الكريم، وكيف يليق بذلك الكمال طي بساط الأمر والنهي والثواب والعقاب وترك إرسال الرسل وإنزال الكتب وشرع الشرائع وتقرير الأحكام، وهل عرف الله من جوز عليه خلاف ذلك، وهل ذلك إلا من سوء الظن به، قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٩١].

فحسن التكليف في العقول كحسن الإحسان والإنعام والتفضل والطول، بل هو من أبلغ أنواع الإحسان والإنعام، ولهذا سمى سبحانه ذلك نعمة ومنة وفضلًا ورحمة، وأخبر أن الفرح بـه خير من الفرح بالنعم المشتركة بين الأبرار والفجار، قـال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا ﴾ [إبراهيم: ٢٨] فنعمة الله هاهنا نعمته بمحمد ﷺ، وما بعثه به من الهدى ودين الحق، وقال: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الجمعة: ٢-٤]، وقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨] وقال: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] وقال: ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٣١] وقال: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحجرات: ٧، ٨]، وقال لرسوله: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٥٤].

وهل النعمة والفضل في الحقيقة إلا ذلك وتوابعه وثمرته في القلوب والأبدان في الدنيا الآخرة، وهل في العقول السليمة والفطر المستقيمة أحسن من ذلك وأليق بكمال الرب وأسمائه وصفاته.

هذا ما يسَّر الله جمعه من تفسير سورة المؤمنون

والحمد لله رب العالمين(١)



(١) تم بحمد الله وتوفيقه تحقيق هذا الجزء الرابع في يوم الجمعة الموافق ٢٧/ ٥/ ١٤٣٠هـ و٢٢/ ٥/ ٢٠٠٩م بمدينة الرياض سائلًا المولى عز وجل أن يتقبل عملي هذا بقبول حسن، وأن ينفع به عباده، ويجعله من العلم النافع والعمل الصالح، وألا يحرم مؤلفه وجامعه ومحققه وناشره وقارئه الأجر والمثوبة والفلاح والنجاح في الدارين إنه ولي ذلك والقادر عليه وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفهـــرس

الصفحة الـمـــوضـــوع

الصفحة الموضوع

سُورَةُ يُوسُفَ

الصفحة الموضوع

سُورَةُ الرَّعْدِ

الصفحة الموضوع

سُورَةُ الحِجْرِ

الصفحة الموضوع

الصفحة الموضوع

الصفحة الموضـــوع

الصفحة الموضوع

الصفحة الموضــــوع

الصفحة الموضـــوع

سُورَةُ الكَهْفِ

الصفحة الموضـــوع

سُورَةُ مَرْيَمَ

الصفحة الموضوع

الصفحة الموضـوع

الصفحة الموضوع

الصفحة المـــوضـــوع

سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ

الصفحة المـــوضـــوع

سُورَةُ المُؤْمِنُونَ

بهذا انتهى بفضل الله وكرمه المجلد الرابع

ويليه إن شاء الله المجلد الخامس

